

مكتبة الأسرة  
الأعمال الفكرية

٢٠٠٤



د. حسين مؤنس

# معالم تاريخ المغرب والأندلس



# معالم تاريخ المغرب والأندلس

تأليف  
د. حسين مؤنس

## تقديم للطبعة الجديدة

عندما كتبت هذا الكتاب كان هدفي الأساسي خدمة الطالب الجامعي العربي ، لأن تاريخ المغرب والأندلس مقرر على طلبة كليات الآداب في كل بلادنا العربية والإسلامية ، وعندما كتبتُه وفتت في تاريخ المغرب عند نهاية الدولة الموحدية ، ولكني كتبت تاريخ الأندلس كله موجزاً طبعاً ، وقمت بعد ذلك بكتابة تاريخ المغرب الإسلامي كاملاً كله في ثلاثة مجلدات ، نشرت في السعودية سنة ١٩٨٨ ، ولهذا لم بعد الأمر يستدعي أن أعمل تاريخ المغرب في هذه الطبعة ، لأن تاريخ المغرب الكبير يسد هذا الفراغ ، ثم إن الطائفة العربية لا يحتاج في دراسته إلى أكثر مما في هذا الكتاب ، وأنا أرى أنه كتاب طيب ومفيد ، وقد أفاد الكتاب كثيراً منذ نشره ، وكان ينبغي أن أعيد طبعه من زمن طويل ، فظلت أنتظر الناشر حتى جاء الأخ الكريم عصام رشاد وتفضل بالقيام بهذه الطبعة الجديدة ، وأنا أشكره على ذلك وأرجو له التوفيق .

وسلام على القرأء وأحسن التمنيات له .

## مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وبعد  
هذا الكتاب مقدمة في تاريخ المغرب والأندلس - والمغرب ، وهو يشمل الشمال  
الإفريقي كله غربي مصر - وتدخل فيه الصحراء الإفريقية الكبرى ، والأندلس  
وهو شبه جزيرة أيبيريا ، أي ما يعرف اليوم بإسبانيا والبرتغال ، وهما معاً يمثلان  
ربع عالم الإسلام

ولا زال المغرب الإسلامي قوياً مباركاً متقدماً إلى يومنا هذا ، عمره - بما في  
ذلك فترة الفتح - قرابة الأربعة عشر قرناً هجرياً ، وأما الأندلس فقد بدى في فتحه  
سنة ٩٢ للهجرة / ٧١١ ميلادية ، وكان خروجه من عالم الإسلام سنة ٨٩٧  
هـ / ١٤٩٢ م ، أي أنه عفر فرق الثمانية قرون هجرية .

ومن هنا كانت صعوبة دراستهما معاً في مادة واحدة من مواد الدراسة  
الجامعية لأن عدد الدروس المخصصة له على النظام العادي يبلغ ٤٤ درساً ،  
وعلى نظام المقررات ٣٦ درساً ، وخلال هذه الساعات المحدودات تصعب الإحاطة  
بتاريخ القطرين معاً ، خاصة وأن دراسة التاريخ اليوم تُعنى بالحضارة والتطور  
الاجتماعي والفكري والاقتصادي في المكان الأول .

فكما بذل المؤكّل بتدريس هذه المادة من جهد فما هو ببالغ شيئاً يذكر ،  
وغاية ما يتسكن من إعطائه هو التعريف بالبدائيات أو بتواريخ بعض الدول  
والرجال

وهذا هو الذي حداني إلى وضع هذا الكتاب .

فإنني رأيت أن كلا المعلم والمتعلم في حاجة إلى كتاب أساسي يكون بين يديه  
مغلياً تاريخ القطرين في إجمال رشيد ، يمر بهما لعالم الرئيسية والمراحل



المثبائية ، ولا يترك شيئاً مما هم دراسته في الناحيتين السياسية والحضارية دون دراسة متأنية .

وأما بالنسبة للأستاذ فهذا الكتاب بداية

وأما بالنسبة للمتعلم أو القارئ ، العادي فهو الغاية والنهاية .

ومن هنا ينطبق عليه المعنى الذي قصد إليه ابن رشد عندما سمي مختصره في الفقه المالكي « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » .

وهذه هي الفكرة وراء تسمية « كتاب الأساس » التي أطلقناها على هذا الكتاب ، وما قد يستجد بعده في مواد أخرى ، إذا قبل الناس الفكرة وشاءوا توسيع مداها .

ذلك أن الكتاب ، سواء كان عاماً أم جامعياً أم دراسياً ، يعتبر اليوم مشكلة من مشاكل الثقافة العريضة المعاصرة ، وقيماً يتصل بالكتاب العلمي أي الكتاب الذي يؤلف في مادة معينة نلاحظ اضطراباً واسع المدى فهناك كتب كثيرة جداً تخلو من المنهج والطريقة والمادة السليمة المستقصية ، وإنما هو كلام مرسى ومقسم إلى فصول متوالية ، دون تقريب بين مهم وغير مهم ، ودون عناية بذكر مراجع يرجع إليها المؤلف حقاً ، وفي معظم الحالات يخلو الكتاب من كشاف اعلام ونادراً ما يكون هذا الكشف دقيقاً .

وكتاب الأساس Test Book محاولة لإصلاح ذلك كله .

فهو كتاب يغطي مبادئه ، ويشرح فصولها شرحاً منطقياً مترابطاً معتمداً على الأصول وأوثق المراجع ، وهو يبدأ بمدخل وصفى في الأصول ، فيعرف بأهمها والرئيسي منها ، ويدل القارئ على تكوينها حتى يتنبه إلى مزاياها وعيوبها ويحسن الاستفادة منها .

ثم تلى ذلك الفصول مقدرة من ناحية الطول والمحوى تقديراً محكماً سليماً قائماً على معرفة تامة بالمادة في مجموعها

وإذا كان الكتاب كتاب تاريخ مثل حالتنا هذه ، كان الاتجاه الرئيسى موجهاً

إلى التعرف على مراحل التطور الحضاري ومقارن التجارب السياسية ، وكل معلومة في الكتاب مستخلصة من قراءات طويلة وصادرة عن فهم ومعاناة للمادة سنووات طوال ، ثم ينتهي الكتاب بثبت واف بالأصول والمراجع ، ثم كشف دقيق لأسماء الأعلام ومصطلحات الحضارة بالإضافة إلى فهرس مواد الكتاب .

وقد قسمنا كتابنا هذا قسمين ، جعلنا الأول منهما للمغرب ، وقد قدرنا أن نقف به عند نهاية الدولة الموحدية ، لأن ما وراء ذلك من تاريخ دول بني مرين ومن عاصرهم من الزناتيين والحفصيين ثم العصر التركي ، كل ذلك أدخل في التاريخ الحديث ، ثم إن عرضه على شرط الإيجاز الشامل لا يتيسر .

وأما الأندلس فهو تجربة تاريخية حضارية إسلامية كاملة لها بداية ونهاية والأندلس الإسلامي هو الوحيد من دول الإسلام الذي نملك له شهادة ميلاد وشهادة وفاة ، ولهذا فقد رأينا أن نستوفى تاريخه كله على سبيل الاختصار ، خاصة وأن القارئ العادي مشوق دائماً إلى معرفة ما جرى للأندلس وكيف ضاع ، ومن غريب المصادفات أن الأندلس أنشأ مجموعة من أجمل روائع الفن الإسلامي في فترة الضياع

وكان الذين كتب لهم الحظ السيء أن ينتهي أمر الأندلس على أيديهم وجدوا أن خير ما يكفرون به عن أخطائهم هو هذا الأثر الجميل - الحمراء - فبنوه وتركوه كأنه إهماء وقعه صانع ماهر في نهاية عمل فني عظيم صنعته يده .

وكما قدمنا للمغرب بمقدمة جغرافية تضع مسرح الحوادث أمام المطالع ليعرف كيف يتتبع الحوادث ، ثم مقدمة ببيولوجرافية مفصلة فكل ذلك فعلنا مع الأندلس ، فله مدخله الجغرافي ومقدمته البيولوجرافية .

والمراجع العامة آخر الكتاب تشمل المغرب والأندلس جميعاً ، لأن مراجعهما على الجملة واحدة .

وبعد ، فهذا هو كتاب الأساس في مادة المغرب والأندلس . إنه نقطة بداية ودليل لتوجيه التدريس بالنسبة لمن يتولى مهمة التدريس ، وهو القدر المعقول

فأمامه ثبت المراجع يفتح أمامه الباب ليمضي إلى حيث يريد من العلم بالمغرب  
والأندلس .

وهو بالنسبة للقارئ العادي مرجع يستطيع الاعتماد على مادته إذا اجتاحت  
الرغبة في الاطلاع إلى معرفة شيء عن المغرب والأندلس من مرجع يمكنه الاعتماد  
عليه

والطالب الجامعي مرجو أن يقرأ هذا الكتاب كله ، فإن الإحاطة بالموضوع في  
جملته تعين على إدراك تفاصيله .

ويسترشد الطالب بعد ذلك بما يوجهه إليه أستاذه من الفصول ، فهو شيخه  
ورائده ولا تستقيم الدراسة بغير شيخ أو أستاذ يتعبرنا الحديث .

وقد زودت الكتاب بثلاث خرائط : واحدة للمغرب ، والثانية للأندلس ،  
والثالثة لصقلية

وقبل أن أختتم هذه الكلمة أوجه الشكر الخالص إلى أخي الدكتور رؤوف  
سلامه موسى صاحب دار المستقبل للنشر لتبني فكرة كتاب الأساس وتفضله  
برعايته .

وأشكر الأخ الأستاذ مصطفى الشهابي على تشجيعه مشاق مراجعة الأصل  
وتصحيح تجارب الطبع وعمل كشاف الكتاب .

والله سبحانه أسأل التوفيق في البداية والنهاية ، إنه على كل فضل مستعان

**د . حسين هونس**

الأستاذ بكلية الآداب - جامعة القاهرة

صفر - ١٤٠٠ هـ / يناير ١٩٨٠

القسم  
الأول

## المغرب

من قبيل الفتح الإسلامي إلى نهاية عصر الموحدين

## مدخل ببلوغرافى أهم موارد تاريخ المغرب الإسلامى

### الموارد :

هى المادة التاريخية التى يعتمد عليها المؤرخ فى التعرف على تاريخ أى عصر أو إقليم أو شخص أو حادث تاريخى يريد الكتابة فيه وتنقسم هذه الموارد عادة إلى ثلاثة أقسام ، أصول ، ومصادر ، ومراجع .

١- فاما الأصول : فهى الموارد الأولية التى يعتمد عليها أساسا فى بحثه ويراد بها الكتابات والوثائق التى ترجع إلى عصر الموضوع أو إلى أقرب الأزمان إليه ، وهى إما مكتوبة مثل المذكرات وتراجم المعاصرين وكتابات أهل العصر ، والوثائق الرسمية والخطابات الشخصية والخرائط وصحافة العصر والنقوش على المباني ، سواء أكانت كتابات أو رسوماً أو أشكالا ذات مغزى تاريخى ، وكذلك قطع العملة وما عليها من كتابة ، أو غير مكتوبة مثل الكهوف والآثار والمباني والمنشآت والتماثيل والقبور وما إليها سواء كانت مكتوبة أم تحمل كتابات ونقوشاً أو صامئة ، قيمتها التاريخية فى عمارتها وأشكالها وصنعتها والمادة الخامة التى صنعت منها ، ويتصل بذلك الكهوف ما يعثر عليه فيها من مخلفات وما يوجد على جدرانها من نقوش

٢- وأما المصادر : فهى الكتابات التى اعتمدت على الأصول وكتبت فى العصور الماضية ، كالمؤلفات التاريخية القديمة وكتب الدوليات وكتب التراجم وكتب المختارات التاريخية والأدبية ، وكتب الجغرافية القديمة والحسبة والكتب المؤلفة عن العملة وأدلتها والمسكوكات ذات القيمة التاريخية التى تسمى - Medals - Daïles وأدلتها وأدلة المتاحف وما جرى مجرى ذلك كله

٢- وأما المراجع : فيراد بها المؤلفات الحديثة ، أى التى ألغت في العصر الحديث عن الأحداث الماضية من أبحاث ودراسات منشورة وغير منشورة ورسائل ويكتب جامعية وتراجم ومقالات وأبحاث نشرت في مجلات علمية ، سواء أكانت بالعربية أو بآية لغة أخرى ، وتدخل في هذه الإحصائيات والمطبوعات الحكومية الرسمية ومنشورات الهيئات العامة والأعمال الأدبية التى تتناول العصر موضوع البحث أو تشير إليه سواء أكانت منشورة أم مخطوطة . ونقتصر في هذه المقدمة على موارد تاريخ المغرب أى الشمال الإفريقى فيما عدا مصر ، أما موارد تاريخ الأندلس فسنخصص لها مدخلا خاصا بها .

والموارد التى بين أيدينا كثيرة عن المغرب الإسلامى ، أى بلاد بركة وطرابلس وأفريقية والمغربين الأوسط والأقصى والأندلس وصقلية والحوضين الأوسط والغربي للبحر المتوسط وما فيهما من جزر ، وكذلك أفريقية المدايرية والاستوائية الإسلامية ابتداء من القرن الرابع الهجرى ( العاشر الميلادى ) ، وبعضها مؤلفات متأخرة كتبت فيما بين القرنين السابع والتاسع الهجريين ( الثالث عشر والخامس عشر الميلاديين أو بعدهما ) ، ولكنها حفظت لنا قطعاً كبيرة من مؤلفات قديمة لم نعثر عليها بعد ، وهنا تكمن أهمية تلك الكتب التى كتبت في العصور المتأخرة ، ثم إن مؤلفيها من أمثال المقرئ وابن عذارى وابن الخطيب وابن خلدون من أهل الثقة والتحقيق والأمانة ، ومن هنا فإن تأخر زمان هذه الكتب لا يمنع من القول أن الكثير منها موضع ثقة كبيرة ، أى أننا نستطيع أن نطمئن إلى أن مؤلفيها اعتمدوا على أصول وروايات قديمة كما قلنا ، كما أنها تضم الكثير من أصول التاريخ المغربى والأندلسى التى تعتبر إلى الآن من حكم المفقودة . ولكن أولئك الجامعين المتأخرين زمناً احتفظوا لنا بأجزاء كبيرة منها ، بل إن بعض هذه الكتب المتأخرة احتفظت لنا بنصوص كاملة لكتب أساسية لم نعثر على أصولها ، وجدير بالذكر أن جانباً كبيراً من أصول التاريخ المغربى والأندلسى لا زال مخطوطاً ينتظر التحقيق والنشر العلميين .

### الأصول :

وترجع أصول تاريخ المغرب النى بين أيدينا إلى أربع روايات :

(أ) رواية أندلسية : ترجع إلى أحمد بن محمد الرازي عميد مؤرخي الأندلس المتوفى ( ٣٤٤ هـ / ٩٥٥ م ) وأكملها من بعده ابنه عيسى بن أحمد الرازي ( ٣٧٩ هـ / ٩٨٩ م ) ، وتضمن الكتب التي بين أيدينا فقرات طويلة أو قصيرة من تاريخ الرازي الذي فقد الجانب الأكبر منه ولم نعر إلا على قطعة واحدة طويلة من هذا التاريخ مترجمة إلى اللغة البرتغالية نشرها العالم البرتغالي لويش ليمبدي ثنتر Luis Lindley Cintra ضمن تاريخ إسبانيا العام الذي كتب سنة ١٢٤٤ م باللغة البرتغالية ، وترجمها إلى الإسبانية رجل برتغالي بالاشتراك مع مترجم أندلسي برتغالي يسمى الأستاذ أو المعلم محمد Maese Mohammed وقد نشر تلك الترجمة الإسبانية الركيكة بسكوال دي جاينجوس Pascual de Gayangos بعد أن بذل جهداً شاقاً في تصحيحها ، ولكنها بقيت بعد ذلك قلقة الأسلوب عسيرة على الفهم بسبب تعذر حل رموزها ، ولكنها أصبحت اليوم مفهومة بعد أن نشر أصلها البرتغالي نشرأ صحيحاً كما قلنا ، وقد ترجمها إلى الفرنسية من البرتغالية ليلى بروقتسال ونشرها مع تعليقات ضافية في « مجلة الأندلس » ، وهذه القطعة تتناول المقدمة الجغرافية التي كتبها الرازي في وصف الأندلس ، وهي مقدمة جيدة حافلة بالمادة العلمية ، وهي بالإضافة إلى ما تضمنه من معلومات عن الأندلس تعطينا فكرة واضحة عن التقسيم الإداري الأندلسي .

ونجد قطعاً من تاريخ الرازي في كتاب « المقتبس في تاريخ الأندلس » لأبي مروان حيان بن خلف أعظم مؤرخي الأندلس بعد الرازي وابنه . وقد توفى سنة ( ٤٦٩ هـ / ١٠٧٦ م ) ونجد قطعاً أخرى فيما رواه النويري في الجزء الثاني والعشرين من مخطوطة كتاب « نهاية الأرب » المحفوظة في دار الكتب المصرية ، وابن الأثير في كتابيه « الكامل في التاريخ » و « أسد القابة » وذلك فيما رواه من أخبار فتح المغرب والأندلس ورجال ذلك الفتح من الصحابة ، ونجد بعض تفاصيل الرواية الأندلسية كذلك فيما رواه أبي عمرو يوسف بن عبد البر النمرى في ترجمة عمرو بن العاص وعقبة بن نافع في كتاب « الاستيعاب في معرفة الأصحاب » ونجد كذلك قطعاً كبيرة من تاريخ أحمد بن محمد الرازي وابنه عيسى بن أحمد في كتاب « نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب » لأبي العباس

أحمد المقرئ وهو مؤلف مغربي أصله من تلمسان ثم هاجر إلى الشرق ، وهناك أخذ يتحدث ويؤلف عن الأندلس ، وهو مؤلف جماع صنف كتابه هذا على أساس الجمع والافتباس من المؤلفات السابقة ، ومن فضائله أنه ينسب مروياته إلى أصحابها في معظم الأحيان مما يدعو إلى الثقة فيما يورد ، ثم ألف بعد ذلك كتاباً شبيهاً بنفح الطيب هو كتاب « أزهار الرياض في أخبار عياض » عن نفس الطريقة والأسلوب ، والكتابان يضمنان كثيراً من المادة القيمة في تاريخ المغرب .

( ب ) رواية مغربية : ترجع إلى محمد بن يوسف الوراق ، وهو قرواني النشأة هاجر إلى قرطبة واستقر فيها وخدم الخليفة الحكم المستنصر وألف له كتاباً في تاريخ الأندلس وتوفي سنة ( ٣٦٣ هـ / ٩٧٣ م ) ، ولم نعثر بعد على هذا الكتاب ، ولكننا نجد قطعاً عنه عند أبي عبيد البكري فيما كتب في جغرافية إفريقية والأندلس ، وعند ابن عذاري المراكشي صاحب كتاب « البيان المغرب » وعند ابن الخطيب في كتابه « أعلام الأعلام » وعند ابن خلدون في تاريخه ، وفي بعض المراجع الأخرى . وترجع هذه الرواية المغربية كذلك إلى إبراهيم الرقيق المتوفى بعد سنة ( ٤١٧ هـ / ١٠٢٦ م ) وهو أديب وشاعر قرواني ظهر في أيام الفاطميين وبني زيري بن مناد الصنهاجيين الذين خلفوهم . وكان إلى جانب شاعريته ومعرفته الواسعة بالأدب مؤرخاً صدوقاً يوفق فيما يكتب . وقد عثرنا على قطعة من تاريخه تتناول جزءاً من تاريخ فتح المغرب والأندلس وتعد إلى أوائل العصر الأغلب قام بتحقيقها الأستاذ المنجي الكعبي ونشرها في تونس سنة ١٩٦٨ م . ويشك الدكتور محمد الطالبي الأستاذ بكلية الآداب بجامعة تونس في أصالة هذه القطعة ، ولكننا رغم ذلك نستطيع الاستفادة من مادتها الأصلية

ونجد قطعاً من تاريخ الرقيق القرواني عند ابن عذاري وابن الأثير والنويري وابن خلدون .

وهناك رواية مغربية ثالثة سنتحدث عنها في كلامنا على كتاب « البيان المغرب » لابن عذاري المراكشي .

( ج ) رواية مصرية : أثبتها عبد الرحمن بن عبد الحكم المتوفى سنة ( ٢٥٧ هـ / ٨٧٠ - ٨٧٦ م ) في كتابه المسمى « فتوح مصر والمغرب والأندلس » الذي



يعتبر من أوثق ما لدينا من الأصول عن تاريخ المغرب والأندلس من الفتح إلى نهاية عصر الولاة. وكانت مصر هي المركز الذي صدر منه الفاتحون إلى المغرب والأندلس، وإليها عاد من عاد منهم ليحدثوا بأخبار ما رأوه. فأصبحت مصر لهذا مصدراً رئيسياً لأخبار الجناح الغربي لمملكة الإسلام، وكسان ابن عبد الحكم محدثاً فقيهاً وعالمًا واسع الإطلاع صدوقاً فيما يقول. وقد عني بتدوين ما اتصل به من أخبار فتح مصر والمغرب والأندلس وتاريخها إلى نهاية عصر الولاة. وقد اعتد ابن عبد الحكم على رواية سوثوق فيهم، واجتهد في تحقيق ما وصل إليه من الأخبار على طريقة أهل الحديث. ولا غربة في ذلك فقد كان هو محدثاً كبيراً وإلى حين قريب كانت روايته هي الرواية الوحيدة الكاملة لأخبار فتوح مصر وأفريقية والمغرب والأندلس.

( د ) **الرواية الرابعة :** وتسمى بالرواية المشرقية وإن كانت في أصلها مصرية مغربية، وقد وجدناها في قسم من كتاب « الإمامة والسياسة » المسسوب إلى ابن قتيبة الدينوري. وقد اجتمع رأي نفاذ التاريخ من زمن طويل على أنها ليست جزءاً من صلب الكتاب وإنما هي تفاصيل عن فتح المغرب والأندلس وأعمال موسى بن نصير خاصة، بعضها أسطوري الطابع أضيفت إلى الكتاب وقد أثبت راينهاردت دوزي Reinhardt Peter-Ann Dozy وبسكوال دي جايجانجوس Pascual De Gayangos ولافرنتي الكانتارا Lafunte Alcantara أنها قصص شعبية أدرجها بعض المدونين في كتاباتهم على أنها تاريخ، ثم جاء د. محمود علي حكى فأثبت أن هذا التدوين يرجع إلى رجل من أحفاد موسى بن نصير يسمى مفاركا النصرى، استقر في مصر، واندرج في زمرة أهل العلم فيها، وقال إنه يغلب أن معارفاً كتب كتاباً عن جده وأعماله في أفريقية، ثم أضيفت فصول من هذا الكتاب إلى « كتاب الإمامة والسياسة » فحسبت قطعة منه.

ويدخل في جملة ما نسميه الرواية المشرقية نص أورده محمد بن عبد الوهاب العسائي، الذي أرسله سلطان المغرب إلى ملك إسبانيا سنة ١٥٣٦ م ليفتدى أسرى المغرب في إسبانيا في وصف رحلته المسماة « رحلة الوزير » افتكان الأسير. وقد جرى هذا السفر في وصف رحلته على طريقة لجأ إليها الكثيرون من

الرحالة ، وهي تضمين الوصف لمحات من التاريخ تناسب السياق ، فأورد نَصاً كاملاً عن افتتاح الأندلس اقتبسه عن مؤلف لم يذكر اسمه ، ولكن أسلوبه قريب الشبه عن أسلوب القطعة السراردة في كتاب « الإمامة والسياسة » وقد نشرها جيانجوس مترجمة إلى الإنجليزية في كتابه المسمى History of the Mohammedan Dynasties in Spain

وهذا الكتاب ترجمة إنجليزية للجزء من الأولين من كتاب « نفع الطبيب » لأبي العباس أحمد المقرئ . وقد أضاف جيانجوس إلى الترجمة تعليقات إضافية ذات قيمة علمية ، ومنها ترجمة للرواية التي أوردها محمد بن عبد الوهاب الغساني في كتابه ثم عني بها خوليان ريبيرا Julian Ribera وترجمها إلى الإسبانية وجعل الأصل والترجمة ذيلاً على كتاب « افتتاح الأندلس » لأبي بكر محمد بن عمر بن القوطية الذي سنتحدث عنه عند كلامنا عن بيبولوجرافية الأندلس . وفي سنة ١٩٤٠ م نشر ألفريد اليستاني في مدينة الغرايش في المغرب النص الكامل « لرحلة الوزير لافتنك الأسير » لمحمد بن عبد الوهاب الغساني ، وفيه ترد القطعة التي نحن بصددھا الآن .

ويدخل ضمن هذه الرواية الرابعة ما كتبه عبد الملك بن حبيب السلمي المتوفى سنة ( ٢٢٨ هـ / ٨٥٢ م ) في كتاب له مشهور عن تاريخ الأندلس ، وعبد الملك بن حبيب كان عالماً من أعظم ما أنجبت الأندلس من شيوخ الفقه المالكي ، وكان له إلى جانب ذلك ميل إلى التاريخ فاحتقب أثناء دراسته في مصر اختياراً كثيرة قصصية الطابع دونها فيما بعد وتداولها الناس على أنها كتاب في أخبار الأندلس . وقد عثرنا على قطع من هذا الكتاب أوردھا أبو العباس أحمد المقرئ في كتاب « نفع الطبيب » ، ووردت أطراف أخرى منه في مصادر كثيرة ، وقد بقيت لنا من هذا التاريخ قطعة نشرھا الدكتور محمود علي حكى في مقالہ الأنف الذكر عن « مصر وتاريخ التاريخ في المغرب والأندلس » الذي نشره في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، المجلد الخامس سنة ١٩٥٧ م

كتاب « البيان المغرب في تاريخ ملوك إفريقية والمغرب » وأصوله :  
قبل الحرب العالمية الأولى ظهر مخطوط جديد لكتاب « البيان المغرب » ، لابن

عذارى المراكشي ، وهذا المؤرخ لا زال مجهولاً لنا رغم عظيم ديننا له واشتهار كتابه هذا وقيمته العظيمة ، فكل ما نعرفه عنه هو اسمه على هذه الصورة المنقوشة ، ابن عذارى المراكشي ولا صحة لما يذكره البعض من أن اسمه أبو العباس أحمد ، فإننا لم نجد إلى الآن ما يؤيد ذلك . وقد عاش في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي .

وقد ألف هذا الرجل تاريخاً عاماً للمغرب والأندلس منذ الفتح إلى آخر أيام الموحدين . عثرنا على نصه كله تقريباً ، ونشر الكتاب بتحقيق عدد من جلة العلماء هم : راينهاردت دوزي ، جورج كولان ، امبروزيو أويشي ومحمد بن تاوويت الطواني ، وكان أول من نبه على أهمية كتاب ابن عذارى هو المستشرق الهولندي راينهاردت بيتر آن دوزي ، فنشر في منتصف القرن الماضي الجزء الأول ويتناول تاريخ المغرب إلى نهاية الفاطميين في المغرب ، والجزء الثاني ويتناول تاريخ الأندلس إلى نهاية أيام المنصور محمد بن أبي بامر .

وقد وضع دوزي بهذا العمل أساساً مكيناً لتاريخ المغرب الإسلامي . ومن ذلك الحين أصبح من أهم ما نعتمد عليه في التاريخ للمغرب والأندلس ، وقد كان أهم ما نعتمد عليه دوزي في كتاب « تاريخ مسلمي إسبانيا » الذي سنذكره فيما بعد ، وكتاب دوزي هو أول تاريخ علمي يكتب للأندلس في العصور الحديثة

والميزة الرئيسية لـ « البيان المغرب » أن صاحبه ألفه من قطع جمعها من الأصول التي ذكرناها ، وربط بينها ربطاً زمنياً وأوردها كما هي دون تعليق كثير ، ولكنه قام بعمله في صدق وأمانة ولهذا فنحن ندرج كتابه بين الأصول

وقد أعاد نشر أربعة أجزاء من تاريخ ابن عذارى الدكتور إحسان عباس في بيروت ، وهذه الأجزاء هي الأول والثاني والثالث وقطعة عن تاريخ المرابطين سماها بالجزء الرابع ، ولكنه لم يعد لجمع الجزء الكبير الخاص بتاريخ الموحدين ، ولا لذا نعتمد في ذلك على تحقيق امبروزيو أويشي ومحمد بن تاوويت الطواني .

وعندما ظهر هذان الجزآن في تلك الصورة الكاملة تبين أن ابن عذارى اعتمد على رواية مغربية أصيلة أخرى تختلف عن الرواية الأولى التي سبق أن ذكرناها ،

وتنسب هذه الرواية إلى رجل من معاصري ابن عذارى آى من أهل القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى يذكره ابن عذارى باسم الشيخ الصالح ، ثم نشر ليفي بروفسنال سنة ١٩٥٢ ، نصاً عظيم القيمة عن فتح العرب لافريقية وجده ضمن الأوراق التى تؤلف مجموعاً من نصوص شتى متعلقة بتاريخ المغرب كان يملكها هذا المستشرق . ومن تلك النصوص الصفحات العظيمة القيمة التى نشرها نفس المستشرق باسم : مفاخر البربر ، فى الرباط سنة ١٩٣٤ وهى قطعة حافلة بالمؤائد عن تاريخ البربر المستعربة من أهل المغرب وما لهم من أمجاد ومفاخر ، ومن ظهر منهم من عظماء رجال أمة العروبة والإسلام .

وقد كشفت لنا هذه الرواية الجديدة عن فتح العرب للمغرب عن حقيقة الشيخ الصالح الذى ذكرته رواية ابن عذارى الذى ذكرناه ، فاسمه الكامل أبو علي صالح بن أبي صالح بن عبد الحليم نزيل نفيس من قبيلة إيلانه أو هيلانه ، من أعظم قبائل المصامدة الذين أقاموا دولة الموحدين .

وقد تبين من دراسة ذلك النص الخاص بفتح العرب للمغرب أن مؤلفه أبا علي صالح بن أبي صالح بن عبد الحليم يورد رواية مغربية أصيلة مأخوذة عن ماثورات شعبية كان أهل جبال الأطلس يتداولونها من قديم الزمان عن الفتح العربى ورجاله وحلاسة عقبة بن نافع ، وهو أبعد الفاتحين العرب صيتاً وأعظمهم أثراً فى نفوس جماهير أهل المغرب . وقد درسنا هذه الرواية دراسة شاملة فتبيننا أنها من أكمل وأصح ما لدينا عن فتح المغرب ، وأنها تقدم لنا معلومات فى غاية الدقة والأصالة والأهمية ، ولا تستطرد مع الأساطير وأحاديث الخرافة . كما نجد فى رواية عبد الملك بن حبيب مثلاً ، وهى تقدم لنا قصة الفتح منذ البداية إلى نهاية ولاية موسى بن نصير .

وقد حفزنا هذا على أن نعيد قراءة نص ابن عذارى ، وخاصة ما رواه عن الشيخ الصالح أبى علي صالح بن أبي صالح بن عبد الحليم بعناية أكثر ، فتبيننا بالفعل أننا أمام رواية مغربية أصيلة تمتاز بالبساطة والصدق والأصالة والشمول ، فهى قصص قصة الفتح الكاملة وترويهها بروح إسلامى خالص وبالإضافة إلى ذلك فهى واقعية متوازنة وهى تربط الحوادث بعضها ببعض ربطاً

معضولاً متسلسلاً وتجتهد بين الحين والحين في ربط حوادث المغرب بما كان يجري في مركز الدولة في دمشق ، أي أن صاحبها كان عالماً مطلعاً عرف كيف يضع القصة الشعبية في إطار علمي سليم دون أن يفقدها قيمتها . وقد تأكدت لنا أصالة هذه القطعة عندما وجدنا أنها أخذت عن الأصل الذي اعتمدته أبو عمر يوسف بن عبد البر النمرى فيما كتبه عن عقبة بن نافع في كتابه « الاستيعاب في معرفة الأصحاب » .

ولا يعيب هذه القطعة إلا أنها تقف عند نهاية الفتح ، ولكن ربما كانت بقيتها قد اندرجت في نص كتاب « روض القرطاس في تاريخ المغرب وملوك قاس » المنسوب إلى ابن أبي ذرع ، الذي يقال أيضاً إن مؤلفه يسمى ابن عبد الحليم وهذا يسمح لنا بالقول بأن كتاب « روض القرطاس » هو اختصار لتاريخ طويل للمغرب كتبه الشيخ الصالح أبو علي صالح بن أبي صالح بن عبد الحليم نزيل تقيس الذي ذكرناه .

هذا عن أصول تاريخ المغرب أي الروايات الأولى التي اعتمد عليها أولئك الذين كتبوا في تاريخ المغرب من القدماء مؤلفات نعتبرها مصادر حديرة بالثقة في ذلك التاريخ .

أما المراجع ما بين عربية وغير عربية فقد أوردنا ثباتاً بأهمها في نهاية هذا الكتاب ، لأن موارد تاريخ المغرب والأندلس واحدة تقريباً .



## الغرب الإسلامي والمغرب الإسلامي

يشتمل الغرب الإسلامي على البلاد التي دخلها الإسلام وبقي فيها أو لم يبق في الجناح الغربي لعالم الإسلام ، وهذه البلاد تنقسم إلى خمس مناطق رئيسية ١ - المغرب : ويشتمل على بلاد الشمال الأفريقي المختلفة الممتدة من حدود مصر الغربية إلى المحيط الأطلسي .

٢ - الحوضان الأوسط والغربي للبحر المتوسط : ويدخل في ذلك كل جزائر البحر المتوسط الواقعة في مدين الحوضين مثل صقلية وقوصة وقرسنة والأراضي الأروبية القريبة منها مثل : جنوب إيطاليا وما قرب منها من الجزائر مثل : مائلة وسردينيا .

٣ - الأندلس : ويراد به الأراضي التي سيطر عليها المسلمون من شبه الجزيرة الأيبيرية وتتبعها الجزائر الشرقية المعروفة بالبليار

٤ - الصحراء الأفريقية : التي تقع جنوبي المغرب والتي تعد أحياناً جزءاً من المغرب ولكنها في الحقيقة الأخيرة قسمت سياسياً إلى جمهوريات مختلفة وظهرت بها بلاد إسلامية لها شأنها مثل تشاد والنيجر وفولتا وما إليها وكلها تدخل ضمن ما نسميه بالغرب الإسلامي

٥ - غرب أفريقية الإسلامي : ويخل في نطاق الغرب الإسلامي البلاد الإسلامية في أفريقية الغربية المدارية والاستوائية ، وتسمى أيضاً بلاد السودان الغربي وهي بلاد لها تاريخ سياسي وحضاري طويل في ظلال الإسلام .

كل هذه النواحي كان ينبغي أن تدرس إذا أردنا أن نتعرف على تاريخ الجناح الغربي للعالم الإسلامي ، ولكننا نقتصر في حدود ما يسمح به حين هذا الكتاب على المغرب والأندلس وجزيرة صقلية مع إشارات يسيرة بين الحين والحين إلى تاريخ المسلمين في البحر المتوسط .

ولا بد على هذا من التفريق بين مصطلحي الغرب الإسلامي والمغرب الإسلامي وقد كان القدماء يطلقون لفظ المغرب على ذلك كله ، ولكننا الآن نقصر اسم المغرب على بلاد المغرب المعروفة ، ونطلق اسم الغرب الإسلامي على ما ذكرنا ، وهو مصطلح جديد ابتكره أهل الغرب من الفرنسيين خاصة فقالوا :  
L'Occident Musulman .

## بلاد المغرب

يطلق مصطلح المغرب كما قلنا على كل البلاد الإسلامية الممتدة من حدود مصر الغربية حتى سواحل المحيط الأطلسي . ويختلف المؤرخون العرب في وضع مصر بين شرق العالم الإسلامي وغربه ، فبعضهم يضعها في بلاد الشرق ، وهناك عدد قليل منهم يعتبر مصر من بلاد المغرب ، وهناك خلاف حول حدود مصر الغربية ففي عصور التاريخ الإسلامي خلال العصور الوسطى كان إقليم برقة ، وهو المعروف اليوم باسم بنغازي داخلاً في حدود مصر ، وكذلك كان الحال في العصور القديمة وخاصة في العصر البيزنطي الذي سبق انصرم الإسلامي ، وفي أحيان كثيرة نجد أن إقليم برقة يفتلى ذكره أحقاباً متطاوله بعد الفتح الإسلامي لأن أحداً لم يؤرخ له في حين أن تاريخ إقليم طرابلس معروف في جملته لأنه دخل ضمن إقليم أفريقية الذي سنتحدث عنه .

ولكن بلاد المغرب كلها تعتبر من ناحية الطبيعة الجغرافية والمناخ إقليماً واحداً له خصائص ومميزات واحدة تجعل من العسير تقسيمه إلى وحدات سياسية متميز بعضها عن بعض ، وقبل الفتح الإسلامي أي في عصور الإغريق والرومان والبيزنطيين كان المغرب بالمفهوم الذي ذكرناه يعتبر وحدة سياسية واحدة ، وينقسم إلى ولايات . وقبل الفتح الإسلامي بقليل ، أي في أواخر العصر البيزنطي . كان المغرب مقتصرأ في الواقع على ما يعرف اليوم بتونس . وكان يسمى في التقسيم الإداري للدولة البيزنطية باسم ولاية أفريقية Provincia Africa أما ما يلي تونس غرباً فلم يكن فيه أثر واضح للسلطة السياسية البيزنطية ، وإن كان

بعض المؤرخين الغربيين يحاولون أن يثبتوا أن الشريط الساحلي على الأقل من بلاد المغرب كان تابعاً ولو بالاسم للدولة البيزنطية . وهذا الشريط الساحلي يمتد من الحدود الغربية لإقليم تونس الحال إلى المحيط الأطلسي ، وهو يتسع أحياناً ويضيق أحياناً أخرى ، ولكنه في كل حالة ينحصر بين البحر المتوسط والصحراء الأفريقية الكبرى أو بحر الرمال الأعظم كما يسمى أحياناً . وهو الذي يفصل بين بلاد المغرب والبلاد الأفريقية المدارية .

وبلاد المغرب إقليم مستعرض يسير من الشرق إلى الغرب دون أن يكون له عمق عمراني كبير ، وهي تتميز بظاهرة جغرافية واضحة جداً ، هي جبال الأطلس ، وهي سلسلة جبال تعتد من جنوبي المملكة المغربية الحالية وتسير بمحاذاة الساحل ( ساحل الأطلسي ) شمالاً يشرق ، وإن كانت بعيدة عنه حتى قرب ساحل البحر المتوسط جنوبي مضايق الريف ثم تتجه شرقاً لتتلاشى غرب تونس . هذه الجبال تنقسم المغرب إلى منطقتين مستعرضتين واضحتين ، تختلف كل منهما عن الأخرى كل الاختلاف . وهذه الجبال تنقسم في المغرب الأقصى ويزيد عربتها في جنوبه وتنقسم إلى سلسلتين من جبال الأطلس ، الأولى غربية وتسمى الأطلس العليا والأخرى شرقية وتسمى أطلس الصحراء ، وتحصران بينهما سهل السوس الخصيب كما قلنا . وهذه الجبال تضم هضاباً عالية ، وهي كلها جبال وهضاب وإفرة المياه ولهذا فهي خضراء ومسكونة ، ويسمى ابن خلدون جبال درن وهي تعتبر مركز الحياة ومصدر العنصر البشري القوي الذي كان طول العصور الوسطى مورد القوة البشرية الحقيقية في تاريخ المغرب الأقصى .

أما في الشمال فإن جبال الأطلس تسير محاذية لساحل البحر المتوسط وبينها وبين الشاطئ شريط ساحلي سهل يضيق أحياناً ويتسع أحياناً أخرى وتتبعه السفوح الشمالية لجبال الأطلس . ويعتبران معاً منطقة واحدة .

ومناخ هذه المنطقة الشمالية مناخ البحر المتوسط ، وهي تسمى بشريطها - السهل الساحلي والسفوح الشمالية لجبال الأطلس - بمنطقة التلول ، ويسمى ابن خلدون بمناخها بمزاج التلول ، أي مناخ البحر المتوسط ، أما المنطقة الثانية



الجنوبية التي تضم السفوح الجنوبية لجبال الأطلس ونطاق الجريد ثم نطاق العروق ، أي الرمال السائلة فيسميها ابن خلدون ببلاد الصحراء ويسمى مناخها بمزاج الصحراء ، وهي منطقة أقل ثروة وسكاناً من المنطقة الشمالية .

وبلاد المغرب في مجموعها بلاد غنية إلى حد ما ، فيها موارد وافرة للثروة والحياة ، ولكنها تحتاج إلى أمن واستقرار طويلين لتؤتي ثمارها ، لأن أهل المغرب أنفسهم أهل عمل وذاب وذكاء ، ولهذا فمن الممكن استغلالها استغلالاً جيداً ، ومواردها تمكن من قيام دول كبرى وحضارات زاهرة فيها . وسنلاحظ أنه في العصور التي مهدت فيها الأحوال قامت في المغرب دول عظيمة وقوية لها تاريخ مجيد ودور كبير في تاريخ العالم الإسلامي جملة .

وفي العصور الإسلامية تعود المؤرخون أن يقسموا المغرب إلى الأقاليم التالية التي سنذكرها من الشرق إلى الغرب .

إقليم برقة ثم إقليم طرابلس ومن هذين الإقليمين مضافاً إليهما إقليم فزان . تتكون الجمهورية الليبية حالياً .

وقد كان هذان الإقليمان منفصل أحدهما عن الآخر سياسياً خلال العصور الإسلامية ، فكانت برقة إما تابعة لمصر أو غير واضحة التبعية السياسية . أما طرابلس فكانت تدخل في نطاق ما كان يعرف باسم بلاد أفريقية . وليس في ذلك ما يمس وحدة القطر الليبي وأصالته التاريخية ، فإذن الكثير من أوطان العرب الراهنة تتألف من أجزاء كان لكل منها تاريخ أو اتجاه مستقل في الماضي ، أي قيل تحقيق وحدة ذلك الوطن في العصر الحديث .

وتلي ذلك غرباً بلاد أفريقية ، وكانت في العصور الوسطى تشمل إقليم طرابلس من تاورغا قرب صرت على ساحل البحر المتوسط إلى صيرة ثم إقليم أفريقية وهو يقابل تونس الحالية ثم تمتد أفريقية فتشمل الجزء الشرقي من الجمهورية الجزائرية حالياً حتى نهر صغير يسمى شلف وهو يجري هناك من الجنوب إلى الشمال حتى جنوبى مدينة الجزائر ، ثم يسير غرباً بحذاء الساحل ويصب في البحر المتوسط قرب وهران ، وهذا الجزء الشرقي من بلاد الجزائر الحالية كان يسمى إقليم الزاب وكان يعتبر جزءاً من ولاية أفريقية .

بعد ذلك هناك المغرب الأوسط ويمتد من مجرى نهر شلف حتى مجرى نهر بجري حالياً في شرق المملكة المغربية من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي ، يسمى نهر مولوية . والمغرب الأوسط يشمل اليوم معظم الجمهورية الجزائرية وهو إقليم هضاب وجبال وسهول ساحلية والأراضي الزراعية فيه كثيرة لأن الكثير من جباله وهضابه خضراء أو منقوشة كما يقول العرب ثم إنه قطر معتدل المناخ لا ارتفاعه ، كثير الغابات والمراعي ، وإلى هذا يرجع ما يتصف به أهله من صحة وعافية واحتمال للمصاعب وحب للحربة .

وينقسم هذا المغرب الأوسط تاريخياً إلى قسمين شرقي ويسمى إقليم تاهرت ويتميز بالجبال والغابات ، وغربي يسمى إقليم تلمسان ويتميز بالمراعي والسهول ، ويشتهر المغرب الأوسط بمناطقه العمرانية ذات الشخصية التاريخية المتميزة مثل إقليم القبائل شرقي مدينة الجزائر الحالية وسهل المتيجة جنوبي مدينة الجزائر وإقليم السيق السهل الساحلي جبوبي وهران وإقليم السابور والبيبان والجرجرة والونشريس وكلها أقاليم جبلية وعرة ، وإقليم الحضنة وهو إقليم جريد أي غابات نخيل متوسطة شط الجريد وإقليم الهقار أو الهجار في الجنوب وهو إقليم صحراوي .

أما إقليم تلمسان فيتميز بجباله وسهوله ومراعيه الواسعة ، وقد كانت تلمسان دائماً مركزاً حضارياً وقاعدة علمية ، وقد قامت تلمسان العربية على أصل حصن روماني قديم يسمى بوماريا .

ويلي ذلك غرباً المغرب الأقصى الذي يعرف اليوم بالمملكة المغربية ، ويشمل جبال الأطلس المتهيلة التي تحدثنا عنها ، ويضم كذلك سلسلة من السهول الساحلية بين الجبال وساحل المحيط الأطلسي ، وقد ذكرناها وتشق هذه السهول أنهار أو وديان تنحدر من جبال الأطلس غرباً إلى المحيط وهي من الشمال إلى الجنوب وادي لوكنس ويصب عند مدينة العرائش وادي سبو بفروعه الكثيرة وقواعده الشهيرة مثل فاس ومكناس ثم وادي أبو الرقرقي أو بورجرج وهو نهر مزروع يصب في البحر بمصب واحد ، وعلى ضفته الشرقية عند المنصب مدينة سلا وعلى ضفته الغربية مدينة رباط الفتح ، وهما مدينتان توأم ، ثم وادي

أم الربيع ، وقرب مصبه تقع مدينة آزموور ثم وادي تانسيفت وتقع على أحد فروع مدينة مراكش ، ثم وادي السوس الذي يجري في إقليم السوس الغني ، وهو إقليم ذو هيئة مثلثة ينحصر بين فرعي جبال الأطلس والمحيط الأطلسي ، ومن أهم مدنه تارودانت وأغادير ثم وادي درعه في أقصى الجنوب . وما وراء ذلك تمتد صحارى المغرب .

وبلاد المغرب في مجموعها بلاد مشرقية زاهرة ذات جمال فريد يتجلى في أجمل صورة في مناطق الجبال التي تغطي بالتلوج في الشتاء ، ومن هنا فقد قيل إن بلاد المغرب هي سويسرا الغرب

### سكان المغرب :

سكان المغرب يعرفون من أقدم العصور بالبربر ، ولفظ بربر لا علاقة له هنا بلون البشرة ، وإنما هو لفظ إفريقي كان اليونان يطلقونه على كل من لا يتكلم الإغريقية ، فقد كانوا يسمونهم بأرياروي أما العرب فعلى عادتهم يحاولون أن يجدوا أصلاً عربياً لكل لفظ أو علم جغرافي ، فيقولون إن البربر من أولاد مهاجر عربي من حمير يسمى بر بن قيس ، ويقال إن هذا الرجل عندما هاجر إلى المغرب لم يفهم لهجة هؤلاء الناس فسموها ببربرة وسمى الناس الذين يتكلمون بها بالبربر ، أما الحقيقة فهي أن البربر شعب إفريقي سكن هذه البلاد من أقدم العصور . واليونان هم الذين سموه بالبربر ، وعندهم أخذ اللاتين ثم العرب هذه التسمية ، أما البربر أنفسهم فلا يطلقون على أنفسهم هذه التسمية ، بل يعرفون أنفسهم بأسماء شعوبهم وقبائلهم .

وينقسم البربر إلى قسمين كبيرين بحسب أسلوب الحياة والطابع الحضاري .

١ - البربر البدو ، ويسمون بالبر .

٢ - والبربر الحضري ويسمون بالبرانس .

فأما البربر الحضري أي البرانس فاصلهم من سكان البحر المتوسط وهم يسكنون بصفة عامة الشريط الساحلي والسفوح الشمالية لجبال الأطلس وهم

يشبهون في سلاحيهم سكان الأندلس وسكان جزائر البحر المتوسط وتنتشر  
بينهم شجرة الشعور وبياض اللون وورقة العيون وخاصة بين أهالي الجبال .

هذا الفرع الكبير من البربر هو أصل البربر وهم الأقوام الذين سكنوا هذه  
البلاد منذ أقدم العصور ، أما فريق البربر الآخر ، وهم البربر فهم جدد نسبياً  
أقبلوا من الجنوب وفي الغالب من الجنوب الغربي من قلب القارة الأفريقية عن  
طريق وادي النيل وقد نزحوا أولاً إقليم برقة ثم اقتشروا غرباً وهم جنس أفريقي  
أسمر البشرة اختلط بالسكان الأصليين ، ومن اختلاطهما نشأ الجنس البربري  
الذي استعرب بعد أن اختلط بالعرب وأصبح من أمم العروبة ، وهو يجمع في  
تكوينه خصائص الأصول الثلاثة التي تكون منها .

عاش البربر في بلادهم هذه قروناً متطاولة قبل الفتح الإسلامي ولهم تاريخ  
وحروب مع الإغريق والرومان خاصة ، ودارت حروب طويلة بين بعض  
جماعاتهم والرومان ، وظهر من بينهم أبطال قوميون مثل جويما وماسينيما  
الذي يسميه العرب ماكسن ، ولكن ككل علاقة الرومان وبعدهم الروم  
أو البيزنطيون كانت مع بربر الساحل والسفوح الشمالية للأطلس ، ونادراً ما  
بوغل الرومان إلى دواخل البلاد ، فيما عدا إقليم أفريقية ( تونس ) وهو سهل  
فسيح كما نعلم ، يرويه نهر كبير نسبياً هو نهر مجردة فهذا أوغل الرومان ثم  
الروم في الداخل كما سنذكر .

وأول من دخل في بلاد المغرب وجُرؤُ على اقتحام جبال الأطلس وما يليها  
حتوباً هم العرب ، ولذلك كانوا أول من عرف البربر معرفة صحيحة ، وعندما  
دخل العرب وجدوا البربر من الناحية الاجتماعية يعيشون قبائل قريبة الشبه من  
قبائلهم العربية في تنظيمها وأحوالها الاجتماعية القائمة على التقسيم القبلي ، وإن  
كانت تختلف عنها في المستوى الحضاري ، كان البربر عندما لقيهم العرب  
يعيشون قبائل بدوية على الفطرة وإن كانت متماسكة ولها نظام اجتماعي قويم .

وهذه القبائل البربرية كما قلنا تنقسم إلى قبائل بحرية بدوية أو نصف بدوية ،  
وقبائل برنسية حضرية أو نصف حضرية ، وأكبر قبائل البدو وأشهرها زناتة .

ولهذا غلب عليها هذا الاسم العام رغم تفرعها إلى أحذام وبطون كثيرة ، أما  
 البرانس فلا تغلب عليهم تسمية واحدة لأنهم شعوب ضخمة لكل منها مواطنه  
 وبطونته وتاريخه ، وأشهر جماعاتهم كتامة في شمال شرقي المغرب الأوسط ،  
 وعلى أكتافهم ستقوم الدولة الفاطمية ، ثم صنهاجة المغرب الأوسط الذين  
 سيشاركون في إقامة الدولة الفاطمية ، وسيقيمون أولى الدول المغربية الإسلامية  
 المستعربة وهما دولتا بني زيري بن مناد ، ثم صنهاجة الصحراء الذين  
 سيقومون دولة المرابطين ، ثم مصمودة أهل المغرب الأقصى وهم شعب مغربي  
 جليل أقام دولة الموحدين ودولاً أخرى عظيمة الشأن ولهم فروع كبيرة أخرى  
 سنتحدث عنها في مواضعها في هذا التاريخ

وقد تعلم نسبة البربر من العرب علم النسب ونظموا قبائلهم في شجرات  
 أنساب شبيهة بشجرات الأنساب العربية . ونحن لا نثق كثيراً في شجرات  
 الأنساب هذه كما هو سوقنا من شجرات الأنساب العربية ، ولكننا ندرسها ونقيد  
 منها في فهم تاريخ المغرب وتصاريق أحواله .



## المغرب قبيل الفتح الإسلامي

معلوماتنا عن المغرب قبيل الفتح الإسلامي تقتصر على أقاليم برقة وطرابلس وأفريقية التي تقابل ما يعرف اليوم بتونس ، وشيء قليل عن بقية سواحل المغرب إلى المحيط الأطلسي .

فيما يتصل برقة نجد أنها كانت قبيل الفتح الإسلامي داخلية في زمام مصر بناء على آخر تقسيم للدولة البيزنطية . وهو الذي قام به الإمبراطور مورسيوس ( موريق ) ، وقد ضمت فيه برقة إلى مصر . وكان اسم برقة قبل الفتح الإسلامي سيريكا نسبة إلى مدينة يونانية أنشأها اليونان تسمى سيريني ويكتبها العرب قرين وأحياناً قوريناء . وهي بلدة قريبة من مدينة برقة الحالية .

ويسمى إقليم برقة أحياناً أطابلس وهو تحريف للفظ يوناني هو منتابوليس Penta-polis أي المداين الخمس ، وهي مدن صغيرة أنشأها الإغريق في هذا الإقليم ومنها قرين التي ذكرناها .

ولكن الصلة الحقيقية بين مصر وهذا الإقليم البعيد عنها إلى الغرب لم تكن واضحة في ذلك العصر . وهو النصف الأول من القرن الميلادي السابع ، فلا ندري إن كان بها عامل للروم أو ممثل لإدارة مصر البيزنطية . وعندما وصل العرب إلى هذه السواحي وجدوا السلاطة بيد قبيلتين بربريتين زناتيتين هما لوانة وهوارة ، وهما من قبائل البربر النبر وسيكون لهما شأن كبير في العصور الإسلامية . ويذهب بعض مؤرخي المغرب ومنهم ابن خلدون إلى أن هوارة من البرانس أي البربر الحضرميين . وهذا لا يغير من واقع الأمر شيئاً ، لأن تصرف هوارة كان دائماً مع الزناتيين .

فاذا انتقلنا غرباً إلى إقليم طرابلس ، وأصل هذا اللفظ إغريقي أيضاً معناه المدن الثلاث ( ترى بوليس ) وجدنا أن الإقليم لم يكن واضح التبعية ، فقد كان في الأصل تابعاً للرومان ثم للروم . وبعد ذلك لا نعرف إلى أي ناحية سياسية كان

يتبع حينذاك ، وعندما يصل العرب إلى هذه النواحي سيلقون فيه قبيلة بربرية كبيرة هي نفوسة . وكان مركزها منطقة جبلية إلى الجنوب من طرابلس تسمى جبال نفوسة . وفي تلك الأيام ، أي في النصف الثاني من القرن السابع الميلادي ، كانت تلك الجبال جبلاً خضراء عامرة بالقرى والمراعي والناس ، وكانت قبيلة نفوسة لهذا من أقوى وأهم قبائل طرابلس ، وعندما يصل العرب إلى هناك سيكون تعاملهم مع هذه القبيلة ، أما فيما يتعلق بإقليم أفريقية فإننا نجد تايعة للدولة البيزنطية ، فهناك حكم بيزنطي واضح يقوم به عامل للروم يلقب بالبطريق Patricius ومع قوة عسكرية ، والبلاد مقسمة إلى ولايتين كبيرتين : شمالية أي إلى الشمال من موقع القيروان الحالية تقريباً وتمتد إلى البحر ، وتسمى تلك الولاية زويجتانيا ، وهناك كانت العاصمة قرطاجنة ذات التاريخ الطويل . وهناك أيضاً كانت الجالية الرومية متركزة في مدن الساحل من أمثال قرطاجنة وسوسة والمنستير والجمامات . ومع تلك الجالية الرومية التي كانت تتكون من الروم ومن المهاجرين من شواطئ أوروبا الجنوبية ، كانت تعيش طائفة من سكان المغرب تسمى بالأفارقة ومفريدها أفريقي ، ويطلق هذا اللفظ على مزيج من البربر والأجناس التي حكمت أفريقية وأجزاء من ساحل المغرب . وهم جنس يختلف عن البربر بعض الشيء ، فهم حضري مستقرون ما بين زراع وتجار ورعاة في النادر . وكانوا يتكلمون لغة ساحلية من لغات شواطئ المتوسط ، وكانت المسيحية منتشرة بينهم ، وكان الكثيرون منهم يعرفون اللاتينية والإغريقية . هؤلاء هم الذين كانوا يتعاملون مع الرومان والروم ، وسيتعامل العرب مع هؤلاء ، وسيكسبونهم إلى الإسلام . ويختلطون بهم وبالبربر . ومن هذا كله سيكون سكان أفريقية الإسلامية الذين سنتحدث عنهم .

أما الولاية الجنوبية فتسمى بيزاسينا ، وتقع جنوبي حط مدينة القيروان الحالية ، وهي ولاية مراعي ومزارع ، وفي جنوبها تقع بلاد الجريد أي بلاد التخليل ، وهي واجات وافرة المياه معظم سكانها من البربر ، ولكن كانت للروم هناك حصون متناثرة ، ومن هنا سمي بعض نواحيها باسم قصب طيلية من اللفظ اللاتيني Castella ( ومعناه الحصون ) ، ومذته الرئيسية قابس على

البحر ، وهي باب أفريقية من الشرق ، وقفصة وتورر ونقطة وهي عواصم بلاد الجريد التي يتوسطها شط الجريد . وجنوبى بلاد الجريد ، تقع بلاد الساحل ، والمراد بها هنا ساحل الصحراء ، لأن العرب كانوا يرون أن الصحراء هي بحر الرمال ، وكانوا يسمون الواحات بالجزائر ، ولفظ الواحات أو الواح لا يطلق في الجغرافية العربية إلا على واحات مصر لأن اللفظ مصرى قديم واح ومعناه الماء .

### جرجير يوس أو جرجير :

قبل الفتح العربى كان يحكم أفريقية بطريق يسمى جريجور يوس الذى يسميه العرب جرجير ، وكان هذا الرجل قد اختلف مع الروم وحاول الاستقلال عنهم ، ونشبت خصومة كبيرة بين الجانبين بينما كان العرب قد اتموا فتح مصر فعلاً ، ولم يكن يخطر على باله أن قوة من الجيوش العربية الإسلامية كان يمكن أن تأتي من ناحية الشرق ، ولهذا كان طنه أنه سينشئ دولة لنفسه في هذه الناحية . ولهذا ولكى يحتوى من الروم انسحب إلى الداخل تاركاً العاصمة قرطاجنة وتحصن في بلدة داخلية كان لها حصن منيع تسمى سبيطة إلى جنوبى القيروان الحالية .

و في سبيطة اطمأن ذلك الرجل ، ولكن اطمئنائه لم يدم ، لأنه فوجئ بطلائع العرب تدخل إقليم برقة . أما بقية المغرب فلا تعرف عنها إلا القليل في ذلك الحين ، وهذا القليل يتعلق بالسواحل حيث كانت مراكز الحاليات الرومية أو السلاتينية وستحدث عنها في مناسباتها .

من الناحية الحضارية كانت أفريقية كانت مركز عمران رومى اى بيزنطى . وكانت إقليماً عامراً أى فيه مدن كثيرة وأرض مزروعة وموان على الساحل والبلاد عامرة بالحركة . وكانت المسيحية منتشرة بين الافارقة والحاليات الرومية طبعاً ، أما البربر فلم تدخل المسيحية بينهم بصورة واضحة ، فكانوا على الوثنية . ولا توجد علاقات ظاهرة أو عميقة بين الروم والبربر . ولهذا سنجد أن العرب عندما يصلون إلى أفريقية سيكون تعاملهم مع الروم أولاً ، فلما تغلبوا على مقاومتهم وخلصوا البلاد منهم دخلوا في علاقات مع البربر



## الفتح العربي

### فتح برقة وطرابلس :

أتم العرب فتح مصر بمعاهدة الاسكندرية في ١٦ شوال ٢٦ هـ / ١٧ سبتمبر ٦٤٢ م واستقر عمرو بن العاص في عاصمته الجديدة الفسطاط ، وهناك نجد عمرو بن العاص ذلك الفاتح العظيم ينهض للاستيلاء على برقة في أواخر سنة ٢٢ هـ / أوائل ٦٤٢ م . فسار بنفسه إليها ، ووقع بينه وبين اللواتيين واليهوديين قتال قصير ، ثم استسلموا للعرب وعقدوا مع عمرو بن العاص اتفاقاً على أن يؤدوا له مبلغاً قدره ثلاثة عشر ألف دينار في السنة بصفة جزية ثم عاد إلى مصر . ونفهم من هذا أن برقة كما قلنا كانت جزءاً من أرض أو ولاية مصر فكان فتحها استكمالاً لفتح مصر ، وأن هذه الجزية أو الأتاوة كانت جزءاً من خراج مصر العام .

وبعد ذلك بقليل نجد أن عمراً يقود حملة سنة ٢٣ هـ / ٦٤٤ م فيفتح إقليم طرابلس ويستولى على قاسدته التي تحمل نفس الاسم بعد قتال عنيف ولكنه قصير مع الروم والبربر أيضاً ، وكان كل اهتمامه موجهاً إلى التفاهم مع قبيلة نفوسة وتم له ذلك ، ثم عاد إلى مصر سنة ٢٥ هـ / ٦٤٥ م وكانت هذه هي آخر فتوح ذلك الرجل العظيم عمرو بن العاص ، لأنه عزل بعد ذلك عن ولاية مصر . نعم إنه عاد مرة أخرى إلى ولاية مصر سنة ٤٠ هـ / ٦٦٠ م عقب قيام خلافة معاوية بن أبي سفيان ولكن سنة ( عمره ) في ولايته الثانية كانت قد علت قلمه بقم بفتوح ، وعلى أي حال فإن ما قام به هذا الرجل من فتوح في تاريخ الإسلام يضعه في الصف الأول من بناء الدولة الإسلامية ، فهو الذي فتح فلسطين ومصر ، وهذا الجزء من المغرب ، وأضاف بذلك إلى دولة الإسلام أكثر من ثلث ما فتحت جيوشها إلى ذلك الحين ، وفي التاريخ الإسلامي لمصر والمغرب يعتبر عمرو بن العاص أول أبطال هذا التاريخ .

### موقعة سببيلة وفتح أفريقية :

كانت الخطوة التالية من فتوح المغرب بعد ذلك بأربع سنوات ، وتمت على يد

والى مصر بعد عمرو بن العاص ، وهو عبد الله بن سعد بن أبي سرح والى عثمان ابن عفان على مصر بعد عزله عمراً ، والفكرة عن هذا الرجل في كتب التاريخ الإسلامي سيئة بسبب ما كان منه في شبابه الباكر من تصرف غير سليم مع الرسول ﷺ ، وتصرفه هذا يرجع إلى صغر سنه في ذلك الحين . وبعد فتح مكة سعى له أخوه في الرضاع عثمان بن عفان فعفا عنه الرسول ﷺ وحسن إسلامه بعد ذلك ، وعندما أتت له الفرصة في خلافة أخيه عثمان أثبت أنه من خيرة رجال الأجيال الأولى من المسلمين ، وإن كان معاصروه من العرب لم يغفروا له ما كان منه في شبابه الباكر .

سارع عبد الله بن سعد بن أبي سرح بعد استقراره في القسطنطينية باستئذان عثمان في المسير لمواصلة فتح المغرب ، وبعد تردد أذن له عثمان في ذلك ، فسار بقوة عسكرية من نحو عشرين ألف رجل معظمهم من الفرسان في اتجاه أفريقية

وفي هذا الجيش اشترك ثلثون ألف رجل من أبناء الصحابة ، والكثيرون منهم يسمون عبد الله ، ولهذا يسمى ذلك الجيش جيش العيالة . ومن أشهر من سار فيه عبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن الزبير . وكان في الجيش أيضاً عبد الملك بن مروان . وكانوا جميعاً شباباً في السن الباكرة ، وكان أبائهم يشركونهم في الفتوح ، لأنها كانت ميدان التدريب والتكوين لشباب الجيل الثاني من أمة الإسلام ، ففي ميادين القتال كانوا يكتسبون ثقافة العصر وهي الجهاد والفتوح وممارسة الحكم واستخراج الأحكام من الأصول وهي القرآن والسنة

كان ذلك سنة ٢٨ هـ / ٦٤٩ م . وفيها وصلت طلائع الجيش العربي إلى أفريقية ، وفوجئ بها جرجير فاستعد للقاء ، ونلاحظ من ذلك التاريخ الباكر أن كثيرين من البربر وخاصة من لواتة وهوارة ونفوسة قد انضموا للعرب وأسلموا للتقارب الاجتماعي بين الحين . ونستنتج من هذا أن الكثيرين من أولئك البربر دخلوا في الإسلام في ذلك الوقت المبكر ، ومن المعروف أن البربر ، مثلهم في ذلك مثل الفرس وأهل الشام ، كانوا من أوائل الشعوب إسلاماً .

ويقدر المؤرخون العرب قوة الروم بمائة ألف أو ١٥٠,٠٠٠ مقاتل وهذا بعيد نظراً للظروف التي ذكرناها ، ولكن لا شك في أن الجيش الرومي كان أضعاف الجيش العربي ، وإن كان معظم العرب فرساناً ، وهذه حقيقة لها أهميتها

كان اللقاء عند سببلة ، وعلى عاداتهم انتصر العرب على عدوهم ، وقتل جرجير وأسر وقتل الكثير من رجاله ، وفر الباقون إلى السواحل ، وبدلاً من أن يعقد عبد الله بن سعد اتفاقاً أو يضم هذه الناحية إلى دولة الإسلام فيقيم فيها والياً ويترك حامية كما كانت عادة العرب ، نجد أن عبد الله بن سعد يتفق مع أهل البلاد على جزية قدرها ٢٠,٠٠٠ دينار ثم يعود إلى مصر

وربما كان هذا الرقم خطأ إذ أنه قليل جداً وغير واضح كذلك ، لأننا لم نسمع قبل ذلك أن أخذ العرب أتاية من قوم ثم انصرفوا عنهم ، إنما كانت عاداتهم أن يأخذوا جزية مقررة ممن لا يرغبون في دخول الإسلام من أهل البلاد المفتوحة . على أي حال أخذ عبد الله بن سعد هذه الجزية وعاد إلى مصر في أوائل ٢٩ هـ / ٦٤٩ م ولا تعلق هذه العودة السريعة إلا بما نعرف من أن خلافاً حاداً نشب بين عبد الله بن سعد بن أبي سرح وغيره من كبار أبناء الصحابة الذين كانوا معه وبخاصة عبد الله بن الزبير ، الذي تزعم الروايات أنه البطل الحقيقي لمعركة سببلة وهو أسير غير صحيح كما رأينا ، فوجد عبد الله بن سعد أن خير ما يفعله هو أن يعود مسرعاً إلى مصر دون أن يترك حامية أو يقوم بأي عمل سياسي أو عسكري أو ينشئ أو يثبت شيئاً من السلطان للعرب على هذه الناحية .

ولكننا نلاحظ على أي حال أن هذه الهزيمة التي أصيب بها الروم كانت حاسمة إلى حد ما ، فلم تعد لهم قوة كبيرة هناك بعد ذلك ، لأن ظروف الدولة البيزنطية كانت سيئة جداً إذ ذاك نتيجة لاضمحلال قوة خلفاء هرقل . ونتيجة حاجة الدولة البيزنطية إلى رجال أتوية في قلب الدولة ليعيدوا النظام ويثبتوا في وجه الزحف العربي الذي كان يحتاج بلاهم في كل ناحية .

ولم يقم العرب بشيء في أفريقية حتى أيام معاوية بن أبي سفيان ، ولكننا نلاحظ أن نوعاً من الحلف قام بين البربر والعرب ، فمن ناحية اطمأن البربر إلى أن

لهم في العرب حليفاً قوياً يستطيع حمايتهم من الروم إذا فكر هؤلاء في العودة إلى البلاد ، وعلى أي حال فقد أفاد البربر من ذلك الفوز العربي فائدة كبيرة ، فقد استغلوا عن الروم ، ولم يعودوا يؤدون إليهم جزية ، وكانوا يشعرون أن الروم إذا عادوا لن يلبث العرب أن يعودوا هم الآخرون ، وكل ذلك في صالحهم .

### حملة معاوية بن حديج السكوني والقضاء على أمال

الروم في استعادة أفريقية سنة ٤٥ هـ / ٦٦٥ م :

شغل العرب عن أفريقية والفتوح عامة بسبب فتنة عثمان ، ثم الحرب الأهلية بين علي ومعاوية . ولم يتجدد نشاط الفتوح مرة أخرى إلا بعد استقرار الأمر لمعاوية سنة ٤١ هـ / ٦٦١ م ، التي تسمى عام الجماعة . ولو أراد الروم أن يستعيدوا أفريقية خلال تلك الفترة لتمكنوا من ذلك بسبب انشغال العرب ، ولكنهم لم يستطيعوا ذلك بصورة فعالة ، فقد أرسل الروم بطريقاً جديداً يسمى جناديوس حاول أن يفرض سلطاناً رومياً على أفريقية فعجز عن ذلك ، ثم احتلف مع رجل من قواده ولجأ بعد ذلك إلى العرب وذهب إلى القسطنطينية إلى دمشق فيما يقال ، واستحدث معاوية على إتمام فتح أفريقية وتلاها في الغالب ... طورة وإلهم لدينا أن معاوية أرسل سنة ٤٥ هـ / ٦٦٥ م جيشاً يقوده واحد من كبار العثمانيين وهو معاوية بن حديج السكوني . فلما وصل إلى أفريقية وجد أن الروم قد تزلزلوا البلاد في ميثاء سرسة يقودهم قائد يسمى نقفور ، فلما سمع الروم بمجيء العرب أسرعوا إلى سفنهم ، واستولى ابن حديج على بعض المراكز الرومية القوية ، ولكن العرب هذه المرة أيضاً لم يتركوا عاملاً بل انسحبوا إلى مصر ، وتعتبر حملة معاوية بن حديج غزوة من الغزوات التمهيدية التي قام بها العرب في المغرب قبل أن يتخذوا قراراً نهائياً بفتح هذه البلاد فتحاً دائماً ثابتاً .

فقد شيدت الخلافة الأموية بعد هذه المقدمات إلى أهمية أفريقية وضرورة مراصلة الفتوح فيها . إذ أنها كانت ميداناً مفتوحاً لا يعترض تقدم العرب فيه مانع كبير . ثم إن كثيراً من البربر كانوا قد أسلموا في ذلك الحين . ولا يستبعد أن يكون الكثيرون من العرب قد تخلفوا في أفريقية لتعليم البربر قواعد الإسلام ، وسنرى مصداقاً لذلك في كلامنا عن عقبة بن نافع الفهري .

وإذا كان معاوية بن حديج قد عاد إلى الفسطاط بعد حملته على أفريقية فلم يكن السبب في ذلك أنه أحس أنه انتهى من واجبه في تلك الجبهة العربية ، ولكن معناه أن هذا الرجل - وكان واليا على مصر - لم يكن يستطيع الابتعاد عن مركز ولايته زمنا طويلا ، فهو يغزو ويعود إلى قاعدته في الفسطاط . ولو استمر الحال على ذلك لما تم فتح المغرب أبدا ، لأن الضربات السريعة لا تعتبر فتوحا ، ولا تنشأ عنها فتوح .

ولكى يبدأ الفتح الجدي المستمر لأفريقية كان لابد لها من وال خاص بها يتولى قيادة الفتوح فيها ، ويقوم بوضع أسس الحكم الإسلامي فيها بعد أن يجعلها ولاية من ولايات دولة الإسلام ، وهذا هو ما سيقعه عقبة بن نافع

### ولاية عقبة بن نافع الأولى على أفريقية

٥٠ - ٥٥ هـ / ٦٧٠ - ٦٧٥ م :

كان في الجيش الأول الذي قاده عمرو بن العاص في فتح سرقة وطرابلس قائد يسمى نافع بن عبد القيس القهري ، وكان زوج أخت عمرو بن العاص ، فعهد إليه عمرو بعد أن فتح طرابلس في أن يسير بقوة من الجند نحو الجنوب للاستيلاء على إقليم فزان الواقع جنوبي طرابلس على بعد ٨٠٠ كم في الصحراء ففعل . وكان معه في هذه الحملة ابنه عقبة بن نافع بن عبد القيس ، وكان صبييا في العاشرة . وترك العرب في فزان حامية صغيرة من الجند كان من بينهم نافع بن عبد القيس وابنه عقبة ، وضلال فترة الفتوح ظل عقبة مع الجند في هذه النواحي يتنقلون ما بين برقة وفزان وودان وزويلة من مراكز الصحراء ، وفي هذا الجو نشأ عقبة بن نافع نشأة جهاد وتمرس بشئون القتال ، وتحول إلى شخصية عربية أفريقية شديدة الاتصال بشئون المغرب ، وثيقة العلاقات بالعرب والبربر في نفس الوقت ، ولهذا فبعد عودة معاوية بن حديج من المغرب بفلس سنوات أي سنة ٤٠ هـ / ٦٦٠ م نجد معاوية بن أبي سفيان يولي قيادة الفتوح في المغرب عقبة بن نافع ويرسل له قوة عسكرية للقيام بذلك العمل ، وهنا يبدأ الفتح الحقيقي لأفريقية والمغرب ، لأن عقبة بن نافع يعتبر أكثر العرب معرفة بأفريقية وشؤونها في ذلك الوقت لطول خبرته بشؤونها ، وعندما قام بحملته الأولى على

أفريقية كانت لديه فكرة واضحة عن المغرب وما ينبغي عمله لفتحته فتحاً ثابتاً .

وسنلاحظ أثر ذلك في أعمال عقبة ، فهو أول قاتح عربي يدخل هذه البلاد على رأس جيش وفي ذهنه فكرة واضحة عما ينبغي عمله لتحويل أعمال الفتوح في أفريقيا من غزوات تروح وتعود بغنائم فحسب إلى فتوح منظمة ترمى إلى إنشاء ولاية أفريقية ومد حدود الإسلام غرباً وإدخال التبربر في الإسلام .

### حملة عقبة بن نافع الأولى وتأسيس

القيروان ٥٠ هـ - ٥٥ هـ / ٦٧٠ - ٦٧٥ م :

سبق أن ذكرنا أن عقبة بن نافع بن عبد القيس الفهري كان بين جنود أفريقية الأول ، وقد اشترك وهو صبي في محاولات فتح أفريقية الأولى مع أبيه ثم أصبح قائداً شاباً من قادة الجيوش الإسلامية العاملة في الفتوحات في الجناح الغربي ، وذكرنا أنه تحول مع الزمن إلى شخصية مجاهدة متصوفة نذرت نفسها للفتوح . وعندما وصله الأمر بولاية أفريقية وكان في نواحي زويلة قرب قرآن ، نهض إلى أفريقية من هناك عام ٥٠ هـ - ٦٧٠ م ، فخرج بمن معه حتى وصل إلى ساحل البحر المتوسط ، وهناك التقى القوة العسكرية التي أرسلها الخليفة معاوية ابن أبي سفيان للعمل تحت إمرته فوصل غدامس ، ومن هناك دخل أفريقية واتجه رأساً إلى قرب موقع سبيلة ، وكان قد قرر إنشاء عاصمة أو مركز عسكري للمسلمين في أفريقية فاختار موقعا يقع إلى الشمال قليلاً من سبيلة التي وقعت عندها المعركة المشهورة ، وبدأ في اختطاط عاصمة مناسبة للمسلمين .

وكانت القاعدة في إنشاء تلك المدن الإسلامية الأولى التي تسمى الأمصار هي البدء ببناء المسجد الجامع ، وفي مواجهة المسجد كانوا ينشئون دار الإمارة ( أي مركز ومقر الحاكم ) وبين المسجد ودار الإمارة يترك طريق واسع ، ويعتبر ذلك الطريق بداية الشارع الرئيسي بالعاصمة ويسمى بالسماط أو المحجة ، وفيما يتعلق بهذه المدينة الجديدة يسمي هذا الشارع بالسماط الأعظم ، وكانت العادة أن يتركوا حول هذين المينيين خلاء واسعاً مستديراً ، ثم بعد ذلك كانوا ينشئون

الدور حول ذلك الخلاه على أساس تقسيم الأرض إلى قطع لكل قبيلة قطعة تسمى خطة أو دار . وسميت هذه المدينة القيروان ، وهو لفظ فارسي معرب بمعنى المعسكر أو مستودع السلاح . ويقال إن موضع القيروان كان غابة وشعاري<sup>(١)</sup> ، فقام عقبة وأصحابه بتمهيد الأرض وقطع تلك الأشجار . وتحكى أسطورة أن عقبة بن نافع قام بكرامات أثناء إنشاء تلك المدينة فأمر الوحوش والبهائم التي كانت في الشعاري بأن تخرج منها لأن المسلمين ينشئون مدينة رسول الله ﷺ ، فخرجت الوحوش والبهائم من تلقاء نفسها ، وبذلك أصبحت المدينة الجديدة وهو مدينة القيروان مدينة جليلة ومباركة ، وبالفعل قدر لذلك مصر الصعير أن يصبح من أكثر المراكز الإسلامية بركة على الإسلام وأهله . فقد تحولت القيروان بسرعة إلى قاعدة سياسية ودينية وفكرية للإسلام في أفريقية ، وقد تحدى عقبة أن تكون المدينة ملائمة لمطالب العرب في ذلك العصر ، وقد كان أهم ما لديهم هو الخيل والجمال وهي سلاحهم الأكبر في عمليات الفتوح . فحكانوا يهتمون بأن تكون الأمصار أو المراكز التي ينشئونها وسط أقاليم حراع لتسرح فيها الخيول والجمال في غير أوقات الحروب ليستجم الظهر كما كانوا يقولون ، ولأنهم نذكروا أنه كانت في أفريقية في ذلك الحين عاصمة أخرى وهي قرطاجنة وكانت سيناء ، وهي عاصمة الروم الذين تلاشت قوتهم السياسية والعسكرية ، ولكن قرطاجنة وبقيّة مدن النواحي من أمثال قابس وبسوسة ظلت عامرة بالروم والأفارقة وغيرهم من سكان الشريط الساحلي

المهم لدينا أننا لا نلاحظ أي وجود فعل للروم أثناء عملية إنشاء القيروان التي دامت خمس سنوات من ٥٠ - ٥٥ هـ / ٦٧٠ - ٦٧٥ م . وبعد فراغ عفة من إنشاء تلك القاعدة بدأ يستعد لمواصلة الفتوح ، إذ أنه أطمأن إلى أنه أنشأ للمسلمين قاعدة يحكم منها البلاد التي يفتحها وتصدر منها الغزوات . ومعنى ذلك أن عقبة بعمله هذا قد جعل أفريقية ولاية إسلامية جديدة ، لأنه ما دام قد أنشأ بها مسجداً جامعاً وداراً للإمامة فقد أصبحت المنطقة كلها جزءاً من الدولة الإسلامية ، ولا يجوز بعد ذلك للمسلمين أن يتخلوا عن هذه الناحية ، وبالفعل

(١) الشعاري هو المكان به الشجر الكثيف المنلف

كان من الممكن للعرب قبل ذلك أن ينسحبوا من أفريقية إلى بركة أو إلى مصر كما كانوا يفعلون من قبل ، أما الآن فلا بد لهم أن يثبتوا في هذه الناحية ، وإن فقدوها لنسب ما فيجب عليهم أن يستعيدوها مرة أخرى لأنها جزء من الديار الإسلامية

ومن هذا يتبين لنا أهمية العمل الذي قام به عقبة بن نافع الذي يعتبر بحق من أعظم فاتحي المغرب وواحد من أكبر بناء الدولة الإسلامية . ولا يقارن عقبة في هذا المجال إلا بـ « قتيبة بن مسلم الباهلي » الذي تولى مهمة معاشة في الجناح الشرقي لدولة الإسلام . وإليه يرجع الفضل في التغلب على مقاومة الترك الوثنيين وفتح بلادهم للإسلام والوصول به إلى كاشغر في إقليم سنكيانج في غرب الصين الحالية . وكان عقبة وعتيبة متعاصرين . واحد منهما وصل بحدود دولة الإسلام إلى أقصاها غرباً والثاني وصل بها إلى أقصاها شرقاً .

#### ولاية أبي المهاجر دينار :

رأى كثيرون أنه بعد أن قام عقبة بهذا العمل المجيد أن تكافئه الدولة بأن تتركه في ولايته ليقم ما بداه ، إلا أنه بدلاً من ذلك تلقى أمراً بالعزل عن ولاية أفريقية سنة ٥٥ هـ / ٦٧٥ م . وكان الذي عزله معاوية بن أبي سفيان بناء على طلب والي مصر مسلمة بن مخلد الأنصاري وكان كبار العثمانية وأنصار البيت الأموي الذين أعانوا معاوية على الوصول إلى الخلافة ، فكافاه معاوية بولاية مصر . وعندما رأى مسلمة أن أفريقية أصبحت ولاية وميداناً جديداً واسعاً للفتوحات طمعت نفسه إلى أن يحوزها ، فسعى في عزل عقبة وثولية رجل من أتباع مسلمة ابن مخلد يسمى دينار أبا المهاجر ، ويطن أنه كان ممن أسلم من أهل مصر . ولم يكتف مسلمة بعزل عقبة بل نجد أن ديناراً أبا المهاجر يسعى معاملة ذلك الفاتح الكبير ويترك القيروان وينزل بقرية صغيرة قريبة منها تسمى تكروان رغبة منه في التقليل من أهمية العاصمة الجديدة ، لأن مسلمة كان يرى أن الغرب الإسلامي كله تبع له ، ومن ثم فلا تكون له إلا ساعدة واحدة هي القسوط . وذهب عقبة إلى دمشق وبشكا إلى الخليفة فطبيب خاطره ولكنه لم يردّه إلى ولايته وأما دينار أبو المهاجر فقد تبين أنه من حيرة الولاة رغم تصرفه مع عقبة



وواضح أنه غير مسئول عن ذلك وإنما المسئول هو مسلمة بن مخلد ، وإن كان مسلمة قد اعتُذر لعقبة عن سوء صنيع دينار أبي المهاجر معه .

انتهج أبو المهاجر سياسة جديدة في الفتح ، فقد كان عقبة رجلاً متشدداً بعيداً عن السياسة وفهم تصاريها ، أما أبو المهاجر دينار فتجده في أعماله العسكرية يتجه إلى كسب مودة أهل البلاد من البربر ، وهو لم ينتهج نهجاً معيناً أو محدداً في أعماله العسكرية ، لأنه كان رجلاً نشيطاً يرسل الغزوات في كل وجه ، وقد وصلت غزواته إلى مسافة بعيدة في الغرب حتى وصل إلى تلمسان وهي أكبر قواعد القسم الشرقي من المغرب الأوسط ، أي تلك المنطقة الواقعة حالياً إلى الشرق من نهر المولوية الذي قلنا : إن الحد الفاصل بين المغرب الأوسط والاتصى يمر شرقه بقليل . وفي هذه الناحية - تلمسان - كانت منازل قبيلة من أكبر قبائل البربر البرانس في ذلك العصر وهي أوربة ، وهي قبيلة برنسية أي من قبائل الحضى وكانت تسيطر على المغرب الأوسط كله يتزعمها زعيم بربرى يسمى كسيلة بن لُحْزَم . وقد دخل هذا الرجل الإسلام ومعه قبيلته الكبيرة على يد أبي المهاجر دينار . ودخل أوربة وزعيمها كسيلة في الإسلام بعد حدثاً هاماً لابد من ملاحظته . حقيقة كان الإسلام ينتشر في المغرب منذ الأيام الأولى لدخول المسلمين ، وخاصة عندما رأى البربر عقبة بن نافع وهو ينشئ القروان فتأثروا بشخصيته الدينية وبما كان يقهره من التفانى في سبيل الإسلام . فنزلت جماعات كبيرة منهم الإسلام على يديه وانضمت إلى قوات الإسلام المحاربة . ولكن إسلام أوربة يعتبر حدثاً تاريخياً هاماً في تاريخ إسلام المغرب ، لهذه أول مرة تدخل قبيلة برنسية كبيرة في الإسلام ، وكان معظم من دخل الإسلام قبل ذلك من البربر البربر أي البدو من قبائل لوانة وهوارة ونفوسة وغيرها ، ومضى كسيلة بعد أن أسلم مع صاحبه دينار أبي المهاجر إلى القروان .

**ولاية عقبة بن نافع الثانية على أفريقية وحملته الكبرى**

**على المغرب ٦٢ - ٦٤ هـ / ٦٨١ - ٦٨٣ م :**

استمرت ولاية دينار أبي المهاجر سبع سنوات ، ولم تنته إلا بوفاة معاوية ابن أبي سفيان سنة ٦٠ هـ / ٦٨٠ م ، وبوفاة معاوية فقد مسلمة بن مخلد

نصيره فلم تعد له تلك المكانة التي كانت له أيام معاوية ، وانتهر عقبة هذه الفرصة وتحدث إلى يزيد بن معاوية في إعادته إلى أفريقية ، فأجابته إلى مطالبه ، وأسرع عقبة إلى المغرب ومعه قوة تقدر بحوالي ١٠٠٠٠ فارس وقد صمم هذه المرة على أن بشرع في الفتح مباشرة مخافة أن يفاجئه عزل جديد .

وعندما وصل عقبة إلى أفريقية قبض على دينار أبي المهاجر وعلى صاحبه كسيلة وتلك كانت من أخطائه الجسيمة ، لأن كسيلة كان رجلاً مسلماً وليس ذنبه أنه كان صاحباً لأبي المهاجر ، ومن ثم فلم يكن عقبة على حق في سوء معاملته على أي حال نجد عقبة رغم ما اتصف به من إيثار وإيمان وشجاعة ويُعد عن شئون هذه الدنيا لم يعرف كيف يغفر لأبي المهاجر ما صنعه به ، ورغم ما تميز به من بعد نظر فيما يتعلق بمواصلة فتح المغرب وإدخاله في الإسلام ، نجده قصير النظر في شئون السياسة ومعاملة الناس ، فأخذ كسيلة معه - مصفراً بالحديد كما يقال - وأساء معاملته رغم أن ديناراً أبا المهاجر كان ينصحه بإحسان معاملة ذلك الرجل ، تأسيساً بما كان يقوله الرسول ﷺ في استتلاف حديثي العهد بالإسلام فقد كان إيمانهم قريباً أو قريب عهد ولابد من تحبيبهم في الإيمان وهم المؤلفة قلوبهم ، ولكن عقبة في حماسه الشديد للفتح ونفازته فيه لم يلتفت إلى النصيح وسار في جموعه نحو المغرب الأوسط .

وبدلاً من أن يتخذ في سيرة الطريق الأسهل ، فيسير على الشريط الساحلي نجده يخترق الجبال ويقزو البربر في غمر دارهم فيدخل جبال الأوراس وهي الطرف الشرقي لجبال الأطلس وهي جبال عالية وعرة كثيرة المضائق والأخاديد في هذه الناحية ، وكانت تعيش فيه جماعات من الروم ممن هربوا إلى داخل البلاد واتصلوا بالبربر ليتعاونوا معا على المسلمين ، ولكن عقبة لم يكثر لهم ، ومضى يقتحم جبال الأوراس موعلاً في بلاد هي الغاية في عورة الأرض وصعوبة المسالك

دخل عقبة جبال الأوراس وبدأ بمحاصرة حصن يسمى بأغاية وكان فيه عدد من الروم إلى جانب البربر ، وعندما وجد عقبة صعوبة في الاستيلاء على بأغاية تركها واندفع ناحية الغرب ، معمر نهر شلف ، وهو يحارب القبائل في طريقه

ويقتضى جموعها ويلقى العرب في قلوب أهلها ، وى نفس الرقبت يجتذب الكثيرين من أفرادها للإسلام بفضل ماكان يبدو عليه من التقوى والتفانى في سبيل الإسلام ، واستمر في طريقه غير عابئ بالمقاومة مهما اشتدت حتى وصل إلى قرب طنجة ، أى أن ذلك الرجل قطع في شهور قليلة وخلال جبال وعرة تسكنها قبائل ضخمة مسافة تقدر بأربعة آلاف كيلو متر ، وظهر أمام طنجة وهى مفتاح المدخل الغربى للبحر المتوسط .

منا يلقي عقبة عند طنجة شخصية غريبة تسمى يليان — والقراءة مشكوك فيها — ولا نعرف عن ذلك الرجل أى شىء يعول عليه ، فهناك من يقولون إنه كان ممثلاً للسلطان الرومى — البيزنطى في ذلك الطرف الأقصى من البحر المتوسط — وهناك من يقولون إنه كان ممثلاً للقوط الغربيين الذين كانوا يحكمون شبه جزيرة أيبيريا في ذلك الحين وهذا أقرب الأحوال إلى القبول ، وهناك رأى ثالث يقول إنه بربرى تزعم قبيلة غمارة الكبيرة التى ستدخل في الإسلام وسيكون لها في تاريخ المغرب شأن كبير . وربما كان اسم يليان تسمية عامة تطلق عند العرب على حاكم إقليم طنجة أيا كان . بعد ثلاثين عاماً من ذلك التاريخ ، وى ولاية موسى بن نصير في أثناء أعمال فتح الأندلس سنلقى يليان هذا مرة أخرى وسيكون له شأن مع موسى وطارق ، وكذلك سيكون له دور في فتح الأندلس . على أى حال نجد أن عقبة يتفاهم مع ذلك الرجل ويقول له يليان : لقد تغلبت على الروم وليس أمامك الآن إلا البربر فعليك الآن أن تتحدر إلى الجنوب فهناك مواطن البربر الحقيقيين .

ولم يكذب عقبة ، فاتجه إلى الجنوب ، بنفس البساطة التى عرفناها فيه نجده يخترق مواطن البربر المصاعدة من شمال المغرب الأقصى إلى جنوبه مخترقاً جبال الأطلس التى تسمى هنا جبال درن وفى طريقه يهزم القبائل وينشئ المساجد ويقبل عليه الناس رغياً أو رهياً ليعلنوا إسلامهم . وعندما يصل ذلك الرجل إلى قلب بلاد المصاعدة في جبال درن بجده يدور دورة واسعة وسط الجبال ثم يتجه غرباً ، وينحدر نحو المحيط إلى جنوب المدينة الحالية المعروفة باسم أغادير التى تقع على مصب وادئ السوس ، وهناك وعند قرية صغيرة على

البحر تسمى « أغيران بطوف » نرى المشهد التاريخي الشهير وهو مشهد عقبة يدخل بحصانه في مياه المحيط الأطلسي ويشهد الله على أنه وصل براهمة الإسلام إلى آخر المعمورة ، وأنه لو وجد طريقاً لساير إلى البلاد التي وصل إليها - في زمن القصاصين - ذو القرنين عند مغرب الشمس .

وبعد أن وصل عقبة إلى هذه النتيجة التي لا تصدق نجده يعود أدراجه مخترقاً بلاد البربر مرة أخرى ، وعندما يصل إلى نهر تانسيفت وهو النهر الذي تقع على أحد نهرياته مدينة مراکش الحالية ، وعند بليدة تسمى نقيس ينشئ مسجداً وهو الذي عرف فيما بعد باسم مسجد « أغلات أوركة » ولا زال ذلك المسجد باقياً إلى اليوم ويقال إن منبره يرجع إلى تلك الأيام . وعندما وصل عقبة إلى وادي أبي الرقراق الذي تقع على مصبه الآن مدينة الرباط ينشئ رباطاً أي معسكراً للعرايطين ، أي الذين يربطون على ثغور ديار الإسلام ليحرسوها ويؤدوا الأعداء عنها حسبة لله سبحانه وتعالى ، ويسمى هذا الرباط برباط شاكر ، وهو أحد قواده ، وهناك ترك عقبة شاكراً هذا ليعلم الناس مبادئ الإسلام ، ثم يواصل مسيرته عائداً إلى القيروان ، فنجد أن الكثيرين من جنوده يستأذونه في الإسراع إلى القيروان فقد طال غيابهم عن أولادهم وأهلهم فيأذن لهم ويبقى في عدد قليل من رجاله .

وبينما كان عقبة منصرفاً إلى مغامرته العسكرية الدينية الكبيرة تلك كان خصومه يكيدون له ، وكان معه في الجيش كما قلنا دينار أبو المهاجر وصاحبه كسيلة بن لزم الأوربي فلما اقتربوا من بلاد قبيلة أوربة هرب كسيلة وعاد إلى قومه ، وجمعهم وتتبع عقبة ليوقع به عندما تسنح له الفرصة ، وعندما وصل الجيش الإسلامي الصغير إلى سهل توجد جنوب واحة بسكرة الحالية إلى جنوب مدينة أنجرائر وجد عقبة نفسه محاصراً بجماعات غفيرة من البربر والروم ، وقد تجمعوا وتعارفوا بفضل كسيلة للانقسام من ذلك الرجل المجاهد عقبة ، وهناك قرب نهر صغير يسمى وادي الأبيض وجد عقبة أنه لا مقر من الاستشهاد فأمر رجاله بأن يترجلوا عن خيولهم ، وذلك دليل على توطين النفس على القتال إلى الموت وطلب إليه أبو المهاجر أن يفك قيوده لكي يموت في سبيل الإسلام ، وخاضت هذه

الجماعة الصغيرة معركة الموت ببسالة ، فقتلوا عن آخرهم ، وتلك كانت نهاية ذلك الرجل عقبة بن نافع سنة ٦٤ هـ / ٦٨٣ م . وهي نهاية جديدة بحياة رجل مثل عقبة بن نافع ، وهذه النهاية على الرغم من أنها كانت هزيمة عسكرية إلا أنها في واقع الأمر كانت بعيدة الأثر في إسلام أفريقيا والمغرب ، فقد كان ما أبداه عقبة ورجاله من البسالة في ذلك الاستشهاد أوقع أثراً في نفوس البربر ، وهم قوم ذوو بأس وإعجاب بالابطال وكانت نتيجة هذا الاستشهاد المجيد أن دخل البربر جماعات في الإسلام ، وتلك هي نهاية أسطورة عقبة أو سيدي عقبة بطل الإسلام الأكبر في تاريخ الفتوح في الجزء الغربي من العالم الإسلامي

### زهير بن قيس والقضاء على كسيلة :

لم تستطع الخلافة الأموية أن تهتم بأمور أفريقية إثر مقتل عقبة بن نافع واحتلال كسيلة للقيروان إلا بعد وقت طويل ، لأن ظروف الدولة لم تسمح بذلك . لقد توفي يزيد بن معاوية وخلفه ابنه معاوية الثاني ، ثم انتهى الأمر إلى مروان بن الحكم ، وثار عليه عبد الله بن الزبير وبعد انتصار مروان على أنصار عبد الله بن الزبير بقتل ، توفي مروان وخلفه ابنه عبد الملك وشغل باستعادة العراق من الزبيريين . وبدأت الأحوال شيئاً فشيئاً ابتداء من ٦٨ هـ / ٦٨٧ م ، وثبتت أركان خلافة عبد الملك واتسع أمامه الوقت ليقوم بعمل في أفريقية ، وكان زهير بن قيس الذي خلف عقبة منتظراً في برقة أن تأتي الإمدادات لكي يهبط إلى أفريقية من جديد.

وأرسل عبد الملك إلى زهير جيشاً قوياً ، وبعث إليه بالأموال من مصر ، فذهض سنة ٦٩ هـ / ٦٨٨ م متجهاً إلى أفريقية ، وعندما دخلها عسكر في ناحية تسمى قسودة ، وهي شبه جزيرة بارزة في البحر من الساحل الشرقي لتونس الحالية ، وكان من عادة العرب في تلك الظروف أن تتحصن جيوشهم في مثل ذلك الموقع أو في ثنية من النهر وذلك لقلّة أعدادهم . وكان كسيلة قد جمع قوى ضخمة من البربر والروم وسار بهم لحرب زهير . وفكر زهير في الانسحاب ، ولكن قادة الجيش الآخرين شجعوه على الثبات وحفزوه على المسير للقاء كسيلة . فغلاً تم اللقاء بين الجانبين ، وجرت معركة من أشد ما مر بالعرب في أفريقية إلى ذلك الحين ، فقد فنى فيها الألوف من الجانبين ، وخرج المسلمون كعادتهم في ذلك

العصر منتصرين ، وقتل كسيلة ونغر كبير من كبار الروم والبربر ، وطارد المسلمون فلول المنتهزمين إلى مسافات بعيدة .

بعد ذلك عاد زهير إلى القيروان ليرتب أمورها ويصلح من أحوال المسلمين بها . وبعد أن تم له من ذلك ما أراد نجده يعلن أنه عائد إلى الشرق ولا ندري ما السبب في ذلك القرار ، لأن زهيراً كان يستطيع - بل كان لابد له - أن يقيم في أفريقية والياً عربياً لها ، ولكن يبدو أنه لم يكن مستريحاً للمقام في تلك البلاد ولم تكن الدولة الإسلامية قد حددت بعد سياستها فيما يتعلق بأفريقية .

ولابد أن نذكر أن بلاد أفريقية في ذلك العصر كانت بلاداً بعيدة جداً عن نظر العرب ، خاصة وهي ميدان حرب عنيفة مع البربر من ناحية والروم من ناحية أخرى ، لهذا أُرْمِع زهير العودة وشرع فيها فعلاً ، وعندما خرج زهير سمع أن الروم عادوا إلى طرابلس وأنزلوا قوة فيها ، وكان زهير قد ترك جيشه يسير قطعاً صغيرة متسحبا إلى مصر وعندما اقترب من طرابلس كان قد بقى في سبعين رجلاً فقط من خيرة رجاله ، ورأى الروم يعرِّدون إلى مراكزهم ومعهم أسرى المسلمين وما نهبه من الأموال ، وأراد زهير أن ينتظر حتى يتكامل الجيش ليهاجم الروم ، ولكن شباب المقاتلين حفزوه على الهجوم وعبروه بالجبن عن اللقاء فعا كان منه إلا أن انقض بمن معه على الروم ، وكانت النتيجة واضحة منذ البداية فقد استشهد هو وكل من معه ، وهكذا أصيب المسلمون بكارثة ثانية في فتوح أفريقية ، وانسحب الباقون من رجال زهير إلى برقة وأرسلوا يطلبون المدد من دمشق للعودة إلى أفريقية .

#### حيلة حسان بن النعمان الغساني والقضاء على آخر مظاهر

المقاومة الفعلية للفتح العربي ، ولجوت أقدام المسلمين نهائياً في أفريقية ٧١-٨٥ هـ / ٦٩٠-٧٠٤ م :

بعد أن انتهت فتنة ابن الزبير واستقر الأمر لعبد الملك بن مروان بصورة نهائية تجدد عزمه على مواصلة الفتوح في ذلك الجناح الغربي لدولة الإسلام . ونلاحظ أنه في عصر عبد الملك بن مروان كان هناك تنافس شديد بين العاملين في

الفتوح في الشرق وعلى رأسهم الحجاج بن يوسف الثقفي والعالمين في المغرب وعلى رأسهم عبد العزيز بن مروان أخو الخليفة وولي عهده وواليه على مصر. كان كل من الحائنين يحاول أن يتفوق على الآخر بما يفتح من البلاد ، وهو تنافس محمود يرجع الفضل إليه فيما وفقت إليه دولة الإسلام في عصر عبد الملك وابنه الوليد ، وقد كانت نتيجة هذا التنافس فتح بلاد زادت من ناحية الأهمية والاتساع على كل ما فتحه المسلمون في العصر الراشدي بعد فتوح إيران ، فقد وصل المسلمون إلى غربي الصين ودخلوا حوض السند من ناحية الشرق على أيدي الفاتحين الكبار مثل قتيبة بن مسلم الباهلي ومحمد بن القاسم

أما في الجناح الغربي ، وهو موضوع حديثنا الآن فقد بدأ عصر جديد من الفتوح بفضل ما قام به عقبة بن نافع وم جاء بعده من كبار الفاتحين ، وأول أولئك الفاتحين الجدد حسان بن النعمان الذي سينتقل القضاء عن المقاطعة الفعلية للروم والبربر في أفريقية .

كان حسان من كبار رجال عبد الملك ، وكان رجلاً شريفاً ينتسب إلى آل غسان ولهذا كان لقبه العساني ، ومع علو سنه إلا أن شخصيته وخبرته وأمانته مكنته من القيام بهذه المهمة التي وكلها إليه الخلافة ، فسار فيمن معه نحو كسيلة والتقى الجانبان في معركة حاسمة سنة ٧٤ هـ / ٦٩٣ م وانهزم كسيلة وقتل ، وبعد التخلص من كسيلة بدأ حسان في تنظيم أمور أفريقية ووجه همه إلى الروم وكانت حاميتهم لا تزال قوية في قرطاجنة فوجد حسان أنه لا بد من الاستيلاء على ذلك البلد وتم له ذلك فعلاً ، ثم هدم منشآت الميناء حتى لا تعود إليه أساطيل الروم وعاد حسان بعد ذلك إلى القيروان . وبعد أن استراح فترة قصيرة كان يحسب أن كل مقاومة فعلية قد انتهت وأن أوان التنظيم قد حان ولكنه فوجيء بما لم يكن في حسابان أحد .

### الكاهنة :

ذلك أن زعيمة بربرية ظهرت في الميدان تتحدى العرب بسميها العرب الكاهنة ولا نعرف نحن اسمها على وجه الدقة فإن بعض المؤرخين يسمونها داهيا بنت

وأما ، ولكن هذه تسمية مأخوذة من القصص الشعبي ولا شك . ظهرت هذه المرأة في جبال الأوراس على رأس قبيلة من أكبر قبائل البئر الزناتية تسمى قبيلة جراوة وتحدث العرب وأعلنت أنها لن تستريح حتى تخرجهم نهائياً من بلاد أفريقية ، ويبدو أن هذه المرأة عندما رأت أن العرب كسروا شوكة البرانس بالقضاء على كسيلة ، قد رأت أن دورها قد جاء فترأت أن تبادر العرب قبل أن يبادروها .

بصور المؤرخون العرب هذه المرأة في صورة هي أقرب إلى شخصيات الأساطير ، فالكاينة هذه ساحرة شديدة السمة في حوالى الخمسين من عمرها وهي امرأة ذات شخصية خلابة ولها قدرة على الإتيان بأعمال السحر والكهانة والتنبؤ بما سيحدث . وبطبيعة الحال كان ذلك الخبر مفاجأة لحسان ، ولكنه بما عرف عنه من البسالة ويعد النظر عرف أن هذه المرأة من الممكن أن تسبب للعرب متاعب كبيرة ، لأنها كانت متحصنة في جبال الأوراس ، وهي الطرف الشرقي لجبال الأطلس بجمهورية الجزائر في إقليم قسنطينة وما يليها شمالاً وجنوباً ، وكان من الممكن لهذا أن تسبب متاعب جديدة للعرب ، ولهذا نجد حساناً يتحسّر نحوها والنقى معها في معركة حامية يهزم فيها حسان ويضطر إلى الارتداد إلى برقة ، لأن تلك المرأة طاردته حتى أخرجه من أفريقية وطرابلس ، وهناك في برقة تحصن حسان وبنى بيوتاً تسمى قصور حسان وأرسل للخليفة يطلب المدد .

أما الكاينة فقد اطمأنت إلى أن العرب قد ابتعدوا عن بلادها فعادت إلى مواطنها ، وظنت أن العرب لا يطلبون من هذه البلاد إلا المعائن ، فقررت تخريب الطريق الذي يسلكه العرب حتى لا يبقى لهم مطمع في أفريقية فأمرت رجالها بقطع الأشجار وتهديم القرى وإحراق الزروع فكان لعملها هذا أسوأ الأثر على حركتها . لأن أصحاب الأشجار والزروع والقرى كانوا من البربر الحضر أي البرانس فنفروا منها نفوراً شديداً وأرسلوا إلى حسان يستغيثون به . وكانت الكاينة قد أسرته نفراً من رجال المسلمين من بينهم رجل يدعى خالد بن يزيد فتبنته واتخذته مشيراً لها .

وعندما وصلت إلى حسان الإمدادات سنة ٧٩ هـ / ٦٩٨ م نهض للقاء



الكاهنة وإلتقاء المسلمين في أفريقية ، وكذلك لإغاثة البربر الذين استنجدوا به فزادت الكاهنة في عمليات التخريب حتى جعلت البلاد التي تعرف بتونس الآن خراباً ويسمى المؤرخون ذلك بخراب أفريقية الأول ، وسيكون هناك خراب ثانٍ لأفريقية على يد العرب الهلالية في القرن الخامس الهجري كما يقولون ، ويذهب المؤرخون الفرنسيون إلى القول بأن ذلك التخريب الأول لم يتم على أيدي الكاهنة وإنما قام به العرب أنفسهم ونسبوه إلى الكاهنة معتمدين في ذلك على بعض آراء خاطئة لاين خلدون يقول فيها : « إن العرب إذا دخلوا قطراً عامراً خربوه » ومن أقواله أيضاً : « إذا عربت خربت » ، وذلك في إطار تفكيره عن الصراع بين البدو والحضر وتوله هذا داخل فيما يسمى بنبوة العمران

هذه كلها آراء غير سليمة في جملتها ، وخاصة فيما يتصل بكلامه عن موقف العرب من الحضارة وزعمه أنهم لا يتقبلون إلا على البسلطة ( جمع بسيط ) وذلك كله ينبغي أن يكون اليوم موضع دراسة جادة مما نحن العرب<sup>(١)</sup> ، المهم لدينا أن الكاهنة أنزلت خراباً واسعاً بأفريقية

ويذكر المؤرخون العرب وخاصة عبد الرحمن بن عبد الحكم « أن أفريقية كانت ظلاً واحداً من بركة إلى طنجة فخربت ذلك كله الكاهنة » ، هذه أيضاً مبالغة وعدم فهم من ابن عبد الحكم - فأولاً . لم تكن أفريقية بهذا العمران عند الفتح العربي . وثانياً : ليس من المعقول أن تخرب امرأة واحدة ذلك العمران كله ، ونستطيع اليوم تفسير هذه الظاهرة أن نقول : إن الكاهنة بالفعل قامت ببعض أعمال التخريب للأسباب التي ذكرناها . واستمر التخريب بعد ذلك لسوء الحكم وسياسات الولاة وما سنرى من الصراع السياسي الشديد بين العرب فيما بين بعضهم وبعض من ناحية ، وبين العرب والبربر من ناحية أخرى .

ثم كان اللقاء الحاسم بين حسان والكاهنة وسط جبال الأوراس وكان خالد بن يزيد يراسل حساناً ويبلغه سرا بأحوال الكاهنة وتذمر الناس عن أعمالها وأحسنت هي بأنها لن تستطيع الصمود أمام العرب مرة أخرى وتنبأت أنها

( ١ ) أي لا بد لنا من إعادة النظر في آراء ابن خلدون هذه .

مقتولة ، فنادت خالد بن يزيد وطلبت إليه أن يستأمن لولديها عند حسان وفعل خالد بن يزيد ذلك ، أما هي فصمدت وقالت إنها لا بد أن تحارب حتى الموت لأن الملوك لا يستسلمون ، وفي سنة ٨٠ هـ / ٦٩٩ م ، أتى بعد عودة حسان إلى أفريقية بنحو عام ، دارت المعركة الحاسمة في موضع من جبال الأوراس لا نعرفه على وجه التحديد ، ولكن المؤرخين يقولون إن المعركة كانت عند نهر نيسنى ولا نعرف نهراً في أفريقية أو المغرب بهذا الاسم ، على أي حال قضى العرب ببسالتهم المعروفة على جيش الكاهنة وقتلوها وقضوا بذلك على المقاومة الفعلية للبربر في ذلك الجناح الغربي من الدولة الإسلامية .

وليس معنى ذلك أن مقتل الكاهنة كان آخر لقاء بين العرب والبربر ، لأنه بقيت أمامنا فصول طويلة من الصراع في المغرب ثم في الأندلس حتى تستقر سيادة العرب والإسلام على كل الجناح الغربي لدولة الإسلام كما سنرى .

وعاد حسان بعد ذلك النصر إلى القيروان وقد حزم أمره على أن يتم عمله بالقضاء على كل بقية للروم في أفريقية فاستولى على بلدة قرطاجنة وخربها تماماً ومرت بقايا الروم إلى صقلية وجزر البحر ولم يبق لهم بعد ذلك في المغرب إلا بقايا قليلة اندرجت في السكان ، ولا نسمع بعد ذلك عن حركة ذات شأن لهم

**تنظيم الإدارة الإسلامية في المغرب ومدايعة التحول الفعلي لأهل البلاد إلى الإسلام :**

- هكذا أتم حسان بن النعمان فتح أفريقية والمغرب الأوسط ، ورأى أن عليه قبل أن يسترسل في الأعمال العسكرية أن ينظم هذه البلاد الواسعة التي دانت للإسلام بعد ما يقرب من ٦٠ سنة من الصراع الدموي ، فقد بدأ فتح المغرب على يد عمرو بن العاص سنة ٢٦ هـ / ٦٤٣ م وهما نحن مع حسان بن النعمان عام ٨٢ هـ / ٧٠١ م .

وبعد تنظيم مدينة القيروان وإعادة بناء مسجدها وتوسيعها على نحو تتسع معه لجموع العرب والمسلمين التي سكنتها ، نظر حسان في موضوع التنظيم الإداري والمالي

وإنما واجه حسان مشكلة لم يواجهها غيره من حكام المسلمين في الغرب إلى الآن. ذلك أن الذين فتحوا مصر مثلاً دخلوا بلداً منظماً بالفعل من الناحية الإدارية مقسماً إلى ما يمكن أن نسميه مديريات أو محافظات، وكانت تسمى في ذلك الحين بالكور جمع كورة، فما كان عليهم إلا أن يدخلوا ما تنس إليه الحاجة من التعديلات على هذا النظام وتعريب الدواوين والنظم دون صعوبة تذكر. هكذا فعل الذين فتحوا العراق أو فارس أو مصر وغيرها من البلاد ذات التنظيمات الإدارية والمالية المتوارثة القديمة. أما في المغرب فقد وجد العرب أنفسهم في بلاد لم يسبق تنظيمها إدارياً ولا مالياً. كذلك لم يسبق لها أو لأهلها أن عرفوا شيئاً يسمى تنظيمًا من أي نوع، لأن أساس أي تنظيم من هذا النوع هي الوحدات الإدارية القديمة وعواصمها وما جرت به العادة قبل الفتح العربي في تسيير أمور الناس والدولة. أما في أفريقية وطرابلس والمغرب الأوسط فما كان هناك تنظيم إلا على الساحل، أما العرب فقد أوغلوا في البلاد وفتحوا مواطن البربر في دواخل البلاد وهم قبائل، والقبائل لا تعرف العواصم ولا الضرائب، لأن القبائل بطبيعتها لا يمكن ضبطها كما يضبط أهل الأراضي المزروعة. هنا نجد أن حساناً بلجاً إلى ما لجأ إليه المسلمون في تنظيم الجزيرة العربية، فبذره أيضاً بلاد كانت قبائل، وإذا كانت الوحدة الإدارية والمالية في بلاد الحضر هي الكور أو المديريات وعواصمها وما يتبع كل عاصمة من زمام أو حوز، فإن الوحدة في بلاد البدو والقبائل هي القبيلة ونطاقها ومجالها الحيوي، لأن القبائل كما سبق أن ذكرنا تعيش في صحاريها ولكل منها مجالها، والمجال يتحدد بموارد المياه ومواضع الكلأ التي توجد في المجال. والقبيلة تتحرك طوال العام في مجالاتها حسب نظام معروف في الحياة البدوية، وهي ليست حياة فرضى وبدائية مطلقة وإنما هي حياة منظمة وفق النظام المعروف في كل مناطق البدو في الدنيا. ومن الخطأ أن نتصور أن هناك قبيلة كانت تنتقل في شبه الجزيرة باستمرار وبدون توقف، لأن ذلك منطقياً غير ممكن، واجتماعياً مستحيل. ولم نسمع قط أن قبيلة عربية خرجت من حضرموت واستمرت في التنقل حتى الشام. وإنما كانت هناك لكل قبيلة منطقتها الخاصة بها المعترف بها من جاراتها، وعيون الماء في هذه المنطقة ملك للقبيلة وهي تنتقل في مجالها هذا بقطعانها وخيامها وكلما أكلت

القطعان الحشائش في موقع انتقلت القبيلة إلى غيره . وكانت العادة أن يكون لكل قبيلة في مجالها مشى ومصيف فالمشى في القيعان والوديان حيث يتجمع ماء المطر وتنبث الحشائش ، والصيف في أعالي التلال والجبال وسطوحها حيث الجو مقبول محتمل في الصيف والحشائش التي نبتت على أمطار الشتاء جافة تصلح للرعى .

لهذا نجد أن الفاتح العربي للمغرب رأى أن أحسن الطرق لتنظيم هذه البلاد هو أن يعتمد على الخطوط الرئيسية للتنظيم السياسي القديم الذي كان لا يشمل إلا جزءاً صغيراً من الساحل ، فأقر تنظيمه على ماجرى الأمر عليه مع تعديل طفيف اقتضته ظروف الدولة مثل نقل العاصمة من قرطاجنة إلى القيروان

وبعد ذلك قسم العرب الدواخل على أساس منازل القبائل ، أي اعتبار مجال كل قبيلة كبيرة قسماً إدارياً والاتفاق مع رؤساء القبائل على مقادير الجبايات ومواعيدها وتكليف أولئك الرؤساء بجماعة القضاة والموظفين الآخرين الذين ترسلهم الدولة ومعاونتهم على تنفيذ أحكامهم والقيام بمسئوليات وظائفهم .

وبطبيعة الحال في بلاد مثل بلاد المغرب تنقسم طبيعياً إلى أشرطة أو مناطق عرضية موازية للسواحل تقريباً ، وقد ذكرناها فيما سبق ، كان لابد من اتخاذ بعض المدن والقرى الصغيرة الداخلية القائمة في هذه النطاقات أساساً من أسس التنظيم ، أي اعتبارها قواعد إدارية لما يحيط بها من الأراضي ، وعلى هذا فإن حسان بن النعمان قسم بلاد المغرب إدارياً كما يلي :

١ - فيما يتصل بإقليم برقة وهو الذي قلنا إنه يحرف في القديم باسم سيريانيكا ( يسمى حالياً باسم إقليم بنغازي ) هذا الجزء اعتبر تابعاً لحصر من الناحية الإدارية والمالية ، ولكننا لا نلاحظ أثراً لذلك فيما يمر بنا من أحداث الفتح وعصر السيادة ، بمعنى أن برقة أصبحت إقليمياً في الظل ، يختفى في معظم الأحيان ولا يظهر إلا في مناسبات قليلة ولا نكاد نسمع به إلا ابتداء من الغزوة الهلالية ، وما كان لبعض بطون الهلاليين وحلفائهم من شأن فيها ، وفيما عدا ذلك فإننا لا نسمع ببرقة إلا قليلاً . ومع ذلك فمن الثابت أنها كانت وحدة سياسية قائمة بذاتها ، والأرجح أنها كانت مستقلة عن كل سلطان خارجي وإن لم يكن

لدينا تاريخ لها في تلك العصور الأولى ، وكانت تمتد من ساحل البحر إلى زويلة في الداخل الشرقية لإقليم فزان ، وكانت قاعدته السياسية مدينة برقة ، ولكن كتب الرحالين تحدثنا عن انتظام الحياة القبلية في الإقليم وازدهار مدنه التي كانت في نفس الوقت محطات قوافل تمتد في حدود عمل صرت إلى السلوم ، وهي المدخل إلى مصر . هنا عاشت دائما قبائل لواتة وهوارة ومن نزل بلادها من مهاجرة العرب وقد هاجرت مع الفتح جماعات من لواتة وهوارة غرباً .

٢ - ويبل ذلك غرباً إقليم طرابلس ويشمل المساحة الممتدة من بلدة صرت إلى صبرة قرب الحدود التونسية الحالية وعاصمة هذا الجزء الذي يسمى طرابلس ويتقسم إقليم طرابلس بصفة عامة إلى الأقسام الإدارية التالية ويسمى كل منها عملاً والجمع أعمال وهي .

( أ ) عمل صرت ، ( ب ) عمل طرابلس .

( ج ) عمل صبرة . ( د ) جبل نفوسة .

وقد سبق أن ذكرنا أن جبل نفوسة كان في ذلك العصر حلاً مسكوناً كثير الزروع والمراعى ، وكانت تسكنه قبيلة نفوسة وهي أكبر القبائل البربرية في ذلك الإقليم وسيكون لها دور كبير في تاريخ المغرب الإسلامي وخاصة في تاريخ دولة بنى رستم الخارجية الإباضية ، لأن النفوسيين دخلوا ذلك المذهب وثبتوا عليه وكان لهم فيه تاريخ طويل .

٣ - إقليم فزان : وهو في الداخل على بعد نحو ٨٠٠ كم من الساحل ويمتد هذا الإقليم حتى يتصل بإقليم صحراوي آخر خارج عن بلاد المغرب هو إقليم كوار . وهو إقليم واحات يصل المغرب بأفريقية الإدارية عند إقليم تشاد الحالي .

وكانت فزان دائماً إقليمياً عامراً بالواحات والتمدن والقرى والمياه وسيهتم به العرب اهتماماً خاصاً وسينشرون فيه الإسلام وسيكون له تاريخ مجيد في العصور الإسلامية .

٤ - إقليم أفريقية - وعاصمته القيروان - . ويبدأ عند بلدة قابس ويمتد غرباً

حتى ينتهي عند حدود ما يعرف اليوم بولاية قسطنطينية الحالية

ولكن مصطلح أفريقية يطلق في التقسيم الإداري العربي على ثلاثة أقسام

أولها عمل طرابلس الذي ذكرناه بحدوده ، ثم عمل أفريقية الذي يقابل بلاد تونس الحالية ، وبني ذلك شرقاً عمل الزاب أو إقليم الزاب ، وهو الجزء الشرقي من جمهورية الجزائر الحالية ، وحده الغربي مجرى نهر شلف وهو نهر صغير ينبع من جبال الأوراس جنوبى مدينة الجزائر الحالية ، ثم يسير شمالاً حتى إذا اقترب من البحر قرب موقع مدينة الجزائر انحرف إلى الغرب وسار بمحاذاة الساحل حتى يصب في البحر المتوسط قرب وهران الحالية . والمجرى الأعلى لنهر شلف الذي يسير من الجنوب إلى الشمال هو الذى يمثل الحد الفاصل بين إقليم أفريقية بأقسامه الثلاثة ( طرابلس وأفريقية والزاب ) والمغرب الأوسط .

٥ - المغرب الأوسط : ويشمل المساحة الممتدة من المجرى الأعلى لنهر شلف إلى مجرى نهر الملوية ، وهو نهر ينبع من جبال الأطلس جنوبى المغرب الأقصى ثم يتجه شمالاً حتى يصب في البحر المتوسط إلى الشرق من ميناء مليلة الحالية وهو الحد الفاصل الطبى بين المنطقة الأوسط والأقصى وإن كانت الحدود السياسية للمغرب الأقصى تسير اليوم شرقى هذا النهر فتدخل فيه مناطق وجدة وجراوة وتاوريرت ، أى أنها تمتد اليوم مسافة قليلة شرقى بحرى نهر الملوية .

٦ - ما يلى ذلك إلى الغرب وحتى المحيط أطلق عليه اسم المغرب الأقصى ، واعتبر حسان القبائل في هذا الإقليم وحدات إدارية ، أى أنه قدر الأموال عليها على أساس القبائل النازلة فيها ، فكل قبيلة عليها قدر من المال تؤديه ، وكان يدفع في الغالب عيناً ، وجرت العادة في ذلك العصر على أن تقدم القبائل مقاتلين ينضمون إلى القوة العسكرية العربية العاملة في المغرب ، ويعتبر تقديم أولئك المقاتلين جزءاً من المال المقرر على القبيلة ، ونتيجة لذلك كثر انضمام البربر إلى الجيوش العربية على نحو لا نجد له مثلاً فيما فتحه العرب من البلاد إلى ذلك الحين إلا في إيران وبلاد الترك ، والنتيجة أن الجيش العربى أو الجيش الإسلامى العامل في المغرب تضخمت أعداده بهذه الجموع البربرية . ومن البديهي أن البربري الذي يدخل في الجيش الإسلامى يعتنق الإسلام ، ولهذا كان ذلك من أكبر العوامل في إسلام أهل

المغرب ، ونقطة البداية الواضحة هنا هي القوة التي انضمت إلى حسان ، مع ولدي الكاهنة ، وعددها اثنا عشر ألف رجل ، تولى قيادتهم ابنا الكاهنة ، وقد سميت الجماعة البربرية التي انضمت إلى جيوش المسلمين بالرهائن ، ولم يكونوا في الحقيقة رهاثن ، وإنما هم ضمان لطاعة بقية أهلهم في مواطنهم

بعد ذلك رأى حسان أن يتم فتح أفريقية ، فقرر إزالة مدينة قرطاجنة تماماً حتى يتلاشى أمر الروم في أفريقية والمغرب ، وبالفعل خرب حسان ما بقى من قرطاجنة ذات التاريخ القديم الباهر ، فلم يعد لها بعد ذلك أثر يذكر ، غير أن الفرنسيين عندما احتلوا إقليم تونس أحيوها من حديد في صورة ضاحية لمدينة تونس ، عرفت باسمها الفرنسي وهو قرطاج ، وقد أصبحت جزءاً من مدينة تونس

ورأى حسان أن المغرب أو أفريقية لا تستغنى عن ميناء كبير ، لأن أفريقية إقليم بحري ، وإذا نظرنا إلى الخريطة وجدنا أنها في جملتها عبارة عن شبه جزيرة داخل البحر ، وسواحلها الشرقية والشمالية مئبئة بالموانئ الطبيعية الصغيرة والكبيرة ، ولهذا كان لا بد لحسان من أن ينشئ لأفريقية ميناء يحل محل قرطاجنة .

### إنشاء ميناء تونس :

اختار حسان لإنشاء الميناء الإسلامي الجديد موضعاً يقع إلى الجنوب الغربي من قرطاجنة ، ونظراً إلى أن العرب كانوا ينشئون المدن على أساس صحراوي تقريباً ، أي إنهم كانوا يشترطون في المدينة التي ينشئونها أن تكون وسط إقليم مزراع لحاجة الخيل والجمال ، فإن حساناً وجد نفسه مضطراً إلى مخالفة التقاليد العربي عندما أراد إنشاء الميناء الجديد . كانت هذه أول مرة ينشئ فيها العرب ميناء ، وجمعاً بين ما يتطلبه إنشاء ميناء من ضرورة وجودها على الساحل وبعدها عنه في نفس الوقت اختار حسان موضع سبعة تقع على الساحل ، والسبعة هي منطقة رملية ، ولكن رمالها ليست سائلة بل رمال ثابتة متماسكة بفعل الرطوبة .

وكانت هذه السبعة تمتد من الساحل إلى مسافة كبيرة في الداخل ، فرأى

حسان أن موقعها يصلح لإنشاء مينائه ، واختار موضع إنشاء الميناء عند نهاية السبخة من داخل الأرض ، وشق في رمال السبخة قناة واسعة عميقة خدّرتقها من ساحل البحر إلى نهايتها عند التقائها بالأرض الصلبة ، وجعل القناة من السعة بحيث تسمح بدخول عدد من المراكب وخروجها ، وبذلك أصبحت الميناء آمنة من الهجرم من ناحية البحر ، لأن بينها وبين البحر هذه السبخة التي تشقها القناة ، وقد بدأ حسان بإنشاء دار الصناعة أي مصنع بناء السفن ومساكن العمال والبحريين ، حول السبخة ، واستعان في إنشاء دار الصناعة بعدد من أقباط مصر أرسلهم إليه وإلى مصر وسميت الميناء الجديدة « تونس » لأنه كانت توجد قرب موضعها قرية قديمة تسمى تينس ، وكانت السبخة تقع على جزء من خليج واسع يسمى خليج رانيس ، وقد عمر البناء بسرعة وتحول إلى مدينة من أعمار مدن أفريقية وميناء من أكبر موانئ الإسلام في البحر المتوسط .

بإنشاء ذلك الميناء والقضاء على قوة الروم ومينائهم ، دخل تاريخ أفريقية الإسلامية في دور جديد ، ولهذا يعتبر حسان بن النعمان العسائي من أكابر بناء الدولة الإسلامية . فهذا التنظيم الإداري والمالي ، الذي وضعه لأفريقية ، حول هذه الناحية أو هذه الولاية الجديدة إلى قاعدة إسلامية ينطلق منها العرب إلى ما يليها غرباً ، ثم إن ميناء تونس فتح أبواب أفريقية من جديد لتستعيد مركزها القديم في البحر المتوسط .

وبينما كان العمل في إنشاء تونس يسير في طريقه ، كان حسان يواصل عمله في مدوء ، فأعاد تنظيم القيروان وأصلح مسجدها ووسعه ، ثم فوجيء بقرار عزله وقد تم إنشاء تونس عام ٨٤ هـ / ٧٠٣ م

جاء قرار العزل بعد أربع سنوات من قضائه على الكاظمة . وبعد سنة واحدة من إنشاء تونس ، ولم يكن عزله عن قلة كفاية ، وإنما كان السبب أن وإلى مصر وهو عبد العزيز بن مروان أخو الخليفة عبد الملك بن مروان وولي عهده ، عندما رأى ازدهار أفريقية وتحولها إلى قطر غني فيه إمكانيات واسعة للفتوح والمكاسب والمغانم طمع فيها لنفسه ، وكان عبد الملك بن مروان - الخليفة الأموي - يداري أخاه ، لأنه كان يرجو منه أن يتنازل عن ولاية العهد لابنه الوليد ، لذلك فعندما



عزل عبد العزيز بن مروان حسان بن النعمان لم يتوقف الخليفة في الأمر ، وتلقى حسان قرار العزل بنفس طيبة وإن كان ذلك قد أغضبه ، وعاد إلى مصر ، وهناك حاول عبد العزيز بن مروان أن يسترضيه لرفض ذلك ، وعرض عليه عند ذلك أن يرده إلى ولايته فابى وأقسم ألا ين لبني أمية عملاً بعد ذلك ، وعلى أي حال فقد كان حسان إذ ذاك شيخاً على السن ، ولم يكن يعنيه كثيراً أن يدخل في مناقشات تفسد الأمر بينه وبين بني أمية ، وهكذا عاد إلى قومه في الشام ولم نعد نسمع عنه شيئاً بعد ذلك رغم العمل الكبير الذي قام به كما رأينا ، وبصفة عامة نلاحظ أن الدولة العربية في ذلك العصر كانت شديدة الإهمال والتهاون في شأن عظماء الرجال الذين ساهموا بأنصبة كبيرة في إقامة دولة الإسلام .

### ولاية موسى بن نصير :

وكان الرجل الذي اختاره عبد العزيز بن مروان لولاية أفريقية شخصية فريدة في بابها من كل ناحية وهو موسى بن نصير .

وموسى هو أحد أولاد نصير الذي كان من أسرى بلدة صغيرة في باقية الشام شرقي العراق تسمى عين التمر . أسر خالد بن الوليد فأسلم على يديه وأصبح من رجاله ، ونشأ ابنه موسى في جو عربي إسلامي فنحنه يستعرب ويأخذ كل أخلاق العرب حتى حسبه المؤرخون في حملة العرب ونسيبوه إلى قبيلة لخم ، وهو نفسه نسب نفسه إلى الانتصار ، إلا أن أصله غير العربي يتلشى أمام شخصيته العربية التي ظهر بها في التاريخ ، فإننا نجد أنفسنا أمام شاب عربي يتدخل في السياسة والحرب ويعمل في خدمة بني أمية ويشترك في السياسة والإدارة فنسمع عنه أنه تولى رئاسة حرس معاوية بن أبي سفيان ثم نجده بعد ذلك في خدمة عبد الملك بن مروان ، فمرسله مساعداً لأخيه الأصغر بشر بن مروان الذي ولوه البصرة . وكان بشر شاباً صغيراً تولى البصرة على رغم احتجاج الحجاج ولهذا كان الحجاج يكره موسى بن نصير ويتهمة بأنه يعد يده إلى الأموال ، وفي يوم من الأيام طالبه الحجاج بمبلغ ضخيم واتهمه بخيانة الدولة فهرب ولجأ إلى عبد العزيز بن مروان وإلى مصر فأدى عنه جزءاً كبيراً من ذلك المال وأصطنعه ثم ولاه أفريقية .

وقد أنكر عبد الملك هذا الاختيار ولكن عبد العزيز أكد لآخيه أن مرشحاه يفوق حساناً ومن سبقه في النشاط والقدرة المالية ، ومن ناحية أخرى نجد أن موسى تعهد لعبد الملك بغنائم وفتوح تفوق كل من سبقه ، وهذا الوعد من ناحيته كان ضرراً عليه في النهاية ، لأنه اضطره إلى أن يقوم بنشاط واسع في الناحية العسكرية في أفريقية دون أن تكون هناك ضرورة ، فإن الناس في المغرب كانوا مستعدين بكافة للدخول في الإسلام دون حرب ، ولكن ذلك لم يكن يحقق أطماع موسى إذ أنه كان يحول بينه وبين الحصول على الغنائم .

لهذا فإن أعمال موسى بن نصير العسكرية في حملتها كانت كثيرة جداً في أفريقية ، ولكن الهدف الأساسي منها كان تقوية مركزه الشخصي في الدولة بالعمل المتوالى وإرسال مقادير ضخمة من الأموال والأسلاب والمغانم ، ومن بعض النواحي نجد أن ذلك المسلك أضرم بموسى في النهاية ، ويزيد من مسئولية موسى أنه كان له أولاد كثيرون كلهم طامعون مثل أبيهم ، فكثر الضربات التي وجهوها إلى القبائل دون حاجة ، ومع أن تلك الضربات انتهت آخر الأمر بإتمام فتح الثغرين الأوسط والأقصى إلا أنها تسببت بعد ذلك في أضرار كثيرة للدولة الإسلامية في عصر الولاة ، فقد رأى البربر أن العرب قوم قساة أصحاب مطامع مادية ومادية ، وما كانوا في الحقيقة كذلك ولكن تلك كانت عاقبة سلوك موسى .

وسنرى أن ذلك سيكون من أسباب الفتنة البربرية الكبرى التي ستقوم قرب نهاية العصر الأموي في أيام هشام بن عبد الملك بن مروان .

### أعمال موسى بن نصير في أفريقية والمغرب :

٨٥ - ٩٥ هـ / ٧٠٤ - ٧١٤ م :

بدأ موسى بن نصير بتوجيه ضربة شديدة إلى جماعة من البربر كانت تسكن في منطقة حصينة إلى الغرب من مدينة توسس الحالية ، تسمى بجبل زغوان ، وهناك أنزل مذبحاً بالناس ، وأسر ألفاً من الرؤوس كما تقسمول الخصوص ولا يعرف إن كان المراد منها أسرى من البشر أو أن الإشارة إلى مواش نهبت . على

أى حال أرسل موسى بن نصير غنائم وافرة إلى عبد العزيز بن مروان فاستعظمها ولم يصدق كتاب موسى عندما ورد إليه ، وهذه الضربة العديدة أقنعت عبد الملك بأن هذا الوالي الجديد كله وقدير للولاية كما تحدث عنه عبد العزيز بن مروان .

تشجع موسى بذلك فأخذ يرسل أولاده في قطع من الجند تنزل بالناس ضربات كهذه تعود بالغنائم الوفيرة . وكل هذا تفر الناس من المسلمين وإن كان قد عاد على موسى ومولاه بأموال كثيرة . وقد أضر موسى بنفسه ضرراً بليغاً بذلك لأنه مادام قد بدأ تلك البداية فكان لابد له من أن يستمر فيها ، وذلك أمر عسير . ثم سار موسى في اتجاه الغرب ووصل إلى بلدة صغيرة تسمى سجيوما على مقربة من تطوان الحالية ، وكانت هذه البلدة هي مفتاح الطريق ، وبعد الاستيلاء على سجيوما ونهبها ، انفتح الطريق إلى طنجة وسبحة فدخل المسلمون هاتين الميكنتين اللتين تعتبران مفتاحي البحر المتوسط ، وهذه هي المرة الثانية التي يصل فيها المسلمون إلى شاطئ الأطلسي .

هنا التقى المسلمون مرة أخرى بيليان ، وكما قلنا سابقاً فإن ذلك الاسم كان تسمية عامة أطلقها المسلمون على حاكم هذه المنطقة أياً كان .

على أي حال تفاهم المسلمون مع بيليان فهادنهم أو حالفهم ، وعاونهم بامداد عسكرية قليلة . هنا في بلاد المغرب أنشأ موسى بن نصير ولايتين إسلاميتين جديدتين :

**الأولى :** في المغرب الأوسط وتبتدئ من نهر شلف إلى نهر المولوية وسميت بالمغرب الأوسط قاعدتها تلغسان ، وأقيم عليها وال ، ومعه حامية عسكرية من العرب والبربر .

**والثانية :** تمتد من نهر المولوية إلى ساحل المحيط الأطلسي وتمتد جنوباً على وادي أم الربيع وتسمى بالمغرب الأقصى أو ولاية طنجة ، وقاعدتها طنجة ، ويقيم فيها وال ومعه قوة عسكرية عربية بربرية .

وعلى هذا تكون ولايات المغرب العربي قد أصبحت كما يلي :

١ - برقة : وكانت تابعة لمصر أو غير واضحة التبعية .

٢ - **أفريقية** : وتشمل طرابلس - وتبدأ عند قرية صغيرة إلى الغرب من صرت تسمى ثاورعا وتنتهى عند قايس ، ثم أفريقية وتشمل ما يقابل بلاد تونس الحالية تقريباً ، وإقليم الزاب وهو شرقي الجمهورية الجزائرية الحالية إلى مجرى نهر شلف ، وهذه الأقسام الثلاثة تسمى معا أفريقية .

٣ - **المغرب الأوسط** : ويمتد من مجرى شلف إلى مجرى المولوية .

٤ - **المغرب الأقصى** : ويشمل مايلي ذلك من البلاد المغربية إلى ساحل الأطلسي غرباً وإلى وادي أم الربيع جنوباً

وأقام موسى على طنجة ابنه مروان ، ثم بعث حملات أخرى غزت المناطق الواقعة جنوبى وادى أم الربيع ، ووصلت بسلطان المسلمين إلى أقصى أنحاء المغرب من ناحية الجنوب ، وهنا أنشئت ولاية جديدة تسمى سجلماسة وسجلماسة هي الواحة الكبرى التي تتكون منها مجموعة من الواحات يطلق عليها في مجموعها اسم تافيلالت ويتكون منها إقليم زراعى خصيب وافر المياه على أسوار الصحراء الكبرى ، وبعدها مباشرة - أى بعد سجلماسة - تبدأ الصحراء التي لا تنتهى إلا عند حوض السنغال ، وهناك كانت تقوم مدينة تسمى أودغشت وكلا البلدين كان محطة تجارية كبرى لمن يقطعون الصحراء ، وكانت الصحراء الكبرى في هذه الناحية الساحلية مأهولة إذ ذاك بقبايل هي خليط من البربر وسكان أفريقية المدارية ، وهذه القبائل كانت تدخل ضمن المجموعة الصنهاجية وهنا في ذلك الإقليم الصحراوي ستنشأ حركة المرابطين في القرن الهجرى الخامس . ومعنى ذلك أن قوة الدفع الإسلامى وصلت إلى ذلك البعد الساحق في ذلك التاريخ المبكر .

وفما أى في منطقة السوس أنشأ موسى الولاية الإسلامية الرابعة التي تسمى السوس أو سجلماسة وعاصمتها عند منابع نهر المولوية ، وقد ولى موسى على هذه الولاية الجديدة مولاة طارق بن زياد الوراقموى ، وتلك هي المرة الأولى التي نسمع فيها باسم ذلك الرجل الذى سيكون له دور كبير في تاريخ الإسلام عندما يتولى فتح الأندلس .

وعلى هذا يكون لدينا في المغرب الإسلامي الولايات التالية

١ - مراكشة ،

٢ - أفريقية : وتشمل أعمال طرابلس وأندريقية ثم إقليم الزاب وتصل إلى نهر شلف وعاصمتها القيروان

٣ - ولاية المغرب الأوسط : بين نهر شلف ونهر المولوية وعاصمتها تلمسان .

٤ - ولاية المغرب الأقصى : وعاصمتها طنجة

٥ - ولاية السوس أو سجلماسة : وعاصمتها سجلماسة .

وعاد موسى إلى القيروان بعد أن وضع الأساس الإداري للمغرب الإسلامي وتنظيمه ، فبنى عاصمة كل ولاية من هذه أقدمت قاعدة عربية إسلامية على رأسها وال . واستقرت جماعات من العرب فيها لتعلم أهل الناحية قواعد الإسلام ، وفي نفس الوقت أخذت العربية في الانتشار بين الناس ، وذلك لأنه على الرغم من تلك الأعمال العسكرية العنيفة التي قام بها موسى بن نصير وأولاده وقواده ، إلا أن البربر شعروا بقيمة الإسلام فأقبلوا عليه ووجدوا في دولته مكاناً واسعاً للعمل ، وبعد أن كانوا قبائل تعيش على هامش التاريخ دخلت مدينته الواسع ، وأصبح رجال القبائل البربرية أعضاء في الجماعة الإسلامية العربية وبدأ التاريخ الحقيقي لشعب البربر الكبير بعد إسلامه وتعربه ، الذي استلزم كما سنرى وقتاً طويلاً ، ولابد من الإشارة إلى حاذبية الإسلام وقوة أسره التي تمكنت من إدخال هؤلاء الناس في نطاق العروبة والإسلام .

في ذلك الحين كانت سن موسى تقارب السبعين من العمر ، ولكنه كان قوياً نشيطاً أعاد بناء ميناء تونس ، وأتمم بدار صناعتها ( وهي الميناء ومكان بناء السفن ) وهي ما نسميه نحن اليوم ترسانة ، وهي لفظة إيطالية محرفة من المصطلح العربي دار الصناعة ( ترسانة ) . ومن هذا الميناء الكبير بدأ المسلمون غاراتهم الأولى على صقلية وجزيرة سردينية . كانت غارات سريعة تعود على من يقومون بها بمغانم وفيرة ، ولكنها تبتدأ نشاط المسلمين الواسع في الحوض

الغربي للبحر المتوسط الذي كان يتحول إلى بحيرة إسلامية شيئاً فشيئاً وخاصة بعد فتح الأندلس الذي سنتحدث عنه بعد قليل ثم فتح صقلية الذي بدأ في أوائل القرن الهجري الثالث .

وبعد قليل نسمع أن مروان بن موسى بن نصير سُمّ المقام في طنجة فنقله أبوه زوري مكانه طارق بن زياد ، فاستقر هناك على رأس حامية إسلامية غالييتها من البربر ، وهكذا نرى كيف نجح الإسلام في تأمين جناحه الغربي بقوة من قوم لم يكونوا مسلمين ولا عرب قبل حين قصير ، وطارق بن زياد يعمل لنا الجيل الثالث من البربر المسلمين المستعربة ، فهو طارق بن زياد بن عبد الله وبقية الأسماء في نسبه بربرية ، ويقال مثل ذلك عن قائد آخر يعمل مع موسى وطارق يسمى حريف بن زُرعة بن أبي مدرك . وبعد ذلك وابتداء من سنة ٩٢ هـ / ٧١١ م فتح طارق وموسى الأندلس على النحو الذي سنتفصله في القسم الخاص بالأندلس من هذا الكتاب .

وبينما كان موسى يتم فتح شبه جزيرة «إيبيريا» وقع خلاف بينه وبين طارق بن زياد ، وبلغ الأمر إلى الطليعة الوليد فاستدعاهما معا وعاد موسى ، ذلك الشيخ الفريد في بابيه من أقصى جليقية ( جاليسيا ) وهي الركن الشمالي الغربي من شبه جزيرة إيبيريا إلى الشرق . ومن الغريب أنه في عودته كان يظهر لنفسه في هيئة سيد عربي عظيم ، وكلما نزل بلدة ضرب فسطاطه ( خيمته ) خارجة واستقبل الناس استقبال سيد عظيم . وكذا فعل في أشبيلية وتلمسان والقروان والفسطاط ، ثم وصل إلى غرزة ومعه طارق ، وهناك جاءه رسول من قبل ولى العهد سليمان بن عبد الملك يطلب إليه التريث قبل السير إلى دمشق ، لأن الخليفة الوليد كان مريضاً مرض الموت . وكان حليفته وولى عهده أخوه سليمان يريد أن يتسلم الهدايا والمغانم الواقعة التي كان موسى يحملها معه ، ولكن موسى ، ذلك المغامر الشيخ قاصر يحظه التسعيد مرة أخرى وأسرع السير إلى دمشق وكانت المنية قد سبقته إلى الوليد بن عبد الملك وخانه الحظ هذه المرة ، وعندما وصل إلى دمشق وجد أن الخليفة هو سليمان بن عبد الملك ( ٩٦ - ٩٩ هـ / ٧١٥ - ٧١٧ م ) فاستقبله شر استقبال ، وأخذ منه كل ما وجد معه وأغرمه مالا

وغيراً ، فمضى ذلك الرجل ، الذى أضاف إلى دولة الإسلام المغربيين الأوسط والأقصى ثم كل شبه جزيرة أيبيريا ، يسأل القبائل لكى يحصل على الفدية ، وكان في حوالى السابعة والسبعين من عمره وكان رجلاً يديناً ، يقام في الشمس دون رحمة أو هودة حتى أدى ما يسره الله له . ثم سامحه سليمان بالبساتى واتخذة نديماً ، ولكن موسى كان قد كره الدنيا والناس ولم يسعد مع سليمان ، وبعد ذلك لم تعد تسمع عنه ، ومات في ظلال النسيان ، أما طارق العظيم فقد اختفى هو الآخر من الوجود في صمت ، ولكنه بقي في التاريخ ، مثله في ذلك مثل غيره من منشئى دولة الإسلام الذين قضى عليهم سليمان بن عبد الملك من أمثال قتيبة بن مسلم الباهلي ومحمد بن القاسم الثقفي ، هؤلاء الذين وصلوا برايات الإسلام إلى داخل غرب الصين وإلى بلاد الهند وهى شمال غربى الهند فيما يعرف ببلاد الباكستان ، كل هؤلاء قضى عليهم خليفة حقدود ، ضليل الهبة زوى الشكل . وهو سليمان بن عبد الملك

وفي نهاية ولاية موسى بن نصير تنتهى فترة الفتح في تاريخ المغرب الإسلامى وهى فترة طويلة تصل إلى فوق القرنين التاسع ، فحين الآن في سنة ٩٨ هـ / ٧١٦م وفتح المغرب بدأ سنة ٢١ هـ / ٦٤٢م ولهذا فإننا نعتبر فتح المغرب عصرأ قائماً بذاته من عصور تاريخ المغرب ، في حين أن فتح مصر استغرقى سنتين ، وفتح الشام استغرق حوالى أربع سنوات وفتح العراق وإيران لم يستغرق أكثر من ثمانى أو تسع سنوات ، تنتهى بمعركة نهاوند التى تسمى بفتح الفتوح .



## عصر الولاة

يطلق مصطلح عصر الولاة في التاريخ الإسلامي ، على الفترة الواقعة بين تمام الفتح الإسلامي للبلد ، وقيام أول دولة مستقلة فيه ، أيا كانت صورة هذا الاستقلال ، فحتى في الحالات التي يكون ذلك الاستقلال فيها اسمياً أي داخلاً في إطار التبعية العامة لدولة الخلافة ، فإن هذا الوضع الجديد يستتبع تغيرات أخرى في نظام البلاد الداخل وعلاقته بالخلافة ، بل إنه في الحالات التي عاد البلد فيها إلى التبعية للخلافة ، فإن هذه التبعية لا تكون تامة قط كما كانت قبلاً ، وفي العادة إذا تغيرت الأوضاع السياسية في بلد قلن تعود إلى ما كانت عليه قبلاً قط

ففيما يتعلق بمصر مثلاً ، ينتهي عصر الولاة بقيام الدولة الطولونية في مصر سنة ٢٥٤ هـ / ٨٦٨ م ، ومع أن ابن طولون لم يستقل استقلالاً تاماً ، فإن مصر لم تعد ولاية عباسية تامة الخضوع للدولة كما كانت قبلاً ، حتى عندما زالت دولة بني طولون وعاد الحكم العباسي المباشر على يد القائد العباسي محمد بن سليمان سنة ٢٩٢ هـ / ٩٠٥ م

وفيما يتعلق بالمغرب لا ينتهي عصر الولاة في تاريخ واحد بالنسبة لأقطاره المختلفة ، فقد انتهى عصر الولاة في المغرب الأوسط بقيام الدولة المرستمية الخارجية الإباضية سنة ١٦٤ هـ / ٧٨١ م ، وفي المغرب الأقصى بقيام الدولة الإدريسية سنة ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م ، وفي أفريقية بقيام دولة بني الأغلب سنة ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م .

ولقد طال فتح العرب للمغرب كما رأينا ، وفي أثناء مراحل هذا الفتح دخلت على البلاد تغيرات بعيدة المدى ، فأسلم الكثيرون من أهلها وانضموا إلى جيوش الإسلام وأصبحت لهم بذلك كل حقوق العرب المجامدين في سبيل الإسلام ، وانتقلت إلى المغرب جماعات من العرب واستقرت في نواحيها واختلطت بأهلها وصاهرتها وبدأ يظهر جيل بربري مسلم مستعرب ، تطلع إلى أن يكون له نصيب



في إدارة بلاده . ثم إن العرب أنشأوا لأفريقية قاعدة إسلامية تحولت بعد قليل إلى مركز إشعاع إسلامي .

وقامت في مساجدها حلقات الدراسات الإسلامية ، وبدأ الجو انتفاخ العام في البلاد يتغير بتأثير الإسلام والعربية . ثم إن قيام القيروان مصراً عربياً مغربياً إسلامياً ، ذا تنظيم مدني واجتماعي جديد ، كان نقطة بداية لتغير عام في أوضاع المدن في أفريقية والمغرب كله . فهذه البلاد لم تعرف قبل العرب إلا المدن الإغريقية التي تلاشى طابعها الإغريقي وخربت وتحولت إلى قرى ، والقواعد العسكرية الرومانية التي كانت تنشأ إلى جوارها مدن رومانية صغيرة ثم القصور ، وهي القرى البربرية التي تتكسب فيها المباني ويحيط بها السور . فجاء العرب بهذا الطراز الجديد من المدن الإسلامية القابلة للتطوير والتعديل بحسب حاجات البلاد وأهلها ، فأخذ الكثير من قرى المغرب وتصوره يتحول إلى مدن إسلامية ذات جاليات عربية وجماعات إسلامية ومساجد ومكاتب لتدريس العربية ونشر قواعد الإسلام .

كل هذه كانت تطورات تسير سيراً حثيثاً أثناء عملية الفتوح ، لأن المغرب الذي عرفه عمرو بن العاص يختلف كل الاختلاف عن المغرب الذي عرفه موسى ابن نصير . ولم يتسع المجال أثناء دراسة الفتوح لدراسة هذه التطورات ، ولهذا فلا بد من الإلمام بها ونحن ندرس المغرب في عصر الولاة .

ولا يمكن النظر إلى فتوح العرب للمغرب منعزلة عن غيرها من فتوح الإسلام التي عاصرتها ، فهذه كانت عملية واحدة لها أصداء بعيدة وتأثيرات متبادلة ومشتركة بين كل البلاد التي فتحها المسلمون . ولا بد أن نأخذ في الاعتبار أيضاً طبيعة الفتوح الإسلامية ، فهي لم تكن مجرد غزوات ولا غارات ، وإنما كانت فتوحاً بالمعنى اللفظي لهذا المصطلح ، أي فتح أبواب البلاد للإسلام وإدخال أهلها في الإسلام وتحويلها إلى بلاد إسلامية ، عقيدة وحضارة وعربية إذا تيسر

وقد كانت هذه الفتوح بطبيعتها من أكبر أسباب متاعب العرب ، لأن الشعب من الشعوب إذا دخل في دولة الإسلام وأصبح شعباً مسلماً أو في ذمة الإسلام . طالب الدولة بما يفرضه الإسلام نفسه من العدالة وحكم الشرع الإسلامي . نفى

حالة تحول ناس من هذه الشعوب في الإسلام نجد أنهم يصبحون مواطنين في دولة الإسلام . لهم كل حقوق العرب وعليهم كل واجباتهم ، وبطيعة الحال لم يكن العرب مستعدين للاستجابة لهذه المطالب ، لا لأنهم كانوا طامعين أو مسلمين غير صالحين ، بل لأن هذه هي طبيعة البشر ، فالعربي الذي فتح مصر مثلاً لم يكن مستعداً بعد تمام الفتح للتنازل عن شخصيته كفاتح ، وسيد له ، كما كان يتصور ، حق السيادة على الشعب الذي فتحه ولم يكن كذلك مستعداً لمنح أولئك المسلمين الجدد كل حقوقهم ومساواتهم بنفسه ، فهذه دولته والدين الإسلامي هو الذي حمله وقا تل في سبيله ، ثم إنه عربي يتكلم لغة القرآن وقومه قوم الرسول ﷺ ، فكيف تطالبه بالتنازل سريعاً عن امتيازاته ؟ ولهذا قلنا إن المشكلة الكبرى التي واجهت العرب في عصر الفتوح هي الإسلام نفسه ، ومن الغريب أننا نلاحظ في أكثر من مناسبة أن المسلمين الجدد يتمسكون بالإسلام ويهتمون العرب بالانصراف عن سبيله ، ويطالبونهم بتطبيق قواعد الإسلام ويحتجون عليهم بنص القرآن ، لا لأن العرب كانوا لا يذكرون نصوص القرآن ، بل لأن ما كان القرآن يطلبه منهم ، كان يحتاج إلى وقت لكي يهضموه ويتمثلوه ويطبقوه ، فهم أولاً وقبل كل شيء بشر ، وقد كانوا في حاجة إلى وقت لكي يتخل قلبهم بشاشة الإسلام ورحمته وإنسانيته . وكان الكثيرون جداً من أولئك العرب الفاتحين قد أسلموا على عجل ، لم تمنح لهم فرصة التفكير والتأمل حتى يصبح كياناتهم إسلامياً أو مسلماً حقاً ، ولهذا فقد انحرفوا عن جادة الإسلام ، لا عن كفر أو سوء نية بل عن سوء فهم وقلة علم ، فظلت الجاهلية قائمة في نفوسهم زمناً طويلاً .

وعندما ننظر إلى المشاكل التي واجهت المسلمين في مهاجرهم الجديدة ، وننظر إلى الخلفية التي تكون فيها رجال ، مثل الحجاج بن يوسف الثقفي أو زياد ابن أبيه أو عبيد الله بن زياد ومن إليهم من كبار ولاة الدولة الأمرية ، نجد أن نوع التكوين الذي حصلوا عليه ليس فيه ما يعين على مواجهة مشاكل الحكم . فمثلاً إذا كان هناك وال على العراق مثل الحجاج الذي يوصف بأنه ظالم وحبار فتلأخذ أن ذلك الرجل موظف عام ، أي أنه يتصرف في الحكم بحسب ما يصدر إليه من تعليمات الخليفة . أو كما نقول اليوم الحكومة المركزية ، وهذه الحكومة المركزية

تطالبه بمبالغ معينة من الأموال ، وهي تطالبه أيضا بمحاربة الخوارج من ناحية ومواصلات الفتح من ناحية أخرى . وهنا نلاحظ كيف أن ذلك الرجل كان أمام مسؤوليات لا يستطيع التهاون بها كلها على الوجه المثالي ، فإن الجبايات التي تحصل له لا يمكنه إنقاص مقاديرها ، ثم إنه لا بد أن يدفع منها رواتب لجنده ، ومن ناحية أخرى كان عليه أن يرسل غائضاً من المال للدولة المركزية ، في حين أن من يحكمهم في العراق لا يستطيعون أداء الأموال المطلوبة منهم ، أو كانوا يرون الإسلام وهو دين العدالة لن يشدد رجاله معهم في شئون الجبايات ، ومن ثم فقد كانوا يرون ألا يجبي منهم مال الجزية ، ثم لأن مطالب الحياة كانت ترتفع ، لأن تكاليف حياة الناس تزداد كلما ارتفع مستواهم العام ، ولهذا فقد كانوا يطالبون بالتخفيف إلى أقصى حد ، في حين أن مطالب الدولة المالية كثيرة ومتزايدة حتى لا تستطيع التخفيف ، فكيف يوفق الرجل بين هذه المتناقضات كلها ؟ .

وفي المغرب نلاحظ أننا أمام شعب يختلف عن كل ما واجه المسلمون ( العرب ) في غيره من البلاد التي فتحوها ، ففينا شعب يشبه العرب من حيث التكوين الاجتماعي والذهني ، فهنا قبائل ورجال وشيوخ قبائل كما هو الحال في جزيرة العرب .

والفهم هنا بين الحاكم والمحكوم يختلف في طبيعته عن التفاهم مثلا بين الحاكم والمحكوم في مصر ، حيث العلاقة هي علاقة جاكم بفلاحين ، أي أصحاب أرض تخرج غلة معينة محددة إلى حد ما ، أما في المغرب فقد كان ولا بد أن يتغير معنى الرئاسة ، ولا بد أن تختلف علاقة الحكم بالمحكوم في نوعها فهنا علاقة زمالة في السلاح كما نقول ، ولا يستطيع العربي أن يخاطب البربري الذي أسلم وحارب في صفوف المسلمين كما يخاطب مزارعا يقدم له غلة أرض ، ومن هنا فقد كان لا بد من أن توضع سياسة خاصة بالمغرب ، ولكن من الذي يضع هذه السياسة ؟ هنا لا نجد مجالس أو لجاناً للدراسة ، وإنما نجد أمامنا حكاما مطلوب منهم أن يجدوا حلاً ، وحلولاً ناجحة لمشاكل عسيرة على الحل أو على الأقل يتطلب حلها وقتاً ، ولكن حاجات الناس لا تنتظر ، وخصوصاً إذا كانت

حاجات معيشية ، فنحن لا نستطيع أن نقول للبربر وهم شعب كبير . انتظروا حتى تدرس الدولة مطالبكم ، ومن ناحية أخرى نجد أن الصراع في مركز الدولة على الحكم كان له أثر بعيد جداً على الأوضاع في الأقاليم ، فالمنهزمون في الصراع على السياسة يفرون إلى الأقاليم حيث يكونون بعيدين عن متناول الدولة ثم إن البلاد المفتوحة فيها مجالات واسعة للعيش ، ومن تلك الجماعات المنهزمة مثلاً الأمازيغ في المدينة ، فهؤلاء بدأت هجرتهم الجماعية إلى الولايات المفتوحة عقب انهزامهم في مناقشة المنافسة على الخلافة في سقيفة بني ساعدة عقب انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، ثم توالى عليهم بعد ذلك الضربات من قبل حلفاء بني أمية ، وخاصة ما أصاب المدينة أيام عبد الملك بن مروان ، فتنتج من ذلك هجرة جماعية من المدينة إلى الأقاليم المفتوحة ، كذلك العلويون ثم الخوارج ، هؤلاء جميعاً كانوا عندما يستقرون في ولايات مفتوحة ، يستقرون أعداء للدولة المركزية ، ويجتهدون في إشارة المشاكل ضدها وتشويه سمعتها . وكان أكثر العاملين في ذلك هم الخوارج لأنهم موقرون من الدولة ولديهم حجج وآراء لتبرير موقفهم ، هؤلاء كانوا لا يكتفون عن تحريض الناس على الحكومة الأموية وإطلاعهم على أحكام القرآن كما يفسرونها هم . وتفسيرهم يناسب آراء أهل الولايات ويرضى مطامعهم ، وفي حالة ما إذا كان الخارجى يتحدث إلى مقاتلين يتحول الغضب وعدم الرضا إلى تمرد عسكري ، وهذا هو الوضع الذي نجد أنفسنا في مواجهته بعد تمام فتح المغرب والأندلس

### الفترة المغربية الكبرى :

عندما تم فتح المغرب والأندلس كانت المشاكل قد توالى وتكاثرت ، فإن الدولة الأموية في سنة ١٠٠ هـ / ٧١٨ م ، كانت تعاني تغييراً حاسماً في أوضاعها في الداخل ، وفي علاقتها برعاياها في مركز الدولة والأقاليم ، فإن عمر بن عبد العزيز الذي حكم نيافاً وستين من سنة ٩٩ هـ / ٧١٧ م إلى سنة ١٠١ هـ / ٧١٩ م ، غير الوضع المالي في الدولة تغييراً تاماً ، عندما أنزل أو خفض مقادير الجبايات وألقى الأموال التي كان الموائى يشكون منها . والنتيجة أن الإدارة الأموية بعد عمر بن عبد العزيز كان لابد لها من خليفة قادر يستطيع مواجهة

الوضع الجديد ، ولكن الخلفاء الذين تولوا كانوا أيعد ما يكونون عن إدراك هذه الحقائق ، وبطبيعة الحال عندما يحجز الحاكم عن حل المشاكل بالمنطق أو بالعمل الإداري الخالص ، يلجأ إلى القوة والقوة تزيد المشاكل سوءاً وتنادراً ما تحل مشكلة ، وفيما يتعلق بالمغرب نجد أنه بعد تمام الفتح وبداية عصر الولاة يختار الخليفة سليمان بن عبد الملك رجلاً عربياً من مدرسة الحجاج ، يسمى يزيد بن أبي مسلم ، فاراد هذا أن يسير في أهل المغرب بسيرة الحجاج مع أهل العراق ، ناسياً أنه في المغرب يتعامل مع مقاتلين مسلمين ورفقاء سلاح ، فكانت النتيجة أن قتلوه ، وواجهت الدولة مشاكل ثورية في إقليم من أقاليمها الكبرى ، فلجأت إلى معالجتها باللين ، فوافقت على التنازل عن الطلب بأحد ثار الوالي المقتول ، وتركزت أهل أفريقية يختارون لأنفسهم والياً جديداً مؤثقاً ثم اختارت والياً على درجة كبيرة من الحكمة فاستقرت الأمور بعض الشيء ولكننا نواجه في المغرب مشكلة غريبة نعرلها في نواح أخرى من نواحي الدولة ، ولكنها هنا في المغرب والأندلس تأخذ شكلاً خطيراً ، لأن هذه المشكلة كانت تستعصى على الحل المقبول أمام الظروف الخاصة للمغرب والأندلس ، تلك هي مشكلة النزاع بين العرب الشاميين واليعنيين أو قيس وكنب ( القيسية والكنبية ) .

هذه المشكلة ، مشكلة القيسية والكنبية لم يعرفها العرب قبل الإسلام ، ولكنها نشأت عن طبيعة الظروف التي سادت أيام بني أمية ، فإن بني أمية أقاموا دولتهم على العرب ، وكان كل رجالهم ومقاتليهم من العرب ، وهؤلاء العرب هم عرب الشام ومن انضم إليهم وعرب الشام كانوا ينقسمون إلى مجموعات قليلة بعضها قيسية وبعضها كنبية ، فكان بنو أمية لكي يضمنوا الاستقرار وولاء الجند يلجأون إلى التفرقة بين الجانبين فيصابون القيسية على اليمنية مرة ، ويصابون اليمنية على القيسية مرة أخرى ، فأناروا بذلك مشكلة عويصة جداً لأنهم أحيوا العصبية القديمة ولكن على نطاق الدولة الواسع ، ففي العصر الجاهل كانت العصبية عداوات قبائل ، أي أنها كانت محدودة من حيث العنف واتساع المجال ، ولكن بعد الإسلام لم تعد القبائل مجرد قبائل ، بل أصبحت أحياناً واسعة من القبائل ، ثم إن موضوع النزاع في العصر الجاهل كان صغيراً

يمكن تلافيه ، ولكن بعد الإسلام أصبح موضوع النزاع ضخماً جداً ، وهو السيادة على الأقاليم أو على الدولة كلها ، وبهذه النسبة تزداد حدة الصراع ويصبح عسيراً على الإرضاء ، خاصة إذا أضفنا إلى ذلك مشاكل العرب البليدين (عرب الأمصار) والعرب الشاميين (أى عرب الأقاليم) وعرب الدولة (أى حنّدها الرسمي العربي) .

ولا ننسى هنا أثر الخوارج ومن إليهم من رجال الأحزاب الساخطة على الدولة العاملة على تأليب نفوس الناس وإثارتهم على الحكومة ، وفي النهاية ينبغي ألا ننسى أن هذه المشاكل عندما ثارت ، كان العصر الذهبي للدولة الأموية قد ولى ، وأصبحنا أمام خلفاء لا يميزون بآى قدرة ، ولا نجد فيهم من له كفاية إلا اثنين ، هشام بن عبد الملك وقد بذل مايسطيع لإصلاح الناحية المالية ثم مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، وكان رجلاً قادراً ولكنه جاء بعد الأوان فلم يستطع أن يعمل شيئاً .

تلك هى الخلفيات التى ينبغي أن نضعها نصب أعيننا عندما ندرس تاريخ الدولة الإسلامية أيام الانتقال العاسم من بنى أمية إلى بنى العباس .  
وفي المغرب تجد أن هناك عوامل زادت غضب الناس على الدولة حدة وعنفاً ، وأهم هذه العوامل هم الخوارج .

فالخوارج الذين انهزموا في قلب الدولة ، وقتل منهم الألوف بسيوف رجال مثل الحجاج بن يوسف وأهل بن أبى صفرة من الأزد (يعنية) اضطروا إلى الهجرة إلى الجهات التى لا تتركهم فيها يد الدولة وخاصة في عمان واليمن والمغرب .

هؤلاء الخوارج كانوا مذاهب شتى ، فمنهم المتطرفون الذين كانوا يرون أن الدولة الإسلامية أو الخلافة القائمة ، دولة غاصية هى وكل من أيدها ، فالتأراع أو التاجر الذى يدفع الضرائب للدولة يعتبر خارجاً عن الإسلام مثل الخليفة ، ومولاء هم الأزارقة أتباع شافع بن الأزرق ، الذين أعلنوا الحرب على الدولة الإسلامية وجعاعة المسلمين جملة ، ودعوة هؤلاء تلقى قبولا من ناس مثل البربر .

وخاصة برببر المغرب الأقصى الذين كانوا يعيشون خارج الحدود الرسمية للدولة الأموية .

ولكن هذه الدعوة المتطرفة لا يمكن أن تلقى قبولا من جبهة واسعة لأنها دعوة لكل إنسان للخروج بالسلاح في وجه النظام القائم ، لهذا انحصر مداها ، وظهرت فرقة أخرى هي الصفرية لقيت قبولا أكثر ، لأن أصحابها كانوا يقولون إن العدو الوحيد هو الدولة ، أما من يؤيدونها فليسوا أعداء للإسلام وإنما هم متساهلون في أحكام الإسلام وحسابهم على الله ، فهم كفار نعمة لا كفار إيمان . في حين أن رجال الدولة كفار إيمان ، فالخوارج الصفرية يتساهلون مع عامة الناس ولكنهم يقاطعونهم ، فلا متاجرة ولا معاملة ولا مصاهرة .

هذا المذهب لقي قبولا أكثر ، ولكن مذهبا خارجيا آخر وهو مذهب الإباضية ( تعبد الله بن إباض ) لقي قبولا أكثر لأنه لا يدعو إلى القيام على الدولة وإنما يدعو الناس الذين يؤمنون بأراء أصحابه ، إلى إقامة نظام سياسى لهم في النواحي التي لا تستطيع الدولة الوصول إليها ، وهم يأذنون لاتباعهم بالتعامل مع الناس تاركين الحساب لله سبحانه وتعالى

هذا المذهب ( الإباضى ) تلقى قبولا بين الناس ، وهو الوحيد من بين مذاهب الخوارج الذى قدر له أن يعيش إلى يومنا هذا ، والإباضية قرييون جداً في فهمهم للشرعية من أهل السنة ، ولهذا يحسبون عادة ضمن أهل السنة ، وسنرى بعد قليل أنه على أساس المذهب الخارجى الإباضى قامت دولة من أكبر دول المغرب هي دولة عبد الرحمن بن رستم أو الدولة الرستمية في المغرب الأوسط أو ما يعرف الآن باسم الجمهورية الجزائرية

#### تفاصيل الفتنة المغربية الكبرى :

ندخل الآن إلى بعض تفاصيل الثورة أو الفتنة الكبرى التي اجتاحت المغرب في نهاية العصر الأموى ، وخاصة في أيام هشام بن عبد الملك . وفي هذه البلاد نجد كل هذه العوامل التي ذكرناها عاملة نشيطة . فبعد مقتل يزيد بن أبى مسلم بفترة قصيرة ، أقامت الدولة على المغرب وكذلك على الأندلس ولاية من أهل الحكمة

والحكمة بتدبير الأمور ، ولكن المشاكل كانت تتزايد بصورة أصبح معها من العسير جداً على رجل واحد ، أيا كان أن يتلافها . ففي أيام هشام بن عبد الملك أقام على المغرب وال ينتسب إلى اليمينية يسمى عبيد الله بن الحبحاب . هذا الرجل ولي سنة ١١٩ هـ / ٧٢٧ م على كل غرب الدولة الإسلامية من حدود مصر إلى جبال البرت المعروفة خطاً باليرانس بين إسبانيا وفرنسا ، وهذه مسئولية في غاية الضخامة ، فمهما كانت خبرة ذلك الرجل ، فهو لن يستطيع معالجة الموقف ، خاصة إذا ذكرنا أن وراءه في دمشق خلافة ضعيفة ، ولهذا نجد أنه في أثناء ولاية ابن الحبحاب تحول الغضب العام على الحكم العربي إلى إرادة ، والإرادة تحولت إلى ثورة ، لأنه وجد من يقود الناس

بدأت الثورة في إقليم الريف الذي يسمى بإقليم طنجة ، سنة ١٢٢ هـ / ٧٤٠ م ، وانتشرت في قبائل بربرية كثيرة ضخمة ، كانها الشعوب مثل يرغواطة وغمارة ، وتولى زعامتها رجل يسمى ميسرة الفقير وبطبيعة الحال لفظ ( الفقير ) هنا ينبغي أن يفسر على أنه لقب أطلقه هو على نفسه ، لأنه يصور المثل الأعلى للمؤمن المحاهد الذي لا يطمع في شيء من متاع الدنيا ، وهو فقير إلى الله سبحانه وتعالى . ولكن المؤرخين وهم يمثلون في العادة وجهة نظر الدولة يعرفون اللقب إلى ميسرة الحقير ويتهمون بالخروج عن الإسلام وأنه ابتكر قرآناً وكفر بالله ، إلى آخر هذه الدعاوى التي ينبغي أن نأخذها بكل حذر ، لأنها صادرة من جبهة معادية لميسرة ، ولكن ذلك لا يمنع من القول بأن مثل ذلك الرجل الذي تولى قيادة جماهير ضخمة غاضبة ، وأصبح إماماً ، كان عليه أن يحل على أساس ديني مشاكل لم يكن له علم بطبيعتها أو بالحلول الممكنة لها . فكان لابد أن يبتكر قدر المستطاع حتى لا يفقد الزعامة ، ومن بين مبتكراته من الممكن أن تكون آراء خارجة على الإسلام .

وعلى أي حال نلاحظ أن ذلك الرجل جمع جموعه وسار للقاء العرب ، لا على أنهم عرب وإنما على أنهم حكام ظالمون ، ففي صفوف ميسرة كان هناك عرب غاضبون على الدولة الأموية يريدون تغيير النظام ، ومعظم أولئك العرب من الخوارج ، وسارت الجيوش الثائرة على النظام القائم ، لا على العرب ، فهي ليست



فتنة بربرية ضد عرب ، وإنما هي ثورة داخلية في داخل الدولة الإسلامية ومقاصدها وأهدافها إسلامية . وليس من الضروري أن تكون مظهراً للثورة الإقليمية بربرية . ولم يجد عبيد الله بن الحبحاب جنداً كافياً ليرسله لمواجهة الثائرين ، فجمع من استطاع من الجند وأرسلهم بقيادة رجل يسمى خالد بن حبيب للإلقاء النوار .

وكان هؤلاء قد تقدموا حتى بلغوا مجرى نهر شلف بزعامة ميسرة الملقب ، وتردد ميسرة في اللقاء فقتله أتباعه ، لأنهم كانوا يرون التردد عاراً مثلهم في ذلك مثل بقية الخوارج ، وولوا على أنفسهم رجلاً يسمى خالد بن يزيد الزناتي ، فتراجع إلى طنجة وعلى مقربة منها التقى بالجيش العربي في معركة حامية تسمى معركة الأشراف بسبب كثرة من قتل فيها من أشراف العرب ، وقد انهزم فيها العرب .

عقب هذا تمرد عرب القيروان على عبيد الله بن الحبحاب فاستدعاه الخليفة هشام ، وأرسل إلى أفريقية جيشاً عدته ٢٧.٠٠٠ مقاتل ، عليهم قائد من غلاة القيسيين الشاميين ، يسمى كلثوم بن عياض القشيري ومعه ابن أخيه بلج بن بشر القشيري ، وسارت معهم جموع من قوات العرب البلديين الأفريقيين يقودهم حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع ، وكان النزاع بين الشاميين والبلديين شديداً ، مما أضعف القوة العربية . لهذا لا غرو أن ينهزم هذا الجيش الضخم ويقتل كلثوم بن عياض وحبيب بن أبي عبيدة ويفر بلج بن بشر مع آلاف من الشاميين إلى سبتة ، حيث يعتصمون بأسوارها بضعة شهور ، حتى يأتينهم والي الأندلس عبد الملك بن قطن الغهري ، في العبور إليه لكي يعاونوه في القضاء على ثورة قام بها البربر على العرب ، وكانت ثورة الأندلس هذه امتداداً لثورة بربر المغرب ، لأن بربر الأندلس كذلك كانوا ساطعين على الحكم الأموي وعلى من معهم من العرب في الأندلس ، لأن عرب الأندلس إن ذاك كانوا أشد تعصباً للعروبة من عرب المغرب ، وكانت الخصومة بين الشاميين منهم والبلديين أعنف وأعمق ، وستحدث عن امتداد هذه الثورة البربرية في المغرب إلى الأندلس في مكانها من تاريخ الأندلس

وبعد ذلك بقليل تمكن الخليفة هشام من أن يرسل جيشاً ضخماً من الفرسان ، يقوده شامي متعصب يسمى **حنظلة بن صفوان الكلبي** ، ووصل هذا الجيش إلى القيروان ووجدها مهددة باستيلاء الخوارج عليها . كان أولئك الخوارج قد اختلف أمرهم وانقسموا قسمين واحد يقوده **عكاشة بن أيوب الغزالي** والثاني يقوده **عبد الواحد بن يزيد الهواري** ، وتجمع عرب القيروان ومن فيها من العلماء والصلحاء وخرجوا للقاء الخوارج ، مدافعين عن مذهب السنة وقاعدته أفريقية ، وفرق حنظلة السلاح عليهم وخرجوا معه ، فلقوا قوات الخوارج يقودها عبد الواحد بن يزيد الهواري في موضع يسمى « **الأصنام** » على بعد ٤٠ كم ، غربي القيروان وهزموه هزيمة منكرة بعد قتال عنيف . ثم ساروا نحو القوة الخارجية الأخرى ، التي يقودها **عكاشة بن أيوب الغزالي** ( من فزارة ) وهزموه في أوائل سنة ١٢٤ هـ / ٧٤٢ م ، وقد انتحنت هاتان المراكزان مصر السنة في أفريقية والمغرب ، فثبتت أقدامها في أفريقية بعد ذلك ، وتمكنت فيما بعد من إعادة سلطانها على المغرب كله ، وانسحبت قوات الخوارج إلى المغرب الأوسط وانحازت المبادئ الخارجية من إباضية وصفرية مع أصحابها إلى مناطق صغيرة محدودة في جبال الريف أو في المغرب الأوسط أو في جبال نفوسة في إقليم طرابلس وحزيرة جربة

وهكذا انتهى ذلك الصراع الدموي بانتصار السنة في ولاية أفريقية ، وهي تتكون ، كما قلنا مراراً ، من إقليم طرابلس الحالي وتونس وجزء من الجمهورية الجزائرية يعادل محافظة قسطنطينة ، ولكن ما يهمنا ملاحظته هو أن مراكز العمران الرئيسية في أفريقية وكانت تضم طرابلس ( عدا جبل نفوسة ) وأفريقية والزاب ثم السهل الشمالي للمغرب الأقصى في حوض نهر « سبو » ، ثبتت على مذهب السنة ، ولكنها أصبحت جميعاً تحت سلطان العرب البلديين . لأن العصر الذهبي لبني أمية وحدث الشام انتهى بوفاة هشام بن عبد الملك وهو آخر الفحول من خلفاء بني أمية ١٢٥ هـ / ٧٤٢ م . ولم يبق من عمر الدولة كلها إلا سبع سنوات كلها فتن وتفكك ومصاعب .

في هذا الظرف خلا المغرب الإسلامي للعرب البلديين والبربر ، وقد تقاسموه فيما بينهم ، فأما البلديون فقد سيطروا على أفريقية ، وأما البربر فقد سيطروا على ما عدا ذلك ، وكان معظم هؤلاء البربر من الخوارج الزناتية ، أما البرانس أهل الاستقرار وهم معظم السكان في المغرب ، فلم يعد إليهم لهب الفتنة ، بنفس المدى

الذي امتد به في الرئاسية ، وسيدخل أولئك الأبرانس مسرح الحوادث بعد ذلك شيئاً فشيئاً منشئين دول المغرب الكبرى : الأدارسة للأفلاميين ودولة بني زيري ثم دولة المرابطين ، أما الموحدون الذين سيكوّنون بعد المرابطين فقد أنشأ دولتهم المصاعدة ، وهم بربر جبال الأطلس الكبرى وهو يرانس حضر أيضاً ، وقد سبق أن قلنا إنهم لا ينتمون إلى صنهاجة وزناتة إنما هم من البرانس .

### المحاولة الأولى للعرب البلديين للسيادة على أفريقية إمارة عبد الرحمن بن حبيب وآله :

انتصرت الحكومة المركزية على يد حفظة بن صفوان الكلبي في أفريقية وأوقفت الفتنة المغربية إلى حين . ولكنها لم تصل إلى هذا النصر إلا بمعاونة العرب البلديين فإن هؤلاء برغم التحاسد الكبير بينهم وبين الشاميين ، أي الجند الرسمي للدولة العربية ، قاموا بنصيب كبير من القتال في سبيل استخلاص أفريقية من النصارى على الخلافة ، ولولاهم لما استطاع جند الخلافة الوصول إلى هذا النصر الحاسم الذي ذكرناه

وفي هذه الفترة التي نتحدث عنها في النصف الأول من القرن الهجري الثاني أي النصف الأول من القرن الثامن الميلادي ، كانت العناصر المتنافسة على السلطان في أفريقية والمغرب الأوسط والأقصى كما يلي

١ - العرب البلديون : وهم العرب المحليون وكانوا يعيشون جماعات متماسكة في المدن وحولها بصورة خاصة ، وكانت تؤيدهم جماعات من البربر الزناتية في الغالب ممن أسلموا واستعربوا فاصبحوا قوة سياسية محلية يحسب لها كل حساب وكانت مراكزهم القيروان وتونس والمسيلة وطبنة ( في إقليم الزاب ) .

٢ - العرب الشاميون : وهم رجال الحكومة المركزية ومن انضم إليهم من أهل المغرب ، في العاصمة القيروان وفي معسكرات الجند المنتشرة في نواحي إقليم أفريقية وبخاصة تونس وطرابلس وإقليم الزاب ، وكانت أقوى عناصرهم في القيروان وتونس .

٣- البربر : وكانت قواتهم تتكون من مجموعات قبلية بحرية في الشمال ، يتزعمها عرب دخلوا في البربر وأصبحوا منهم ، أو بربر استعربوا وأصبحوا يحملون أسماء وألقاباً عربية ، ومن العسير أن نتبين حقيقة أمرهم ، وقد أنشأوا إمارات أو وحدات سياسية في المغرب الأوسط والأقصى ، ويعتلمهم لنا في ذلك العصر رجل يسمى أبو قرّة البقرشي الزناتاني ، وهذا الرجل أقام لنفسه دولة خارجية في إقليم تلمسان ونادى بأنه إمام بل اتخذ لقب الخلافة وصار يُدعى بأسر المؤمنين - ٤ سنة ، ومثل هذا الرجل كثيرون من الزعماء المحليين الذين انتشروا كما قلنا في المغرب الأوسط والأقصى ، وجدير بالذكر أن المذهب الخارجي لهؤلاء الناس لا يبدو في صورة واضحة ، فليسنا واتقن مما يقال من إباضيتهم أو صغريتهم ، والمهم لدينا أن خارجيتهم كانت سياسية أكثر منها مذهبية ، ودنبنا على ذلك ولع رجالها بالوصول إلى السلطان السياسي في هذه البلاد الواسعة ، لأن الدول الخارجية الواضحة الشخصية والمذاهب التي ستظهر فيما بعد ، وستتحدث عنها حديثاً مفصلاً ، تظهر مذهبها الخارجية بناتية الدقة

ولكن الذين انتصروا في حقيقة الأمر في هذا الدور من الصراع على السلطان السياسي في المغرب ، كانوا العرب البلديين ، لأن الشاميين كانوا يعتمدون أساساً على الدولة ، وكانت دولة بني أمية إذ ذاك في أواخر سنوات حياتها ، ولهذا فإننا نلاحظ أن الشاميين سيجمعون في جماعات صغيرة في معسكراتهم ، وعندما تقوم الدولة العباسية سينتقلون إلى ولائها في الظاهر على الأقل

وكان يمثل العرب البلديين عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة ابن نافع ، فقد كان يمثل بيتاً عربياً عريقاً طالت إقامته في البلاد حتى صار من أهلها ، وجدير بالذكر أن نقرأ من كبار الفاتحين الذين ذكرناهم ، خلفوا وراءهم في المغرب بيوتاً عديدة الأفراد كثيرة الأنواع ، كان لها دور كبير في تأريخ المغرب فيما بعد ، وأشهر هذه البيوت بيت عقبة بن نافع ويمثله عبد الرحمن بن حبيب وأولاده وإخوته وبيت موسى بن نصير وبيت أبي المهاجر دينار ، وهذه البيوت سيجده كل منها اتجاهها خصاصاً به ، بيت عقبة بن نافع سيجهون إلى السياسة ، أما بيت

أبي المهاجر دينار فسيوجهون إلى العلم ، أما أبناء موسى بن نصير فكان  
اهتمامهم بشؤون المال والتجارة

كان عبد الرحمن بن حبيب زعيماً سياسياً واسع النشاط ، يعتمد على سعة  
جده عقبة بن نافع ولكنه كان على خلاف جده ، إذ أنه كان ذا طموح سياسي  
وكان رجلاً أنانياً ووصولياً أتجه إلى الاستقلال بالبلاد ، ومن أسف أنه لم يكر  
يتمتع بملكات سياسية أو أخلاقية ، تمكن له من الثبات وتنظيم أمور دولة يمكن  
أن يكتب لها العمر ، فقد كانت الفرصة مواتية أمامه فسلطان الدولة تلالشي  
والناس في حاجة إلى قائد يخلصهم من الفوضى ، وكان عبد الرحمن بن حبيب  
يستطيع فعلاً أن يقيم دولة كما فعل معاصره عبد الرحمن في الأندلس ، ولكنه  
هجم على الإمارة دون استعداد وبدون تفكير سياسي وبدون سند أخلاقي ، ولم  
يحاول أن يكتسب الشرعية عن طريق الدخول في طاعة الدولة الجديدة وهي  
الدولة العباسية ، وكذلك لم يحاول الاتحاد مع العناصر العربية الموجودة في  
البلاد ، بل لم يفكر في الاستعانة بالبربر ، ثم إنه كان بطيف رجلاً قليل التدبير ،  
سريعاً إلى الحركة مما أضعف مركزه من أول الأمر ، وبعد أن أعلن نفسه أميراً على  
القيروان بعد قيام الدولة العباسية بقليل ، بعث بطاعته إلى أبي جعفر المنصور  
فبعث هذا يطالبه بالمال ، وقد أخطأ أبو جعفر في ذلك فلم يكن هناك في أفريقية  
مال في ذلك الحين ، فالبلد في فوضى والجباية معطلة ، ولم يكن من عبد الرحمن  
ابن حبيب إلا أن أرسل إلى أبي جعفر يسبه ويخرج عن طاعته ومن الواضح أن  
الخروج على طاعة الدولة الإسلامية العامة في ذلك الوقت لم يكن يأمر ذي بال من  
الناحية الفعلية ، ولكنه كان هاماً من الناحية القانونية ، لأن هيبة الدولة  
الإسلامية العامة وهي العباسية إذ ذاك ، كانت لا تزال قائمة في النفوس ، ولم تكن  
جماهير المسلمين تقبل هذه الفكرة ، ولو أنه حصل على تأييد ولو إسمي من  
الخليفة القائمة لتعزز مركزه ، ولكنه عندما انفصل عن الدولة لم يستند إلى أي  
سند شرعي ( نلاحظ أن عبد الرحمن الداخل بعد أن أقام دولته في قرطبة ، ظل  
يخطب للعباسيين رغم ما نعرف من عداؤهم لبيته ، ولكنه استمر على الولاء  
الاسمي لهم حتى ثبت سلطانه واكتسب الشرعية ثم انفصل عن الدولة ) .

أما عبد الرحمن بن حبيب فخرج على الدولة من أول الأمر ، وحاول أن يخضع أهل البلاد بالقوة ونحن نعرف أن قوته لم تكن شيئاً يذكر ، وقد اعتمد أساساً على أخيه إلياس وكان قائداً عسكرياً قانداً ، ومن المؤكد أن إلياس كان أصلح من أخيه عبد الرحمن ، وهذا هو الذي جعل عبد الرحمن يخاف منه ، لأن إلياس كان يجمع حوله طائفة من الفرسان والمقاتلين ، وكان قد كسب ولاءهم واستطاع أن يقودهم قيادة حسنة .

وكانت الصعوبة الكبرى التي واجهها عبد الرحمن بن حبيب ، هي مشكلة الخوارج ، الذين كانت قواتهم قد تجمعت في جبل نفوسة في طرابلس ، وكان يتولى رئاستهم زعيم خابجي ممن تلقوا تعاليم الحارثية الإباضية في البصرة على شيخ كبير من شيوخ المذهب ، وهو أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري (نسبة إلى قبيلة من غرب اليمن تسمى المعافري) هذا الرجل كان عالماً حقاً في المذهب الإباضي وكان إلى جانبه عدد كبير من شيوخ المذهب أكبرهم عبد الرحمن ابن رستم .

نعود إلى تتبع أخبار عبد الرحمن بن حبيب لنقول : إن هذا الرجل كان يستطيع أن يعمل شيئاً لنفسه ولافريقية . أولاً : أنه كان على شيء من الرزانة والحكمة والكفاية في الأعمال الإدارية التي تصدى لها ، لكنه تجل عن رجل غير ثابت ، سريع إلى الحركة ، غير واضح السياسة ، فنفذ منه الناس سوءه العرب أو البربر وتصدى له نفر من أئداده من العرب ، ووقعت الحروب بينهم . وكان يتولى قيادة جيش أخيه إلياس القائد الكبير ، وكان وفي عهده ، وهنا نرى عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع يفسد بلخيه إلياس فيعزله عن ولاية العهد ، ويقدم ابنه حبيباً مكانه فغضب إلياس ووقعت الحرب بين الأخوين . وانتهت بمقتل عبد الرحمن بن حبيب ، ولاية أخيه إلياس

وهنا نجد أن حبيب بن عبد الرحمن يسير مع جماعات من البربر لحرب عمه ويقتله ويقول مكانه ، ولم تدم ولايته طويلاً إذ تغلب عليه عمه عبد الوارث ، ففر حبيب إلى قبيلة كبيرة من البربر المستعربة تسمى « ولفخومة » وهي قبيلة طارق ابن زياد وكان يتزعمها عاصم بن جميل ، وهو ابن أخت طارق بن زياد فسار عاصم بمن معه من الخوارج الصفرية ، واقتحم القيروان وقضى على بني حبيب وأقام حكماً خارجياً صغرياً في البلد . ولكي يؤكد احتقاره لمذهب السنة دخل

رجالهم بخيلهم المسجد الحامع وربطوا خيلهم فيه . بذلك تجد أن أفريقية التي  
كلفت العرب إلى الآن جهوداً ضخمة في فتحها وإقرار أمورها ، انتهت بعد العناء  
إلى أن تكون مركزاً من مراكز الخوارج الصفرية .

هذا الموقف دفع الخوارج الإباضية المسيطرين على جبل نفوسة وناحية  
طرابلس ، إلى أن يسبوا بجموعهم إلى القيروان ليطردوا الصفرية منها ، يزعمون  
أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري . وتم لهم ذلك وانتقلت أفريقية من  
سلطان الصفرية إلى الإباضية . كل هذه الحوادث أقزعت أبا جعفر المنصور وكان  
قد أنجه إلى جعل الدولة العباسية دولة السنة والجماعة ، فأمر واليه على مصر  
وهو محمد بن الأشعث بالمسير إلى أفريقية وإخراج الخوارج منها وتم له ذلك .  
وعادت أفريقية إلى مذهب السنة . وفي الصراع بين الخوارج ورجال السنة وهم  
رجال الدولة العباسية ، قتل أبو الخطاب زعيم الخوارج الإباضية ، ففر الباقيون  
بقيادة عبد الرحمن بن رستم إلى المغرب الأوسط ، خارج الحدود العباسية لدولة  
بنو العباس ، وانحاز نفر منهم إلى جبل نفوسة وسفسمع عنهم بعد قليل .



## محااولات الدولة العباسية للاحتفاظ بأفريقية

### أهل البصرة

لم يكتف أبو جعفر المنصور بذلك ، لأن الخوارج لا زالوا على قوتهم ، فسارع بإعداد جيش جديد أرسله إلى أفريقية بقيادة محمد بن الأشعث ، فاستقر في القيروان واجتهد في إقرار الأمن في الأفريقية وبذل بالعمل جهودا كبيرة في ذلك السبيل ، وعندما انتهت ولايته في عهد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور ، عهد هذا في ولاية أفريقية إلى زعيم من زعماء العرب البلديين في مصر ، وهو الأغلب بن سالم بن عقال التميمي ، وكان فارساً شهماً ، في المسير إلى المغرب ، فسار إلى أفريقية مع أهله ومن بينهم ابنه إبراهيم . ودخل أفريقية وجعل ينظم أمورها ، ولكن الخوارج عادوا مرة أخرى يهاجمون أفريقية بزعامة رجل جديد يسمى أبا حاتم وتمكن أبو حاتم من قتل الأغلب بن سالم بن عقال ، فسما ابنه إبراهيم بمن معه إلى طينة في إقليم الزاب وهنا استقر وأخذ يمهّد الأمر لنفسه

أصبحت أفريقية مشكلة بالنسبة للخلافة العباسية ، فهي بلد بعيد عن مركز الخلافة ، تعيش فيه جماعات متعاربة متعادبة ، بعضهم من أهل السنة وبعضهم من الخوارج بشتى مذاهبهم ، وبعضهم عرب وبعضهم بربر . وكان لابد من إيجاد حل تستقر به أحوال ذلك البلد ، فانتهى رأى أبي جعفر إلى أن يولى هذه الناحية واحداً من كبار رجاله ذوي الكفاية ، ويطلق يده في الأمور حتى يستطيع أن يخلص بأفريقية من الفوضى والقلق . ووقع الاختيار على رجس من بني المهلب بن أبي صفرة ، ذلك القائد الإداري الكبير الذي عاش وعمل في العصر الأموي . وكان المهالبة من الأزد ، وهم من عمان ، ولذلك يعرفون بأزد عمان . وهذا الرجل هو أبو حفص عمر بن قبيصة المهلبي . ووصل ذلك الرجل إلى أفريقية سنة ١٥١ هـ / ٧٦٨ م ، وبدأ بذلك عصر قصير مدته خمسة وعشرون سنة من الاستقرار النسبي في أفريقية هو عصر المهالبة ، لأن هذا الرجل



لم يذهب وحده ، بل أخذ معه نفراً من أهل بيته من آل المهلب ، وقوة عسكرية كبيرة . وكان المهالبة في جملتهم أهل استقرار وخبرة بشئون الإدارة ، وسنرى أن عصرهم القصير سيكون عصرأ حاسماً بالنسبة لتاريخ أفريقية كولاية إسلامية ومركز من مراكز السنة والجماعة . وكذلك بصفتها مركزاً من مراكز العروبة . وكان على أبي حفص عمر المهلبى أن يواجه الخوارج الإباضية ، الذين كان ينزعهم أبو حاتم وشيكن أبو حفص عمر من الانتصار عليه أول الأمر ، ولكنه انهزم وقتل سنة ١٥٤هـ / ٧٧١ م - وحل محله واحد من كبار المهالبة ، بل من كبار الحرب في عصر أبي جعفر المنصور ، وهو يزيد بن حاتم المهلبى ابن عم أبي حفص . وكان يزيد يتولى أمر مصر فأمره أبو جعفر بالمسير إلى أفريقية فانتقل إليها واستقر فيها سنة ١٥٥هـ / ٧٧٢ م وبدأ في تاريخ أفريقية عصرأ من الاستقرار والازدهار وهو عصر المهالبة .

كان يزيد بن حاتم سيدأ عربياً يتميز بكل ما يتميز به سادة العرب في تلك العصور من رياسة وشهامة وكرم ، وكان الشعراء يمدحونه ، إذ أنه كان بعيد الصوت في دولة بني العباس . وتكن هذا الرجل من إقرار الأمور مستعيناً بقومه من الأزد ، ولم يكن يطمئن كثيراً إلى الجند الخراسانى ، الذي كان في ذلك الحين عماد القوة العباسية . ولابد أن نلاحظ أن ما نسميه بالجند الخراسانى لم يكن كله ولا جله من الموالي ، بل إن لقب خراسانى كان يطلق في المقام الأول على عرب خراسان ، أي العرب الذين ولدوا في خراسان ونسبوا إليها . والجند الخراسانى الذي سار مع أبي مسلم الخراسانى للقضاء على بنى أمية ، كان في غالبية جندأ عربياً ، لأن الحركة العباسية لم تكن ثورة فرس على العرب كما يقال ، وإنما كانت ثورة عرب على عرب ، هدفها تغيير الأوضاع داخل نطاق الدولة الإسلامية العربية وكلامنا هذا عن طبيعة الجند الخراسانى الذي اعتمدت عليه الدولة العباسية . يجعلنا نفهم كيف أن الدولة العباسية على ضخامة جيوشها وسعة ثروتها وعظم جاهها ، لم تكن دولة فاتحة ولم تشتهر بالقوة العسكرية . ولهذا لم يفتح بنو العباس شيئاً زيادة على ما فتح بنو أمية ، وكان قصارى جهدهم المحافظة على الموجود .

ولكن على الرغم من سوء المادة العسكرية التي اعتمد عليها يزيد بن حاتم ، فإنه استطاع بكنائته الشخصية ، أن يقر الأمور في إفريقية ، ويقوم حكماً عادلاً زاهراً مدة خمسة عشر عاماً من الهدوء ، أي من سنة ١٥٤ هـ — ١٧١ هـ / ٧٧٢ م — ٧٨٧ م .

### جهود يزيد بن حاتم في إفريقية :

حكم يزيد بن حاتم إفريقية خمسة عشر عاماً ، وتعد هذه السنوات القليلة من أصعب فترات عصر الولاة وأكثرها خيراً على إفريقية وفائدة لها ، فقد كان الرجل ذكياً نشيطاً خبيراً بشئون الحكم والإدارة ، وكذلك كان عربياً صادقاً العروبة يتصف بالشهامة والسيادة والبعد عن الصغار ، وكان مسلماً صحيح الإيمان يؤمن بدولة السنة والجماعة .

### دخول المذهب المالكي إلى المغرب وتحول إفريقية إلى حصن السنة والجماعة في المغرب :

والمذهب المالكي هو أحد المذاهب الأربعة الرئيسية في الفقه الإسلامي ، وهو أولها ظهوراً ، فقد توفي مالك بن أنس منشيء هذا المذهب ، ١٧٠ هـ / ٧٨٦ م ، وهو إمام دار الهجرة ، لأنه عاش ودرس في مدينة الرسول ﷺ ، وقد بدأ حياته محدثاً أي جامعاً للحديث حافظاً له ، ولذلك يلقب بأمير المؤمنين في الحديث . ومن الحديث انتقل مالك إلى التشريع أي إلى استخراج الأحكام من الأصول ، والأصول عند مالك هي : القرآن الكريم والحديث الشريف والقياس وعمل أهل المدينة ، أي أنه إذا عرضت له قضية حكم القرآن إذا وجد فيه نصاً صريحاً ، فإذا لم يوجد استعان بالحديث الشريف ، فإذا لم يجد حديثاً نبوياً يفيد في هذه القضية ، قاس الأمور على نقاشرها واستعان في ذلك بما جرى عليه العمل عند أهل المدينة ، مما أقره رسول الله ﷺ ومن اتبعه من الصحابة . ومن ذلك كله استخرج مالك رأيه ومذهبه ، ولهذا يسمى المذهب المالكي بمذهب الرأي ، وهو عتدهم رأي مالك . ويمتاز المذهب بالوضوح والحسم والمنطقية ، فهو لا يترك الإنسان محيراً بين آراء شتى ، كما نجد في المذهب الحنفي الذي أنشأه أبو حنيفة النعمان بن ثابت . ويمتاز المذهب المالكي بنصه نصاً واضحاً على أهمية اجتماع الكلمة ووحدة

المسلمين ، والمحافظة بصورة عامة على روح الأمة الإسلامية ، ولهذا السبب لقي هذا المذهب قبولا واسعا عند عامة الناس ، وارتفع شأن مالك وأصبح تصورا لرحل العلم في تاريخ الإسلام ، خاصة وقد كان الرجل عزوفاً عن المناصب ، صارقاً جهده كله إلى العلم ، وأعانه على ذلك أنه كان ميسور الحال على الهمة ، لا يتدنى إلى طلب وظائف أو يسعى إلى قربى من سلطان ، وكان رجلاً حسن السمعة عظيم الهبة ، يلبس أحسن الثياب ، ويجلس لطالابه في هيئة جليلة ويسود مجلسه وقار وهيبة تزيد على هيئة السلاطين ، وكان يعمل ذلك بقوله «إنما أرفع جاه العلم» ، ومن هنا أعل مالك مرتبة العلماء وبهر الشبان ، فأقبلوا عليه يدرسون مذهبه وأسلوبه في الحياة ، أو ما يسمى بشمائل مالك ، ومن هنا أصبح مالك بن أنس شخصية حضارية لا مجرد عالم متقن للعلم

ولهذا نجد أن دخول المالكية في المغرب والأندلس ، لا يعتبر مجرد دخول مذهب فقهي ، وإنما هو دخول أسلوب حضاري ، فقد ارتفع مالك بن أنس بالعلم وأمله إلى مستوى اجتماعي بل سياسي ، جعل العلم رمزاً من رموز القوة والسلطان . وإذا كان تاريخ المسلمين قد انحرف في العصر العباسي الثاني ، حتى أصبح السلطان في يد الأحناف عن البلد في كل مكان تقريباً ، وأصبحت القوة العسكرية قوة أجنبية مرتزقة في معظم بلاد المسلمين ، وحرّم أهل البلاد في كل بلاد الإسلام من حقهم الشرعي في تولي أمور بلادهم ، فقد اتجهت همه الناس إلى بلوغ القوة والجاه عن طريق العلم والدراسة ، وضرب لهم مالك المثل في ذلك ، بما ذكرناه من حصانه وأسلوبه في الحياة والعمل ، وبلغ بذلك مكانة اجتماعية كبرى وقوة سياسية كان بنو العباس يحسبون لها كل حساب ، فاجتهد الطامحون من شباب أهل العلم في محاكاة مالك بالسحر في طريف والتأسي به في أعمالهم ودراساتهم وتصرفاتهم . وبلغ الكثيرون منهم بذلك مراكز عالية ومناصب ذات خطر في بعض البلاد . وأصبح رجال العلم أي الشيوخ ، هم رؤساء الناس في كل جماعة إسلامية أخذ شيوخها بمذهب مالك ، وهذه الظاهرة الحضارية السياسية مرجعها إلى ذلك العمل الجليل الذي قام به مالك بن أنس وتلاميذه

دخل مذهب مالك بلاد المغرب على يد نفر من تلاميذه ، ممن تفقهوا بعلمه

واقترفوا أسلوبه في التدريس وفي الحياة ، وكانت حالة المعرب تتطلب مذهباً  
كالمذهب المالكي ، يجمع الناس على رأي واحد في القضية الواحدة ، دون أن يفرق  
أزمان الناس حول قضايا الفقه ، كما كان الخوارج يفعلون ، ومن ناحية أخرى  
فإن مالك بن أنس عرف كيف يعامل الخلفاء ، فيعطيهم مالهم ويأخذ حقه منهم ،  
فعندما أقبل هارون الرشيد إلى المدينة ، طلب أن يأتيه مالك فاعتذر مالك وعندما  
لقى الخليفة وهو هارون الرشيد ، قال له : « لا أحب أن يراى الناس ساعياً إلى  
السلطان حاملاً حديث ابن عمك رسول الله ﷺ » ، فاعجب رده الخليفة وزاد من  
قدر مالك في نظره .

وعندما تحدث معه وجد فيه رجلاً مكتمل الشخصية واسع العقل والعلم  
حسن التصرف ، جميل السمات ، فزاد في كرامته في حين أن أساجع المنصور  
أهانته واعتدى عليه عقاباً له على قوله الحق .

وقد كان عصر مالك بن أنس حافلاً بالشيوخ وطلبة العلم الذين يقرأون العلم  
في المساجد ، ومثهم نفر من أجل مؤسسى الفقه الإسلامى ، كالإمام الأوزاعى  
الذى انتشر مذهبه في الشام كله ووصل إلى الأندلس ولكن مالكاً كباي أساذاً  
بمعنى الكلمة — نظم دروسه وفق خطة وضعها بنفسه ، واتخذ في داره مجلساً  
للتدريس وأقام لتلاميذه عريفاً ومقرئاً ، مكلفين بتنظيم الدروس ومراجعتها مع  
الطلاب وحفظ النظام أثناء الدرس

وكان مالك لا يجلس للإقراء إلا في أحسن ثيابه ، وكان حريصاً على النظافة  
وكان يطلب إلى تلاميذه الصمت التام أثناء إلقاء الدرس ، فإذا شاء طالب أن يسأل  
شيئاً فيكون ذلك في آخر الدرس . ومع ذلك فقد كان مالك إذا آنس من تلميذ  
استعداداً حسناً ، خصه بدرس له وحده ، كما فعل مع المغربي أنقيروانى الیهلول  
ابن راشد ، ولم يكن مالك يتكسب بالعلم ، فما أخذ يوماً من طالب درهما ولا هو  
كان يقبل الهدية ، وكان عند إلقاء درسه فياضاً مسترسلاً ، ينتقل من نقطة إلى  
نقطة بنظام وهدوء ، وكل هذا فتن تلاميذه به وجعلهم يدرسون شخصه وأسلوبه  
في الحياة والعمل ، كما كانوا يدرسون علمه ، وبالفعل كان هناك طلاب يرغبون  
من سماع الحديث والفقه على مالك ، ثم يحضون بعد ذلك يدرسون ما يسمى عند

مؤرخي المذهب ، بشمال مالک ، وأهمها إلى جانب العلم الخزير ، احترام النفس والترف عن الصفات وعدم الاهتمام بالوظائف والثبات أمام الحكام . وكان مالک يقول إنه بذلك يرفع جاه العلم ، ولا عجب والحالة هذه أن يطلق الناس عليه لقب « أمير المؤمنين في الحديث » ، ولا غرابة كذلك في أن نجد الكثيرين من تلاميذه يحرصون على أن يكون كل منهم مالكا في بلده ، رجلاً عزيز العلم ، منصرفاً إلى الدرس ، مترفعاً عن الوظائف عظيم الاحترام لنفسه . هذه الناحية تهمنا بصفة خاصة ، لأن أولئك الفقهاء الذين التزموا هذا المسلك ووقفوا فيه ، أصبحوا رؤساء الناس في بلادهم . حقا كان هناك أمراء وحكام وأصحاب سلطان سياسي ، إما مستقلين ببلادهم أو تابعين لدولة الخلافة في بغداد ، ولكن الناس اختصوا الفقهاء بثقتهم واعتبروهم قاداتهم وأصحاب الرأي فيهم ، في كل مكان انتشر فيه المذهب المالكي ، في المغرب والأندلس خاصة .

أدخل مذهب مالک في المغرب نفراً من أجلاء الشيوخ من أمثال عبد الله بن فروخ الفارسي وعبد الله بن غانم والبهلول بن راشد وأسد بن الفرات ، وكانوا جميعاً من كبار العلماء حقاً ، وقد اكتسبوا الكثير من خبره ، ال مالک وتمكنوا من مذهبه ، وسمع بعضهم كذلك على أبي حنيفة النعمان بن ثابت ، فقه العراق وصاحب المذهب الحنفي المعروف . ولكن قلوبهم ظلت معلقة بمالک دون غيره ، وتمكنوا بفضل إخلاصهم وعلمهم وزهدهم ، من أن يجعلوا المذهب المالكي هو المذهب المقرر المعترف به رسمياً في أفريقية ثم في بقية المغرب بعد ذلك . وعلى أيديهم بدأت المالكية في المغرب تاريخها الطويل ، لأنها لم تكن مجرد مذهب فقهي بل كانت عنصر حضارياً له أثره في كل نواحي الحياة في المغرب الإسلامي ، ويكفي أن نشير هنا إلى ما ذكرناه من أن الفقهاء المالكيين أصبحوا رؤساء الناس وقاداتهم . في حين توالى أخطاء رجال السياسة وشيوخ القبائل ، ما بين صنهاجين وزناتيين ، مما أياس الناس منهم ومن الحكومات القائمة جملة . وقد عرف أولئك الفقهاء كيف يحافظون على أمة الإسلام في أفريقية ملتقة حول مذهب السنة والجماعة . وقد رأينا كيف تمكن حفظة بن صفوان الكلبي ( ١٢٤ - ١٢٧ هـ / ٧٤٢ - ٧٤٥ م ) من إنقاذ أفريقية من سيطرة الخوارج ، ما بين صغفوية وإباضية والاحتفاظ بها جزيرة سنية ، تعصم بها السنة والجماعة ، وكان هذا

في حقيقة الأمر إنقاذاً للإسلام في المغرب كله ، ولذلك يعتبر حفظة بن صفوان  
الكلبي هذا ، من بناء تاريخ المغرب الإسلامي .

نعم إن الأخطار لم تتلاش ، وعاد الخوارج يحاولون انتزاع أفريقية نتيجة  
لسوء سياسة عبد الرحمن بن حبيب الفهري وأله ، ولكن أهل أفريقية نجحوا  
في التمسك بوحدة قطرهم المذهبية والفكرية ، فثبتت أفريقية بفضلهم لمحاولات  
الزعيم الخارجي أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري ، الذي دخل  
القيروان مع أتباعه من الخوارج الإباضية ، قدامين من طرابلس ، بحجة إنقاذها  
من الخوارج الصفرية ، وانتهى الأمر بانتصار محمد بن مقاتل العكي العباسي ،  
وبانتصاره هذا مكن للسنة والجماعة ، وقتل أبي الخطاب في صفر ١٤٤ هـ / مايو  
٧٦١ م ، وانتصار حفظة بن صفوان ثم محمد بن الأشعث ، الذي عبد الطريق  
أمام العباسيين ليرسلوا إلى أفريقية عمر بن حفص بن قبيصة بن المهلب في  
صفر ١٥٦ هـ / يناير ٧٧٣ م ، وهو أول المهالبة ومنهم يزيد بن حاتم الذي  
تحدث عنه الآن . والمهالبة هم الذين شتوا مذهب السنة والجماعة في أفريقية ،  
وعلى أيديهم تلاشى كل خطر خارجي على أفريقية . واتجه الخوارج إلى المغرب  
الأوسط خارج سلطان الدولة العباسية حيث أنشأوا إمارة الخوارج الإباضية ،  
على يد عبد الرحمن بن رستم خليفة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري ،  
وبتلك هي الدولة الرستمية الخارجية الإباضية التي اتخذت من تاهرت قاعدة لها  
ابتداء من سنة ١٦٤ هـ / ٧٨٠ م وستحدث عنها في حينها .

وهكذا أصبحت القيروان بفضل أولئك الفقهاء . وما بذله يزيد بن حاتم من  
جهود مركزاً للعلم الإسلامي ، لا يقل عن البصرة والكوفة والقسماط ، وهي  
حقيقة هامة من حقائق التاريخ الحضاري للمغرب .

المهم لدينا أن نجاح يزيد بن حاتم جعل الدولة العباسية تترك أمر أفريقية في  
أيدي أهل بيته ، الذين عرفوا بالإخلاص للدولة ، فتوالى المهالبة على حكم أفريقية  
وأهمهم بعد يزيد بن حاتم أخوه روح بن حاتم . وكان لا يقل عنه كفاية وقدرة  
وقد حكم ثلاث سنوات انتهت سنة ١٧٥ هـ / ٧٩١ م .

وكان آخر المهالبة وهو الفضل بن روح بن حاتم الذي تولى سنة ١٧٧هـ / ٧٩٢ م ، ولم يحكم إلا سنة ونصف تقريباً فإن جند أفريقية والمغرب لم يرضوا عن استبداده ، هو وآله ، بكل الوظائف والولايات الكبرى في البلاد ، وثاروا عليه بقيادة عبد الله بن عبدويه بن الجارود قائد جند تونس ، وتمكن هذا القائد ونفر آخر من القواد من عزله ثم قتله سنة ١٧٨ هـ / ٧٩٤ م وتقاسموا الإدارات والنواحي فيما بينهم .

وهكذا انتهت رياسة المهالبة في أفريقية بعد حوالي ربع قرن من أواخر أيام أبي جعفر المنصور العباسي ، إلى أوائل أيام هارون الرشيد وفترة المهالبة على قصرها تعتبر من أهم فترات تاريخ المغرب الإسلامي - لفى أثنائها استقر الأمر للمذهب السني بصورة نهائية في أفريقية ، وسادت المالكية وانتهى أمر الاجيال الأولى من العرب البلديين ، بعد أن فشلوا في السيطرة على البلاد ، وحلموا كما رأينا فيما رويننا من أخبار محاولة عبد الرحمن بن حبيب ، بالاستقلال بأفريقية ، فأوقعوا البلاد في الفوضى والاخـ. ماراب وبعد ذلك اخرج معظم العرب البلديين في أفريقية في غمار الناس ، وأصبحوا من جملة أهل المغرب ، وسيكون لاندراجهم هذا أثر بعيد في تعريب البربر ونشر الإسلام السني بينهم .

وهؤلاء العرب الذين أصبحوا مغاربة هم الذين يسمون « عرب الفتح » وستظل جماعة منهم تطلب الحكم ، ولكن غالبيتهم العظمى انصرفت عن السياسة ودخلت في الناس وكان لهم أثر بعيد في تعريب المغرب .



## نهاية عصر الولاية وبداية عصر الدول المحلية في أفريقيا والمغرب

بعد نهاية المهالبة عاشت أفريقية ستوات من الفوضى ، إذ اشتد تنافس زعماء العرب في البلاد في الوصول إلى السلطان في القيروان أو في الأفراد بالسلطة السياسية في نواحيهم . وكانت الخلافة العباسية شديدة الاهتمام بشئون ولاية أفريقية ، وتضم - كما قلنا - ولايات طرابلس وأفريقية ( تونس ) والزاب ، وهو الجزء الشرقي من جمهورية الحزائر الحالية ( ويقابل اليوم محافظة قسطنطينة ) وبذلك الدولة العباسية - كما رأينا - جهوداً ضخمة للمحافظة على هذه الولاية تابعة لها داخل إطار السنة والجماعة ، وقد رأينا ما بذلته من جهود في ذلك السبيل . وقد توجت هذه الجهود بانتصار **حنظلة بن صفوان** في موقعي القرن والأصنام بجهود المهالبة ، التي ثبتت - كما رأينا - قواعداً للنظام والسنة والجماعة في أفريقية ، وجعلت منها جزيرة أماس واستقرار نسبي وسط المغرب ، الذي اجتاحتها الفتن وحركات الخوارج من كل ناحية .

ولكن الدولة العباسية لم تستطع رغم جهودها أن تعد سلطانها إلى أبعد من إقليم الزاب غرباً ، وقد قرر الجعراي **اليقوي** ، الذي زار أفريقية في عصر الأغالبة ، أن تنتهي سلطة العباسيين غرباً . كانت مدينة أربة الواقعة على المجرى الأعلى لنهر شلف ، ومعنى ذلك أن ما يلي نهر شلف غرباً ، كان خارجاً عن سلطان الدولة العباسية ، وكان منطقة فراغ سياسي حقيقي .

هنا ، في ذلك الفراغ السياسي الذي امتد من مجرى شلف إلى ساحل المحيط ، قامت أول الأمر وبعد انقضاء المغربية الكبرى ، إمارات محلية كثيرة ، معظمها خارجي زعمائها عرب معادون لدولة الخلافة أو بربر مستعربة . وأشهر هذه الدول وأطولها عمراً إمارة **أبي قرّة المغيلي** الخارجي الصفري ، الذي تادى بنفسه إماماً وخطيب بأمير المؤمنين مدة أربعين سنة في إقليم تلمسان



ومن أشهر هذه الإمارات المحلية كانت إمارة نكور التي أنشأها حوال سنة ٩٦هـ / ٧١٤ م زعيم عربي يسمى صالح بن منصور الحميري ، في قطعة من ساحل المغرب الأقصى ، تمتد من مليلة إلى الحسيمة ، وتسيطر على منطقة داخلية جبلية سكنها يربز زناتيون . ولكن هذه الدولة كانت سنية ، وقد شددت أثر نفسها بالدخول في ولاء بني أمية الأندلسيين ( قامت دولتهم سنة ١٢٨هـ / ٧٥٦ م ) وكانوا سنية متشددين ، وقد بذلوا جهوداً كبيرة في نصرة السنة في المغرب الأقصى . وقد عمرت دولة نكور طويلاً ومرت بعصور من القوة وأخرى من الضعف في أثناء الصراع الطويل بين الأيوبيين الأندلسيين والفاطميين الشيعة على سيادة المغرب الأقصى . ولم تنته إلا على أيدي المرابطين في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري ( النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي )

### أفريقية من المهالبة إلى بني الأغلب :

ونعود إلى أفريقية وهي موضع دراستنا الآن فنقول إن الإدارة العباسية أقامت عليها أيام هارون الرشيد عاملاً عربياً من طراز فريد في يابه ، هو هرثمة ابن أعين ، وكان من أكبر رجال الحزب العربي في بلاط الرشيد ، وكان شيخاً مجرباً في الحروب والولايات ، فكان اختيار هارون الرشيد إياه لولاية أفريقية اختياراً موفقاً ، لأن المشكلة الرئيسية التي كانت تقلق بال الدولة من ناحية أفريقية في ذلك العصر ، كانت مشكلة عرب أفريقية الذين كانوا يتجمعون في المعسكرات في سوسة وتونس وبجاية والقيروان وطبنة وغيرها من مدن ولاية أفريقية وتنافسهم وحريهم بعضهم مع بعض ، ومعاداتهم لكل وال ترسله الدولة . وقد رأينا ما صنعه عبد الله بن عبدويه بن الجارود مع الفضل بن روح ابن حاتم . اتبل هرثمة بن أعين إلى أفريقية وهو عربي صريح ، وفي نيته أن يضع حداً لفتنه أولئك الأعراب كما كان الناس يسموئهم في ولاية أفريقية .

حكم هرثمة بن أعين أفريقية سنتين ( ١٨٠ — ١٨١هـ / ٧٩٦ — ٧٩٧ م ) هابه إنشاء رؤساء العرب وركنوا إلى الهدوء . وأتيحت له بذلك الفرصة ليعمل على تجديد ما تحرب من المدن والمواشي والمنشآت وليعيد ثقة الناس في الدولة .

وقد اهتم هرثة بن أعين بالإنشاءات ، فجدد إنشاء ميناء تونس ، وأصلح مسجد القيروان ونظم الأسواق في القيروان واهتم ببناء قصور العباد .

والقصور جمع قصر ، ويراد به في أفريقية شيء يشبه الدبر عند النصارى ، أى بناء كبير ينشأ على ساحل البحر وربما على حدود الصحراء لكي يقيم فيه أولئك الزهاد الرباط على حدود دار الاسلام وثغوره والاشتراك في محاربة أي عدو يهاجم بلاد الإسلام ، لهذا كان العباد والزهاد من أهل القصور يسمون أيضاً مرابطين ومثاغرين يقضون أعمارهم في العبادة وحماية أرض الإسلام

وكان أولئك العباد والزهاد يعيشون في قصورهم ورباطاتهم حياة مشتركة يأكلون معا ويصلون معا ، ولكل منهم خلوة صغيرة يتعبد فيها وحده ويقرأ القرآن ساعات معينة من الليل والنهار ، وكان القصر يضم مسجداً للصلاة

وفي العادة يبني القصر على هيئة حصن عالى الأسوار . ويكون من طابقين الطابق الأول عام ، فيه المسجد وقاعات الدروس وقراءة القرآن والطعام ويخصص الدور الثانى للخلوات . فبعد صلاة العشاء الأخيرة يأوى كل عابد إلى خلوته ليتعبد ويصلى ، ويقوم ما شاء الله له أن يقوم من الليل ، ثم ينام ليصحو مع الفجر ، وكانوا يتناوبون الحراسة ، فيقوم نفر منهم في أبراج الحراسة بالتناوب بالليل والنهار . وللقصر أو الرباط شيخ من أهله هو رئيسه ومنظمه والمسئول عنه ، ويكون في العادة من أجلاء الشيوخ ، الذين يرفعهم الناس إلى مراتب الأولياء فيكتسبون بذلك جاهاً وهيبه في القلوب ، تمكن لهم من إدارة مثل هذه المنشآت التي كانت تضم في بعض الأحيان مئات من العباد والزهاد . وكان يحيط بالقصر في العادة أرض تعتبر ملكه ، ويقوم الزهاد بزراعتها للتقوت بمحصولها ، لأن المفروض أنهم يعيشون من عمل أيديهم ولا يأكلون إلا سألًا حلالًا .

وقد أبدع أهل المغرب خاصة ، في إنشاء هذا الطراز من القصور ، وعنى الكثيرون من الحكام من أمثال يزيد بن حاتم وهرثة بن أعين وأمراء الأغانية بالرباطات ، فاتفقوا عليها بسخاء . وقد بقيت لنا بعض هذه القصور إلى اليوم ، مثل قصر المستنير على الساحل الشرقي لتونس ، وهو بناء جميل ، رعمته

الحكومة التونسية وأصبح من روائع العمارة الإسلامية في المغرب ، وقد اشتهر من هذه الرباطات رباط قصر الطوب في سوسة ورباط تونس ورباط بوثة التي تسمى اليوم عناية إلى جانب رباط المنستير .

وكان الدافع لرجال الحكومة إلى العناية بشؤون الرباطات أو القصور ، أن رجالها كانوا دائماً مؤيدين للحكومة المركزية لأنها كانت دائماً نصيرة السنة . وكانوا يفتون إلى جانب الفقهاء في صراعهم مع المذاهب المخالفة لمذهب السنة . ومن هنا فقد كانوا في الحقيقة قوة للنظام والحكومة المستقرة ، خاصة وقد امتازوا بصدق وإخلاص وإيمان عميق بالمذهب السني ، وكانت ثقة الناس فيهم عظيمة ومن ثم فقد كانوا عاملاً إيجابياً من عوامل الاستقرار وازدهار الحضارة في أفريقية .

وبعد سنتين من الحكم ، رأى هرثمة بن أعين أنه قد قام بمهمته في أفريقية وأقر الأمن في البلاد ، ولكن الحقيقة أنه قد تعب وتآقت نفسه للعودة إلى بغداد

#### أصل الأغلبية : إبراهيم بن الأغلب :

وكان من بين كبار عرب أفريقية رجل يسمى الأغلب بن سالم بن عقّال التميمي . كان أصله من عرب مصر ، وكان من كبار رجال الجيش ، وعندما أرسلت الخلافة الولاى محمد بن مقاتل العكي إلى أفريقية كلفت الأغلب بن سالم ابن عقّال بالمسير معه في نفر من جند مصر ، فدخل أفريقية واستقر والياً على الزاب ، وكان هنا تميميون كثيرون ، ثم قتل الأغلب بن سالم بن عقّال في حرب الخوارج ، فأقام هرثمة ابنه إبراهيم بن الأغلب والياً على الزاب ، وكان إبراهيم شاباً نشيطاً ذكياً مثقفاً ، كان ينوئ أن يتجه لدراسة العلم في مصر ، ودرس على الليث بن سعد ، ولكنه عندما دخل أفريقية اتجه إلى السياسة وجمع التميميين حوله ، وصار من أكبر الشخصيات العربية في المغرب ، وأنس فيه هرثمة بن أعين كفاية وإخلاصاً فقرّبه وأعلى مكانته .

وعندما أراد هرثمة أن يعود إلى بغداد ، اقترح على هارون الرشيد أن يقيم إبراهيم بن الأغلب عاصلاً على أفريقية ، فاشترط إبراهيم على دولة الخلافة أن

تقيمه على أفريقية بصورة دائمة ، فهو شديد الإخلاص والولاء للبيت العباسي . ثم إنه رأس التميميين وهم أكثر عرب أفريقية ، وهو إلى جانب ذلك رجل مجرب خبير بشئون السياسة والحرب . وقد اقترح إبراهيم بن الأغلب على هارون الرشيد أن يرسل كل سنة إلى بغداد أربعين ألف دينار ، ويستغنى عن مائة ألف دينار ، كانت ترسل كل سنة من مصر معونة لوالي أفريقية . وتعهد بأن يتصرف كعامل عباسي تابع لدولة الخلافة ، وإن كان يتمتع بحرية التصرف داخل ولايته لكي يستطيع مواجهة نفر من زعماء العرب المشاغبيين من أمثال الحسن بن حرب الكندي ، وكان زعيم جند العرب في تونس . فأجابته الخلافة بما طلب ووافقت كذلك على أن تكون الولاية في بني الأغلب ماداموا على الطاعة والولاء . ووافق ابن الأغلب على أن يكون للخلافة الحق في تعيين قاضي القيروان ، وأن يكون للخليفة الحق في عزل الوالي الأغلبي إذا أساء التصرف بشرط أن تقيم بدله أغليياً آخر . وتم الاتفاق على ذلك كله ، وتولى إبراهيم بن الأغلب ولاية أفريقية سنة ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م وبدأت بذلك تجربة سياسية جديدة في تاريخ أفريقية - تجربة حكم أفريقية بواسطة أسرة عربية محلية تابعة للدولة العباسية .



## دولة الأغالبة في أفريقية ( ١٨٤-٢٩٦ هـ / ٨٠٠-٩٠٩ م )

كان قيام دولة الأغالبة في أفريقية ، التي كانت تتكون من طرابلس وأفريقية وجزء من المغرب الأوسط من إقليم الزاب ، تجربة جديدة في نظم الحكم الإسلامية فلمرة الأولى تعهد الخلافة إلى رجل من المغرب في الانفراد بولاية من ولاياتها ، بحكمها حكماً شبه مستقل في نظير مبلغ قليل من المال ، إلى جانب التعهد بالبقاء على الطاعة والولاء للدولة العباسية . وقد وافقت هذه الأخيرة على أن تجعل الولاية وقفاً على أهل بيت ذلك الرجل ، يتوارثونها فيما بينهم ، ماداموا على الولاء الكامل للبيت العباسي ، والشرط الوحيد الذي اشترطته الخلافة العباسية هو البقاء على الطاعة بكل معناها وشكلياتها ، وكذلك حماية حدود الدولة العباسية من الناحية الغربية ، التي وقفت بصورة رسمية عند المجرى الأعلى لنهر شلف ، الذي يجري من الجنوب إلى الشمال جنوبى مدينة الجزائر الحالية

نقول هذا وإن كنا لا نملك نصاً ، ولا نعلم شيئاً مؤكداً عن الاتفاق بين الخليفة هارون الرشيد وإبراهيم بن الأغلب ، وكلامنا هنا قائم على ما ورد في مراجعنا عن هذا الاتفاق وهو قليل . ذلك أن تاريخنا الإسلامي يخلو من الوثائق الرسمية في معظم عصور تاريخه ، وكل ما نقوله المراجع هو ما ذكرناه من أن هارون الرشيد استجاب لطلب إبراهيم بن الأغلب أن يقيم عاملاً شبه مستقر على المغرب على الشروط التي ذكرناها . ويبدو أن هرشة بن أعين كان له دور في ذلك ، وقد أعجب بإبراهيم بن الأغلب ووثق فيه وفي إخلاصه لبيت بنى العباس ، وكان إبراهيم بن الأغلب من أهل الولاء لبيت الخلافة ، وكذلك كان أبوه الأغلب بن سالم بن عقال وهو من تميم ، القبيلة العربية الكبيرة . وكان كما قلنا من كبار جند مصر وذببه الخليفة مع محمد بن مقاتل العكي الذي أرسله إلى أفريقية ليحارب الخوارج وقد قتل الأغلب بن سالم بن عقال في الصراع بين رجال الدولة العباسية

والخوارج ، وكان ابنه إبراهيم مقيماً في إقليم الزاب مع قومه من تميم ، فلما قتل  
أبوه أصبح هو والياً على الزاب ، وكان شاباً نشيطاً ذكياً أعجب به هرثمة بن أعين  
لنشأته ، وذكائه وفصاحته ، ويبدو أن هرثمة هو الذي توسط بين هارون الرشيد  
وإبراهيم بن الأغلب ، وكانت الخلافة العباسية قد أعيثها الحيلة في شأن إفريقية ،  
وتمكنت بعد جهود مضنية من المحافظة عليها في إطار السنة والجماعة وإبعاد  
الخوارج عنها ، وكان إبراهيم بن الأغلب شاباً طموحاً يرى نفسه أهلاً للولاية ،  
ولمحت نفسه إلى الانفراد بشؤون إفريقية مع بقاءه على الولاء للبيت العباسي .  
واتفق طموحه مع ما كانت الدولة العباسية تسعى إليه من وضع أمور إفريقية في  
يد أمينة وتستريح من تكاليف نفقاتها عليها ، وهي جد ثقيلة كما رأينا . على هذا  
الأساس تم الاتفاق بين إبراهيم بن الأغلب وهارون الرشيد .

### حكم إبراهيم بن الأغلب :

حكم إبراهيم بن الأغلب من ١٨٤ - ١٩٦ هـ / ٨٠٠ - ٨١٢ م ، وقد حكم  
إفريقية في ظروف عسيرة ، فلم يكن له من سند عسكري إلا قوة يسيرة من  
التميميين والجند الخراسانيين ، وكان خمسمائة كثرين من العرب البلديين ، الذين  
لم يوافق أحد منهم على الإقرار له بتلك الرئاسة . وأعلنوا عليه حرباً عيفة طويلة .  
ظالت مستمرة طوال العصر الأغلبي الذي دام أكثر من مائة سنة ، إذ ينتهى حكم  
بنى الأغلب سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٩ م على يد الفاطميين . ومن أكبر أولئك الخصوم  
الحسن بن حرب الكندي وعمران بن مجالد الربيعي . وقد تمكن إبراهيم بن  
الأغلب من القضاء على نفر كبير من رؤسائهم بعد جهد شديد ، ولكنه لم يقض  
على روح التمرد والعصيان عليه وعلى آل بيته ، التي انتشرت في رؤساء جند  
إفريقية العربي ومن انضم إليهم من العرب الذين تحولوا إلى عرب بلديين ، وظلوا  
يتصورون أنهم أحق من غيرهم بحكم إفريقية . وكان الاتفاق بين الخليفة هارون  
الرشيد وإبراهيم بن الأغلب يقضى بأن يؤدي إبراهيم ٤٠٠٠٠ - أربعين ألف  
دينار في السنة ، ويستغنى عن ١٠٠٠٠٠ مائة ألف دينار كانت ترسل من مصر  
معونة لوالى إفريقية ، فكان كل خراج إفريقية الذي كان يعود إلى الدولة العباسية  
١٤٠٠٠٠ مائة وأربعين ألف دينار ، وهو مبلغ رهيب جداً . ولكن إبراهيم بن

الأغلب اجتهد في استخراج مال كثير من أفريقية . حتى بلغ إيراده فيما يقال نحو المئتين من الدنانير في السنة ، وهذا المال كان عماد قوة إبراهيم بن الأغلب . وهذا الفارق الحسيم بين ما كان الولاة يرسلونه إلى الخلافة من خراج أفريقية ، وما كان يتحصل منها فعلاً ، يعطينا فكرة عن « أمانة » الولاة في تلك العصور أو قلة أمانتهم بتغيير اصح .

وقد اتجه نظر إبراهيم بن الأغلب من أول الأمر إلى إقامة قوة عسكرية يستطيع الاعتماد عليها ، إذ أنه لم يكن يستطيع الاعتماد على الجند الخراساني ، وكان التميميون قليلين ، رغم أنه وفدت منهم الوف كثيرة إلى أفريقية أيام الأغالية ولكن حصومه كانوا يعتمدون أيضاً على قوى عسكرية قليلة لا تقل عن قواته ، فكان همه الأول هو إنشاء قوة عسكرية خاصة به بالمال . وقد تكونت تلك القوة العسكرية من عنصرين

( أ ) البربر المستعربة : الذين عملوا جنداً مرتزقة في الجيش الأغلبى .

( ب ) ثم الصقالية . وهم جند من أصل أوربي كانوا يشترون صفاراً من نجار الرقيق الذين يجلبونهم من أوروبا ويبيعون مربية عربية إسلامية . ويتخذون بعد ذلك جنداً وخدماء للدولة في القصور والوظائف . وقد استكثر إبراهيم بن الأغلب من هؤلاء جميعاً ، وأضاف إليهم بعد ذلك قوة من السود . ولم يطمئن على حكمه إلا بعد أن تم له إنشاء هذه القوة ، خلال السنوات الأولى من حكمه في أفريقية .

### إنشاء القصر القديم :

في نفس الوقت عمل إبراهيم بن الأغلب على إنشاء قاعدة عسكرية له ولازم بيته على طريقة الكثيرين جداً من حكام المسلمين ، الذين كانوا يعيشون في القالب منفصلين عن رعاياهم . محتدين على جندهم المرتزق ، وقد اختار إبراهيم بن الأغلب موقعاً إلى الجنوب الغربي من القيروان . أنشأ فيه مدينة صغيرة ، هي في الواقع حصن لبית الحكم ، وسميت المدينة الجديدة أولاً بالعباسية ثم سميت بالقصر القديم . وعندما تمت ، انتقل إليها بأهله وأمواله وحرسه وجنده وأصبح القصر القديم قاعدة الحكم في البلاد . وعندما تم ذلك لإبراهيم أمين على نفسه

ومعصره ، وسار في حكمه على طريقة الحكام في تلك العصور ، أي أنه أصبح معتمداً على جنده المأجور ، ولم تعد له بالبلاد صلة حقيقية إلا الضرائب التي كان رجال الدولة يجبرونها من أهل البلاد .

وكان القصر القديم بمدينة كاملة ، فيه قصور الأمير وأبن بيته ومسكن حواشيه وخدمه ومعسكرات لجنده وخزائن للسلاح والأموال ، هذا إلى جانب الأسواق وكل ما يلزم للمدينة من وسائل المعاش . وحفرت داخل المدينة الآبار الكثيرة التي كانت تقدم لأهلها حاجتهم من الماء . وأحيطت المدينة بسور حصين على أركانها أبراج عالية يقوم فيها الحراس .

أما الجند العربي المعادي لإبراهيم بن الأغلب فقد تركز في معسكرات في المدن الكبرى وخاصة في تونس ، التي تحولت إلى مركز المعارضة السياسية للبيت الحاكم . وطوال العصر الأغلبي نلاحظ أن الحرب كانت مستمرة بين الأغلبية والجند العربي ، وخاصة في أيام زيادة الله بن الأغلب الذي ارتكب معهم مظالم رهيبة . وعندما انكسرت شوكة العرب كانت قوة البيت الأغلبي أيضاً قد وهنت وقربت نهايته ، وهذا مثال مما حدث كثيراً في تاريخنا العربي من إهلاك العرب بعضهم لبعض . ومن ظواهر تاريخنا الإسلامي أن العرب لم ينهزموا أمام غير العرب إلا في النادر ، ولكن الذي أهلك العربي في كل مكان هو عربي آخر .

ساد البلاد بصورة عامة خلال العصر الأغلبي أمن ورخاء ، وعمرت المدن وأمنت السابلة ورحيت الأحوال وبدأت شخصية أفريقية في الظهور ، وكثر أهل العلم ، وبالفعل تحولت أفريقية إلى قاعدة قوية من قواعد حضارة الإسلام .

وقد حكم أفريقية من بني الأغلب أحد عشر أميراً ، حكم معظمهم مدداً قصيرة وصلت في بعض الأحيان إلى أقل من العام ، فلم تتسع الفرصة أمام معظمهم للقيام بأعمال تذكر ، ثم إن أصحاب المذاهب التي تذكر منهم كانوا اثني - إبراهيم ابن الأغلب الذي تحدثنا عنه ، ثم ابنه زيادة الله بن إبراهيم ثالث أمراء البيت ، وقد حكم اثنتين وعشرين سنة هجرية ، ثم ابنه إبراهيم بن أحمد بن أبي عقيل تاسع أمراء البيت الأغلبي . وهو أطول أمراء هذا البيت حكماً ، إذ أنه حكم تسعاً وعشرين سنة هجرية ، ولكن عصره كان مضطرباً ، اختلت الأحوال أثناء اختلالاً شديداً نظراً لاضطراب شخصيته



ويُنقسم تاريخ العصر الأغلبى في جعلته إلى ثلاث فترات . فترة التأسيس من ١٨٤ - ٢٢٣ هـ / ٨٠٠ - ٨٣٨ م ، وتشمل إمارات إبراهيم بن الأغلب وأبيه أبي العباس وزيادة الله عصر الازدهار والاستقرار النسبى من ٢٢٦ - ٢٨٩ هـ / ٨٤٠ - ٩٠٢ م ، وتمتد من نهاية حكم زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب المعروف بالأول من سنة ٢٠١ هـ / ٨١٦ م إلى نهاية حكم أبي عبد الله محمد ( الثانى ) ٢٦١ هـ / ٨٧٥ م . وقد تضمنت هذه الفترة حكم عدد من أواسط أمراء البيت الأغلبى من حيث الملكات ، ولكن الأمور كانت قد استقرت وهدأت أحوال أفريقية بصورة عامة .

ويرجع معظم السبب في ذلك إلى فتح صقلية الذى فتّح مجالاً واسعاً أمام الجند وزعمائهم للغزو والحصول على المغنم . تاركين أمراء بنى الأغلب في سلام ثم جاء حكم إبراهيم بن أحمد ، معلناً بداية التدهور ، ثم تلى ذلك فترة التدهور وتستمر من ٢٨٩ - ٢٩٦ هـ / ٩٠٢ - ٩٠٩ م . ولكن فترة الاستقرار الحقيقية التى يمكن أن تسمى فترة ازدهار للأسرة لم تزد على ثلاثين سنة على الأكثر . ولكن هذه الأسرة ، على الرغم من قصر مدة الاستقرار في أيامها ، فإنها تعتبر صاحبة الفضل في إرساء أسس أفريقية الإسلامية وظهور شخصيتها بما تميزت به من خصائص ، لأن شعب أفريقية الإسلامية الذى أوجزنا الحديث عن جهاده في سبيل الحفاظ على مذهب السنة والجماعة والبقاء في نطاق الأمة الإسلامية العامة ، كان في حاجة إلى فترة استقرار طويلة بعض الشيء . كى تثبت القواعد الاجتماعية والحضارية التى تمكن من تكوينها والحفاظ عليها خلال اضطرابات عصر الولاة وما وقع فيها من الانقلابات وتغير الأحوال . وقد أتاح له بنو الأغلب فرصة هذا الاستقرار ، وأقاموا في بلاده حكومة محلية ذات طابع أفريقى ، ثم إن بنى الأغلب كانت فيهم عروبة صادقة واهتمام بشئون العلم والحضارة والمنشآت ، فكان العصر في جعلته ، رغم كثرة حروبه واضطراباته ، خيراً على أفريقية ، وخطوة واسعة إلى الأمام في بقاء المغرب الإسلامى

وقد تكلمنا عن إبراهيم بن الأغلب ، وسنتكلم الآن عن اثنين من أمراء البيت

الأغلب هما زيادة الله بن الأغلب وإبراهيم بن أحمد ، إذ لا يتسع المجال للحدث عن بقية أمراء هذا البيت .

### زيادة الله بن الأغلب ٢٠١ - ٢٢٣ هـ / ٨١٦ - ٨٣٨ م :

بعد وفاة إبراهيم بن الأغلب خلفه ابنه أبو العباس ، ولم تدم له الإمارة طويلاً فحاء بعده أخوه زيادة الله . وزيادة الله كان أميراً قادراً ولكن مشكلته الكبرى كانت جنده الذي استكثر منهم أبوه إلى درجة زادت على الحاجة . وتكلف ذلك الجند المال الطائل ، يضاف إلى ذلك أن جند البربر كانوا قد تكاثروا مع الزمن وزادوا على الحاجة وثقلت نفقاتهم وبدأوا يشعرون على الدولة ، فوجد زيادة الله نفسه أمام حشد هائل من الجند ، لا عمل لهم في الحقيقة ورواتبهم في زيادة ونوعهم في تدهور فكان لابد له من أن يفكر في مخرج من تلك الأزمة ، بإيجاد مجال لنشاط هؤلاء الجنود . وتلك هي المقدمة الأولى لفتح صقلية على أيامه .

### فتح صقلية ابتداء من سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م :

ذكرنا مقدمات ذلك الفتح وقلنا إن الجند تكاثروا عند زيادة الله إلى درجة كان لابد له معها من أن يجد لهم مخرجاً . والحقيقة أن فتح صقلية تأخر ، فهذه جزيرة كبيرة على أبواب أفريقية . وقريبة من سواحل بلاد الإسلام . وإنه لمن العريب أن يفتح المسلمون الأندلس قبل أن يفتحوا صقلية بقرن وربع من الزمان . ويرجع ذلك إلى أن الفتوح الإسلامية سارت في الكثير جداً من الأحيان دون خطة مرسومة ، لأنه كان ينبغي أن يجيء بعد تمام فتح أفريقية دور صقلية ، خاصة وأن بينها وبين شواطئ أفريقية جزراً تعتبر معابر إلى سواحلها مثل بنتلاريا ( جزائر قوصرة عند العرب ) وتتبع إيطاليا ، وكذلك جزر مالطة ، وكلها دخلت في حوزة الإسلام مع فتح صقلية . وكان تفكير زيادة الله في فتح صقلية قديماً يرجع إلى بداية ولايته ، فقد تكاثر جنده وأصبحوا يسحبون له المتاعب ، ثم إنه ورث عن أبيه ملكاً مستغنياً وثروة طائلة ، فتأقت نفسه إلى أن يجد تقليد الجهاد الإسلامي . وكانت أحوال صقلية الداخلية سيئة تشجع على التدخل فيها ، وما زال يفكر في الأمر ويعود له حتى إذا كانت سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م ، رأى زيادة الله ونصحاؤه الشروع في تنفيذ غزو جزيرة صقلية .

وكانت صقلية في ذلك الحين من الفاتحة الرسمية من أملاك الدولة البيزنطية ، يحكمها بطريق ، أي قائد عسكري يسمى بيلاتوس ، ويعرب العرب « بلاطة » ، يعتمد على قوة عسكرية قليلة . وكان يرمي السكان يطالبه المالية ، فكانوا في حالة ثنمر عليه وضيق بالحكم البيزنطي كله . أي أن الجزيرة في الحقيقة كانت منطقة فراع سياسي .

ولو أن العرب كانوا في ذلك الحين على قوتهم المعهودة قديم ، لما استلزم فتح صقلية أكثر من عامين أو ثلاثة ، كما حدث بالنسبة للشام ومصر . ولكن نوع الجند العربي كان قد تغير ، ولذلك فإن جزيرة صغيرة نسبياً كهذه . استلزم فتحها نحو السبعين سنة ، ومع ذلك فلم يتم سلطان المسلمين عليها بصورة كاملة إلا في أواخر أيام إبراهيم بن أحمد بن الأغلب وهو تاسع أمراء ذلك البيت الأغلبي . وسنحدث عنه .

والسبب المباشر الذي جعل زيادة الله يسرع بإرسال الحملة إلى صقلية هو أن قائداً رومياً يسمى يوفيموس Euphemius ( غيمي ) ثار على الحكم البيزنطي واستقل بشرق الجزيرة وتحصن في سرقوسة وأرسل يستنجد بزيادة الله . فاستجاب لصريخه وعجل بتسيير الجند . وقد دعا زيادة الله بن الأغلب لفتح صقلية جنده الكثيرين فتوافدوا عليه جماعات ، وتجمعوا في ميناء تونس وميناء سوسة واختار لقيادة الجيش الفاتحة فقيهاً هو أسد بن الفرات وذلك أمر مستغرب ، لأن العادة جرت بأن تكون قيادة الفتوح لأهل العرب ، ولكن يبدو أن زيادة الله لم يكن واثقاً من قواه فغذب هذا الشيخ أسد بن الفرات . وكان أسد فقيهاً جليلاً ولد سنة ١٤٢ هـ / ٧٥٩ م في العراق ثم قدم به أبوه - وكان من رجال الحرب - مع القائد محمد بن الأشعث واستقر في القيروان وهناك نشأ أسد واتخذ طريق العلم فدرس على شيوخ بلده ، ثم رحل إلى المشرق في طلب العلم سنة ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م فدرس في العراق على أصحاب أبي حنيفة النعمان ، ثم على أصحاب مالك في المدينة ، ودرس الموطأ لماك ، ثم درس على محمد بن القاسم في مصر ، وعاد إلى القيروان فقيهاً حسن التكوين ، فدون ما سمعه من الموطأ في كتاب سماه « الأسدية » انتشر بين الناس ، وعلا مكان أسد حتى أصبح كبير علماء عصره في أفريقيا . وتولى قضاء القيروان .

وعندما أعلن زيادة الله عن حملة صقلية ، تقدم أسد يطلب التطوع والجهاد جندياً عادياً ، فعرض عليه زيادة الله قيادة الحملة موافق .

على أي حال كان أسد في السبعين من عمره عندما جاءته هذه القيادة ، فخرج بالكثلة الكبيرة من القوة الإسلامية من تونس ونزل في ميناء « مازر » على الساحل الجنوبي لصقلية ، وفي نفس الوقت خرجت قوة أخرى من ميناء سوسة ونزلت في ميناء في أقصى الساحل الجنوبي إلى الشرق يسمى رجوسة ، وذلك لتجدة القائد البيزنطي ، الذي حرج على سلطة البيزنطيين واستنجد بالمسلمين كما ذكرنا . ومن هنا نرى أن المسلمين نزلوا في موضعين من جنوب شبه الجزيرة هما مازر ورجوسة .

كان يندفع على أسد بن الفرات ، بعد أن تمكن من موقع مازر Mazra أن يسير رأساً إلى العاصمة بلرم Palermo ويستولى عليها ، وبذلك يقضى على رأس المقاومة للفتح الإسلامي للبلاد ، ولكنه بدلاً من ذلك اتجه إلى أجرجنت Agregenta واستولى عليها . ومن هناك قصد إلى وسط شبه الجزيرة واستولى على قصر يانة (١) . ثم اتجه شرقاً قاصداً سرقوسة ليعين حليفه وحليف المسلمين ( فيمي ) وحاصر سرقوسة ، وفي أثناء الحصار نزل وباء أصاب الجيش وقضى على الوف من المسلمين ، من بينهم أسد بن الفرات قائد الحملة فمات في الوباء وكانت قد أصابته في القتال جراحات كثيرة ، وكانت وفاته في ربيع الثاني ٢١٢ / يوليو ٨٢٨ . والنتيجة أن وحدة الجيش تفككت واضطرب أمر القوات الفاتحة وخرج الحاكم البيزنطي بيلانتوس وهاجم قصر يانة ، فقطع بذلك مواصلات المسلمين واضطروهم إلى الارتداد مسرعين عن سرقوسة وتحصنوا في حصن قريب منها يسمى مناو ، وأصبح مركزهم حرجاً .

وبذلك فقد المسلمون قوة الدفع الأولى وتعثر الفتح وذلك بسبب قلة الخبرة العسكرية عند أسد بن الفرات الذي لم يتبع الخطة المثل التي جرى عليها

---

( ١ ) Castrogiovanni ويسمى الآن Enna وهي في وسط الجزيرة وفي الطريق من مازر إلى سرقوسة عن الساحل الشرقي للجزيرة Siracusa

المسلمون إلى ذلك الحين في فتوحهم ، وهي الاتجاه رأساً إلى قلب مقاومة العدو واحتلال العاصمة ، وبذلك تنتهي المقاومة ويتم الفتح . ومن القواعد المعروفة في العسكرية أن كل حملة لا تصل إلى الدفعة الأولى إلى نهايتها ، تتحول إلى حرب دفاع أو حرب خنادق ويطول أمدها وتنفد قوتها تبعاً لذلك .

### تدخل الأندلسيين بقيادة أصبغ بن وكيل المعروف بفرغوش :

بذلك تخرج مركز المسلمين خاصة وأن خبرة رجالهم وهم المتطوعون والمجاهدون من العباد والزهاد الذين ساروا مع الحملة ، هلك معظمهم في وباء سرقوسة ، ولم يبق في الجيش إلا الجند الخراساني ومتطوعة البربر ، ولم يجد المسلمون في تلك الظروف حرجاً شديداً يستطيع إعادة الوحدة إلى القوة الإسلامية وقيادتها ، فظلوا متحصنين في بلدة مناو في انتظار المدد الذي طلبوه من زيادة الله بن الأغلب ، وقد تأخر وصول هذا المدد وزادت أحوال المسلمين في صقلية حرجاً .

في هذه الظروف نقاحاً بدخول نفر من الأندلسيين جزيرة صقلية ، يقودهم قائد كبير يسمى أصبغ بن وكيل المعروف باسم فرغوش . ولا ندرى إن كان نزول هؤلاء الأندلسيين وقع مصادفة ، أو أنهم سمعوا بالمعركة الدائرة بين الإسلام والنصارية في الجزيرة فأسرعوا ليعون إخوانهم . على أي حال نجد أن أصبغ أسرع وهاجم الصقليين والروم المحاصرين لماناو ، وفك حصار المسلمين ، وتولى بنفسه قيادة القوى الإسلامية . واتجه المسلمون - رغم معارضة بعض القادة من رجال الأغلبية ، إلى قصر يانة وأعادوا الاستيلاء عليها ثم سار أصبغ نحو بلرم وحاصرها واستولى عليها ، وهنا للمرة الثانية نجد أن الوباء ينزل الجزيرة ويصيب معسكر المسلمين ، وبعد أن تمكن أصبغ بن وكيل من دخول بلرم يصيبه الوباء ويموت شهيداً بعد ذلك بأيام . وبذلك أتيحت الفرصة أمام البيزنطيين ليستعيدوا قصر يانة ويخرج مركز المسلمين مرة ثانية ، ولكن زيادة الله بن الأغلب تمكن من إرسال قائد جديد ،

هذا القائد هو أبو زهر الأغلب ، وقد قاد المسلمين بنجاح ودخل بلرم وطرده بقوة القوة البيزنطية في الجزيرة ثم توفي ، وتولى بعده أخوه أبو غالب فأتى

الاستيلاء على العاصمة ، وفي تلك الأثناء مات زيادة الله بن الأغلب ، ووصل الخبر إلى صقلية فكانت الحملة تغشل مرة ثالثة ، ولكن أبا غالب تمكن من السيطرة على الموقف ، واستقر الأمر للمسلمين في النصف الغربي من الجزيرة ، وبقي عليهم أن يفتحوا شمالها ونصفها الشرقي . وقد استغرق ذلك وقتاً طويلاً ، ومقد حماس المسلمين فلم يتمكنوا من السيطرة على شبه الجزيرة إلا في أيام إبراهيم بن أحمد الأغلب كما سنبين

وبينما تعاقب القادة والولاة على الجزيرة تمكن المسلمون من التقدم في الشمال والشرق ببطء شديد ، وكانت جماعات المسلمين تهاجر إلى الجزيرة وتستقر فيما فتحه المسلمون فيها ، فنشأت في كل مدن الوسط والغرب حاليات إسلامية كبيرة ، وأخذ الإسلام ينتشر بين الصقليين وبعض من بقي في الجزيرة من الروم ، أي أن عملية دخول صقلية في دعوة الإسلام سارت في طريقها رغم كل شيء ،

وكانت العاصمة الرسمية لصقلية الإسلامية مدمية بلرم ، نظراً لجودة مياثها وحصانة أسوارها . ولكن مركز النشاط والعمل كان في مدن الشرق والوسط وخاصة مازر وجرجنت وقصريانة في وسط شبه الجزيرة ، وقد انتشر المسلمون في نواحيها وعمروها ، وعمروا كذلك معظم مدنها مثل مازر وجرجنت ورجيسة وسرقوسة وبعض مدن الساحل الغربي مثل بتشينة وقطانية وميفش وطيرمين وميسينا التي تسمى جبل النار نسبة إلى بركان أتنا الذي يقع إلى جوارها .

وعلى الرغم من أن الأمر في صقلية لم يستقر للمسلمين تماماً إلا خلال فترة قصيرة ، إلا أن تلك الجزيرة الكبيرة تحولت شيئاً فشيئاً إلى بلاد إسلامي تسوده الحضارة الإسلامية رغم قلة أعداد المسلمين فيها ، الذين دخلوها ولكن الصقليين دخل الكثيرون منهم في الإسلام واستعربوا وأنشأوا حضارة إسلامية في صقلية . وما زالت آثارهم فيها باقية إلى اليوم ، في هيئة قصور وبقايا مساحد وحصون ولكن الأثر الأكبر لصقلية الإسلامية هو العمل الحضاري ، فقد تحولت بلرم كما قلنا إلى مركز علم عربي وفيها عاش وعمل - بعد سقوط صقلية في يد

النورمان - الجغرافى المشهور « الشريف الإدريسي » الذى كان اول من صنع كرة أرضية . وقد ذكر فى مقدمة كتابه « نزهة المشتاق » أنه صنعها من القضة ، ويقال : إنه رسم اليابس عليها بالذهب . ثم رسم خريطة للأرض كبيرة مسطحة ، أى أنه حوّل أبعاد الأرض على الكرة إلى أبعاد مسطحة كما فعل الجغرافى الإنجليزى ميركاتور فى القرن التاسع عشر . وكل الخرائط التى ندرس عليها الآن مرسومة بطريقة ميركاتور التى كان الإدريسي أول من ثنّب إليها وطبّقها . ثم وصف الإدريسي كرة الأرض وخريطتها التى رسمها فى كتابه المشهور « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » ، وهو وصف شامل للأرض وما عليها ، وقد أرفق الإدريسي بكتابه سبعين خريطة لأجزاء الأرض تعتبر أول أطلس جغرافى مفصل للكرة الأرضية

وفى أثناء حكم أبى العباس محمد بن أبى عقّال الأغلبى سنة ٢٢٦ - ٢٤٢ هـ / ٨٤١ - ٨٥٦ م ، فتح المسلمون جزيرة مالطة سنة ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م واستقروا فيها ، وبدأوا تحويلها إلى جزيرة إسلامية .

وفى أيام إبراهيم بن أحمد الأغلبى الذى سنتحدث عنه ، فتح المسلمون سرقوسة وطبرمين وبقيّة الشاطئ الشرقى للجزيرة .

وقد ازداد عمران أفريقية ومدنها ، خاصة أيام زيادة الله ، نتيجة لاهتمامه الشديد بالعمران . وقد عبرت المزارع ورخيت أحوال الزراعة ، وزاد الخراج حتى بلغ فيما يقول الجغرافى اليعقوبى<sup>١٤</sup> ثلاثة عشر ألف درهم مرتين « فى العام ( ٣٦ مليون درهم ) . وقد جدد زيادة الله مسجد عقبة فى القيروان وجعله على الهيئة الجميلة التى هو عليها اليوم ، وأنشأ سوراً حصيناً لميناء سوسة . وأنشأ رباط سوسة أى قصر العباد والزهاد فيها ، وتوفى فى ٢٤ رجب ٢٢٣ / ٢٢ يونية ٨٣٨ .

تمكن زيادة الله من إتمام عمل أبيه إبراهيم بن الأغلب ، وكان زيادة الله أميراً جسناً لا بأس بمواهبه . استطاع أن يسير بالحكم الأغلبى سيرة طيبة ، وتمكن من تثبيت سلطان البيت الأغلبى فى أفريقية ، وكان أميراً عاقلاً حسن التصرف خبيراً بشئون الحكم . ولكن عدواة زعماء جند العرب له أوقعتة فى مشاكل وأزمات

وأخطاء كثيرة . وقد تمكن من التغلب على معظمهم ولكن بقيت منهم جماعات قوية خطيرة في تونس وبلرم وطبنة والمسيلة وغيرها من بلاد أفريقية ، كانت من أسباب ضعف البيت الأغلبى كله في النهاية . وكان زيادة الله مشجعاً للعلم والعلماء . ولا يؤخذ عليه إلا العنف في معاملة خصومه من جند العرب وغيرهم ، مما شاب حكمه وملأه بالحروب . وقد قال ذلك الرجل قبل وفاته : إنه لا يخشى لقاء الله سبحانه وتعالى في يوم الميعاد وفي صحيفته أربعة أشياء . بناء مسجد القيروان ، وبناء قصر المنستير ، وبناء قنطرة أم الربيع على نهر مجرد ، وتعيين ابن محرز القضاء . والغريب في الأمر أنه لم يذكر في حسنته التي سيدخل بها الجنة فتح صقلية ، فكأنه لم يشعر في قرارة نفسه بأنه عندما قام بهذا الفتح قام بأعظم ما يذكره التاريخ له وللأغلبية جميعاً .

### إبراهيم بن أحمد الأغلبى ٢٦١ - ٢٨٩ هـ / ٨٧٥ - ٩٠٢ م :

هو تاسع أمراء البيت الأغلبى وأطولهم حكماً وكان رجلاً غريب الأطوار ، مر في حكمه بفترات ثلاث اختلفت فيها شخصيته اختلافاً كبيراً من الانزئان والعدل إلى الاضطراب العقل والنفسى ، ثم إلى التصرف والانصراف إلى العبادة والجهاد ، وانتهت حياته مجاهداً في سبيل الله وهو محاصر مدينة كسنته ، في شبه جزيرة كلابريا في جنوبى إيطاليا . وهو في الطريق إلى نابلى ثم روما وكان هنا قصده

كانت السنوات الست الأولى من حكمه سنوات رزاة وعقل وحكم صالح . فرضى عنه الناس وأحبوه ، خاصة أنه قد صرف جهداً كبيراً في المنشآت الدينية ، وأهملها المساجد وقصور العباد . وقد عرفنا أن هذه القصور كانت أشبه بأديرة تنشأ للمجاهدين المتطوعين الذين يسمون أيضاً بالمرابطين . ولذلك تسعى القصور أيضاً بالأريطة والمفرء رباط . واللفظ قرآنى من الآية التي تأمر المسلمين بإعداد القوة ورباط الخيل لجهاد أعداء الله ، وقد أكثر إبراهيم بن أحمد من إنشاء القصور أو الأريطة في كل مدن السواحل في أفريقية وصقلية لحماية للمسلمين ، وأوقف عليها الأموال . وهو الذى أكمل تجديد جامع الزيتونة في تونس الذى بدأه أبوه إبراهيم بن أحمد الأغلبى وهو من أعظم مساجد الإسلام وبني جنوبى القيروان مدينة رقادة ، وهى مدينة ملوكية تضم القصور والحدائق وصهاريج



النورمان - الجغرافى المشهور « الشريف الإدريسي » الذى كان أول من صنع كرة أرضية ، وقد ذكر فى مقدمة كتابه « نزهة المشتاق » أنه صنعها من الفضة ، ويقال : إنه رسم اليايس عليها بالذهب . ثم رسم خريطة للأرض كبيرة مسطحة . أى أنه خُوِّل أبعاد الأرض على الكرة إلى أبعاد مسطحة كما فعل الجغرافى الإنجليزى مركاتور فى القرن التاسع عشر ، وكل الخرائط التى تدرس عليها الآن مرسومة بطريقة مركاتور التى كان الإدريسي أول من تنبه إليها وطبّقها . ثم وصف الإدريسي كرة الأرض وخريطتها التى رسمها فى كتابه المشهور « نزهة المشتاق فى اختراق الأفاق » . وهو وصف شامل للأرض وما عليها ، وقد أرفق الإدريسي بكتابه سبعين خريطة لأجزاء الأرض تعتبر أول أطلس جغرافى مفصل للكرة الأرضية .

وفى أثناء حكم أبى العباس محمد بن أبى عقال الأغلبي سنة ٢٢٦ = ٢٤٢ هـ / ٨٤١ - ٨٥٦ م ، فتح المسلمون جزيرة مالطة سنة ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م واستقروا فيها ، وبدأوا تحويلها إلى جزيرة إسلامية .

« وفى أيام إبراهيم بن أحمد الأغلبي الذى ستنحدث عنه ، فتح المسلمون سرقسوة وطبرمين وبقية الشاطئ الشرقى للجزيرة .

وقد ازداد عمران أفريقية ومدنها ، خاصة أيام زيادة الله ، نتيجة لاهتمامه الشديد بالعمران . وقد عمرت المزارع ورخيت أحوال الزراع ، وزاد الخراج حتى بلغ فيما يقول الجغرافى يعقوبى « ثلاثة عشر ألف ألف درهم مرتين » فى العام ( ٣٦ مليون درهم ) . وقد جدد زيادة الله مسجد عقبة فى القيروان وجعله على الهيئة الجميلة التى هو عليها اليوم ، وأنشأ سوراً حصيناً لميناء سوسة . وأنشأ رباط سوسة أى قصر العباد والزهاد فيها ، وتوفى فى ٢٤ رجب ٢٢٣ / ٢٢ يونيو ٨٣٨ .

تمكن زيادة الله من إتمام عمل أبيه إبراهيم بن الأغلبي ، وكان زيادة الله أميراً جسناً لا بأس بمواهبه . استطاع أن يسير بالحكم الأغلبي سيرة طيبة ، وتمكن من تثبيت سلطان البيت الأغلبي فى أفريقية ، وكان أميراً عاقلاً حسن التصرف خبيراً بشئون الحكم . ولكن عداوة زعماء جند العرب له أوقعته فى مشاكل وأزمات

وأخطاء كثيرة . وقد تمكن من التغلب على معظمهم ولكن بقيت منهم جماعات قوية خطيرة في تونس وبلرم وطبنة والمسيلة وغيرها من بلاد أفريقية ، كانت من أسباب ضعف البيت الأغلبى كله في النهاية . وكان زيادة الله مشجعاً للعلم والعلماء . ولا يؤخذ عليه إلا العنف في معاملة خصومه من جند العرب وغيرهم . معاً شاب حكمه وملأه بالحروب . وقد قال ذلك الرجل قبل وفاته : إنه لا يخشى لقاء الله سبحانه وتعالى في يوم الميعاد وفي صحيفته أربعة أشياء : بناء مسجد القيروان ، وبناء قصر المنستير ، وبناء قنطرة أم الربيع على نهر مجرده ، وتعيين ابن محرز القضاء . والغريب في الأمر أنه لم يذكر في حسنته التي سيدخل بها الجنة فتح صقلية ، فكأنه لم يشعر في قرارة نفسه بأنه عندما قام بهذا الفتح قام بأعظم ما يذكره التاريخ له وللأغلبية جميعاً .

### إبراهيم بن أحمد الأغلبى ٢٦١ - ٢٨٩ هـ / ٨٧٥ - ٩٠٢ م :

هو تاسع أمراء البيت الأغلبى وأطولهم حكماً وكان رجلاً غريب الأطوار ، مر في حكمه بفترات ثلاث اختلفت فيها شخصيته اختلافاً كبيراً من الاتزان والعدل إلى الاضطراب العقلي والتفكس ، ثم إلى التصرف والانصراف إلى العبادة والجهاد ، وانتهت حياته مجاهداً في سبيل الله وهو محاصر مدينة كسنته ، في شبه جزيرة كلابريا في جنوبي إيطاليا ، وهو في الطريق إلى نابلي ثم روما وكان هذا قصده

كانت السنوات الست الأولى من حكمه سنوات رزاة وعقل وحكم صالح . فرضى عنه الناس وأجبره ، خاصة أنه قد صرف جهداً كبيراً في المنشآت الدينية ، وأهمها المساجد والقصور العباد . وقد عرفنا أن هذه القصور كانت أشبه بإدارة تنشأ للمجاهدين المتطوعين الذين يسمون أيضاً بالمرابطين . ولذلك تسمى القصور أيضاً بالأربطة والمفرد رباط واللفظ قرآني من الآية التي تأمر المسلمين بإعداد القوة ورباط الخيل لجهاد أعداء الله ، وقد أكثر إبراهيم بن أحمد من إنشاء القصور أو الأربطة في كل مدن السواحل في أفريقية وصقلية لحماية المسلمين ، وأوقف عليها الأموال . وهو الذي أكمل تجديد جامع الزيتونة في تونس الذي بدأه أبوه إبراهيم بن أحمد الأغلبى وهو من أعظم مساجد الإسلام وبني جنوبي القيروان مدينة وقادة ، وهي مدينة ملوكية تضم القصور والحدائق وصهاريج

النورمان - الجغرافي المشهور « الشريف الإدريسي » الذي كان أول من صنع كرة أرضية ، وقد ذكر في مقدمة كتابه « نزهة المشتاق » أنه صنعها من الفضة ، ويقال : إنه رسم اليابس عليها بالذهب . ثم رسم خريطة للأرض كبيرة مسطحة ، أي أنه حوّل أبعاد الأرض على الكرة إلى أبعاد مسطحة كما فعل الجغرافائي الإنجليزي مركاتور في القرن التاسع عشر . وكل الخرائط التي تدرس عليها الآن مرسومة بطريقة مركاتور التي كان الإدريسي أول من تنبأ إليها وطبقها . ثم وصف الإدريسي كرة الأرض وخريطتها التي رسمها في كتابه المشهور « نزهة المشتاق في اختراق الأفاق » ، وهو وصف شامل للأرض وما عليها ، وقد أرفق الإدريسي بكتابه سبعين خريطة لأجزاء الأرض تعتبر أول أطلس جغرافي مفصل للكرة الأرضية .

وفي أثناء حكم أبي العباس محمد بن أبي عقال الأغلب سنة ٢٢٦ - ٢٤٢ هـ / ٨٤٦ - ٨٥٦ م ، فتح المسلمون جزيرة مالطة سنة ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م واستقروا فيها ، وبدأوا تحويلها إلى جزيرة إسلامية .

« وفي أيام إبراهيم بن أحمد الأغلب الذي ستمحدث عنه ، فتح المسلمون سرقوسة وطبرمين وبقية الشاطئ الشرقي للجزيرة »

وقد ازداد عمران أفريقية ومدنها ، خاصة أيام زيادة الله ، نتيجة لاهتمامه الشديد بالعمران ، وقد عمرت المزارع ورخيت أحوال الزراع ، وزاد الخراج حتى بلغ فيما يقول الجغرافي اليعقوبي « ثلاثة عشر ألف ألف درهم مرتين » في العام ( ٢٦ مليون درهم ) . وقد جدد زيادة الله مسجد عقبة في القيروان وجعله على الهيئة الجميلة التي هو عليها اليوم ، وأنشأ سوراً حصيناً لبنيان سوسة . وأنشأ رباط سوسة أي قصر العباد والزهاد فيها . وتوفي في ٢٤ رجب ٢٢٣ / ٢٢ يونيو ٨٢٨ .

تمكن زيادة الله من إتمام عمل أبيه إبراهيم بن الأغلب ، وكان زيادة الله أميراً حسناً لا يأس بمواهبه . استطاع أن يسير بالحكم الأغلب سيرة طيبة ، وتعلم من تثبيت سلطان البيت الأغلب في أفريقية ، وكان أميراً عاقلاً حسن التصرف خبيراً بشئون الحكم . ولكن عداوة زعماء جند العرب له أوقعت في مشاكل وأزمات

وأخطاء كثيرة . وقد تمكن من التغلب على معظمهم ولكن بقيت منهم جماعات قوية خطيرة في تونس وبلرم وطبنة والمسيلة وغيرها من بلاد أفريقية ، كانت من أسباب ضعف البيت الأغلبى كله في النهاية . وكان زيادة الله مشجعاً للعلم والعلماء . ولا يلخذ عليه إلا العنف في معاملة خصومه من جند العرب وغيرهم ، مما شاب حكمه وملاه بالحروب . وقد قال ذلك الرجل قبل وفاته . إنه لا يخشى لقاء الله سبحانه وتعالى في يوم الميعاد وإن صحيفته أربعة أشياء . بناء مسجد القيروان ، وبناء قصر المنستير ، وبناء قنطرة أم الربيع على نهر مجرده ، وتعيين ابن محرز القضاء والغريب في الأمر أنه لم يذكر في حسناته التي سيدخل بها الجنة فتح صقلية . فكانه لم يشعر في قرارة نفسه بأنه عندما قام بهذا الفتح قام بأعظم ما يذكره التاريخ له وللأغالبية جميعاً .

### إبراهيم بن أحمد الأغلبى ٢٦١ - ٢٨٩ هـ / ٨٧٥ - ٩٠٢ م :

هو تاسع أمراء البيت الأغلبى وأطولهم حكماً وكان رجلاً غريب الأطوار ، مر في حكمه بفترات ثلاث اختلفت فيها شخصيته اختلافاً كبيراً من الاتزان والعدل إلى الاضطراب العقل والنفسى ، ثم إلى التصوف والانصراف إلى العبادة والجهاد ، وانتهت حياته مجاهداً في سبيل الله وهو محاصر مدينة كسنته ، في شبه جزيرة كالابريا في جنوبي إيطاليا ، وهو في الطريق إلى نابلي ثم روما وكان هذا قصده .

كانت السنوات الست الأولى من حكمه سنوات رزانة وعقل وحكم صالح ، فرضى عنه الناس وأحبوه ، خاصة أنه قد صرف جهداً كبيراً في المنشآت الدينية ، وأهمها المساجد وقصور العباد . وقد عرفنا أن هذه القصور كانت أشبه بأديرة تنشأ للمجاهدين المتطوعين الذين يسمون أيضاً بالمحاربين . ولذلك تسمى القصور أيضاً بالأربطة والمفرد رباط واللفظ قوآنى من الآية التي تأمر المسلمين بإعداد القوة ورباط الخيل لجهاد أعداء الله ، وقد أكثر إبراهيم بن أحمد من إنشاء القصور أو الأربطة في كل مدن السواحل في أفريقية وصقلية لحماية للمسلمين ، وأوقف عليها الأموال . وهو الذى أكمل تجديد جامع الزيتونة في تونس الذى بدأه أبوه إبراهيم بن أحمد الأغلبى وهو من أعظم مساجد الإسلام وبني جنوبي القيروان مدينة رقادة ، وهي مدينة ملوكية تضم القصور والحدائق وصهاريج

الماء . ومن هذه الصحاريح واحد سعى البحر ، طوله خمسمائة ذراع وعرضه أربعمائة ، وإليه ينسب المنجل العظيم كما يسمى ، والجمع مواجل ، والمنجل هو حوض ماء يبنى بالحجر ليتجمع فيه ماء المطر ، وما زلنا نرى في خارج القيروان إلى يومنا هذا مواجل الأغالية . وهي من أجمل آثار البلاد ، وقد اكتملت في أيام إبراهيم بن أحمد سلسلة المحارس على الشواطئ . وكانوا ينتشون في كل محرس برجاً للنار لإرسال الإشارات ، فكان الخبر يصل إلى أقصى البلاد من بجاية على الساحل الشمالي لجمهورية الجزائر الحالية حتى طرابلس في أقل من ليلة . أما بالنيهار فكانت الإشارات ترسل بالدخان ، فكانوا يوقدون في النواوير أخشاباً رطبة تبعث دخاناً كثيفاً يُرى من بُعد .

بعد ذلك تجد أن هذا الرجل يصاب بمرض عصبي تداخل معه أعماله وتظلمته إلى الأمور . وأخبرخون يقولون إن « دماغه جفت » وهو تعبير غير مفهوم ، والمهم أن ذلك الرجل امتنع عليه النوم وازادت مخاوفه ، فاقبل يقتل الناس لأقل رغبة . وظلت هذه الفترة أكثر من ست سنوات حتى خافه الناس وقرروا خلعه ، وبعثوا إلى الخليفة يشكون من أعماله ويطلبون عزله ، ولكنه تنبه لنفسه شيئاً فشيئاً قرب نهاية حكمه . ويبدو أن الذي نبيه هو الخطر الفاطمي ، ففي ذلك الحين كان أبو عبد الله الشيعي داعي الفاطميين قد ثبت أقدامه في منازل قبيلة كتامة التونسية ، وبدأ يغير على بلاد الأغالية فخاف إبراهيم بن أحمد وعاد إلى رشده ، وأصلح من أمر نفسه واجتهد في لم شعث إمارته .

ولكن الخليفة العباسي أرسل إليه أمراً بالنزول عن الحكم وتولية ابنه أبي العباس عبد الله مكانه

### حاضرة أفريقية والمغرب أيام الأغالية :

تلنا إن بنى الأغلب كانوا تجربة جديدة في حكم ولايات الدولة العباسية ، وإن كانت استمراراً لتجربة آل أبي حفص عمر بن قبيصة المهلبى ، وإلى حد ما تعتبر التجربة ناجحة ، فخلال القرن من الزمان تقريباً الذي دامته دولة الأغالية ، تقدمت البلاد تقدماً كبيراً محسوساً ، وازدهرت المدن وأخذت القيروان ونونس وبسوسة وسفاقس طابع المدن الإسلامية التقليدية ، فازدانت بالمساجد والمنشآت

العامة كصهاريج الماء والمواجل ودور الصناعة ودور الحكم وقصور الأمراء  
وكبار الناس وما إلى ذلك .

وإذا كان العصر الأغلبى قد بدأ سنة ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م والبلاد فوضى  
تتقاسمها جماعات الخوارج والعرب المسلمين ، فقد انتهى والبلاد موحدة تحت  
لواء السنية ، فلا نجد الخوارج إلا في أقصى الطرف الغربي لبلاد الأغلبية بل في  
إقليم تاهرت في المغرب الأوسط ، ولم يكن داخلها في دولتهم ، وكذلك كانت هناك  
جماعات إباضية صغيرة في بعض نواحي طرابلس وجبل نفوسة وجزيرة جربة ،  
ولكنها لم تعد تشكل متاعب أو مصاعب للحكام .

وقبل الأغلبية لم تكن هناك شخصية واضحة لأفريقية والمغرب الأوسط .  
وكانت مدنها قرى كبيرة ومحطات للقوافل بما في ذلك القيروان ، والمدينة الجديدة  
التي كان لها طابع مدينة هناك كانت تونس التي احتلت بسرعة مكان قرطاجنة  
فقد كانت فيها مبان ودار صناعة وأسواق . وكان أهلها من الجند العرب  
يشعرون بامتيازهم دائماً ويرفضون الخضوع للقيروان .

وقد كان لبعض المهالبة اهتمام بالابنية والمنشآت . وكان لييزيد بن حاتم دور  
كبير في تطوير جامع القيروان وإنشاء أسواق القيروان وتونس وتنظيمها ، وكذلك  
اهتم مرثمة بن أعين بإنشاء القصور للبرابطين والزهاد والمحارس على الساحل ،  
ولكن بنى الأغلب هم الذين مدنوا أفريقية والمغرب الأوسط .

ومن أعظم أعمالهم تجديد مسجد القيروان وتونس الجامعين ، وهما  
مسجد عقبة ومسجد الزيتونة ، وإعطاهما صورتها الباقية إلى اليوم . وقد  
تعاقبت على مسجد القيروان أعمال التجديد منذ بناء عقبة بن نافع بناءً بدائياً ، ثم  
جده حسان بن النعمان وأكمل حنظلة بن صقوان ، ولكن الذي أعاد بناء كله  
ورفع قبابه وجدد متدنته وأعطاه صورته الحالية ، كان زيادة الله بن الأغلب ، فقد  
أنفق في ذلك مالا جزيلاً طوال سنوات كثيرة . وكان يقول : « ما أبالي ما قدمت عليه  
يوم القيامة وفي صحيفتي أربع حسنات : بنياني المسجد الجامع بالقيروان ،  
وبنياني تنظرة أم الربيع ، وبنياني حصن مدينة سوسة . وتوليت أحمد بن أبي  
محرز قضاء أفريقية » . وإلى زيادة الله أيضاً تنسب أعمال ضخمة في جامع

ترنس الذي كان عبيد الله بن الحجاب أول من بنى سنة ١١٤ هـ / ٧٢٢ م ، ولكن ذلك المسجد لم يكتمل إلا على يد إبراهيم بن أحمد سبأس أمراء البيت الأغلب ، فهو الذي أعطاه صورته البديعة التي يبدو بها اليوم وأمر ببناء قبابه المصقلة ووضع فيه أعمدة الرخام وزينه بالخاراف والنقوش والكتابات الكوفية الجميلة ، وهذا الرجل هو الذي أمر ببناء القبة الكبيرة في جامع القيروان ، وهي من أجمل القباب في تاريخ المساجد .

وكان الذي بنى جامع سوسة هو أبو العباس محمد بن الأغلب خامس أمراء الأغلبة ، ويعتبر هذا المسجد من أجمل الآثار المعمارية الإسلامية في أفريقية . أما رباط سوسة المسمى بقصر الرباط وهو من أجمل قصور العبادة والرباط في أفريقية ، فكان من إنشاء زيادة الله بن الأغلب ويسمى قصر الرباط

وكانت نهاية بنى الأغلب بالمنشآت العسكرية والمدنية لا تقل عن عنايتهم بالمنشآت الدينية ، فقد أنشأوا الكثير من الأسوار والأبراج للمدن وخاصة ما وقع على الساحل منها ، ويذكر لهم التاريخ دارين عظيمين للصناعة إحدهما في مرس والآخرى في سوسة ، وقد كتب كل من الدارين صفحات مجيدة في تاريخ النشاط البحري الإسلامي في البحر المتوسط

ومن نماذج المنشآت العسكرية في عصر الأغالبة الرباطات ، وهي شبيهة بالقصور التي ذكرناها ، ولكنها كانت تخصص للعاهدين والمرابطين ، ما بين أفراد يدفعهم التقى إلى التطوع للجهاد ، وحاميات رسمية ، ولكن الغالب أن الرباط كان للأفراد ، أما الجند فكانت تبني لهم المعسكرات .

ويحيط بالرباط عادة سور مرتفع ، تقوم على أركانه وعلى مسافات منه أبراج يقف فيها الحراس ، وتوقد فيها النيران وقت الخطر ، وقد بقي لنا من رباطات عصر الأغلبة رباط سوسة ، وهو من بناء زيادة الله بن الأغلب . وهو داخل سور المدينة من ناحية البحر ، وطول ضلع سوره ٤٠ متراً تقريباً ، وبداخل السور ثلاث قاعات واسعة تسمى الأسطوانات ، مرفوعة على عمد ، وفوقها سقف يتكون من ثلاثة أقبية ، وهذه القاعات والأسطوانات يؤدي بعضها إلى بعض ، وهي تستعمل للنوم والأكل ، ويلبها صحن الرباط ، وهو مساحة واسعة مسورة

تدور حولها البوائك ، وهذه البوائك طابقان وهي تقشع أو تطل على صحن الرباط  
وفي ركن من الصحن يقوم مسجد الرباط .

وشبيه برباط سوسة رباط المنستير وهو أقدم منه وأجمل من ناحية  
الهندسة ، وقد تضخم هذا الرباط حتى صار أشبه بمدينة فيها المساكن الكثيرة ،  
والرباط طابقان يخصص الثاني للحراسة والعبادة ، وفي العادة يكون للرباط  
شيخ من أهل الصلاح هو الذي يتولى تنظيم وتسيير العبادة أو الحراسة فيه .

وقدما يتعلق بالعمارة المدنية أشرنا إلى مدينة القصر القديم التي بناها إبراهيم  
ابن الأغلب على نحو ٦ كيلو مترات جنوبى القيروان ، لتكون معسكراً لحضده  
ومقاماً له ومعقلاً لأسرته ، وكانت المدينة تتكون من قصور وحدائق ومعسكرات  
وأماكن للعبادة . ولم يبق من آثار هذه المدينة شيء . وكانت قد سعت بالعاسية  
ثم سميت بالقصر القديم تمييزاً لها عن القصر الجديد ، وهو مدينة رقادة التي  
بناها إبراهيم بن أحمد سنة ٢٦٤ هـ / ٨٧٨ م وقد ذكرناها .

وكانت لبنى الأغلب غاية بناء صهاريج المياه وجبايها . والصهرج خزان  
ماء فوق الأرض ، أما الجب فلا يكون إلا في باطن الأرض ، والجب مخزن واسع  
للمياه يتكون من حجرة واسعة قد يصل قطرها إلى ٤٠ متراً وعمقها نحو  
العشرين ، ثم يبنون عند الماء حجرة أو قبواً واسعاً بالحجر أو الطوب الأحمر  
أو الطوب المطلي باليلاط الذي لا تؤثر فيه المياه ، وقد بطن بالرخام ، ويرفع  
سقف هذه الغرفة أو القبو على أعمدة ويوانك ، فإذا اكتمل جعلوا له سلالم تؤدي  
من سطح الأرض إلى حيث يوجد الماء في الغرفة أو القبو السفلي عند الماء ،  
ويجعلون الجب مدخل وممرات يدخل منها ماء المطر والهواء ، ثم يهيلون التراب  
فوق الجب فيما عدا المداخل وفتحات السلالم . وتصل المياه إلى الجب عن طريق  
قنوات تنسق له ماء المطر ، ويستخرج الماء عن طريق فتحات في السقف تشبه  
الآبار ، ويخرجون الماء من الجب بالدلاء جمع دلو ، أو يهبطون بأنفسهم  
بالسلالم .

وأكثر الأغالب كذلك من بناء المواجل وهي أحواض ماء واسعة وعميقة تشبه  
النفسيات ، ويتجمع فيها ماء المطر ، وهي دائرية مكشوفة وقد يقام في وسط الماجل  
جدرسق يجلس فيه الأمير للراحة ، ومواجل القيروان وتونس وسوسة تعتبر من



الأثار الجميلة التي تستحق المشاهدة . ويطيل المؤرخون الحديث عن القصور والمنشآت التي بناها إبراهيم بن أحمد الأغلبى في مدينته المسماة « رقادة » ويقولون : إن قصراً منها كان يسمى بغداد وآخر يسمى المختار . وفي هذه المدينة الملوكية أنشأ زيادة الله بن أبي العباس عيد الله ، وهو المعروف بزيادة الله الثالث ، وهو آخر الأغالية ، بركة أو ماجلاً ، طوله خمسمائة ذراع وعرضه أربعمئة وأجرى إليه الماء بالسواقي ، وسُمي هذا الماجل الفسيح بالبحر ، وأنشأ على ضفته قصراً من أربعة طوابق سماه « العروس » وأنفق في إنشائه ٢٢٢.٠٠٠ دينار ، وما كاد القصر يتم وينتقل إليه ، حتى رحل عنه هارباً إلى مصر ، فقد كان أبو عيد الله الشيعي ، دأى الفاطميين ، قد استولى على معظم بلاد الأغالية ، وعندما استولى على الأربس على بعد أميال قليلة من القيروان ، ترك هذا الأمير بلاده وملكه ومضى . ولم يكن يستحق الإمارة على أي حال ، فقد تولى العرش بمؤامرة دبرها ضد أبيه وقتله ليث ملكه .

### الحياة الاجتماعية والفكرية في عصر الأغالية :

لا بد أن نلاحظ أن ما تحدثنا به المراجع من الثورات والحروب الداخلية التي امتلأ بها تاريخ الأغالية ، لم تكن تمس الحياة العامة للبلاد إلا في حالات قليلة ، فبينما كان رجال السياسة والحرب يتطاحنون ، كانت جماعات سكان المدن وأهل المزارع ماضية في طريقها ، دون أن تعطي اهتماماً كبيراً للمنازعات والمنافسات ، بين أهل الحكم أو أهل الحرب ، إلا في حالة ما إذا دار القتال في المدن أو في المزارع . ونستطيع أن نقول : إن حياة الناس في المدن والأرياف سارت في طريقها ، متأثرة طبعاً بظروف القلق وعدم الاستقرار التي سادت طوال العصور الوسطى ، ولكنها سارت بصورة ما ، غاخذت حياة الناس في ذلك المجتمع الأفريقي طريقها وصورها التي ثبتت عليها بتوالي الأجيال .

ومن خلال تفاصيل كثيرة ، وردت إلينا في تراجم العُباد والزهاد والفقهاء وأهل الفكر وتراجم الشعراء وأهل الأدب ، ثم حوليات التواريخ نرى كيف انتظم المجتمع الأفريقي في القيروان وتونس وسوسة وصفاقس وغيرها ، على نحو يشبه

ما نعرف في المجتمعات الإسلامية في تلك العصور ، وتحمل في نفس الوقت الطابع المميز للبيئة الأفريقية .

هنا نرى كيف اتسعت القيروان وقامت فيها الأسواق والأحياء ونشأ مجتمع القيرواني محلي ، عماده الفقهاء والقضاة وأهل الزهد والورع والتجارة ونفر من المياسير وأهل الصناعة ، ونرى كيف كانت القيروان سوقاً تجارياً كبيراً تصدر منه القوافل إلى بلاد الصحراء ، ومركزاً تجارياً هاماً للقوافل المارة من الشرق إلى الغرب ، وقامت فيها حلقات الدرس في المساجد ، يؤمها للدراسة الصبيان ثم الشبان ويلبسون زيّاً خاصاً بأهل العلم والدراسة ، وفي هذه الحلقات يقوم شيخ كبار لهم مقام كبير في العالم الإسلامي كله من أمثال أسد بن الفرات وسحنون وعيسى بن مسكين ويحيى بن سلام وأبي عثمان سعيد بن الحداد ، أمثالهم ممن يمثلون مستوى فكرياً ودينياً عالياً

وهؤلاء الشيوخ كانوا في نفس الوقت رؤساء الناس والمتحدثين باسمهم أمام الحكام ، لأن بني الأغلب رغم حياتهم الطويلة في أفريقية ، لم يصلوا أبداً إلى الاسدراج في حياة البلاد ، وظلوا منعزلين في عواصمهم الملوكية مثل القصر القديم والقصر الجديد المسمى أيضاً « رقادة » ، يحيط بهم جندهم وعبيدهم وحواشيهم ، ولا يتصلون بالحياة العامة إلا عن طريق الشيوخ وأهل العبادة ، وهؤلاء بدورهم ما كانوا ليتصلوا بالحكام إلا في حالة الضرورة القصوى ، لأنهم بصفة عامة كانوا يرون أن أهل الحكم ظالمون في جملتهم وأموالهم حرام ، ولا ينبغي للرجل التقى أن يصيب من هذا المال . ولهذا كثر اعتذار الفقهاء عن تولي القضاء ، وفي أكثر من حالة نجد رجال الشرطة يقودون الفقيه إلى المسجد ويرغموه على القيام بالقضاء .

وهنا تبرز شخصية سحنون واسمه الكامل أبو سعيد عبد السلام بن سعيد ابن حبيب التنوخي ، فقد كان رجلاً لبقاً ذكياً ينتسب إلى بيت عريق وتصدر للإفتاء والتدريس في جامع القيروان وبلغ مكانة عالية وكان ذا مكانة عالية عند الحكام ، وقد عاصر الأغلبية الأربعة الأولى وتوفي سنة ٢٤٠ هـ / ٨٥٨ م وعرف كيف يسوس أولئك الحكام الذين كانت فيهم الكثير من فعال الجبابة ، وتعرض

للأذى على يد زيادة الله الأول الذي اشتدت محنة خلق القرآن في أيامه، وأصدرت الدولة العباسية أوامرها بامتحان القضاة، وكان سحنون ومعظم الظاهريين من فقهاء المغرب لا يقولون بخلق القرآن، ومن حسن الحظ أن المحنة توقفت قبل أن ينال سحنون العذاب، وألغت الدولة العباسية القول بخلق القرآن أيام المعتصم، وتصدى أهل السنة المتمسكون للانتقام من المعتزلة. وقد تولى سحنون - الذي ولي القضاء بعد المحنة - الانتقام من عبد الله بن أبي الجواد القاضي الأسبق الذي امتحن القضاء وأذى بعضهم، فجلده حتى مات. وقد ندم سحنون على ذلك تدمناً شديداً وظل يتنصل من موت ابن أبي الجواد إلى آخر أيامه.

وإلى سحنون ينسب أحسن شذوذين عُرفَ للسمع عن مالك بن أنس وهو المعروف بـ «الدونة». وهي كتاب فقه على المذهب المالكي، يعرض مسائل الفقه الرئيسية من العبادات والمعاملات عرضاً بليغاً وموجزاً في نفس الوقت. وتعتبر الدونة من أشمل كتب الفقه الإسلامي.

وكان طلاب العلم كثيرين، والكثيرون منهم كانوا من أبناء الطبقة الموسرة والتجار وأصحاب الضياع، وكانت الصلة وثيقة بين هذه الطبقة من الفقهاء وأهل العبادة والزهد، ومع أننا لا نسمع عن اتخاذ الناس لقصور فخورة كما نجد في المجتمع المصري في ذلك العصر، إلا أن الرخاء كان سائداً والخير وافراً، فلا نسمع عن مجاعات أو فقر شديد إلا في النادر، وذلك يرجع إلى وفرة الأرض الزراعية في أفريقية وفلة السكان.

وكان الناس يزعمون كثيراً من الزيتون والقمح والفول والشعير، وكانت المزارع متسعة وآمنة، ونسمع كثيراً عن المحاصيل وأسعارها في القيروان وتونس. وقد اشتهرت أفريقية في ذلك العصر. وكل عصر، بالزيتون والفواكه، ونخرج من ذلك بأن الحالة العامة كانت رخية، ولدينا كذلك ما يدل على أن مصانع النسيج كانت نشيطة وزاهرة في مدن أفريقية كلها، وأن أفريقية كانت تسير رغم كل شيء في طريق تقدم فكري ومبادئ محسوس. فكان هناك أطباء ذوو مكانة كبيرة ومستشفيات تسمى «بالدميات»، وكان الناس يتبعون لها. وبالمال الكثير وكذلك كانت عناية الدولة بها كبيرة.

وتدل الإنشاءات الكثيرة التي ذكرناها على أن الهندسة والعمارة كانتا في مستوى رفيع ، وفي نهاية العصر الأغلب ، وخلال حكم إبراهيم بن أحمد بائذات أصبحت القيروان من عواصم الفكر والحضارة في العالم الإسلامي .

ولا نعلم شيئاً عن الأحوال الاجتماعية في الناحيتين الأخريين اللتين تكونت منهما دولة بني الأغلب ومما طرابلس وبلاد الزاب ، فبالأخبار قليلة أثناء ذلك العصر عنها ، ولكن صورتها ستتوضح فيما بعد ، أي خلال القرن الخامس وما بعده بفضل كتابات رحالة كثيرين أولهم اليعقوبي ثم ابن حوقل النصيبي .

والخلاصة أن العصر الأغلب على قصره يمثل فترة انتقال حاسمة في تاريخ إفريقية ، فقد انتقلت إفريقية من قطر مضطرب غير واضح المعالم ولا محدد التكوين البشري والفكري ، إلى بلد واضح المعالم والسمات ، له مدنة الزاهرة ومداينه العامرة تزينا المنشآت الكثيرة ، وله ريفه الفسيح الذي ينتج غلات وهيرة ، ويسكنه الأفريقيون الذين نتجوا عن اختلاط العرب والبربر ، ومعهم كان يقد باستمرار من الفرسانيين والأندلسيين ، وظهروا من أواخر القرن الثالث الهجري ( التاسع الميلادي ) شعباً إسلامياً عربياً مكتمل التكوين ، وله مكانه الواضح المتميز على الخريطة العامة للعالم الإسلامي في عصره الذهبي .

### دولة الرستميين في تاهرت :

الطريف في تاريخ المغرب الإسلامي أنه يقدم لنا سلسلة من التجارب في ميدان الحكم والتنظيم ، لا نجدها في غير المغرب من بلاد الإسلام . وقد رأينا كيف أن كلاً من دولة المهالبة وبنى عبد الرحمن بن حبيب والأغالبة كانت تجربة سياسية تختلف كل منها عن الأخرى أكبر اختلاف ، كذلك سنرى أن تجربة الرستميين في تاهرت ، لم تكن شيئاً جديداً فعلاً في تاريخ المغرب فقط ، بل في تاريخ الإسلام العام ، فللمرة الأولى نجد أنفسنا أمام تجربة إقامة إمارة إباضية خارجية ، فقد كان الخوارج ينادون دائماً بالدولة المثالية ، وكانوا يسمونها إمارة لا خلافة ، لأن الخلافة في نظرهم غير شرعية ، لأن رسول الله ﷺ لا يمكن أن يخلفه أحد يقوم مقامه . وإنما تحتاج الأمة من بين الصالحين من أفرادها ، إماماً يقودها في طريق العدل ويتولى تطبيق قواعد الشريعة الإسلامية . وكانوا ينتقدون

غيرهم من المسلمين لانهم يتشكرون دولاً تخالف - من حيث التكوين والروح - ما يقضى به الإسلام . ثم جاءت فرصتهم عندما أتاحت لواحد منهم وهو عبد الرحمن بن رستم الفرصة لينشئ دولة مستقلة على الميادين الإباضية وسنرى كيف سار في بناء هذه الدولة وبأى نتيجة خرج .

تنسب الخارجية الإباضية إلى عبد الله بن إباح التميمي ، وكان ينادى بمذهب الإباضية الذي يعتبر من أقرب المذاهب الخارجية إلى مذهب أهل السنة

لم يستطع عبد الله بن إباح أن يحقق حلمه في إنشاء دولة أو إمامة على المذهب الإباضي في المشرق ، ولكن أحد تلاميذه ، وهو سلعة بن سعيد ، ذهب إلى المغرب وتبين أن هناك إمكانية لإنشاء نظام إباضي فيه ، لأن سلطان الدولة العباسية ومن يمثلونها في المغرب لم يكن يتعدى غرباً مجرى نهر شلف ، وفيما يلي ذلك إلى المحيط ، كانت بلاداً لا يحكمها في الحقيقة حاكم ، وإنما استبد بأجزاء منها حكام من رؤساء البربر المستعربة أو العرب البلديين . الذين وصلوا إلى هناك واستقروا واندرجوا في أهل البلاد . ومعنى ذلك أنه كان هناك في الجناح الغربي لدولة الإسلام فراغ سياسي يبيع الفرصة لرجل طامح أو لجماعة من المتحمسين لإنشاء دولة بعيدة عن متناول خلفاء بني العباس ، كذلك لم يكن لخلفاء بني العباس أو لآلئهم سلطان على جبل نفوسة ، وهي منطقة جبلية واسعة جنوبي طرابلس . وكان جبل نفوسة جبلاً واسعاً حصيناً وعراً المسالك كثير الزروع ، تشبثت به جماعات من الخوارج الإباضية ، وقد أشرنا إلى ساكن من صراع بينهم وبين المهادلة أولاً ثم الأغالبة ، وذكرنا كذلك كيف أن زعيمهم أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري تمكن ، في سنة ١٤١ هـ / ٧٥٩ م ، من إنقاذ القيروان من الخوارج الصقرية الذين استولوا عليها وغاثوا فيها فساداً ، عندما دخلتها قبيلة ورفجومية الصقرية قنھض أبو الخطاب وتسكن من طرد الصقرية من القيروان وأقام عليها عبد الرحمن بن رستم عاملاً ، ثم عاد إلى بلاده في جبل نفوسة .

ولكن الدولة العباسية أرسلت فيما بعد قوة عسكرية ، بقودها محمد بن الأشعث ، استطاعت أن تهزم الخوارج الإباضية قرب تاورغا تريباً من صرت ،

سنة ١٤٤ هـ / ٧٦١ م واستطاعت أن تخرجهم من القيروان وتقتل أبا الخطاب .  
فَقَرَّ عبد الرحمن بن رستم ومن معه غرباً ، وعبروا نهر شلف ووصلوا إلى منطقة  
جبلية تقع إلى الجنوب من الجزائر الحالية ، وهناك ثبثوا عند بلدة حصينة وسط  
الجبال ، تسمى تاهرت ، ووجدوا أنه لا يوجد هناك حكام أو نظام حكومي ينفذ  
عقبة في سبيلهم ، إنما كانت هناك القبائل البربرية تعيش عيشتها الحرة البسيطة  
التي عاشتها من آلاف السنين رغم إسلامها . وكانت هذه القبائل حسنة الإسلام .  
ولكنها كانت في حاجة إلى من يوحد بينها ويقيم بمعاييرها نظاماً سياسياً مستقلاً  
عن طاعة الدول الكبرى ، فرأى عبد الرحمن بن رستم أن ينشئ هناك الإمامة  
الخارجية الإباضية التي طالما حلم بها . وعمل رجاله على نشر المذهب الإباضي في  
هذه النواحي ، فتكوّنت كتلة خارجية تستطيع أن تحمل عبء الدولة ، وبالفعل ،  
أخذ عبد الرحمن بن رستم ينشئ دولته على المبادئ الإباضية .

وعبد الرحمن بن رستم من أصل فارسي كما تقول المراجع . فقد كان أبوه  
بهرام من موالى عثمان بن عفان ، ونشأ هو نشأة عربية إسلامية ، فدرس في  
البصرة ، وهناك أخذ المبادئ الإباضية وانضم إلى أبي الخطاب عبد الأعلى بن  
السمح المعافري ، وأنهى به الأمر إلى المغرب حيث أصبح الدراع الأيمن لأبي  
الخطاب . وبعد موت هذا أصبح هو الإمام المعترف به الإباضيين في المغرب .

كان اختيار عبد الرحمن بن رستم لموقع تاهرت اختياراً سليماً ، لأن هذه  
البلدة كانت تقع وسط الجبال ، فلا يمكن الوصول إليها من ناحية الغرب  
أو الشرق بسهولة . فكانت حصينة من هاتين الناحيتين وأمنة من أي غزو من  
هذه النواحي ، ثم إن المدخل إليها من الجنوب كان سهلاً ، أي أن الطريق بينها  
وبين الصحراء كان مفتوحاً يُمكن أهلها من الاتصال بالإباضية في جبل نفوسة .  
والامتياز بالقبائل الصحراوية الكثيرة التي كانت تتخذ هذه الجبال مصيفاً  
ونواحي الصحراء مشتمى لها . ومن المعروف أن القبائل البادية تقتضي الشتاء في  
الوديان ، حيث الجو دافئ والأعشاب والحياء متوافرة ، فإذا جاء الصيف صعدت  
بقطعانها إلى الأعالي هرباً من الحر الشديد ، والتعاساً لأراض يكون فيها ماء  
وعشب . ولم يقتصر الأمر في ذلك على قبائل البربر ، بل إن قبائل العرب أيضاً  
كانت لها مصايفها ومشتاتها في حدود مجاراتها

ولكن تاهرت كانت صغيرة وكان عبد الرحمن في حاجة إلى حصن كبير .  
 تصعد الجبل فوق تاهرت القديمة حتى وجد منفسحاً من الأرض وافراً بالمياه ،  
 وأخذ يقضي مدينة جديدة هي تاهرت الجديدة ، وبناها على ضفة نهر غزير  
 المياه ، وحصنها بأسوار ، وأنشأ فيها مسجداً جامعاً ، وإقام إمامة إباضية ، أي  
 جماعة إسلامية تحكم بناء على مبادئ الإباضية من الأخوة والمساواة التامة بين  
 أفراد الجماعة والتقى ورعاية حقوق الله والمؤمنين

كان الذين انتخبوا عبد الرحمن بن رستم شيوخ الإباضية ورؤساء القبائل  
 التي دخلت مفهوم هذا المذهب ، ويقول الشماخي وهو مؤرخ الإباضية في المغرب :  
 إن الناخبين راعوا أربعة أسس اختاروا على أساسها إمامهم وهي :

١ - **الفضل** : ويراد به العدالة ، وهي عند الإباضية جماع صفات الكمال  
 الأخلاقي ، من حيث سلامة الاعتقاد وصحة الجوارح وتزاهة النفس

٢ - **العلم** : إذ أن العلم الكامل بالإسلام وعلومه ، شرط أساسي من شروط  
 الإمامة عند الإباضية ، ويعرفونه بأنه العلم الذي يوصل إلى مصلحة الجماعة في  
 الدنيا وسعادتها في الآخرة .

٣ - **الوصية** : ويراد بها إيصال الإمام القائم بمن يخلفه ، ولا تكون هذه  
 الوصية فرضاً ملزماً للاتباع ، وإنما هي توجيه ، وقد قلدوا في ذلك ما فعله أبو بكر  
 قبل موته عندما أوصى لعمر رضي الله عنهما ، وكان الإباضية أميل لاتباع ما فعل  
 عمر من اختيار ستة من الصحابة لينتخبوا من بينهم خليفة ، وبالفعل كان إمام  
 الإباضيين يختار ستة من كبار أصحابه يسمون أهل الشورى . وكان عليه أن  
 يستشيرهم في كل ما أهم الإمامة من الشؤون ، فإذا مات كان على هؤلاء الستة أن  
 يجتمعوا ويختاروا من بينهم الإمام الجديد .

٤ - **ألا يكون الإمام من عصبية تؤيده** : بحيث لا يعتمد على تلك العصبية في  
 فرض سلطانه على الناس ، وكان انتخاب الإمام على هذه الأسس لابد أن يتم على  
 أساس الشورى ، أي حرية الرأي والاختيار . فإذا توفى الإمام أو شعر منصبه  
 لسبب من الأسباب اجتمع شيوخ الجماعة الإباضية ورشحو نفرأ منهم .  
 ويستحسن أن يكونوا ستة ثم يجتمع الستة ويختارون واحداً منهم إماماً .

والجماعة ليست مقيدة بأهل الشورى الذين يختارهم الأمير السابق . ولا هي ملزمة باختيار من أوصى به الإمام السابق

هكذا قامت تجربة سياسية جديدة في تاريخ المغرب والإسلام . وهي تجربة إقامة دولة على نظام يمكن أن نسميه جمهورياً ، نعم ، لقد حاول الإباضية قبل ذلك إقامة إمامة في عُمان ، ولكن الأمر هناك لم يجر على تلك الدقة المذهبية التي جرى عليها عبد الرحمن بن رستم وأصحابه . وبالفعل انتخب عبد الرحمن بن رستم إماماً على هذه الأسس ، وسار في الناس بالعدل ، واهتم كثيراً بشئون الدين كما ينبغي أن يكون . لأن عبد الرحمن بن رستم كان رجلاً صادق التقى والورع واسع العلم ، وقام بحماية جماعته وإشاعة العدالة فيها . غتوافد الناس على تاهرت من كل ناحية ، فكثرت وعظم أمرها ، ونشأت فيها جاليات كبيرة من المهاجرين إليها ، وكان لكل جمالية حتى من أحياء البلد ، فهناك الكوفيون والبصريون والمصريون والقرويون أي القروانيون والأندلسيون وما إلى ذلك . وكلهم كانوا يعيشون في أمان ويعملون بنشاط في ظل عبد الرحمن ، الذي كان في الحق إماماً وقائداً صالحاً يتميز بسعة العلم والحلم وعمق الإيمان . فنجحت تجربته . ولكن عمره في الإمامة لم يطل ، إذ توفي بعد ثمانين سنوات من الحكم سنة ١٦٨ هـ / ٧٨٤م وكان قد أوصى قبل موته بأن يختار خلفه ستة من شيوخ المذهب والجماعة عيّنهم بأسمائهم ، وأضاف إليهم ابنه عبد الوهاب . وبعد مناقشات طويلة بين أفراد تلك الهيئة ، انحصر الاختيار بين عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وعسعود الأندلسي ، ثم انسحب مسعود وبقي عبد الوهاب فتولى الإمامة .

هكذا وبصورة طبيعية إلى حد كبير ، علب مبدأ الوراثة على مبدأ الاختيار والشورى ، وربما كان عبد الوهاب أصلح الباقيين . ولكن كونه ابناً للإمام السابق هو الذي رجح كفته . ويقال كذلك أنهم هددوا مسعوداً الأندلسي ليرغموه على الانسحاب . ومعنى ذلك أنه على الرغم من تحمس الإباضيين لمبدئهم وإنكارهم على غيرهم الأخذ بمبدأ الوراثة في ولاية أمور المسلمين ، رغم ذلك أخذوا بمبدأ الوراثة ، وفي الواقع كانت تلك طبيعة العصر وأخلاق أهله ، لأن اختيار الإمام على مبدأ الشورى أي الانتخاب كان يتطلب نضجاً سياسياً بعيداً عن روح العصر ،



ومن ناحية أخرى كان مبدأ الوراثة متصلاً ، من أحقاب متطاولة ، في نفوس الناس واتباعه أيسر عليهم .

وكان من الطبيعي أن يذشق فريق على الإمام الجديد ، منكراً عليه الوصول إلى الإمامة عن طريق الوراثة ، فنشأت فرقة تسمى « النكارية » أي المنكرين لإمامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ، وفرقة تسمى « الوهية » أي أنصار عبد الوهاب ، وقام الصراع التقليدي على الحكم ووقعت الحرب ، وأنتهت بمقتل قائد النكارية علي بن أفلح بن عبد الوهاب ، وهكذا سالت الدماء بين هؤلاء المثاليين ، على مسألة وراثة الحكم . ولم ينته أمر النكارية تماماً بهزيمتها ، بل بقيت منهم جماعات متفرقة في القبائل ، ومن بين هؤلاء سيظهر أبو يزيد مخلد ابن كيداد الشار الإياضي النكاري على خلافة الفاطميين في المغرب .

وسارت الأمور في دولة الإياضية في تاهرت ومن كلنا يؤيدونهم من إياضية جبل نفوسة ، سراً وعلناً بين الالتزام بمبادئ المذهب والانحراف عنه ، وقد وقعت حروب كثيرة بينهم ، وأصبحت جماعاتهم بأشواق كثيرة وخاصة بين إياضية تاهرت وإياضية جبل نفوسة ، الذين أقاموا على أنفسهم إماماً من بينهم عندما وقعت الحرب بين عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم والنكارية . وطبق إياضية جبل طرابلس مبدأ الوراثة أيضاً ، وقد لقي منهم أفلح بن عبد الرحمن بن رستم عنقاً شديداً ، ولكن جماعتهم في تاهرت وجبل نفوسة استمرت تغالبان الخسائر والاضطرابات طويلاً ، وانفصلت منهما جماعات إياضية أخرى ، مراكزها في جزيرة جربة وغدامس وواركلا . وفي كل موضع من هذه قامت إمارة إياضية صغيرة مستقلة بأمور نفسها ، وتحولت مع الزمن إلى وحدات اجتماعية واقتصادية ذات علاقات خاصة بين أفراد بعضها وبعض ، وما زالت بقايا الإياضية إلى يومنا هذا في إقليم الزاب جنوبي الجزائر .

وكان آخر الأئمة هو أبو اليقظان محمد بن أفلح الذي توفي سنة ٢٣٨ هـ / ٨٥٢ م وحكم ٤٠ سنة انتهت سنة ٢٨٦ هـ / ٨٩٤ - ٨٩٥ م ، وتعتبر فترة حكمه فترة استقرار طويلة ، ولكن الدولة تناقصت قوتها في أيامه ، ومعنى ذلك أن التجربة الإياضية لم توفق إلى تحقيق المثل الأعلى للحكم الذي كانت تتصوره ،

وإن كان ينبغي أن نقول : إن حكمهم في إقليم تاهرت ، كان حكماً عادلاً نسبياً وأن أحوال الناس في جماعتهم ، كانت أسعد بكثير من أحوالهم في ظل غيرهم من حكام المغرب المعاصرين لهم .

وقد دامت دولتهم قرناً ونصفاً على وجه التقريب ، وكان من الممكن أن تستمر أكثر من ذلك ، لولا أن ظروف العصر لم تكن تسمح بقيام دولة لا تعتمد على قوى عسكرية ضخمة ومالية كبيرة إلى أمد طويل . وقد انتهت دولتهم على يد رجال الدعوة الفاطمية التي اجتثت كل دول المغرب القائمة في عصرها سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٩ م . وكان الذي قضى على دولة تاهرت أبو عبد الله الشيعي ، الذي مر في طريق عودته من سجلماسة بتاهرت ، وحربها وقضى على آخر بني رستم ، وجعل المغرب الأوسط ولاية فاطمية تابعة لأفريقية

وكان للإباضية دور كبير في إنعاش التجارة في المغرب الأوسط وبلاد الصحراء ، فقد ضمت جماعة الإباضية كثيراً من التجار الذين وجدوا الأمن في ظل الأئمة . ولهذا تحولت تاهرت إلى مركز تجاري نشيط خلال القرن الهجري الثالث / التاسع الميلادي ، فكانت قوافل التجار تدخل من تاهرت وتتجه جنوباً حتى تصل إلى واحة الأغواط في جنوب الجزائر الحالية ، ومن ثم يتجه بعضها شرقاً إلى فزان ومن ثم إلى جبل نفوسة وطرابلس ، ويتجه بعضها الآخر إلى «واركلا» أو «ورجلا» وكانت مركزاً تجارياً كبيراً على أبواب الصحراء الكبرى ومن هذا نفهم كيف تحولت واركلا إلى مركز كبير من مراكز الإباضية ، ومن هناك كانت القوافل تتجه إلى إقليم تافيلالت وعاصمته سجلماسة ، وهي واحة كبيرة جنوبي منابع نهر الموالية . وفي واحة تافيلالت التي كانت بداية الطريق التجاري الكبير الذي يعبر الصحراء إلى أفريقية الإدارية قامت جماعة خارجية أخرى . في هذه الواحات - واحات تافيلالت - قامت دولة أو إمارة خارجية صغرى متشددة ، إقامتها قبيل من البربر المستعربة وأهل السودان ، يعرفون ببني النيسع بن موارر ، وعلى الرغم من أن خوارج سجلماسة كانوا صغرية ، أي خوارج متشددين ، إلا أنهم كانوا يتعاملون في حرية مع تجار الإباضيين ، الذين كانوا يقدون عليهم من تاهرت . ومن المعروف أن جماعات التجار متسامحة في موضوع المبادئ

المذهبية لأن الذي يهمهم هي متاجرهم ، ولهذا فقد قام تعاون وثيق بين إباضية تاهرت وإباضية تافيلالت حتى لقد تصاهر بنو رستم وبنو مدرار . أما العلاقات التجارية فكانت وثيقة جداً بين الجماعتين وغيرهم من جماعات الحوارج في الصحراء . ومن هنا فإننا نجد أنه كان للحوارج في أفريقية الشمالية أثر كبير في انتشار الإسلام لأن التاجر السوداني ، الذي كان يريد أن يدخل في معاملات تجارية مع الإباضية ، كان يجد أن الأفضل له أن يدخل الإسلام على مذهب زملائه التجار . ولهذا قلنا : إن جماعات الحوارج تحولت في المغرب الإسلامي إلى تحالفات تجار واتفاقيات مصالح وروابط اجتماعية ، شأنها في ذلك شأن جماعات الصوفية .

ومن الملاحظ أن جماعات المنصعين إلى مذاهب صغيرة قليلة الاتباع ، تحول إلى جماعات مصالح تجارية ومالية ، وتصبح هذه الجماعات أقليات ووحدات اقتصادية معقدة على أصعابها ، فهم يتاجر بعضهم مع بعض ويأتصن بعضهم بعضاً ، لأن رئيسهم وهو الإمام ، يحرص على أن تقوم العلاقات بين أفراد جماعته على أساس الأمانة والصدق في المعاملة ولا غرابة إذن أن نجد أن قوافل التجار الصادرة من مراكز الإباضية ، التي أشرنا إليها ، انشأت في الصحراء الأفريقية كلها شبكة من المراكز التجارية النشيطة . ومعظمها خارجية إباضية في الغالب وفي كل واحدة من واحات الصحراء كان الإباضية يقيمون زاوية ، والزاوية كانت مسجداً في أساسها ولكنها كانت تستعمل مركزاً لتخلاق التجار ، وتستخدم كذلك خانات أو فنادق للمسافرين هناك ، وفي صحن الزاوية كان التجار يقضون الليل ويقومون بمعاملاتهم التجارية . وكان لكل زاوية شيخ هو في نفس الوقت رئيس الجماعة الإباضية والمكلف بتنفيذ أحكام الشريعة . وفي العادة كانت تنشأ الجماعة زوايا أخرى في قرى أو واحات جديدة ، وهكذا شيئاً فشيئاً نشأت شبكة الزوايا الخارجية ، التي كان لها أكبر الأثر في نشر الإسلام في الصحراء الأفريقية المدارية ، أي بلاد تشاد والنيجر ومالي وقولتا ، وكذلك في السودان النيل في مناطق كردفان ووادى ثم في منطقة بحيرة تشاد نفسها ، التي قامت فيها دول إسلامية أهمها الدورنو والكانم .

تلك كانت الخدمة الحضارية الكبرى التي قامت بها الجماعات الإباضية

التي نشأت أساساً في جبل نفوسة وتاهرت والأغواط وواركلا وسجلماسة ، ثم  
شملت كل نواحي الصحراء . وعندما غزا العرب الهلالية أفريقية والمغرب في  
القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، زال المذهب الإباضي وحلّت  
محلّه السنة ، فأصبحت مراكز التجارة والزوايا إسلامية سنية ، ولم تبق من  
الإباضية إلا آثار قليلة في نواحي « مصاب » أو « مزاب » في جنوبي الجزائر  
الحالية ، حيث ما زالت تقوم جماعات إباضية متميزة بطابعها الديني ، وكذلك في  
وأحات واركلا والأغواط ثم في جبل نفوسة . جنوبي طرابلس الحالية وفي جزيرة  
جربة في تونس ، حيث نجد إلى يومنا هذا جماعات إباضية زاهرة .



## الأداسة

من الأخطاء الشائعة القول بأن دولة الأداسة دولة شيعية لأن مؤسسيها وأمرأها كانوا من آل البيت . والحقيقة أن الأداسة رغم علويتهم لم يكونوا شيعيين ، بل لم يكن أحد من رجال دولة الأداسة أو أتباعهم شيعياً ، فقد كانوا سنيين ، لا يعرفون الآراء الشيعية التي شاعت على أيام الفاطميين ، ولم يعرفوا في بلادهم غير الفقه السني المالكي . ومن البديهي أن آل البيت لا يمكن أن يكونوا شيعية لأحد ، أما الطبيعة فهم أنصارهم . والوصف الصحيح لهذه الدولة هو أنها كانت دولة علوية هاشمية ، وهي أول تجربة نجح فيها أهل البيت في إقامة دولة لأنفسهم ، وهي من هذه الناحية تهمة كثرية سياسية في سلسلة تجارب الحكم في تاريخ المغرب ، وسلسلة تجارب أيضاً في تاريخ الإسلام العام ، وهو حافل بهذه التجارب من كل نوع .

ودولة الأداسة من الدول الطويلة العمر فقد قامت في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري ، ولكنها لم تنته تماماً إلا في أواخر القرن الرابع الهجري ( ١٠٦٠ م ) . وقد عمرت فوق القرنين ونصف ، أي ضعف ما عمرته دولتا الأغالية والرسنمين ، وثبتت لمحنة الفاطمية وجيوشها ، وخاضت طوالت تاريخها حرب بقاء أو موت مع الدولة الأموية الأندلسية حيناً وإلى جانبها حيناً آخر ، ولكنها مع ذلك العمر الطويل والحيوية المتجددة ، كانت دائماً من صفات الدول سواء في سعة مملكتها أو قوة أئمتها ، ولكنها كانت من أهمها من الناحية الحضارية . فقد كان لها في تاريخ المغرب أثر حاسم في صياغة مذهب السنة من ناحية ، وتعريب البلاد من ناحية أخرى . وقد مرت بفتنات احتضار طويلة وانتعشت مرات كثيرة .

وكما قامت دولة الخوارج الإباضية في تاهرت نتيجة للطموح السياسي لرجال الإباضية ، ورغبة قبائل المغرب الأوسط في إقامة كيان سياسي لها ، فكذلك قامت دولة الأداسة على أساسين .

الأول : طموح العلويين إلى إنشاء دولة لهم بعيداً عن متناول الدولة العباسية

**والثاني:** رغبة قبائل المغرب الأقصى في إنشاء كيان سياسى خاص لهم .

وهذان هما العاملان الرئيسيان في قيام هذه الدولة ، ولكننا في كل ما يتصل بالمغرب ودوله ، ينبغي أن نبحث عن العوامل المحلية المتعلقة بالتركيب القبلى للشعب البربرى ، وكذلك المتعلقة بطبيعة الأقاليم التى نريد التارىخ لها في المغرب .

وقد سبق أن ذكرنا أن المغرب الأقصى ينقسم من حيث المناطق ذات الوحدة الجغرافية ، التى يمكن أن تقوم فيها وحدات سياسية متماسكة ، إلى ثلاثة أقاليم : إقليم الساحل الشمالى المعروف تاريخياً بإقليم طنجة . ويشمل الشريط الساحلى الشمالى ، ثم منطقة الريف الجبلية ، وهى ليست فرعاً من جبال الأطلس ، وإنما هى قرع من الجبال الأيبيرية ، ويتبعها السهل الواقع جنوبى جبال الريف ويعرف بإقليم الهبط أو إقليم أزغان . والمنطقة الثانية حوض نهر سبو ويشمل الجزء الشمالى من ساحل المغرب الأقصى المطل على المحيط الأطلسى ، وهو سهل قسيح يمتد جنوباً حتى يصل إلى حوض وادى بورجرج أو أبو الرقرق ، ويشمل جزءاً كبيراً من السفوح الغربية لجبال الأطلس . هنا نجد المهد الحقيقى لتاريخ المغرب العربى الإسلامى وتلك هى المنطقة الثانية والمنطقة الثالثة هى المنطقة التى تقع جنوب نهر سبو وتشمل حوض نهري وادى أم الربيع ووادى تانسيفت وهذه المنطقة أوسع وأغنى من المنطقة الشمالية ولأن الجبال تنسحب هنا كثيراً إلى الداخل تاركة سهلاً ساحلياً قسيحاً يسمى ساحله بريف تامةنا شمالاً وريف دكالة جنوباً . وتنقسم إلى الأطلس العليا والأطلس الداخلية أى الانتى اطلس ، وهنا نجد المجال الذى ستفسح فيه القبائل البربرية الصنهاجية الكبرى ، التى أنشأت دولة المرابطين ، والمصمودية التى أقامت دولة الموحدين بعد ذلك ويدخل في هذه المنطقة الثالثة إقليم السوس الذى يقع على الساحل بين فرعى جبال الأطلس

ويحدّ المغرب الأقصى وادى نهر مولوية الذى يصب في البحر المتوسط ، وإلى الشرق منه قبلاً نجد الحد بين المملكة المغربية والمغرب الأوسط . وتقوم جبال الأطلس حاجزاً بين المغربين الأوسط والأقصى ، ولكن هناك سمر

واسع بين الجزء الشمالى من جبال الأطلس وجنوبها الجنوبى ، وهذا المعبر يعرف بـ «ممر تازا» ، وهو من المواضع الحاسمة بالنسبة لتاريخ القطرين ، ومن سيطر على ممر تازا سيطر على الطريق الرئيسى المؤدى من الجزائر إلى المغرب الأقصى .

وقد قامت الحياة السياسية فى المغرب الأقصى أولاً فى الشمال ، فى منطقة طنجة حيث نجد مركز الولاى العربى الذى كان يحكم هذه الناحية ، ويحاول أن ينشر سلطانه عليها ، ولكن قبائل برغواطة وغمارة ، التى كانت تسكن هذه المنطقة الجبلية ، ظلت متمسكة بـ «مذاهب دينية منحرفة عن الإسلام» ، عرفت بـ «برندقة برغواطة» ، وكانت هذه الأخيرة ومن شعبها ، تهدد كل القبائل المغربية الأخرى ، مما حدا بهذه كلها إلى البحث عن زعيم يجمع شتاتها ، ويعينها على تكوين دولة تقوم بمحاربة برغواطة ومذاهبها ، وتساعد هذه القبائل على إنشاء كيان سياسى لها يؤمن مصالحها ، ويؤمن لها من الوصول إلى الرياسة

كانت الظروف إذن مهيأة لزعامة سياسية فى شمال المغرب الأقصى . زعامة تمكن القبائل البرنسية هناك من الخلاص من سلطان برغواطة أولاً ، ثم تمكن لها الأخرى من إنشاء دولة وكيان سياسى ، أدى دخول ميدان التاريخ بحسب تعبيرنا اليرم .

هذا الزعيم أراد المقادير أن يكون إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبى طالب ، وهو أحد القلائد الذين نجوا من القتل فى مأساة موضع يسمى باسم « قبيح » ، أوقع العباسيون فيه جماعة من العلويين من أحفاد الحسن بن علي ، كانوا يدعون لأنفسهم ويطمحون إلى أن يقيموا لأنفسهم دولة . وكانت المأساة فى سنة ١٦٩ هـ / ٧٨٦ م فى خلافة الهادى العباسى .

وقد فرّ الناجون من هذه الواقعة إلى أطراف البلاد ، وكان من الذين فروا يحيى بن عبد الله الذى هرب إلى بلاد الديلم جنوبى بحر قزوين وسبب للعباسيين متاعب كثيرة ولكنهم قضوا عليه فى النهاية ، ولكن أسعدهم خطأ ، كان أخاه إدريس بن عبد الله ، هذا الذى أبعد فى الهرب حتى وصل إلى المغرب ، ثم لحق به أخوه سليمان الذى أنشأ لنفسه بمعاونة أخيه إدريس كياناً سياسياً فى نواحي تلمسان .

ولا بدري إن كان إدريس يعلم شيئاً عن المغرب عندما فر إليه ، لكن مولاه راشداً الذي فر معه إلى المغرب كان يقال إنه بربري الأصل . ولا نستطيع أن نعلق أهمية كبيرة على هذا القول ، فإنه حتى لو صدق ، لا يمكن أن يكون عاملاً رئيسياً في قيام دولة ، ولكنه على أي حال وُجّه إدريس نحو المغرب ، وقد يكون راشد يعرف اللسان البربري الذي يتكلم به الناس في هذه النواحي من المغرب الأقصى ، ولكن الأهم من ذلك هو أن راشداً كان رجلاً ذكياً حسن التصرف بعيد النظر ، وهو مؤسس الدولة الإدريسية دون شك

تقص النصوص عينا حكاية رواثية عن هروب راشد وإدريس إلى المغرب الأقصى ، نجتزئ منها بالقول بأن راشداً وإدريس خرجا إلى المغرب في ذي التجار مع القوافل ، فكان راشد هو السيد وإدريس خادمه ، يامره أمام الناس فيطيع أمره وذلك ليخفي شخصيته . وبعد رحلة ستين أي خلال سنة ١٧١ هـ / ٧٨٨ م ، ظهر الاثنان في طنجة ، وأخذ راشد يدعو لأمر علوي يحمل راية الإسلام ، ويخلص الناس من الظلم والزندقة

وكانت دعوة راشد لرجل من أهل البيت كافية لتكسب الانصار ، ولكن يبدو أن التوفيق لم يكن كبيراً في طنجة ، وكانت ماصمة المغرب في ذلك الحين ، وأحس راشد أن مكان القوة الحقيقي يكمن في وسط قبائل أوربة ، وكان مركز الجناح الغربي لهذه القبائل في مدينة وليلي عند قاعدة جبل يسمى « زرهون » ، وتقع في منتصف المسافة بين لاس ومكناس الحاليين

وكانت وليلي مركزاً تجارياً ممتازاً وسوقاً عظيمة للقبائل ، وعرفت في أيام الرومان باسم Cululis ، وهي من هذه الناحية أصلح ما تكون كمركز لدعوة سياسية ، وأما أوربة فكانت تتزعم مجموعة قبائل ضخمة تمتد من الأطلس الأوسط إلى وادي سبو ، وقد عرفنا هذه القبيلة أيام كسيلة ، وراينا صراعها مع عقبة بن نافع ثم زهير بن قيس . وتدخل في هذه القبائل مجموعة غفارة وهي أيضاً قبائل برتسية تمتد في حوض سبو وإقليم الهبط ، الذي يسمى لهذا أحياناً بهبط غفارة وريف تاسنا على ساحل المحيط الأطلسي

نزل إدريس مدينة وليلي في ربيع الأول ١٧٢ هـ / أغسطس ٧٨٨ م وبدأ



يدعو لنفسه ، ولم يكن من العسير عليه أن يكسب انتصاراً ، فإن شيوخ أوربة كانوا مستعدين لتأييد زعيم يقودهم في ثورة للخروج من سلطان برغواطة وينشئ لهم دولة تضاهي دولة بنى رستم في تاهرت ، وكانت قرابته من الرسول ﷺ كافية لاجتذاب القلوب إليه ، خاصة إذا أضفنا إلى ذلك خبر ماساة « فح » وما وقع للعلميين فيها من القتل والتشريد ، وهم سلالة النبي الأكرم . لهذا النف الناس حول إدريس في حماس ، وقام إلى جانبه راشد ، يدبر له الأمر ويجمع له القلوب ، وبعد قليل أصبح إدريس أمير وليم وزعيم الجناح الغربي من قبيلة أوربة ، وتبعه كذلك عدد من الفروع الصغيرة من القبائل الساكنة في هذه النواحي وكانت تاقمة على برغواطة ، وأهم هذه الفروع قبيلة غمارة وكانت إلى ذلك الحين جمعاً قليلاً ضحماً مفككاً يحمل عبء برغواطة واستبدادها ، ومع غمارة انضمت إلى إدريس قطع من زواوة وسدراتة ونقرة ومكناسة .

وبقوات هؤلاء استطاع إدريس أن يسود حوض سبو وبعض المنطقة الشمالية من المغرب الأقصى ، وسار بقواته متقللاً في هذه النواحي يخضع القبائل أو يتلقى طاعتها ، حتى امتد سلطانه في أقل من عام من تاهرت إلى ريف تانسست ، ومن طنجة إلى وادي أم الربيع وهي رقعة فسيحة غنية ، ومهد لدولة يحسب لها حساب .

هنا تنبه هارون الرشيد إلى ما يمكن أن ينجم من الخطر من هذه الدولة ، وكان أكثر ما أخافه أن أميرها علوي من أهل البيت ، ولأهل البيت مكان عظيم من حب الناس ، وخاصة بعد الذي جرى لهم على أيدي الأمويين أولاً ، ثم العباسيين بعد ذلك ، وربما كانت هناك مبالغة كبيرة في تصوير مخاوف الرشيد ، ولكن قيام إمارة علوية في أي مكان من بلاد الإسلام ، أمر لا يمكن أن يستريح له العباسيون .

وتذهب الحكايات إلى أن الرشيد تدارس أمر إدريس مع جعفر البرمكي ، فتيئناً استعالة إرسال عسكري إلى المغرب ، للقضاء على إمارة إدريس بن عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، ولم يجد أمامهما إلا الاحتمال في اغتياله بالسم ، فوقع اختيارهما على رجل جزيري يسمى سليمان بن جريير

ويدعى بالشماخ حمل السم ومضى إلى المغرب ودخل في خدمة إدريس وكسب ثمنه ، ثم تحيل قدس له السم في هيئة طيب دخل في خيشومه كما تقول القصة الشعبية التي نقلها المؤرخون على أنها تاريخ . وانتهى إلى دماغه ففشى عليه وسقط على وجهه لا يحس ولا يعقل ولا يعلم أحد ما به ولا ما أصابه . ثم توفي في ربيع الأول ١٧٥ هـ / يوليو ٧٩١ م . والحكاية لا يمكن قبولها ، ولكنها تصوير لاستنكار الناس موت هذا الرجل بعد ثلاث سنوات من قيام دولته ، فإن موت الرجل في عنفوان قوتهم يروع النفوس ، وخاصة إذا جاء حياة ونتيجة لمرض باطنى مجهول .

وهنا تبدو لنا مهارة راشد الذي كان المدير الحقيقي لهذه الدولة ومحور العمل فيها . ومن حسن حظ راشد أن إدريس لما توفى ترك إحدى جواريه ، وتسمى « كنزة » حاملاً فاتفق راشد مع رؤساء القبائل على أن ينتظروا حتى تلد « كنزة » ، فإذا ولدت غلاماً كان أمرهم وتسير القصة فيكون المولود ولداً ، فيسمونه إدريس على اسم أبيه وبإيعازه وهو بعد في العهد ، ولا شك أن الذين فعلوا ذلك كانوا شيوخ القبائل . وكان عزيزاً عليهم أن يضيع السلطان الذي وصلوا إليه باسم أمير من أمراء البيت النُبوي . ولهذا انتظروا حتى بلغ الغلام عشر سنوات فبايعوه مرة أخرى سنة ١٨٦ هـ / ٨٠٣ م . واهتم راشد بتربيته وتكوينه وإعداده للإمارة .

ثم مات راشد عقب ذلك ، فقيل إن إبراهيم بن الأغلب تحيل في سمه ، وهكذا بقي الغلام إدريس دون داع حقيقى ، فقام بهذه المهمة شيخ من شيوخ البربر يسمى أبا خالد يزيد بن إلياس العبدى ، فجدد البيعة لإدريس سنة ١٨٧ هـ / ٨٠٣ م ، واستمر ولاء القبائل له ، وفي سنة ١٩٢ هـ / ٨٠٨ م — وكانت سن إدريس ١٧ سنة — يحتفى أبو خالد من الميادين بتهمة التواطؤ مع إبراهيم بن الأغلب ، المهم لم يمسنا أن إدريس من إدريس بن عبد الله بن الحسن أو إدريس الثانى ، بدأ يحكم مستقلاً بنفسه ابتداء من سنة ١٩٢ هـ / ٨٠٨ م .

عقب ذلك مباشرة نجد كثيرين من مهاجرة العرب ، يقدون على إدريس من القروان خاصة ، ويدخلون في خدمته . ويتجه نظره إلى الخروج من ولبو ، ربما

لأنه كان يريد التحلل من سلطان قبيلة أوربة ، فدله الناس على واد يصلح لمدينة على أحد فروع نهر سبو بين جبليْن ، يسمى وادي فاس فأُنشئ فيه بلدة صغيرة ، سميت « عدوة ربض القرويين » ، ثم وفدت جماعة من مهاجرة قرطبية وأنشأوا قرية مجاورة ، عرفت باسم عدوة الأندلسيين ، ومن العدوتين تكونت مدينة فاس وابتنى إدريس لنفسه داراً في عدوة القرويين وشرع في إنشاء مسجد فاس الجامع ، وانتقل إلى فاس وأصبحت عاصمة دولة الإدارسة من سنة ١٩٦ هـ / ٨١١ م . ودخلت دولة الإدارسة في الدور الحاسم من تاريخها .

وابتداء من ١٩٧ هـ / ٨١٢ - ٨١٣ م بدأ إدريس سلسلة حملات ، شنت سلطان الدولة ، من تلمسان إلى ساحل المحيط الأطلسي ، ونشط لحرب الخوارج في جبال الأطلس . ودارت حرب طويلة بينه وبين البرغواطيين . وفي هذا الدور من تاريخ الإدارسة حمل العيب رجال قبيلتي أوربة وغمارة بشكل خاص ، كما حملت كتامة عبء الدولة الفاطمية في أول قيامها .

ومات إدريس الثاني في ربيع الأول سنة ٢٠٢ / سبتمبر ٨١٨ ، بعد أن بُنيت دعائم الدولة ، بعد حروب طويلة ومؤامرات خطيرة من جانب منافسيه من بني الأغلب خاصة .

بعد وفاة إدريس الثاني نجد ابنه وخليفته محمد بن إدريس يتصرف تصرفاً غريباً وغير معقول ، فيقوم ، بناء على نصيحة جدته كثره ، بتقسيم الدولة بين أخواته الكثيرين ، وكان المعقول أن يقيمهم عمالاً أو ممثليْن للدولة ، ولكنه أعطاهم نواحي الدولة إقطاعات يتفرد كل منهم بناحية منها ، فكان هذا سبباً في ضعف الدولة وهي بعد لم يكتمل عمرها . ومع أن محمد بن إدريس احتفظ لنفسه بالرياسة واعتبر إخوته أتباعاً له ، إلا أن بعض الإخوة اتجه إلى الاستقلال بناحيته تأسيساً أن قوة الدولة الإدريسية تكمن في ترابط رؤسائها من أفراد البيت الإدريسي العلوي ، الذي كان يتمتع في قلوب الناس بمكانة جليلة .

وكان التقسيم كما يلي :

القاسم : سبتة وطنجة وقلعة حجر النسر والبصرة وكتاتهما جنوب تطوان .

وكانت تطوان في إقطاعه كذلك .

عمر : بلاد الهبط أو هبط غمارة .

داوود : بلاد هواره وتسول وتازا وما بينهما ، بما في ذلك مواطن قبائل  
مكناسة وغياثة .

عبد الله : أغمات وبلد نفيس وجبال المصامدة وبلاد لمطة والسوس الأقصى ،  
في أقصى جنوب المغرب الأقصى .

يحيى : أصيلا والعراش وبلاد زواغة

عيسى : مشالة وسلا وآزمور وتامسنا وبرغواطة .

أحمد :مكناسة وتادلا وما بينهما من بلاد فازان .

حمزة : وليل وأعمالها .

ابن عمه سليمان : تلمسان .

واكتفى هو بفاس حاضرتة وأقام فيها ، ويلاحظ أن التقسيم كان يعطى كلاً  
من أولئك الإخوة الكثيرين ، بلداً أو أكثر وإقليماً تسكنه قبيلة أو قبائل ، وكان له  
الحق في الاستيلاء على معظم المال الذي يجمع من الناحية .

وكان من الطبيعي أن يتقلب بعض الإخوة عليه ، وإن يتحاربوا فيما بينهم ،  
وقد استعان محمد بأخيه عمر على الثائرين من إخوته وأعطاه أعمالهم . فاستوعت  
ولاية عمر حتى بلغت عند موته نصف الدولة الشمالي والغربي كله ، ثم خلفه  
عليها ابنه علي بن عمر بن إدريس .

وعندما مات محمد بن إدريس الثاني سنة ٢٢٦ هـ / ٨٣٦ م ، ترك دولة  
مُفرقة مُقسمة وضعيفة .

وقد خلفه ابنه علي الأول بن محمد ويسميه ابن خلدون « حيدرة » ، وحيدرة  
لقب كان يطلق على علي بن أبي طالب ومعناه الأسد ، وكان غلاماً في التاسعة ،  
فحكم تحت وصاية أقاربه ورجال الدولة حتى توفي سنة ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م ،  
وعهد بالامر إلى أخيه يحيى الأول بن محمد .

في عهد يحيى هذا بلغت فاس أوجها أيام الإدارة ، فقامت فيها المنشآت

الكثيرة وامتدت على سفوح الجبال ، وأنشئ جامع القرويين على يد السيدة فاطمة بنت محمد الفهري ، وجامع فاس من مساجد الإسلام المشهورة ، وقد أصبح مركزاً للعلم والدراسة من أول نشأته ، وقد تحول بعد ذلك إلى جامعة ، مثله في ذلك مثل الجامع الأزهر . ولكن جامعة القرويين أقدم من جامعة الأزهر ، وهي عميدة الجامعات الإسلامية وربما عميدة جامعات الدنيا .

وبعد يحيى الأول حكم ابنه يحيى الثاني وكان شاكياً طائشاً غير أهل للحكم . فثار عليه الناس وطرده فاختفى ومات في مخبئه ، واختاروا ابن عمه علي الثاني ابن عمر بن إدريس الثاني ، الذي كان يحكم جزءاً من الدولة اعطاء إياه أخوه محمد بن إدريس كما قدمنا ، فانتقل الملك إلى فرع عمر بن إدريس ، ولكن علي الثاني هذا ثار عليه أحد زعماء الخوارج الصفرية ففر إلى قبيلة أوربة ، وتولى بعده يحيى الثالث بن القاسم بن إدريس الثاني ، الذي صرف وقته في قتال الخوارج الصفرية من ٢٩٢ - ٣١٠ هـ / ٩٠٤ - ٩٢٢ م حتى قتله الربيع بن سليمان فانتقل الملك إلى يحيى الرابع بن إدريس بن علي بن عمر بن إدريس . ويقول ابن خلدون عنه : إنه كان أوسع أمراء الإدارة سلطناً واشتهم ملكاً . وفي ذلك ميانغة دون شك .

وفي سنة ٣٠٥ هـ / ٩١٧ - ٩١٨ م وفي إمارة يحيى هذا أقبل جيش كبير من أنصار الفاطميين على رأسه مصالة بن حبوس الكتامي قائد عبيد الله المهدي الفاطمي وهدفه إزالة دولة الأدارسة ، وانتصر مصالة ، ثم ولّى على المغرب الأقصى شيخاً من شيوخ البربر وهو موسى بن أبي العافية شيخ مكناسة ، وجعله عاملاً على تسول وبلاد تازا ولكنه لم يُقِفْ أميراً على فاس ، وكان من الطبيعي أن يطعم موسى بن أبي العافية في أن يحل هو محل الأدارسة في دولتهم ، وبالفعل تم له ذلك سنة ٣١٣ هـ / ٩٢٥ - ٩٢٦ م فقام بالقضاء على أمراء الأدارسة القاطنين بالأمر في بعض نواحي المغرب الأقصى ، ونفى الباقين إلى قلعة في جبال الريف تسمى حجر النسر .

إلى هنا ينتهي الدور الأول من تاريخ الأدارسة ، لأن الياقين منهم سيستجمعون أمرهم في قلعة حجر النسر ، وتكون لهم نهضة ودولة جديدة على

يد زعيم جديد من أحفادهم الذين اختلطوا بالبربر اختلاطاً شديداً وأصبحوا من أمل البلاد . وهو الحسن بن قنّون أو جثون أو كنون ومعناه « الجميل » .

وهنا نقف بتاريخ الأدارسة ، لأن الدور الثاني من تاريخ الأدارسة وهو دور بني قنّون شديد التعقيد ، وهو شديد الصلة بالصراع بين القاطنين والامويين الأندلسيين على مصر المغرب الأقصى

وفي سلسلة التجارب السياسية التي مر بها تاريخ المغرب منذ الفتح الإسلامي - وقد ذكرنا أهمها إلى الآن - تعتبر الدولة الإدريسية الخطوة الأولى في بناء الكيان السياسي والاجتماعي للمغرب الأقصى العربي المسلم ، فللمرة الأولى منذ الفتح تقوم هنا دولة إسلامية ظاهرة العروبة ، فقد كان أمراء الدولة والكثير من رجال دولتهم عرباً ، ولكن الدولة نفسها قامت على أكتاف البربر المستعربين ، وخاصة قبائل أوربة وغمارة ومكناسة وهوارة ولواتة ، فكانت الغلبة في هذه الدولة لأولئك البربر ، مما أسرع تعريبهم ، وعجل بقيام المغرب العربي .

وقد نجحت الدولة الإدريسية في القضاء على الجانب الأكبر من انحرافات برغواطية ، ومن لفّ لفّها من القبائل ، وكان لابد من ذلك لأن العروبة الصحيحة لا تستقيم إلا مع الإسلام الصحيح ، ومن النادر أن تأتلف العروبة مع مذهب آخر غير المذهب السنّي البسيط الواضح

وكان دليل قيام ذلك المغرب الأقصى العربي المسلم هو قيام مدينة فاس وجامعها العظيم ، وكما كان قيام القيروان هو الخطوة الأولى في قيام إفريقية الإسلامية ، فكذلك كان قيام فاس الخطوة الحاسمة في قيام المغرب الأقصى العربي المسلم . فقد أصبحت فاس مركزاً رئيسياً للثقافة العربية الإسلامية ، وأخذت جامعها تثبت مكانتها إلى جانب مراكز العلوم الإسلامية الأخرى .

وإلى فاس ومدن المغرب الأقصى مثل سلا وطنجة بدأت تقوم مراكز الدراسة الإسلامية ، وبدأ يتكون المجتمع العربي المغربي المسلم ، وهذه نتيجة ليست بالهينة ، إذ إنها تعتبر الخطوة الحاسمة في التغير الكبير الذي جعل المغرب الأقصى بلداً عربية كاملة العروبة والثقافة .

## الدولة الفاطمية في المغرب

٢٩٦هـ / ٩٠٩ - ٩٧٢ م

وأما أن تاريخ المغرب في فلول الإسلام ، سلسلة من التجارب المتنوعة في الحكم والإدارة ، وأن أهل المغرب الأصلاء - وهم البربر - والعرب الذين استقروا في البلاد ، أثناء الفتح أو بعده ، وتحولوا إلى عرب أفارقة أو عرب بلديين ، خاضوا غمار تجارب وصراعات عنيفة متوالية تهدف إلى إقامة حكم إسلامي في ذلك القطر الفسيح ، الذي استيقظ مع الإسلام من سبات القرون ، ودخل ميدان التاريخ يجرب حظه أو يبحث عن مصيره . ومن ناحية أخرى جهدت الحكومة المركزية ، سواء في دمشق أو في بغداد ، في السيطرة على هذه البلاد وتحويلها إلى ولاية إسلامية خاضعة طائفة ، تؤدي للدولة ما يقرر عليها من مال ، وتدين بالطاعة للوالي الذي ترسله الدولة .

ولم تقلح الدولة الأموية أو العباسية في ذلك ، لأن شعب المغرب من برقة إلى طنجة وبلاد السوس ، كان شعباً بكرأ عفاً ، وجد نفسه في الإسلام وتقتضت مواهبه على عقيدته وشريعته ، فأسلمت من جماعات هذا الشعب أعداد غفيرة ، انضمت إلى جيوش الإسلام الفاتحة ، وأكملت معها فتح المغرب إلى أنسوس أيام موسى بن نصير خاصة ، وأسهمت بنصيب الأسد في فتح الأندلس . فأصبحت بذلك أعضاء أصيلة في جماعة الإسلام الكبرى ، وطالبت بنصيبها الحق الذي يعطيها الإسلام إياه ، واندست في صفوف بعضها جماعات الخوارج تؤلبهم على الدولة الأموية . وثبت لهم حقوقهم التي يمنحهم إياها الإسلام ، فكانت مذاهب الخارجية وثورة أفريقية وصراع العرب والبربر ، وقامت في نواحي أفريقية والمغرب الكيانات السياسية المتنوعة ، مابين سنية ، كما نجد في إقليم أفريقية كله ، أو خاسرجية إباحية ، كما رأينا في تجربة بني رستم في تافرت ، أو إباحية صقرية كما رأينا في دولة آل مدرار في سجلماسة . أو خارجية دون تحديد مذهب ، كما كان الأمر مع دولة أبي قرعة المغيلي الخارجي في نواحي تلمسان ، أو سنية

قامت تحت راية نفر من آل البيت ، أو دويلات قبلية ذات مذاهب بعيدة عن الإسلام كما رأينا في زندقة برغواطة .

وكل هذه كانت تجارب مغربية ، إما خالصة ، أو مغربية عربية اشترك فيها العرب والبربر كما رأينا في محاولة عبد الرحمن بن حبيب وآله ، وتجربة المهالبة ودولة الأغانية . كل هذه التجارب ، ما نجح منها وما لم ينجح ، وما طال عمره أم لم يطل ، وما كان عربياً أو بربرياً ، كانت تجارب ذات صلة باوضاع المغرب ، أى أنها كانت في نهاية الامر تجارب مغربية ، وتجاربها حلقات من الطريق الطويل الذى خاضه المغرب لى يكتشف ذاته في النهاية ويتم إسلامه واستعرابه ، ويصبح جزءاً من ذلك العالم العربى الشاسع ، تقوم فيه الدول المغربية العربية التى تحمل جانبيها من المستولية عن الإسلام ، ومصره في بلادها وخارجها ، عملاً كاملاً كما سنرى في دول المرابطين والموحدين والمرينيين ومن عاصرهم وجاء بعدهم إلى يومنا هذا .

ولكن التجربة التى ستوجز الكلام عنها في الصفحات التالية ، وهى تجربة الدولة الفاطمية وقيامها في المغرب ، كانت تجربة غريبة عن المسار العام للتاريخ المغربى ، أو قل هى شجرة غريبة زرعت في أرض المغرب ونمت وارتفعت فروعها في الهواء حيناً ، ولكنها لم تضرب جذوراً ، ولا أضسقت إلى طوائف التجارب السياسية في المغرب شيئاً نابعاً من تربة تلك البلاد ، إنما هى كانت بذرة عقيمة مشرقية غريبة عن بلاد المغرب ، حملتها أعاصير السياسة والزمان إلى أرض المغرب ، فكان لها فيه شأن ، ثم مضت مخلفة وراءها قلقاً شديداً ودماراً بعيد المدى ، ولكن وريثتها وهم صنهاجة المغرب الأوسط من آل زيرى بن عثاد عرفوا كيف ينشئون على القليل الذى ورثوه عن الفاطميين ، بناء مغربياً عربياً أصيلاً ، يتمثل في دولتى بنى زيرى الصنهاجيين الذين سنلّم بتاريخهم في الفصل التالى . والقليل من العلم بشئون السياسة والدول الذى ورثه آل زيرى عن الفاطميين كان غير قويم أو كاف عن إنشاء الدولة وكيف يكون ، ولكن الفاطميين خلقوا لهم أساساً عربياً سليماً كان بعيد الأثر في تعريب المغرب ، لأن بنى عبيد الله أباً كان الراى في نسبهم كانوا عرباً أقاموا في أفريقية بناء سياسياً ، وكانت فيهم رغم كل



شئ فحولة عربية أصيلة ، وتلك — فحسب — هي أكبر ما ورث المغرب الإسلامي من تجربة الفاطميين . ثم إنهم — أي الفاطميين — عندما أرادوا إرغام بنى زيرى على العودة إلى الطاعة قذفوا على المغرب بآل هلال وآل سليم بن منصور ، فأناروا في المغرب أعاصير مدمرة . ولكن الأعاصير عندما هبات ، كانت قد نثرت في المغرب كله بذوراً عربية أصيلة ، كان لها أثر حاسم في تكوين المغرب الإسلامي العربي .

وقد كان قيام الدولة الفاطمية في المغرب ، ثمرة من ثمرات الأزمات السياسية الكبرى وصراع السلطان في المشرق ، لأن بنى العباس ، الذين دخلوا التاريخ دخولاً ضيقاً ذا دوى بعيد ، معلنين مجيء دولة العروبة والإسلام التي تقيم دولة العدالة والسنة إلى آخر الزمان . لم تلبث على حال من القوة إلا قرناً واحداً من الزمان ، ثم انتابتها العلل والفنن والأزمات ، لأنها انحرفت بأصول الحكم الإسلامي ، التي تقوم على الشورى والعدالة والحرية وكرامة الإنسان ، وارتدت إلى قواعد الحكم الأساسى ، واستلهموا عهد أردشير بن بابك في أصول الحكم وغايته . وانتهى الأمر إلى وضع السلطان في يد الثاوث المدمر الذى قضى على آل ساسان : الثاوث السلطان أو كبرى في ثوب الخليفة ، والوزير المدبر لكل شئ باسم السلطان ، ثم القوة العسكرية الماجورة بالمال . وفى أثناء صراع الأمين والمأمون تولى آل العباس عن قاعدة العروبة إلا بالاسم ، فصاروا خلفاء عرباً يسوسهم أجلاف عجم . وعندما اكتشف العجم أنهم صولجان الملك وقوته ، نحوا الخليفة جانباً . وحكموا باسمه واضطرب الأمر في عالم الدولة العباسية كله ، وأصبحت وظيفة الإدارة العباسية هي جمع المال لإعطاء الجند التركي في الغالب . وشيئاً فشيئاً ، وخاصة بعد خلافة المتنصر بالله بن المتوكل على الله ( شوال ٢٤٧ — ربيع الآخر ٢٤٨ / ٨٦١ — ٨٦٢ م ) ، صار الوزير جابياً للمال أو ملتزماً بالجباية لقائد الجند المرتزق ، وتحول العمال ، حكام الولايات ، إلى ملتزمين يجمعون الأموال ويخصون أنفسهم وساداتهم منها بنصيب وافر ، ويبعثون بالبقية إلى الوزير . وتحول الخليفة العباسي إلى موظف في خدمة رئيس الجند وإن حمل لقب الخلافة ، فهو يتقاضى راتباً يُعْبَتُّ له الجند الأثرى ويأتمر بأمرهم .

وفي أثناء ذلك ضاعت الرعية ، فلم يُعَدَّ أحد يُعْنَى بأمرها ، وأهملت المرافق واستولى الخراب على كبار المدن ، وأصبحت بغداد نفسها بلداً مخوفاً يعيش الناس فيه على وجل ، ولا أمل لهم في صلاح ، أو خير من جانب خلفاء بني العباس ورجالهم .

واتجه الناس بأمالهم يبحثون عن الحاكم الصالح العادل ، لأن الإسلام دين صلاح وعادل وإنسانية ، ولا ييأس المؤمن قط من عدل الله سبحانه ، مهما ساء امر الحاكم ، وتجسدت الآمال في العبدالة في صورة العلويين أي سلالة علي بن أبي طالب الذين لقوا من القتل والتشريد على أيدي بني العباس مثملاً لقوا على أيدي الأمويين . وكان العلويون منذ أيام إمامهم العظيم جعفر الصادق بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، وهو خامس أئمتهم ، إذا أضفنا إلى أولاد علي بن الحسين ، ابنه الحسن ، وهو الإمام الثاني في سلسلة أئمة آل البيت ، ومنه انتقلت الإمامة إلى أخيه الحسين فعلى زين العابدين فجعفر الصادق ، نقول : إن تفكيرهم اتجه من أيام جعفر الصادق هذا إلى أن ييسدوا السياسة ولا يبالوا بالحكم بسببها لدى رجالهم من الأدنى في سبيله

ولقد ظل جعفر الصادق بعيداً عن السياسة ملتزماً سميت العلم والعلماء ما عاش ، بل إنه رفض الخلافة عندما عرضها عليه أبو سلمة الخلال وزير آل محمد وواحد من أكابر مؤسسي الدولة العباسية ، ولكن شيعة على وآله ظلوا يعلقون آمالهم على آل البيت ، وإذا كان جعفر الصادق قد رفض أن يكون خليفة ، إلا أنه ظل يرى نفسه إماماً في العلم والفضل ، ووارثاً لعلم جده علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وكان أنصار آل البيت يرون أن إمامة آل البيت لا تقتصر على العلم بل تشمل السياسة ، فهم أئمة المسلمين وأولى الناس بالحكم ، وإذا كان جعفر الصادق قد ترك السياسة فقد كان ذلك في رأيهم تقيّة أي تقي : عا أو اتقاء لأذي العباسيين ، وقالوا إن جعفرأ قرر أن التقيّة مذهبه ومذهب دنة أجمعين .

وفي حياة جعفر الصادق حدث ما جعله ينقل الإمامة من بعده من ولده إسماعيل إلى ولده موسى الكاظم ، ولم يوافق نقر غفير من شيعة آل البيت على

هذا النقل ، لأنهم قالوا إن الإمامة سر أودعه الله في آل البيت ، وهي تنتقل من الإمام إلى ابنه الأكبر ورثة حتمية . فظلوا متعلقين بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق . وقالوا إن إسماعيل هو الإمام المستقر ، وأن موسى الكاظم أخاه إمام مستودع ، أي أن آياه استودعه الإمامة إلى أن تعود فتستقر في إسماعيل وأولاده ، أما موسى الكاظم وأبناؤه فهم الأئمة السبعة ، لأن موسى الكاظم عندهم هو الإمام السادس ، ثم جاء بعده ابنه الذي استتر ، ولا زالوا في انتظاره إلى اليوم .

وأما أتباع إسماعيل بن جعفر ، فقد جعلوا فيه الإمامة وتكلموها من بعده إلى ابنه محمد الباقر ، ثم إلى أبناء هذا ، إلى الإمام الثاني عشر الذي استتر خوفاً على نفسه من الأذى ، وسيعود إلى الدنيا عندما يشاء الله ليمليها عدلاً عندما يصل الفساد مداه ويشاء الله سبحانه إقتاد الخلق ، وهو عندهم المهدي المنتظر .

وقد لقيت حكاية استتار الإمام إقبالاً من نفر غفير من أبناء الأمة ، لأن الإنسان إذا يتس من الواقع لجا إلى الأمل ، وكان العلويون أملاً ضخماً تعلقت به قلوب الملايين نتيجة لعجز الدولة العباسية عن إقامة الحكم الصالح الذي بشر به الإسلام .

وفي خدمة الإمام المستتر قام الدعاة ببثون الدعوة في الناس منتهزين فرصة اليأس الشامل الذي ثقل على القلوب . والدعاة جماعة من أهل الإيمان بإمامة علي وأبنائه أو من أهل الطموح السياسي والمالي الذين وجدوا في عطش الجماهير إلى العدالة والأمن فرصة لبث دعوتهم واجتذاب الانصار ، ودخلت فيهم جماعات من الفرس وغيرهم من أصحاب الآراء الفرية عن الإسلام ، فنشأت فرق الشيعة الكثيرة التي فصل أمرها التويختي ، والذي يعنينا الآن هم الشيعة الإسماعيلية أو الاثنى عشرية ، والفاطميون منهم .

وقد نظم الدعاة أنفسهم على نحو يدعو إلى الغرابة ، فقالوا إن الإمام مستتر مكان لا يعرفه إلا رئيسهم أو كبير الدعاة وسموه الوصي . وهذا الوصي أو وصي الإمام هو مدبر الدعوة ومنظمها ، وتحت يده داعي الدعاة ثم الدعاة ، وهم مراتب . وأخذ الموضوع صورة مؤامرة سرية كبرى هدفها نقل الخلافة من بني العباس إلى آل علي .

وقالوا: إن الإمام كان أول الأمر مستتراً في فارس، ثم انتقل إلى سَلَمَةِ قرب حماة، وهي عندهم مركز الدعوة. والإمام فيها حصين آمن له حرس وعيون وأرصاد في قصر الخليفة وبيوت رجال الدولة، وهم يجمعون باسمه مالا كثيراً من الناس، لأن الواحد من الناس إذا آمن بدعوتهم، أصبح لزاماً عليه أن يؤدي الزكاة للإمام، ومهما قل مبلغها، فقد كان يتحصل منه في أيدي الدعاة، من صغيرهم إلى الوصي، مال جسيم ليصل بعضه إلى الإمام المستتر، فيستعين به على تأمين نفسه من غدر الدولة العباسية، ولقد قيل إن الإمام المهدي الذي سيكون أول الخلفاء في المغرب، كان يملك أموالاً جساماً، جعلها في سرايب تحت الأرض.

المسألة إذن في أمر الدعوة والدعاة كانت مسألة فيها مخاطرة ولا شك، ولكن كان فيها كسب ومال كثير، ثم إن قلوب الناس كانت مع آل علي، ولهذا كان الناس يشترون على الدعاة والشيعة، ومن لم يردعه تقاه عن إقضاء سر العلويين، يردعه المال وكان وغيراً في أيدي الدعاة. وكلما زاد أمر الدولة العباسية سوءاً، ازدادت دعوة آل البيت قوة، حتى أصبح عالم الإسلام خلال النصف الثاني من القرن الثالث الهجري شبكة سرية واسعة، نشأ عنها ما سماه بعض المؤرخين بأكبر مؤامرة في التاريخ.

ففي بدايات القرن الرابع / العاشر الميلادي كانت بلاد الدولة العباسية تموج بالدعاة موجاً، وكان أولئك الرجال يجتهدون في إشاعة الخوف والقلق في النفوس حتى تتعلق الآمال بهم ربما يدعون، ولكنهم كانوا تنظيمياً سرياً فقط واسع النطاق دون أن يملك قوة عسكرية تستطيع أن تحول التنظيم إلى كيان سياسي. وكانت الدولة العباسية رغم ضعفها تملك قوة عسكرية تستطيع أن تحطم أي حركة مسلحة في أي ولاية محددة من ولايات الدولة مثل مصر والشام والعراق وخراسان، ولهذا اتجهت أنظار رئاسة التنظيم الشيعي إلى البحث عن بلد بعيد عن متناول الدولة وعن المسالك والمداخل، تستطيع أن تنعش في داخله. وكانت أبصارهم تتجه إلى اليمن. ولكن بلاد اليمن لم تكن تضم إلا شمرلين من الشروط اللازمة لإحداث ذلك التحول وهما وعورة الأرض وصعوبة المسالك، مع

البعد الشاسع عن قلب الدولة ، أما الرجال فقد كانت بلاد اليمن حافلة بهم ، ولكنهم كانوا مفرقين شيعاً وأحزاباً وعصائب متعددة ، ولما اجتمعت قواعد اليمن الكبرى وهي صعدة وصنعاء وتعز وزبيد وجند على رأى واحد ، لا في السياسة ولا في غيرها .

ولكن رجال الدعوة وجدوا في اليمن على أى حال مهبطاً آمناً يمكن أن يرتكز عليه التنظيم في البحث عن الرجال الذين يؤلفون القوة العسكرية .

وفي أوائل القرن الرابع صارت الوصاية إلى رجل ذكى يسمى شهر بن حوشب استعان بأموال رجل فارسى كاره للعرب يسمى فهدان ، فاستقر شهر ابن حوشب في اليمن . واتخذ بلدة تسمى عدن « لاعة » لتكون مركزاً لأعماله . وهده تفكيره إلى أن القوة التي يبحث عنها من الرجال يمكن أن توجد في المغرب مما يلي أملاك الدولة العباسية غربى نهر شلف ، فهناك وحتى المحيط لا سلطان للدولة العباسية ، وهناك شعوب من البربر تمكنت بفضل قادة من العرب من إقامة دول مثل الدولة الإدريسية والدولة الرستمية فاختار داعيين ذكيين يسميان سفيان والحلواني وبعث بهما إلى هناك ، فاستقرا في المنطقة التي كان يسكنها حلف النقبائل الرستمية المسمى بكتامة ، وهو حلف قوى سكن المناطق الحبلية الوعرة المتاخمة لبلاد الدولة العباسية من ناحية الغرب ، فلا يفصل منازلهم من بلاد بني الأغلب إلا مجرى نهر شلف .

هذان الرجلان حرثا الأرض بمصطلح الدعوة ، أى أعدا النفوس لقبول فكرة الدخول في الحركة الشيعية وإقامة دولة لرجل يرتضيه الناس من أهل البيت . وكان الكتاميون قبلاً ضخماً من البربر البراس يسكنون ما يعرف اليوم بمنطقة القبائل غربى مدينة الجزائر ويمتدون جنوباً في جبال الأوراس ، وكانوا قوماً فيهم عدد وقوة وإيمان وتطلع إلى السلطان ، وكانوا حفرهم على ذلك ما تمكن من إنشائه جيرانهم في المغرب الأوسط من دولة بنى رستم ، وما استطاع إنشاءه في المغرب الأقصى آل إدريس من دولة قومية غزت بها أوروبا وسادت المغرب الأقصى .

ولم يتيسر الأمر لسفيان والحلواني لأكثر من الحرث ، واحتياج الأمر إلى

صاحب بذر - بمصطلح الدعوة - أى رجل ينثر البذور في الأرض المحروثة ويرعاها حتى تطلع ، أى رجل قادر على تكوين القوة العسكرية المرجوة .

### أبو عبد الله الشيعي :

ووقع اختيار شهر بن حوشب على الرجل المطلوب ، وكان بالفعل رجل الموقف والساعة ، ويسمى أبا عبد الله الداعى ، وليس هذا باسمه ، وإنما هو كنية أو تكنية أو اسم حركى كما يقال ، فما معنى أن يقال إن اسمه أبو عبد الله فحسب ، أما بقية الاسم وهو الشيعي أو الداعى فصفة ، ولكن الرجل كان له أخ يسمى أبا العباس المخطوم ، وهذا أيضا ليس باسم .

على أى حال كان أبو عبد الله الشيعي رجلاً موهوباً في أكثر من مجال ، فكان تذكياً بعيد النظر حسن الفهم للرجال واسع الحيلة ضليعاً في الفقه الشيعي وغير الشيعي ، وعندما عهد إليه في المهمة ترك له أمر التصرف في تنفيذها كما تقول المراجع ، ولكننا نشك في الرواية التقليدية التى تقص عن لقائه لرجال كتامة واحتياطه عليهم في موسم الحج ، والأرجح أن ذلك اللقاء كان على تدبير ، ولكننا لا نملك براهين تؤيد الشك . ليس أمامنا إلا أن نتبع الدرب المظروق حتى نتكشف لنا الحقائق .

والقصة التقليدية ، التى يروها القاضى الشيعي أبو خنيفة النعمان بن محمد داعى الدعوة في كتابه الممتع المسعى « ابتداء الدعوة » ، تقول إن هذا الرجل اتجه إلى الحجاز في موسم الحج ، وهناك أخذ يتقرى ويستقضى حتى وقع على وفد حجاج كتامة ، فجلس إلى جوارهم وأذنه صاغية إلى ما يجرى بينهم من حديث ، وهذا أول ما يشك في القصة ، لأن هؤلاء القوم إذا كانوا يتجاذبون أطراف الحديث فيما بينهم فلا يكون ذلك إلا بلغتهم ولهجتهم . والمفروض أن أبا عبد الله الشيعي لا يفهم منها شيئاً ، ولكن القاضى النعمان يريدنا أن نصدق روايته التى يرويها في أسلوب أخذ ولغة عربية سليمة ، يمكن أن تكون من أجمل أساليب النشر في العصور الوسطى ، فيقول : إن أبا عبد الله الشيعي لم يزل ملازماً لجوار القوم حتى فهم ما يجرى بينهم من حديث . ثم تدخل فيه وأخذ يحدثهم عن آل البيت وأمور الفقه حديثاً يدل على علم وتضلع ، وصار يلغاهم في

كل يوم فيلقى فيهم علمه حتى بهرهم واجتذب قلوبهم ، وكان يظهر مع ذلك عفاً ورعاً وقناعة ودينياً وتعاوناً ، مما زاد الناس فيه محبة .

وعندما توثقت الاسباب بينه وبينهم واقترب موعد الرحيل ، قال لهم إن وجهته مصر لبحث فيها عن وظيفة معلم ، فهذه فيما زعم صناعته ، ففرحوا بذلك لأنه يتيح لهم فرصة ملازمته والاقتباس من علمه ، فأخذوه في ركابهم .

وعلى الطريق جرى الحديث هوناً بين أبي عبد الله وأولئك الناس ، وكانوا من خيرة شيوخ قبائل كتامة الكثيرة ، فعرف الكثير عن أمورهم ، وهم لا يعرفون إلا أنه مؤدب فقير يلتمس العيش ، وكان يلقي عليهم السؤال تنو السؤال في ذكاء وبراعة فيلقون إليه بما في نفوسهم في توسع وسذاجة .

وعندما أدرکوا مصر ، ودخلوا القسطنطينية مضى في زعمه يبحث عن عمل فلم يجد ، فعرضوا عليه أن يمضى معهم إلى بلادهم فهم في حاجة إلى معلم ، فقبل يمضى معهم إلى بلادهم وهم جد فرحون .

وكان أبو عبد الله قد عرف أين سينزل وكيف سيعمل ، وذلك لكثرة ما حصله من العلم بشئون أولئك الناس . وعندما اقترأوا من مواطنهم وصاروا على بلد صغير يسمى « إيكجان » في وعر من الجبل . عرف أن هذه منازل « سكتانة » من بطون كتامة ، وعندما مر بفتح قريب من إيكجان قال هذا هو فتح الأخيار ، وأوهمهم أنهم هم الأخيار ، والفتح معمر طويل في الجبل ، وكان اسم هذا الفتح بالبربرية قريباً من لفظ « فتح الأخيار » . فدهش الناس من معرفة أبي عبد الله بذلك ، ثم قال لهم إن اسمهم كتامة ، وهو مشتق من الكتمان ، والكتمان أول شروط الدخول في الدعوة ، فأعجبهم ذلك مع أن اسم كتامة قديم وجدناه في سجلات الرومان .

واستمر أبو عبد الله الشيعي في بلدة إيكجان في منازل قبيلة سكتانة من قبائل كتامة ، ونهج في حياته نهج المعلم الصالح ، فسلك مسلك الطهر والعفاف والديانة . وأخذ يعلم الناس حقاً حتى اشتهر أمره بالصلاح والعدالة ، فإذا استوثق من مكائده على هذه الصورة أخذ يتحول مرشداً لهؤلاء القوم على طريقة المعلمين الدينيين الذين يتحولون إلى قادة سياسيين ، وهو أمر تكرر جسدته في

المغرب، فما كان أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري، غير شيخ صالح من شيوخ الإباضية، ثم صار إلى الرياسة السياسية، وكذلك سيفعل عبد الله بن ياسين في قبائل صنهاجة الصحراء ومحمد بن تومرت في قبائل مغموسة هنا أيضاً نجد أبا عبد الله الشيعي يمهّد بالسلوك الحسن والقيام بمطالب التوجيه الديني، وشيخاً فقيهاً نجد هذا الرجل يتحول إلى شيخ قبيلة سكتانة، ويصلح أمر القبيلة على يده وينشط رجالها في مغاورة حدود الأغالبة، وشكا عمال بلاد الزاب الشرقي من عدوان السكتانيين عليهم، وسعى رجال الأغالبة في نصح بقية الكتامين بإخراج هذا الرجل الداعية الشيعي من بلادهم، ورفض السكتانيون إخراجهم ولكنه خاف على نفسه، لأن سكتانة قبيلة صغيرة لا قبل لها ببقية قبائل كتامة من أمثال لهيصة ومسائلة. وكان قد أنشأ لنفسه دائرة من الأصحاب والأنصار، ووقع لنفسه جاهاً بالتقى والصلاح والعدالة وسعة العلم، وقد نجح في إقناع أنصاره بفساد الحكم الأغلبي ومناهم بأن يورثهم الله بلاد الأغالبة إذا هم صدقوا في تأييده، وكان هذا أيضاً مما أثار حفيظة بعض القبائل الكتامية، لأن هذا الأمر إذا تم قلماً فتنفرد به سكتانة.

### الهجرة إلى تازروت وتحول الدعوة إلى حركة سياسية عسكرية :

لهذا حزم أبو عبد الله الشيعي أمره وانتقل إلى قاعدة وسط جبال الأوراس وعند مداخلها من الشمال تسمى « تازروت ». ولم يكسب يستقر بها حتى تلاحق به الأنصار، فسارع إلى تحصين بلده، وفرض على أتباعه جباية قليلة هي أشبه بالتبرع للحركة، وبلغ من ذكائه أنه جعل هذا المال بأيدي شيوخ من كتامة فلا يتصرف هو في شيء منه إلا بإذنهم. وبإيمان الناس به، وبما كان يمنهم به من إقامة دولة صالحة عادلة يكرثون هم سادتها. استولى على بلاد الأغالبة وبهذا المال أيضاً بدأ سلسلة من الحملات على ما قرب من منازل كتامة من بلاد الزاب، ووفق في حملاته الأولى وغنيت أيدي الكتامين بالغنائم ناشدت حماسهم، وكان هذا في أواسط أيام إبراهيم بن أحمد الأغلبي.

وهنا تحول أبو عبد الله الشيعي إلى قائد سياسي عسكري، وكشف عن



وجبه فصارع الناس بأنه يدعو للرضا من آل البيت ، وأنه قائم بالدعوة حتى يسلمها لصاحب الأمر من آل رسول الله ﷺ وهو الإمام المستتر صاحب الزمان ، وأظهر هذا الرجل من الكفاية والحزامة والجرأة ما مكن له فعلاً من جمع قباد أولئك القبائلين العفاة ، واستطاع في زمن وجيز أن يستولى على بلاد الزاب كلها ، ثم دخلت قواته بلاد أفريقية ، وهنا تزعزع بنيان بني الأغلب ، وكان الناس قد سئموا حكمهم بعد الذي كان في حكم إبراهيم بن أحمد الأغلب ثم ابنه أبي العباس ثم أبي مضر زيادة الله الثالث قاتل أبيه ، وهو أخو الأغلبية ، وكان قد ارتكب أخطاء جسيمة في حق أهل أفريقية فعال الناس إلى دعوة الشيعة . وفي أوائل جمادى الأولى سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٩ م سقطت الأريس في يد أبي عبد الله الشيعة ، والأريس هي مفتاح القيروان ، فعجل زيادة الله الأخير بالرحيل إلى مصر في جمادى الآخرة سنة ٢٩٦ هـ ، ودخل أبو عبد الله الشيعة القيروان ، وأعلن قيام الدولة الفاطمية وبعث يستدعي الإمام المستتر في سلمية وهو عبيد الله المهدي

وقد سار أبو عبد الله الشيعة في أهل القيروان وبقية أهل أفريقية سيرة طيبة ، وحرص على ألا يصارع الناس بالدمرة الشيعية . وأراد أن يتم ذلك عن طريق الإقناع ، ودارت مجالس مشهورة بين زعماء المذهب المالكي وخاصة أبي عثمان سعيد بن الحداد وأبي عبد الله الشيعة ودعاة المذهب ، وفي أثناء المناقشات تبين أبو عبد الله أن قتلة أولئك المالكين لن تلعن وأن الناس لهم تبع . فعول على الانصراف عن الدعوة النشيطة حتى يستتب الأمر للدولة الجديدة . وقد غضب أبو عبد الله على أخيه أبي العباس المخطوم ، وكان عامل القيروان ، عندما لجأ إلى العنف مع بعض متاوضي الدعوة . وقد نجح أبو عبد الله الشيعة في زمن قصير في تثبيت أقدام الدولة وتنظيم أمورها ، وفي هذا الدور كان اعتماده على كبار أنصار الدعوة من الكتامين وخاصة غزوية بن يوسف وأخيه

### قدوم عبيد الله المهدي :

وعندما وصلت الدعوة إلى هذه الدرجة من النجاح أرسل أبو عبد الله الشيعة يستدعي عبيد الله المهدي صاحب الزمان ، وتلك كانت خطيئة حياته ، فقد كان مستطعاً أن يمضي في رئاسة الدعوة تحت اسم الوصاية حيناً ثم يحوزها

لنفسه ، ولكن الحذر يؤتى من مأمته . وما كاد الخبر يصل إلى عبيد الله المهدي في سلفية حتى أعد العدة للرحيل ، وكان يعيش في تلك القرية في سعة من العيش ، وكان يعتزل إلى حد ما بالقرامطة ، وهم فريق من دعاة الشيعة تزعمهم رجل يسمى أبو سعيد الجنابي ، يزعم بعض أعداء الدولة أنه والد عبيد الله المهدي ، ثم تولى رئاسة هذا الجناح من الدعاة والشيعة رجل نشيط ولكنه جاهل بشئون السياسة يسمى حمدان قرط ، حسب أنه يستطيع التحصن في إقليم الحسا في شرقي الجزيرة العربية ، وانضم إليه عدد غفير من البدو واللصوص ، فصارت له قوة عسكرية مرهوبة أغار بها على البصرة وجنوب الحجاز أكثر من مرة ، وروع جنوبي الشام والحجاز ، وبلغ من جرأته أن رجاله اختطفوا الحجر الأسود من الكعبة ، واحتجزوه في بلادهم حتى ردوه بتوسط العزيز بالله ثالث الخلفاء الفاطميين . وفي هذا الدور من الحركة العلوية كان القرامطة ودعاة القاطمية أصلاً يتآزرون على الدولة العباسية .

ووصل عبيد الله المهدي إلى مصر في ركب من أتباعه وأحمال من أمواله ، وقد عرف كيف يستخدم هذه الأموال في تيسير سفره ، وبعد خروجه من مصر اتجه إلى المغرب بمعاونة عامل مصر فيما يقال ، ولكنه بعد أن وصل بركة ، أحس أن رجال بني العباس علموا بآمره ، فاستنعمل الحيلة بعد خروج الركب من بركة إلى طرابلس ودفع مالاً للمشرقين على الركب فحولوا اتجاهه إلى سجلماسة ، فنجأ من أيدي العباسيين ، ولكن صاحب سجلماسة من بني اليسع بن مدرار ، تخوف من أمره بعد استقراره في بلده ، فسجنه .

وهنا تواجها علامة استفهام كبيرة ، إذ ما الذي يدعو رجالاً خارجياً صغيراً هو صاحب سجلماسة إلى سجن رجل من أعداء العباسيين وهو منهم ؟ ثم إن سجن عبيد الله وولده أبي القاسم محمد الملقب بالقائم لم يكن ، فيما يحدثنا النفاضي أبو حنيفة النعمان داعي الدعاة ، لم يكن سجناً على الحقيقة . إنما كان تحفظاً أو تحوطاً

وبلغ الخبر أبا عبد الله الشيعي فجمع جيشاً ضخماً وخرج به من القيروان في سنة ٢٩٧هـ / ٩١٠ م ووجهته سجلماسة ، ووصلها وتمكن من تخليص

عبيد الله المهدي والقضاء علي صاحب سجالماسة ، ويبدو حقاً أن أبا عبد الله الشيعي ، وكان داعياً للدعاة وصاحب الفضل في إقامة الدولة لم يكن يعرف عبيد الله المهدي معرفة شخصية ، ولا هو رآه من قبل ، حتى لقد أخطأ في شخصه وتقدم بطاعته إلى رجل آخر ، ثم عرف الحقيقة فعدل إلى عبيد الله ثم ابنه ، وهنا لابد أن نلاحظ أن الكثيرين من مؤرخي الدعوة الفاطمية يقولون إن الخليفة الفاطمي الحقيقي كان أبا القاسم محمد بن عبيد الله المهدي ، وأن هذا الآخر ، كان ممهداً له وراعياً لأمره ، وربما لم يكن أباه أصلاً ، ولكن هذه كلها أقوال . وكل ما يتصل بنسب الفاطميين موضع شك كبير ، فاهل السنة ينكرون إنكاراً تاماً ، والمسلمون في الحملة عليهم يقولون إن عبيد الله المهدي ابن لرجل يسمى « القداح » يصفونه بأنه يهودي ، وهناك من يقولون : إنه من ولد أبي سعيد الجتابي ، ولكننا في الحدود التي نكتب في نطاقها لابد أن نسلم بصحة نسب الفاطميين إذ لم يقع لدينا دليل على خلاف ذلك .

وبيرجع عبيد الله المهدي بيعة عامة في سجالماسة ، وسلم إليه أبو عبد الله الشيعي الأمر وسار بين يديه يحترمه ، وفي طريق العودة من الجيش بتاهرت : وإزال إمامة الرستميين ، وكان ذلك سنة ٢٩٧ هـ / ٩١٠ م وجعل المغرب الأوسط إلى تلمسان جزءاً من الدولة الفاطمية ، التي قامت نسبة إلى فاطمة الزهراء بنت الرسول ﷺ ، ولا ندري كيف نشأت تسمية هذه الدولة بالفاطمية ، فإنهم هم أنفسهم كانوا يرون أنفسهم أبناء علي وفاطمة من ولد الحسين .

### خلافة عبيد الله المهدي : ربيع الآخر ٢٩٧ — ربيع الأول ٣٢٢ هـ / ٩١٠ - ٩٣٤ م :

برجع عبيد الله المهدي بيعة عامة في القيروان في ربيع الآخر سنة ٢٩٧ هـ ، وبذلك انتهت ولاية أبي عبد الله الشيعي بعد أن دامت عشر سنوات من ٢٨٨ إلى ٢٩٧ ، فقد أصبح وزيراً وخامساً لهذا السيد الذي استقدمه من سلمية ، ولاول ولاية عبيد الله المهدي فعل فعلة شككت الكتامين في أصالته ومستوى تفكيره ، فقد استولى على الأموال التي جمعوها وحرسوها في إيكجان ، وأخذها دون أن يستشير أو يكثر لراي أحد ، فبدأت نفوس كبار الكتامين تتغير ويساورها الشك ، خاصة وأن أبا عبد الله الشيعي شاركهم في ذلك ولم يخف استيائه . وإذا

كان أبو عبد الله الداعي قد تمكن من ضبط مشاعره ولسانه ، فإن أخاه أبا العباس المخطوم لم يستطع . ولم يلبث الجو أن أظلم بين عبيد الله وأبي عبد الله وأخيه ، فلجأ عبيد الله إلى الغدر ، واستعان برجل من كبار الكثامين هو غزوية بن يوسف في قتل أبي عبد الله الشيعي وأخيه أبي العباس ، وتلك كانت سلسلة من الاغتيالات والغدرات درج عليها خلفاء الفاطميين في المغرب خاصة ، وهي سياسة لم تعد على البيت الفاطمي بشيء .

### بخاء المهديّة :

وأحسن عبيد الله المهدي أن الناس في أفريقية ليس لديهم استعداد لقبول فكرة خلافة تقوم على مبادئ الشيعة الإسماعيلية كما صاغها دعاةهم ومفكرهم أثناء فترة الاستتار ، ودخلت فيها آراء غريبة كل الغريبة عن صفاء مذهب السنة والجماعة ، ويتجلى ذلك في تفاصيل المذهب الإسماعيلي كما شرحه الدعاة من أمثال القاضي النعمان بن محمد ، وكما طبقه الخلفاء الفاطميون عندما أحاطوا أسماءهم بهالات من التقديس والتعظيم ، لم يعرفها أهل أفريقية إلى ذلك الحين ، حتى كانوا يتحدثون إليهم وكأنهم من طينة غير طينة البشر . فعندهم أسرار الغيب وعلم ما سيكون ، ولديهم كتب يقولون إن فيها كل ما حدث ويحدث ، مسطور برموز لا يفهمها غيرهم ، ثم إن سياسة عبيد الله المهدي المالية كانت سياسة جشع بغير حدود ، فهو يجمع المال عن الجبايات ورجاله يتاجرون له ولأفراد بيته ، وكلهم يجمعون الأموال بالحق والباطل

وكانت في أهل أفريقية كما عرفناهم إلى الآن صراحة وجراة ، فجابها عبيد الله ورجاله بما يرون ، فاحس الرجل أنه ليس بين رعية وإنما تجاه خصوم ، وأنه لن يستطيع السيطرة على أولئك الناس قط . ولم يكن كذلك يستطيع الثقة المطلقة بالكثامين يعد الذي فعل بأموالهم وبأبي عبد الله الشيعي الذي كانوا ميالين إليه . ثم إنه لم يلبث أن دير مقتل غزوية بن يوسف ، وتطلع إلى الاستعانة بغيرهم ، فرأى أن يشيد لنفسه وأسرته قلعة يحتمم فيها هو وآله وجنده وحششه وأمواله ، فأنشبه في ذلك ما فعله إبراهيم بن الأغلب عندما بنى القصر القديم . وأمثال هذه الفلاح الملوكية تؤمن رجال البيوت المألقة ولكنها تعزلهم عن الناس وتحول بين

بيوتهم وبين أن تضرب جذوراً في البلاد ، وتعجل بزوالهم من البلاد ، وهذا هو الذي كان بالنسبة للفاطميين في المغرب . وكان بناء المهديّة سنة ٣٠٥ هـ / ٩١٧ م ، وما زالت آثارها باقية إلى اليوم . وهي حصن منيع يقوم على رأس بارز في الساحل الشرقي لتونس شمال سوسة ، « كأنه الكف » كما يقول المؤرخون ، ولا يوصل إليه من البر إلا عن طريق مدخل ضيق . وهو محاط بسور منيع على الذي مستدير الزوايا ، وبين السور والبحر قطعة من الأرض أقيمت فيها دار صناعة السفن ومخازن البحرية ، وهذه أيضاً محصنة لا يوصل إليها بسهولة . وقد جعل عبيد الله العمال والسوقة يعيشون خارج البلد . في موضع يسمى زويلة ، فلا يكونون في البلد إلا نهاراً ، فإذا هبط الليل مضوا إلى مدينتهم وأغلقت الأسوار . وقد بلغ من حرص عبيد الله على تأمين مدينته تلك ، أن رسم لجنده أن يقبضوا على أهل أولئك العمال في قريتهم إذا هم أحدثوا في المدينة شغباً ، فكانوا بذلك مضطرين إلى السكون والطاعة . وعندما فرغ عبيد الله من بناء تلك القلعة واستقر فيها بأمواله وآله وجنده وحشمه قال : « الآن أمنت على الفاطميات » ، أي أنه آمن على نفسه وماله وأمراله . ومضى يدير البلاد من معتصمه هذا .

وكانت ثقة عبيد الله المهدي كلها في جفده المرتزق الذي استكثر منه واعتبره . واستكثر لذلك من الصقالية والخصيان للخدمة في القصر . وقد خلف لنا اثنان من صقالبة الفاطميين في المغرب ، وهما منصور العزيمي والأستاذ جوني ، مذكرات هي الغاية في القيمة التاريخية ، فهي ترينا حياة الفاطميين الخاصة خلال الفترة المغربية ، ولم تكن بحياة سعيدة ولا نافعة للناس ، وإنما كان كل هم خلفاء الفاطميين هو حماية أنفسهم واستغلال البلاد التي صارت إليهم على أسوأ صورة . ومن هنا فقد كانت صورة المهدي عند عامة أهل إفريقية بغيضة بشعة تصورها رواية شعبية ذكرها ابن عذاري . وهي تصور عذاب عبيد الله المهدي في أخريات أيامه ، ثم عذابه في الآخرة .

وبعد مقتل أبي عبد الله الشيعي وأخيه غدر المهدي بغزوية بن يوسف كما قدمنا ، وتخوف من الكتاميين جملة ورمى ببصره إلى قبائل أخرى مجاورة كانت

تحشد الكتامين ، وأهم هذه منهن حاجة المغرب الأوسط وكان يزعمهم مصالة ابن حبوس ، فأغراه بالمال وسلطه على المغرب وبعثه في جيش كبير يغزو المغرب الأوسط والأقصى ، فأما في المغرب الأوسط فقد ملك العرب جماعات الزناتية التي كانت تسكن بعض نواحيه ، وعلى رأسهم علي بن حمدون الزناتى ، الذى قرع إلى الأمويين في الأندلس واستجار بهم ، وبثو خزر المغراويين الذين اندفعوا نحو الأمويين أيضاً . ووصلت جيوش مصالة بن حبوس إلى المغرب الأقصى ودخلت فاس أيام يحيى بن يحيى بن عمر بن ابن إدريس الثاني . وقد ولي مصالة على منطقة فاس رجلاً من أقاربه يسمى موسى بن أبي العافية ، ولكنه اذن للأدارسة بالبقاء في فاس تحت الطاعة الفاطمية ، فلم يزل موسى بن أبي العافية يتحيل حتى أضاعوا إليه فاساً ، فتقى من كان فيها من بقايا الأدارسة إلى قلعة «حجر النمر» شمال المغرب في جبال الريف قرب مدينة تسمى بصره المغرب ، فجمع بقايا الأدارسة هناك ، وارتبطوا بالناس وادخلوهم وأصبحوا أسرة مغربية عربية ، وتلك هي بداية الدور الثانى من تاريخ الأدارسة .

حكم عبيد الله المهدي خمساً وعشرين سنة هجرية ( ٢٩٧ - ٣٢٢ هـ / ٩٠٩ - ٩٣٤ م ) ثبت أثناءها قواعد بيته في المرقية والمغرب الأوسط بالقوة العسكرية وجمع ماله وأفرأ ، وكان في حكمه بعيداً جداً عما كان الناس يتصورونه عن المهدي الذى يعيد العدل إلى الأرض ، وقد أبغضه وانكر أساليب فقهاء المالكية وهم رؤساء الناس في أفريقية ، وأحسن هو يكرهتهم له ، فرسم أن يخففوا من نشاط الدعوى للمبادئ الشيعية ، ولكن ذلك لم يُقدَّ كثيراً ، فلم تكسب الدعوة الفاطمية في المغرب إلا نفراً من شواذ الناس وضعفة الفقهاء ، وذلك كله حفز المهدي على التفكير في غزو بلد آخر والاستيلاء عليه والانتقال إليه بأهله وماله وجنده . وهذا هو السبب الذى جعله يحاول الاستيلاء على مصر . فأرسل إليها حملة بقيادة ابنه القائم ، استولت على الإسكندرية وخربت بعض نواحيها ، وناوشت بعض نواحي الصعيد الأدنى عند الجزيرة ولم تعد بنتيجة .

وقد خلف المهدي بعد موته ، ثلاثة من خلفاء الفاطميين هم :

القائم ، أبو القاسم محمد ( ١٤ ربيع الأول ٣٢٢ — ١٣ شوال ٣٢٤ هـ / ٩٣٤ - ٩٤٦ م ) .

المختصون ، أبو الطاهر إسماعيل ( ١٣ شوال ٣٣٦ - ٢٩ شوال ٣٤١ هـ / ٩٤٦ - ٩٥٣ م ) .

المعز ، أبو تميم معد . وقد حكم في المغرب من مستهل ذي القعدة ٣٤١ هـ / ٩٥٣ م حتى انتقل إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ / ٩٧٢ م وتوفي فيها في ربيع الآخر سنة ٣٦٥ هـ / ٩٧٥ م .

فأما القائم فكان أقرب إلى العدل وحسن السياسة من أبيه . وقد ازداد شعوره بالعزلة والغربة في المغرب وأراد التقرب من الناس دون جدوى ، فركز جهده على مغازاة المغربين الأوسط والأقصى ، وكانت لفتاه « ميسور » وقائع طويلة مع جند الأمويين والأدارسة في المغرب الأقصى ، مما اضطر عبد الرحمن الناصر إلى احتلال سبتة ومليلة لتأمين بلاده من انصار الفاطميين . من أمثال بلكين بن زيري بن مناد ، وهو زعيم صنهاجي استماله الفاطميون فأخلص في خدمتهم . أما بقية أهل المغرب الأقصى من رجال دويلة نكور وبني خزر الزناتيين وبني خزرون الزناتيين أيضاً ، فقد استباحشوا بالأمويين الأندلسيين الذين لم يدخروا جهداً ولا مالاً في مناجزة الفاطميين وإبعادهم عن المغرب ، فاتجهت أنظار الفاطميين إلى مصر ، إذ تصوروا أن الإخشيديين ضعاف لا يستطيعون مقاومة الضغط الفاطمي طويلاً ، وكان يتولى أمور مصر كافور الإخشيدى وكان رجلاً صبوراً مطاولاً ، يصانع الفاطميين حيناً ويناجزهم حيناً آخر ، لأنه كان يرى أن الدولة العباسية - وهو تابعها - أعجز من أن تمده بمعون . وقد أرسل القائم حملة إلى مصر لم توفق إلى كثير .

### ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد :

وبعد وفاة القائم بعد حكم قصير جاء ابنه المخلص أبو طاهر ، وفي أيامه انفجرت ثورة أهل أفريقية والمغرب يقودها رجل من نكارية الإباضية يسمى أبا يزيد مخلد بن كيداد ويلقب « بصاحب الحمار » .

وكان أبو يزيد في أول أمره معلم صبيان ، وفي هذه المهنة قضى معظم عمره . فلما اشتد غليان أهل المغرب غضباً على الفاطميين ، تزعم هذا الرجل وقبيله الثورة ، وظهر الرجل في أول أمره بمظهر الزهاد المنتسكين ، فكان يركب حماراً

هزياً لا يتنقل به بين الجبال والقبائل فُلُقْبَ بصاحب الحمار . وكان الرجل مسداً عندما بدأ الثورة إذ كانت سنة تقارب السبعين . وقد انضمت إليه القبائل في حماس شديد ، وأيده أهل أفريقية إذ أنه لم يكشف عن نحلته الإباضية النكارية ، وإنما زعم أنه نائر للعدالة والإسلام وكراهة البدع ، التي أراد الفاطميون إدخالها على العقائد والعبادات ، وتمكن الرجل من اجتياح بلاد الفاطميين والجا المنصور الفاطمي إلى التخفي في المهديّة وحصره فيها .

ولكن حركة أبي يزيد كانت ثورة دون خطة ، فما أن بلغ هذا القدر من النصر حتى وقف حائراً ماذا يصنع ، وأساء السيرة مع كثير من القبائل مما قلل الثقة فيه ففر الكثير من القبائل منه . وانتظر المنصور في حصنه حتى إذا ما رأى أن ذلك الشائر يتفرق عنه وحاله ويضعف ، أرسل إلى بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي فاقبل برجاله ، وتغلبوا على الشائر الذي انصرف عنه الناس ، ففر إلى الأوعار ، وما زال رجال الفاطميين يتعقبونه حتى قبضوا عليه ، فقتلوه وسلخوا جلده وحشروه فيما يقول الرواة قطعاً وأركبوا جثته على حمار طاف بلاد أفريقية .

بهذا انتهت ثورة أبي يزيد ، وبنهايتها انتهت أيضاً قوى الفاطميين في المغرب ، فقد تزعمت دولتهم إلى قراعد بنيانها ، وحالف المنصور أن يسيطر عليه الصنهاجيون أصحاب القوة في دولته . هارتد إلى الكتاميين بعد طول انصراف عنهم وأذى لهم . وعندما توفي وجاء ابنه المعز كان باب الخلاص الوحيد الباقي أمامه هو غزو مصر والانتقال إليها .

وذلك كان هدف الخليفة الفاطمي الرابع في المغرب وهو أبو تميم معد ، الملقب بالمعز لدين الله ، الذي تولى الملك شاباً في ذي القعدة سنة ٣٤١ هـ / ٩٥٣ م .

### غزو مصر ثم الانتقال إليها :

ولا نزاع في أن المعز كان أقدر الفاطميين وأبعدهم نظراً ، فقد رأى بوضوح أنه لن يستطيع الاستمرار في المغرب ، فقد نفر الناس في أفريقية من بيته ورموه عن قوس واحدة ، ثم إن محاولات السيطرة على المغرب الأوسط لم تكن تؤدى إلى نتيجة . لأن آل بلكين بن زيري الصنهاجيين كانوا أصحاب القوة فيه ، وهم خلفاء الفاطميين فلا مطمع فيهم ، أما في المغرب الأقصى فإن الأمويين الأندلسيين أيام



الحكم المستنصر الذى خلف أباه عبد الرحمن الناصر لدين الله سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م ، كانوا يرون أن الفاطميين خارجون عن الإسلام وحربهم جهاد ، فكدس الجانب الأكبر من قواه في حربهم في المغرب ورماهم بخيـرة جندـه وقواته ، وتمكن من طردهم من المغرب الأقصى والقضاء على أنصارهم واستألف الإدارة .

ومن حسن حظ المعز أنه كان يخدمه شاب ذكى من خيرة صقالية الفاطميين هو جواهر الذى يلقب « بالصقلى » . فقد كان قائداً ماهراً وحندياً مخلصاً ورجلاً صاحب سياسة ونظر وتبصر . وبعد أن غزا المغرب كله إلى المحيط ، وبخل مرة أخرى مدينة فاس وغزا بلاد تافيلالت ، عاد ليبلغ سيده الأمل في أفريقية أو المغرب ، وأن الأمل الوحيد الباقى هو في الاستيلاء على مصر .

وكان كافور الإخشيدي قد تولى ومضى لسبيله وانتهى أمر الإخشيديين ، وفي تلك الأثناء كان المعز وقائده يحدان العدة لغزو مصر معتمدين في ذلك على الكتاميين ، بعد أن صالحوهم ودخل في خدمتهم رجل من أقدر رجالهم هو جعفر ابن فلاح وكان من قواد جواهر الصقلى .

ولم يكن من العسير على جواهر الاستيلاء على مصر ، فقد وضع المعز تحت تصرفه كل ماكان لدى الفاطميين والكتاميين من قوة ومال . وفي شعبان سنة ٣٦٢ هـ / ٩٧٢ م دخل المعز الإسكندرية ، ولأول دخوله إيـها أعلن في بيان رسمى تخليه وتخل دولته عن فرض المذهب النشيعى على أهل مصر ، وأحسن معاملة الناس ومناههم الخير الكثير والعدل الشامل ، فطاعوا له ، وبذلك بدأ في تاريخ مصر عصر جديد هو العصر الفاطمى ، الذى يطيل نقر من المؤرخين الإطناب في فضائله . وبدأ في تاريخ الفاطميين أيضاً عصر جديد ، فقد تخلوا عن المذهبية فيما يتصل بعلاقتهم بالناس ، وقد اتعظوا في ذلك بتاريخهم في أفريقية .

وفي نفس الوقت وضع جواهر أساس مدينة القاهرة . لتكون مدينة ملوكية وحصناً للفاطميين ، لكي ينتقلوا من قلعة المهدية إلى قلعة القاهرة . فلم يكن الببت الفاطمى على طول تاريخه ويُدعى صيته بيتاً من بيوت الحكم المحبب إلى الناس أو الوثيقة الصلة بهم . فكما كانوا غرباء في المغرب سيكتونون غرباء في الشام ، وفي كل موضع وصل سلطانهم إليه .

## تقدير الفترة الفاطمية في تاريخ المغرب :

دامت خلافة الفاطميين في المغرب ثيفاً وستين سنة هجرية ( من ٢٩٧ — ٣٦٢ هـ / ٩٠٩ — ٩٧٣ م ) فهي نحو ستين سنة ميلادية ، وقد دانت لهم بلاد واسعة تمتد من طرابلس إلى منتصف المغرب الأوسط ، فلم تخرج عن سلطانهم منه إلا منطقة تلمسان ، ومخلت في خدمتهم قبائل مغربية عفية غنية با تلكات والقدرات ، وكانت قاعدة ملكهم أفريقية ، وهي قاعدة حضارة وقوة ذات قدر عظيم . فإذا أضفنا إلى ذلك صقلية ، تبينا أن ملك الفاطميين في المغرب كان واسعاً وعريضاً ، وكانوا يستطيعون أن يفعلوا للبلاد وأهلها خيراً كثيراً .

ولكننا عندما نجيء للحساب الختاسي لتلك الفترة نجد أن الفاطميين لم يقدموا للبلاد التي حكموها فسي المغرب أى خدمة إيجابية ، فهم لم يعمروا من المدن إلا المهدية ، وتلك كانت قاعدة خاصة لهم ، أما القيروان وتونس وسوسة والحمامات والمنستير وغيرها لم يخلّف الفاطميون فيها أثراً ، بل هم لم ينشئوا مسجداً واحداً مذكر لهم مالمخر غير مسجد المهدية ، وكان مسجداً خاصاً .

وكانت سياستهم تقوم على جشع مالى بالغ ، فقد كانوا يجبون من المال مقادير طائلة كلها يالظم والإيهام ، وكانوا يحتجزون الأموال ويستخدمونها في المتاجرة أو في شراء جند يقوم بغزوات تعود عليهم بفنائم ، ولم تكن لديهم أى نية في زيادة عمران المغرب ، فلا هم شقوا طريقاً ولا أنشأوا سوقاً ولا نفخوا قبيلة من القبائل التي خدمتهم ، بل إن كتابسة التي استنفدت قسراها في قضيتهم بادت أو كادت . وفي العصور التالية كان بقايا الكتابيين يتبرأون من نعمة القيام بالدعوة الفاطمية . وقد كانت أفريقية بالنسبة لهم مستقراً ومصدر ثروة وخطوة إلى وهم بعيد بخلافة تحل محل الخلافة العباسية . وعندما غادروا أفريقية إلى مصر ، صغر حجمهم فيها وابتلعتهم وصاغتهم على طرازها فخفّ حماسهم لمذهبهم الشيعي ، ولم يستطيعوا استغلال البلاد على النحو السيء الذي فعلوه في المغرب ، لأن دافع الضرائب المصري وهو العلاج ، خير يشنون الحكام

ومظالمهم ولديه أكثر من وسيلة للتخلص من ظلمهم ، ومع ذلك فقد قضى الجشع الفاطمي على معظم صناعات مصر التقليدية القديمة وخاصة صناعة النسيج في شمال الدلتا ، ثم كان الصراع بينهم وبين زراع مصر مؤدياً في النهاية إلى ما يعرف بالشدّة المستنصرية ، وهي اعتف وأبشع أزمة اقتصادية عرفها تاريخ الإسلام ، ومن السذاجة أن نعللها بشوق الفيزان سبع سنوات متوالية ، وإنما هي نتيجة للسياسة المالية الفاطمية التي لم تعرف حوليات الإسلام أشد جشعاً منها .

وقد اتسمت سياستهم بالانانية البالغة ، فهم مثلاً عندما انتقلوا إلى مصر احتفظوا بولاية صقلية ، مع علمهم بأنهم لن يستطيعوا إنجاءها ، فحرموها بذلك من عون بنى زيري وهي امتداد طبيعي لأفريقية . ولولا أن المقادير تداركت صقلية ببنى الحسن الكلابيين ، ابتداء من سنة ٣٤٦ هـ / ٩٥٢ م لضاع أمرها بعد انتقالهم إلى مصر بقليل .

وقد أحج الفاطميون نيران العصبية القبلية في المغرب إلى درجة جعلت هذه القبائل تدخل بعضها مع بعض في حروب إبادة ، بل هرب بعض زعماء الجبر إلى الأندلس ناسجين بأنفسهم من صراع القبيلة في المغرب . وعندما تركوا آل زيري مكانهم عندما رحلوا إلى مصر ، تركوهم غارقين في ثارات القبيلة مما عجل بزوال ملك بنى زيري . وخاصة بعد أن قذفهم الفاطميون ببنى هلال كما سنرى . وما هو إلا قليل حتى انتهى أمر المغرب إلى سلطان قبيلتين من أعنى قبائل الزناتيين وأكثرها إفساداً وهما « مغراوة وبنو يفرن » . ولولا أن الله تدارك المغرب بالمرابطين فالموحدين فإننا يصعب أن نتصور اعتدال ميزان المغرب بعد العاصفة الفاطمية التي كانت أيضاً من أكبر أسباب ضعف دولة الإسلام في الأندلس .

والشيء الوحيد الذي يمكن ذكره للفاطميين في المغرب هو نشاطهم البحري ، فقد كانت أساطيلهم تسيطر بالفعل على مياه الحوض الأوسط للبحر المتوسط . ولكن قوة الفاطميين البحرية لم تظهر بكامل قوتها إلا خلال الفترة المصرية من تاريخهم .

## دولتا بنى زيرى الصنهاجيين فى المغرب الأوسط :

توقيت : (١)

أبو الفتوح ( بلكين ) بن زيرى ٢٦٢ - ٣٧٤ هـ / ٩٧٣ - ٩٨٤ م

أبو الفتوح المنصور بن يوسف ٣٧٤ - ٣٨٦ هـ / ٩٨٤ - ٩٩٦ م

تصير الدولة باديس بن أبى الفتح المنصور

٣٨٦ - ٤٠٦ هـ / ٩٩٦ - ١٠١٥ م

المعز بن باديس بن أبى الفتح المنصور ٤٠٦ - ٤٥٣ هـ / ١٠١٥ - ١٠٦٣ م

تميم بن المعز ٤٥٣ - ٥٠١ هـ / ١٠٦٣ - ١١٠٧ م

يحيى بن تميم بن المعز ٥٠١ - ٥٠٩ هـ / ١١٠٧ - ١١١٦ م

على بن يحيى بن تميم ٥٠٩ - ٥١٥ هـ / ١١١٦ - ١١٢١ م

الحسن بن على ٥١٥ - ٥٤٣ هـ / ١١٢١ - ١١٤٨ م

أبو الفتوح يوسف ( بلكين ) بن زيرى ٣٦٢ - ٣٧٤ هـ / ٩٧٣ - ٩٨٤ م :

تقول الروايات التاريخية التى بين أيدينا إن المعز لدين الله الفاطمى قبل رحيله إلى مصر ، عرض على جعفر بن على بن حمدون الزناتى ، أن يتولى أمور أفريقية والمغرب تابعاً للفاطميين في مصر ، فاشتراط جعفر بن على بن حمدون أن يكون أميراً مستقلاً يتصرف بما يراه دون انتظار رأى المعز ، ويولى القضاة بنفسه ولا يرسل أى مال إلى مصر ، قرفض المعز ذلك ، لأن معناه انفصال ولاية أفريقية عن الفاطميين تماماً واستقلال هذه البلاد بنفسها .

وعقب ذلك استدعى المعز لدين الله بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى وكان من أكابر رجال صنهاجة ، وعرض عليه الولاية ثقيلها بشروط المعز وهى : البقاء

( ١ ) ليس الغرض من إيراد هذه التواريخ حفظها بل الاكتفاء بأهمها والاستعانة بها فى ضبط سير الحوادث .

تابعاً للفاطميين تماماً ، والحكم باسمهم والمحافظة على المذهب الشيعي مذهباً رسمياً في أفريقية والمغرب . ولكنه استعظم المهمة وقال للمعز : « تثبتني يامولاي بغير سيف ولا رمح ! » ويريد بذلك أنه يتوهم تحت حمل المسئولية التي عهد إليه المعز فيها .

وعند هذا أصدر المعز له عهداً بولاية أفريقية وسماه يوسف ولقبه أبا الفتوح . ويقول ابن عذاري<sup>(١)</sup> وابن خلدون<sup>(٢)</sup> وابن الخطيب<sup>(٣)</sup> أن المعز أوصاه وصية قال له فيها : « إن نسيت شيئاً مما أوصيتك به فلا تنس ثلاثة أشياء : لا ترفع الجباية عن أهل البادية ، ولا ترفع السيف عن البربر ، ولا تول أحداً من إخوتك وبنى عمك فإنهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك واستوص بالحق خيراً » .

ونحن نستبعد هذه الحكايات لأن دولة الفاطميين في المغرب قامت على اكتاف الكتاميين الصنهاجيين ، فمن غير المعقول أولاً أن يفكر المعز في أن يعرض الأولياء على زعيم زناتى ، مثل على بن حمدون هو بطبعه عدو للصنهاجيين ، ومن غير المعقول كذلك أن يوصى المعز نائبيه على المغرب بالأمر برفع السيف عن البربر ، لأن ذلك النائب نفسه يبررى .

أما أن يوصيه بالأمر برفع الجباية عن أهل البادية مفهوماً إذا نحن قلنا إن المراد بأهل البادية هم البربر الزناتيون ، وكانت سياسة الدولة الفاطمية تقوم على محاربتهم وإثقالهم بالجبايات حتى يظلوا في فقر ولا يفكروا في الثورة عليها وكذلك يستبعد أن يكون المعز قد أوصى نائبيه بالعناية بالحقير ، والحقير هم أهل المدن ، وأهل المدن لم يكونوا قط من أنصار الفاطميين ، لأنهم ظلوا سنة يناوئون المذهب الشيعي .

وهناك رواية أخرى تقول بأن المعز أوصى نائبيه أبا الفتوح يوسف بن زيري ابن مناد الصنهاجي بأن يواصل حملاته على المغرب الأوسط لحسم دائه ،

(١) ابن عذاري ، البيان المغرب ج ١ ص ٢٦٣

(٢) ابن خلدون ، تاريخ ، ج ٦ ص ٢١٨

(٣) ابن الخطيب ، أعلام الأعلام ص ٩٥ .

والتضاء على النفوذ الأموي فيه . وهذا معقول ، لأن الفاطميين ظلموا طوال تاريخهم أعداء الأمويين الأندلسيين ، خائفين من امتداد نفوذهم إلى المغرب .

وهكذا أصبح أبو الفتوح يوسف ( بلكين ) بن زيري بن مناد الصنهاجي والياً أو أميراً شبه مستقل ، لكل بلاد أفريقية بأقسامها الثلاثة : طرابلس وأفريقية وبلاد الزاب ، وما يفتحه من بلاد المغرب الأوسط .

وللمرة الأولى في التاريخ أصبح رجل من صميم أهل المغرب رئيس دولة إسلامية في بلاده ، وكان عليه بعد ذلك أن يستكمل استقلال هذه الدولة ويهيئ لها أسس النظام والقوة ، وبذلك دخلت تجارب الحكم الإسلامي في المغرب في دور جديد . دور الاستقلال ، فبعد محاولات شتى لحكم البلاد ، قام بها العرب البلديين ثم العرب من ولاة الدولة ، المؤيدون بالجند الرسمي للدولة ( المهالبة ) ثم من العرب البلديين المواليين للدولة العباسية ( الأغالبة ) ، ثم من العرب المؤيدين بقوة عسكرية بربرية ( الفاطميون ) دخلت البلاد الآن في طور الاستقلال ، فإن بنى زيري كانوا بيتاً بربرياً أصيلاً استعرب وبخل في غمار الجماعة الإسلامية العربية الكبرى . وسنرى أن بنى زيري لم يلبثوا أن استقلوا عن الفاطميين وحاولوا النهوض بمسؤوليات الحكم في بلادهم قدر ما استطاعوا ، ولم يكن توفيقهم بالقليل ، ولكنهم عن أي حال كانوا دور انتقال من مرحلة التبعية للمشرق إلى دور الدول المغربية المستقلة الكبرى التي تبدأ بدولة المرابطين .

ويرى ابن خلدون في ذلك انتقالاً للملك والسلطان في المغرب من العرب إلى « أعيان » البربر ، أي زعماء البربر ورؤساء قبائلهم ، الذين استعصى على الدولة الإسلامية العامة ( العباسية ) حكمهم ، فعصوها وأنفردوا بالسلطان في بلادهم ، ومعنى هذا بتعبيرنا اليوم ، أن أفريقية والمغرب استقلا عن المشرق ، وهذه حقيقة ولكن الذي ليس بحقيقة هو محاولة المؤرخين الفرنسيين ، من أمثال هنري فورتل Henri Fourmel في كتابه المسمى « البربر Les Berbères » وجورج مارسيس في كتابه المسمى « بلاد المغرب الشرقية » ( أفريقية والمغرب الأوسط ،

( ١ ) والأعيان : جمع خاص وهو الرجل المغربي بمسما المتأني على الحصر لعرب .

والشرق الإسلامي<sup>(١)</sup> القول بأن هذا الانتقال كان تحقيقاً لأمل البربر القديم في الاستقلال عن العرب ودولتهم .

والهم لدينا أننا الآن أمام أسرة بربرية مستعربة ، تتولى شؤون أفريقية وتطلع إلى سيادة المغرب الأوسط . معنى ذلك في رأينا أن أهل المغرب تدريبوا على يد العرب ، وأخذوا فكرة بناء الدول والنظم السياسية عنهم ، وبدأوا تجربتهم في الحكم الوطني المستقل دون أن يكون ذلك مظهراً لنزوع قومي مغربي نحو الاستقلال عن العرب . كراهة فيهم أو رغبة في الانفصال عن جماعة الإسلام الكبرى .

ولكن ذلك الحكم الذي وصل إليه بيت زيري بن مناد الصنهاجي تؤيده قوات قبائل صنهاجية كبرى ، أثار في المغرب كله نيران العداوة والتنافس العنيف بين الصنهاجيين والزناتيين ، كأنما كان خروج العرب من الميدان إيذاناً ببدء الصراع المريع بين زناتة وصنهاجة على السيادة في المغرب .

وكان أول مظاهر هذا الصراع هو شعور جعفر بن علي بن حمدون الزناتى ، كبير زناتية أفريقيه وشرقي المغرب الأوسط ، بأنه لم يعد آمناً في بلاده ، فراح أفريقية لاجئاً إلى الحكم المستنصر في الأندلس ودخل في خدمته ، ورحب به الحكم المستنصر ، إذ إنه كان عدواً للقاطمين ، وعقب ذلك ثار الزناتيون في أفريقية وانتفض الزناتيون في تاهرت أيضاً ، فسار نحوهم ولكن ( يوسف ) بن زيري لإخضاعهم ، ودخل على تاهرت وخربها ، ثم عاد دون أن يسترسل إلى غزو الزناتيين في المغرب الأقصى ، لأن المعز كان قد نصحه بالابوغل في غزو المغرب .

وفي سنة ٢٦٧ هـ / ٩٧٧ - ٩٧٨م أضاف المعز إلى ولاية يوسف بن زيري ، طرابلس وصرت وأجدابية ، فولى عليها يحيى بن خليفة المنياني ، وهكذا نجد أن ولاية المعز اتسعت في الشرق حتى صارت عند حدود برقة .

ولم يسكت الزناتيين على غزو المغرب الأوسط وتخريب تاهرت ، فسار زعيم زناتى وهو خزرون بن قفل بن خزر الزناتى نحو سلماسة سنة ٢٦٦ هـ /

( ١ ) انظر فهرس المراجع في نهاية الكتاب تحت : George Marçais

٩٧٦ م وقتل أميرها محمد المعز بالله من أولاد الشاهنشاه المندراي ، وكان من أنصار بني زيري ، وأرسل الخبر إلى الخليفة الحكم المستنصر الأموي في قرطبة ، فشجعه هذا على غزو فاس ، فدخلها سنة ٣٦٨ هـ / ٩٧٨ م وبهذا يكون الأمويون القرطبيون وحلفاؤهم الزناتيون ، قد تمكنوا من إثارة المتاعب في وجه بني زيري النابيعين للفاطميين في مصر . ويلاحظ أن الخليفة المستنصر بالله الأموي كان شديد العداء للفاطميين إذ أنه كان يرى في المذهب الشيعي الإسماعيلي الذي تادي به انقاطميون نوعاً من الكفر والخروج على الإسلام ، أي أنه كان يعتبر حربه للفاطميين وأتباعهم جهاداً في سبيل الله . وعندما استولى على السلطان في الأندلس المنصور بن أبي عامر سار في هذه السياسة ، بل اندفع فيها اندفاعاً شديداً .

وراء هذه السياسة الأندلسية الواضحة ، يجد أبو الفتوح يوسف بن زيري يسير لغزو المغرب الأقصى ويدخل فاس ، ويقتحم أصيلاً وشالة على ساحل المحيط الأطلسي .

وتولى أبو الفتوح يوسف بن زيري بن مناد الصنهاجي وهو عاشد إلى أفريقية سنة ٣٧٤ هـ / ٩٨٤ م .

وهكذا نرى كيف أظهر هذا الأمير نشاطاً واسعاً ، وقام بالهمة التي عهد إليه الفاطميون فيها خير قيام ، ولكنه لم يكن في الحقيقة يخدم الخلافة الفاطمية فقط بل كان يثبّت أركان ملكه ويعهد الطريق لاستقلاله بالغرب الإسلامي ، وقد وقع في أثناء ذلك في خطأ كبير وهو إثارة مخاوف الزناتيين ودفعهم إلى الاستعانة بالأمويين في قرطبة .

#### أبو الفتوح المنصور بن يوسف بن زيري بن مناد الصنهاجي

٣٧٤ - ٣٨٦ هـ / ٩٨٤ - ٩٩٦ م :

كان أبو الفتوح المنصور بن أبي الفتوح يوسف بن زيري قبل توليه الإمارة والياً على الزاب وتائباً عن أبيه فيه . وكان أول ما عمله بعد توليته ، أن أقام معه



أبا البهار بن زيري بن مناد عاملاً على المغرب الأوسط وجعل مركزه تاهرت ، وأقام في نفس الوقت أخاه بطوق بن يوسف بن زيري والياً على أشير في المغرب الأوسط ، وأوصاهما بالتعاون معاً على حماية المغرب الأوسط من أي عدوان يحاوله الزناتيين . وكان المنصور بن أبي عامر المستبد يحكم الأندلس باسم خليفته الشرعي هشام المؤيد ابن الحكم المستنصر ، قد أيد زعيماً زناتياً ، هو زيري بن عطية المغراوي الخزري وأعانه على يسطر سلطانه على المغرب الأقصى وجعل عاصمته فاس .

ووجد أبو الفتح المنصور بن يوسف أنه لابد من مواصلة الحرب ضد الزناتيين سادة المغرب الأقصى ، فأرسل أخاه بطوق في جيش كبير نحو فاس واحتلها ، ولكن زيري بن عطية الخزري المغراوي الملقب بالقرطاس ، تصدى له وهزمه في معركة قتل فيها ألف الصنهاجيين ، وكانت هذه آخر محاولة قام بها بنو زيري الصنهاجيين للتدخل في شئون المغرب الأقصى ، فأصبح هذا الأخير تحت سيطرة الزناتيين يؤيدهم الأمويون في الأندلس .

وعندما انشقت جماعة من الزناتيين على زيري بن عطية المغراوي ، وانضمت إلى أبي الفتح المنصور وشجعته على غزو المغرب الأقصى ، لم يستجب لهم بل اكتفى بإقامة كبير هؤلاء الزناتية على طينة في الزاب .

وثار عليه داع شيعي يسمى أبا الفهم الخراساني سنة ٣٧٦ هـ / ٩٨٦ م ولكنه تمكن من التغلب عليه .

ونلاحظ أن دولة بني زيري في أيام أبي الفتح المنصور ثانی أمرائها ، فقدت الكثير من قوتها واقتصرت أمرها على بلاد إفريقية والزاب ، حتى وادي شلف ، أما سيادتها على المغرب الأوسط فكانت اسمية فقط ، ونلاحظ أن ولاية المغرب الأوسط من بني زيري سيستقلون به بعد قليل .

ومن الواضح أن بني زيري ما كانوا ليستطيعوا سيادة بلاد إفريقية ، من حدود مصر إلى وادي شلف والمغرب الأوسط حتى نهر المولوية ، لأنهم كانوا رجال دولة صغيرة محدودة القوى والإمكانات ، وكانت تبعيتهم للقباطيين

تضعف من جانبهم ، لأنها كانت تفرض عليهم المذهب الشيعي ، وكان أهل المغرب ينكرون منه ، يؤيدهم في ذلك الأمويون الأندلسيون .

### نصير الدولة باديس بن أبي الفتح المنصور

٣٨٦-٤٠٦ هـ / ٩٩٦-١٠١٥ م :

لم يطل حكم أبي الفتح المنصور ، إذ أن الموت عاجله وهو في سن الشباب بعد أن حكم اثنتي عشرة سنة هجرية ، وخلفه ابنه باديس الذي تلقب بنصير الدولة وكانت سنة ١٢ سنة ، فقام بالأمر أعمامه وأكبرهم يطوققت بن زيري وإلى تامرت وحماد بن يوسف الذي تولى أشير في المغرب الأوسط أيضاً

ورفض الزناتيون الطاعة للأمير الجديد ، وقامت حروب طويلة بينهم وبين الصنهاجيين أصحاب أفريقية والمغرب الأوسط ، وبعد نحو خمس سنوات من الحروب الدامية ، استقر الأمر بعض الشيء لباديس بن أبي الفتح المنصور في أفريقية سنة ٣٩٦ هـ / ١٠٠٦ م . أما المغرب الأوسط ، فقد تولى أمره حماد بن يوسف بن زيري ، وهو عم باديس ، وخاض حروباً طويلة مع زيري بن عطية المعرأوي شيخ زناتية المغرب الأقصى ، وكان النصر في النهاية لحماد بن يوسف . على زيري بن عطية الزناتى ثم ابنه ماكسن بن زيري . وفي سنة ٣٩٥ هـ / ١٠٠٥ م وجد الزناتيون أنهم لن يستطيعوا مقاومة بني حماد الصنهاجيين إلى مالا نهاية ، بعد أن قتل الصنهاجيون زعيمهم ، ماكسن بن زيري بن عطية ، الذي خلف أباه زيري وولديه محسن وباديس ، في معركة دامية ، فاضطر زاوي بن زيري ( آخر أولاد ماكسن ) إلى الهجرة إلى الأندلس مع ابنه حماسة وحبوس ابني ماكسن ، ودخلوا في خدمة عبيد الملك المظفر بن المنصور بن أبي عامر ، وكان لهم ولبن هاجر معهم دور غير حميد في الفتنة الأندلسية التي وقعت بعد ذلك بقليل .

وكان لانتصار حماد بن زيري على الزناتيين في المغرب الأوسط وتأمينه حدود الدولة الصنهاجية من ناحية المغرب ، أكبر الأثر في تثبيت سلطان بيته في

المغرب الأوسط ، ومع أنه لم يعلن انفصاله عن بني عمه أصحاب أفريقية ، إلا أنه بات من الواضح أنه سائر نحو الاستقلال التام بالمغرب الأوسط عن دولة بني عمه في أفريقية .

وتوفي نصير الدولة باديس سنة ٤٠٦ هـ / ١٠١٥ م بعد حكم قصير غير مستقر ، انقضى في حروب متصلة مع الزناتيين من ناحية ، ومع بني عمه بني حماد أصحاب القلعة من ناحية أخرى .

### المعز بن باديس بن أبي الفتح المنصور بن يوسف بن زيري ٤٠٦ - ٤٥٤ هـ / ١٠١٥ - ١٠٦٢ م :

تولى المعز بعد وفاة أبيه سنة ٤٠٦ هـ - ١٠١٥ م وكانت سنة ثمانى سنوات ، فقام بالأمر من دونه أعمامه ورجال دولته حتى بلغ سن الرشد ، وبدأ يحكم منفرداً حوالي سنة ٤١٦ هـ / ١٠٢٥ م وقد أبدى مهارة كبيرة في إدارة شئون الدولة وخاض جروياً طويلة مع خصومها ، وطال حكمه حتى قارب الخمسين سنة هجرية ، وكان رجلاً واسع الذكاء متجدد النشاط ذا فكر سياسى ناضج مستقل ، ولكن الظروف التي أحاطت بالمغرب الإسلامى كله أثناء حكمه الطويل ، حالت بينه وبين الترقيق الكامل الذى كان يريته ، فتدهورت الدولة وتكثرت وحديثها رغم ما بذل من جهود كبيرة في سبيل الحفاظ عليها ، ولكنه كان ، كما يقول ابن خلدون : « أميراً هماماً حازماً سيئ الطالع فلم يوفق إلى كثير » . ورغم ما أصاب الدولة في أيامه من تصدع ، وما انتهى إليه أمرها في آخر أيامه من انهيار ، فهو يعتبر من أكبر أمراء المسلمين خلال النصف الأول من القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى . وقد اثنى عليه معظم مؤرخينا القدامى وخاصة ابن خلدون .

بدأ المعز ورجاله بمحاولة لحل أكبر مشاكل الدولة إذ ذاك ، وهى القضاء على نزعة الانفصال عند بني حماد . وخاض معهم حروباً طويلة انتصر فيها رجال المعز . وعندما تأكد حماد وبنوه أنهم لا يستطيعون الوقوف طويلاً أمام

المعز ورجاله تقدم حماد يطلب الصلح على أساس أن يكون تابعاً للقيروان .  
وأن يتمتع باستقلال محلي في المغرب الأوسط . وتم الصلح في صفر ٤٠٨ هـ /  
١٠١٧ م ، ونستطيع اعتبار ذلك الصلح بمثابة تاريخ ل ميلاد دولة بني حماد  
المستقلة في المغرب الأوسط .

ومع أن شروط الصلح كانت تنص على ألا يتصرف بنو حماد في شأن من  
شئون بلادهم السياسية والعسكرية إلا بالاتفاق مع المعز ورجاله أصحاب  
السلطان في القيروان ، إلا أن المشاغل الكثيرة التي أحاطت بهؤلاء الآخرين ،  
جعلتهم عاجزين في الواقع عن القيام بأي محاولة جدية لإجبار بني حماد على  
طاعتهم ، ومن ثم فقد اكتفوا بالطاعة الاسمية والتعاون في أثناء الأخطار التي  
تهددهما معاً ، وفيما عدا ذلك فقد سارت كل من الدولتين في طريقها .

وهناك من يرون أن قيام دولة بني حماد أصحاب القلعة ، يعتبر نقطة بداية  
تاريخ المغرب الأوسط ككيان سياسي مستقل داخل الدولة الإسلامية العامة .  
وهذا صحيح إلى حد ما ، وإن كان لابد أن نعود إلى الوراء إلى دولة بني رستم  
الصنهاجيين . لكي نصل إلى البداية السياسية لتاريخ المغرب الأوسط الإسلامي .  
وهو يقابل معظم بلاد الجزائر الحالية

### انفصال دولتي بني زيري عن الفاطميين :

بعد انتقال المعز لدين الله الفاطمي بسنولته وأهل بيته وكبار قواده وجنوده  
ونخائره ، بل برلمات أجداده إلى مصر ، لم يعد لأفريقية في تفكيره السياسي مكان  
كبير رغم أنه لم يتنازل قط عن تبعية هذه البلاد له ، وظل يتمسك دائماً بأن يظهر  
بنو زيري الولاء التام والكمال نحو الخلافة الفاطمية في القاهرة ومذهبها الشيعي  
الإسماعيلي .

ولكن الظروف الجديدة التي أحاطت بدولة الفاطميين في مصر كانت تحول  
بينهم وبين إحكام قبضتهم على أفريقية ، فقد غرقوا في شئون مصر ومشاكلها ،  
وفي خلال القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، كانت مصر تسير — رغم  
التقلبات السياسية الكبيرة التي مرت بها — في الطريق الذي جعلها أوسط هذا  
القرن أضخم وأقوى وحدة سياسية في الشرق الإسلامي كله ، فقد تمتعت البلاد

بأمان كامل من الأخطار الخارجية ، وعلى الرغم من ضعف الدولة العباسية وعجزها عن القيام بشئون دولتها ، إلا أن مصر سارت في طريقها التاريخي الطويل بفضل الطولونيين أولاً ثم الإخشيديين بعد ذلك .

فظهرت من جديد على مسرح التاريخ دولة قائمة بذاتها داخل إطارها الجغرافي الذي عرفها الناس فيه من آلاف السنين ، وانتظمت أمورها الإدارية الداخلية دون هزات أو اضطرابات عنيفة ، وصدق عليها قول ابن حوقل الذي زارها في العصر الفاطمي « ولمصر قانون ونظام ودولة » .

وعندما دخل المعز ورجاله مصر سنة ٣٦٢ هـ / ٩٧٣ م ، وجدوا أنفسهم في بلد هو أضخم وأغنى بكثير مما تصوروا ، وذلك اقتضى منهم جهداً ضخماً في السيطرة على إدارة كبيرة مستقرة الإطار مئات السنين . ثم إن إسلام أهل مصر كان يجتاز مراحله الأخيرة ، وكانت الغالبية العظمى من سكان البلاد تعدت حتى بلاد النوبة ، قد دخلت في الإسلام . وذلك بدوره اقتضى تغييراً شاملاً في إدارة الدولة وسياسة حكمها . وبينما كانت مصر الطولونية مثلاً دولة يغلب على سكانها الدين المسيحي ، ومن ثم فلم تكن بذات وزن كبير في توجيه شئون الدولة الإسلامية ، فإن مصر التي دخلها المعز كانت دولة غالبية أهلها مسلمون مستعربون أو عرب . ونتيجة لذلك بدأت مصر تقوم بدور متزايد في عالم الإسلام . وكان على المعز وخلفائه أن يتولوا توجيه شئون مصر في هذا الدور ، ولكنه لم يحكم مصر إلا أربع سنوات .

وهذا كله جعل من المستحيل على الفاطميين أن يوجهوا الاهتمام اللازم نحو شئون أفريقية والمغرب ، فتخلوا مرغمين عن السلطان الحقيقي عليهما ، واكتفوا من ولائها بالطاعة الرسمية . وفي نفس الوقت أخذ استقلال بنى زيري في أفريقية والمغرب الأوسط يتحول إلى حقيقة واقعة ، ولم يعد من الممكن أن تعود أفريقية والمغرب الأوسط إلى التبعية للمشرق من جديد .

ويذهب بعض المؤرخين الفرنسيين - وخاصة جورج مارسيه - إلى أن ذلك كان نتيجة لتعور البربر من العرب وعدائهم لهم واتجاههم إلى الاستقلال عنهم ،

وهذا غير صحيح لأنه كان في الواقع كما رأينا نتيجة لتطور داخلي طبيعي داخل المغرب الإسلامي نفسه .

فكما استقلت مصر مثلاً عن الخلافة العباسية دون عداء - كان يكته شعب مصر للدولة الإسلامية العامة - بل لأن هذا الاستقلال بطبيعته ، كان لابد أن يتم نتيجة لتطور مصر الداخل - فكذا حدث في أفريقية والمغرب ، لأن اكتمال الإسلام والاستعراب كان في كل مكان الخطوة الحاسمة نحو نضوج الوعي المحلي وظهور الشخصية الإقليمية ثم الاستقلال الحقيقي .

ومثل هذا يقال أيضاً عن انفصال المغرب الأوسط عن أفريقية وقيام دولة مستقلة فيه على يد بني حماد . فلم يكن ذلك راجعاً فحسب إلى قدرة بني حماد وسياستهم ، بل كان النتيجة الطبيعية للتطور الداخل في المغرب الأوسط الإسلامي من أيام بني رستم ، بل من أيام الثورة البربرية الكبرى . وفضل بني حماد يتلخص في أنهم قادوا هذا التطور في مراحله الأخيرة ، وأعطوا استقلال المغرب الأوسط عن أفريقية صورته السياسية المحددة .

أما المغرب الأقصى فقد بدأت عملية الاستقلال تتجلى فيه من أيام قيام الدولة الإدريسية كما رأينا ، ومع أن الإدارة لم يستطعوا السير بعملية الاستقلال إلى نهايتها فسقطوا أخيراً تحت وطأة النزاع الضخم بين الفاطميين الشيعة من المشرق والأمويين السنيين من الشمال ، إلا أن المغرب الأقصى لم يعد بعد ذلك قط إلى التبعية ، لا إلى المشرق ولا لأفريقية والمغرب الأوسط . وكان عليه أن يشق طريقه في عُسر خلال القرن الرابع الهجري ، حتى إذا أمّل القرن الخامس كان النكيان الداخلي للمغرب الأقصى الإسلامي الغربي قد وصل إلى درجة النضوج ، فأخذت شخصيته المستقلة تزداد وضوحاً شيئاً فشيئاً ، حتى أخذت صورتها الجلية على أيدي المرابطين كما سنرى .

وقد تمكن المعز لدين الله الفاطمي من المحافظة على تبعية بني زيري له ، لأنه اتبع معهم سياسة ماهرة تضمن له مظاهر تلك التبعية ، ولا تتعارض مع ما كان بنو زيري يطمعون إليه من الاستقلال في الحقيقة ، ثم إنه كما قلنا لم يحكم في مصر إلا سنوات أربع .

فلما مات المعز وخلفه ابنه العزيز سنة ٣٦٥ هـ / ٩٧٥ م رأى هذا الأخير أن بنى زيرى يتجهون نحو الاستقلال بصورة ظاهرة أيام أبى الفتح المنصور ابن زيرى ، ففكر في أن يضع العراقيل في طريقهم ويعمل على إضعاف بنى زيرى حتى يظلوا دائماً في حاجة إلى تأييد الفاطميين ، فأرسل داعية شيعياً يسمى « أبا الفهم » لى يثير قبائل كتامة على أبى الفتح المنصور وفعلوا انضمت إليه جموع منهم ، ولكن المنصور انتصر عليهم وقتل أبا الفهم ، مما اضطر العزيز إلى العدول عن سياسة التدبير السجىء من وراء ستار ، فعاد إلى مصانعة المنصور ومهادنته ، وكان ذلك سنة ٣٨٨ هـ / ٩٩٨ م أى بعد انتقال الفاطميين من المغرب لقيام الدولة الزيرية بثلاثين سنة .

وعندما تولى الحاكم بأمر الله ، ثالث خلفاء الفاطميين في مصر ، كان عرش بنى زيرى قد انتقل إلى نصير الدولة باديس ، وهو أيضاً ثالث بنى زيرى على أفريقية . فأراد الحاكم بأمر الله أن يختير قوة تصير الدولة ، فأرسل إلى واليه على برقة ( وكانت جزءاً من مصر ) يأمره بالاستيلاء على طرابلس ( وكانت جزءاً من ولاية أفريقية والمغرب ) وبالفعل استولى على برقة على طرابلس ، ولكن نصير الدولة باديس هزمه وأخرجته من البلاد ، وعاد الحاكم فحاول أن يعطى طرابلس للزناتيين أعداء الصنهاجيين ، فعهد إلى فلفل بن سعيد المقرائى الزناتى في دخول طرابلس وحكمها ، ولكن نصير الدولة باديس تمكن من القضاء عليه وعلى أخيه من بعده ، وهنا تجد الخليفة الحاكم يعود إلى مصانعة باديس واسترضائه بالهدوء .

ولكن الأمر تغير عندما تولى الأمير المعز بن باديس في ذي الحجة ٤٠٦ هـ / مايو ١٠١٦ م وكان المعز كما قلنا أميراً قوياً ، اتجه منذ بلغ سن الرشد إلى تولى الحكم بنفسه ، ولم يخف نزوعه إلى الاستقلال عن الفاطميين وإلغاء المذهب الشيعى في المغرب جملة . وقد تم له ذلك ، بعد تطورات كثيرة في سنة ٤٠٤ هـ / ١٠١٤ م ، فأعلن المعز بن باديس في القيروان عودته إلى المذهب السننى المالكي . ورحب شعب القيروان بذلك ترحيباً شديداً ، حتى قامت ثورة على من كان في القيروان من الشيعة . وعلى أثر ذلك بعث المعز إلى الخليفة العباسى القائم

بأمر الله ، يطلب منه عهداً بتوليته على أفريقية والمغرب ، فأرسل إليه الخليفة رنيات سوداً وخلعاً سوداً ، وعهداً بالولاية . وهكذا انفصلت دولة بنى زيري وبلاد أفريقية والمغرب عن مصر والمشرق كما قلنا ، وسار ذلك الجناح الغربى لدولة الإسلام في طريقه من ذلك الحين .

### دخول العرب الهلالية بلاد المغرب :

ينحدر بنو هلال بن عامر بن صعصعة وأبناء عمومته بنو سليم بن منصور من قيس عيلان بن مضر ، ولكنهم كانوا يختلفون في طبيعتهم وأخلاقهم عن أجدادهم هوازن بن منصور بن قيس عيلان بن مضر ، الذين كانوا من أعظم قبائل العرب وأقوامها وأبعدها أثراً في الفتوح الإسلامية أيام الخلفاء الراشدين ثم الأمويين .

وبنو هلال وبنو سليم الذين تحدث عنهم يدخلون فيعين يسميهم ابن خلدون بحرب الجيل الرابع أو العرب المستعجمة ، الذين فقدوا خلق العرب الأول ، ولم يقد لهم من القوة والقدرة وسلامة العنصر ، ما يمكنهم من منافسة المتغلبين على الدولة من الفرس كالبويهيين والترك والغز والسلاجقة ومن جاء بعدهم . ولهذا فقد انسحبت بقاياهم إلى شبه الجزيرة ووسطها ، وهناك عاشوا على هامش مناطق الحضر والاستقرار دون أن يؤذن لهم في دخولها وسكنائها ، وقست عليهم النول فأنحصروا في صحرائهم ، وهناك اشتد بهم الفقر ، واعتمدوا في معاشهم على الغارات يشنونها على الحجاز وأطراف الشام والعراق . وبلغ من شدة عوزهم أنهم كانوا يهاجمون قوافل الحج وينهبونها . حتى ساءت سمعتهم وهبط قدرهم وأصبحوا كما يقول ابن خلدون : « خولاً واتباعاً للدول وشرّاً وبلاء على الحضر »

إلى جانب ذلك فقد أولئك العرب فصاحة العرب وسلامة اللغة . وسدّت لغتهم واستعجمت ألسنتهم إلى ما يشبه لهجات البدو في بعض نواحي جزيرة العرب اليوم ، وشابت لغاتهم ألفاظاً وعبارات أعجمية ، فاستعجمت ألسنتهم ، ولهذا يسميهم ابن خلدون بالعرب المستعجمة



وعندما قامت حركة القرامطة انضم إليها بنو سليم مع نفر من بنى ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن ودخلوا بجيوشهم في عمان والبحرين . واشتركوا في الحرب ضد الفاطميين في الشام ومصر والحجاز . وعندما تغلب المعز لدين الله على القرامطة وأرغمهم على الارتداد إلى البحرين انفصل بنو هلال وبنو سليم عنهم ومالوا إلى الفاطميين ، فنقلهم العزيز بالله الفاطمي إلى صعيد مصر ، وأسكنهم الضفة الشرقية من النيل واشترط عليهم ألا يعبروا إلى الضفة الغربية ، وكان هدفه من ذلك الحيلولة بينهم وبين الانضمام إلى أعداء الفاطميين في المغرب . فاقام من بنى هلال وبنى سليم في الصعيد الأعلى ، وأدوا الفلاحين إيذاء شديداً . فأساء بنو سليم فقد اندمج الكثيرون منهم في كتلة السكان في الصعيد ، وأما بنو هلال فقد ظلوا بدوياً ، ومن أكبر قبائلهم « جشم والأشبح وزغبة ورياح وربيعة وعدى والزواودة » .

وفي عهد الخليفة المستنصر الفاطمي ، وقعت الحروب بين هذه القبائل بعضها وبعض ، « وعُمَّ ضرورهم وأحرق البلاد والدولة ضرورهم » كما يقول ابن خلدون<sup>(١)</sup> وأصبحوا مشكلة كبيرة للحكم الفاطمي في مصر .

في ذلك الحين كان المعز بن باديس قد أعلن استقلاله عن الفاطميين وعاد إلى المذهب السني ودخل في طاعة الخليفة العباسي ، وكانت الدولة الفاطمية عاجزة عن اتخاذ أي إجراء ضده . وهنا خطرت ببال الوزير الفاطمي أبي محمد الحسن ابن علي اليازوري فكرة إقطاع بنى هلال وبنى سليم بلاد أفريقية والمغرب ونقلهم إليها ، وكان رايه أنه إذا تمكن الهلاليون من القضاء على دولة بنى زيري ، كان ذلك خيراً للدولة الفاطمية ، فإن استقلال بنى زيري وعمودتهم إلى مذهب السنة كان يؤرق بال الخليفة الفاطمي ورجاله ، فإذا حدث العكس وقضى بنو زيري عن بنى هلال كان هذا خلاصاً من هؤلاء دون أن تخسر الدولة شيئاً ، ولم يفكر هذا الوزير الفاطمي فيما يمكن أن يلحقه بنو هلال من الضرر بأفريقية وأهلها .

(١) ابن خلدون - المعز - ج ٦ ص ٣٠ .

ومع أن العرب الذين دخلوا مصر واستقروا فيها كانت غالبيتهم من بنى سليم ، فإن اسم بنى هلال غلب عليهم جميعاً . لأنهم كانوا أوغل في البداوة واعتكف من بنى سليم في معاملة الناس وإنزال الضرر بهم ، فأصبح الكل يسيرون إلى هلال بن عامر بن صعصعة ويسموا هلالين ، أو هلالية

وهكذا انتقل بنو هلال هؤلاء ، بجمعهم إلى الغرب واتجهوا نحو برقة . وكان الخليفة الفاطمي قد أقطعهم أفريقية والمغرب وأعطاهم ما سماه « ملك المعز بن بلقين الصنهاجي العبد الأبقى فلا تفتقروا بعد ذلك » .

وصل بنو هلال إلى برقة سنة ٤٤٣ هـ / ١٠٥١ م وجدوها خالية من السكان تقريباً بسبب الحروب الطويلة التي كانت بين أهلها من زناتة وقسوات بنى زيري الصنهاجيين ، فاستقر فيها نفر من بنى سليم في برقة وانطلقت بقية بنى هلال إلى طرابلس وأفريقية ، فاستقروا فيها دون أن يلقوا مقاومة ، وأرسلوا إلى بقية بنى عمومته في الصعيد يستدعونهم ، فلحقت بهم جماعات كبيرة من بنى هلال وبنى سليم وتولى قيادة الجميع يحيى الرياحي شيخ بنى رياح ، أحد فرود بنى هلال ، وكان رئيساً يدوياً شجاعاً مغامراً ، وكان له سلطان كبير على رجاله فلما استقر في طرابلس أصبح سيد هذا الإقليم الواسع ، وأنعقدت له رئاسة بنى هلال وبنى سليم في انتقالهم إلى أفريقية وثروغهم في أراضى بنى زيري بن مناد الصنهاجيين . ويضعف تقديرو عدد بنى هلال وبنى سليم الذين دخلوا المغرب ، ولكن الأغلب أن الكتلة الأولى التي هاجرت منهم كانت حوالي ٥٠,٠٠٠ فرد ، ثم تلاحقت بهم بعد ذلك جماعات أخرى على أمد طويل . ويقدر مجموع الذين دخلوا المغرب منهم بمائة ألف ، بما في ذلك النساء والصغار .

### تغريبة بنى هلال ونشوء ملحمة أبي زيد الهلالي :

وقد سميت هجرة بنى هلال هؤلاء إلى المغرب بالغزوة الهلالية أو تغريبة بنى هلال أو « التغريبة » فقط ، وقد دارت بينهم وبين الزناتيين في طرابلس أول الأمر ، معارك طويلة مليئة بالمغامرات والوقائع ، وكانت أخبار هذه الوقائع تصل إلى الباقيين منهم في مصر ، فينظمها شعراؤهم في صورة قصص شعبية عربية مصرية . عُرفت فيما بعد بقصة الهلالية ، وبطل القصة يسمى « أبو زيد الهلالي » ،

أما خصمه فيسمى خليفة الزناتى أو الزناتى خليفة . وهذه الملحمة تعتبر من أشهر آثار الأدب الشعبي العربى وإن لم تكن من أكثرها جمالا . ولكنها تعان بطابع شعبى خالص يجعلها شيئا فريداً فى الأدب العربى كله . ومن نماذج شعرها قول بدر الهلالى يخاطب بواب قصر شكر صاحب مكة وزوج الجازية بطلة القصة ، ويرجوه أن يفتح له باب مكة ليزور قبر النبي ﷺ .

أنا أول كلامي فخذت الثماني نطقت الفلماني لله الحج راح  
 يا رب الزوره واتل بنزوره وأشاهد قبوره وتلك النواحي  
 وأقول يا حبيبى يا مسكى وطيبى مدحك من نصيبى مسا مع صباح  
 لك يوم الهجرى غمامة تسرى وانت البشري بكل الصلاح  
 يا بواب افتح لي الباب المصنوع من دخله يريح وينال القصلاح

وقصة بنى هلال فى الأدب تختلف من وقائع التاريخ اختلافاً بيناً . فهى أشبه بالصدى البعيد لحوادث التاريخ ، مثلها فى ذلك مثل كل الملاحم الشعبية مثل «أنشودة رولان» و « قصيدة السيد » . فالقصة الأدبية تدور حول فتاة جميلة من بنى هلال عشقها فتى من أقاربها ، وأراد الزواج منها ، فلم يرض أهلها عن الزواج بعد تمامه ، واحتالوا على الفتاة وأسماها الجازية ، ومضوا بها إلى المغرب بعد أن خدعوا صاحبها . وفى المغرب زوجها من ابن عمها ، ولكن قلبها ظل معلقاً بزوجها الأول حتى ماتت ، ومات هو أيضاً هياماً بها بعد حرمانه منها . وتدور القصة بعد ذلك على محور الصراع بين قبائل بنى هلال بعضهم وبعض ، وما وقع لهم من الحروب فى المغرب ، وكلها تبدو للقارئ وكأنها أضغاث أحلام تضم بعض لمحات من الجمال الشعرى والقصى

استقر بنو هلال فى برقة وخربوا مدنها مثل المدينة الحمراء ( برقة ) وأجادية وامتد أناهم إلى طرابلس وفزان ، وانتهى الأمر بأن سادوا معظم سكان هذه النواحي واختلطوا بهم .

وأما بنو هلال فساروا في جموعهم إلى أفريقية ، كالجراد المنتشر لا يمحون على شيء إلا أتوا عليه ، كما يقول ابن خلدون<sup>(١)</sup> .

ويسرف ابن خلدون في تفصيل ما أنزله للهلالية في أفريقية والمغرب من خراب . والحق أن بنى هلال ومن دخل معهم من العرب ، يختلفون كل الاختلاف عن عرقنا من عرب الأجيال الأولى ، التي قامت بالفتوح الإسلامية المجيدة ، لأن بنى هلال لم يكونوا جيوشاً نظامية ، ذات هدف ديني أو قومي معنوي واضح ، كما رأينا في فتوح العرب الأولى ، وإنما كانوا بدواً ظلوا طوال تاريخهم بدواً ، ولم يغيروا طبعهم البدوي أبداً ، لأن طول إقامتهم في البوادي وقوة الدول عليهم وإخراجها إياهم من كل نطاق حضاري ، جعلتهم بدواً من قمة رأسهم إلى أخمص قدمهم ، فهم يتحركون ويتصرفون جماعياً . ويطلعون رؤس القبيلة ولا يعرفون رئيساً غيره ، ولا يرون في العمران إلا مجالاً للغارة والنهب ، وهم يعيرون على المزارع والمنشآت دون أن يتنبهوا إلى أهميتها وقيمتها ، بل يسعدون بأن يصيبوا منها ما يقدرون عليه وينشرون فيها فساداً ، فهم يقتلعون الأبواب ويستعملون أخشابها وقوداً للنار - ويملقون قملها - عانهم في المزارع تأكل الحاصلات دون تفكير ، ولا يعتززون إلا بشيء واحد ، العصبية ، فهم يتعصبون لقبائلهم أكثر مما يتعصبون لأي شيء آخر .

هذا كله غاب عن خاطر المهز بين ياديس الذي تصور أنه يستطيع الاستعانة بالهلالية على بعض خصومه من صنهاجة ، وتصور أنه يستطيع اخذهم جنداً ويستغني بهم عن الكتامين وغيرهم ، ولهذا رغب بمؤنس بن يحيى الرياحي ، دعاه إلى الرقود عليه بقومه ، فكان في ذلك مستجيراً من الرمضاء بالنار . ذلك أن مؤنساً وقومه عندما دخلوا أفريقية أقنعوا المعز فزعماً شديداً إذ رآهم يحربون ويحرقون وينسفون المزارع ، دون أدنى تفكير . فسارع إلى القبض على مؤنس الرياحي ، وكان يقيم في القيروان وطلب إليه أن يخرج قومه من بلاده ولكن الأمان كان قد فات ، لقد دخل بنو هلال بلاد أفريقية وأنشروا أظفارهم فيها ولن يستطيع هو أو قومه إنقاذها منهم .

(١) ابن خلدون ، المغرب - ج ٤ ص ١٢١ .

واستنجد المعز بباين عمه حماد صاحب القلعة ، فأتجه بألف فارس واستصرخ زناتة فأقبل إليه المستنصر بن خزرون بألف فارس من زناتة . وجمع هو جنده وانضم إليه بقايا العرب البليدين وهم عرب الفتح ، ولكن هؤلاء تخلوا عنه وانضموا للهلالية عندما دارت المعركة .

دارت المعركة بين أهل أفريقية ، يتزعمهم المعز بن باديس والعرب الهلالية ، عند مكان يسمى « حيدران » قرب قابس في ذي الحجة ٤٤٣ هـ / أبريل ١٠٥٦ م وكان المتوقع أن ينتصر المعز نظراً لضخامة جيشه وجودة سلاحه وكثرة خيله وكانت غالبية الهلالية في هذه المعركة من بنى رياح وعدى من بطون الهلالية ، ولكن انفصال العرب البليدين عن جيش المعز أضعف صفوفه وجُرَّ عليه الهزيمة . فقضى الهلاليون على جيشه تماماً . فتراجع وتحصَّن في القيروان وأقبل العرب يحاصرونه فيها .

وعبثاً حاول المعز أن يصدهم عنها ، بل ذهب إلى حد أن صاهر ثلاثة من أمرائهم دون جدوى ، وأخيراً اضطر إلى الانسحاب بجنده وذخائره إلى المهدية ، وهي القلعة التي كان الفاطميون قد بنوها على الساحل ، في طرف لسان بارز في البحر إلى شمال سوسة . وفي رمضان سنة ٤٤٦ هـ / ديسمبر ١٠٥٤ م ، دخل الهلاليون القيروان وخرّبوها تماماً كما خربوا قبل ذلك كل ما مروا به من مدن طرابلس وأفريقية وجعلوها حطاماً ، وقتلوا من أهلها من قسّروا عليه وتفرق الباقون فعمَّ الخراب البلاد .

وقضى المعز السنوات الأخيرة من حكمه سجيناً في المهدية وشريط من الأرض حولها ، حتى توفي سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٣ م بعد أن رأى بعينه خراب بلاده . وخلفه ابنه تميم الذي اقتصرت دولته على المهدية وأجوازها وصفاقس وقابس وجزيرة جربة .

وتعتبر هذه نهاية بنى زيري في أفريقية ، رغم أن تميم بن المعز ظل يحتفظ بالمساحة التي ذكرناها من أرض أفريقية ، أما الباقي فقد تقاسمه الهلاليون وبعض زعماء زناتة وصنهاجة ، وانقسمت البلاد إلى إقطاعيات صغيرة وضاعت وحدتها .

وهذا هو الذى أطلع النورمان فى سواحل أفريقية ، وكانوا قد غزوا صقلية فى ذلك الحين ، ثم لم يلبثوا أن تطلعوا إلى سيادة أفريقية .

سقطت صقلية فى يد روجر الأول النورمندى بعد حرب قصيرة بدأت سنة ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ م وانتهت فعلاً سنة ٤٦٤ هـ / ١٠٧١ م بعد أن خرج آخر المدافعين عنها وهو ابن الحواس بأهله وماله إلى أفريقية . وقد ظلت « فصرانة » تدافع عن نفسها ثلاث سنوات بعد ذلك ، ثم استسلمت وفى سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩٢ م سقطت بلرم ، فانتهى أمر المسلمين فى صقلية من الناحية السياسية .

وقد طاشت الحروب بين تميم بن المعز والنورمان فى البر والبحر ، ونقلت علاقاته معهم بين صلح وحرب ، وبعد وفاة تميم بن المعز جاء ابنه على بن تميم ابن المعز ، وبدأ يوضح أن النورمان سيشتمكون من الاستيلاء على المهدية ، فاستنجد بالمرابطين ، وكانت دولتهم قد قامت فى المغرب الأقصى ، وبالفعل قام أسطول مرابطى بغزو صقلية والاستيلاء على مدينة « نقوطرة » سنة ٥١٦ هـ / ١١٢٢ م .

وبعد انصراف المرابطين جمع « روجر » أو « رجار » أسطولاً ضخماً وأعلن على المهدية حروباً صليبية . وعجز الحسن بن على بن تميم بن المعز عن الدفاع عن بلاده ، فسقطت المهدية سنة ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م ، وكذلك كل مدن ساجل أفريقية وطرابلس فى يد النورمان .

وظل الحال كذلك حتى تمكن الموحدين من طردهم وتخليص البلاد منهم .

### نهاية دولة بنى حماد أصحاب القلعة :

توقفت :

حماد بن يوسف ( بلكين ) بن زيرى ١٤٩ - ٤٤٦ هـ / ١٠٢٨ - ١٠٥٤ م

القائد بن حماد ٤٤٦ - ٤٤٧ هـ / ١٠٥٤ - ١٠٥٥ م

محسن بن القائد ٤٤٧ - ٤٥٤ هـ / ١٠٦٣ - ١٠٥٥ م

بلكين بن محمد بن حماد ٤٥٤ - ٤٨١ هـ / ١٠٦٢ - ١٠٨٨ م

الناصر بن علناس	٤٩٨-٤٨٨ هـ / ١١٠٤-١٠٨٨ م
المنصور بن الناصر	٤٩٨-٥٠٠ هـ / ١١٠٤-١١٠٦ م
باديس بن المنصور	٥٠٠-٥١٥ هـ / ١١٠٦-١١٢١ م
العزیز بن المنصور	٥١٥-٥٤٧ هـ / ١١٢١-١١٥٢ م

ذكرنا كيف انقسمت دولة بني زيري إلى دولتين ، إحداهما في أفريقية وعن رأسها بنو زيري بن مناد الصنهاجي الذين رأينا نهايتهم . والأخرى في المغرب الأوسط يتولاها بنو حماد أبناء عمومة بني زيري . وقد اتخذ بنو حماد مدينة أشير عاصمة لهم ثم ابتتوا إلى جنوبيها قلعة ضخمة أشبه بالمدينة الصغيرة عرفت بقلعة بني حماد ، وكانت هذه القلعة هي حصن أمراء بني حماد ، الذي ياجئون إليه وقت الخطر ، كما كان الحال مع المهدي بالنسبة للفاطميين وبني زيري والقصر القديم بالنسبة للأغالبة والمنصورية بالنسبة للفاطميين في أخريات أيامهم في أفريقية ، وبلغ من ضخامة قلعة بني حماد أن نسبوا إليها وأصبح اسمهم في الكثير من كتب التأريخ بني حماد أصحاب القلعة .

وقلعة بني حماد تعتبر من أعظم القلاع التي أنشأها المسلمون في تاريخهم وهي تقارن بقلعة حصن الأكراد في الشام ، التي بناها الصليبيون في الشام وأستولى عليها صلاح الدين ، وقلعة صلاح الدين في القاهرة . فهي في الحقيقة مدينة كاملة ذات أحياء ومساجد تتوسطها قسبة ، أي حصن منيع داخل ، ومازالت بقاياها قائمة في بلاد الجزائر إلى اليوم .

ومن الملاحظ أن ظروف المقلق وعدم الاستقرار التي عرفتها أفريقية منذ قيام الثورة المغربية الكبرى في النصف الأول من القرن الهجري الثاني ، جعلت الدول التي قامت هناك لا تعتمد على القبائل أو سلطة الدولة بقدر اعتمادها على الحصون والحدود الموزقة والسلاح .

وعندما ضاقت أشير عن أن تكون عاصمة دولة كبيرة بعض الشيء ، انتقل الأمير الناصر بن علناس بن حماد إلى مدينة بجاية سنة ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م بعد أن أعاد بناءها وجعلها عاصمة دولته .

كان حماد بن يوسف بن يلكين بن زيري ، أول أمراء هذه الأسرة ، وقد نجح في مد سلطانته حتى ساد المغرب الأوسط كله من نهر شلف إلى نهر المولوية . وكان المعز بن باديس قد اضطر قبل ذلك إلى الاعتراف بأبن عمه حماد أميراً مستقلاً على المغرب الأوسط سنة ٤٠٦ هـ / ١٠١٥ م .

وفي سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م صار عرش دولة بني حماد إلى الناصر بن علناس بن حماد وهو أعظم أمراء هذه الأسرة ، وقد اتخذ بجاية عاصمة له كما قلنا وانتقل إليها سنة ٤٦٦ هـ / ١٠٦٩ م وظل يحكم المغرب الأوسط حتى سنة ٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م .

وخلفه ابنه المنصور الذي بلغت الدولة أوجها في عصره . وقد عني المنصور ابن الناصر بن علناس بالمنشآت والقصور . وفي أيامه أصبحت بجاية أعظم مدن أفريقية والمغرب الأوسط وأوسعها عمراناً .

وكان آخر أمراء هذه الدولة هو يحيى بن العزيز بن المنصور بن الناصر ابن علناس . وكان العرب الهلاليون قد دخلوا المغرب الأوسط وقضوا على عمرانته ولم يستطع هذا الأمير إعادة الدولة إلى ما كانت عليه . وأخيراً تمكن عبد المؤمن بن علي ، أول خلفاء الموحدين ، من دخول بجاية سنة ٥٤٧ هـ / ١١٥٢ م ، وهكذا انتهت دولة بني حماد . وبعد ثماني سنوات ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م دخل عبد المؤمن ابن علي أفريقية واستعاد المهدية من النورمان ، وامتد ملكه إلى طرابلس وهكذا ترحل المغرب كله من طرابلس إلى المحيط الأطلسي على يد الموحدين .

### دولتنا بنى زيري في الميزان :

تعتبر دولة بنى زيري في أفريقية وفرعها دولة بنى حماد في المغرب الأوسط ، من صفار دول المغرب ، فقد ظلنا أمداً طويلاً تابعين للفاطميين حتى قام المعز ابن باديس بالاستقلال عنهم .

ودولة بنى زيري أول دولة مغربية خالصة يقيمها الزبير الذين تم استعراهم ، وأصبحوا عضواً أساسياً في جماعة العربوية والإسلام . وقد رأينا أن



أمراء هذه الدولة بذلوا جهداً مشكوراً في تنظيم البلاد وحكمها وإن شابته حكمهم قسوة وعنف ، سواء مع رعاياهم أو خصومهم . وكان فيهم ميل إلى الترف والبذخ ، ولكن ذلك كان على صورة بدوية ساذجة ، وقد أنفقوا في ذلك الترف الساذج أموالاً طائلة ، ونفروا بجقوتهم وقسوتهم الكثير من القبائل ، وقد استنفدوا قواهم في حروب عقيمة على مدى قصير ثم ظلت دولتاها تحتضران بعد ذلك ، ومهما كان الأمر فلم يكن بنو زيرى وأبناء عمومتهم بنو حماد أسوأ بكثير من غيرهم من أصحاب الدول في القرن الرابع الهجري وما يليه ، فقد تقسم العالم الإسلامي ، فيما عدا الأندلس ، كله إلى دويلات صغيرة يحكمها مستبدون بالأمر يهجمون على السلطة وينتزعونها انتزاعاً دون حق ، ويحكمون بقوة جنود مرتزقين يشترئونهم بالمال ويسلطونهم على الناس ، ووسط هؤلاء العتاة والمستبدين الذين تقاسموا عالم الإسلام فيما بينهم ، من حدود الصين إلى حدود الأندلس ، يعتبر بنو زيرى وبنو حماد من أفضل هؤلاء الحكام وأكثرهم حرصاً على راحة رعاياهم ومصالح بلادهم . ويلاحظ أنهم على الجملة كانوا حريصين على إقامة العدالة في بلادهم ، ولم ينصرفوا إلى اللهو والعبث انصرافاً شائناً كما نرى عند الكثيرين من أمراء هذه العصور ، وإذا كانوا لم يوقفوا في الوصول ببلادهم إلى أحسن مما استطاعوا ، فإن الذنب كله لم يكن ذنبهم ، وإنما يرجع ذلك إلى قلة نصيبهم من الحضارة والتثقيف فقد كانوا رؤساء قبليين في شباب أمراء ، ولكنهم كانوا ذوي بسالة وهمة . وقد بذلوا أقصى ما في قدرتهم ، ثم إن بلادهم كانت فقيرة ، وكانت تحتاج إلى سنوات طويلة من الهدوء لتستعيد عمرانها بعد الفتن التي مرت بها . فلما وصلت الدولتان إلى الاستقرار المنشود ، أيام المعز ابن باديس وابنه تميم بن المعز في أفريقية والناصر بن علناس في المغرب الأوسط ، جاءت الغزوة الليالية فكانت عاصفة قوضت دعائم الدولتين جميعاً .

بل إننا نلاحظ أن بنى زيرى وبنى حماد كانوا أحرص على التمسك بالدين واحترام رعاياهم أكثر مما فعلت دولة الفاطميين نفسها . وقد نهج بنو زيرى سياسة مغربية واضحة ، فلم يكن لهم اهتمام شديد بما كان يجري في المشرق ، بل انصرفوا إلى محاربة زنادة وحاولوا حماية بلادهم من الأمويين في الأندلس .

وكانت الدولتان تجربتين موفقتين للحكم المحل في المغرب ، وهما خطوة بين أفريقية التابعة للمشرق وأفريقية والمغرب الأيسر القائمين بأمر بلادهما دون تبعية أو سند خارجي . ولا شك في أن المعز بن باديس والناصر بن علناس يعتبران من عظام أمراء العالم الإسلامي في عصرهما ، وقد ساعدت سياستهما على إظهار شخصية المغرب الإسلامي وإعطائها ملامحها المميزة وسط بلاد العالم الإسلامي .

وقد قامت دولة بني زيري بدور كبير في تاريخ البحر المتوسط ، فقد وقعت في وجه النورمان وحدها زمناً طويلاً ، وكان المعز بن باديس وتميم بن المعز موضع احترام ملوك النورمان ، وكذلك كان الناصر بن علناس أمير دولة بني حماد أصحاب القلعة ، يُدعى له « روجر » ملك صقلية النورمانية ، ولم يضعف أمر بني زيري أمام النورمان إلا بعد أن حطمت الغزوة الهلالية قواهم واستولى الأعراب على معظم بلادهم فأصبحت دولتهما صغرتين ضعيفتين . ومع ذلك فقد كان نشاطهما البحري عظيماً .

وقد ضاعت صقلية من أيدي المسلمين أيام بني زيري ، ولكنهم لم يكونوا مسئولين عن ذلك ، بل تقع المسؤولية على الفاطميين الذين احتفظوا بصقلية تابعة لهم يعد انتقالهم إلى مصر ، وكانوا يعرفون أنهم لن يستطيعوا من هناك القيام بما كانت حماية صقلية تتطلبه ، ولكن اتانيتهم أثبت إلا أن تفصل صقلية عن أفريقية ، التي كانت البلاد الإسلامي الوحيد الذي يستطيع إنجاء صقلية ، وهكذا ضاع قطر إسلامي ( هو صقلية ) بسبب اثنائية الفاطميين .

### الرأي في الغزوة الهلالية :

رأينا أن عرب بني هلال وبني سليم ، ومن انضم إليهم من عرب الجيل الرابع من قيس عيلان ، أنزلوا بأفريقية والمغرب الأوسط خراباً بالغاً كان له أبعد الأثر في تاريخ البلاد ، وشرحنا أسباب الأعمال الهمجية التي قام بها أولئك الناس ، وجعلنا مع دخولهم البلاد ، نكبة كبرى على تاريخها . بل يبلغ الأمر أننا في تاريخنا للمغرب نقول : إن غزوة بني هلال تعتبر الخراب الأكبر للمغرب ، فقد

قضت على عمرائه وعلى جهود الدول الماضية في بناء حضارته ، فكان على أهله أن يعدوا إنشاءها من جديد

ولكن بنى هلال أدوا مع ذلك خدمة كبرى بالنسبة لعروبة المغرب ، فقد أضعفت جموعهم قوى تلك القبائل الزناتية ، التي كانت تحاول سيادة المغرب بالقوة والعنف وتخريب أعمال الدول المستقرة بصورة مستمرة ، ثم إن الهلاليين انتشروا في كل ناحية في البلاد الممتدة إلى أحواز المغرب الأقصى ، وسكنوا السهول والجبال والسواحل وصافروا الناس فكان عملهم هذا إكتمالاً لتخريب المغرب ، فتحولت بلاد الجريد في تونس وبلاد المغرب الأوسط ( الجزائر الحالية ) إلى بلاد عربية إسلامية خالصة تتكلم العربية وتحس بأنها جزء من العالم العربي . ولولا الهلاليون لما صار المغرب عربياً على الصورة التي نراها الآن .

لم تكن الغزوة الهلالية إذن شرّاً خالصاً ، بل كانت شرّاً تأتى عنه خير كثير وإن كنا نفخر اليوم بالمغرب العربي ، فإن الفضل في ذلك يرجع إلى أولئك البدو الذين عاشوا وانتهوا بدواً مخربين ، ولم يتعلموا قط الانتظام في دول أو احترام مظاهر العمران . ومن الأسف أن ابن خلدون عندما تحدث عن العرب في مقدمته كان متأثراً في كلامه وأحكامه بما فعله الهلاليون في المغرب ، فجاءت صورة العرب في المقدمة قائمة جداً .

لقد غرّب بنو هلال التكوين البشري لأفريقية والمغرب الأوسط ثم المغرب الأقصى فيما بعد ، فأصبحت العروبة أغلب عليهم من البربرية . ولقد أباد أولئك الهلاليون قبائل كثيرة ، ودفعوا قبائل أخرى إلى الهرب أمامها نحو المغرب ، فحلت بلاد الجريد وقسطنطينة والزاب في أفريقية من أهلها الأولين ونزلتها بطون الهلالية وتكاثرت فيها ، وشيئاً فشيئاً ثاب إليها أهلها من البربر أو من بقى منهم واختلط الشعبان اختلاطاً تاماً ، فأصبح الغرب من أكبر بلاد العروبة وأعمتها إسلاماً .

وهكذا نرى كيف كانت عوامل كثيرة تعمل على تعريب المغرب وإدماجه في الكتلة العربية ، فبعد جهود العرب الأول وصراعهم مع البربر وتحويلهم أفريقية

إلى بلاد عربية الحضارة واللسان داخلة في عالم السنة والجماعة . جاء الادارسة  
فنثروا في أرض المغرب الأقصى بذور عروبة طيبة ، ثم أتى الهلاليون من المشرق  
فبذروا بذوراً أخرى لم تثبت أن تثمر ثم أيزعت ، وإلى جانب ذلك كان مهاجرة  
الأندلسيين يُقبلون إلى المغرب ، حاملين علماً كثيراً يشوه في نواحي المغرب كلها .  
وعندما تقوم دولة المرابطين تكون الأرض قد تمهدت لقيام الدولة العربية المغربية  
الكبرى .



## دولة المرابطين

رغم ما انتهت إليه تجربة دولة الأدارسة من توفيق يقل كثيراً عما كان ينتظر لها ، ورغم ما بذلته القبائل المؤيدة لها من جهود في توحيد أكبر قسم من المغرب الأقصى تحت لواء دولة إسلامية قوية ، تقوم على مذهب السنة والجماعة ، فإن توفيقها السياسي كان قصير العمر ، نظراً لقلة الخبرة السياسية التي أتتحت للكثيرين من قادتها من ناحية ، ثم لأن الظروف التاريخية غير الحواتية وضعتها في موضع الصراع بين الفاطميين الإسماعيليين والمروانيين الأندلسيين السنيين . ومع ذلك فقد رأينا أن التوفيق الحضاري للأدارسة كان كبيراً جداً ، فقد ضمن لهم نسبهم الشريف مكانة عظيمة في قلوب الناس ، ثم إنهم داخلوا أهل المغرب وصاهروهم وأصبحوا منهم وكان لهم أبعد الأثر في تعريب أهل المغرب ونشر اللغة العربية وعلوم الإسلام من مئذنة جامعة القرويين . وعندما اضطرتهم الظروف التي أحاطت بهم واضطرت بقاياهم إلى اللجوء إلى قلعة حجر النسر ، كان المغرب الأقصى قد وجد نفسه في العروبة والسنة والجماعة وأخذ يبني نفسه قُدماً .

وكانت تجربة الأدارسة كذلك درساً سياسياً باقى الأثر في المغرب ، فقد رأت قبائله كيف قامت في بلادهم دولة إسلامية منظمة الإدارة ، يقوم على رأسها إمام مطاع مرهوب الجانب من آل البيت وذوابة العروبة ، عزت به السنة والجماعة . ويستقيم الإسلام الصحيح بحاهه ، وجاء القبائل البربرية المستعربة التي تزیده وتنجل في ظل فضائل العروبة . ويظهر بفضل ذلك كله فضل قبائل مغربية لم تكن قبل ذلك بذات شأن سياسي كبير في المغرب الأقصى مثل أوربة<sup>(١)</sup> وغمارة وركالة وسدراتة ونفزة ومكناسة . وبعض هذه القبائل مصمودية ، وبعضها صنهاجية . وبعضها الآخر زناتية .

( ١ ) كان لأوربة قبل ذلك شأن كبير في المغرب الأوسط كما رأينا آنفاً .

كان نجساح هذه القبائل في إقامة دولة بنى إدريس ، حافزاً لرعاة قبائل أخرى ، على محاولة إقامة دول مماثلة لحسابها ليعز بها أمرها . و جدير بالذكر أن تنافس القبائل المغربية على السلطان والسيادة قوة محرك دائمة لتاريخ المغرب وأحداثه في كل عصوره .

وبعد نهاية الدور الأول من تاريخ الإدارة ، وخروجهم من حوض نهر سيو وخروج فاس من أيديهم وانتقال بقاياهم إلى قلعة حجر النسر في شعاب جبال الريف ، استبد بالامر موسى بن أبي العافية مؤيداً بجاه الفاطميين ولكن الامر لم يستقر لموسى بن أبي العافية طويلاً ، لأنه لم يستطع إقامة النظام ، فلم تلبث وجدة القبائل التي أقامت دولة الإدارة أن انفردت . وخلال العقود الأولى من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، عاد المغرب الأقصى إلى الفوضى . وسيطرت عليه جماعات زناتية معظمهم من مغراوة وبنى يفرن . وأخذت زندقة برغواطة تنتشر من جديد .

وفي عصور سيادة الزناتية تسود الفوضى ويعاني الحضر من ثقل المغارم ، لأنهم لا يحميهم من عدوان البدو إلا دول الحضر أي البرانس التي تأخذ بناصهم وتحمي المدن وأهلها وتعمرها بالمنشآت والمساجد ، وهي دور علم في نفس الوقت .

حدث شيء من هذا بعد القضاء على آخر الإدارة عن يد مصالة بن حبوس الصنهاجي ، حائل لواء الدعوة الفاطمية في المغرب الأوسط والأقصى ، سنة ٣١٢ هـ / ٩٢٥ — ٩٢٦ م . وفشل موسى بن أبي العافية الذي أنابه مصالة بن حبوس عنه في حاكم منطقة فاس ، فعادت قبائل الزناتية إلى الاستبداد بالناس من جديد ، فكانت جماعات المقرابين واليفرنيين تروع أمن الناس ، وتكثرون من قدرت عليه بإداء المفترم في نواحي مكناسة ورباط تازا في الشمال ، إلى وادي أم الربيع في الجنوب ، بما في ذلك السهل الساحلي المسمى ريف تامسنا ، وامتد سلطانها إلى سهل دكالة فيما بين وادي أم الربيع ومجرى نهر تانسيفت ، بل

سيطرت بعض فروعها على سهل السوس وبلاد تافيلالت وعاصمتها سجلماسة.

### صنهاجة الصحراء وتطلعها إلى التخلص من سيادة الزناتيين - جدالة :

في ذلك الحين ، وبعد النصف الثاني من القرن الهجري الرابع / العاشر الميلادي كانت تعيش في أقصى جنوبي المغرب ، فيما يلي نهر درعة جنوباً وفي الصحراء التي تليها جنوباً ويسمىها البكري صحراء « تنسر » التي تمتد إلى حوض السنغال ، كانت تعيش مجمعة من القبائل الصنهاجية تسمى بصنهاجة الصحراء ، أهمها جدالة ومسوفة وملتونة وتارجا ولطة وجزولة وبنو وارث ، كانت تعيش حياة شغل وجهد في الشريط الصحراوي الأطلسي بعد أن طردها الزناتيون إلى أقصى الجنوب وأخرجوها من نواح مثل تافيلالت وأصبحت في صحرائها محصورة بين سور حوض السنغال وزناتة المغرب . وكانت قبائل عقية كثيرة العدد ، تعيش على الرعي وقليل من الزراعة ، وكانت قد دخلت الإسلام ، ولكن إسلامها كان سطحياً ، في حاجة إلى عمق وفهم ، وكان زعماء بعضها مثل جدالة ومسوفة وملتونة على جانب كبير من بُعد الهمة والتطلع إلى كسر هذا الحصار المضروب حولها .

وطول هذه الصحراء التي سكنتها قبائل صنهاجة الصحراء حوالي ألف كيلو متر ، تقطعها القوافل في شهر لتصل إلى حوض نهر السنغال ، وهو أول أنهار أفريقية المدارية الغربية شمالاً ، وجدير بالذكر أن لفظ سنغال صورة برتغالية محرفة لاسم صنهاجة ، فقد نطقها البرتغاليون لأول وصولهم إلى هذه السواحل سنهجال Senhagal ثم سنجال Senegal

وعند منابع نهر الملوية وحتى مجرى وادي درعة يمتد إقليم تافيلالت ، وهو إقليم واحات ونباتات مياه كثيرة أكبرها سجلماسة ، وكانت سجلماسة من أكبر المحطات التجارية على أبواب الصحراء ، فإنما عبر التجار صحراء تنسر الواسعة التي أشرنا إليها ، وصلوا إلى محطة قوافل أخرى في الحوض الأعلى لنهر السنغال تسمى أودغشت ، وكانت كل من سجلماسة وأودغشت ، سوقاً تجارية عظيمة

يقد عليها التجار ، وتحط فيها القوافل وتجتمع فيها المتاجر والأموال .

في ذلك العصر — أوائل القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي — كانت الرياسة بين القبائل الصنهاجية التي أشرنا إليها لقبيلة جدالة ، وكان يتزعمها إبراهيم بن ترغوث ، وخلفه في الرياسة ابنه عمر ثم حفيده يحيى . ونقول مراجعنا أن يحيى بن عمر بن إبراهيم بن ترغوث الجدالي هذا ، خرج للحج سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٦ م وأنه لقي في طريق عودته الفقيه أبا عمران الغفجومي القاسي ، وكان من أكبر فقهاء المالكية في القيروان في عصره . واستمع يحيى بن عمر الجدالي إلى دروسه ، فتأقت نفسه إل أن يرى في بلاده فقيهاً مثله ، لقي دروسه في منازل قبيلته ويعلمهم الكتاب والسنة ويفقههم في الدين ، فتحدث إلى أبي عمران القاسي في ذلك .

وكان يحيى بن عمر يفكر في نفس الوقت في أمر آخر إلى جانب اهتمامه بالعلم والفقه ، وهو إنقاذ المجموعة الصنهاجية التي ينتسب إليها من استبداد الزناتيين وطغانيهم ، الذي امتد حتى تافيلالت ، ففي هذه الناحية ساد فرع من مغراوة الزناتيين ، يسمى بنى رانودين ، وكان رئيس هذا الفرع يسمى مسعود بن وانودين ، وكان على شراء واسع وكان زعماء زناتيون آخرون يحكمون في نواح أخرى ، فكان « خير بن خزر » ينشر سلطانه على مكناش ، ومعنصر بن معاد شيخ بنى يفرن بسود منطقة قلعة مهدى ، في حين سيطر الفتوح بن دوناس على فاس ومنطقتها وهكذا .

وكانت القبائل الصنهاجية الكبرى تعاني كثيراً من تلك السيادة الزناتية . وكان يسودها خوف على المصير ، لأن سيادة القبيلة على قبيلة أخرى لمدة طويلة ، تنتهي بهبوط القبيلة المستضعفة إلى مستوى الرعايا المحكومين الخاضعين ، وهذا نذير بزوال أمر القبيلة نتيجة لانكسار قوتها وطول العهد باستئلالها

هذا الخوف ، كان بعض السبب الذي حفز يحيى بن عمر بن إبراهيم الجدالي إلى البحث عن شيخ يُعلم رجال قبيلته شرائع الإسلام ، ويجمع كلمتهم وينور أبصارهم ، لأن العلم نور البصائر وتنبيه للأذهان وإخراج الناس من غفلة الحال إلى يقظة العلم ، ولا شك في أن يحيى بن عمر بن إبراهيم هذا ، لاحظ أن



كل من حركوا القبائل البربرية وهياؤها لإنشاء الدول ، كانوا جميعاً من المتحمسين من رجال الدين أو أصحاب الدعوات الدينية ، من أمثال أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمع المعافري ، وأبي عبد الله الشيعي ، وإدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، حتى برغواطية تزعمها رجل من أهل العلم هو ميسرة الفقير ، وغمارة تزعمها صالح البرغواطى الذى زعم أنه « صالح المؤمنين » الذى ورد ذكره فى القرآن .

وكان يحيى بن عمر يرجو أيضاً أن يتنبه قومه من صنهجة الصحراء ، إلى خطر الحصار الذى يضربه عليهم من الجنوب أهل السودان ، ويسجنونهم فى صحرائهم القاسية ، ويحولون بينهم وبين الانتشار فى الأراضى الخصيبة فى وديان أنهار السودان الغربى .

تحدث يحيى بن عمر إلى أبى عمران الفاسى فى إرسال أحد تلاميذه معه ، ولكن أحداً من أولئك التلاميذ لم يستجيب للدعوة لبعد المسافة وخطورة المفارقة ، فكتب أبو عمران الفاسى له كتاباً إلى أحد تلاميذه من الفقهاء والعاملين فى سجللماسة وأسمه **وجاج بن زلو اللطفي** ، إحدى قبائل صنهجة الصحراء . وكان وجاج فقيهاً ذا مكانة كبيرة ، ولكنه لم يشأ القيام بهذه المهمة نظراً لعلمه بصعوبة قيادة الجداليين . فندب لذلك تلميذاً شاباً من تلاميذه يسمى عبد الله ابن ياسين الجزولى .

### عبد الله بن ياسين :

توض عبد الله بن ياسين لأداء مهمته ، وتوجه إلى منازل قبيلة جدالة وبدأ يعمل ، وتكشف عن رجل نشيط متحمس واسع الطامح . فلم يقتصر على تعليم الجداليين شعائر الدين ، بل أراد أن يهذب أخلاقهم ويخرجهم عن حياة الخشونة والبدائية التى كانوا يعيشون فيها . ووضع لهم نظاماً للأداب العامة وأخذهم بالشددة . وكان الجداليون كثيرين وكانوا أهل فوضى وجفوة وقلة نظام ، ولم يلبثوا أن ثاروا على عبد الله بن ياسين وأخرجوه من بلادهم ، لأنهم لم يتحملوا عنقه وشدته .

ولجأ عبد الله بن ياسين إلى شيوخه وجاج بن زلو ، فطلب إلى يحيى بن عمر

عقابهم على ما فعلوه ، فقام بذلك وجعلهم يطلبون عودة عبد الله بن ياسين إليهم ، ولكنه رفض ، فذهب وجاج بأن يذهب إلى منازل قبيلة لتونة ، وكانوا أميل إلى النظام والتماسك والعمل الجاد .

وإلى حين قريب لم تكن نعرف إلا شيئاً قليلاً عن عبد الله بن ياسين الجزولي ، ولكننا نعرف الآن أنه كان رجلاً واسع العلم بعيد الطموح شديد الذكاء ، ويحدثنا ابن عذارى أنه زار الأندلس ودرس فيه علوماً شتى ، وعندما عاد إلى المغرب قطعته من الشمال إلى الجنوب ، ومر في طريقه بريف تامسنا ، ورأى كيف أن جماعات الصنهاجيين هناك ترزح تحت وطأة الزناتيين وقدر جنود الزناتيين هناك بما لا يزيد على ثلاثة آلاف ، وأدرك أنه من الممكن التغلب عليهم وإقامة دولة لصنهاجة هناك . وبعد ذلك بسنوات ، عندما توجه إلى منازل لتونة أحس أن فرصته قد حانت ليحقق ما كان يجول في ذهنه ، وهذا تجلّى عبد الله بن ياسين عن شخصية رجل سياسى مؤهل للقيام بحركة سياسية كبيرة .

وعرف من أول الأمر كيف يكسب محبة يحيى بن عمر بن إبراهيم الجبائي ، وهو من جدالة كما يتجلى من نسبه ، ولكن جده إبراهيم كان قد صاهر اللتونيين ودخل فيهم وانتسب إليهم ، وأصبح يعد نفسه من سلاسل ترغوت بن ورتاسن ابن منصور بن مصالة بن أميت ، الذي عرّب على « أمية بن وانمال » ، الذي عرّب على « وانمال بن لتونة » التي تنطلق أيضاً « تالميت » بن صنهاجة . وقد وصل هذا الرجل بذكائه ونشاطه إلى أن أصبح من زعماء لتونة ، ثم أنجب أولاداً كثيرين أشهرهم اثنان . عمر وتاشقين . فأما تاشقين فهو أبو يوسف الذي ستصير إليه زعامة المرابطين فيما بعد ، وأما عمر فقد أنجب أباً بكر ويحيى ، ويحيى هذا هو الذي تحدثنا عن رحلته إلى المشرق ومرويه بالقيروان ولقائه مع أبي عمران الفاسي ثم مجيئه أخيراً بعبد الله بن ياسين .

كان عبد الله بن ياسين كما ذكرنا رجلاً نشيطاً ومغامراً سياسياً لا يهاب شيئاً ، وكان عظيم الإيمان بالإسلام . وكانت فيه شدة في حمل الناس على إقامة شعائر الدين ، حتى كان يوقع العقوبات البدنية على من يترأى في أداؤها ، وقد أقام يحيى بن عمر من مواهب عبد الله بن ياسين ، لأن الشخصية المهمة التي كان ينفع بها هذا الأخير ، كانت ترغم الناس على الطاعة ليحيى ، وكان يحيى من

ناحيته لا يدخر وسعاً في تقديم العون لعبد الله بن ياسين .

وعندما تأكد عبد الله بن ياسين من أنه كُنَّ حوله جماعة من المخلصين خرج بهم إلى جزيرة في المحيط ، قرب مصب وادي السنغال في الغالب ، لكي يفرغوا لأمور العبادة . وهناك أنشأ رباطاً لم يلبث أن اتسع وكثر الناس فيه ، فلما رأى عبد الله بن ياسين وفرة أعدادهم وحماسهم قال لهم : اخرجوا فأنتم المرابطون ! هذه رواية ابن عذارى الذي يقول ببناء على ذلك أن هذا أصل تسمية المرابطين ، ولكن هناك من يقولون إن عبد الله بن ياسين أطلق عليهم هذا اللقب بعد انتصارهم في إحدى معاركهم .

وعندما اكتمل عدد هؤلاء الرجال الأشداء المخلصين الفأ ، أمرهم عبد الله بن ياسين بالخروج من معتصمهم هذا في الجزيرة ، إلى البر والسير للجهاد ، وانضمت إليهم أعداد غفيرة من الجداليين واللمتوئين وغيرهم . وكان ذلك في سنة ٤٤٥ هـ / ١٠٥٣ م ، وكانت القوة والقيادة في تلك الجماعة المرابطية الأولى للتمتنة ، فبدأ اسم هذه القبيلة يظهر من بين القبائل الكثيرة التي تكونت منها مجموعة قبائل صنهاجة الصحراء .

هنا تظهر صفة أخرى من صفات عبد الله بن ياسين الكثيرة صورة القائد العسكري الماهر الذي يحسن قيادة الجيوش وترتيب المعارك ، ويبدى في ذلك المبدأ مهارة لا بأس بها ، وكانت الخطوة الأولى أصامه القضاء على سلطان المغراويين الزناتيين الذين كانوا يسيطرون على المغرب الأقصى .

عبر عبد الله بن ياسين على رأس رجاله الصحراء متجهاً إلى الشمال ، فلما وصل إلى إقليم تافيلالت الذي كان يسوده مسعود بن وأنودين ورجالهم من المغراويين ، فانتصر عليهم واستخلص سجلماسة من أيديهم ، وفي المعارك قتل مسعود بن وأنودين ، واسترسل إلى الشمال ونزل سهل مراکش الذي يجري فيه نهر تانسيفت ، وكان ذلك سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م .

بعد ذلك ارتد عبد الله بن ياسين إلى الجنوب ، فعبر الصحراء ، وهاجم أهل السودان الغربي في حوض السنغال ، وانتصر عليهم ، وفتح بذلك أمام قبائل صنهاجة البربرية أبواب أفريقية المدارية ، أي أن ذلك الرجل كسر الحصار الذي

كان مضروباً على صنهاجة الصحراء ، وفتح أمامها أبواب التوسع شمالاً وجنوباً ، فاخذت قبائل لتونة وجدالة ومسوفة ولطة وجزولة أو كزولة تتوسع جنوباً ، ومعنى ذلك أن الإسلام كسر النطاق الوقفي ووصل إلى شعوب أفريقية السوداء من هذه الناحية ، وذلك حادث تاريخي عظيم الأثر والمغزى .

وفي أثناء تلك الحروب قتل عبد الله بن ياسين سنة ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م ، وبذلك اختفت تلك الشخصية الفريدة التي جمعت متناقضات كثيرة ، من إيمان رحماس ديني شديد وميل مفرط إلى النساء والاستمتاع ، وزهد وميل إلى التصوف ، إلى جانب النزوع إلى السلطان والجاه ، ولكنه كان على الجملة رجلاً فذاً واسع النظر بعيد المطامح ، دقيق الإيمان بالإسلام شديد العصبية لقومه . وكان يزعم أنه فقيه واسع العلم ، ولكن الحقيقة أن علمه بالفقه كان قليلاً . وقد أحصى المؤرخون عليه أخطاء فقهية كثيرة وأحكاماً صدرت عنه مخالفة للشرع ، ولكنهم جميعاً يثمنون عليه بالذكاء والملاح والإيمان والإخلاص والشجاعة وخلصة القول فيه أنه كان رجل دين وسياسة وشخصية فريدة ، أوتيت القدرة على قيادة الرجال وصنع التاريخ .

وقد قام عبد الله بن ياسين بعمله كله ، معتزلاً بجاه يحيى بن عمر بن إبراهيم الجدالي أمير لتونة ومن انضم إليها من قبائل المرابطين . وعندما مات يحيى بن عمر وحققه في الرياسة أخوه أبو بكر بن عمر ، حظى عبد الله بن ياسين بتأييده ، بل زادت مكانته عنده ، لأن عبد الله بن ياسين ، رغم اتساع جاهه لم يتخط حدوده قط . واستمر يعطى الأمير حقه من الإجلال والتعظيم والطاعة ، وإن جنح أحياناً إلى فرض هيئته الدينية عليه بذلك .

وعندما قتل عبد الله بن ياسين كان سلطان أبي بكر بن عمر وقبيلته لتونة ، قد استقر وطاعت له كل قبائل لتونة الصحراء ، أي أن عبد الله بن ياسين أتم مهمته قبل موته ، ووحد صفوف الصنهاجيين تحت راية الجهاد في سبيل الله ، وقاد خطواتهم الأولى في الانتصار على الزناتيين في الشمال وقبائل أفريقية المدارية السوداء في الجنوب ، وأخرجها من الفوضى والتفرق إلى الانتظام والوحدة ، وأشعرها بقيوتها وأعطاهم غايات وأهدافاً دينية وسياسية واضحة ، ورسم لها الطريق لتحقيق هذه الغايات والأهداف .

## استمرار مسيرة الحركة المرابطية بقيادة أبي بكر بن عمر ، إنشاء مراكش :

وسار أبو بكر بن عمر بالحركة في طريقها ، وكان يستعين في عمله بالظاهرين من قرانته وأهل بيته ، وخاصة ابن عمه يوسف بن تاشفين ، وكان إذ ذاك شاباً واسع الطموح .

وحوالى ٤٦٦ هـ / ١٠٦٨ — ١٠٦٩ م كان سلطان المرابطين قد استقر في حوض نهر تانسيفت الفسيح ، وظهرت الضرورة إلى إنشاء قاعدة سياسية وعسكرية للحركة في ذلك السهل الذي أصبح مركز الحركة كلها ، وكانت هناك قريتان بدائيتان ، على ضفة نهر صغير من نهيرات تانسيفت ، يجري من الجنوب ويصب في النهر ، وكانت كل منهما تسمى أغمات ، والأغمات هو اللفظ البربري الذي يطلق على القرية البدائية التي تتألف من سور من الطين أو القصب وفروع الشجر ، وتتخذها القبيلة التي تنشئها معتمداً لنسائها وأطفالها ، وحتى لمواشيها بالليل وفي أوقات الخطر والحروب ومخزناً لسلحها وأروادها . وتسمى مثل هذه القرية البدائية في اللغات الأوروبية باسم كراال Kraal وتسمى العربية باسم المجمع . وكان واحد من الأغماتيين ملكاً لقبيلة هيلانة أو أيت إيلان والثاني كان ملكاً لقبيلة أوريكة ، وكلا القبيلتين مصموديتان ، ولكنهما طاعتا لصنهاجة الصحراء ، مثلهما في ذلك مثل بقية القبائل المصمودية الضاربة هناك ، وقد انضمت هذه القبائل المصمودية إلى الحركة المرابطية ، واشتركت في جيوشها وأعمالها العسكرية . وقد رحب بذلك أبو بكر بن عمر ويوسف بن تاشفين من بعده ، وقد أفادت الحركة المرابطية من ذلك فاشتهت كبرى ، إذ أصبحت جيوشها تتألف من صنهاجيين ومصامدة وإن ظلت الرياسة في يد الصنهاجيين ،

وتنافست القبيلتان كل منهما تريد أن تنشأ القاعدة في أغماتها ، وانتهى الأمر بأن تنشأ في الأغماتين معاً ، فكانت كتلتها في أغمات هيلانة ، وتحولت أغمات أوريكة إلى ضاحية للمدينة الجديدة ، ونظا يطلق عليها اسم أغمات فقط ، وتقع إلى جنوبي مدينة مراكش .

وبشرع أبو بكر بن عمر في بناء قاعدته سنة ٦٤١ هـ / ١٠٦٨ — ١٠٦٩ م ،

وأطلق عليها اسم مراكش ، وهي بالبربرية مراكش ومعناه قصر الحجر ، لأن مساكن المدينة أقيمت بالحجر ، وما لبثت المياكن الرئيسية في المدينة أن نمت ومضى الناس يتشئون البيوت والأسواق ، وهكذا نرى كيف أن هذا الرجل الذى ولد في حوض نهر السنغال في أفريقية المدارية ، عرف بفضل إيمانه بالإسلام ودخوله في حضارته ، أن يضيف إلى تاريخ الحضارة الإسلامية مدينة من أجمل مدائن الإسلام وأوغرها بركة وأشهرها في الدنيا ، وهى مدينة مراكش الزاهرة إلى اليوم .

وبينما كان أبو بكر بن عمر يرقب العمل في بناء مدينته الجديدة بعد أن تزوج بزوجة جميلة تسمى زيت بنت إسحاق النفاوية يبلغه خبر أزجه ، خلاصته أن قبيلة جدالة وثبتت بقبيلة لتونة في الصحراء وأنزلت بها مذبحه ، فقرر العودة سريعاً إلى منازل القبائل الصنهاجية في الصحراء لإنقاذ لتونة . وقيل رحيله جمع رؤساء قومه وطلب منهم أن يختاروا من بينهم رئيساً لهم يقوم بأمرهم في غيابه ، فاختاروا ابن عمه يوسف بن تاشفين ، وكان تاشفين والد يوسف أخاً ليمى وأبى بكر ابنى عمر بن إبراهيم بن ترغوث .

وترك أبو بكر بن عمر تلك القوة المرابطية مع يوسف بن تاشفين ، وأخذ الثثن ومضى إلى منازل لتونة وجدالة وراء الصحراء سنة ٦٣ هـ / ١٠٧١ م .

### يوسف بن تاشفين - انقسام القوة المرابطية إلى قسمين :

واحد يعمل في المغرب ثم في الأندلس ، وواحد يعمل في أفريقية المدارية الغربية ؛

من ذلك الحين انقسمت حركة المرابطين قسمين : واحد منهما شمالي ، مركزه سهل مراكش ، وميدان نشاطه المغرب ثم الأندلس ويقوده يوسف بن تاشفين ، والثاني يعمل في أفريقية المدارية الغربية ويقوده أبو بكر بن عمر . ونظراً لبعده الشقة بين القسمين ، لأن الصحراء تفصل بينهما ، فقد مضى كل من القسمين في طريقه يعمل بنشاط ، فأما القسم الشمالي الذى يقوده يوسف بن تاشفين ، فهو الذى سنتتبع تاريخه الآن ، وأما القسم الثانى الجنوبى فقد تابع مسيرته

ونشاطه في فتح السبل لانتشار الإسلام في أفريقية المدارية ، وكان له دور عظيم في ذلك المجال .

### قيام دولة المرابطين في المغرب والأندلس :

٤٦٣ - ٥٠٠ هـ / ١٠٧١ - ١١٠٧ م :

يعتبر يوسف بن تاشفين من أعظم الرجال الذين أنجبهم المغرب الإسلامي وكان لهم أبعاد الأثر في توجيه تاريخه ، وقد قام بدور أساسي في إنشاء المغرب الأقصى وإعطائه حدوده الطبيعية التي ثبت عليها في التاريخ ، فهو الذي وحد نواحيه من الصحراء الكبرى إلى ساحل البحر المتوسط ، وحد حدوده من ساحل المحيط إلى شرقي نهر المولوية ، وضم إليه إقليم تلمسان والجزء الغربي من المغرب الأوسط حتى مدينة الجزائر ، ولم تصبح تلمسان وذلك الجزء الغربي من المغرب الأوسط جزءاً من المغرب الأقصى ، ولكن يوسف بن تاشفين بعلمه هذا قام بالمحاولة الأولى لتوحيد أكبر جزء من بلاد المغرب تحت لواء واحد ، وهي محاولة سيقابلها الموحدون فيما بعد ، ويستظل دائماً نقطة البداية في إنشاء ما يسمى بالمغرب العربي الكبير .

ثم إن يوسف بن تاشفين عبر إلى الأندلس كما سنرى ، وقام بدور كبير في إنقاذه من الضياع خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، وكسب للإسلام في صراعه مع النصرانية على مصير الأندلس ، انتصارات كبرى جعلته شخصية مشهورة ، لها مكانها في تاريخ أوروبا والمغرب كله ، وهو لهذا كله يعتبر من أفاذا الرجال في تاريخ الإسلام العام

ويعتاز يوسف بن تاشفين بالخصائص الأساسية ، التي تميز بها كيار بناء دولة الإسلام على مر العصور ، وأول هذه الخصائص الإيمان العميق بالإسلام وفضله ورسالته ، وشعوره بأنه ينبغي أن يخدم هذا الدين وينصره ويجاهد في سبيله ويعمل على حماية عالمه من الأخطار ، وثانيها النظرة الراسعة إلى العالم الإسلامي على أنه عالم واحد مترابط ، فهذا الرجل الصحراوي لم يكد يقيم دولته حتى كتب إلى الخليفة العباسي يدخل في طاعته ويستظل برأيه ، لأن ذلك كان رمزاً على وحدة العالم الإسلامي ، وثالثة هذه الخصائص هي الشعور الكامل

بضرورة نصرة الإسلام وحماية دأره ما وسعه ذلك داخل بلاده وخارجها ، وسنرى كيف أن هذا الرجل لم يكن يسمح صريح المسلمين في الأندلس حتى أسرع فلبى النداء . ووضع إمكانياته كلها في القيام بهذه الرسالة الكبرى ، والرابعة هي إيمانه بالعروبة وعظيم قدرها وأهميتها . فقد كان يوسف بن تاشفين يعرف العربية دون أن يجيدها ، ولكنه اجتهد في إتقانها وشجع العلماء والفقهاء وجنهم على نشر العلوم العربية والإسلامية ، وقرب إليه كبار الكتاب والأدباء من أندلسيين ومغاربة وأدبهم في خدمته ، وانتقل نفر من علماء الأندلس وأدبائها إلى المغرب للعمل في الدولة الجديدة .

ورث يوسف بن تاشفين عند توليه قيادة المرابطين في سنة ٤٦٣هـ / ١٠٧١ م ، كل النتائج السياسية التي حققها قبله في المغرب عبد الله بن ياسين ويحيى بن عمر وأخوه أبو بكر ، فاختار لنفسه من الألقاب لقب أمير المسلمين ، وهو لقب مبتكر كان هو أول من اتخذه ، ولم نسمع كذلك بأن أى رئيس دولة إسلامية اتخذته ، وجعل من سجلماسة قاعدة جنوبية لدولته . فأصبحت مركز تجمع للصنهاجيين الصائدين من الصحراء . واهتم كذلك بمراكش وسهلهما ، فانتعش العمران فيها ، وأصبحت بالفعل عاصمة دولة كبيرة وكثرت فيها المساجد والمنشآت ، وتتبع بقايا المغراويين الزناتيين ، الذين كانوا يسودون هذه المنطقة كلها من قبل ويجيرون من أهلها المغارم ، وشيئاً فشيئاً مد سلطانه إلى الشمال واحتل فأس ووادي سبو ، وكان قد سيطر على فاس قبل ذلك زعيم زناتى يسمى معتصر بن المعز بن زيري بن عطية صاحب مكناس ، فتغلب يوسف عليه واستخلص فاس ، ثم هاجم بقواته ماقبل غمارة وبرغواطة . في جبال الريف ، وقضى على زعماء مذاهب الزندقة والخروج عن الإسلام التي كانت تعيش هناك من زمن طويل ، وأخذ الفقهاء في نشر مذهب السنة والجماعة ، وقد اعتبر يوسف بن تاشفين حريه لبرغواطة وغمارة جهاداً دينياً .

وأصلح يوسف بن تاشفين مدينة فاس بعد دخوله إياها ، وجعلها مدينة واحدة بعد أن كانت مدينتين ، وأدار عليها سوراً حصيناً ، وأكثر من إنشاء المساجد فيها .



وأفلح يوسف بن تاشفين في التغلب على مقاومة كل القبائل التي كانت قد انفردت بنواحيتها في « بسط الهيوط أو هبط غماره » ، ثم استولى على ممر تازا وهو الممر المؤدى من المغرب الأقصى إلى المغرب الأوسط ، وعمر مدينة تازا في وسطه ، وأبنتى بها مسجداً جميلاً ما زال باقياً إلى اليوم ، ومن ممر تازا ، مضى يوسف ابن تاشفين إلى إقليم تلمسان ، وبسط سلطانه على وادي ملوية الذي يصل إلى سجلماسة جنوباً ، وواصلت قواته السير شرقاً في منازل صنهاجة المغرب الأوسط ، ودخلت مدينة الجزائر التي كانت إذ ذاك تعرف بجزائر بني مزغنا ، وأبنتى فيها مسجداً جامعاً ما زال باقياً إلى اليوم . وكانت تلك المدينة هي أقصى ما وصل إليه سلطان المرابطين شرقاً . إذ شغلته عن استكمال توحيد المغرب أحوال الأندلس على ما سئراه .

ثم تجرد يوسف بن تاشفين للاستيلاء على سبتة وطنجة ، وكانت هذه الأخيرة عاصمة المغرب الشمالي ، وكانت البلدتان في ذلك الحين من توابع الأندلس ، وقد بدأت تبغيتهما للأندلس من أيام عبد الرحمن الناصر ، وكان يحكم سبتة رئيس بربري يسمى « سقوط أو سكوت البرغواطي » . ولما إياها أبو حمود أصحاب مالقة الذين ادعوا خلافة الأندلس فترة قصيرة من الزمان ، في أعقاب انتشار أمر خلافة قرطبة وبداية عصر الطوائف سنة ٤٢٢ هـ / ١٠٣٢ م ، وقد تحول « سقوط » إلى أمير طوائف بدوره واتخذ من الانقلاب السلطانية لقب المنصور المعان سنة ٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م .

وفي سنة ٤٧٦ هـ / ١٠٧٩ م أرسل يوسف بن تاشفين قائده صالح بن علي . فتمكن من اقتحام سبتة وإنهاء إمارة سقوط البرغواطي ، ثم انتزع طنجة من يد ضياء الدولة بن سقوط ، وبذلك يكون يوسف بن تاشفين قد وحد المغرب الأقصى من حدود الصحراء جنوبى وأدى درعة إلى ساحل البحر المتوسط ، فإذا أضفنا إلى ذلك ما استولى عليه يوسف بن تاشفين من بلاد المغرب الأوسط حتى مدينة الجزائر ومجرى نهر شلف ، تبيّن خضاعة العمل السياسى الذى قام به هذا الرجل القدير ، الذى نهض بقومه ، من جماعة من المجاهدين المتحمسين ، إلى مستوى أصحاب الدول الكبرى في ذلك العصر .

وقد ساس يوسف هذا الملك العريض الذي لم يجتمع لغيره من أهل المغرب قبله ، بحكمة وسياسة دلت على ملكات إدارية وتنظيمية كبيرة ، وكان أساس تنظيمه كله العدل ، أي أنه كان يتوخى بسط لواء العدل في كل ما طاع له من البلاد والقبائل ، فكان يختار للولايات والإمارات خيرة رجاله ، من أهل العدالة والدين من رجال القبائل الصنهاجية ، ويضمهم إلى كل وال فقيهاً أو أكثر لكي تكون أحكام رجاله كلها متمشية مع الشريعة الإسلامية . ورفع عن أهل المدن والقبائل المغاريم الثقيلة التي كان الزناتيون يجبرونها ، وكان يوصي رجاله بالعدل والرفق بالناس . وكانت له شخصية مهيبة فرضت نفسها على رجال القبائل الصنهاجية ، وأهمها في أيامه لثونة وجدالة ومسرفة وتليها في الأهمية والقوة لمحطة وجزولة وبدو وارث وتارجا . وقد سرت روح الجهاد في سبيل الدين في نفوس أهل هذه القبائل كلها ، فغادر معظم الرجال القادرين على الحرب منازلهم في الصحراء وما يليها جنوباً ، وانضموا إلى جيوش المرابطين ، إذ أن الجهاد كان عصب هذه الحركة والقوة التي دفعنها إلى الامام . وكان يوسف بن تاشفين رائداً في ذلك المضمار .

### المرابطون يعبرون إلى الأندلس لنصرة الإسلام :

في حدود سنة ٤٧٥هـ / ١٠٨٢ م وصل يوسف بن تاشفين إلى ذروة قوته في المغرب ، أي أنه تمكن من بناء هذه الدولة الكبيرة خلال اثنتي عشرة سنة فحسب من العمل الدؤوب ، وأقامها على أكتاف رجال من صميم العرة المغربية ، وقيام هذه الدولة يمثل لنا ذروة التطور السياسي في المغرب منذ الفتح الإسلامي ، وقد عرضنا من قبل لكل المحاولات والدول السابقة ، ورأينا اختلاف حظوظها من التوفيق في بناء الدول . وهذه التجربة المرابطية أقواها وانضجها جميعاً إلى ذلك الحين ، مما يدل على أن الإسلام عندما دخل أفريقية والمغرب ، أيقظ أهلها ووضعهم في طريق التقدم السياسي والاجتماعي ، حتى وصل بهم إلى هذا المستوى الذي وصل إليه يوسف بن تاشفين بالحركة المرابطية .

وقد اشتهر ذكر يوسف بن تاشفين إذ ذاك في العالم الإسلامي كله ، بأنه سلطان مسلم عادل ومجاهد مخلص في سبيل الله ، ولا غرابة والحالة هذه أن نسمع بأن الإمام أبا جاعد القرطبي كان يثنى على يوسف بن تاشفين .

وفي ذلك الحين كان أمر المسلمين في الأندلس قد وصل إلى درجة من  
الاضمحلال جعلت مصر الإسلام في شبه الجزيرة في الميزان ، فقد تقاسمت بلاد  
الأندلس جماعة من الواثين بالسلطان المستبدين بنواحيهم ، كانوا في الأصل  
عمال دولة الخلافة القرطبية أو قضاة نواحيهم ، فقدمهم الناس للولاية حتى  
تنجلى غمرة الحرب الأهلية التي دارت رحاها حول الخلافة بعد سقوط دولة  
العامريين<sup>(١)</sup> سنة ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م . ولكن الغمرة لم تنجل ، بل ازدادت  
الأحوال سوءاً لأن أولئك المستبدين بالنواحي ، حولوا أنفسهم إلى سلاطين صغار  
لكل منهم ببلاد وحشم وحاشية في ناحيته ، وبعض هذه النواحي كان ولايات  
واسعة مثل طليطلة أو أشبيلية ، وبعضها الآخر كان لا يزيد على مدينة وحوزها  
مثل دانية Denia أو المونت أو سهنة بني رزين .

وانتفض ملوك إسبانيا النصرانية هذه الفرصة ، للتوسع على حساب أولئك  
الأمراء الضعاف الذين كان أقوامهم يعتمد على قوة من الجند المرتزقي ، لا تزيد على  
بضع مئات من الفرسان ، وقد كانت بعض ممالك النصرانية أصغر وأقرب من  
جاراتها من إمارات الطوائف مثل أرجون التي كانت مملكة صغيرة في أسفل جبال  
البرت أي البرانس ، تجاورها إمارة إسلامية واسعة هي الثغر الأعلى  
الأندلسي وقاعدته سرقسطة ، وكانت تحكمها أسرة بني هود التجيبين .  
ولكن ملك أرجون الصغير كان يستطلع تجريد جيش من ألف فارس وأكثر  
يجمعهم إلى لوائه الإيمان بأنفسهم والطمع في أراضي المسلمين الواسعة الغنية .  
ومن هنا فلا عربة في أن نجد أمراء سرقسطة يدفعون الإتاوة لأمر نصراني أصغر  
منهم ولاية وثروة ، ولكن الصراع السياسي خلال التاريخ كله ، يعتمد أولاً وآخره  
على إيمان الرجال بحقوقهم وعقائدهم واستعدادهم للبذل والتضحية . وقد كان  
المسلمون من أهل سرقسطة و طليطلة مستعدين للبذل والتضحية في سبيل  
بلادهم ودينهم ، ولكن أمراءهم كانوا يعيدين جداً عن مثل هذا التفكير . فضيعوا

( ١ ) العامريون يراد بهم محمد بن أبي عامر الملقب بالحاجب المنصور ، الذي استبد بأسر الخلافة  
الأموية ، وحلفه أبناء عبد الملك المظفر وعبد الرحمن شحول ( انظر القسم الخاص بالأندلس من  
هذا الكتاب ) .

وعايناهم وباعوا أرض الإسلام في سوق البخنس حفاظاً على عروشهم  
وإرضاء لغرور أتاني خسيس .

وكانت أضعف هذه الإمارات الإسلامية الأندلسية إمارة بني ذي النون  
أصحاب طليطلة ، وكانت طليطلة ولاية واسعة تمتد من حوض نهر تاجة إلى  
مشارف حوض الزادى الكبير ، بل كانت هي وجدها تمثل ربع الأندلس مساحة ،  
وكان يحكمها أمير من بني ذي النون يلقب نفسه بالمأمون ، وكان غاية في الغباء  
والصر النفلر وضعف الإيمان ، فكان يبتلى القصور ويقيم الحفلات الكبرى  
وليس لديه من القوة العسكرية ما يدفع به عدواً . وقد اشترى سلامته بأتاوة كان  
يدفعها ملك قشتالة وليون المجاور له من الشمال والغرب .

وكانت قشتالة إذ ذاك كوثنية أى إمارة صغيرة تابعة لمملكة ليون ، وكان  
يحكم ليون ملك يسمى سانشو الثانى ، اختلف مع أخيه الفونسو فطرده خارج  
بلاده ، فلبأ إلى بلاط المأمون بن ذي النون ، ورحب به هذا وخطه بنفسه وخطه  
على أسرار ، فعلم هذا الأمير المنفى أنه لو اقتدر على ألف فارس ، لاستولى بهم على  
طليطلة وأزال ملك بني ذي النون .

وهذا هو الذى حدث ، فقد شاءت الظروف أن يقتل الملك سانشو الثانى  
ويجتمع فرسان مملكة ليون وكوثنية قشتالة لاختيار خلف له ، واستقر رأيهم  
على استدعاء الفونسو من منفاه ، وتوجه ملكاً على قشتالة وأيون بزعامة فارس  
جريى يسمى **واريجو ديات** **ذى بيلار الخلق** « بالسيد القمبيطور » .

وقد اكتسب الفارس لقب السيد ممن كان يعمل معه من مقاتلة المسلمين ،  
وكان الكثيرون منهم قد تحولوا إلى أهل حراية أى قطاع طرق وفرسان مرتزقين  
يخدمون من يدفع لهم أجر . وكان هذا السيد القمبيطور فارساً مرتزقاً  
جريئاً ماهراً فى شؤون الحرب ، وكان حامل لواء ملك قشتالة وليون .

وبعد استقرار الفونسو السادس على عرش بلاده ، بدأ يرمى ببصره إلى  
طليطلة ، وكان المأمون بن ذي النون قد شاخ وركبته الأمراض ، ولم يكن له من  
ورث إلا حفيد قليل الذكاء يسمى يحيى ، فحسب المأمون أن الفونسو السادس  
يرعى زمام طليطلة بما آراه من قبل عندما كان مريضاً ، ولكنه عندما مات أوصى

رجال دولته بحفيده الذي أصبح أميراً وتلقب بالقادر ، وما هو إلا قليل حتى دخلت قوات قشتالة وليون يقوده الفونسو السادس أراضي طليطلة واستولت عليها دون أن يرتفع للدفاع عنها سيف واحد ، لأن القادر بن ذي النون حسب أن الملك الصراني إنما أتى لعيونه على خصومه في بلاده ، فإذا به يرى أنه أتى ليستولي منه على ولايته طليطلة بكل مدنها وحصونها وحدودها ، ويعوضه عنها بولاية بلنسية وكانت تابعة لطلطيلة ، وهكذا استولى الفونسو السادس على ربع الأندلس دون أن يستعمل سلاحاً ، وخرج التعميس القادر من بلده ليقترى بلنسية في حماية قلعة من فريسان قشتالة على رأسهم فارس يسمى ( الفار هانث ) الذي تكتبه مراجعنا ألبر هانث Alvar Hanez وكان ذلك سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م .

هنا اتفاق ملوك الطوائف من غلنتهم ، وأدركوا أن مصيرهم كلهم إلى براى ، إذا هم ساروا في طريق الضلال الذين كانوا سائرين فيه خاصة وقد تحولت مملكة قشتالة وليون بعد استيلائها على طليطلة ، إلى أكبر دولة في شبه الجزيرة . فقد أصبح حجمها ثلاث مرات حجمها الأول ، وانحدرت قواتها إلى الجنوب واستولت على معظم بلاد حوض الواديانة ، ودخلت قواتها قورية والأشونة وشنترين ، وكان السيد القعبيطور قد انفرد ببلنسية وحاصرها حصاراً مريباً حتى استولى عليها ، وتحركت مملكة أرغون وأخذت تتقدم في أراضي إمارة سرقسطة أي الثغر الأندلسي الأعلى ، وحالفت كونية قطلونية وعاصمتها برشلونة واستولت على طركونة ثم طولوشة وأخذ الفونسو السادس يتأهب للاستيلاء على بطليوس وأشبيلية ، ولم يعد يقنع بالإتاوات التي يؤديها إليه أمراؤها<sup>(١)</sup> .

هذه هي الظروف التي اضطرت ملوك الطوائف إلى طلب النجدة من يوسف ابن تاشفين ، والحق أنهم كانوا مترددين في ذلك حتى اضطرتهم رعاياهم إلى ذلك ، فتوجه وفد من فقهاء الأندلس ولقي يوسف بن تاشفين . وأملعه على خطورة الوضع وشرح أحوال ملوك الطوائف . وطلب إلى الأمير المرابطى أن يعجل بنجدة الأندلس ، وأدرك الرجل خطورة الموقف ، ولبي داعي الجهاد لأنه بطبعه وطبيعة حركته ، مجاهد في سبيل الإسلام .

( ١ ) عن هذه الأحداث بشيء من التفصيل - انظر النسخ الخاص بالأندلس من هذا الكتاب

وفي عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م عبر يوسف بن تاشفين إلى الأندلس بجيش ضخم بعد أن نزل له المعتمد بن عباد عن مدينة الجزيرة الخضراء ليؤمن لنفسه وقواته خطوط الاتصال مع المغرب . وسارع المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية للقاءه ، وتم الاتفاق على أن يتجه الجيش المرابطي ومن يرافقه من مقاتلة الأندلس، نحو بطليوس في غرب الأندلس ، لأن الفونسو السادس بعد أن استولى على قرورية والأشبونة وشنترين ، كان يستعد للاستيلاء على إمارة بطليوس ، وكانت تشمل جانباً ضخماً من غرب الأندلس . وأقبل الفونسو السادس بحشوده ، وكان اللقاء في سهل متسع جنوب غربي مدينة بطليوس يسمى الزلاقة بالعربية . وفي الإسبانية Sacrajas ، وأنجل اليوم بعد قتال بالغ العنف ، بنصر مؤزر ليوسف ابن تاشفين ، فقد أبعدت صفوف قشتالة وليون ، وفر الفونسو السادس في لمة قليلة من قرسائه . وهو لا يصدق بالنجاة .

هذا الانتصار كان له أثر حاسم في سير الحوادث في الأندلس ، فقد تحطمت القوة الضاربة لمملكة قشتالة وليون وتوقف تقدمها نحو الجنوب ، وأرادت رجالها شمالاً للدفاع عن طليطلة ، واستعاد المسلمون الأشبونة وشنترين وتوقف تقدم كونثية البرتغال في غرب الأندلس . وغريب من الأمر أن المتوكل بن الإيفس ، صاحب بطليوس ، أبدى بعد هذا النصر خوفاً وثقلاً من المرابطين ومال إلى الخيانة والتفاهم مع العدو . وقد بلغت أجباره هذه يوسف بن تاشفين . ولاحظ يوسف كذلك أن المعتمد بن عباد تراخى من ناحيته وخاف على إمارته ، أما الأمير أبو عبد الله الزيري صاحب غرناطة ومالقة ( وهو صنهاجي الأصل مثل يوسف ابن تاشفين ) فقد بدأ وكان التصبر لم يكن على هواه .

في وسط هذه الظروف وجد يوسف بن تاشفين أن يحل بالعودة إلى المغرب لينظر في أمور دولته الراسعة ، ولهذا لم يستطع الإفادة من ذلك النصر العظيم الذي حازه ، ولو أن أمراء الأندلس وقفوا إلى جواره وأمدوه بكل قواتهم لتقدم إلى طليطلة واستولى عليها ، وأعاد ميزان الأمور في الأندلس إلى نصابه ، لأن الانتصارات العسكرية مهما عظمت فإنها تظل غير ذات قيمة عملية كبيرة إذا لم تستغل سياسياً وعسكرياً ، ولو أن صلاح الدين الأيوبي لم يسارع باستعادة

القدس بعد نصر حطين لما كان لهذا النصر القيمة التاريخية الكبيرة التي يحتلها في صحائف التاريخ .

عاد يوسف بن تاشفين إلى المغرب فتنفست مملكة قشتالة وليون الصعداء وأفرج روعها ، وبدأ أمراء الطوائف يتصل بعضهم ببعض معبرين عن مخاوفهم على بلادهم من ذلك الأخ الذي خُفّ لنجدتهم . أما يوسف فإنه كان يشعر أنه لابد أن يعود إلى الأندلس ليستكمل النصر ، ولكنه ما كان يستطيع أن يفعل شيئاً ذا قيمة كبيرة إلا إذا كان له وضع قانوني في الأندلس ، فهو إلى الآن مجرد ضيف لا يسيطر إلا على رأس معبر هو مدينة الجزيرة الخضراء وهو لا يستطيع أن يطلب إلى أمير أو أهل بلدة أن يوافقوه بالمخون والأزواد أو تقديم أى عون ، لأن لكل ناحية أميرها وصاحب السلطة العليا فيها .

وبعد أن مهد يوسف لنفسه في الأندلس تمهيداً معقولاً استجاب لصريح أهل الأندلس ، وعبر للمرة الثانية سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٨ م إلى الأندلس . وجهته هذه المرة شرق الأندلس . لأن جماعة من فرسان قشتالة احتلت حصناً هاماً بين مرسية وبلنسية ، يسمى حصن لاييط Alod وأخذوا يقطعون الطريق على المسلمين مما أشاع الفوضى في الشرق كله ، هذا إلى أن السيد القمبيطور كان يعيش في بلنسية وشرق الأندلس كله فساداً ، وكان يرأس فرسان ذلك الحصن الفارس القشتالي المشهور البر هانس .

وسار يوسف بقواته نحو لاييط ، وانتظر أن توافيه حشود الأندلسيين ، ولكن أحداً منهم لم يلب داعي الجهاد ، بل منعوا عنه الأزواد والمؤن ووقفوا منه ومن قواته موقف العداء . وكانت نية يوسف أن يستولى على لاييط ثم يخرج السيد القمبيطور من بلنسية ومن هناك يتجه نحو طليطلة ، ولكن هذا الموقف من أمراء الطوائف جعله يغير رايه ، إذ نفذت مؤنه وطال حصار الحصن دون جدوى ، فانصرف عنه على رغمه عائداً إلى المغرب وقد قرر العودة إلى الأندلس بعد أن يحكم الأمر ويتم عدته . ومع ذلك هان يوسف لم يكسب يرفع الحصار ويرتد جنوباً حتى سارع البر هانس وفرسانه فأخلوا حصن لاييط خوفاً على أنفسهم فاستولى عليه صاحب مرسية ، وأوجس السيد القمبيطور خوفاً من المرابطين .

وفي سنة ٤٨٢ هـ / ١٠٨٩ م عبر يوسف بن تاشفين إلى الأندلس عبره الثالث ، الذي قام فيه بعزل ملوك الطوائف من إماراتهم فيما عدا أمير سرقسطة ، الذي دخل في طاعته ، وتركه يوسف بن تاشفين ليسد الثغر الأعلى الأندلسي المهدد بالخطر ، وفي هذه المناسبة عزل يوسف بن تاشفين . المعتمد بن عباد أمير أشبيلية وأخذه معه إلى المغرب حيث قضى بقية عمره في أغصان جنوبي مراكش وفي هذا المنفى أو الأسر كما يسميه المعتمد ، قال هذا الأمير الشاعر أجمل أشعاره وأصدقها في رثاء نفسه والتحسر على ما ضيع من فرص للعمل والجهاد .

وبهذا اتسعت دولة المرابطين اتساعاً جعل منها دولة كبرى تمتد في قارتين . حدودها الشمالية فيما بين نهر تاجة والواديانة في إسبانيا والبرتغال في أوروبا وحدودها الجنوبية في أفريقية المدارية ، وفي كلتا الجهتين كان على المرابطين أن يواصلوا جهاداً دينياً ، يتطلب سيلاً لا ينقطع من المقاتلين وأموالاً لا تحصى . ولو أن رؤساء الأندلس وقفوا إلى جانب يوسف بن تاشفين وأيدوه وشاركوه في الجهاد لثبتت جبهة الإسلام هناك بصورة يمكن الدفاع عنها . ولكن بينما كان شعب الأندلس يتمنّى للجهاد ويبدى كامل الاستعداد لمواجهة العدو ، كان رؤساء بلاد الأندلس ينصرفون إلى إقامة الصعوبات والعقبات في وجه إخوانهم الذين أقبلوا لإنقاذهم . وبدلاً من السير إلى جانبهم نجد الكثيرين من أهل الفكر في الأندلس يسخرّون من المرابطين ويرفعون عليهم لأنهم كانوا قوماً عنى اليدوة لم تقدمهم الأناثية التي أضغفت حكام الأندلس وجعلتهم عاجزين عن الدفاع عن بلادهم

وقد فرض الأندلس على المرابطين مسئولية ثقيلة ، فقد كان عليهم أن يواصلوا الحرب والجهاد وحدهم على جبهة عريضة شملت خط الواديانة ، لأن الأندلس كانت دار جهاد ، وقد دخلها المرابطون مجاهدين ، وكان عليهم أن يستمروا في هذا الصراع المجيد ، ولم يجد المرابطون من الأندلس عوناً ، فكان عليهم أن يقوموا بالعمل وحدهم . فإذا أضفنا إلى ذلك مسئوليات المرابطين في المغرب ، تبين أنهم حملوا في الواقع من المسئوليات ما كانت قواهم عاجزة عن النهوض به على طول المدى .

كسب المرابطون في الأندلس مواقع كبرى أولها الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ /



١٠٨٦ م ، وفي سنة ٤٩٥ هـ / ١١٠٢ م استرد بلنسية القائد المرابطي محمد بن مزعل ، وكانت قد وقعت في يد الفارس القشتالي روبريجو دي بيبار الملقب بالسيد القمبيطور El Cid Campeador واستعاد المرابطون بعد ذلك عدداً من المدن الأندلسية في شرق الأندلس مثل مريبطر Murviedro والمثارة Almenara والسهلة Santa Maria de Albarracin وغيرها وانتصرت قواتهم على قوات الفونسو السادس في عدد آخر من المعارك عند قنسوجرة Consuegra وقونقة Cuenca وملجون Munzon في سنة ٤٩٤ هـ / ١١٠١ م . وفي سنة ٥٠١ هـ / ١١٠٨ م انتصر القائد المرابطي تميم بن يوسف على قوات قشتالة في معركة دامية عند اقلش Uclis شرقي طليطلة وقتل في هذه المعركة عدد كبير من قواد النصارى منهم سبعة من الأكتاد ، بل قتل الأمير شانجه بن الفونسو السادس . ولهذا سميت المعركة « بمعركة الأكتاد السبعة La Batalla de los Siote Condes » .

وتوفي يوسف بن تاشفين سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٧ م وخلفه ابنه علي ، وبوفاة يوسف بن تاشفين اختفت شخصية من أجل شخصيات تاريخ الإسلام ، وقد سبق أن تحدثنا عن خلاله ومآثره وأعماله وقدرناه قدره ، ومن حسن الحظ أن ابنه علياً كان على شاكلته من ناحية صدق الإيمان والإخلاص لامة الإسلام . وكان أميراً حسن التكوين والتدريب . ولد في المغرب وتربى في الأندلس وشب أميراً عالمًا مجاهدًا يتميز بالعدالة وصلابة الخلق ويتمتع بثقافة عالية ، ومار في آثار أبيه في كل ميادين العمل ، وكان أهم ما شغل باله واستنفد جهده ، الجهاد في الأندلس .

وبينما كان علي بن يوسف يواصل جهوده في المغرب والأندلس بدأ محمد بن تومرت المعروف بمهدي الموحدين دعايته ضد المرابطين واجتهد في تشويه سمعتهم واتهامهم بالمروق عن الدين والتجسيم وما إلى ذلك ، وقد نجحت دعايته لأنه توجه بها إلى فريق آخر من البربر البرانس كانوا يتشوقون بدورهم إلى إنشاء

دولة لهم تضامى ما وصلت إليه قبائل لمتونة ومسوفة وجدالة وغيرها من المجموعة الصنهاجية الصحراوية المرابطية . ولهذا فإن نجاح محمد بن تومرت لا يمكن أن يعزى إلى صدقه في الاتهامات التي وجهها إلى المرابطين ، بل إلى ذكائه في معرفة اللغة التي يخاطب بها المصامدة ويجذبهم بها إلى صفه . وستحدث عن ذلك في كلامنا عن الموحدين .

ويهمنا الآن أن نقول إن علي بن يوسف خلف هذا الملك العريض والحاقل بالمشاكل والمصاعب لابنه تاشفين ، وكان شاباً حسن الاستعداد ، ولكن الظروف التي تولى فيها كانت عسيرة تحتاج إلى رجل ذي تجربة أوسع ، ثم إن محمد بن تومرت استعمل أساليب غاية في العنف والقسوة والبعد عن المألوف في محاربة المرابطين معتمداً على قبائل أكبر وأضخم وأقوى من قبائلهم .

### تاشفين بن علي ٥٣٧ هـ — ٥٣٩ هـ / ١١٤٢ - ١١٤٤ م ونهاية دولة المرابطين في المغرب والأندلس :

وقد اضطرب المرابطون إلى توجيه كل قواهم إلى صراع الموحدين في المغرب دفاعاً عن كياناتهم ، وبهذا حرم الأندلس من جهودهم فيه . ومن أغرب ما حدث في تاريخ الإسلام قيام دولتين كبيرتين من دول الجهاد والذود عن دار الإسلام في نفس الموضع ونفس العصر ، فقد كان القيام الحقيقي لدولة المرابطين سنة ٤٥٢ هـ / ١٠٦١ م عند استقلال يوسف بن تاشفين بالقسم الشمالي من دولة المرابطين ، وقامت دولة الموحدين سنة ٥٢٤ هـ / ١١٣٠ م بولاية عبد المؤمن بن علي . فتلاقت الدولتان في النصف الأول من القرن السادس الهجري / الثالث عشر الميلادي ، وإحداهما في أوج قوتها والثانية في عتقوان شبابها ، فكان لقاءهما بلاء على المسلمين ، ولو تأخر ظهور دولة الموحدين نصف قرن من الزمان

لتعاقبتنا على الجهاد ولكن تعاقبهما نعمة على الإسلام وأمله ، ولكن هكذا شاءت المقادير وخسر المسلمون في هذا التعاصر شيئاً كثيراً ، ولكن النتيجة على الجملة طيبة في النهاية ، فقد خلص المغرب على أيدي الموحدين بعد المرابطين خطوات واسعة نحو الوعي بشخصيته ومسئوليته نحو عقيدته الإسلامية. وظهرت للمرة الأولى فكرة توحيد المغرب في دولة واحدة على يد المرابطين أولاً ثم الموحدين من بعدهم . وهذه في ذاتها معالم واضحة في التاريخ القومي المغربي العام

ونظراً لتداخل تاريخ المرابطين والموحدين خلال الحقبة الأخيرة من تاريخ الأولين والأولى من تاريخ الآخرين ، نستشف هنا بتاريخ المرابطين لنستلمه في أطوار ما سنرى من تاريخ الموحدين .



## دولة الموحدين

### محمد بن تومرت :

كان النجاح الذي لقيه المرابطون في إقامة دولتهم بفضل تفكير الفقيه عبد الله ابن ياسين محركاً لهم المصامدة ، في أن يقيموا هم الآخرون لأنفسهم دولة تضاهي دولة المرابطين ، خاصة وهم أغنى بلاداً وأعز نفراً . وقد ذكرنا في كلامنا عن يوسف بن تاشفين ، أنه أدخل المصامدة في طاعته وساد بلادهم وضمهم مقاتلة منهم إلى جيوشه ، فكان هذا باعثاً آخر حرك في نفوس المصامدة الرقبة في إنشاء دولة لهم ، فهم معظم سكان المغرب الأقصى ، وهم قبائل ضخمة ذات قوة وعدد ، تمتد من شمال المغرب الأقصى إلى جنوبه ، ولا ينقصها إلا توحيد الصقوف والقيادة السليمة . وقد أثاحت الظروف لهم هذه القيادة في شخص فقيه مصمودي من قبيلة هرغة التي تسكن في ناحية من نواحي جبال الأطلس العليا على سهل السوس .

هذا الفقيه هو محمد بن تومرت الهرغلي الذي ولد سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م على وجه التقريب في بيت يغلب عليه طلب العلم ، ولا تعرف عن أصله إلا القليل ، ونسبه كما يسوقه تلعيذه أبو بكر الصنهاجي الملقب « بالبيدق » موضع شك كبير ، فإنه يجعله شريعاً حسنياً ، وهذا مستبعد ، ولكننا نجد أن جده كان يلقب بلفظ « واجليد » وهي صيغة للفظ بربري هو « أجليد » ومعناه الزعيم أو القائد ، ومعنى ذلك أن ابن تومرت كان من أصل مرموق وإن كان رقيق الحال .

واتجه محمد بن تومرت إلى الدراسة والعلم من بداية الأمر ، فدرس في بلده ثم في مراكش وحوالي سنة ٥٠٦ هـ / ١١١٢ - ١١١٣ م ، يشرع في رحلة دراسة طويلة إلى المشرق ، وتفاصيل هذه الرحلة موضع شك كبير ، فإن ابن تومرت يقول إنه وصل فيها إلى بغداد ، ولقي أبا حامد الغزالي ودرس عليه ، ولكننا نستطيع القطع بأنه لم يلق حجة الإسلام أبا حامد الغزالي ولا درس عليه ، لأن الغزالي غادر

بغداد إلى غير رجعة سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م ، ثم تولى في طوس سنة ٥٠٥ هـ / ١١١١ م ، فإذا كان محمد بن تومرت قد غادر بلده متجهاً إلى المشرق سنة ٥٠٦ هـ فهو قطعاً لم يلق الغزالي ، بل إننا نشك في أنه بلغ بغداد . وغاية ما نستطيع القطع به هو أن ابن تومرت وصل إلى الإسكندرية في مصر ودرس على بعض شيوخها . ثم عاد إلى المغرب ، فدرس في القيروان وبجاية وحصل جانباً لا بأس به من العلم بالفقه .

ولا شك في أن محمد بن تومرت كان رجلاً غير عادي الذكاء ، ولكن مواهبه الحقيقية كانت سياسية لا علمية ، وكان العلم عنده نقطة بداية وطريقاً يوصله إلى تحقيق غاياته السياسية . وكانت هذه الغايات غير واضحة في ذهنه أول الأمر ، كما يحدث للكثيرين من أهل المواهب السياسية ، فإنهم يحسون في نفوسهم نزوعاً غامضاً إلى القوة والسلطان ، ويتجهون الوجهة التي توصلهم إلى تحقيق هذه النزعات غير الواضحة في نفوسهم ، وكلما ساروا في الطريق شوطاً اتضح لهم ملكاتهم الحقيقية شيئاً فشيئاً .

وعندما ندرس حياة ابن تومرت نرى كيف أنه وضع كل ما حصله من العلم في خدمة غاياته السياسية ، وهذا الطموح السياسي عند ذلك الشاب الهرغسي مشككة من المشاكل في دراسة حياته ، فهذا الشاب الذي تصدى لإنشاء كيان سياسي ديني فريد في باب في تاريخ الإسلام ، وتمكن من إسقاط دولة كبرى هي دولة المرابطين وإقامة دولة أكبر هي دولة الموحدين ، هذا الرجل كان زاهداً متقشفاً لا يتمسك بأي مظهر من مظاهر الجاه أو السلطان . ولكنه وصل بالفعل إلى جاه ديني وسلطان سياسي بلا حدود ، ثم إنه كان حصوراً لا يأتي النساء ، ومن ثم فلا يمكن القول بأنه كان يسعى لإقامة دولة لبيته ، ثم إنه لم يتخذ وهو في أوج سلطانه لقب الخلافة أو السلطنة أو الإمارة ، وإنما زعم أنه « المهدي » ، والمهدي في تاريخ الفكر السياسي السني الإسلامي صورة صنعها تطلع المسلمين إلى العثور على الحاكم القوي العادل الذي يزيل المفساد والمظالم ويقيم دولة العدل والدين والإيمان والمساواة ، أو الذي يملأ الدنيا عدلاً بعد أن ملئت

جوراً كما يقول المصطلح الذي يستعمل عادة في الكلام على المهديين . ومعظم من  
نقرأ عنهم في شاربختا من المهديين هو أنهم بدأوا فقهاء ثم تحولوا إلى دعامة  
للمعروف ونهاة عن المنكر ، وهذه الدعوة تنقلهم من الفقه إلى السياسة ، ومن ثم  
يندفعون في الطريق السياسي متدثرين دائماً بثياب العلم والفقه والدين .

ويستوقف النظر في تاريخ محمد بن تومرت ، أنه منذ لقي عبد المؤمن بن علي  
رضمه إلى زمرة تلاميذه وأتباعه جعله على رأس أولئك الأتباع واستخلصه لنفسه  
ورشحه لخلافته ، وبالفعل مات محمد بن تومرت وحركته في بدايات نجاحها ،  
فخلقه عبد المؤمن بن علي ، وقد تلقب فعلاً بخليفة المهدي ثم خليفة المسلمين  
واتخذ لقب أمير المؤمنين ، وأقام دولة كبرى ذات نظام وقوة وأصبح خليفة  
جليلاً ، وورث أبناؤه ملكه ، وتمتع هو وأولاده بالقوة والثروة والجاه ، في حين أن  
محمد بن تومرت مات فقيراً زاهداً لا يملك من حطام الدنيا شيئاً وإن تمتع  
بسلطان على أتباعه ، لم يصل إليه أعظم السلاطين .

وإن فشخصية محمد بن تومرت شخصية غريبة معقدة ، وكلما قرأنا سيرة  
حياته كما كتبها خادمه أبو بكر الصنهاجي المعروف «بالبديدق» ، ونقلها عنه  
مؤرخ الموحدين من أمثال ابن القطان وعبد الواحد المراكشي ، تكشف لنا  
جوانب أخرى تريد شخصية هذا الرجل تعقيداً وعموضاً .

وهذا التعقيد يكتنف أيضاً كتاباته التي كانت أساساً للتفكير الديني في  
الحركة الموحدية ، فإذا قرأنا كتابه المسمى «أعز ما يطلب» - وهو أحسن ما كتب  
وعنوانه مشتق من أول عبارة فيه ، وتلخص في أن أعز ما يطلب هو العلم بالدين  
وأصوله وشريعته وأحكامه - وجدنا في هذا الخطاب خليطاً من آراء أهل السنة  
 وأفكار غلاة الشيعة ، الذين يقولون بعصمة الإمام وضرورة طاعته طاعة كاملة  
 وتنفيذ كل ما يأمر به دون مسائلة ، وفيه كذلك أفكار صوفية متطرفة لا يقبلها  
فقهاء أهل السنة والجماعة ، وكلامه كله بعد ذلك فيه غموض متعمد وتكلف  
لأساليب الكهان وأهل السحر ، مما لا زال إلى الآن يحيرنا في أمر عقيدة ابن تومرت  
ومذهبه في الفقه وتفكيره الديني .

تبدأ معلوماتنا الدقيقة بحض الشيء عن حياة محمد بن تومرت أثناء عودته

من المشرق ، وبروبوها لنا خادمه أبو بكر الصنهاجي الملقب بالبندق وابن القطان في كتابه « نظم الجمان » وعبد الواحد المراكشي في كتابه المسمى « المعجب في تلخيص أخبار المغرب » ، وهذه المعلومات في مجموعها حكايات تدور كلها حول أعمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي تصدى للقيام بها ، وممّع أننا لانستطيع التسليم بمعظمها ، إلا أنها تعطينا الصورة التي دخل بها هذا الرجل التاريخ ، وهي صورة فقيه بسيط أمر بالمعروف ناه عن المنكر ، وهي بداية تتفق تماماً مع خطته التي رسمها لنفسه ، وهي اجتذاب الأنظار نحو نفسه والظهور بمظهر المصلح الديني الثائر على ما يقع في هذا المجتمع من مخالفات للدين

عندما يصل محمد بن تومرت إلى تلمسان يلتقي بعبد المؤمن بن علي من قبيلة كومية الصغيرة التي يقال إنها زناتية ، ولكنها تدخل التاريخ على أنها قبيلة «صمودية» ، ومن ذلك الحين يرتبط الرجلان برباط صداقة وعمل فيصبح عبد المؤمن كبير تلاميذ فقيه السوس ورئيس جماعته ، وكان رجال هذه الجماعة قد أصبحوا نفراً غفيراً يسرون حوله وينتقلون معه من مكان لكان

من تلمسان سار ركب الفقيه من السوس إلى وجدة ثم فاس ، وهنا يأمر تلاميذه بتحطيم ما يجدون من أدوات الموسيقى ، ففعلوا ذلك ، فأمر عامل فاس بإخراجهم من البلد ، فذهبوا إلى مراكش ، وقد كثر جمع محمد بن تومرت وانتشر صيته كولي من أولياء الله وفقيه عالم كبير ، لا يتصدى له فقيه إلا أفضحه ، فيما يقول الذين كتبوا عنه . وكان يهتم اهتماماً شديداً بإظهار عظمه الواسع وجعل الفقهاء الذين يحاولون الاعتراض على ما كان يتظاهر به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

انتشر صيت ذلك الرجل في مراكش وأصبح حديثه على كل لسان ، وهنا نسمع أنه هاجم ما كان يسميه بتجسيم المرابطين ، والتجسيم معناه إعطاء الله تعالى صورة مادية أو ملموسة ، كالقول بأن له سبحانه وتعالى وجهاً ويدين وعينين ، أو أن له صوتاً يسمع وما إلى ذلك . وما كان المرابطون يقولون بذلك لأنهم كانوا جماعة سنية مجاهدة تعمل ولا تتكلم أو تكتب ، فلم يكن لأفرادها رأي خاص في أي ركن من أركان الإسلام ، ولكن كان في الفقهاء في المغرب وغيره

عدد كبير من أهل الظاهر الذين يقولون بأنه مادام القرآن يقول ﴿يَذَّابِرْهُمُ اللَّهُ قُلُوبُ الَّذِينَ يَدْرُسُونَ﴾ أي إن يد الله مع الجماعة فلا بد من أن تكون لله سبحانه وتعالى يد دون تحديد صورة هذه اليد أو معناها ، فلا ينبغي أن نقول : إن يد الله سبحانه لأبد أن تكون كأيدينا ، فقد يكون المراد بها شيئاً آخر ، ولكننا لا يجوز لنا أن نتناول تأويل كلام الله بحسب ما يقرأه لنا .

كان نقد ابن تومرت للمرابطين في مظهره على غير حق ، ولكنه كان رجلاً جريئاً لا يخاف السلطة أو رجالها . فعضى يقول كلاماً يرمى من ورائه إلى إثارة غضب رجال الدولة ، فيتعرضون له بالحبس والطرده من المدن ، فيزداد صيته ويكثر جمعه ، لأن الناس في تلك العصور يستهويهم مثل هذا الشخص ويسرهم أن يجدوا إنساناً يتحدى الحكومة ورجالها ، سواء أكان على حق أم باطل ، لأن الفكرة العامة كانت « أن رجال الدولة دائماً على باطل » ومن ثم فكسل ناقد لهم يكون على صواب .

### ابن تومرت بنشئ جماعة الموحدين في تينمل :

ويعد أن تأكد ابن تومرت من تكوين جماعة من الاتباع المخلصين . انتقل بهم إلى موضع في قلب جبال الأطلس قريب من متابع وادي نفيس ، الذي يجري جنوبي نهر تانسيفت ، هذا الموضع يسمى « تينمل أو تينمال » . قرب هذا الموضع أقام محمد بن تومرت سوراً حول المكان الذي أراد أن يجعله مركز أعماله . هذا السور يسمى بالبربرية ( أغمات ) . وكان يقع عند سفح جبل . وسفح الجبل يسمى بالبربرية ( أيجلر أو أيجلس ) . ومن هذا الموضع الحصين أخذ ابن تومرت يتاوش النواحي القريبة منه من البلاد الخاضعة للمرابطين

في نفس الوقت أخذ يربط أنصاره بطقب بحسب إخلاصهم له ، وما سماه سابقة انضمائهم إلى دعوته . هنا نجد محمد بن تومرت يحاول أن يسير في خطى الرسول ﷺ ، فيقول إن تينمل هي دار هجرته ، ثم يقسم أصحابه إل طائفتين كانهم المهاجرون والأنصار من الصحابة ، وصحابة محمد بن تومرت يسمون أهل عشرة أو « آيت عشرة » والأنصار يسمون « آيت خمسين » ، وتلى هاتين



الطبقتين طبقة « المستدركين » بعد التمييز ، أى الذين عُذِّلَتْ مراتبهم بعد الفحص والاختبار . وابن تومرت يظهر هنا ملكة تنظيمية كبرى ، ويقبض بيد من حديد على انتصاره فيعطى « آيت عشرة » سلطاناً كبيراً ويحكمهم فى الناس . ولما كان أفراد « آيت خمسين » كلهم من رؤساء القبائل ، فإنه يسيطر بواسطة على قبائلهم ، وهؤلاء جميعاً بالإضافة إلى المستدركين يعملون عيوناً له بعضهم على بعض . يوافونه بكل صغيرة أو كبيرة مما يقع حوله أو يصلهم من أنباء ، مما يجعل هذا الرجل مطلعاً على كل شئ ، على ظواهر الأمور وبواطنها . وهذا بدوره يلقى له رهبة شديدة فى النفوس . ولهذا نرى أصحابه ينفذون أوامره مهما بلغت من الصعوبة أو القسوة خوفاً من العقاب . وهكذا نجد هذا الرجل يصبح سيداً مطاعاً ومرهوباً فى جماعة كبيرة من المصادمة تطيعه طاعة عمياء حقاً . وتضاف منه خوفاً شديداً . حتى كان يأمر الرجل من أتباعه بأن يقتل صاحبه أو أخاه أو أباه فيسارع إلى تنفيذ الأمر دون تردد .

وهذه المكانة الرفيعة التى وصل إليها محمد بن تومرت جعلته يتخذ لقب الإمام المهدى المعصوم ، أى الرجل الذى اختاره الله لإصلاح حال الدنيا وإقامة ميزان العدل فى الأرض .

بعد ذلك نجد محمد بن تومرت يستخدم أحد أتباعه فى القيام بعملية تصفية جسدية بشعة ، يقضى فيها على كل من يشك فى ولائهم أو فى تصديقهم بأنه المهدى المعصوم حقاً ، فيرتب معه خدعة تسمى « بالتمييز » ، أى تمييز الصالحين من غير الصالحين ، ومصير غير الصالحين هو القتل الشاجز على أبدى رجال قبائلهم . فمات فى هذا التمييز المخيف ألوف من الأبرياء .. وأخس ابن تومرت بعد ذلك أن أمر جماعته قد صفا له ثمناً ، وأنه يستطيع أن يقوم بالخطوة الحاسمة فى تحقيق حلمه السياسى الكبير .

ففى سنة ٥٣٤ هـ / ١١٣٩ م قرر محمد بن تومرت أن يتحدى القوة المرابطية ، فأرسل نحو مراكش جيشاً عدته ٤٠.٠٠٠ من الموحدين ، على رأسه عبد المؤمن بن علي . وقد أخطأ ابن تومرت التقدير ، لأن هذا الجيش الموحدى لى هزيمة شديدة على يد المرابطين ، وهلك فى هذه المعركة نفر كبير من كبار الموحدين

وأيت عشرة ، وذلك في معركة دامية تسمى « يوم البحيرة » ، وكان من بين المهالكين الشيخ أبو محمد البشير ، وهو الذي دبر معه ابن تومرت مذبحة التمييز ، ولم يأسف ابن تومرت على أحد ممن مات مادام عبد المؤمن بن علي قد نجا ! وفي هذه المعركة جرح أبو حفص عمر اينتي أو الهنتاتي وكان ثاني شخصية بين أتباع سعد بن تومرت بعد عبد المؤمن بن علي . وقد مات أبو حفص عمر اينتي بعد ذلك بسنوات ، ولكن رجال الحركة قالوا إنه مات من أثر الجرح الذي أصابه في يوم البحيرة ولقبوه بالشهيد ، وقد ارتفعت مكانته بين جماعة الموحدين خلاصة وقد وقف إلى جانب عبد المؤمن بن علي .

وسيطل أبو حفص عمر الهنتاتي الشخص الثاني للدولة الموحدية ، خاصة وهو رئيس قبيلة هنتاة أقوى قبائل المصامدة إذ ذاك ، ويرث أولاده مكانته . وقد لقب أبو حفص « بالشيخ » ، وأهل بيته بالأشياخ ، وهم يلون في طبقات الموحدين طبقة السادة والمفرد سيد ، وهم آل بيت عبد المؤمن بن علي ، وتلى بيوت السادة والأشياخ بيوت بقية آل عشرة أي « أيت عشرة » ثم « الطلبة » ، وينطق اللفظ في المصطلح المغربي « الطلْبَةُ » بضم الطاء وسكون اللام . ويراد بهم الطلبة الذين يدرسون فقه ابن تومرت ، ويحفظون كتبه ويعلمونها للناس ، ومن بينهم كان يختار معظم موظفي الدولة ومساعدى العمال في الولايات . وكان يوجد منهم نفر في كل مدينة وكل قبيلة موحدية مهمتهم مراقبة أعمال الناس ، والمحافظة على عقيدتهم في المهدى المعصوم ، على اعتبار أن ذلك كان الأساس العقيدى للدولة الموحدية كلها .

بعد هزيمة « البحيرة » بقليل يموت محمد بن تومرت في ١٩ رمضان سنة ٥٢٤هـ / ٢٦ أغسطس ١١٢٠ م ، بعد أن أسلم قيادة الحركة لعبد المؤمن بن علي وقد مات فقيراً محروماً ووحيداً أيضاً ، لأن عبد المؤمن بن علي وأبى حفص عمر وبقية قادة الحركة أخفوا خبر موته ثلاث سنوات ، فلم يعلنوه إلا سنة ٥٢٧ هـ بعد أن تأكدوا أن السلطة كلها قد انتقلت إليهم برئاسة عبد المؤمن بن علي وأبى حفص عمر اينتي .

نستطيع أن نقول : إن هذا الرجل لم يُجَنِّ من جهوده ونشاطه غير المتعاب ،

وإذا صدقنا أن تاريخ ميلاده كان سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م فإن عمره كان تسعاً وثلاثين سنة مجرية عند وفاته ، وهى سن ياكزة جداً ، فإذا ذكرنا العمل الضخم الذى قام به هذا الرجل منذ عودته من المشرق إلى وفاته ، تبين أنه كان رجلاً فذاً حقاً . وأنه كان من صنّاع التاريخ وقادة الرجال رغم كل ما تأخذه عليه من أعمال العنف والقتل ، ولكنه كما قلنا كان رجل سياسة ، والسياسة فى تلك العصور كانت لا تستنكر أعمال العنف والقتل والحيلة والكذب والخداع والظلم . ولابد أن نشك فى تاريخ ميلاده رغم ذلك ، لأنه عندما لقي عبد المؤمن بن علي ، عند تلمسان فى حدود ٥٠٧ هـ / ١١١٢ م كان عبد المؤمن شاباً تخطى العشرين . أى أنه ولد حوالى ٤٩٧ هـ / ١١٠٤ م وكان محمد بن تومرت يكبره بنحو ٢٠ سنة على الأقل ، إذ أنه تبناه .

وقد ارتكب محمد بن تومرت كثيراً من الآثام ليصل إلى النتيجة التى وصل إليها فى ذلك الوقت القصير نسبياً . فقد كان لا يبالي أن يكذب ويّزيف الأحاديث النبوية ويخدع الناس عن قصد ، وكان قليل الاكتراث للدماء فعرض الكثيرين للقتل دون مرر ، ولم بأسف بعد ذلك على موتهم ، وكان يستغل ثقة العوام ذيه وظنهم أنه ولى من أولياء الله أو إمام معصوم كما قال ، فكلّفهم تضحيات كثيرة دون أن تعود عليهم من ذلك أى فائدة .

ولا شك أن محمد بن تومرت كان يعرف أن المرابطين ليسوا مُجسّمين ولا مقصرين فى حقوق الله والدين ، وكان يرى جهادهم فى الأندلس واجتهادهم فى الدفاع عن حوزة الإسلام ، فما الذى دفعه إلى القيام بهذه الحركة التى قضت على دولة مجاهدة وهى فى عنفوان كفاحها ضد أعداء الإسلام ؟ .

لا نستطيع الإجابة على هذا السؤال بصورة مؤكدة ، لأن معلوماتنا عن الرجل قليلة ، أو قل : إننا لا نشق كثيراً فى المعلومات التى لدينا ، لأن معظمها كتب فى أيام المؤرخين ، ولكننا نقول إن هذا الرجل كان مصمودياً فى أعماق نفسه ، وأن حافزه إلى العمل والحركة كان الرغبة فى تجميع المصاعدة والانتفاع بقوتهم لإنشاء دولة مصمودية ، كما عمل عبد الله بن ياسين على إنشاء دولة مرابطية من قبائل صنهاجة الصحراء ، وهذا هو السبب فى تجمع المصاعدة له ، فإننا نجد أنه منذ

أن استقر في تينمال توافدت عليه وفرد قبائل المصامدة

وكان لقب الموحدين الذي أطلقه على أتباعه غير ذي معنى ، لأن كل المسلمين موحدون ولم يكن المتباطون أقل توحيداً من الموحدين وإنما هي تسمية أراد محمد بن تومرت بها أن يوهم الناس أن دعوته تتجه إلى إحياء عقيدة التوحيد الخالصة

ونلاحظ كذلك أن الرجل كان يتمتع بالحرابيا التي نجدها عند كبار الدعاة ومحركي الجماعات مثل كبار دعاة الشيعة ومهدي السودان والسنيوس وغيرهم ممن يوهبون قدرة غير عادية ، على إقناع الناس بأن الله اختارهم لأمر عظيم ، وتوجيههم الوجهة التي يريدون ، وكان ابن تومرت دون شك جارق الذكاء واسع النشاط شديد المكر ، ولكننا لا نلاحظ في كتاباته ما يبرر القول بأنه كان على علم غزير . وعلى أي حال فقد شقى هذا الرجل وأرهق نفسه ليؤثر ثرة جهده لصاحبه عبد المؤمن بن علي . فقد عاش متقشفاً متقللاً من الدنيا ، وكان إلى جانب ذلك حصوياً ، فلم يتزوج أو ينجب .

### عبد المؤمن بن علي ، قيام الدولة الموحدية

٥٢٤ - ٥٥٨ هـ / ١١٣٠ - ١١٦٣ م :

لم يوفق ابن تومرت إلى إنشاء مذهب ديني أو سياسي معين واضح المعالم ، لأن تفكيره الديني كان مشروطاً متناقضاً لا يقدم على علم غزير ، وإنما هو علم سطحي غير متناسق ، احتطبه الرجل دون اهتمام كبير بأساسه العلمي . ليستعمله كوسيلة من وسائل تحقيق مطامعه السياسية ، وينبغي أن ننظر إلى محمد بن تومرت دائماً على أنه رجل سياسة لا رجل دين . فكل تكبير هذا الرجل سياسي وإن أخذ ظاهراً دينياً ، وحتى مبدأ التوحيد الذي يقال إن الحركة كلها قامت عليه ، لا نجد لابن تومرت فيه رأياً جديداً يجعل منه مذهباً محدد المعالم ، بل إن ادعاء المهدية وقوله إنه المهدي الذي يأتي آخر الزمان ، يتناقض آخر الأمر مع التوحيد الحق ، فإن الذين يقولون بإمكانية مجيء « المهدي » ، يفترضون أن الله

سبحانه وتعالى يهبه من لدنه قوة لعمل المعجزات والكرامات ومعرفة الغيب  
ومعرفة ما في الصدور . وهذه كلها في نظر أهل التوحيد الصحيح صفات  
لا يتصف بها غير الخالق سبحانه

فالقول بالتوحيد وبالمهدية وبعصمة الإمام واثام المرابطين بالتجسيم  
والمروق عن الدين وجواز قتالهم وتكوين هياكل أهل آيت عشرة وآيت خمسين  
والمستدركين بعد التمييز والطلبية ، كل هذه تكرينات سياسية أو حزبية إذا شئت ،  
الفرض منها بناء قوة سياسية تتركز في يد المهدي ومن يريشعه للخلافة بعده

الصورة النهائية التي أخذتها هذه الحركة الموحدية صورة دولة قبائلية  
مصمودية . وهذه الدولة هي دولة الموحدين التي قامت على اكتناف قبائل  
مصمودية .

أهم تلك القبائل المصمودية التي قامت على اكتنافها قوة الموحدين « هنتاتة  
وهرة وهزيمة وهزيمة وهيلانة » . ويلاحظ أن أسماء أكثرها تبدأ  
بحرف الهاء ؛ والسبب في ذلك أن هذه الأسماء عُربية وهي في الأصل تبدأ بهجمة  
يعقبها حرف سساكن مثل ( آيت أرعان ) التي عُربت على ( هرة ) ( آيت  
الان أو ايلان ) التي عُربت على ( هيلانة ) ، وآيت اينتي التي عُربت على هنتاتة .

وعبد المؤمن بن علي الكومي ينتسب إلى قبيلة كومية . وهي ليست من قبائل  
المصامدة الكبرى ، بل هي فرع زناتى في الغالب كان يسكن عرب تلمسان ، وقد  
ولد في قرية هناك تسمى « تاجرا » ، ولقي محمد بن تومرت أثناء عودته هذا الرجل  
من المشرق ، وقد تعلق ابن تومرت بعبد المؤمن من أول لقائه له ، ورأى فيه  
خليفته فعلم على دفعه إلى الامام بصورة مستمرة ، وابن تومرت نفسه كان  
حسراً فهو لم ينتخب أولاداً ، ومعنى ذلك أنه كان يشعر أنه يعهد الأمر لصاحبه  
هذا ، وهذه ظاهرة فريدة في بابها في التاريخ ، لأن عبد المؤمن نفسه لا يعد من  
منشئ الدول ولا كانت له الواجب اللازمة لذلك ، وهو مدين في كل شيء  
لصاحبه هذا ، فهو الذي أعده للرياسة وعلمه ودرجه ، وأخذ أتباعه بطاعته مما  
مهله الأمر ، وقضه يتجلى في أنه عرف كيف ينتفع بالتعليم والتدريب ، نعرف  
كيف يتنفض بعبد الخلافة وينظم الدولة ويسير بها إلى الامام .

وفي أواخر أيام ابن تومرت حاول الموحدون بقيادة عبد المؤمن بن علي أن يستولوا على مراكش ، ولكنهم ارتدوا عنها بخسارة كبيرة ، وكان النذرى مزهم الزبير بن علي بن يوسف بن تاشفين .

ويقال : إن اسم الموحدين أطلقه ابن تومرت على جماعته أثناء الاستعداد لهذه الغارة ، إذ أنه كان يحسب أنهم «يسنطعون دخول مراكش والقضاء على المرابطين بسهولة ، فسماهم الموحدين بصورة رسمية زيادة في حماسهم وكذلك سمي جيشهم بجيش المؤمنين ، وسمى عبد المؤمن بن علي بأمير المؤمنين

احتاج عبد المؤمن إلى وقت طويل ليثبت سلطانه ، فإن ابن تومرت توفي سنة ٥٢٤ هـ / ١١٣٠ م ، وأعلنت وفاته سنة ٥٢٧ هـ / ١١٣٣ م ، وقد قضى هذه السنوات الثلاث يجمع الصفوف وينظم الحركة بعد موت صاحبها ، ولكننا لا نسمع عن قيامه بعمل كبير إلا في سنة ٥٣٢ هـ / ١١٣٩ م عندما بدأ التصادم العسكري مرة أخرى بينه وبين تاشفين بن علي ، خليفة علي بن يوسف ، وقد شغل عبد المؤمن نفسه خلال هذه السنوات بالاستيلاء على حصون مرابطية في الطريق إلى مراكش .

بعد ذلك نجد عبد المؤمن يتحاشى مقابلة المرابطين في مراكز سنطاهم في سهل مراكش وما يليه شمالاً ، فيسير بجبوشه شرقى جبال درن ويخترق ممر تازا ، ويصعد شمالاً إلى تلمسان ونواحيها ، وقد تمكن بذلك من بسط سلطانه على مساحة واسعة في المغرب الأوسط . وفي سنة ٥٣٧ هـ / ١١٤٢ - ١١٤٣ م توفي علي بن يوسف وخلفه ابنه تاشفين ، فتشجع عبد المؤمن ومن معه من الموحدين على مهاجمة المرابطين ، خاصة وأن تاشفين بن علي كان شاباً قليل التجربة وإن كان شديد الحماس . وقد مات هذا الشاب صريعاً وهو يحارب الموحدين ويدفعهم عن وهران في يوم ١٧ رمضان ٥٣٩ هـ / فبراير ١١٤٥ م وبموته سقطت وهران وتلمسان ، وأخذ بناء دولة المرابطين يتداعى تحت ضغط الموحدين المتوالي عليها .

وتقد أبدى المرابطون بسالة كبيرة في الدفاع عما بأيديهم من البلاد رغم الظروف العصيبة التي أحاطت بهم ، فلم يستطع عبد المؤمن بن علي الاستيلاء

على فاس إلا بعد حرب طويلة وحصار شديد داماً تسعة أشهر في ذي القعدة ٥٤٠هـ / أبريل ١١٤٦م. وفي محرم ٥٤١هـ / يونيو ١١٤٦م دخل مراکش وقتل إسحاق بن علي بن تاشفين ونفراً من أمراء المرابطين ، وبذلك انتهت الدولة المرابطية وأصبح الموحدون سادة المغرب الأقصى وجزء كبير من المغرب الأوسط .

### تقدير المرابطين :

مهما تصورنا دوافع ابن تومرت للقيام على المرابطين وشن هذه الحرب القاسية عليهم ، فإننا لابد أن نسلّم بأنها حرب لم تكن لها ضرورة . فإن المرابطين لم يكونوا دولة مُلك وسلطان واستمّاع وتدهور سياسي واجتماعي واقتصادي كما هو الحال مع الدول التي تقوم عليها الثورات ، بل كانت دولة جهاد وحرب وإنقاذ ، وعندما قام محمد بن تومرت بدعوته ضد المرابطين كان أميرهم علي بن يوسف ، وهو من خيرة أمراء الإسلام ، فكان ذلك مزيداً من الضعف للإسلام والدولة .

لقد حكم المرابطون المغرب الأقصى وغربي المغرب الأوسط نحو قرن من الزمن فقد دخلوا أغمات سنة ٤٤٩هـ / ١٠٥٧م وسقطت مراکش في يد الموحدين سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م ويمكننا اعتبار هاتين السنتين بداية ونهاية دولة المرابطين في المغرب ، أما الأندلس فقد دخلوه سنة ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م ، فكانهم حكموا ما تيسر لهم منه ٦٠ سنة .

قاماً في المغرب فإن المرابطين هم الذين صنعوا وحدة المغرب الأقصى على النحو الذي ثبتت به في التاريخ ، فقد ظل المغرب من ذلك الحين إلى الآن يشمل البلاد الممتدة من ساحل البحر المتوسط إلى وادي درعة ، وامتد شرقاً من المحيط الأطلسي إلى شريط من الأرض شرقي نهر المولوية ، أما ما بين هذه الحدود جنوبياً وشرقاً ، فقد دخلت في المغرب الأقصى حيناً وخرجت عن سلطانه حيناً آخر ، ففي العصر المرابطي مثلاً كان الجناح الجنوبي من المرابطين يعمل بنشاط في أفريقية الغربية المدارية ، ولكنه كان قد انفصل عن كتلة المرابطين العاملة في الشمال ، وأصبح دولة أخرى ذات طابع آخر واتجاه تاريخي آخر ، فقد كان هذا الجناح

أفريقيًا في طبيعته وروحه ، وإن كان إسلامياً مغربياً في طراز حضارته ، ولم يعد المغرب إلى الامتداد جنوباً إلا أيام سلاطين الشرفاء السعديين ، ولكن ذلك كان اقتساعاً سياسياً وليس تغييراً للحدود التاريخية للمغرب ، وتقصد بذلك بلاد السنغال وما يليها جنوباً ،

وجد المرابطون هذا المغرب الأقصى سياسياً ثم دينياً ، فقد قضوا على بقايا المذاهب المنحرفة من برغواطية وغمارية وما إليها ، وقطعوا دابر المذهب الإباضي والشيعي فيما سادوه من بلاد المغرب الأوسط وإقليم سجلماسة ، وإلى المرابطين يرجع الفضل في الوحدة العقائدية السنية التي تميز المغرب الأقصى .

وأتى المرابطون وحدة المغرب الأقصى الثقافية أيضاً ، فقد كان رافع لواء حركة التصحيح الديني فيه فقيه مغربي استعرب من زمن طويل هو عبد الله بن ياسين ، وقد قام بحركته الدينية بصفته فقيهاً عربياً مصلحاً يعمل على نشر الإسلام السنن والقرآن ولغة القرآن وثقافة هذه اللغة . ويعد أن تحولت الحركة إلى حركة سياسية على يد يحيى بن عمر بن إبراهيم بن ثرغوث ظل الانهاء الثقافي العرس للحركة كلها مستمراً ، ويتمثل هذا فيما يسمى بسيادة الفقهاء في دولة المرابطين ، فقد كان لهم دائماً مكان ممتاز في هذه الدولة ، وفي بعض الأحيان أخذ سلطان الفقهاء ، وهم دائماً عامل تعريب وثقافة عربية ، صورة سياسية وقد وجه نقد كثير إلى المرابطين ، وخاصة إلى علي بن يوسف بسبب سلطان الفقهاء في الدولة ، ولكن هذا الاتهام مفتعل ومبالغ فيه ، فلم يكن للفقهاء في دولة المرابطين من السلطان أكثر مما كان لهم في غيرها من الدول . ولكن الذي لا شك فيه هو أن أولئك الفقهاء قاموا بعمل تعريبي واسع المدى في أنحاء دولة المرابطين ، فساروا خطوة واسعة بما بدأه الأندلس في هذا الاتجاه . وقد كان لأمراء المرابطين اهتمام كبير باللغة والأدب والنثر خاصة . ويعتبر العصر المرابطي العصر الذهبي للنثر الفني في المغرب والأندلس . ففي ذلك العصر ظهر قطاجول الناشئين وكتابات الرسائل ، من أمثال أبي بكر بن الجذ ، وأبي محمد بن أبي الخصال وأخيه أبي مروان ، وأبي بكر ابن القبطونية . وقد أكثر المرابطون من إنشاء المساجد في بلادهم حتى قيل إن يوسف بن تاشفين خطب له على ٦٠٠ منبر ، والمساجد كما تعلم مراكز للعلم العربي الإسلامي .



أما في الأندلس فقد سبق أن ذكرنا كيف أنهم أوقفوا التقدم النصراني بانتصارهم في معركة الزلاقة سنة ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م وكسروا بذلك الموجة التوسعية التي كان يقودها الفونسو السادس ، ملك قشتالة وأرغون ، ثم كسروا كذلك الموجة التي كان يقودها الفونسو الأول الملقب « بالمحارب » ملك أرغون . بانتصارهم عليه في معركة « أفرافة » بعد ذلك بثمانية وأربعين سنة ( ٥٢٨هـ / ١١٣٤م ) ولم يكن الفونسو الأول المحارب أقل خطراً من الفونسو السادس فكان عمل المرابطين بذلك عملاً حاسماً امتد أثره قروناً بعد ذلك . أضف إلى ذلك أن انتصار المرابطين في مواقع أخرى مثل أقلش وتهديدهم المستمر لطلبلة ثم استعادتهم بنسبة في شرق الأندلس قد أعطى الحركة المرابطية قوة كبرى .

كل ذلك أدى إلى ثبات جبهة الإسلام في الأندلس ، بعد أن أوشكت على الانهيار قبيل دخولهم ، وإذا كان عمر الإسلام في الأندلس قد امتد بعد ذلك نحو أربعة قرون فإن الفضل الأكبر يرجع إلى هذه الجماعة الباسلة من المحاضرين

وخلال هذه القرون التي أضاقها المرابطون إلى عمر الإسلام الأندلسي ، كتب أهل الأندلس صفحات زاهرة أخرى في تاريخ الحصاره .

### حكم عبد المؤمن بن علي :

بعد هذه الوقفة القصيرة عند مكان المرابطين في التاريخ نعود إلى استتعام ما استطردنا عنه من أعمال عبد المؤمن بن علي أثناء حكمه .

بعد سقوط مراكش في يد الموحدين وصل سلطانهم إلى ساحل البحر المتوسط وشمل المغرب الأقصى كله من البحر المتوسط إلى وادي درعة ، إذ أن المدن والقبائل في المغرب كله ، حتى طنجة وسبتة في الشمال ، سارعت إلى الدخول في طاعة الدولة الجديدة .

وكان نفر من رؤساء الأندلس قد انتهزوا فرصة انشغال المرابطين بحرب الموحدين في المغرب ، فثاروا بهم وطردها وأعلنوا أنفسهم حكاماً مستبدين في نواحيهم ، وعاد الأندلس مرة أخرى موزعاً بين أمراء محليين ، ولهذا تسمى

فكرة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين « بعصر الطوائف الثاني » ويبدأ من سنة ٥٣٩هـ / ١١٤٤م ، وهي السنة التي نزل فيها تاشفين بن علي ثالث أمراء الموحدين عند وهران وتنتهى سنة ٥٥٢هـ / ١١٥٧م وهي السنة التي تمكن الموحدين فيها من استعادة المرية بعد سقوطها في يد النصارى ، وباستعادة المرية توحد ما بقي من الأندلس مرة أخرى تحت راية الموحدين .

خلال هذه الفترة ظهر من طلاب السلطان في الأندلس نفر كبير ، صفاتهم الأساسية الجشع وقلة الإيمان وقصر النظر ، وقد دخل بعضهم في طاعة الموحدين دون حرب ، ولكن بعضهم الآخر لم يستسلم في سهولة ، وقد وجه الموحدون معهم ناحية غرب الأندلس لأول نزولهم الأندلس سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م وكان غرب الأندلس موضع اهتمامهم طوال مدة حكمهم فيه كلها ، فقد كانت أشبيلية هي عاصمتهم هناك ، وفي غرب الأندلس قاموا بمعاركهم الكبرى ولم يتسع أمامهم الوقت للاهتمام بشرق الأندلس ، وبسطه ، ولكن أعمالهم العسكرية الباهرة في غرب الأندلس أثبتت جبهة الإسلام فيما بقي لهم في شبه الجزيرة كله نحو قرن من الزمان .

وكان أسوأ ما تجم عن أعمال أمراء طوائف فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين هو سقوط المرية في يد الفونسو السابع بن ريموندو ، المسمى عند مؤرخي المسلمين « بالسليطين » ، وقد سموه بالسليطين لأنه تولى العرش صغيراً بعد وفاة أمه الأميرة أراكة ابنة الفونسو السادس . وقد تولى العرش سنة ٥٤٠هـ / ١١٢٦م وتوفي سنة ٥٥٢هـ / ١١٥٧م وكان استيلاؤه على المرية في نفس السنة ، فصعد الموحدون لاسترجاعها . وقد حاول الفونسو السابع السليطين ، الدفاع عنها قدر ما استطاع . وكان يعاونه في حرب الموحدين رعيم أندلسي ممن كان لهم أثر غير محمود في أحداث هذه الفترة ، وهو محمد بن سعد ابن مردنيش ، وكان يقود الموحدين عند هجومهم على المرية السيد أبو سعيد عثمان بن عبد المؤمن الذي ولاه أبوه أشبيلية . ولما رأى ابن مردنيش استحصال المسلمين في استعادة المرية خجل من نفسه وانصرف عن حليفه النصارى ، ووجد الفونسو السابع نفسه وحده أمام المسلمين فأسلم البلدة وولى هارباً ، ثم لم يلبث أن توفي من أثر ما نقى في هذا القتال ، وهذا ثاني ملك من ملوك إسبانيا

النصرانية يقضى عليه المسلمون في حريهم الطويلة للعد الصليبي النصراني في إسبانيا ، والأول هو القونسيو السادس جده - هذا خلا الأمير سانشو ابن هذا الأخير الذي قتل في معركة أفلش . وكانت استعادة الموحدين للحرية في سنة ٥٥٢هـ / ١١٥٧ م ، ويعتبر ذلك بداية لحكم الموحدين في الأندلس .

وباستعادة الموحدين الحرية توحدت بقية الأندلس الإسلامي تحت سلطاتهم فجعل عبد المؤمن ابنه أبا سعيد عثمان والياً عليه كله . وفي سنة ٥٥٥هـ / ١١٦٠م أمر عبد المؤمن ببناء حصن ومدينة على سفح جبل طارق الذي سمي « بجبل الفتح » ، وكان الذي بناه المهندس الحاج « يعيش » وأشرف على البناء السيد أبو سعيد عثمان ، وما زالت قطعة من هذا البناء باقية إلى اليوم في جبل طارق وتعرف باسم الحصن العربي El Castillo Arabe ثم عبر عبد المؤمن بن علي إلى الأندلس وكان له في جبل الفتح استقبال مشهود ، وقد تمت له السيطرة على الأندلس سنة ٥٥٦هـ / ١١٦١ م .

وقد تأخر وصول عبد المؤمن إلى الأندلس لأن أحوال أفريقية والمغرب الأوسط شغلته عقب دخوله مراكش ، فقد ترامى إلى سماعه أن النورمان قد استولوا على المهدية على ساحل أفريقية من أيدي أمراء بني زيري الصنهاجيين ، وكان أمرهم قد ضعف عقب دخول عرب بني هلال إلى أفريقية ، وتخريبهم مدائنهم خلال النصف الأول من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، فسار عبد المؤمن بن علي بجيش موحدى ضم استولى على تلمسان وبقية المغرب الأوسط وكل مدائنه ، ثم دخل أفريقية واحتل بجاية ثم تونس والقيروان ، ثم قصد إلى المهدية ونزل النورمان وما زال بهم حتى استرجعها من أيديهم ، وكان ذلك سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠م التي تعرف في تاريخ المغرب « بسنة الأخماس » ، وهى سنة ترحيد المغرب كله من المحيط الأطلسي إلى قفصة تحت لواء واحد ، ولم تلبث طرابلس أن دخلت في طاعتهم ، ومعنى ذلك أن الخلافة الموحدية شملت المغرب العربي كله ، وهو حدث حاسم يكفى وحده لتخليد ذكرى عبد المؤمن بن علي ، فكيف لو عرفنا أنه في نفس السنة عبر إلى الأندلس ، وضم ما بقى منه إلى دولته ، فجمع بذلك المغرب والأندلس تحت لوائه .

وفي سنة ٥٥٢هـ / ١١٥٧ م تمرد الهلاليون في تونس وانضموا إلى شائر

يسمى عبد الله بن خراسان ومزموا السيد عبد الله بن عيسى المؤمن ، فقرر عبد المؤمن أن يضع حداً لعصيان أولئك العرب ، فخرج في سنة ٥٥٣ هـ / ١١٥٨ م في جيش جرار يقال إنه أكبر جيش موحدى قاده عبد المؤمن ، وتمكن من احتلال تونس ، ثم تقدم نحو المهدية وكانت قد سقطت في أيدي النورمان فحاصروهم حتى سلمت المدينة في سنة ٥٥٤ هـ / ١١٥٩ م ، وكانت بعض بطون الهلالية مثل بنى كامل وبنى رياح وبنى الورد ، قد استبدوا ببعض بلاد تونس مثل قفصة وقابس وتصالحو مع النورمان ، فأرسل عبد المؤمن ابنه عبد الله في حملات إلى هذه النواحي فأدخلتها في دولته ، وخرج هو في حملات أخرى ، ولم تحل سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م حتى كان عبد المؤمن قد مد رواق الدولة الموحدية إلى حدود طرابلس ومكن لسلطان الموحدين فيها ، وقد تم له ذلك في نفس السنة ، وبذلك تكون هذه السنة تاريخاً فاصلاً في التاريخ المغربى كله ، فهي السنة التي تحققت فيها وحدة المغرب السياسية ودخل كله من حدود طرابلس إلى المحيط في دولة واحدة يحكمها خليفة واحد في مراكش ، وفي ذلك الحين كانت تلك الخلافة الموحدية المغربية أقوى الدول الإسلامية وأوسعها ... إلخاً ، فإن الدولة العباسية كانت قد هبطت إلى درة سحق من الضعف ، ولم تكن الدولة الأيوبية قد قامت بعد ، وجدير بالذكر أن الاحتلال الصليبي لاراضى الشام كان إذ ذاك في عنقوانه .

وفي أواخر أيام عبد المؤمن تمرد في الأندلس ثائر يسمى إبراهيم بن همشك ، وعاونته في ذلك صهره محمد بن سعيد بن مردنيش ونفر من رؤساء الجند في الأندلس ، فعبر عبد المؤمن إلى الأندلس وقضى على حركات التمرد وثبت أقدام دولته هناك ، ثم عاد إلى المغرب . وعندما وصل ( سلا ) نزل به المرض ، ولم تزل العلة تتغل به حتى قضى نحبه في ٢٧ جمادى الآخرة سنة ٥٥٨ هـ / يونيو ١١٦٢ م .

حكم عبد المؤمن بن عل أربعاً وثلاثين سنة تعتبر فاتحة عصور الازدهار في التاريخ المغربى . لقد ورث عبد المؤمن عن محمد بن تومرت قوة عسكرية وسياسية ضخمة ، فعرف كيف يستخدمها في إنشاء أكبر دولة عرفها تاريخ المغرب في العصور الوسطى ، فقد امتدت من حط الواديانة في الأندلس إلى وادي

درة في جنوب المغرب ، وترامت من المحيط إلى أحواز طرابلس . وقد أبدى الرجل نشاطاً واسعاً وذكاء كبيراً في إنشاء هذه الدولة . حقاً إن الرجال الذين تولى قيادتهم كانوا من خيرة شعوب العالم الإسلامي وأقواها وأشدّها إخلاصاً للدين في ذلك الحين ، ولكنها كانت أيضاً تحتاج إلى يد قوية لضبطها والتسيطة عليها وتوجيهها التوجيه الصحيح . وقد تيسر ذلك لعبد المؤمن بمواهبه . وأهم هذه المواهب أنه عرف كيف يستفيد من مواهب زملائه من كبار أصحاب محمد بن تومرت ، من أسال أبي حفص عمر أيتي المعروف بالهنتاتي ، وأبي يحيى أبي بكر بن أيجيت ، وأبي إبراهيم إسماعيل الهزرجي المعروف بابيج ، وعمر بن عبد الله المعروف بعمر أزنّاج وعمرهم وكانوا جميعاً رجالاً ذوي ملكات وإخلاص . وقد اعتمد عليهم وعلى ابتائهم من بعدهم محمد بن تومرت وعبد المؤمن بن علي وخلقاته ، وإليهم يرجع جانب كبير من الفضل فيما وصلت إليه دولة الموحدين من قوة واتساع . وهؤلاء كانوا كبار مشيخة الموحدين أي هيئة قيادتهم . وقد تالفت المشيخة من رجال أيت عشرة وأيت خمسين وخلفائهم ، وكانت مشيخة الموحدين عصب قوة الدولة . وعندما ضعف أمر المشيخة بدأت الدولة كلها في الضعف .

### خلفاء عبد المؤمن بن علي :

أبو يعقوب يوسف ٥٥٨ - ٥٨٠ هـ / ١١٦٣ - ١١٨٤ م :

لم يكن يوسف بأكبر أبناء عبد المؤمن ولكنه كان أصلحهم بحسب ما رأى رجال مشيخة الموحدين . وكان في حدود الثلاثين عندما تولى الأمر . وكان قد قضى سنوات طويلة في الأندلس عاملاً على اشبيلية لأبيه ، فتدرب على قيادة الأمور ، وكان ذا ثقافة واسعة وإيمان متين مع أن ملكاته السياسية لم تكن بالمستوى الذي كانت تتطلبه ظروف دولة واسعة كدولة الموحدين . إلا أنه بذل أقصى جهده في القيام بأمرها وساس الأمور في حزم واجتهاد ، فوفق في المحافظة على التراث الضخم الذي صار إليه رغم أنه كان كثير العلل والأمراض

في دولة واسعة كدولة الموحدين . تتكون من أقاليم شاسعة لم يسبق دخولها تحت لواء واحد من قبل مثل الأندلس والمغرب الأقصى والمغرب الأوسط

وأفريقية ، تكون مهمة الحاكم الأولى هي المحافظة على الهدوء والنظام والعدل في نواحي البلاد ، ولكن ذلك كان أمراً عسيراً جداً في ذلك العصر ، ومن هنا لا نخلو سنة من سنوات التاريخ المجددي من قيام ثائر في ناحية من نواحي الدولة . وكان لا بد من الإسراع للقضاء على الفتنة ، وإلا اضطرب حبل الأمن في الدولة كلها .

قامت على يوسف ثورات كثيرة في أفريقية ، وكان قد وعد على طرابلس جماعة من الأيوبيين مع جندهم ، بأن يصد تمهيد هذه الناحية لصالح الدين ، فتحالف معهم نفر من عرب بني هلال ، وأصبح هذا الطرف القصي لدولة الموحدين مصدراً للقلق والاضطرابات ، وقد بذل يوسف جهداً كبيراً في القضاء على الفتن التي قامت هناك .

وقامت كذلك فتن كثيرة في الأندلس ، أثارها محمد بن سعد بن مردانيش كبير ثوار شرق الأندلس . وقد تولى حربه السيدان أبو سعيد وأبو جعفر من أبناء عبد المؤمن ، أي من إخوة يوسف ، وقد تمكنوا من إيقاف خطر ابن مردانيش في سنة ٥٦١هـ / ١١٦٦م .

وتبين ليوسف بن عبد المؤمن أن الأندلس في حاجة إلى عمل حاسم يقضي على خطر ابن مردنيش ويرقف تقدم النصاري ، وكان يتولى عرش ليون وقشتالة إذ ذاك ، الملك فرناندو الثاني ، وكان يتوجس خيفة من إمارة البرتغال التي كانت تسير سيراً حثيثاً نحو القوة في ذلك الحين بقيادة أميرها « الفونسو أنريكي Alfonso Enrique » وهو الذي يكتبه مؤرخونا « ابن الرلق » ويحرفه بعضهم إلى ابن الريق .

لهذا تحالف فرناندو الثاني مع أبي يعقوب يوسف وعهد بمساعدته . فتمكن قوات الموحدين من القضاء على محمد بن سعد بن مردنيش صاحب مرسية وشرق الأندلس ، بعد حرب مضيئة جائلة بالخسائر .

وبعد وفاة فرناندو الثاني تولى عرش ليون وقشتالة الفونسو الثامن ، وكان رجلاً نشيطاً طموحاً شديد الخوف من المسلمين ، فبدأت العلاقات تسوء بين الجانبين وخشى أبو يعقوب يوسف من التقارب بين مملكة ليون وقشتالة وإمارة

البرتغال ، فقرر القيام بحملة كبيرة على غرب الأندلس هدفها إيقاف الخطر البرتغالي خاصة .

سار الجيش الموحدى نحو شنترين Santarén أكبر قواعد غرب الأندلس إذ ذلك وكان البرتغاليون قد استولوا عليها سنة ٥٤٦ هـ / ١١٤٦ م ، وأحس الفونسو أنريكي بقرب الخطر ، فحصد شنترين وشحنها بالمؤن والمعدات ، وأقبل الموحدون فحاصروها . هنا تلاحظ ظاهرة ستكرر كثيراً في التاريخ العسكرى للموحدين ، وهى أن جيوشهم على ضخامتها كان ينقصها النظام وتعوزها القيادة ، ولقد امتاز العصر المرابطى بعظماء القادة ، الذين عرفوا كيف ينزلون الهزائم بالإسبان ، ولكن الموحدين لم ينجبوا قادة من هذا الطراز ، والسبب فى ذلك ربما يرجع إلى أن الموحدين كانوا يصرون على أن يتولى القيادات أفراد بينهم أو أفراد بيت أبى حفص عمر الهنتاتى ، ومن سوء الحظ أن أمراء البيت الموحدى ، وكانوا يلقبون بالأشياخ ، كانت مواهبهم محدودة فى جملتهم ، ولا يكاد يمتاز من بينهم إلا عبد المؤمن بن على نفسه ، وابنه أبو يعقوب يوسف ، وحفيده أبو يوسف يعقوب ، ولهذا قلّت انتصارات الموحدين بعد عصر أبى يوسف يعقوب .

هنا فى حصار شنترين نجد هذه الظاهرة بوضوح ، فلهذا الجيش الضخم الذى يقوده الخليفة بنفسه يعجز عن الاستيلاء على ذلك الحصن ، وفى وقت ما أثناء الحصار ، نجد غير الخليفة يصدر أمراً برفع الحصار والانتقال إلى مدينة أخرى صدر هذا الأمر فجأة ودون إبلاغه إلى بقية الجنود بالطرق التى تقتضيهما النظم العسكرية ، ففوجئ الجنود بغسالميط الخليفة ورجاله ترفع على عجل غاضبوا أمها هزيمة وتبادروا إلى الفرار وانتهز العدو الفرصة فهجم على معسكر المسلمين ، وأصيب الخليفة بسهم يقال إنه كان مسموماً ، وهكذا وفى ساعات قليلة انفرط نظام هذا المعسكر الضخم ، ونزلت به خسائر فادحة ، وحمل الخليفة الجريح فى سَحْفَةٍ ، وعاد الجيش أدراجة ، وبعد ليثتين من السير مات الخليفة أبو يعقوب يوسف فى ٧ رجب سنة ٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م .

وعلى أى حال فأبو يعقوب يوسف كان دائماً رجلاً مريضاً ، وفى تتبعنا لتاريخه نجده يصاب بالمرض بعد المرة ، حتى لقد ظل مرة سنة كاملة

مريضاً طريح الفراش ، ولهذا يذهب بعض المؤرخين إلى أنه مات إثر مرض أصابه أثناء الحصار .

تولى أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن في السابعة والأربعين من عمره ، وكان رجلاً شهماً نشيطاً بذل أقصى جهده في القيام بواجبه ، وقد سار بالدولة خطوات واسعة إلى الأمام ، وهو يعد من كبار الخلفاء والسلاطين في تاريخ المغرب الإسلامي .

### أبو يوسف يعقوب المنصور ، الدولة الموحدية في ذروتها

٥٨٠ - ٥٩٥ هـ / ١١٨٤ - ١١٩٩ م :

تعتبر السنوات الخمس عشرة التي حكمها أبو يوسف يعقوب المنصور ، ثالث الخلفاء الموحدين ، العصر الذهبي للدولة الموحدية والذروة التي وصل إليها التطور السياسي في المغرب نحو التواجد وإقامة الدول الكبرى في العصور الوسطى ، ولقد كان ذلك العصر الذهبي قصيراً ، لا يتناسب مع دولة ضخممة مترامية الأطراف غزيرة الثروة والموارد مثل الدولة الموحدية ، فإن خلفاء الموحدين حكموا بلاداً تضاهي ما حكمه العباسيون في أوج قوتهم ، وكانت تحت إمرتهم حشود من الجند القوي القادر على كسب المعارك لم تتيسر للكثير من الدول في التاريخ الإسلامي كله ، فقد كانت جيوش الموحدين تعج بحشود من خيرة أبناء القبائل المغربية من المصامدة أولاً ، ثم من بقية الصنهاجيين ، بل الزناتيين أيضاً ممن اجتذبتهم الدولة الموحدية بقوتها وهيبتها ، ثم أضيفت إلى هؤلاء حشود من العرب الهلاليين الذين انضموا تحت لواء الدولة الكبيرة المظفرة ، ولم يخل الأمر من قوات أندلسية ذات قدرة ومهارة ، لأنه إذا كان زعماء الأندلس قد انتابهم التدهور الخلقي والنفسي ، فإن شعب الأندلس نفسه ظل قوياً مؤمناً صامداً رغم الكوارث المتوالية .

بالإضافة إلى ذلك ، أنشأ الموحدون قوة من الحرس للخليفة من العبيد ، ممن



كانت الدولة تشتريهم من بلاد السودان ، ولهذا كانوا يسمون « عبید المخزن » (١) أو « الدائرة » لأنهم كانوا يحيطون بقسطاط الخليفة أثناء الحروب كأنهم دائرة . وقد كان عبید المخزن هؤلاء أو عبید الدائرة قوة عسكرية لها خطرهما ، وقد حاربت دائماً في قوة وحماس وإخلاص ودافعت عن الخلفاء في استماتة

رغم هذه القوات كلها كانت القوة العسكرية الموحدة دائماً مفككة ، تنقصها القيادة الحازمة التي تقبض على الجيش قبضة محكمة ، وتوجه الأعمال وفق خطة واحدة مرسومة ، كما نرى في جيوش العرب الأولى ، وفي جيوش صلاح الدين والمماليك والأتراك العثمانيين . وكان أبو يوسف يعقوب المنصور من الموحدين القلائل الذين استطاعوا قيادة جيوشهم قيادة سليمة محكمة ، وكان الرجل في نفسه كذلك رجلاً حازماً موهوباً في شئون الإدارة والقيادة العسكرية ، وكان شديد الإيمان فانتقل إيمانه إلى رجاله وكسبت جيوش الموحدين في أيامه قوة ضاربة كبرى .

### ثورة بني غانية المسوفيين :

ومن سوء الحظ أن دولة الموحدين ابتليت في أيام أبي يوسف يعقوب هذا بمشكلة بدأت صغيرة في حجمها وأهميتها أول الأمر ، ولكن عجز الإدارة الموحدية عن معالجتها بالصورة الناجعة جعل منها مشكلة ضخمة ، استنزفت من دماء الدولة وجندما جانباً كبيراً ، وأصبحت في النهاية من أسباب سقوط الدولة كلها

تلك هي مشكلة بني غانية المسوفيين ، ويبيغى أن نقرأ اسم بني غانية بتشديد الياء ، لأن مؤسس بيتهم . محمد المسوفي يتسب إلى أمه وكانت من غانة ، فهي غانية ، وكانت النسبة إلى الأمهات شائعة بين المرابطين ، فهناك أبو عبد الله ابن عائشة ، وأبو بكر بن الصحراوي ، ومحمد بن قنق ( اسم امرأة ) وهكذا لأن الرجال كانوا يتزوجون كثيراً ، فينتسب الأولاد إلى أمهاتهم تمييزاً لهم بعضهم عن بعض في البيت الواحد .

أول من نسمع به من رجال تلك البيت ، أبو زكريا يحيى بن غانية ، الذي أقامه علي بن يوسف على بعض أعمال قرطبة ، وأثبت أنه قائد ماهر . وقد توفي أبو زكريا يحيى سنة ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م .

( ١ ) المخزن : مصطلح معرّبي يراد به الدولة ، فيقال : بلاد المخزن أي البلاد التابعة للدولة

وقد تولى أخوه محمد بن غانية الجزائر الشرقية . وهي البلغار منذ سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م ، وظل يحكمها حتى سقطت دولة المرابطين نهائياً . وعندما عبر الموحدين إلى الأندلس وأدخلوه في طاعتهم ، ظل محمد بن غانية مباحداً لهم ، ثم عمد إلى عذاراتهم ، وكان أمناً منهم ، طالما عاش محمد بن سعد بن مردنيش ، الذي كان يسيطر على شرق الأندلس . ولكن بعد موت هذا سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م ووصول الموحدين إلى بلنسية ومرسية وشاطبة وبلاد الساحل الشرقي ، كان على بنى غانية أن يحددوا موقفهم من الدولة الجديدة ، وكان محمد بن غانية قد توفي سنة ٥٥٠ هـ / ١١٥٥ م وخلفه ابنه عبد الله ثم أخو هذا إسحق بن محمد ابن غانية ، ثم محمد بن إسحق بن محمد بن غانية ، وقد مال محمد إلى مصالحة الموحدين والدخول في طاعتهم ، ولكن إخوته الكثيرين رفضوا ذلك وخلصوه وولوا مكانه أخاه علي بن غانية ، فأسرع هذا بإعلان الثورة على الموحدين ، وقرر أن يحوض معهم معركة طويلة ، خاصة وقد لجأ إليه الكثيرون من بقايا المرابطين ممن امتلأت قلوبهم حقداً على الموحدين أو خافوهم على أنفسهم

وكان علي بن غانية رجلاً جريئاً مقداماً مغامراً ، ومن الغريب أن إقدام مسلمي عصور الانحطاط كان لا يظفر إلا إذا حاربوا إخوانهم العرب والمسلمين . أما إذا حاربوا أعداء بلتتهم وجنسهم فهنا لا نرى إقداماً ولا بسالة

فكر علي بن غانية في أن يخرج بأسطوله ويغير على أفريقية ، مفتح بذلك جبهة جديدة أمام الموحدين . والحق أن تكفيره هذا كان شيطانياً ، لأن أفريقية كانت بعيدة جداً عن قلب الدولة الموحدية ، ثم إن نواحيها كانت عامرة بالعرب الهلالية ، المستعدين دائماً للاشتراك في أي عمل يفتح لهم أبواب السلب والنهب وإملاق العنان ، لما جيلوا عليه وعرفوا به من الغارة أو الغزوة والسلب والنهب

وربما كان أحسن ما عمله الموحدون في هذا الظرف ، وهم أمام عدو خطر هر دول إسبانيا النصرانية ، أن يدعوا جانباً موضوع الجزائر الشرقية وبنى غانية فيها ، ولا يشغلوا أنفسهم كثيراً بأمر أفريقية حتى يفرغوا من العدو النصراني ولكن الذي حدث هو أنهم لم يتخذوا هذه السياسة ، بل اهتموا أشد الاهتمام ببنى غانية ، ومضوا يرسلون الحملات تلو الحملات على أفريقية ، ففقدوا الألوف من خيرة رجالهم وأنفقوا الملايين في حرب عقيمة بلا نهاية . لأن بنى غانية وأحلافهم

من العرب جعلوا الصحراء ملجأهم ، فكلما ضيق المرحدون عليهم الخناق فروا إلى الصحراء ، ثم لا يلبثون أن يعودوا من جديد ، واستمرت هذه المطاردات سنوات طويلة استنزفت جانباً كبيراً من قوة الدولة وشروتها .

وقد تصدى أبو يوسف يعقوب المنصور لبني غانية في حزم وأنزل بهم مزيمة قاصمة في شعبان سنة ٥٨٢ هـ/ أكتوبر سنة ١١٨٧ م ، وهرب على بن غانية وحلقاؤه من العرب والغز أو الأغزاز ، وهم المعروفون في تاريخ مصر والشام بالماليك أو الترك إلى الصحراء ، واستراح أبو يوسف يعقوب من شرمهم إلى حين .

### جهاد المنصور في الأندلس انتصار الأرك العظيم :

انتهاز أبو يوسف يعقوب المنصور فرصة الفراغ مؤقتاً من أمر بني غانية واتجه بقواه نحو الأندلس ، وكان الموقف قد عاد إلى التخرج فيه ، إذ أن الضغط النصراني على الأندلس كان قد أصبح كسيل متدفق ، جرف السدود ولم يعد ينفع فيه إلا عمل حاسم من أعمال الإنقاذ الكبرى ، كذلك التي قام بها نور الدين ثم صلاح الدين في المشرق ، وكان صلاح الدين معاصراً لأبي يوسف يعقوب المنصور .

توفي الفونسو أنريكي ملك البرتغال في أواخر سنة ٥٨١ هـ/ أواخر سنة ١١٨٥ م وخلفه ابنه سانشو الثاني ملك البرتغال ، وقد عقد العزم على انتهاز فرصة انشغال الموحدين ببني غانية ، ليستولى على بعض بلاد غرب الأندلس ، وقد اشتد ساعده بحشود صليبية كان بعضها في طريقه من غرب أوروبا إلى بلاد الشام ، فكانت تنزل ببعض الموانئ البرتغالية في طريقها ، وتمكن سانشو من إقناع بعض رجال إحدى هذه الحملات بمعاقبته في الاستيلاء على « شلب » ، وكانت من أكبر موانئ ما بقي من غرب الأندلس في أيدي الموحدين . وبالفعل تمكن سانشو والصليبيون ومعظمهم من « القلمك » ( أي من الهولنديين ) والإنجليز في هذه المناسبة من الاستيلاء على « شلب » في رجب سنة ٥٨٥ هـ/ سبتمبر سنة ١١٨٩ م بعد أن دافع أهلها عنها دفاع الأبطال .

حرك سقوط شلب أبيا يوسف يعقوب المنصور إلى العمل ، فقرر أن يقوم بغزوة كبرى على غرب الأندلس يعيد بها الأمور إلى نصابها .

احتفل المنصور الموحدى احتفالاً فحماً بغزوته تلك ، فاستنفر الناس في كل نواحي بلاده ، وأعد أحسن فرق جنده ، ودعا العرب إلى الاشتراك معه في الجهاد ، ولا شك أن أخبار انتصار صلاح الدين على الصليبيين في حطين سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٧م واسترجاعه القدس قد زاد في حماسه ، وأثار في المسلمين موجة متدفقة من الحماس ، فتقاطر الناس على المعسكرات ، واشترابت النفوس إلى النصر . وفي أواخر المحرم سنة ٥٨٦هـ / أوائل سنة ١١٩٠م . تحرك المنصور من رباط انفتح نحو الأندلس بعد أن أصدر أمره إلى الحشود بموافاته في أشبيلية ، وأخذت الألوف من المسلمين طريقها إلى الموعد المضرروب ، وجدير بالذكر أن أعداد المتطوعة ، أي المسلمين الذين ندبوا أنفسهم للجهاد حسية لله تعالى ، كانت تعدل قوات الجيوش الرسمية أو تزيد قليلاً ، وقد تمكن المنصور من استعادة شلب وعدد آخر من الحصون سنة ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م ، ثم شغلته شواغل أخرى . والم به مرض طويل فتعطل إتمام غزوته الكبرى على الأندلس .

وفي أوائل سنة ٥٩٦هـ / ١١٩٤ م ، اكتملت أهبة المنصور لغزوته الكبرى فعمير إلى الأندلس بحشود ضخمة ، وأخذت القوات الأخرى تتوافد إلى أشبيلية

وعندما علم الفونسو الثامن ملك قشتالة بذلك ، أسرع فاستنفر كل ملوك إسبانيا النصرانية ، واستصرخ البابوية ، فوافقه حشود كبيرة يقودها فرسان ذرو خبرة وتجربة في الحروب ، وتقدمت هذه الحشود فأخذت مكانها في سهل فسيح حول حصن يسمى الاراك ALRAK على صافة الوادي « آة » وإلى الغرب من مدينة « ثيوداد ريال » الحالية ، ودارت رحى المعركة في ٩ شعبان سنة ٥٩٦هـ / ١٨ يوليو سنة ١١٩٥م وانجالت عن انتصار ساحق للمسلمين ، وأفلت الفونسو الثامن بعدد قليل من فرسانه ولاذ بالفرار نحو طليطلة ، وقد كان لهذه الحركة أثر بعيد يشبه أثر معركة الزلاقة .

وبعد ذلك انصر الذي ثبت حدود الإسلام في الأندلس على خط الوادي آة ، أرسل المنصور قرقاً من الجيش استعادت الكثير من حصون غرب ندلس ، ويتوجه هو نحو طليطلة عاكداً الحرم على الاستيلاء عليها ، ولكن الشتاء

كان قد حل ، فلم يزد المنصور على تخريب عدد من الحصون وحرق الزروع وما إلى ذلك . وفي نفس الوقت قام الفونسو التاسع ملك ليون حليف المنصور ، بمهاجمة أراضي قشتالة واجتياحها ، ومن الغريب أن المنصور لم يحاول - في أي غزوة قادمة - الاستيلاء على طليطلة . ولو أراد لفعل دون مشقة كبيرة ، ولا ندرى لماذا أحجم عن ذلك وكان إجحامه سبباً في ضياع ثمرات نصر الأرك العظيم ، فقد أتاح الفرصة للفونسو الثامن ليستجمع قواه ويأخذ بثأره في أيام محمد الناصر ابن أبي يوسف يعقوب المنصور .

وقد عاد المنصور بعد ذلك مرة أخرى إلى الأندلس . ولكنه لم يقم بأي عمل عسكري كبير ، واكتفى بأعمال التنظيم والإدارة ومحاسبة العمال ورجال المال وما إلى ذلك .

وتوفي المنصور في ٢ ربيع الأول سنة ٥٩٥ هـ / ٣ يناير سنة ١١٩٩ م بعد أن أتم ٣٩ سنة ميلادية وبضعة أيام ، فقد ولد في أواخر ذي الحجة سنة ٥٥٤ هـ / يناير سنة ١١٦٠ م . وهذه الوفاة الباكرة تستوقف نظرنا ، لأن الرجل كان منهكاً خائراً القوي قبل تلك بأربع سنوات ، أي أنه كان ضعيف البنية مصاباً بأمراض لا نعرفها ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن أباه أبا يعقوب - وهو قد توفى في السابعة والأربعين من عمره ( ولد في سنة ٥٢٣ هـ / ١١٣٩ م وتوفى في ١٠ جمادى الثانية سنة ٥٥٨ هـ / ١٦ مايو سنة ١١٦٣ ) وتوفى في ١٨ ربيع الآخر سنة ٥٨٠ هـ / ٢٩ يولييه سنة ١١٨٤ ) وأن ابنه أبا محمد عبد الله الناصر توفى في الرابعة والثلاثين من عمره ( ولد في أواخر سنة ٥٧٦ هـ / ١١٨٠ م وتوفى في ١٢ ربيع الأول سنة ٥٩٥ هـ / ١٧ يناير سنة ١١٩٩ ، وتوفى في ١٠ شعبان سنة ٦١٠ هـ / ٢٥ ديسمبر سنة ١٢١٢ ) لكان لنا أن نقرر أن ذلك الخط من البيت الموحدى كان مصاباً بشيء ، إذ ليس من الطبيعي أن يموت رجل وسنه ٤٧ سنة وابنه وسنه ٢٧ سنة وحفيده وسنه ٣٤ سنة .

ولقد خلد أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدى اسمه بكسبه معركة الأرك ، وإذ كنا نأخذ عليه أنه لم يحاول اجتناء ثمرها ، فإننا ينبغي أن نذكر أنه مات في ذهرة العمر ، وأنه لو عاش لكان حربياً أن يقوم بأعظم مما قام به في الأرك ، فقد كان شاباً ذكياً قادراً متحمساً قوياً الشخصية عارفاً بشئون الملك وسياسة

الدول ، ومن ثم فلا نستطيع الحكم عليه حكماً نهائياً ، لأن الذي لدينا هو نصف حياة قحسب ، فإن الخلفاء والسلاطين يبدأون العمل في السن التي تورث فيها هذا الشباب الذي غاله الموت وهو في ريعان الشباب وإقبال العمر .

**خلافة أبي محمد عبد الله الناصر سنة ٥٩٥ هـ - ٦١٠ هـ / ١١٩٩ - ١٢١٣ م :**

خلف أبا يوسف يعقوب المنصور ، ابنه أبو محمد عبد الله الملقب بالناصر ، وكان يوم ارتقى العرش في الثامنة عشرة من عمره ( ولد في أواخر سنة ٥٧٦ هـ / ١١٨٠ م ) وكان شاباً قليل الذكاء ، وقد تجلت قلة ذكائه في صورة استبداد بالأمر ورفض لقبول النصيحة من رجاله ، وكان أبوه قد نصحه بالآلا قطع رأياً دون مشاورة أبي حفص محمد بن أبي حفص وكان رجلاً عاقلاً عالي السن بعيد النظر ، ولكن الناصر لم يكن له هم بعد أن ثبت سطاتنه إلا مخالفة هذا الشيخ العاقل الحكيم .

بدأ الناصر حكمه بداية طيبة ، فقد رأى أن يفرغ أولاً من ثورة بني غانية في الجزائر الشرقية ، أفريقية ، وكان إسحاق بن علي بن غانية قد تمكن في سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٩ م من الاستيلاء على تونس فزاد أمر الثورة خطورة . بدأ أبو محمد الناصر بتوجيه حملة بحرية كبرى على الجزائر الشرقية للاستيلاء عليها ، فتم له ذلك في ربيع الأول سنة ٦٠٠ هـ / ديسمبر سنة ١٢٠٣ م ، وأقيم عليها عبد الله بن طاع الله الكومي والياً ، وبهذا يكون الموحدون قد قطعوا جذور بني غانية في الجزائر الشرقية ( البليار وهي ميورقة ومنورقة ويابسة ) وبقي عليهم أن يقطعوا فروعهم في أفريقية والمغرب الأوسط ، وبعد ذلك بسنتين ، ( في ٢ ربيع الأول سنة ٦٠٢ هـ / ١٧ أكتوبر سنة ١٢٠٥ م ) أنزل الموحدون ببني غانية وأحلامهم بقيادة يحيى بن إسحاق الميوقى هزيمة ساحقة في ثاجرا قرب قابس ، وأعقب ذلك دخول الموحدين تونس والمهدية والقضاء نهائياً على فتنة بني غانية .

**ميلاد الدولة الحفصية نهاية بني غانية - الطوارق :**

وقد قام أبو محمد عبد الله الناصر بتأمين النتائج التي وصل إليها في أفريقية

بقرار يعتبر أسلم وأحكم قرار اتخذ في حكمه . اختار لولاية أفريقية أصلح رجال دولته وأكثرهم تجربة ، وهو أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص عمر الهنناتي . وقد عارض أبو محمد في قبول هذا العرض أول الأمر ، لأنه ظن أن المراد إبعاده عن مسرح الحوادث - وربما كان هذا هو ما رمى إليه الناصر في حقيقة الأمر - ثم قيل بشرط أن تطلق يده في الولاية إطلاقاً كاملاً فلا يتدخل في شؤنها أحد ، وأن يختار من جنود الدولة قوة كافية تؤيده ، وأن يكون تعيينه لمدة ثلاث سنوات فقط قبل الناصر هذه الشروط .

وقد أثبت أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص كفايته من أول الأمر ، فعندما حاول يحيى بن إسحاق بن غانية الميورقي انتهاز فرصة عودة الخليفة إلى المغرب لتجديد غاراته ، أوقع به أبو محمد هزيمة قاصمة عند تبسة في إقليم الزاب في ٢٠ ربيع الأول سنة ٦٠٤ هـ / ٢٤ أكتوبر سنة ١٢٠٧ م . وتعتبر هذه الواقعة النهاية الحقيقية لنشاط بني غانية في أفريقية ، وتعتبر كذلك بداية نجاح أبي محمد عبد الواحد في عمله وتثبيت أقدامه في ولايته الجديدة .

وانتجى بنو غانية وحلفاؤهم من العرب الهلالية وخاصة من زغبة وعوف ودياب والزواودة نحو المغرب الأوسط وهاجموا تلمسان ، فأسرع أبو محمد وأنزل بهم هزيمة قاصمة أخرى في جبل نفوسة ، وقد انجلت هذه المعركة عن وقوع معظم أموال بني غانية وأزوادهم ومخزن أسلحتهم في يد الموحدين ، وكان هذا هو السبب الرئيسي في ضياع أمرهم بعد ذلك لأنهم افتقدوا إلى المال والسلاح . وفي هذه الموقعة أيضاً قتل عدد كبير من رؤساء العرب الهلالية ، مما هبط بقدرتهم بعد ذلك على الشعب والغارات والسلب والنهب .

وظل أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص يحكم أفريقية في كفاية وحزم حتى وفاته سنة ٦١٨ هـ / ١٢٢١ م ، فخلفه ابنه أبو محمد عبد الله بن أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص حاكماً لأفريقية ، تحصت إشراف أمير موحدي هو أبو العلاء إدريس بن أبي يوسف يعقوب المنصور . ولكن السلطة كلها كانت في يد أبي محمد الحفصي . وفي ربيع الثاني سنة ٦٢٣ هـ / أبريل ١٢٢٦ م ، أصبح أبو محمد بن عبد الواحد والي أفريقية منفرداً بولايتها وحده ، وبعد ذلك عشر سنوات أصدر الخليفة الموحدي أبو العلاء المأمون أمراً بتعيين أبي محمد حاكماً

لأفريقية بصفة دائمة ، فسار إليها مع أخويه أبو زكريا يحيى وابن عبد الله اللحياني ، فدخلوها في ذي القعدة سنة ٦٣٢ هـ / يولية ١٢٣٦ م ، وقام أبو محمد بتوزيع ولايات أفريقية على أهل بيته ، ومن ذلك حين بدأ استقرار بني حفص في حكومة أفريقية بصفة دائمة ، ويمكننا اعتبار هذا التاريخ بداية للدولة الحفصية في تونس .

وقد حاول يحيى بن غانية بعد ذلك الإغارة على أفريقية فلم يتيسر له الوصول إلى شيء ، وتحول هو ومن معه من شذاذ البدو إلى لصوص ، يغفرون على البلاد ثم يغفرون إلى الصحراء ، وكانوا يعتصمون أحيانا في تلمسان وأحيانا أخرى في سجلماسة ، وفي سنة ٦٣١ أو سنة ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ م أو ١٢٣٦ م توفي يحيى بن إسحاق بن غانية في مدينة مليانة على نهر شلف في الجزائر بعد أن أرسل بناته إلى أبي زكريا يحيى الحفصي ، وأوصاه بتعهدهن ، وقد برهن أبو زكريا وأسكنهن في بيت خاص وعرض عليهن أن يزوجهن فرفضن ويقين عانسات حتى الموت ، وتلك كانت نهاية ذلك البيت من شوار المرابطين الذين قضوا حياتهم في معارك طاحنة مع الموحدين ، لم يدفع إليها إلا الحقد والرغبة في الانتقام . وقد أضعفت هذه الحركة قوات الموحدين بما امتصت من دمائهم نحو نصف قرن كامل دون أن تعود على بني غانية بطلان . وهنا نجد مثلاً من مئات على ما فعل المسلمون بعضهم ببعض بدافع الحقد وقصر النظر . بينما العدو الأكبر - نصارى إسبانيا - يهددون عرب الأندلس جميعاً بالقضاء .

أما بقايا جند بني غانية فكان معظمهم من قبائل مرابطية مثل مسوفا وجدالة وتارجا ، وكانت تارجا من صفار قبائل المرابطين الصنهاجيين الصحراويين ، ولكن منازلها كانت في قلب الصحراء ، ولهذا كانت ملجأ بني غانية الأخير ، ونسبت بقاياهم وقلولهم ، التي تابدت في القفر من ذلك الحين ، إلى هذه القبيلة التي عُرب اسمها إلى « طارقة » والنسبة إليها طارقي والجمع طوارق ، وهذا هو أصل الطوارق أصحاب اللثام الأزرق وأولاد الصحراء وسادتهم إلى اليوم ، فهم بقية المرابطين ، هذه العصبة المجيدة من حماة الإسلام .

### موقعة العقاب وانتهيار الجبهة الإسلامية في الأندلس :

اشتغل الخليفة الموحدي الرابع أبو محمد عبد الله الناصر بأمور أفريقية منذ



بدأ خلافته سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٩م ولم تعد الجيوش الموحدة الكبيرة تعبر إلى الأندلس ، فتشجع الفونسو الثامن ملك قشتالة وأخذ يغير من جديد على أطراف الأندلس الإسلامي ، وقد بدأ في ذلك بعد انتهاء هدنة كان قد عقدها مع المنصور الموحدي وكانت نهاية الهدنة سنة ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م وأراد الناصر أن يقوم بغزوة تضاهي غزوة أبيه المنصور ، فقرر العبور إلى الأندلس والإيقاع بقوات النصراني ، فجمع حشوداً هائلة وعبر إلى الأندلس في نهاية سنة ٦٠٧هـ / يونيو ١٢١٠م ، واستقر في أشبيلية ، وهناك أخذت الجموع تتوافد عليه حتى أصبح جيشه يعادل جيش أبيه الذي كسب موقعة الأرك ، ولكن بينما كان أبوه ذكياً حكيماً ، عرف كيف يستفيد من القوات التي كانت معه على خير وجه ، عجز هذا الشاب عن ذلك . النتيجة أن نفر منه الأندلسيون وخاصة بعد أن قتل أكثر قوادهم أبا محمد بن قادن قبيل المعركة ، قتله غدرًا وظلماً نتيجة لوشاية وصلت إليه .

وكان الفونسو الثامن ملك قشتالة قد عقد العزم على الأخذ بثأر هزيمته في الأرك ، فعقد هدنة مع ملكي نافار وأرجون واستنجد بالبابوية ، وشيئاً فشيئاً توجدت الجبهة المسيحية الإسبانية ، وأثت أعداد كثيرة من بقية أوروبا أي أن الناصر الموحدي كان يواجه في الحقيقة حملة صليبية كبرى .

وكانت خطة القتال التي رسمها الناصر لنفسه سليمة ، فقد قرر أن يسرع بالاستيلاء على خاتق « دسنياسروس » ، وهو الباب المؤدي من قشتالة إلى جوض الوادي الكبير - ويسميه العرب « مطرد الكلب » - فإذا تم له الاستيلاء على ذلك المعبر جبال دون النصرى ودخول الأندلس بقوات كبيرة وتمكن من القضاء على من يدخل منهم .

وقد بدأت الحملة بداية طيبة فتحرك الناصر بجيش جرار في أوائل سنة ٦٠٨هـ / أواخر يولييه سنة ١٢١١م ، ودخل جيان وحصنها ثم تركها إلى خاتق مطرد الكلب . وعسكر في السهل الواقع أمام مخرج المضيق ، وغو سجن مرء باللال الصخرية القليلة الارتفاع ، وتسمى العقاب بكسر العين ، جمع عقبة بفني العين والعاف وهي في الإسبانية nava وجمعها navas وهي التل أو العقبة ، ولما كان ذلك الموقع قريباً من قرية صغيرة تسمى تولوسا فإن معركة العقاب تسمى في النصوص الإسبانية Las Navas de Tolosa ، وتمكن الناصر من الاستيلاء

على حصن شلبطرة Salvasierra القريب من أبدة Ubda وكان معقل فرسان  
الداوية ، ثم عاد الناصر إلى أشبيلية ليستكمل استعداداته ،

وفي محرم سنة ٦٠٩ هـ / يونية سنة ١٢١٢ م ، سار الناصر بجحافل نحو  
مطرد الكلب ، وفي نفس الوقت اتجهت قوات النصرانية كلها نحو هذا الموقع ولم  
يسبق أن اجتمعت لحرب المسلمين قوات نصرانية كهذه ، فقد كان فيها ملوك  
قشتالة وليون ونافار وأرجون ومعظم كبار فرسان إسبانيا النصرانية وقوات  
ألمانية وفرنسية وبرتغالية ، وتمكنت هذه القوات من الاستيلاء على قلعة رباح  
التي كان يحميها القائد الأندلسي أبو الحجاج يوسف بن قادس . وعندما وصل  
الناصر وبلغه الخبر أمر بقتل ابن قادس ومن معه ، فنكر منه الأندلسيون وقرروا  
أن يغدروا به في المعركة .

وبالفعل غدروا به في المعركة الهائلة الفاصلة التي وقعت يوم الاثنين ١٥  
صفر سنة ٦٠٩ هـ / ١٧ يولية سنة ١٢١٢ م . وعرفت باسم معركة « العقاب » .

وكانت المعركة قد بدأت بمحاولة نصرانية لرحضة جماعات المتطوعة  
المعسكرة في الجانب الغربي من الديران . وفشل النصارى في ذلك فحاولوا التماس  
من الناحية الشرقية التي كان يعسكر فيها الأندلسيون والعرب ، فهرب  
الأندلسيون وتبعهم العرب ، واختزلت القوات النصرانية صفوف الجيش  
الموحدى ، فاضطرب نظامه ووصلت بعض الفرق إلى فسطاط الناصر نفسه  
وبدأت مذبحه كبرى انتهت بتبديد ذلك الجيش الموحدى الضخم . ويتبدد تلاشى  
كذلك الأمل في تمكن المسلمين من الثبات في الأندلس . وقد هلك في هذه المعركة  
ألف من خيرة محاربي المسلمين وعشرات الألف من أنجاد البربر . ولهذا تعتبر  
هذه الهزيمة النهاية الحقيقية لقوة الإسلام في الأندلس

وقد توفي الناصر بعد ذلك بشهور قلائل في ١٠ شعبان سنة ٦١٠ هـ / ٥  
يناير سنة ١٢١٣ م ، وموته يعتبر أيضاً نهاية عصر القوة للدولة الموحدية .

### الدولة الموحدية بعد هزيمة العقاب :

خلف الناصر ابنه أبو يعقوب يوسف بن محمد الناصر الذى تلب

بالاستنصر ، وقام عليه اقرباؤه في الأندلس والمغرب ، وبدأت الحروب الأهلية والمناقصات التي انتهت بقيام حلفائهم القدامى وهم بنو مروين الزناتيون بدخول مراكش والقضاء على آخر الموحدين في سنة ٦٦٨هـ / ١٢٧٠م . وكان على رأس بني مروين ، أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق الذي ينتسب إلى بني مروين الزناتيين . وفي هذا التاريخ تنتهي أسرة الموحدين ويحل محلهم في المغرب الألقصى بنو مروين .

أما في الأندلس فكانت هزيمة الأرك إيثاناً بالنهاية ، فقد تشجع ملوك النصارى ومضوا يستولون على الحصون الإسلامية دون مقاومة تقريباً . ولكن بدء التصفية المحزنة كان سنة ٦٢٤هـ / ١٢٢٧م عندما قام أبو الغلاء إدريس عامل إشبيلية ، بالمصاداة بنفسه خليفة للموحدين ، منافساً لأبي زكريا يحيى بن الناصر الذي يبيع له في مراكش في ذلك الوقت ، وكذلك منافساً لأخيه أبي عبد الله محمد الذي كان والياً على مرسية في شرق الأندلس ، فترك ولايته ومضى إلى مراكش حيث بايعته مشيخة الموحدين وقد لقب « بالعادل » . وقد أخذ أبو الغلاء إدريس الذي تلقب « بالأمون » كل ما استطاع من القوات الإسلامية في الأندلس ، وترك البلاد عارية بدون حماية وعبر إلى مراكش ليطلب الخلافة ، فأخذت كبار العواصم تسقط وأنهار خط الوادي الكبير وفيما بين سنة ٦٢٣ وسنة ٦٤١هـ / سنة ١٢٢٦ — ١٢٤٣م سقطت قرطبة وإشبيلية وجيان ومرسية وبنسسية والحزائر الشرقية ( البليار ) فكانت تصفية محزنة . ويكفي أن نذكر أن قرطبة عاصمة الأندلس الزاهرة سقطت في ٢٢ شوال سنة ٦٣٣ هـ / ٢٩ يونيو سنة ١٢٣٦م في يد فرناندو الثالث ملك قشتالة الملقب بالقدوس دون أن يدافع عنها أحد .

وبعد سقوط هذه القواعد وضياع خط الوادي الكبير ، تجمعت بقايا المسلمين في الأندلس تحت لواء محمد بن نصر بن الأحمر ، الذي اعتصم في جبال غرناطة واتخذها مقراً لمملكة صغيرة بدأ تاريخها في سنة ٦٢٠هـ / ١٢٣٣م . واستطاعت الحفاظ على الركن الجنوبي من الأندلس ، وهو ثمن شبه الجزيرة تقريباً ، حتى سنة ٨٩٧هـ / ١٤٩٢م عندما سقطت غرناطة في يد فرناندو وإيزابيلا وانتهت

## دولة الإسلام في الأندلس<sup>(١)</sup>

ولا نزاع في أن دولة الموحدين تعتبر من عظيمات الدول في تاريخ الإسلام . لقد بلغت بتاريخ المغرب ذروته خلال العصور الوسطى وتمكنت من تحقيق وحدته وحكمه بالفعل لفترة طويلة من طرابلس إلى المحيط ومن ساحل البحر المتوسط إلى مشارف أفريقية المدارية ، هذا بالإضافة إلى ملكهم في الأندلس .

وفي هذه المساحة الشاسعة بلغت الحضارة المغربية والأندلسية أوجاً جديداً . فبلغت الحضارة الإسلامية في المغرب أرقع درجة وصلت إليها في تاريخها . وعلى الرغم من تشدد جمهور الموحدين وبعدهم عن العلوم التي لا تتصل مباشرة بالدين ، يعتبر عصرهم العصر الذهبي للفلسفة الإسلامية في المغرب والأندلس ، فهو عصر ابن طفيل وابن رشد وهما من أعظم الفلاسفة في تاريخ الفكر الإنساني ، وفي ذلك العصر أيضاً ظهر محيي الدين بن عربي أعظم الصوفية والفلاسفة المسلمين .

وترجع قدرة الدولة الموحدية إلى اعتمادها أساساً على فرع ضخم من فروع البربر اشتهر بصلابته وتعاسكه وصحة إيمانه هو فرع المصامدة ، وهم معظم سكان المغرب الأقصى في تلك العصور . وكان المصامدة مجموعاً كبيراً من القبائل التي عمرت المغرب كله من شماله إلى جنوبه ، وتركزت مجموعها الأساسية في جبال الأطلس بفرعها الأطلسي والصحراوي وما بينهما من هضاب وسهول مثل سهل السوس . في هذه البيئة الطبيعية الغنية المتنوعة عاشت جماعات المصامدة منذ الأزل حرة في جبالها ومراعيتها ومزارعها لا يطرق وطنها طارق ، حتى دخل الإسلام بلادهم على يد عقبة بن نافع أولاً ، ثم عن يد موسى بن نصير ورجاله . وقد احتاج المصامدة إلى قرون طويلة ليتمكن الإسلام في قلوب رجالها وينشأ فيها وعى بكيانها وقوتها وما يمكن أن تقوم به . ولقد خضع الكثير من قبائل مصمودة للمازيطين ، وتعلموا الكثير منهم ، ثم جاء محمد بن تومرت ففتح لهم أبواب القوة بتوجيههم بقيادتهم في طريق القوة والعمل السياسي والديني .

وكان محمد بن تومرت كما قلنا منظمًا من الطراز الأول ، ومهما كانت المآخذ على تفكيره وأساليبه في العمل السياسي ، فقد كان الرجل منظمًا قديراً وإنشأه

( ١ ) تفاصيل تلك وأودة في القسم الأندلسي من هذا الكتاب .

للمؤسسات التي قامت عليها قوة الحركة الموحدية - أيث عشرة وأيت خمسين والعلابة بصفة خاصة - يدل على أن الرجل أدرك عالم يديره غيره من منشئى الدول في العصور الإسلامية الماضية ، وهو أن الدول تقوم على مؤسسات لا على أفراد من الرجال ، لأن أفراد الرجال من الممكن أن يقيموا بنياناً سياسياً ، ولكن استمرار هذا البنيان لا يتم إلا إذا كانت هناك مؤسسات ذات صيغة شرعية وقانونية ، تقوم عليها الدولة وترتبط بين السلطة الحاكمة وجمهور الناس . وقد ظن معظم مؤسسى الدول الإسلامية أن « الأسر » هي المؤسسة تؤيدها قوة عسكرية من الجند المرتزق ، فلم يكتب لها البقاء طويلاً ، ولم يلبث الضعف أن دب إلى كيانها وانتقل السلطان من البيت الحاكم إلى سنده وهي القوة العسكرية ، لأنها المؤسسة التي قامت عليها قوة الدولة ، ولكنها كانت دائماً مؤسسة هشّة غير متماسكة ، لأن الجند المرتزق لا يمكن أن يكون مؤسسة شرعية يكتب لها دوام أو تتحقق بها شرعية

فهم محمد بن تومرت ذلك ، ولذلك فقد بنى المؤسسات الدستورية التي تقوم عليها قوة الحركة وتضمن استمرارها ، وهي مشيخة الموحدين ، وبالفعل عندما مات محمد بن تومرت ... سارت المشيخة وأقامت الدولة ، وبفضلها تمكن عبد المؤمن بن علي من إنشاء دولة الخلافة الموحدية .

ومن حسن الحظ أن الذي قاد المشيخة بعد محمد بن تومرت تلميذه وصفيه عبد المؤمن بن علي ، يعاونه رجال ذوو إيمان وصلابة ، تؤيدهم قبائل قوية وأهلهم أبو حفص عمر أيتتى ، الذي تقع الدولة بشخصه وأهل بيته وقبيلته منتساة ، أعظم النفع ، وبفضل التعاون والالتحام بين البيت الحاكم والمشيخة ، بين السلطة الحاكمة والمؤسسة الدستورية اشتد ساعد الدولة الموحدية وتمكنت من تحقيق حقيقة تاريخية كانت تبدو مستحيلة ، وهي توحيد المغرب كله ومواصلة عملية إنقاذ ما بقي من الأندلس .

ومن سوء الحظ أن عبد المؤمن قهر الولايات والقيادات على السادة وهم أهل بيته ، والأشباخ وهو بيت أبي حفص عمر . وكان البيت الموحدى فقيراً جداً في الرجال ، قياساً على ابنه أبي يعقوب يوسف وخفيده أبي يوسف يعقوب المنصور ، لا نكاد نجد أبداً موحدياً واحداً ذا قدرة أو كفاية ، هؤلاء السادة مسئولون عن

ضياح الدولة وخاصة آبناء أبي يوسف يعقوب المنصور : أبي عبد الله محمد المعروف بالعدل ، وأبي العلاء إدريس المعروف بالمأمون ، وأبي محمد عبد الله المعروف بالبياسي ، فهؤلاء الثلاثة زلزلوا كيان البيت الموحدي وخاصة أبو العلاء إدريس المأمون ، وهو الروح الشريرة التي عصفت بذلك البيت المجيد وقصمت ظهره وكادت تقضى على الأندلس جملة .

وقد أوجزنا تاريخ الموحدين ، وبقي أن نقول : إن دولتهم تمكنت من مواصلة العمل المجيد الذي بدأه المرابطون من إقامة صرح الحضارة المغربية ، فقد حفل العصر الموحدي بالآداب والشعراء والمفكرين والعرفاء أي المهندسين الذين أقاموا منشآت بديعة مثل مسجد « الكتبية » ومسجد تينعلل ومسجد أشبيلية الجامع وحدائقه التي فضل أمرها أبو مروان عبد الملك ابن صاحب الصلاة ، وكذلك جامع حسان وفر مسجد لم يتم ، وبقيت صومعته أي مثذنته المسماة اليوم بصومعة حسان - علماً باقياً على دولة مجيدة وحضارة زاهرة ، ورمزاً كذلك على أن تلك الدولة تدهورت قبل الآن ، وأن تلك الحضارة الزاهرة لم ترزق من العمر ما يمكن لها من الوصول إلى غاياتها ، فإن ضعف الموحدين شجع بني مرين وبني وطلح وبني زيان الزناتيين ، على العمل على إزالة ملكهم والحلول محلهم ، وتمكنت هذه الجماعات القبلية الزناتية من ذلك ، وعادت بالمغرب إلى عصور سيادة زناتة ، وهي عصور اتصفت بالفوضى والاضطراب والحروب الأهلية وانحراف مسيرة الحضارة عن طريقها السوي .

\*\*\*

القسم  
الثاني

# الأندلس

## مدخل بـبليوغرافى لتاريخ الأندلس

كما فعلنا فى دراستنا للجزء المغربى من هذا الكتاب ، عندما قدمنا له بمقدمة بـبليوغرافية ، تعرف بالموارد التاريخية التى نعتد عليها فى كتابة تاريخه ، فكذلك نبدأ تاريخ الأندلس بمقدمة بـبليوغرافية وصفية . تعرف فيها بمصادره ما بين أصول ومراجع .

فيما يتصل بتاريخ شبه الجزيرة الإيبيرية فى عصورها الإسلامية ، لدينا روايتان أساسيتان: الرواية العربية ، والرواية غير العربية ما بين لاتينية وإسبانية وبرتغالية . ولا غنى لمؤرخ الأندلس عن الرجوع إلى الرواية غير العربية بمختلف لغاتها وخاصة ما كتب منها فى شبه جزيرة إيبيرية باللاتينية أو الإسبانية أو البرتغالية ، لأن تاريخ الأندلس كما ذكرنا آنفاً إنما هو تاريخ صراع بين الإسلام والنصرانية على مصر شبه الجزيرة ، والكثيرون جداً من العرب الذين يكتبون تاريخ الأندلس يقتصرون على الروايات العربية على اعتبار أن الأندلس كان قطراً إسلامياً عربياً ، مثله فى ذلك مثل مصر والشام والعراق مثلاً ، ومن هنا فإن أهمية الرواية غير العربية أهمية ثانوية . ولكننا رأينا فيما رويتا من تاريخ الأندلس أن الأمر على خلاف ذلك ، فإن العرب عندما دخلوا شبه الجزيرة ، دفعوا بمن بقي من ساداتها القدماء ، وهم القوط ومن انضم إليهم ممن اختار مقاومة الإسلام ، إلى أقاصى الشمال وحصرهم عند سفوح جبال البرث من ناحية ، وخلف جبال الكتينية من ناحية أخرى فيما يعرف « بأشتريس وخليقة » . وفى هذه الأراضى القليلة الجبلية الوعرة انحصر أولئك النصارى وعاشروا آمنين ، خاصة بعد أن أخرجوا من أشتريس الحامية العربية التى كان موسى بن نصير قد خلقها قريباً من الموضع الذى وقعت فيه موقعة « كوفادونجا » عند جبل شبية . وهى الصيغة العربية لاسمه بالإسبانية Auseba .

وسنرى أن المسلمين - بسبب قتلهم عدداً أول الأمر ، ثم بسبب الحروب التى نشبت بينهم وبعضهم البعض خلال عصر الولاة ، وما كان بينهم وبين البربر من



نزاع طويل ، وما أعقب ذلك من مجاعة شملت الأندلس بعد ثلاثين سنة تقريباً من الفتح أى حوالى سنة ١٢٢هـ / ٧٤٠م — تركوا الربع الشمالى الغربى لشبه الجزيرة خالياً من سكانه المسلمين ، فأصبح منطقة فراخ لا يعمرها أحد ، ابتداء من منتصف المسافة بين نهري « الدويرو » و« المنيو » حتى ساحل بسكاي ، فكانت تلك فرصة لنصارى الإسبان المنحصرين في الشمال لكي يمتدوا إلى الجنوب ويعمروا هذه النواحي وخاصة ما كان فيها من مدن ومراكز عسكرية رومانية قديمة من أمثال : ليون وأماييه وأشرقة وسهاجون « وما إليها . وفي عصر الملك ألفونسو الثالث نقلوا عاصمتهم إلى ليون وسيطروا تماماً على حوض المنير ، وامتدوا إلى حوض منديق ، بل وصلوا إلى حوض الدويرو أى أن مملكتهم التي أصبحت تسمى مملكة أستريس وليون ، أصبحت دولة قوية ذات أراض واسعة وموارد وافرة ومدن عامرة ونظم سياسية قائمة .

هذا عن الجانب الغربى من شمال شبه الجزيرة . أما الجانب الشرقى ويشمل حوض نهر الإيرو ، وما يليه من الأراضى شمالاً حتى « لاردة » و« شفة » و« تطيلة » ، أى ذلك القسم من الأندلس الذي عرف باسم « الثغر الأعلى » ، فإن سلطان العرب قد وقف عند سنوح جبال البرت المعروفة بالبرانس ، واحتضرت قوات نصرانية في إمارات صغيرة قامت في جبال البرت ، وجسر من السهول جنوبها ، وأهمها في الغرب إلى الشرق نيرة وعاصمتها « بلبونة » ثم ثلاث كونتينات جبلية صغيرة هي من الغرب إلى الشرق : « أرغون » و« شرب » و« ريباجورثا » ، وتلك هي الكونتينات الثلاثة التي ستتألف منها فيما بعد مملكة أرغون ، أما في أقصى الشرق أى في المنطقة الواقعة شمال مصب نهر إيرو والتي تمتد عبر السهل الساحل المؤدى إلى غالة وعى فرنسا ، وتستمر حتى مصب نهر الرون فقد كانت تسمى « سبتمانية » وقد ملكها العرب أول الأمر ثم تركوها بعد انهزامهم في موقعة بلاط الشهداء ١١٤هـ / ٧٣٢م وتمكنت مملكة الفرنجة من احتلالها في نفس الوقت الذي قامت فيه الإمارة الأمورية الأندلسية ، وأنشأت فيه ما عرف بالثغر الإسباني وتجول فيما بعد إلى كونتينة قطلونية ، ولم يحاول المسلمون إلا في مناسبات قليلة استعادة قطلونية ، فظلت أرضاً نصرانية فرنجية أولاً ثم إسبانية بعد ذلك . وقد انضمت قطلونية هذه في أوائل القرن الثامن عشر الميلادي ونشأت عن ذلك مملكة

أرغون الكبيرة ، التي تضاعف حجمها بعد استيلاء ملوكها على الثغر الأعلى الأندلسي وقاعدته سرقسطة سنة ٥١٢هـ / ١١١٨ م على يد الفونسو الأول المعروف بالمحارب . وقد بلغت هذه المملكة أوجها في عهد ملكها « خايمة » الأول المعروف بالكبير الذي تمكن من الاستيلاء على شرق الأندلس حتى بلنسية وضم إلى بلاده الجزائر الشرقية المعروفة بالبلليار ، فأصبحت مملكة أرغون بذلك مملكة واسعة ثرية ، تنافس في سيادة شبه الجزيرة مملكة قشتالة وليون التي توسعت على حساب المسلمين وأصبحت أقوى دول الجزيرة بعد استيلاء ملكها ألفونسو السادس على طليطلة ٤٧٨هـ / ١٠٨٥ م .

وعندما اتخذت مملكة قشتالة وليون مع مملكة أرغون بزواج « إيزابلا » ملكة قشتالة وليون « بفيليب الثاني » ملك أرغون ، أصبحت الممالك النصرانية هي القوة الرئيسية في شبه الجزيرة ، خاصة إذا ذكرنا قيام مملكة البرتغال في غرب شبه الجزيرة جنوب نهر الدويرو .

ومعنى ذلك أن تاريخ شبه الجزيرة في العصور الإسلامية لا يقتصر على دول المسلمين بل يشمل دول المسلمين والنصارى معا ، ولا يكتمل هذا التاريخ إلا إذا درس المؤرخ الجانبين معا بنفس العناية والاهتمام ، لأن تاريخ شبه الجزيرة أيام الإسلام كان صراعاً متصلاً على المصير ، والاقتصار على دراسة الجانب العربي لا يعنى إلا نصف الصورة فقط . وإذا كنا ندرس عُباد الرحمن الثلاثة : الداخل والأوسط والناصر لدين الله ، ونقف عليهم بتاريخ الحكم المستنصر وعصره الزاهر والمنصور . محمد بن أبي عامر وما بلغه الأندلس أيامه من قوة لا يكاد يقف في وجهها أحد ، فإننا ينبغي أيضاً أن نذكر أنه كان في الناحية الأخرى كذلك ملوك عظام لهم أكبر الأثر في تشكيل صورة الجزيرة ، بل انتهت قصة الأندلس بالصورة التي صاغوها فيها ، من أمثال ألفونسو الأول والثاني والثالث ملوك ليون ، وسانشو الكبير ملك نبرة والفونسو الأول المحارب ملك أرغون . والفونسو السادس ملك قشتالة وليون . والفونسو الثاني ملك قشتالة وليون أيضاً وخايمة الكبير ملك أرغون ، « ألفونسو - أنريكي » ملك البرتغال .

لهذا يتعين على دارس الأندلس لكي تكون دراسته صحيحة وعلى أساس ، أن يدرس إسبانيا الديمقراطية كما يدرس إسبانيا الإسلامية ، حتى يخرج في النهاية

بصورة معقولة تقسر له السبب فيما نسميه عبادة بضياغ الأندلس وهذه أيضاً  
تسمية خاطئة لأن بلاد شبه الجزيرة إذا كانت قد ضاعت من المسلمين فقد  
كسبها آخرون وما نسميه نحن ضياغاً إنما هو كسبٌ بالنسبة لهم . وميزان  
الحكم في النهاية هو قاعدة الحياة على وجه الأرض ، وهي أنها صراع بين البشر  
والغلبة للأقوى والأصلح والقادر على الصمود ومواصلة الكفاح .

لهذا قلنا إن موارد تاريخ الأندلس تتكون من روايتين ، الرواية العربية أي  
الأصول والمراجع المكتوبة بالعربية ، والرواية غير العربية أي المؤلفات  
والمدونات والوثائق وما يجري مجراها المكتوب بلغة الغريبة

### الرواية العربية :

كتب العرب في الأندلس وعن الأندلس كثيراً جداً ولكن الجانب الأكبر مما كتب  
الأندلسيون عن أنفسهم ضاع في غمرة الصراع الطويل بين المسلمين والنصارى  
على مصر شبه الجزيرة ، فجزء منه فقد كما يفقد الكثير من الكتب لقلة نسخها ،  
وبعضها حمله المهاجرون الأندلسيون إلى مهادهم فتبدد معظمه وبقي القليل .  
وجزء آخر قصى عليه الإسبان والبرتغاليون بالإحراق والتدمير .

ولا غرابة والحالة هذه في أننا لا نملك شيئاً كاملاً من مطبوعات تاريخ الأندلس ،  
وقد ألف الأندلسيون في تاريخ بلادهم مطبوعات كثيرة فلم يبق لنا منها إلا أطراف  
نعثر عليها قطعاً في المكتبات أو تفاريق في كتب ألقت في عصور متأخرة في المشرق  
ورغم ذلك فإن ما لدينا من أصول التاريخ الأندلسي كثير وافز والحمد لله .  
ولقد قال « غرسيه غومس » في كتابه الصقير المسمى « الشعر الأندلسي » وقد  
ترجمناه للعربية ، « أننا لا نملك من دواوين الشعر الأندلسي إلا عدداً قليلاً جداً .  
وبقية ما لدينا من ذلك الشعر إنما هي نثر كالنثر الذي يبقى من تحطيم إمام من  
البلنور . ومع ذلك فعلى أساس هذا النثر نستطيع أن نكتب تاريخ الشعر الأندلسي  
لأنه كان من الوفرة بحيث أن القليل الباقي منه يمكننا من كتابة تاريخ متصل  
وكامل تقريباً للشعر الأندلسي .

وأهم أصول التاريخ الأندلسي هو ما بقى لنا من كتابات أحمد بن

محمد الرازي أبي التاريخ والجغرافية في الأندلس ، وقد أشرنا إليها خلال كلامنا في  
بيلوغرافية المغرب ، ومن ثم فلن نتحدث عنها هنا .

ومن حسن الحظ أن عميد مؤرخي الأندلس بعد محمد بن محمد الرازي وابنه  
عيسى بن أحمد ، وابن حيان ، وهو أبو مروان حيان بن خلف بن صعب بن حيان  
ابن محمد بن حيان صاحب المقتبس ، (المولود في قرطبة سنة ٢٧٧هـ / ٩٨٧م  
والمتر في فيها سنة ٤٦٩هـ / ١٠٧٦م وقد وفاه حقه من الدراسة الدكتور محمود  
علي مكى في المقدمة الإضافية التي كتبها للجزء الذي نشره من مقتبس ابن حيان  
ويتناول أواخر عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط وعصر ابنه الأمير محمد ونشره في  
بيروت مع تعليقات وإافية سنة ١٩٧٣

وقد نشر جزءاً من مقتبس ابن حيان ، « الاب ملشور أنفونيا » في باريس سنة  
١٩٣٧ ويتناول عصر الأمير عبد الله .

ثم نشر الدكتور عبد الرحمن علي الحجّي في بيروت سنة ١٩٦٥م جزءاً آخر  
من مقتبس ابن حيان يتناول خمس سنوات من عصر الحكم المستنصر .

وأخيراً نشر مستشرق إسباني هو الدكتور « بدرى شاليما سندررون »  
بالاشتراك مع الدكتور محمود صبح جزءاً كبيراً من المقتبس يتناول نحو عشرين  
سنة من تاريخ عبد الرحمن الناصر لدين الله . وبهذا يكون بين أيدينا جانب  
لا بأس به من تاريخ ابن حيان للأندلس الذي يعتبر أحسن ما بقي لنا مما كتب في  
ذلك التاريخ ، لأن ابن حيان استقصى في كتابه هذا ، المقتبس ، ما كتبه مؤرخون  
كبار سابقون عليه من أمثال أحمد بن محمد الرازي وعيسى بن أحمد الرازي  
ومعارية بن هشام الشيبانسي صاحب كتاب « تاريخ بني أمية » في الأندلس  
وأبي بكر بن عباد بن ماء السماء الذي ألف كتاب « تاريخ شعراء الأندلس » وأبو  
الوليد الفريضي وكان له كتاب كبير في تاريخ الأندلس ، وسكن في إبراهيم الكاتب  
وأبي عمر يوسف بن عبد البر وغيرهم .

ولابن حيان كتاب آخر يُعتبر إلى الآن في حكم المفقود وهو كتاب « المتن » ،  
وهو كتاب ألفه ابن حيان في تاريخ عصره مطبوعاً وافرأ بالتفاصيل ، وقد يناد قبل  
كتابه المقتبس ثم قلعه عندما قامت الفتنة ثم أتمه بعد ذلك ، ودون فيه تراجم أهل  
عصره وأهم ما وقع فيه من أحداث ، وعصره هو عصر الطوائف أي القرن الخامس  
الهجري / الحادي عشر الميلادي .

وكما احتفظ لنا ابن حيان في المقتبس ، بالكثير من قطع تاريخ الرازي وغيره  
 معن سبقه إلى كتابة تاريخ الأندلس ، كذلك احتفظ لنا مؤرخ أندلسي آخر  
 هو « ابن بسام أبو الحسن علي التشتريني » المتوفى في قرطبة سنة ٤٤٢ هـ /  
 ١١٤٧ م ، بقطع كبيرة من كتاب المئين لابن حيان ، التي تتناول نقراً كثيراً من كبار  
 الشخصيات الأندلسية في عصر الطوائف وكتاب « الذخيرة في محاسن أهل  
 الجزيرة » لابن بسام كتاب في تاريخ الأدب الأندلسي في عصر ابن بسام ، وقد  
 قسمه إلى ثلاثة أقسام : أدباء الموسطه أى وسط الأندلس ما بين شعراء وناثرين ،  
 وأدباء غرب الأندلس ، وأدباء شرق الأندلس . وقد عثرنا على الكتاب كاملاً ونشرت  
 منه أجزاء تتناول الموسطه والغرب وبقي منه جزء الشرق ، وتراجعته وتراجع  
 ابن بسام وأقية مطولة ، تلقى ضوءاً على أحوال الأندلس في عصره وقد استوعب في  
 كلامه جانباً كبيراً مما كتبه ابن حيان في « المئين » الذي ضاع .

ومن أصول تاريخ الأندلس التي لا يستغنى إنسان عن قراءتها ، كتابان  
 صغيران ولكنها على أكبر جانب من الأهمية : الأول هو كتاب « الأخبار المجموعة »  
 لمؤلف مجهول وقد نشره مع مقدمة ضافية المستشرق الإسباني « لافونتي  
 التكترا » في مدريد سنة ١٨٦٧ م ودرسه دراسة مستفيضة « خوليان ريبيرا » وهو  
 من أعظم المستشرقين الإسبان أو شيخ مدرسة المستشرقين الإسبان كما يسمى ،  
 وخرج منه بأن ذلك الكتاب من تأليف عدد من الأندلسيين من أبناء البيوت الكبيرة  
 الموالين للبيت الأموي ، تناوبوا على كتابته وسجلوا لنا أحداثاً موثوقاً في صحتها  
 على أكبر جانب من الأهمية ، ثم درس هذا الكتاب مستشرق إسباني آخر هو  
 «سانشيت البورونوث » Sanchez Alvaronoth وألف فيه كتاباً ضخماً فيه فوائد  
 كثيرة وإن كان فيه كذلك لغو كثير لأن الرجل لم يكن يحسن العربية ، رغم أنه  
 يعتبر من أكابر مؤرخي إسبانيا ، وقد اقتحم ميدان الدراسات الأندلسية اقتحاماً

والأصل الثاني هو كتاب « تاريخ افتتاح الأندلس » لأبي بكر محمد بن  
 القوطية ، المتوفى سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م ، وهو كتاب عظيم القيمة لأن مؤلفه  
 من حفدة « سارة » القوطية حفيدة فيجشة الذي غصبه ليزريق عرش الأندلس  
 وكان أبناؤه من أعوان المسلمين في فتح تلك البلاد ، وقد قصدت « سارة » الخليفة  
 الأموي سليمان بن عبد الملك في دمشق لتشكر إليه ظلامة أصابها فأكرمها

وزوجها أحد مواليه . وأبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز المعروف  
بـ «بابن القوطية» الذي نتحدث عنه ، هو أحد أحفاد ذلك المولى .

كان ابن القوطية عالماً بالتحقيق حافظاً للغة متقدماً فيها على أهل عصره  
كما يقول ابن الفرصى ، وكان شاعراً سلس القريض ، وهو تلميذ أبى عمر بن  
لبابة الفقيه الأندلسى الكبير ، والكتاب لا يقتصر على تاريخ افتتاح الأندلس ، وإنما  
هو مجموعة من الأخبار عن أمراء الأندلس وخلفائه ، مروية في نسق متصل  
متناسق ، والنسخة التى بقيت لنا هى سماع من أحد تلاميذه ، ومادة هذا الكتاب  
أصلية يوثق فيها ، لأن ابن القوطية مثله في ذلك مثل معظم أهل الفكر في الأندلس .  
كان من المتحمسين لبني أمية الأندلسيين ، شديد الصلة بهم ورجال دولتهم .  
ولهذا فإن الأخبار التى يوردها على جانب كبير من الأهمية . وقد نشر ذلك الكتاب  
« بسكوال دى جايا نجوس » Pascual de Gayangos وترجمه إلى الإسبانية ترجمة  
بليغة تعتبر قطعة أدبية « خوليان ريبيرا » Julian Ribera الذى قلنا إنه شيخ  
مدرسة المستشرقين الإسبان .

وتلا هذه الأصول ذات القيمة التاريخية العظيمة ، كتب ألفت في عصور  
متأخرة ، حفظت لنا الكثير مما ضاع من أصول التاريخ الأندلسى وأهمها

« فتح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن  
الخطيب » ، ومؤلفه أبى العباس أحمد بن محمد التلمسانى المقرئ المتوفى في  
القاهرة في جمادى الآخرة سنة ١٠٤١ هـ / ١٦٣٢ م . وقد نشر هذا الكتاب أكثر من  
مرة ، فنشر في مطبعة بولاق ، ثم نشر القسم الأول منه في مجلدين كبيرين نشر من  
المستشرقين في هولندا على رأسهم المستشرق المشهور « راين هارت دورى » . ثم  
أعاد نشره كاملاً « محيى الدين عبد الحميد » في القاهرة سنة ١٩٥٠ م وما بعدما  
بدون فهرس في ثمانية مجلدات ، ثم نشره أخيراً نشرة كاملة بفهارس الدكتور  
« إحسان عباس » في بيروت سنة ١٩٦٨ م في ثمانية مجلدات بما في ذلك جزء  
الفهارس .

هذا الكتاب فريد في صياحه لأن قصد مؤلفه في أول الأمر كان الترجمة للسان  
الدين ابن الخطيب الوزير الغرناطى المعروف ، الذى ستتحدث عنه فيما بعد ،  
ولكن المقرئ التلمسانى الذى وقد على الشرق في تلمسان في عصر كثير الحديث فيه

عن الأندلس ومحنتها ، رأى أن يقدم لتاريخ ابن الخطيب مقدمة وافية عن الأندلس ، بلغت أكثر من نصف الكتاب ، وهى وحدها تقع فى أربعة مجلدات كبار . وقد ألف الرجل هذا الكتاب على طريقة الجمع والتصنيف وتأليف مقتبسات بعضها مع بعض ، ومعظمه نقول تتراوح بين فقرات قصيرة إلى كتب كاملة . وقد قسم الرجل القسم الأول من كتابه الذى يتناول تاريخ الأندلس إلى فصول طوال الأول فى صفة جزيرة الأندلس ، وهو وصف أدبى تاريخى يختلط فيه الشعر بالنثر ، ولكنه يضم مادة جغرافية ذات قيمة كبرى ، والفصل الثانى يتناول افتتاح الأندلس بطوليل وجمع حافل بالفوائد ، ثم يخصص فصلين لما جادت به قرائح الأندلسيين من بديع الشعر والنثر ، ثم يفرّد فصلاً لقرطبة ومحاسنها ، وفصلين الأول منهما لمن وفد على الأندلس من الشرق والثانى لمن انتقل من أهل الأندلس إلى المشرق ، والتراجم هنا مستقيضة معتقة ، وفى أثناء ذلك يقصد الرجل جانباً كبيراً من تاريخ الأندلس السياسى والأدبى ثم يختم هذه المقدمة الطويلة بفصل عن ضياع الأندلس يذكر فيه الأحداث الأسبغية التى انتهت بحروج ذلك القطر من عالم الإسلام .

أما الجزء الخاص بابن الخطيب فيقع فى ثلاثة أجزاء ، ويتناول تاريخ ذلك الوزير الأديب الشاعر المؤرخ بتفصيل كبير ، ويتحدث عن عصره ومعاصريه وشيوخه وتلاميذه ، ويورد تماذج كثيرة من كلام ابن الخطيب ومعاصريه

والكتاب على هذا النحو خليط لا يستريح الإنسان إليه أحياناً ، لأن الرجل يجرى فيه على طريقة الاستطراد ، فقد يكون فى سياق ترجمة رجل ثم يمر ذكر رجل آخر فيترجم له بعد أن يقطع الترجمة الأولى ، ثم يعود إليها بعد نحو عشرين صفحة أحياناً ، ولكن الذى يستوقف النظر أن الكتاب طريف جداً ، لأن هذا الاستطراد ينقل الإنسان من جو إلى جو ، ومن موضوع إلى موضوع ، وينتهى القارئ فى النهاية بصورة واضحة جداً عن الأندلس ، تكررت من مقتبسات وضعت حظاً بليلاً فى بعض الأحيان ولكنها تعطى فى النهاية صورة متكاملة على الطريقة الفنية المعروفة باسم « الجشئالت » أى الصورة العامة .

ويشبه هذا الكتاب من كتب المقرئ كتاب « أزهار الرياض فى إخبار عياض »

وهو القاضي « عياض بن موسى اليحصبي » المغربي الأندلسي الذي نذكر له كتاب « الشفا بالتعريف بحقوق المصطفى »

ويقع هذا الكتاب في ثلاثة مجلدات ، وقد نشر في القاهرة بتحقيق « مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي » ( ١٩٣٩ - ١٩٤٢ م ) وفي هذا الكتاب أيضا الذي أداره المقرئ على القاضي عياض ينبع نفس الطريقة ، الاقتباس والاستطراد والجمع والتوفيق . ولكنه يعتبر كذلك من أوثق ما لدينا عن الأندلس في عصوره المتأخرة ، لأن المقرئ عندما ذكر تلاميذ عياض استرسل حتى وصل إلى قرب نهاية الأندلس ، ومادة هذا الكتاب مثلها مثل مادة نفع الطيب موشوق فيها لأن المقرئ كان صدوقاً قوياً الذاكرة يعتمد على أصول حملها معه وإن كان هو نفسه يزعم أنه كتب كل ذلك من ذاكرته .

ومن المراجع الأساسية التي نعتمد عليها في كتابة تاريخ الأندلس كتاب « البيان المغربي في أخبار الأندلس والمغرب » ، لابن عذاري المراكشي المتوفى بعد سنة ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م ، وقد تحدثنا عنه في كلامنا عن مراجع تاريخ المغرب ، ونضيف هنا أن ابن عذاري حصص للأندلس معظم كتابه الذي يتكون كما ذكرنا من خمسة مجلدات : الأول عن تاريخ المغرب إلى آخر أيام دولة بني زيري الصنهاجيين ، مع فصول معترضة ذات أهمية كبرى عن فترات من تاريخ المغرب ونواح مواجيه تتخطى ذلك التاريخ ، والجزء الثاني يتناول تاريخ الأندلس إلى موت المنصور محمد بن أبي عامر ، والجزء الثالث يتصدت عن عصر الطوائف ، والجزء الرابع صيغير يجمع ما عثرنا عليه من تاريخ المرابطين وهو جزء ناقص سقط منه نحو خمسين سنة من تاريخ هذه الدولة تتعلق بمعظم أيام يوسف بن تاشفين . والجزء الخامس يتناول تاريخ الموحدين ، ومعنى ذلك أن معظم هذا الكتاب يدور على تاريخ الأندلس ، ومن هنا كانت أهميته بالنسبة لنا ، ويتميز الكتاب كما ذكرنا بأن صاحبه ينقل قطعاً كاملة من مؤلفات أصيلة ضاعت الآن ، وإذا ذكر شيئاً من عنده فإننا نجده اختصاراً من مؤلفات ذات قيمة أصيلة ، والكتاب على هذا في جملته يعتبر من الأصول ، وإن كان قد ألف في زمن متأخر ولا يستغنى عنه أي دارس لتاريخ الأندلس ، وإن كنا في حاجة إلى طبعة جديدة للجزء الخامس الخاص بالموحدين ، وفهارس ضافية لذلك الكتاب



ثم تلا ذلك في الأهمية المكتبة الأندلسية ويراد بها مجموعة من كتب التراجم التي ألفها علماء من أهل الأندلس عن علماء بلادهم . وهذه المجموعة تترايط فيما بينها وتتكامل على مثال ما تتكامل كتب الوفيات في المشرق ، فمن المعروف عندنا أن هناك سلسلة من كتب الوفيات ألّفت في المشرق ، تتناول التراجم من أول عصور الإسلام إلى العصر المملوكي . فهناك « وفيات الأعيان لابن خلكان » ثم يكمله « فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي » ثم يواصله ويستدرك قوائمه كتاب « الوافي بالوفيات لابن أبيك الصفيدي » ، ثم نختم السلسلة بكتاب « المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي لأبي المحاسن يوسف بن تغري بردي » .

كذلك في الأندلس نجد سلسلة من كتب التراجم ألفها علماء أندلسيون أجلّاء يكمل بعضها بعضاً ويسد بعضها فوات بعض ، وقد بدأ ينشر هذه السلسلة المستشرقون الإسبان الأوائل من أمثال « فرنسيسكو كوديرا » و « خوليان ريبيرا » ومن في طيقتهم ، وهذه الكتب هي :

« تاريخ علماء الأندلس » للحافظ أبي الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأدي بن الفرضي ( ٣٥١ — ٤٠٣ هـ / ٩٦٢ — ١٠١٣ م ) وقد حققه فرنسيس كوديرا ونشره في مدريد سنة ١٨٨٦ وأعيد تحقيقه وطبعه في القاهرة سنة ١٩٦٦ م .

ويمتاز أبو الوليد بن الفرضي بأنه من العلماء الأثبات ، فقد كان مؤرخاً وفقهياً وشيخاً جليلاً صدوقاً ومن ثم نحن نشق في كلامه ، ولم يبق لنا من مؤلفاته الكثيرة في التاريخ إلا ذلك الكتاب القيم ، الذي يتناول تاريخ علماء الأندلس من أول الفتح إلى سنة ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م .

« بغية الملتبس في تاريخ رجال الأندلس » لأحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي المتوفى في مرسية في ٢٥ ربيع الآخر ٥٩٩ هـ / ١٢٠٣ م . وهو يواصل تراجم ابن الفرضي ويهتم اهتماماً خاصاً بأهل العلم والأدب . وقد اعتمد هذا الرجل في تراجمه على كتاب « جذوة المقتبس للحميدي » الذي سنتحدث عنه بعد قليل .

« جذوة المقتبس في ذكر وفاة الأندلس » للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد

ابن أبي نصير فتوح بن عبد الله الأزدي الحميدي وهو من أهل ميبرقة . وقد توفي في بغداد سنة ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م وقد نشر ذلك الكتاب بعناية محمد بن تاوريت الطنجي في القاهرة سنة ١٩٦٦م وكان الحميدي تلميذاً لأبن حزم ، وقد ألف كتابه هذا في المشرق ولهذا نلاحظ أن تراجمه تشوبها بعض الأخطاء ، لأنه كتب بعيداً عن وطنه ومراجعته . ولكن الكتاب في مجموعه عظيم القيمة ، وقد اعتمد عليه الضبي اعتماداً كاملاً حتى إننا نجد تراجم هذا الأخير نقلاً حرفياً عن جودة الحميدي

— كتاب « الصلة » لأبي القاسم خلف عبد الملك بن سعود بن بشكوال الأنصاري ( ٤٩٤ - ٥٧٨هـ / ١١٠١ - ١١٨٣م ) وابن بشكوال من أعظم علماء الأندلس وكان شيخ عصره حفظاً وصدقاً ورواية ، وكانت له مشاركة في التاريخ إلى جانب الفقه ، وكتابه هذا الذي يعتبر صلة ، أي إكمالاً لتاريخ علماء الأندلس لابن الفرسي ، لا يقل أصالةً أو صدقاً عن تراجم ابن الفرسي ، بل إن تراجمه تمتاز بأنها أطول وأكثر تفصيلاً ، وقد نشر هذا الكتاب في مدريد أولاً ثم أعيد نشره في القاهرة سنة ١٩٦٦م على تحقيق مدريد

— « صلة الصلة » لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير ( ٦٢٨ - ٧٠٨هـ / ١٢٢١ - ١٣٠٨م ) وهذا الكتاب يواصل تراجم ابن بشكوال ويكمل قوائده وقد نشره ليفي بروغنسال في الرباط سنة ١٩٣٧م .

— « التكملة لكتاب الصلة » لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاي المعروف بابن الأبار ( ٥٩٥ - ٦٥٨هـ / ١١٩٩ - ١٢٦٠م ) .

وقد كان ابن الأبار من أعلم أهل الأندلس في عصره وأكثرهم حفظاً وتدقيقاً وأصدقهم رواية ، وقد كتب كتابه هذا التكملة ، ليكمل تراجم ابن الزبير في كتاب الصلة ولكنه زاد عليه واستوسع بحيث أصبح كتاب التكملة من أوسع كتب التراجم الأندلسية التي لدينا - وقد نشر منه جزءان في مدريد ضمن المكتبة الأندلسية سنة ١٨٨٧م ثم عثر « الأركون » المستشرق الإسباني على قطعة أخرى منه نشرت ضمن مجلد يضم أصولاً عربية أندلسية مختلفة ، تحت عنوان Mice- lene في مدريد ، وبعد ذلك عثر « محمد بن أبي شنير » العلامة الجزائري على قطعة كبيرة في أول الكتاب تضم فاتحته وحرف الألف والياء ونشرها في الجزائر ولا بد من جمع هذا الكتاب كاملاً ، ونشره في نسقٍ واحدٍ ، لأن تراجمه تمتاز

بما تمتاز به مؤلفات ابن الأبار من علم واسع وحفظ دقيق وتبني يستوقف النظر إلى حقائق الأمور .

« الذيل والتكملة لكتايب الموصول والصلة » لأبي عبد الله محمد بن محمد ابن عبد الملك الأنصاري الأزدي المراكشي المشهور باسم عبد الملك المراكشي ( ٦٢٤ - ٧٠٢ هـ / ١٢٢٦ - ١٣٠٤ م ) ويعتبر هذا الكتاب أوسع كتب التراجم الأندلسية والمغربية ، فهذا الرجل ألف كتاباً واسعاً في التراجم تقع نسخته المطبوعة في خمسة مجلدات ( ولم تتم بعد ) وقد قام على تحقيقها الدكتوران محمد ابن شريفة وإحسان عباس ، وبدأ صدور المجلدات في بيروت سنة ١٩٦٤ م . والميزة الكبرى لهذا الكتاب أن معظم تراجمه تتعلق برجال من أهل عصره ، أي القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي ، وهو من العصور القامضة في تاريخ الأندلس ، وتراجمه مطولة وتقدم لنا إشارات ذات قيمة اجتماعية كبيرة ، وقد بلغ من حرص الرجل على التلويل وإيراد كل ما عنده ، إنه في أحيان كثيرة يورد نصوص كتب كاملة وإن كانت صغيرة ، ولكننا ونحن نقروء نعيش في جو أهل العلم في الأندلس في القرن السابع الهجري الذي تجلت فيه علامات نهاية الأندلس ونضجها ، وفي هذا العصر أيضاً قامت مملكة غرناطة ، ومما يستوقف النظر أن أولئك العلماء الذين يترجم لهم كانوا ماضين في دراساتهم ورواياتهم منفصلين تقريباً عن الحياة السياسية في الأندلس ، ومن يقرأهم لا يكاد يحس بالمأساة الدائرة حولهم .

— ويكمل هذه المجموعة من كتب التراجم كتاب « الحلة السيرة » لابن الأبار الذي ذكرناه ، وقد نشر في القاهرة في جزئين سنة ١٩٦٣ م بتحقيق كاتب هذه السطور ، وقد جمع فيه ابن الأبار تراجم الخلفاء والأمراء والرؤساء الذين أثر عنهم شعر يروى ، وقد ألفه تقريباً لأبي زكريا الحفصى بعد هجرته إلى تونس . وتراجمه طويلة مستفيضة وأسلوبه جزل متدفق والرجل حافظ راعية ، وقد تنه إلى أهمية ذلك الكتاب الذي يضم حشداً كبيراً من تراجم الرؤساء في المغرب والأندلس . المستشرق راين هارت دوزي . ونشر تراجمه الأندلسية في كتاب مشهور بين أيدي دارسي الأندلس ، ثم نشر جزءاً كبيراً من تراجمه المغربية المستشرق « ماركوس ملر » ، ثم نشر النشرة الكاملة التي ذكرناها آنفاً .

ونختم الكلام عن أصول التاريخ الأندلسي بوقفه عند آخر الكبار من مؤرخي الأندلس وهو « لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد السلماني بن الخطيب » ( رجب ٧١٣ - ٧٧٦ هـ / ١٣١٣ - ١٣٧٤ م ) .

وابن الخطيب بلا شك من أعظم مفكرى الأندلس وكبار كتابه وشعراته ، وقد عاش في العصر الغرناطي في أيام محمد الغنى بالله ووزر له وتولى أكبر المناصب ، وله حياة حافلة بالعمل العلمي والنشاط السياسي ، حتى ليصعب على الإنسان أن يفكر في أن هذا كله ثم في حياة رجل واحد ، وقد ترجم له الأستاذ محمد عبد الله عنان ترجمة وافية في كتاب خاص به متداول بين أيدي الناس .

وقد ألف ابن الخطيب كتباً كثيرة في تاريخ الأندلس تعتبر عندنا من الأمهات ويهمننا هنا أن نذكر منها كتابين .

الأول . هو « إعلام الأعلام بأعمال الأعلام ممن يبيع قبل الاختلام » ، ويعرف عادة باسم « أعمال الأعلام » ، وهو كتاب ضخم يقع في أجزاء كثيرة ، يهمننا منها القسم الثاني الذي نشره ليفي بروفنسال في بيروت سنة ١٩٥٦ م تحت عنوان « تاريخ إسبانيا الإسلامية » ، وهو من أحسن كتب تاريخ الأندلس عندنا ، فقد كتبه الرجل عن علم ودراية ، واحتشد في تأليفه فجاء من أحسن ما لدينا من المؤلفات التي لا يستغنى عنها دارس تاريخ الأندلس

والقسم الثالث من ذلك التاريخ يتناول تاريخ المغرب الإسلامي وقد حققه ونشره د. أحمد مختار العبادي والأستاذ محمد بن إبراهيم الكتاني ونشر في الدار البيضاء سنة ١٩٦٤ بعنوان « تاريخ المغرب العربي في العصر الروسيط » وهذا الجزء لا يقارن - بحال - بالقسم الثاني الذي كتبه ابن الخطيب عن الأندلس ، فهو تاريخ ناقص مضطرب السياق ، يبدو أن ابن الخطيب كتبه على عجل ، ولكنه على أي حال لا يخلو من فوائد تاريخية بين الصحن والحين .

أما القسم الأول من ذلك الكتاب فيدور حول تاريخ المشرق وهو لم ينشر بعد ، وهو يخرج عن اختصاصنا هنا ، ولكننا أطلعنا عليه على أية حال ، وليس فيه ما يصيف كثيراً إلى تاريخ المشرق .

أما الكتاب الجليل الذي يُعدُّ مفخرة لابن الخطيب فهو « كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة » وهو كتاب ضخم ، تقع نسخته المطبوعة في أكثر من ألفي صفحة ،

تصم تاريخاً وانياً للأندلس وخاصة إقليم غرناطة ، وهو يبدأ بمقدمة ضافية عن مملكة غرناطة ووصفها الجغرافى الذى يجعل لابن الخطيب مكاناً صدرأ بين الجغرافيين الأندلسيين ، ثم تلا ذلك التراجم الوافية الضافية لثلاث من العلماء وكبار الشخصيات الأندلسية الغرناطية فى الغالب . وقد قام عنى تحقيقه بصير يدعو للإعجاب الأستاذ محمد عبد الله عنان ونشره فى أربعة أجزاء فى القاهرة ابتداءً من سنة ١٩٧٤م وذلك بعد أن كان الموجود لدينا منه طبعة هزيلة صغيرة نشرت فى القاهرة قبل ذلك .

تلك هى أهم أصول تاريخ الأندلس التى ينبغى أن يدرسها مؤرخ ذلك القطر ، وهناك كذلك كتب أخرى تسمو إلى مراتب الأصول مثل مؤلفات ابن حزم التاريخية ، وكتاب عبد الواحد المراكشى فى تاريخ الموحدين ، ولكننا أثرن أن نقتصر على هذه دون غيرها مكتفين بأن نذكر بقية الأصول الأندلسية ضمن بيان المراجع الذى سنورده فى آخر هذا الكتاب .

### الأصول غير العربية :

قلنا إن مؤرخ الأندلس لابد أن يكون على علم بالأصول والمراجع غير العربية التى كتبت فى تاريخ الأندلس وشبه الجزيرة الإيبيرية بصفة عامة وخاصة ما كتب منها بالإسبانية . وقد سبق أن بينا أسباب ذلك .

وقد كتب الإنسان فى تاريخهم كثيراً جداً واعتدبهم كما عندنا أصول ومراجع . فأما الأصول فما كتب فى العصور الوسطى ومعظمه الفه رهبان بدأوا فى كتابة تاريخ إسبانيا فى القرن الحادى عشر الميلادى وهم فى العادة يكتبون تواريخ عامة أى تواريخ للبشر جميعاً منذ الخلق . كما كان يفعل بعض مؤرخى المسلمين . وهم فى العادة يكتبون من ناحية دينية . أى أنهم معادون للمسلمين عداً شديداً لا على أساس قومى بل على أساس دينى . وهم بطبيعة الحال لا يعرفون عن الإسلام شيئاً . لأنهم لم يكلفوا أنفسهم عناء محاولة هذه المعرفة ، مع أنهم كانوا يعيشون قريبين من المسلمين ، ولا نقول أنهم كانوا يعيشون بينهم ، لأن أولئك الرهبان المؤرخين الأول كانوا يكتبون وهم يعيشون فى بلاد إسبانيا النصرانية

مبايعدين للإسلام منكرين إياه . وأقدم من كتب ووصلتنا كتابته مؤلف مجهول كتب تاريخاً ينسب إلى « البلدة » وعنوان هذا التاريخ *Cronica Albeldinse* وقد ألف سنة ٨٨٣ م . وهو مجرد جدول بالحوادث وأسماء الملوك ، مع ذكر قليل لأخبار الصراع بين المسلمين والنصارى . وهذه الأخبار القليلة ذات فائدة كبيرة لأنها تصبغت لنا تواريخ ومرآة ذلك الصراع وتسد الفراغات التي يمكن أن تكون قد خانت المؤرخين المسلمين .

ومن تلك المؤلفات الإسبانية الأولى تلك المعروفة باسم تاريخ العالم الذي كتبه « لوقا التوي » : *Lucas de Tuy : Historia Mundi* وقد فرغ من تأليفه سنة ١٢٢٦ م وهو يعطينا بيانات وافية عن ملوك القوط وملوك ليون ثم ملوك قشتالة وليون إلى عصره

وقد عاصره تقريباً مؤرخ إسباني عظيم الأهمية بالنسبة لنا يسمى *Rodrigo Jimenez de Rada* ، وكان أسقفاً لطليطلة وقد كتب تاريخاً مطولاً لإسبانيا حتى قرب وفاته سنة ١٢٤٧ م ، وهذا الرجل يعطي تفاصيل مفيدة جداً بالنسبة لتاريخ قشتالة وليون والممالك النصرانية الأخرى ، وكذلك بالنسبة لتاريخ الأندلس واسمه *Rerum in Hispania Gestorum Cronicon* وقد نشر أول مرة في غرناطة سنة ١٩٤٥ م وأعاد نشره A. Schottl في مجموعته المسماة *Hispania Illustrata* الجزء الثاني من ص ٢٥ إلى ١٩٤

وقد اعتمد عليه الكثيرون جداً من مؤرخي إسبانيا النصرانية حتى قرابة العصر الحديث ، ولا يستغنى مؤرخ الأندلس عن مراجعة ذلك الكتاب في كل ما يتعلق بالعلاقات بين إسبانيا النصرانية وإسبانيا الإسلامية . ومن هذا الطراز من الأصول الإسبانية كتب ألفها مستعربون ممن كانوا يعيشون بين المسلمين ويكتبون باللاتينية أو مستعربون هاجروا إلى إسبانيا النصرانية ، وهناك كتبوا مدونات في التاريخ . ومن هؤلاء مؤرخ يسمى « إيزيدور الباجي » الذي كتب كتاباً في تاريخ مملكة أشقريس منذ بدايتها ويسميه الأب فلوريت بالمدونة الباجية *Cronica Pacense* وهو يعرف أحياناً باسم *La Cronica Mazarabe de Cronica del Anonimo de Cordoba* ويسمى هذا الكتاب أحياناً باسم *Continuatio* لأن بعضهم يظن أن المؤلف كتب كتابه في قرطبة ، ويسمى أحياناً .

Hispana لانهم كانوا يظنون أنه إكمال لتاريخ كتب قبله لإسبانيا القوطية .  
ويعطى هذا الكتاب الحوادث من سنة ٦١١ - ٧٥٤ ميلادية .

ومن الأصول الجديدة بالثقة مدونة الفها قس اشتورى يسمى  
El Beato de Liebana وقد سجل هذا الكتاب الخصومة المذهبية التي وقعت  
أثناء العصور الإسلامية بين كنيسة طليطلة وكنيسة إشبيلية التي تزعمها قس  
مستعرب يسمى Elipando وقد ذكرنا مدونة « البلدة » التي تنسب إلى الموضع  
الذي عثر عليها فيها وهي قرية « البلدة » في إقليم « ريوسا » وهذه المدونة تصل  
بتاريخ أشتريس وليون إلى سنة ٩٧٦ م أى إلى عصر الحكم المستنصر . والمؤلف  
معاصر لالفونسو الثالث ملك أشتريس وليون المعروف بالكبير والمتوفى سنة  
٩١٠ م وقد أطلق عليه هذا الاسم « مومس » وهو علامة الماني تخصص في  
الدراسات الرومانية وكتب في تاريخ الرومان كثيرا ونشر الكثير من المخطوطات  
المعلقة بتاريخ الرومان . وله مجلد ضخيم جمع فيه المخطوطات الإسبانية التي  
تناولت تاريخ الرومان والقوط ومن بينها مدونة « البلدة » هذه . والمؤرخ الأمانى  
« تيودور مومس » يسمى هذا الكتاب « الذيل الأبيض Epitome Ovitense

ومن هذا الطراز من المدمونات تخص تاريخ إسبانيا في عصر الملك  
« ومبا » حتى موت أربير الأول ( ٦٧٢ - ٨٦٦ هـ ١٢٧٢ - ١٤٦١ م ) ملك  
أشتريس وهذه المدونة تنسب إلى الملك الفونسو الثالث الملقب بالكبير . وإن كان  
هناك شك في تلك النسبة . لأن الباحثين الإسبان عثروا مدحا على مخطوطتين .  
إحداهما مكتوبة بأسلوب سبي حافل بالأخطاء . ويظن أن تلك هي التي كتبها  
الفونسو الثالث نفسه . ومخطوطة أخرى متفقة مهيبة يظن أن قسا يسمى  
سبستيان قام بعملها وهذه المخطوطة تقص بالتفصيل تاريخ إسبانيا النصرانية  
حتى بدايات حكم الفونسو الثالث وهي تنسب عادة إلى الراهب سبستيان الذي  
أشرفنا عليه

وتشبه هذه المدونة . مدونة تنسب إلى راهب يسمى « سام بيو » ولهذا يسمى  
Cronica de Sampiro . وقد عاش هذا الرجل فيما بين عامي ٩٧٠ - ١٠١٢ م  
وقد عمل في القصر في أيام الملك برمودو الثاني وملكه الفونسو الخامس ثم أقيم  
قسا لمدينة أشترة وكان الذي أقامه هو الملك سانشو الكبير Sancho el Mayor

سلك نبرة ، وهذا التاريخ يبدو وكأنه إكمال لدونة المونسو الثالث ، ويتناول الأحداث في عصر هذا الملك حتى بدايات حكم ألفونسو الثالث ملك ليون ( ٨٦٦ - ١٠٠٠ م )

ويجد القارئ بياناً بهذه المدونات الأساسية بالنسبة لتاريخ إسبانيا والأندلس في الفصل الأول من الجزء السادس من « تاريخ إسبانيا العام » الذي أشرف على كتابته الأستاذ « مندرث بيدال » الذي سنذكره فيما بعد . ولهذا نكتفى بهذا القدر الذي ذكرناه عن الأصول ، ونضيف أن راهباً إسبانياً يسمى الأب « فلوريت » جمع هذه المدونات كلها وبشرها في سلسلة من نحو ثلاثين مجلداً تسمى « إسبانيا المقدسة » El Padre Florez, Espana Sagrada ولا بد لأي باحث في تاريخ الأندلس من أن يرجع إلى ذلك المجموع وإلى المجموع الذي نشره « مومسن » وأشرنا إليه .

وننقل الآن إلى المراجع أي إلى المؤلفات الإسبانية التي كتبها الإسبان في العصور الحديثة في تاريخ بلادهم . وهي كثيرة جداً ومعظمها جيدة وإن اختلفت في القيمة ووجهة النظر ، ونشير منها إلى مايلي :

- Jeronimo Zunta, Anales de la Corona de Aragon

وقد عاش الأب ثوريتا فيما بين سنتي ١٥١٢ - ١٥٨٠ م .

Bernardo Brito, ( 1569 - 1671 ), Monarquia Lusitana Historia de Espana .

وهناك مجموعة من الكتب يحمل كل منها اسم « تاريخ إسبانيا » مع مفارقات يسيرة في هذا العنوان ، وأهم مؤلفيها

Ambrosio de Morales - Esteban de Garbay -

P. Juan de Mariana - Juan de Ferreras -

Juan Francisco Masdeu - Alejandro Herculano -

Antonio Aicala Galiano - Modesto Lafuente y Rafael Alcantara .

ومن أهم التواريخ العامة لإسبانيا التي لا بد من الرجوع إليها في التاريخ الأندلسي مما كتب في الخمسين سنة الماضية ، ولا زال يعاد طبعها وتقيحها



### لتساير تطور الأبحاث التاريخية

- Antonio Ballesteros Beretta, Historia de Espana y su Influencia en la Historia Universal ( 12 vols. Barcelona 1918 - 1941 ) .
- Luis Pericot, Historia de Espana. Gran Historia General de los Pueblos Hispanicos, ( 6 vols. Barcelona 1935 - 1962 )
- Ramon Menendez Pidal, Historia da Espana. ( Espasa - Calpe ) 8 vols. Madrid 1935 - 1958 .

وهذان التاريخان اشترك في كتابة فصولهما عددٌ كبيرٌ من المؤرخين تحت إشراف العالمين المذكورين ، وتختلف القيمة العلمية لفصولهما اختلافاً بيناً وجديراً بالذكر أن المجلدين الرابع والخامس من التاريخ الذي أشرف على تحريره « رامون منندث بيدال » يتناولان تاريخ الأندلس وحضارته ، وهما ترجمة إسبانية لكتاب

- Levi - Provincial, Histoire da l'Espagne Musulmane .

الطبعة الثانية — باريس سنة ١٩٥٥م وما بعدها . وقد قام بالترجمة الإسبانية المستشرق المعروف « إميليو غرسية غومس » .

- Pedro Aguado Bleye, Historia de Espana 3 vols. Madrid 1947 - 1958

ويعتبر هذا الكتاب من أحسن الكتب المتوسمة الحجم التي ألغت في تاريخ إسبانيا ، والفصول الخاصة بالأندلس الإسلامي فيه جيدة

- Fernando Soldevila, Historia de Espana. 8 vols. Barcelona 1952 - 1959

ومؤلف هذا الكتاب قطلوني ، وهو لهذا ينظر لتاريخ إسبانيا من الزاوية القطلونية ، والفصول الخاصة بالأندلس فيه تُقرأ بحذر شديد .

- Luis Garcia de Valdeavellano, Historia de Espana ( Madrid 1955 ) .

Jaime Vicens Vives, Historia Social y Económica de España y América ( Barcelona, 1957 - 1959 ) .

أما الكتب المؤلفة في عصور بعينها أو موضوعات محددة من التاريخ الإسباني - بما في ذلك الأندلس - فكثر جداً يجد الفارئ بيئاتها في بليوغرافية كل تاريخ عام مما ذكرناه ، وخاصة التاريخ الذي كتبه « بايسروس » والتاريخ الذي أشرف عليه منشدت بيدال ، فإن قوائمهما البليوغرافية من أحفل ما عرفنا وكذلك يجد مادة بليوغرافية في كتاب ذي قيمة كثيرة في تاريخ إسبانيا ألفه ثلاثة من أساتذة جامعة بلنسية وجعلوه مقدمة لتاريخ إسبانيا وأسمه :

Antonio Ubieto, Juan Regalá, José Mará Jover, Introducción á la Historia de España, Barcelona ( Teide 1963 ) .

والخلاصة أن دارس لتاريخ الأندلس لا ينبغي أن يغيب عن باله أنه يدرس تاريخ بلد إسلامي أودبي . فالعناصر الأوروبية جزء من تكوينه البشري والطبيعي والمراجع الأوروبية جزء من مراجعه ، ولا يكفي قط أن يطلع الإنسان على المراجع العربية سواء أكانت قديمة أم حديثة ، لأنها في مجموعها تنظر من وجهة النظر العربية وحدها ، وتعتمد على الأصول العربية وهذا لا يعطى إلا جزءاً من الصورة ويبقى نصفها الثاني . وفي بعض الأحيان يكون ذلك النصف الثاني أهم من المراجع العربية

مثال ذلك أن دراسة عصر الطوائف من خلال المراجع العربية ، لا يعطى إلا جانباً ضئيلاً من حقيقة الأوضاع في شبه الجزيرة الإيبيرية ، أما ملوك الطوائف فتتحدث عنهم مراجعنا بتعمويل فتجعل مثلاً صورة المعتمد بن عباد قاضياً إشبيلية التي تولى أمرها ، صورة رجل سياسي بعيد النظر يحسن سياسة الأمور ويرجع الأحداث ، بينما هو كان في الحقيقة لا يمثل من الناحية السياسية أية قوة لها أثر في سير الحوادث . فهذا رجل لا يملك قوة عسكرية تمكن له من التأثير في الحوادث بل هو يدفع إتاوة للملك النصراني - ملك قشتالة وليون - وهو أي الملك النصراني هو القوة المحركة للحصود . وإن فحس إذا أردنا أن نؤرخ لإشبيلية في عصر الطوائف ، قد نأخذ بعض المعلومات عن بعض ما كان يجري داخل إشبيلية ، ولكننا لا نعرف مصير إمارة إشبيلية كلها ، لأن الذي كان يقرر ذلك المصير هو

ملك قشتالة ، وعندما صار امر إشبيلية في كفة الميزان ، كان المرابطون ، وهم مغاربة مسلمون وغير أندلسيين ، هم الذين تولوا مواجهة الخطر النصراني . وإنّ الذي نفيده من دراسة المراجع العربية شيء قليل ولا يعطى كما قلنا إلا حائناً من الصورة . ولا تكتمل هذه الصورة إلا بالدراسة المتعمقة ، للمراجع غير العربية ما بين إسبانية ولاتينية وبرتغالية وقطلونية .

وقد آن الأوان أن ندرك هذه الحقيقة وأن نعلم أن تاريخ الأندلس جزء من التاريخ الأوربي ، كما هو جزء من التاريخ العربي ودارسه ينبغي أن يحيط بالتاريخين وأن ينظر إلى المسائل من زوايتها العربية والإسبانية .

ونختم هذه المقدمة التيليوغرافية بأن نسأل كيف يمكن أن يفسر مؤرخ عربي لا يعرف غير اللغة العربية والمراجع العربية ، اسم رجل من أكبر علماء الأندلس وهو « ابن بشكوال » وأسمه الكامل أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن بشكوال الأنصاري ، فكيف يكون أنصاريًا واسم واحد من أجداده بشكوال ، وهو لفظ إسباني صرف ؟ وأبسط ما تدل عليه هذه الظاهرة هي أن سلسلة آباء ذلك الرجل ليست عربية أنصارية خالصة فقط بل عربية أنصارية إسبانية ، فلا بد أن جده مسعوداً تزوج من إسبانية اسم عائلتها بشكوال Pascual وكان لا بد من قراءة الاسم ونسب الرجل هكذا أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود وبشكوال الأنصاري ، وهذه في ذاتها ظاهرة اجتماعية جديدة بالدراسة



## الأندلس

يعتبر فتح شبه جزيرة إيبيريا من أروع حلقات الفتح الإسلامية الأولى . فقد جاء ذلك الفتح تنويهاً لنجاح العرب الطويل لفتح المغرب ، الذي استغرق كما رأينا حوالي سبعين سنة ، ما بين نصر وهزيمة ومدّ وجذر وكان ذلك دليلاً على حيوية الشعب العربي وإقدامه وإيمانه بدينه ونفسه ، بهذا الفتح الطويل وصل العرب إلى مضيق جبل طارق أو « بحر الزقاق » كما يسمى ، ووصلوا في أوائل العقد الأخير من القرن الهجري الأول / العقد الأول من القرن الثامن الميلادي إلى ساحل المحيط الأطلسي ، من طنجة شمالاً إلى سهل السوس جنوباً ، وبذلك أصبحوا على أبواب أوروبا من هذه الناحية . ومن دلائل حيوية الشعب العربي أنه لم يقف عند ذلك الحد وإنما تخطى بحر الزقاق ونزل شبه الجزيرة الإيبيرية وفتحها حتى وصل إلى أقصى شمالها ، ثم عبر جبال ألبرت التي تسمى البرانس خطأ ، وغزا « غالة » وهي مرسى اليوم حتى وصل إلى سبعين كيلو متراً جنوبى باريس . والمسافة ما بين قرطبة وما وصل إليه العرب شمالاً نحو ألف كيلو متر . والمسافة كذلك من أقصى موضع وصلت إليه جيوش العرب غرباً إلى دمشق نحو ثمانية آلاف كيلو متر ، كلها قطعها العرب محاربين منتصرين على أقدامهم أو ظهور الخيل والجمال . وذلك عمل لم يسبقهم إلى مثله أحد في التاريخ . ومن الواضح أن شبه جزيرة إيبيرية ، وهي ما يسميه العرب بالأندلس وما يعرف اليوم بإسبانيا والبرتغال ، كانت شاسعة البعد عن مركز الخلافة ، ويكفى أن نذكر أن المسافة بين دمشق وقرطبة سبعة آلاف كيلو متر . وهذه المسافة يستلزم قطعها على ظهر فرس جيد أربعة أشهر ، فكأنك لو أرسلت رسالة من قرطبة إلى دمشق وصلت بعد أربعة أشهر ، وجاء الرد بعد أربعة أشهر أخرى . وذلك يصور لنا بعد هذه الأقاليم من مركز الدولة الإسلامية . ومع ذلك فقد فرض العرب أنفسهم على ذلك البلد النعيد ، وحكموه وعاشوا فيه وحولوه إلى بلد عربي إسلامي ، واستمر سلطانهم هناك ما بين مدّ وجذر ثمانية قرون ، وإذا كان الأندلس قد ضاع منا في النهاية فذلك ليس بعجيب وإنما العجيب أننا أقمنا فيه هذا العمر الطويل .

الأندلس هي الدولة الأولى التي أقامها العرب في أوروبا . وقد كانت للإسلام

خلافتان على الأرض الأوربية - الأولى دولة الإسلام في الأندلس ، والثانية هي دولة الخلافة العثمانية في الشرق .

وهذه هي الناحية الأولى التي نهمنا وهي الميزة التي تميز بها الأندلس عن غيره من البلاد التي فتحها المسلمون ، فتجن هنا في بلد أوربي ونحن مع ملك أقامه العرب في قلب الغرب الأوربي بين فكى الأسد كما يقولون ، ومع ذلك فقد تمكنوا من تحويل ذلك البلد إلى مركز من مراكز الإسلام والعروبة . وذلك يشهد للجنس العربى بالتفوق والامتياز ، ويفسر لنا لماذا يعتبر العرب من كبار صنّاع تاريخ الإنسانية ، وقد قال المؤرخ الإنجليزي نيفيل باربر : إن الأندلس بالنسبة للعرب بلاد ما وراء البحار Overseas أى أنه كان بلاد المهجر البعيد الذى يتنحى إليه كل رجل جرى مغامر يريد أن يفتح لنفسه باباً واسعاً من أبواب الرزق والرفاهية ، ومن النديهي أن يكون المهاجرون إلى الأندلس من خيرة العناصر العربية والأصول البربرية التي أسلمت وأظهرت قدرة على مجابهة الصعاب . ويؤكد ذلك أن الأندلسيين جعلوا من وطنهم واحداً من أزهر بلاد الإسلام وأقاموا وراء البحر دولة مجيدة هي الدولة الأموية الأندلسية وبولاً أخرى غيرها ، وأقاموا صرح حضارة زاهرة لا زلنا نفخر بها إلى اليوم ومدوا جسراً حضارياً عبرت به حضارة العرب إلى بلاد الغرب الأوربي

وتاريخ الأندلس على هذا قصة جهاد مجيد وعمل متصل مبارك ، وجهد شعب قوى استطاع بالفعل أن ينشئ على أرض أوربية حضارة عربية إسلامية ، تتميز عن غيرها من حضارات البلاد الإسلامية بطوايف تعرفها بمجرد نظرة على أى منظر من مظاهر تلك الحضارة كما سنرى

### اسم « الأندلس » :

وعندما نقول الأندلس فإننا نعنى ما سادته العرب من شبه الجزيرة الإيبيرية ( إسبانيا والبرتغال ) لأن العرب عندما فتحوا الأندلس فتحوه كله إلى جبال ألبرت كما قلنا ، وإلى خليج بسكاي الذى يسميه العرب « حائط إفرتجة » ، ثم أخذوا يتراجعون شيئاً فشيئاً حتى إذا قامت الدولة الأموية سنة ٦٣٨هـ /

٧٥٦م كان العرب قد فقدوا الركن الشمالي الغربي لشبه الجزيرة ، واستمر سلطان العرب على بقية البلاد حتى سقوط الخلافة الأموية الأندلسية سنة ٤٣٢هـ/ ١٠٣٦ م . وبعد ذلك أخذوا ينحسرون ويفقدون أجزاء أخرى من شبه الجزيرة . ولكن لفظ الأندلس ظل يطلق على ما بيد المسلمين من شبه الجزيرة ، حتى اقتصر في النهاية على مملكة غرناطة ، في الركن الجنوبي من شبه الجزيرة وهو يمثل ٨/١ تُفَنّ مساحتها . ومع ذلك ظل يسمى الأندلس ، في النهاية عندما لم يبق في يد المسلمين إلا مدينة غرناطة كانت هي الأندلس وهكذا .

ولفظ الأندلس معرَّبٌ جاء من لفظ « الوندال » الذين يسمون في اللغات الأوروبية « الفاندال أو الفاندالوس » . وهذا القبيل من المتبربرين غزا شبه الجزيرة في القرن الخامس الميلادي ، واتخذوا إلى الجنوب تدفقه قبائل أخرى جرمانية ، حتى انتهى إلى الطرف الجنوبي من شبه الجزيرة ، وهناك أقام زُعماءً طويلاً وسُمّي ذلك الطرف الجنوبي باسم « فاندالوسيا أو إندالوسيا » ، وبهذا الاسم عرّفه البربر الذين يقيمون على بحر الزقاق . وعندما وصل العرب قيل لهم إن هذه أرض « وندلس » . وحرف « الواو » هو أداة التعريف في لهجة بربر طنجة ، فعُرِبَ الاسم إلى « الأندلس » . وبهذا الاسم ظلت البلاد تعرف إلى نهاية الحكم العربي . ولا زال اللفظ في صورة إسبانية هي « إندلوثيا » يطلق إلى اليوم على ثمانية محافظات صغيرة في الثلث الجنوبي لشبه الجزيرة حنوبي نهر السوادى الكبير حتى المرية ، وغرناطة ، وجيان ، وقرطبة ، ومالقة وقادش ، وولبة وإشبيلية .

وشبه جزيرة إيبيريا - وتشمل اليوم إسبانيا والبرتغال - إقليهم واسع تصل مساحته إلى ستمائة ألف كيلو متر مربع . وإسبانيا وحدها ، وهي تحتل خمسة أسداس شبه الجزيرة ، تعتبر ثلثة بلاد أوربا في المساحة بعد روسيا وفرنسا فإن مساحتها ٥١٦,٠٠٠ كم<sup>٢</sup> - خمسمائة وستة عشر ألف كيلو متر مربع وشبه الجزيرة في مجموعه عبارة عن هضبة متوسطة . ارتفاعها ستمائة متر عن سطح البحر ، وهي أعلى بلاد أوربا باستثناء سويسرا ، ونحو ثلث البلاد يزيد ارتفاعها على ثمانمائة متر ، وسلاسل الجبال التي يصل ارتفاعها إلى ألف وستمائة متر ، كثيرة جداً .

والحد الفاصل بين أوروبا وشبه الجزيرة هي سلسلة الجبال التي تسمى باللفات الأوروبية « البرانس » ، وهي سلاسل من الجبال تقفل الطريق من شبه الجزيرة إلى جنوبي فرنسا ، فلا يعبر الناس إلا من معبرين في الشرق والغرب ومن ممرات خلال الجبال تسمى « بالآبواب » . ومن هنا جاء لفظ اسمها في العربية وهو جبال البرت ومعناه جبال الآب أو جبال الأبواب . ويسبب هذا الحاجز الكبير ، كان الفارق الحضارى بين مايقع جنوبي الجبال وشمالها ، فرقاً جسيماً يلاحظه الإنسان بمجرد انتقاله من إسبانيا إلى فرنسا

وشبه الجزيرة مخمّس تشقه سلاسل الجبال تجرى مستعرضة ، وبين كل سلسلة من الجبال والتي تليها يوجد وادٍ يجرى فيه نهرٌ مستعرضٌ أيضاً ، ولهذا فإن شبه جزيرة إيبيريا ينقسم بالفعل إلى مناطقٍ مستعرضةٍ إلى بعضها البعض وتلك منطقة سلسلة جبالها ونهرها أو أنهارها . وهذه الأنهار معظمها يصب في المحيط الأطلسي وتنبع كلها من وسط شبه الجزيرة ، فهناك الحد الفاصل لجارى المياه ، ولا تجد الأنهار الكبيرة التي تحصل الماء الوفير إلا في النصف الشمالى لشبه الجزيرة . وتلك الأنهار من الشمال إلى الجنوب من ناحية الغرب ، هي الخنيو ثم الدوير ثم تاجة ثم الواديانة أو الوادى أنه ثم الوادى الكبير وعليه تقع هضبة وإشبيلية وهي قلب الأندلس الإسلامى ، ومن نهر الوادى الكبير يتفرع نهر شتيل ، وعلى فرع من فروعه يسمى « حدارة » تقع غرناطة .

أما أنهار الغرب فليس فيها إلا نهر واحدٌ كبيرٌ يطلق عليه اسم النهر وهو « إيرو » وتقع عليه برشلونة عاصمة إقليم « قتلونية » الذى استقل الآن استقلالاً داخلياً ، وكان وادى إيرو في أيام المسلمين يسمى بالشعر الاعلى للأندلس وعاصمته سرقسطة ، وكان من أكبر مراكز الإسلام والعروبة في شبه الجزيرة . أما بقية الأنهار التي تصب في البحر المتوسط بعد نهر إيرو ، فصغيرة نسبياً يسميها العرب بأسماء المدن التي تقع عليها ، فهناك نهر بلنسية الذى يسمى أيضاً بالوادى الأبيض واسمه في اللاتينية « توديا » ونهر مرسية وما إلى ذلك . وشبه الجزيرة في مجموعه إقليمٌ جافٌ بصفةٍ عامةٍ ، فلا تكثر الأمطار إلا في نصفه الشمالى أى إلى الشمال من وادى تاجة الذى تقع عليه طليطلة عاصمة شبه الجزيرة قبل الفتح العربى . وإذا نظرنا إلى شبه الجزيرة في جملته وجدنا أن

النصف الأغنى هو الشمالى ، حيث الأنهار الضخمة وأراضى المزارع الواسعة ، وفيما بين نهر تاجه ونهر المنيو توجد أوسع مناطق القمح فى أوروبا بعد الأوكرانيا فى روسيا ، وهناك أيضا أى فى الجزء الشمالى من شبه الجزيرة أراضى المزارع الواسعة التى تتربى عليها الماشية الكبيرة والأغنام الوفيرة الصوف وكذلك الخيول الكبيرة الحجم . وهناك أيضا مناجم الحديد والفحم ومعادن أخرى — ولا بد أن نلاحظ أن القسم الذى سادته العرب كان أوسع مساحةً بينما كان القسم الذى سادته النصارى أصغر حجماً ولكنه أكثر ثروةً ولكنه نتيجة لذلك كانت ثروته أوفر ولهذا كان الناس أسير حالاً ، وغذاؤهم أحسن . وكذلك كانت خيلهم أقوى ، وذلك يفسر لنا لماذا كانت المعركة بين العرب وخصومهم معركةً عنيفةً دائماً ، برغم أن المسلمين كانوا يملكون القسم الأكبر ولكنه الأفقر ، فلم يكن فى النواحي الداخلة فى الأندلس من الأقاليم الغنية فعلاً إلى إقليم بلنسية فى الشرق ، وهى اليوم أعظم مناطق إنتاج البرتقال والأرز فى أوروبا ، ثم ناحية إشبيلية ، وفيما عدا ذلك فإن بقية البلاد الأندلسية التى تفخر بها كانت تقوم فى مناطق فقيرة نسبياً ، حتى قرطبة ذات الصيت البعيد تقع فى إقليم فقير فى حملته . ومن هنا نتبين حقيقة كبرى ينبغي أن نضعها فى أذهانتنا عندما ندرس تاريخ الأندلس وهى أن العرب أخطأوا خطأ شديداً عندما جعلوا عاصمتهم مدينة قرطبة على نهر الوادى الكبير ، فإن الوادى الكبير نفسه إقليم فقير ، ثم إنك لا تستطيع أن تسيطر على شبه الجزيرة من بلد يقع فى سدها الجنوبى ، ولو أن العرب جعلوا عاصمتهم طليطلة لتغير وجه التاريخ ، لأن طليطلة تقع فى وسط شبه الجزيرة تقريباً . ومن الوسط تستطيع بطريقة أسهل . أن تسيطر على البلد ، ثم إن طليطلة . وعلى مقربة منها مدريد ، وهى منشأة عربية تقع فى وسط الإقليم الغنى حيث الغذاء والمرعى غنية ومصادر المعادن متوفرة ، وهى أسلحة الصراع الكبرى ولكن العرب عندما فتحوا قرطبة كان لهم عذرهم فهم يريدون أن تكون قاعدتهم أقرب ما تكون إلى قلب دولتهم وبقية عشيرتهم فى بلاد المغرب . وعلى أى حال فهذا هو الذى حدث وكانت له نتائجه المعروفة والله سبحانه وتعالى غالى على أمره .



## فتح الأندلس

تمهيد في أحوال شبه الجزيرة الإيبيرية قبل الفتح الإسلامي :

كان شبه الجزيرة الإيبيرية قبل الفتح الإسلامي خاضعاً لسلطان القوط الغربيين ، وهم واحد من شعوب الجرمان المعروفة بالمتبربرين ، الذين اقتحموا بلاد الدولة الرومانية وتقاسموها فيما بينهم من أواخر القرن الرابع الميلادي .

دخل القوط الغربيون بلاد الدولة الرومانية أوائل القرن الخامس الميلادي وصاروا في رفقة أبناء عمومتهم القوط الشرقيين ، واستقروا في « غالة » المعروفة حالياً باسم فرنسا ، وهناك انقسموا تسمين كبيرين ، فأما القوط الشرقيون فقد استقروا في إيطاليا ، وكان على أيديهم زوال الدولة الرومانية في الغرب ، إذ أنهم دخلوا روما بقيادة زعيمهم أدواكر سنة ٤٧٦ م .

أما القوط الغربيون فقد مؤوا سلطانتهم في شبه الجزيرة الإيبيرية ، ثم وقعت الحرب بينهم وبين الفرنجة وهم أيضاً من شعوب المتبربرين ، وانتهى الأمر أوائل القرن السادس الميلادي بانسحاب القوط الغربيين إلى شبه الجزيرة الإيبيرية وانفرادهم بها وتغلبهم على من كان قد سبقهم إليها من شعوب المتبربرين من أمثال السويف والألان وغيرهم .

سأه القوط الغربيون شبه الجزيرة كله من أوائل القرن السادس الميلادي ، واتخذوا طليطلة عاصمة لهم ، وأنشأوا مملكة يتولى أمورها القوط وحدهم ، فكانوا يحكمون رعاياهم من أهل البلاد من الإيبيريين الرومان بالقوة والعنف ، خاصة وقد كان القوط مسيحيين على المذهب « الأريوسي » الذي يقول بطبيعة واحدة للسيد المسيح ، في حين أن رعاياهم كانوا على المذهب الكاثوليكي الذي يقول بالطبيعتين . وبين المذهبين من الخلاف ما بين دين ودين ، ونتيجة ذلك كان هناك عداء شديد بين القوط ورعاياهم .

وفي عهد ملك من ملوك القوط يسمى « ريكاردو » تحول القوط إلى المذهب الكاثوليكي ، فكان ذلك سبباً في مصالحة بين القوط ورعاياهم وتحسنت الأحوال

نتيجة لذلك وتمكن القوط من السير بدفة الأمور فترة من الزمن ، ولكنهم لم يخلطوا برعاياهم قَط وظلوا يعتبرون انفسهم طبقة متميزة على بقية السكان وقبل الفتح العربي بنحو عشرين سنة صار العرش إلى ملك يسمى « ومبا » صلحت على يديه الأمور ، وأعلن سياسة تسامح في البلاد ، فرضى عنه الناس وكان له أبناء كثيرون سيكون لهم دور في الفتح العربي للمغرب .

وقبيل الفتح العربي شارك في الملك « ومبا » حاكم قرطبة القوطي ، واسمه « روبريك » ويعزبه العرب على « لذريق » وخلعه عن العرش وتولى مكانه ، وأتبع سياسة ظالمة لأهل البلاد ، واضطهد اليهود فتفجرت قلوب الناس عليه وفكروا في القيام ضد حكمه ، ووجدوا أن خير ما يعينهم على ذلك هو الاستعانة بالمسلمين . وتولى الوساطة بين الساخطين على لذريق و« طارق بن زياد » - قائد جيوش المسلمين المعسكرة عند طنجة - الكونت « يوليان » حاكم سبتة وهو شخصية لا تعرف حقيقة أمرها ، فمن قائل إنه كان بربرياً وزعيماً لقبيلة عمرة ، ومن قائل إنه كان حاكماً للإقليم باسم الدولة البيزنطية ، وهناك من يقولون إنه كان ممثلاً لملك القوط في إقليم سبتة وطنجة . على أي حال كانت العلاقة سيئة بين لذريق ويوليان . ويذهب المؤرخون العرب إلى أن سبب ذلك هو أن الملك لذريق اعتدى على بنت يوليان ، وكانت تترى في قصره . وعلى أي حال أقبلت الوفود على طارق تدعوه لفتح شبه الجزيرة الإيبيرية أو الأندلس ، وكانوا جميعاً يعتقدون أن العرب عندما استجابوا لهذا الطلب ، لم يكونوا يقصدون أكثر من إزال صرية قاضية بلذريق ثم العودة إلى المغرب محملين بالغنائم ، وغاب عنهم أن العرب لا يقومون بهذه المهام ، وأنهم قوم فاتحون يحملون رسالة وديناً سماوياً .

### فتح الأندلس :

ولقي الطلب اذنأ صاغية من طارق بن زياد ، لأن قوته العسكرية المقيمة في طنجة كانت معطلة دون عمل وكانت نفوس أفرادها تتوق إلى الجهاد ، وقد ذكرنا أنه كان مع طارق أعداد كبيرة من جنود البربر والعرب .

أرسل طارق إلى « موسى بن نصير » - وكان إذ ذاك والي المغرب للأمويين -

يستأذنه في غزو الأندلس فأذن له ، ولكنه أمره بأن يختبرها قبل ذلك بالنرايا ، لكي يعرف مدى مقاومة القوط قبل القيام بذلك العمل ، ثم إنه نصح طارقاً بأن يستوثق من ولاء يولييان بتكليفه بالقيام بغارة على الأندلس ، حتى يضمن أنه أصبح عدواً للذريق ففعل يولييان ذلك وتعهد بنقل جنود المسلمين إلى الأندلس في سقته .

وفي سنة ٩١ هـ / ٧١٠ م أرسل طارق بعضاً استطلاعياً يقوده قائد من قواد البربر يسمى طريف بن زرعسة بن أبي مدرك ، فقام بمهمته خير قيام وأغار على الطرف الجنوبي لشبه الجزيرة وعاد بنجاح وافر دون أن يلقي مقاومة ومن ذلك الحين أصبح اسم طريف يطلق على بلدة صغيرة جميلة في أقصى الطرف الجنوبي لشبه الجزيرة .

تشجع طارق بهذه النتيجة ، فعمد إلى الأندلس في شعبان ٩٢ هـ / أبريل - مايو ٧١١ م ونزل بصخرة جبل طارق التي كانت تسمى قبل ذلك بصخرة «كالي» فأصبحت تسمى بإسمه . وهناك أنشأ قاعدةً وحصناً ، عهد في حمايته إلى يولييان . ثم سار إلى الشمال حتى بلدة تسمى قرطاجة وترك بها حامية ، ثم انحدر إلى الجنوب وعسكر في رأس يبارز في البحر سمى العرب « الجزيرة الخضراء » وستنشأ هنا مدينة إسلامية زاهرة ( لا زالت زاهرة إلى اليوم ) تحمل اسم الجزيرة . ثم سار إلى الجنوب حتى بلغ الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة ، وسار بمحاذاة ذلك الساحل وعبر نهراً صغيراً يصب في المحيط الأطلسي يسمى وادي « لكّة » ، يصب في بحيرة ضحلة سماها العرب « الخندق » ولا زالت تحمل ذلك الاسم إلى الآن « لاختاندا » . وبعد ذلك ضرب بمعسكره في منطقة واسعة يحدها من الشرق وادي « لكّة » ومن الغرب وادي « البرباط » . وهو عبارة عن نهر آخر . وهي منطقة سهلية واسعة تكثر فيها المدن ، فهناك مدينة « قادش » على البحر ومدينة « شريش » إلى جوارها في الداخل ، وفي الشمال في الطريق إلى قرطبة تقوم مدينة « شذونة » واسمها الأصل « سيدونيا » . وفي ذلك السهل الواسع أخذ طارق ينظم قواته انتظاراً للقوط . ووصل الخبر إلى لذريق ، وكان مشغولاً إذ ذاك في شمال شبه الجزيرة ، فجمع قواته واتحد إلى الجنوب للقاء المسلمين ، لأنه يبدو أن الاحبار التي بلغته روعته روعاً شديداً ، ووصل إلى بلدة شذونة .

وهناك أخذ يستعد لخوض المعركة ، ثم سار للقاء المسلمين . ولم تلبث المعركة أن شبت ، وهي لم تقع في موضع محدد بحيث يمكن أن تسمى باسمه ، ودامت أكثر من أسبوع فهي غير محددة لا في المكان ولا في الزمان ، وإنما كانت معركة من طراز جديد بين قوتين غير متعادلتين . واستمرت حتى انهزمت قوة القوط ولهذا فهي تحمل في النصوص أسماء كثيرة فهي تسمى « معركة البرباط » أو « معركة شريش » أو « معركة الخندق » أو معركة « وادي لكه » . وأحياناً تسمى معركة شذونة وما إلى ذلك . ويبدو أن طارق بن زياد هو الذي رسم خطة المعركة على هذا النحو ، لأن الفرق في القوة بين من كان معه ومن كان مع عدوه ، كان فرقاً كبيراً جداً . ولم يكن من الممكن التغلب على العدو إلا على طريقة الحرب الصغيرة التي تسمى اليوم باسم « الجريلا » التي تسميها عادةً بحرب العصابات . وهذا مجرد تشبيه للتوضيح فقط ، لأن جيش طارق لم يكن جيش عصابات . على أي حال نجح طارق في القضاء على قوة القوط ، وهرب لذريق فمتبعه المسلمون في اتجاه الشرق حتى أدركوه عند نهر يصب في نهر « شقورة » التي تقع عليه الآن مرسية . وهذا النهر يسمى « وادي الطين » وهناك قتلوه عند بلدة تسمى « لورقة » ولا صحة لما يقال من أن لذريق قتل في ميدان المعركة ، وكذلك لا صحة أيضاً لما تذكره بعض المراجع من أنه هرب إلى الشمال والتقى مع العرب في معركة ثانية قرب « سلمنقة » وبعد ذلك مباشرة نجد أن طارقاً يعطينا دليلاً ثانياً على قدرته وموهبته العسكرية كفاتح عظيم ، فقد رأينا هذا الرجل يدخل بلداً غربياً شاسعاً وراء البحر ويرسم خطة موفقة للسير ، ثم عرف بعد ذلك كيف يختار مكان المعركة وطريقة المعركة ، وبعد ذلك مباشرة سار إلى الشمال وقد امتلات أبدى أصحابه بالغنائم وركب الخيل منهم من لم يكن عنده حصان ، وإذا أردتم أن تقرأوا تفاصيل جميلة عن ذلك الفتح ، فعندكم كتاب « فتح الطيب » للمقرئ التلمساني ، وستجدون فيه وصفاً مطولاً عن ذلك الفتح .

اتجه طارق بمن معه إلى الشمال فعبّر نهر الوادي الكبير ، وكانت وجهته أن يدخل طليطلة وهي عاصمة القوط ، وتبعد عن مكان المعركة بما يزيد على ستمائة كيلو متر ، في أرض وعرة كلها جبال ووديان ومضائق عسيرة . وإنه لمن عجائب التاريخ التي تدل على قوة الأجيال الإسلامية الأولى وعزيمتها وإيمانها ، أن تلك

القوة الإسلامية استطاعت ، بعد معركة طاحنة ، أن تعبر تلك المسافة الشاسعة وأن تصل إلى طليطلة وتدخلها بعد مقاومة عنيفة ، وفي الطريق نجد طارقاً يرسل قائداً من قواده يسمى « مغيث » الرومي فاحتل قرطبة ، وكانت في ذلك الحين معسكراً رومانياً قديماً على ضفة نهر الوادي الكبير ، وعندما تقوم قنطرة حجريّة على النهر ، وعندما نرى طارقاً يقوم بذلك العمل ، ندرك أن ذلك الرجل كان بالفعل قائداً عسكرياً ملقاً بشئون الحرب ، لأن السيطرة على قنطرة الوادي تؤمن له طريق العودة ، وستصبح قنطرة الوادي هذه من أكبر معالم قرطبة الإسلامية ، وسيكون لها شأنٌ في التاريخ الاجتماعي والأدبي للأندلس الإسلامي .

استقر طارق في طليطلة ، وهرب منها كبار القوط وكذلك كبار رجال الدين وعلى رأسهم أسقف طليطلة المسمى « سندرید » في اتجاه شعاعٍ شرقيّ ، في الطريق الذي يسميه العرب « وادي الحجارة » والمراد بالحجارة هنا جمع حجر وهو الحصن . وقد حمل القساوسة معهم ذخائر الكنيسة ومن بينها مذبح الكنيسة ، والمذبح متصدّ فآخرة مزينة بالجواهر تستعمل في الكنيسة لأغراض الصلاة . وعند بلدة صغيرة تسمى « الكالادى هنارس » ، ويسمونها العرب « قلعة عبد السلام » وتسمى أيضاً « بمدينة المائدة » والمراد بذلك مائدة سليمان التي غنمها المسلمون في ذلك البلد ، ولم تكن بمائدة ولا صلة لها بسليمان عليه السلام ، وإنما هي المنضدة التي كانت توضع في صدر الكنيسة وعليها أدوات الصلاة من صليبان وكؤوس وكتب مقدسة وأجراس ، وتسمى في العادة بمذبح الكنيسة ، وكان رجال الكنيسة يهتمون بصناعتها . أدرك العرب فيها الهاربين من طليطلة ، من رجال الدين وحصلوا منهم على ذخائر ذات قيمة كبيرة ومن بينها مذبح الكنيسة ، الذي سماه العرب « مائدة سليمان » وكانت من أكبر النخائر التي حصل عليها العرب في فتوحهم .

وعلى أي حال استولى طارق في تلك البلدة الصغيرة ، وهي مدينة المائدة على مائدة سليمان هذه ونخائر لا تحصى ، وكان الشتاء قد دخل فعاد إلى طليطلة واستقر فيها ومن هناك كتب إلى موسى بن نصير يبلغه الخبر العظيم

## دخول موسى بن نصير الأندلس واشتراكه في الفتح:

ووصل خير هذا النجاح الباهر إلى موسى بن نصير في القيروان ، وهنا نجد تفراً من المؤرخين يذهبون إلى أن الفكرة استبذت بموسى لغضب على مولاه ، وأرسل إليه يأمره بالوقوف عند هذا الحد ، وأن ينتظر حتى يقدم هو عليه . ونجد كذلك تفراً آخر منهم يقولون إن موسى غضب على طارق فعلاً ، ولكن ليس نتيجة الحسد بل خوفاً على حشد المسلمين من الترامي إلى هذا البعد في بلو فسيح دون نظري إلى العواقب ، وربما كان رأى هؤلاء الآخرين هو الأصوب ، لأننا نعلم أن طارقاً بعد أن استقر في طليطلة بعث إلى مولاه تفصيل ما دار في الفتوح وطلب إليه مدداً .

ولم يتردد موسى في السير إلى الأندلس في قوة كبيرة ووصل في أواخر شتاء ٧١١ م وأوائل ٧١٢ م إلى طنجة . وفي يونيو ٧١٢ م ( رمضان ٩٢ هـ ) عبر إلى الأندلس في قوة تقدر بثمانية عشرة ألف رجل ، غلبتهم العظمى من العرب هذه المرة ، وكان فيهم عدد كبير من كبار « القيسيين » والكلبيين » ، وكذلك عدد من أهل اليمن ، أشهرهم « علي بن رياح » و « حنشل بن عبد الله الصنعائي » - نزل موسى في الجزيرة الخضراء ولم ير بقاء على مصيحة رجاله وخلفاء المسلمين من أهل البلاد أن يسير في نفس الطريق الذي سار فيه طارق بن زياد ، بل يتبع طريقاً آخر فيفتح بلاداً أخرى ينسب إليه فخرها حتى يصل إلى طليطلة ، فبدأ بالاستيلاء على شذونة وعلى حصنين كبيرين إلى جوارها وهما « قرمونة » وقلعة وادي إبرة ، ثم تقدم نحو إشبيلية وحاصرها حتى سلمت بعد وقت قصير وانسحبت حاميتها إلى العرب إلى مدينة « لبلبة » وهي اليوم من مدن البرتغال .

وتقدم موسى نحو « ماردة » وكانت من كبار بلاد إسبانيا القوطية ، يحيط بها سور حصين ، وقد اعتصم فيها جانب كبير من جيش لذريق المنهزم فحاصرها موسى واستعمل في ذلك أدوات الحصار ولقى المسلمون مقاومة عنيفة وتحملوا خسائر كبيرة في الأرواح ، ولكنهم استمروا في الحصار حتى استسلم البلد في أول شوال ١٤ / ٣٠ يونيو ٧١٢ م ، وقد وجد المسلمون في ذلك البلد ذخائر وافرة ملأت أيديهم .

وفي شهر يولية التالي تقدم موسى ومن معه نحو طليطلة ، وخرج طارق بن زياد للقاء مولاه موسى حفيهاً به ، ويقال إن موسى أمانه أو ضربه بالسوط وغير

ذلك ، ولكن هذا كله غير صحيح وربما يكون الرحلان قد نعاشا ، ولكننا نحدد ما عقب ذلك يسيران معاً لمواصلة الفتوح . وفي أثناء ذلك انفصلت إشبيلية على المسلمين ، فعُجل موسى بإرسال ابنه عبد العزيز بن موسى فأطفا الثورة واستولى على لبلة وباجة وأكسونة وكانت أكبر مدائن الجنوب العربي لشبه الجزيرة ، ومنها يتكون النصف الجنوبي للبرتغال اليوم . وبذلك تكون الجيوش الإسلامية قد وصلت إلى ساحل المحيط الأطلسي في هذه الناحية .

ويذهب المؤرخ الأسباني « سافدرا » إلى أن موسى بعد أن تلاقى مع طارق في « طليطلة » تسامع بظهور لذريق ، ملك القوط في غرب شبه الجزيرة في ناحية « سلمنقة » ، فأسرع إلى هناك وتلاقى مع لذريق . وبقي القوط في معركة قرب بلدة صغيرة قرب قرية « تاماس » الحالية ، وهناك لقي لذريق مصرعه الأخير . ولكن يبدو أن ذلك كله غير صحيح فليس هناك ما يؤيده

ثم عساده موسى بن نصير إلى طليطلة وبدأ عمله كأول ولاة الأندلس ، وهو دون شك أول عربي يحكم قسراً أوروبا ، وقد أكد موسى هذا المعنى عندما أمر بضرب عمله إسلامية في دار السكة بطليطلة . ولما كان عمال هذه الدار إسباناً يكتبون صيغ العملة باللاتينية فقد ظهرت هذه العملة الإسلامية وعليها شهادة أن لا إله إلا الله باللاتينية عن أحد وجهيها IN NOMINE DEL NON DEUS ALIUS. ونقرأ في الوجه الثاني NISI DEUS SOLUS; NON DEUS ALIUS.

HIC SOLIDUS FERITUS IN SPANIA ANNO 714

وأراح موسى في طليطلة شتاء ٧١٢ - ٧١٤ م . ومن هناك أرسل رسولين إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك ليحملوا إليه النبا مع طرف من الذخائر ، ويقال إن الرسولين كانا « علي بن رباح اللخمي ومغيث الرومي » مولى الوليد بن عبد الملك

وعندما أقبل ربيع ٧١٤ م خرج موسى بجيشه في اتجاه شمال شرقى ، فأصدا سرقسطة وتمكن من الاستيلاء على هذه المدينة التي تعتبر مفتاح منطقة وادي إيسرو كلها ، وقسم التامغي « حنش بن عبد الله الصنعاني » بإختطاط جامع سرقسطة الذي سيصبح من كبار مساجد الأندلس المشهورة .

وعقب ذلك سار نحو « لاردة » متبعاً الطريق الروماني الكبير المبلط ، الذي يعرف بالطريق القيصري ، ويسمى بالعربية الرصيف أو البلاط ، وقد استولى موسى على لاردة ، وبدأ يستعد للسير نحو يروشلمة ، ويقال إن ثبته كانت معقودة على أن يتابع الطريق القيصري حتى « أرغون » ومنها إلى روما . ويورد المقرئ في نفع الطيب نصاً يقول : إن موسى كان يرمع الاستيلاء على القسطنطينية من الغرب ، وهو إسرائف في أحسن الظن كما هو واضح ، لأن المسافة بين طليطلة والقسطنطينية لا تقل عن ٨٠٠٠ كيلو مة ، كلها جبال ومرتفعات ، يحتاج قطعها إلى أعداد وعُدٍ يصعب تصورهما

ولكن الظروف لم تمهل موسى للاسترسال وراء لاردة ، فقد أقبل إلى معسكره مغنيث الرومي عائداً من دمشق بأمر من الوليد بن عبد الملك ، بأن يذهب موسى وطارقاً معاً إلى دمشق ليقدمها بنفسيهما بياناً عن الفتوح إلى الخليفة . ويبدو أن مغنيث الرومي لم يكن يائزاً بموسى فيما نقل إلى الوليد من أخبار ، وكان مغنيث رجلاً متآمراً قلقاً ، وقد انتهت حياته في معركة « الأشراف » في الغرب الأوسط ولكن أسسوته « بنو مغنيث » ستصبح من كبار بيوتات الأندلس ومن موالى بني أمية الحقيقين .

ولم يرفض موسى الاستجابة لهذا الطلب ، ولكنه طلب إمهاله حتى يستكمل فتح الشمال الشرقي لشبه الجزيرة ، ثم يتجه بعد ذلك لفتح الشمال الغربي فأمر طارقال بمواصلة السير مع الطريق الروماني ، وسار هو في اتجاه الشمال الغربي . ثم انصرف غرباً بعد ذلك ، نحو جليقية . فسار بجذاء الجبال الكنثرية ، أما طارقال فقد تمكن من إخضاع منطقة أرغون ، وعاهد أميرها المسمى « قرتون » ، وقد أسلم قرتون هذا وأصبح جد بني « قسي » الذين سيكون لهم دور كبير في تاريخ الأندلس الأعلى الأندلسي وهو حوض نهر الإبرو ، وبعد ذلك اتجه غرباً ليلحق بموسى فاستولى على حصن أماية ثم على مدينة أشترقة ، وكانت مركز الناحية التي تسمى في النصوص العربية « ألبة والقلاع » ، وتسمى في الجغرافية التقليدية الإسبانية بإقليم قشتالة القديمة ، وآخر ما استولى عليه طارقال كان بلدة ليون .

أما موسى فقد سار أول الأمر بجذاء نهر إبرو الأعلى ، في اتجاه منبع النهر ثم اتجه إلى الشمال عابراً الجبال الكنثرية ، ودخل إقليم « اشتريس » فاستولى على



«أبيط» Oviedo ووصل إلى ساحل خليج بسكاي عند «خيحور» ، وهرب أهل الناحية وبقي القوط شرقاً نحو البلد المسمى حالياً «كينجاس دى أونيس» ، ووراءها تقوم منطقة جبلية وعرة ترتفع فيها ثلاث قمم عالية تسمى بقمم أورويا.

عندما وصل موسى إلى ساحل خليج بسكاي ووصل قائده طارق إلى مداخل إقليم جليقية ، شعر موسى أنه أتم فتح شبه الجزيرة وأنه يستطيع بعد ذلك أن يلجأ إلى الخلافة الوليد .

وهكذا نرى هذين الفاتحين العظميين يأخذان طريق العودة إلى الشرق في ذي القعدة ٩٥ هـ / سبتمبر ٧١٤ م وقد خلفا الأندلس وراءهما ، بعد أن قاما بما يمكن اعتباره معجزة من معجزات الفتوح العربية ، في بحر ثلاث سنوات من الجهد المتصل والحركة الدائمة . فقد استطاع هذان الرجلان مع حفنة من المسلمين ، ما بين عرب وبربر لا تزيد على ٣٠.٠٠٠ مقاتل ، أن يفتحوا قطراً أوروبياً واسعاً يعتبر من أصعب الأقطار الأوربية من الناحية الجغرافية الطبيعية . وقد قام المسلمون بهذا الفتح بشجاعةٍ تعثر مضرب المثل ، وساروا على خطى عسكرية وسياسية واضحة تدل على خبرة جيدة بمسائل الحروب وفتوح البلدان ، وقاد موسى وطارق رجالهما بحزم ونظام وبعد نظر تذكرنا بقيادة خالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص وعمرو بن العاص وأبي عبيدة بن الجراح .

وقد خلف موسى ابنه عبد العزيز بن موسى والياً على الأندلس مكانه . فإذا اعتبرنا طارق بن زياد أول ولاة الأندلس كان عبد العزيز هو الثاني ، وقد بدأ ولايته في سبتمبر سنة ٧١٤ م .

وقد ذكرنا قديماً سبق ما أصاب موسى على يد سليمان بن عبد الملك ويقال إن طارق بن زياد شكاً لسليمان سوء معاملة موسى إياه واحتصاصه نفسه بخير الأسلاب والمغانم وخاصةً مائدة سليمان ، التي طار صيتها في الروايات الإسلامية .

وعلى أية حال فإن سليمان بن عبد الملك ، وكان عدواً لكبار رجال دولة بني أمية الفاتحين ، لم يستطع تقدير طارق العظيم ، فأنزوى هو الآخر ومات في ضمول .

وببداية حكومة عبد العزيز بن موسى . بدأ في تاريخ الأندلس عصر الولاة أى الولاة التابعين للحكومة المركزية في دمشق ، وتستمر هذه الفترة حتى سنة ١٢٨ هـ / ٧٥٦ م وهي السنة التي قامت فيها إمارة عبد الرحمن بن معاوية الداخل .

وفد اتفق عبد العزيز معظم أيام ولايته في استكمال فتح شبه الجزيرة ، لأن الفاتحين الكبيرين قضيا على دولة القوط ووصلوا إلى الحدود في كل ناحية غير أنه بقيت بعد ذلك أجزاء كاملة من شبه الجزيرة في شرقها وغربها دون فتح ، وكان لا بد من استكمال فتحها ، وقد قام بهذه المهمة عبد العزيز بن موسى ، لذا فحين نعتبه ثالث فاتحى الأندلس ، ونعتبر أن فترة الولاة تبدأ بانتهاء ولايته سنة ٩٧ هـ / ٧١٦ م .



## عصر الولاة

٩٧ = ١٢٨ هـ / ٧١٦ - ٧٥٦ م

تولى أمر الأندلس خلال هذه الفترة ٢٢ واثياً ، حكم واحداً منهم مرتين ومعنى ذلك أن متوسط مدة الزا إلى أقل من سنتين ، وهذا وحده يكفى لإعطائنا فكرة عن عدم الاستقرار الذى ساد الأندلس خلال هذه الفترة . ويعد أن درسنا تاريخ المغرب خلال هذه الفترة نتبين أن ذلك القلق كان هو الأمر المتوقع ، فلدينا أولاً اضطراب السياسة العامة لى أمية بعد الوليد بن عبد الملك ، ووقوعها فريسة للعصبية القبلية والشخصية ، وكان لا بد أن يكون لذلك كله أثره فى الأندلس ، كما كان له أثره الذى رأيناه فى المغرب .

وهناك كذلك الخلاف الكبير بين العصبية العربية فى المغرب ، ثم خلاف العرب البلديين مع العرب الشاميين ، ثم خلاقات هؤلاء جميعاً مع البربر ، وكان لا بد أن يمتد ذلك كله إلى الأندلس .

وهناك أيضاً التنازع على السلطان بين الطامعين فيه ، وقد رأينا ما كان من أمر حبيب بن أبى عبدة بن عقبة بن نافع وابنه عبدة الرحمن ، ولدينا فى الأندلس ما يشبه ذلك .

يضاف إلى هذا كله أن الأندلس بلد قائم بذاته له ظروفه التى لا تشبه ظروف أى بلد مما فتحه المسلمون فى ذلك الحين ، فإن الأندلس كان ثغراً لبلاد المسلمين ، وكان لا بد لأهلها من العرب من مواصلة الفتوح فيما يليه من البلاد . ويستوقف نظرنا أن العرب رغم مشاعلهم الكثيرة فى الأندلس ، استطاعوا أن يواصلوا الفتوح فى « غالة » أى قرنسا ، نحو ٢٠ سنة بعد تمام فتح الأندلس ، وكسبوا خلال هذه الفترات انتصارات كبيرة تضيف صفحاتٍ مجيدة إلى سجل الفتوح الإسلامية ولا يقلل من أهمية الفتوح أنها وقعت بعد موقعة بلاط الشهداء . ولذلك سنرى أن المد العربى لم يكن ليستمر إلى ما لا نهاية ، كان لا بد أن يقف عند نقطة ما ، ونقطة بلاط الشهداء نقطة رائعة بالنسبة لقوم عددهم قليل نسبياً ، بدأوا فتوحهم من المدينة المنورة عقب وفاة الرسول ﷺ مباشرة .

وهناك أخيراً مشاكل الحكم في الأندلس نفسه ، وهو بلدٌ فسيحٌ جداً دخله العرب في وقت بلغت فيه مظالم القوط ذروتها ، فكان على العرب أن يعالجوا مشاكل جمة . وإن الإنسان ليدعش إذ يراهم رغم صعوبة ظروفهم ، وقلة المدد الذي تلقوه من الحكومة المركزية ، يستطيعون تسيير الأمور على نحو لا يأس به إطلاقاً ، فلم يظلموا من أهل البلاد أحداً ، بل نشروا بدينهم عدلاً لم تعرفه البلاد قبل ذلك ، وغنوا كذلك بالكثير من المرافق كالقناطر والطرق وشبكات الري وأنشأوا مساجد في كل نواحي الأندلس تقريباً

ومن حسن الحظ أن الأمور عندما بلغت غايتها في الاضطراب ، صار الأمر إلى عبد الرحمن بن معاوية الداخل ، وهو من عباقرة الحرب والسياسة في تاريخ الإسلام ، فانقذ البلاد من الفوضى ، والعرب من نتائج الاستمرار في الحرب الأهلية ، واحتفظ بشمرات جهود من سبقه من الحكام القادرين ، فلم تضع هذه الجهود عباءة .

ولا يتسع المجال للكلام على ما قام به أولئك الحكام خلال فترة الولاة . ولكننا سنكتفي بتتبع ميادين العمل الرئيسية ، ثم المشاكل الكبرى التي واجهت الحكم العربي ، وما قام به الحكام حيالهم حتى نصل إلى إمارة عبد الرحمن الداخل .

### خلافات العرب فيما بين أنفسهم ووزاعهم مع البربر :

وأينما كيف صار أمر الأندلس إلى « أيوب بن حبيب اللخمي » ابن أخت موسى ابن نصير في منتصف سنة ٩٧ هـ / مايو ٧١٦ م تقريباً ، وأيوب بن حبيب يمثل العرب البلديين ، أي العرب الذين قاموا بالفتح والاستقرار في البلاد ، وأصبحوا بمقتضى هذا يرون أنهم أولى بها من غيرهم .

وقد تواصلت أيوب بن حبيب والنفر الذين اغتالوا عبد العزيز بن موسى . مع الخليفة سليمان أملاً منهم أن تؤيدهم الحكومة المركزية ويستتب سلطانهم في البلاد .

وقد ظل أيوب بن حبيب حاكماً نحو أربعة أشهر لم يفعل خلالها شيئاً ذا بال ، ولكنه هو الذي نقل عاصمة الأندلس إشبيلية إلى قرطبة ، لأن موقعها أكثر توسطاً ، ثم إن أعداداً كبيرة من العرب البلديين سكنت حوالها فأراد أن يعتز بهم .

ولكن الأمور لم تسر على ما قدره أيوب ومن معه ، فقد قام « يزيد بن أبى مسلم » والى سليمان بن عبد الملك على المغرب ، بتعيين « الحر بن عبد الرحمن الثقفى » على الأندلس ، فكان الحر — على هذا — يمثل الحكومة المركزية ويعتز بالجند الشاميين ، مما أبعد عنه البلديين . وقد بدأ « الحر » ولايته في ذى الحجة سنة ٩٨هـ / ٧١٧م ، واستمر سنتين وثمانية أشهر ، لا تنسب المراجع إليه فيها كبير عمل . ولكنه هو الذى أقام دار الإمارة في قرطبة ، وكانت هذه الدار في مواجهة قنطرة الوادى ، وكانت قبل ذلك مقرراً للحاكم القوطى الذى انتزع مغيث الرومى البلد من يده . وقد سكن مغيث في جانب من القصر عرف ببلاط مغيث ، ثم أخرجه منه أيوب بن حبيب وسكن فيه ، فلما جاء الحر بن عبد الرحمن الثقفى ، زادت عنايته بالقصر وجعله قصر إمارة فعلاً وسمى هو والأرض الواسعة الممتدة قرية على ضفة النهر ، باسم « بلاط الحر » .

فلما صارت الأمور إلى عمر بن عبد العزيز في ١٠ صفر سنة ٩٩هـ / ٧٢٢ سبتمبر ٧١٧م ، نظر في أمر المغرب والأندلس فأقسام على الأول « إسماعيل بن عبيد الله » وعلى الثانى « عنبسة بن سحيم الكلبى » وكلاهما كانا من خيرة الحكام . بدأ عنبسة في رمضان سنة ١٠٠هـ / أبريل - مايو ٧١٩م ، وعلى الرغم من قصر المدة التى تولاهما ، فإنهما من الدولة القلائل الذين قاموا بجهود إصلاحية عمرانية ، فهو أول من نظر في حصر أرض الأندلس وتمييز ما فتح منها صلحاً مما فتح عنوة . وبدأ استخراج الخمس من الأراضى التى فتحت عنوةً ليضعه ملكاً للدولة ، وأتم هذا فيما يتصل بإقليم قرطبة والمفروض أنه فتح عنوة . وقد دخلت في الخمس أرض واسعة أنشأ الحر في بعضها مقبرة للمسلمين ، ووزع الباقى على المزراع على أساس المزارعة ، أى المناصفة في الغلة . ثم أعاد بناء قنطرة الوادى وكانت قد تصدعت .

وفي سنة ١٠٢هـ / ٧٢١م خرج عنبسة غازياً في غالة فاستشهد في «طرسونة» في يوم عرفة من العام نفسه ، وبذلك يكون هذا الرجل قد حتم حياته بالاستشهاد في سبيل الله وهو أعظم الصالحات .

وقد كان عمر بن عبد العزيز قد فكر في إخلاء الأندلس من المسلمين خوفاً على مصيرهم في ذلك الثغر السحيق في نظره . ولكنه عدل عن هذه الفكرة ، إذ كان

المسلمون قد استقروا في البلاد وكثروا وبدأ نفرٌ من أهلها يسلمون ، فلم تكن هناك وسيلةٌ لتنفيذ هذا القرار الخاطئ دون شك .

وكان عمر بن عبد العزيز قد وُئى على الأندلس رجلاً من خيرة الولاة هو **السمح بن مالك** فصلحت الأمور على يديه فترة قصيرة من الزمن ولكن بعد وفاة السمع بن مالك وبعد موت عمر بن عبد العزيز ، عاد الأمر في المغرب والأندلس إلى الجند الشاميين وولاتهم ، قصارت الخصومات بين الولاة والعرب البلديين ، وانضم البربر في الأندلس إلى البلديين لاتفاق مصالح الجانبين ، وقد بلغ استبداد الشاميين ذروته في الأندلس حتى سنة ١١١ هـ / ٧٢٠ م ، وهي التي انتهت فيها إمارة « **الهيثم بن عبيد الكلابي** » وكان من أشد الولاة تعصباً للشاميين ، الذين يسمون هنا أيضاً **القيسيين** . وكان عرب الأندلس ينتهزون الفرصة بين الحين والحين لإقامة واحدٍ منهم عاملاً على الأندلس ، ولكن الحكومة المركزية كانت تسرع بتولية والٍ جديد ، وبعد عزل **الهيثم** ، أقام عرب الأندلس والياً منهم ثم اختارت الحكومة واحداً منهم ، هو « **عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي** » قبداً ولايته في صفر سنة ١١٢ هـ / مارس - أبريل ٧٢٠ م .

وكان عبد الرحمن من كبار جند الأندلس ومن أولئك الذين فضسوا معنهم أيامهم في الجهاد في غالة ، وقد سبق له أن تولى الأندلس سنة ١٠٢ هـ / ٧٢١ م ، فلما عادت إليه الولاية للمرة الثانية لم يكن له فمٌ إلا جمع القوات وإعداد العدة للجهاد ، وكانت ولايته القصيرة من أهدأ فترات عصر الولاة ، ولسوء الحظ أن عبد الرحمن استشهد في بلاط الشهداء في رمضان ١١٤ هـ / أكتوبر ٧٢٢ م .

وعقب ذلك أقام عرب الأندلس على أنفسهم واحداً منهم ، هو عبد الملك بن قطين (القهرى الذى سيكون له دورٌ كبيرٌ في تاريخ الأندلس فيما بعد ، وكانت ثورة البربر في المغرب قد بدأت تشتد وانتقلت أصداؤها إلى الأندلس ، قبداً أمر العرب في ذلك البلد يتخرج .

ولا نذكر لنا المراجع شيئاً واضحاً عن أسباب ثورة البربر على العرب في الأندلس ، وكل ما نفهمه منها أنها كانت امتداداً طبيعياً لثورتهم في أفريقية ، ولقد قيل كذلك إن الثورة اندلعت لأن عرب الأندلس اختصوا أنفسهم بأحسن الأراضي تاركين للبربر أسوأها ، أى المناطق الجبلية القاحلة ، وذلك غير صحيح فإن أراضي

الأندلس الخصيبة من الكثرة بحيث تتسع لكل المهاجرين عرباً وغير عرب ، ثم إن المسلمين ، لم يغبوا إذا دخلوا بلداً يقتسمون أراضي الناس فيما بينهم ، والدولة العربية لم تكن دولة نهب وسلب وإنما كانت دولة لها نظامها ، وأراضي البلاد المفتوحة كانت لها نظمها التي تحكمها ، ولم تسمع أبداً أن قبيلاً من العرب دخل بلداً فاستولوا على مزارع وضياح وطرد أصحابها منها ، وإنما الفاتحون كانوا يستقرون في النواحي جماعات عسكرية تحت تصرف الدولة ، وفي قبائل ، مقاس ذلك كانوا ينالون حصة مقررّة من الخراج ، أما العرب والبربر الذين أحبوا أن ينصرفوا للزراعة ، فقد زرعوا أراضي بالاتفاق مع أصحابها على أساس المزارعة وليس على أساس آخر ، وفي هذا المجال تجد أن البربر كانوا أكثر اشتغالا بالزراعة وقد انساحوا بون حرج في الأراضي الغنية في مشرق الأندلس وفي أحواض الوديان القريبة وخاصة وادي تاجة ودويرو ، وتلك كانت نواحي غنية بالأرض والثمار وإنما يمكن أن يقال إن بعض العرب الذين استقروا في نواحي الأندلس تمسكوا بعصبيتهم وتعالوا على غيرهم فلما منهم أن الدولة دولتهم ، وكان معظم هؤلاء من الشامية أي من القيسية ، أي من العرب الذين كانوا يرون أن الدولة الأموية دولتهم ، أما العرب البلديون ، ومعظمهم من اليمنية فكانوا بعيدين عن هذه النزعة ، لأنهم كانوا أهل أرياف ومعايش شأن غالبية الأمصار ، في حين أن الشامية كانوا يرون أنهم أهل حرب وسياسة وحكم .

في هذه الظروف نفهم أن أخبار ثورة بربر المغرب التي أُنكرت سيادة العرب جملة ، وجدت صدق في الأندلس فقام البربر في النواحي التي كانت لهم فيها أغلبية على العرب الذين معهم وأخرجوهم ، وخاصة من جليقية وحوض الدويرو والأراضي فيما بين هذا النهر ونهر تاجة .

وكان أمير الأندلس في ذلك عهد الملك بن قطن الفهري كبير العرب البلديين ، وكان هو ومعظم من معه من اليمنية يحسبون أن الثورة قامت على الشاميين ، فلما رأها موجهة إلى العرب جميعاً وبلغه من العرب الهاريين إليه ، من نواحي اشتركة وليون وسلمنقة وأبلّة وشقوبية انفسهم أن البربر يسبسون في ثلاثة جيوش وجهتها طليطلة وقرطبة ، والجزيرة الخضراء على الترتيب ، خاف الرجل سوء العاقبة .

وفي هذه الأثناء كان بلج بن يشري القشيري ومن معه محصورين في ستة بعد

مزينة « الأشراف » التي أشرنا إليها في كلامنا عن الفتنة المغربية الكبرى في عصر الولاية ، وكانوا يستغيثون بعبد الملك بن قطن دون جدوى ، ولكنه اضطر إلى السماح لهم بالعبور ليعاونوه على القضاء على البربر . وبدأوا بالفعل بقيادة بلج سنة ١٢٢ هـ / ٧٤٦ م . ولم ينقض عام على دخولهم الأندلس ، وكانوا حوالي ١٠ آلاف ، حتى كانوا قد تمكنوا من القضاء على الشائرين . وكانت المعركة الجاسمة عند وادي سليط قرب الجزيرة الخضراء أوائل ١٢٤ هـ / نوفمبر ٧٤٦ م . وعقب ذلك أخذ أولئك العرب الشاميون المتعصبون يطاردون البربر وكانت نتيجة ذلك أن روع بربر الأندلس روعاً شديداً ، فأخذوا يتركون أراضيهم وخاصة في الوسط والشمال الغربي ويعودون إلى أفريقية ، وكان لهذه الهجرة الجماعية أسوأ الأثر على مستقبل الإسلام في الأندلس ، فإن الرفأ كثيرة من هؤلاء المسلمين الذين كان ينتظر أن يعملوا بالإسلام كل نواحي شبه الجزيرة ، هاجروا وتركوا كل الأراضي الواقعة شمال نهر تاجة خالية تقريباً من المسلمين ، فاصبحت هذه النواحي ابتداءً من النصف الثاني للقرن الثامن الميلادي أراضي خلاة مفتوحة لنصارى الشمال لينة دوافرها كيعا يشاورون ، وسيعمر النصارى جزءاً كبيراً منها خلال القرن التاسع الميلادي ويصبح حوض الدوير أرضاً نصرانية . لقد خسر المسلمون نتيجة لاختلاف بعضهم مع بعض ربع شبه الجزيرة ، خسروه دون أن يخرجهم منه عدو . وإنما أخرجهم منه كراهة بعضهم لبعض وقلة نظرهم إلى العواقب . وبعد أن انتصر الشاميون أصحاب « بلج » رفضوا العودة إلى أفريقية ، كما كان الاتفاق بينهم وبين عبد الملك بن قطن فوقع النزاع الأشديد بين « بلج » وعبد الملك وانتهى بعزل هذا الأخير ، وولاية بلج بن هش في ذي القعدة ١٢٤ هـ / سبتمبر ٧٤٦ م .

وقد انكر أهل الأندلس جميعاً رئاسة بلج ومن معه من الشاميين القيسيين ، وقاموا عليهم وقتلوا بلجاً ، فخلفه شامي شديداً العصبيته مثله هو ثعلبة بن سلامة العامي ، واشتدت الحرب بين البلدين من عرب وبربر في جانب والشاميين في الجانب الآخر .



## أبو الخطار وأنشاء الكور المجندة :

وأُسرع عامل أفريقية حنظلة بن صفوان الكلبي فأرسل والياً جديداً إلى الأندلس هو أبو الخطار الحسام بن ضار الكلبي ، فبدأ ولايته في رجب ١٢٥ هـ / مايو ٧٤٣ م - وبدأ الرجل بدايةً طيبةً . فأسس العرب والبربر البلديين على أراضيهم ومصالحهم ، وأراد أن يبعد عنهم أذى الشاميين ، واجتهد كذلك في إبعاد أذى هذه المنازعات القبلية العربية عن أهل البلاد المسلمين ، من أسلم منهم ومن لم يسلم ، لأنهم أساس عمارة البلاد وريائها .

ثم نظر إلى الشاميين فخبين أنهم جميعاً متجمعون في قرطبة وإقليمها ، وهذا التجمع هو الذي يفتح لهم طريق التدخل في السياسة وشئون الدولة ، ففكر في أن يوزعهم على نواحي شتى في الأندلس ، لا ينزلها من البلديين وأهل اليمن أحدٌ . وقد أشار عليه بذلك أربطاس بن غيثشة ، شيخ نصاري الذمة ، وكان شخصياً محترمة مقربة من الأمراء ، وكان يسمى « يقومس الأندلس » ، وانتهى الأمر إلى أن يذهب كل فريق منهم إلى ناحية فيستقروا فيها ، ويأخذوا ثلث الخراج الذي يؤديه نصاري الذمة والمزارعون ، على أن يقدموا للحكومة عدداً معيناً من الجند كلما جازت ذلك

وقد تم توزيع أولئك الشاميين على الكور الآتية :

جند مصر : كور<sup>(١)</sup> أو كشونية وباجة وتدمير .

جند حمص : كور إشبيلية

جند فلسطين : كور « ريه » Regio وهي كورة مألقة .

جند دمشق : كورة البيرة وهي غرناطة .

جند قنسرين : كورة جيان .

وقد أصبحت هذه الكور الشمالية تسمى بالكور المجندة ، وقد استقرت فيها

---

(١) الكورة في مصطلح التقسيمات الإدارية العربية هي ما يقابل المحافظة أو المديرية في مصطلح اليوم ولكل كورة رعاياها ( أي مساحتها ) المعروفة المحددة ، ولها قاعدة أي عاصمة تتبعها مدن أخرى أصغر تقابل المراكز في التقسيم الحالي .

جماعات كثيرة من جند الشام الذين ذكرناهم وأطمأنوا فيها ، وكان عليهم أن يؤدوا الخدمة العسكرية للدولة على النظام الذى ذكرناه ، ولهم الحق في مقابل ذلك في الاحتفاظ لأنفسهم بثالث خراج الأرض ، وقد أصبحت هذه الأجناد من العناصر العسكرية الرئيسية في التنظيم الحربى للأندلس

ولم يستطع أبو الخطار الاستمرار في هذه السياسة الحكيمة ، فمال إلى العنيفة ، وثار النزاع من جديد .

وفي السنوات العشر الأخيرة من عهد الولاة في الأندلس ، ظهرت حكومة الصميل بن حاتم ويوسف الفهرى ، والصميل شخصية فريدة في بابها تجمع معظم التواحي الإيجابية والسلبية في كثير من العرب الجاهليين ، الذين دخلوا الإسلام دون أن ينس الإيمان قلوبهم ، فهو شجاع لا يهاب الموت كريماً يجرؤ بكل ما في يده دون تردد ، شهيم لا يرتكب ما ينسى المرأة ، وهو سيد مهذب يعرف كيف يعامل الناس ، وهو أيضاً شاعر يقول شعراً يسيراً ولكنه يعجب بالشعر الجيد ، وهو بعد ذلك كله أمي لا يعرف من القرآن الكريم إلا نزرأ يسيراً ، وهو عنيف في خصومه ، شديد الحقد لا ينسى ثأره ، ومسرقت في العطاء لا يكاد يبقى شيئاً وكان لا يتورع عن شرب الخمر ، وهو ذكئ خبيث لا يفوته أمر ولا يتردد في القضاء على خصومه ، وهو كسول في معظم أوقاته ، فإذا قام على قدميه لم يهدأ ، وتحول إلى شيطان متصل الحركة فيصيب الناس والبلاد منه أذى شديداً .

هذا الرجل نظر في أمر الأندلس فثنين بسبب قيسيته ، أى شاميته ، أن الشاميين وحدهم لا يصلحون للحكم وقيادة الحرب ، وأن أمر الأندلس لا يصلح إلا إذا تعاون الفريقان على أى صورة من الصور ، ولكنهم كذلك لا يستطيعون سيادة البلديين لكثرة هؤلاء واستعدادهم للدفاع عن أنفسهم في كل حين مبدأ أولاً فجمع الشاميين إلى لواء واحد هو لواءه ، ثم بحث في المعسكر الآخر أى البلبيين فاختر زعيماً يؤيده ويؤسّر الأمر باسمه ذلك الوقت ، فوجد يوسف بن عبد الرحمن الفهرى الذى أجمع البلديون على رياسته ، وكان الشاميون أيضاً مستعدين للخضوع له بسبب مضررتهم . وأخيراً تم الاتفاق بين الرجلين على أن تكون الإمارة ليوسف الفهرى ويكون الصميل مستشاره وصاحب رأيه واستقر

الأمر على ذلك في ربيع الثاني ١٢٩ هـ / ديسمبر ٧٤٦ م ولم تستقر الأمور لهما إلا بعد حرب طويلة مع زعيم يعني يسمى يحيى بن حريث ، بلغت عصبيته لليمنية مبلغاً جعله غير قادر إطلاقاً على احتمال أهل الشام بأى سبيل ، ولكنه انهزم وقتل في معركة شقفة ١٢٠ هـ / ٧٤٧ م وخلا الأمر بعد ذلك للصميل ويوسف القهرى حتى جاء عبد الرحمن بن معاوية الداخل .

وقد هدأت الأحوال هذه السنوات ، فيما عدا ما كان من مجاعة شديدة بلغت ذروتها سنة ١٣٦ هـ / ٧٥٣ م وكانت هذه المجاعة نتيجة لما رأينا من حروب شديدة بين العرب فيما بين بعضهم البعض وبينهم وبين البربر ، فازدادت الهجرة إلى أفريقية وقل عدد المسلمين في شبه الجزيرة عما كان ، ويستثنى من ذلك إقليم سرقسطة وكان معظم أهله عرباً يمنيين قاستقروا في الأرض وزرعوا فلم يتأثروا بهذه الفتن إلا قليلاً .



## قيام الدولة الأموية الأندلسية

١٣٨ هـ / ٧٥٦ م

وصلنا بتاريخ الأندلس إلى ولاية الصميل بن حاتم ويوسف القهرى، وهى ولاية طويلة ميزتها الوحيدة أن الهدوء النسبى ساد البلاد فى أثنائها، فلم نعد نسمع عن الخلافات العنيفة بين طوائف المسلمين من عرب وغير عرب، ولكن وضع الأندلس كان يحتاج إلى أكثر من هذا الهدوء، فقد كان يحتاج إلى حكم قوى نشيط، فإن البلد خضع للمسلمين، لكنه لم يتحول إلى بلاد إسلامى بعد، فقد كانت غالبية السكان نصرانية، ولو استمرت سياسة الأمور على هذا النحو لقلق المضطرب فإن أمر المسلمين فى الأندلس كان لا بد أن يتلاشى فهو بعيد بعداً شاسعاً عن قلب مملكة الإسلام ومركز الخلافة، فكان من العسير إمداده بالعون المستمر ولو عادت الفتنة مرة أخرى، ولو لفترة قصيرة لأصبح تلاقى النتيجة المحتومة مستحيلًا.

وقد أمكن تلاقى هذا المصير بحدوث هو من قبيل المصادفات. ولكنه كان من أسعد المصادفات فى تاريخ الإسلام، ذلك أن قيام الدولة العباسية فى ربيع الأول ١٢٢ هـ / يونيو ٧٤٩ م اقترن بمذابيح واسعة النطاق، أنزلها العباسيون بالأمويين انتقاماً لما فعلوا بسأل البيت - فى الظاهر - وتخلصاً من بقايا الأمويين وأنصارهم فى المناطق. وقد حصص العباسيون الأمويين دون رحمة ومن هؤلاء أبناء معاوية بن هشام بن عبد الملك وكانوا أربعة ذكور عدا البنات. وقد قُتل الابن الأول، فيمن قُتل من الأمويين فى دمشق عندما دخل العباسيون، أما الثانى فقد قُتل فى مذبحة «دير الجماجم» ومر الثالث والرابع فقد كانا فى بعض قرى العراق عندما أقبل جند العباسيين للقضاء عليهما فقرا معاً، وكان أولهما عبد الرحمن بن معاوية بن هشام وكان فى التاسعة عشرة، وأخ له صغير فى الثالثة عشرة، واختفا فى مكان من ضفة القرات، ثم طلبا إلى نوتى أن يعينهما على العبور، فخافهما هذا الرجل ودل العسكر عليهما، فقرا على وجيههما وألقيا بنفسيهما فى الماء ليعبرا سباحة، ووقف الجند على الشاطئ يدعونهما إلى العردة،

وبعد أن أعطياهما الأمان ارتد الأخ الأصغر ليعود وحذره أخوه فلم يسمع . فلم يكد يصل إلى الشاطئ حتى قتل ، أما عبد الرحمن فقد فرّ إلى قرية في الشام ، وكان قد اتفق مع أخته ، أم الوليد وأم الأصم ، على أن ترسلأله مولييهما « بدرأ وسالمأ » فيعود إلى هذه القرية ومضى الثلاثة هاربين حتى عبرا معه ووصلوا إلى المغرب وكادوا يقعون في يد عبد الرحمن بن حبيب لكنهم نجحوا إلى ساحل المحيط عند طنجة واختفوا في قبيلة « نفزة » وكانت أم عبد الرحمن من بنات هذه القبيلة

وعلى بعد ٦٠٠ كيلو متر من بغداد ، شعر عبد الرحمن بشيء من الأمان . كانت سنة ١٠٠٠ هـ / ٧٥٢ م تقريباً نجد عبد الرحمن يعيش في قبيلة « نفزة » في خمول . وكان حزيناً لأن يقضى بقية عمره في خمول . ومن « موضعه هذا أخذ يتطلع إلى ما حوله رجاء أن يجد وسيلة يخرج بها من ذلك الخمول .

وفي سنة ١٢٦ هـ / ٧٥٢ م تقريباً نجد عبد الرحمن يعيش في قبيلة « نفزة » في حماية شيخها ، وهناك بدأت أخبار الأندلس تصل إليه . وكان أمرها قد صار إلى الصميل ويوسف الفهري وكان سالم مولى أخته قد حدثه عنه ، لأنه كان في جملة عساكر موسى بن نصير . ولكن سالم لم يحتمل خلق عبد الرحمن العنيف فعاد إلى المطرق وبعث معه بدرأ الذي سيكون له نصيب كبير في إتمامه صرح الدولة الأموية في الأندلس .

وكان في الأندلس جماعة كبيرة من موالى بنى أمية . ما بين موالى خلفاء كالوليد وسليمان وهشام أبناء عبد الملك ، وموالى البيت الأموي عامة وموالى موسى بن نصير ومعيص الرومي ومن إليهم من موالى بنى أمية ، وانضم إليها موالى القرشيين ، وقد عرفوا بموالى قریش . فكثر عددهم وكانوا من خيرة مسلمي الأندلس ، لما لهم من معرفة بشئون الدولة والإدارة . وكان يوسف الفهري قد ادعى ولاء أولئك الموالى جميعاً عند زهاب أمر بنى أمية ، ووجدوا هم في ذلك قوة لهم ، فاندرجوا في أنصار يوسف وقد أدرك عبد الرحمن أنه يستطيع الوصول إلى شيء بفضل هؤلاء الموالى في الأندلس .

لهذا أرسل موله بدرأ برسالة إلى زعمائهم وأهمهم ثلاثة : أبو عثمان عبيد الله ابن عثمان وعبد الله بن خالد ويوسف بن بخت - يرجوهم فيها معاونته على الوفود إلى الأندلس للاستقرار فيها مع تهيئة ظروف حياة مناسبة لملكه

ومن أول الأمر فهم الموالي أن هذا الشاب يطمح إلى ولاية الأندلس . وكان ذلك يوافق أهواءهم فامتنوا للأمر . وكثفوا فيه الصميل بن حاتم ، لأنهم كانوا يعرفون أن القوة في يده . ومن الغريب أنهم لم يصارحوا به يوسف الفهري ، والمقرض أنهم كانوا من مواليه ، وقد وعدهم الصميل خيراً

وكان يوسف الفهري مشغولاً إنذاك بأمر ثورة في سرقسطة ، قام بها اليمينيون وكان يلح على الصميل وموالي بني أمية في الخروج ، وهؤلاء يُسُونون ، ثم خرج الجيش آخر الأمر وفي أثناء الطريق تبين موالي بني أمية أن الصميل يحتال عليهم وأنه لا يضمن لعبد الرحمن هذا خيراً . فالتصرفت زعمائهم عن الحيش واتجهوا إلى مراكز الموالى في « البيرة وجيان » . وفي الطريق قرروا أن يقتصوا أيديهم عن الصميل والقبائل المضرة وأن يعتمدوا على القبائل اليمينية الكلبية . وكانوا موفقين في هذه الخطوة لأن اليمينية كانوا يتوقفون إلى الأخذ بثأر هزيمتهم في « شقندة » ، وكانوا تواقين إلى التخلص من سيادة الصميل بن حاتم عليهم عن طريق يوسف الفهري

لهذا استجاب اليمينيون في إقليم غرناطة إلى هذا الفداء وتحمسوا لعبد الرحمن ، على أمل أن يدركوا الرياسة معه ، وقرروا مع موالي بني أمية استقدامه إلى الجزيرة . وهكذا عبر عبد الرحمن في ربيع سنة ١٢٧هـ / ٧٥٤م إلى الأندلس وبزل في « فرضة المنكب » في كورة غرناطة ، ومنها انتقل إلى « طرش » ، وكانت دار يوسف بن بخت شيخ جند قنمرين وأحد كبار موالي بني أمية ، وهناك توافد عليه الموالي وأتباعهم وذاع الأمر في الأندلس كله .

وبلغ الأمر الصميل ويوسف الفهري في سرقسطة . وكانت ظروفيهما سيئة بسبب سوء تصرفهما مع الجند ، فلم يكن في أحد حماس حقيقى للنهوض معهما . وأقبل الشتاء وهما في هذا التفر القمصى ومضى الناس يهتزون عليهما أمر عبد الرحمن قائلين إنه لا يريد إلا الاستقرار والعيش في سلام

وفي هذه الأثناء كان معسكر عبد الرحمن في « طرش » يحل بالئناس ، وكان أكثر الواعدين عليه المنضمين إليه من اليمينيين ، وانضمت إليهم جماعات من البربر ، وكان هؤلاء يرجون أن يجدوا الراحة من القلاقل في ظل حكم جديد

وعندما أقبل الربيع بدأت بطون مضي القيسية تتوافد على الصميل ويوسف، وكانوا قد انتقلوا إلى قرطبة، ويظهر أن المضريين الشاميين لا يريدون أن يتنازلوا عن الرئاسة التي وصلوا إليها مع الصميل بن حاتم، وإزاء ذلك شرع عبد الرحمن يمر بقواته على منازل اليمثيين لاستنهاضهم، فاندضم إليه الكثيرون وتقدم من قرطبة وضرب معسكره على الضفة الجنوبية للنهر، في حين تزايد حجم جيش الصميل ويوسف وثأب الجانيان للقاء حاسم. ووقع ذلك اللقاء يوم الجمعة ١٠ ذي الحجة ١٢٨هـ / ٧٥٦م عند «المصاراة» وهي طرف قرطبة العربي، وانتهى اليوم بنصر حاسم لعبد الرحمن ودخل قرطبة ونزل دار الإمارة مساء ذلك اليوم، ثم صلى بالناس وخطب على جند قرطبة، ويعتبر ذلك اليوم ميلاد الدولة الأموية في الأندلس، بل ميلاد عصر جديد في تاريخ الغرب الإسلامي كله.

واستأمن الصميل ويوسف إلى عبد الرحمن فأمنتهما ثم نكثا عليه، وانتهى الأمر بحبس الصميل وموته مخنوقاً في سجنه، أما يوسف القهري فقد تشرد في نواحي الأندلس حتى قُتل في قرية قريبة من طليطلة.



## فتوح المسلمين

### شمال جبال البرت

#### في غالة (فرنسا)

في مفهوم العرب إلى آخر الدولة الأموية على الأقل كانت حركة الفتوح حركة متصلة لا يمكن أن تتوقف مادامت هناك بلاد لم تصل إليها رسالة الإسلام ، فإذا ما تم فتح قطر فلا بد من الاسترسال فيما يليه مباشرة . هكذا رأينا اتصال الفتوح الإسلامية إلى الآن .

فيما يتصل بالاندلس كان هناك دافع أكبر لكي يستمر العرب في الفتح فيما يقع شمال البرانس ، وهو أن تلك الجبال لم تكن حد المملكة القوطية من الشمال ، إنما كان القوط يملكون إقليم سبتمانية وهو يتكون من سبعة أقسام إدارية تمتد على ساحل البحر المتوسط من جبال البرانس إلى مصب الرون ، وكانت عاصمة هذا الإقليم مدينة « أرغون » ، أما ما يلي جبال البرانس في الشمال فكانت تحتله في الغرب دوقية « أقطانية » وعاصمتها « بردال أو برود » ، وكان يحكمها إذ ذاك دوق يسمى « أود أو أودو » ، وكانت تحتل حوض الجارون وإلى شمالها كانت تقع مملكة الفرنجة ، وفي ناحية الشرق ، شمال سبتمانية كانت تقوم دوقية « برغندية » وتشمل بقية حوض الرون ، وكانت مستقلة عن مملكة الفرنجة .

أي أن العرب في محاولتهم للدفاع شمالاً كان عليهم أن يواجهوا أربع جبهات للمقاومة بقايا قوات القوط في سبتمانية التي تسمى أحياناً « لاجاليا جرتيكا » ، وقوات دوقية أقطانية ، وقوات إمارة برغندية ثم قوات مملكة الفرنجة .

وكان عبد العزيز بن موسى قبل نهاية ولايته قد استولى على إقليم « قطلونية » ، ودخل المسلمون برشلونة وطركونة وجريدة المعروفة باسم « خيرونا » ، وبذلك كان شبه الجزيرة كله في قبضة المسلمين عند نهاية إمارة عبد العزيز بن موسى سنة ٩٧ هـ / ٧١٦ م .



وما تولى أمر الأندلس الحرّ بن عبد الرحمن النخعي في ذي الحجة سنة ٩٧هـ / أغسطس ٧١٦م تقدم فدخل أرغون عاصمة سبتامنية ، وقام بعدد من الغارات القصيرة فتحت أبواب قرنسا الجنوبية للمسلمين

ولكن حركة الفتح في غالبية بدأت بصورة جديّة على يد السمع بن مالك الخولاني ، الذي ولّاه عمر بن عبد العزيز على الأندلس سنة ١٠٠هـ / ٧١٩م . وكان رجلاً عظيم الإيمان والحماس ، فقد جنده من « أرغون » إلى « طرسونة » واستولى عليها ، وتقدم فحاصر طولسنة ( تولوز ) أولى المدن الكبيرة في دوقية « أقطانية » ، فأسرع الدوق « أودو » وجمع جيشاً كبيراً وتقدم نحو المسلمين ، ودارت معركة عنيفة بين الجانبين ، وقد صبر المسلمون صبراً كريماً حتى استشهدوا عن آخرهم ، وكان ذلك في يوم عرفة ١٠٢هـ / ٢١ يونيو ٧٢٠م . ولم تستطع فلول القوات الإسلامية العودة إلى أرغون إلا بفضل قائد ممتاز من طراز السمع هو عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي . وهذه أول مرة نسمع فيها باسم هذا الرجل العظيم . تمكن من جمع فلول الجيش والعودة بنظام إلى أرغون . وهناك انتدبه الجند العربي عاملاً على الأندلس وتلك كانت ولاية عبد الرحمن الغافقي الأولى التي لم تدم إلا قليلاً

وكان الوالي الذي خلف عبد الرحمن رجلاً من طراز كبار الفاتحين وهو غنيسة ابن سحيم الكلبى . فقد تولى من ١٠٥هـ / ٧٢٣م حتى شعبان ١٠٧هـ / يناير ٧٢٥م .

قضى غنيسة السنوات الأولى من الولاية في تنظيم أمور الأندلس وتكوين جيش قادر على مواصلة الفتوح في غالبية ، فلما تم له ذلك نهض سنة ١٠٦هـ / ٧٢٥م / « فرقب أمر حاميتي » برشلونة وأرغون « ثم سار شمالاً فاحتل « قرقسونة » ، وعقد حلفاً مع أهل الناحية على أن يردوا أسرى المسلمين ويقاتلوا معهم ، ثم تقدم إلى « نيمة » فاحتلها وعقد مع أهلها اتفاقاً معانداً ، ثم اتجه نحو نهر الرون فسار مع ضلّته شمالاً دون أن ينفق وقتاً في الاستيلاء على مدن فلما أدرك « أوتان » احتلها ، إذ كانت أول عواصم إقليم « بوجيوني » . ثم أدرك حوض نهر السارون - أحد نهيرات اللوار الذي يلتقي بنهر الرون عند مدينة ليون ، واحتلت القوات الإسلامية « ليون وساكون وشالون » . وهناك توقعت الحملة فرقتين إحداهما احتلت « نيجون » والأخرى صعدت مع السارون شمالاً

## فتوح المسلمين

### شمال جبال البرت

#### في غالة (فرنسا)

في مفهوم العرب إلى آخر الدولة الأموية على الأقل كانت حركة الفتوح حركة متصلة لا يمكن أن تتوقف مادامت هناك بلاد لم تصل إليها رسالة الإسلام . فإذا ما تم فتح قطر فلا بد من الاسترسال فيما يليه مباشرة هكذا رأينا اتصال الفتوح الإسلامية إلى الآن .

فيما يتصل بالاندلس كان هناك دافع أكبر لكي يستمر العرب في الفتح فيما يقع شمال البرانس ، وهو أن تلك الجبال لم تكن حد المملكة القوطية من الشمال ، إنما كان القوط يملكون إقليم سبثمانية وهو يتكون من سبعة أقسام إدارية تعدد على ساحل البحر المتوسط من جبال البرانس إلى مصب الرون . وكانت عاصمة هذا الإقليم مدينة « أرغون » ، أما ما يلي جبال البرانس في الشمال فكانت تدعى في الغرب دوقية « أطلانية » وعاصمتها « برغال أو برود » ، وكان يحكمها إذ ذاك دوق يسمى « أود أو أودو » ، وكانت تحتل حوض الجارون وإلى شمالها كانت تقع مملكة الفرنجة ، وفي ناحية الشرق ، شمال سبثمانية كانت تقوم دوقية « برغندي » وتشمل بقية حوض الرون ، وكانت مستقلة عن مملكة الفرنجة .

أي أن العرب في محاولتهم للاندفاع شمالاً كان عليهم أن يواجهوا أربع جبهات المقاومة . بقايا قوات القوط في سبثمانية التي تسمى أحياناً « لاجاليا جوتيكا » ، وقوات دوقية أطلانية . وقوات إمارة برغندي ثم قوات مملكة الفرنجة

وكان عبد العزيز بن موسى قبل نهاية ولايته قد استولى على إقليم « قطلونية » ودخل المسلمون برشلونة وطركونة وجريدة المعروفة باسم « خيرونا » . وبذلك كان شبه الجزيرة كله في قبضة المسلمين عند نهاية إمارة عبد العزيز بن موسى سنة ٩٧ هـ / ٧١٦ م

ولما تولى أمر الأندلس الحرّ بن عبد الرحمن الثقفي في ذي الحجة سنة ٩٧هـ / أغسطس ٧١٦م تقدم فدخل أرغون عاصمة سبتمانية ، وقام بعدد من الغارات القصيرة فتحت أبواب فرنسا الجنوبية للمسلمين .

ولكن حركة الفتح في غالة بدأت بصورة جديدة على يد السمع بن مالك الخولاني ، الذي ولّاه عمر بن عبد العزيز على الأندلس سنة ١٠٠هـ / ٧١٩م . وكان رجلاً عظيم الإيمان والحماس ، فقد جتده مس « أرغون » إلى « طرسونة » واستولى عليها ، وتقدم فحاصر طرلونة ( تولوز ) أولى المداين الكبيرة في دوقية « أقطانية » ، فأسرع الذوق « أودو » وجمع جيشاً كبيراً وتقدم نحو المسلمين ، ودارت معركة عنيفة بين الجانبين ، وقد صبر المسلمون صبراً كريماً حتى استشهدوا عن آخرهم ، وكان ذلك في يوم عرفة ١٠٢هـ / ٢١ يونيو ٧٢٠م . ولم تستطع فلول القوات الإسلامية العودة إلى أرغون إلا بفضل قائد معزز من طراز السمع هو عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ، وهذه أول مرة نسمع فيها باسم هذا الرجل العظيم . تمكن من جمع فلول الجيش والعودة بنظام إلى أرغون ، وهناك انتخبه الحند العربي عاملاً على الأندلس وتلك كانت ولاية عبد الرحمن الغافقي الأولى التي لم تدم إلا قليلاً .

وكان الوالي الذي خلف عبد الرحمن رجلاً من طراز كبار الفاتحين وهو عنبسة ابن سحيم الكلبي . فقد تولى من ١٠٥هـ / ٧٢٣م حتى شعبان ١٠٧هـ / يناير ٧٢٥م .

قضى عنبسة السنوات الأولى من الولاية في تنظيم أمور الأندلس وتكوين جيش قادر على مواصلة الفتوح في غالة ، فلما تم له ذلك نهض سنة ١٠٦هـ / ٧٢٥م / فرقب أمر حاميتي « برشلونة » وأرغون ، ثم سار شمالاً فاحتل « قرقشونة » ، وعقد حلفاً مع أهل الناحية على أن يردوا أسرى المسلمين ويقاتلوا معهم ، ثم تقدم إلى « نيمة » فاحتلها وعقد مع أهلها اتفاقاً مماثلاً ، ثم اتجه نحو نهر الرون فسار مع ضعفه شمالاً دون أن ينفق وقتاً في الاستيلاء على مدن . فلما أدرك « أوتان » احتلها ، إذ كانت أول عواصم إقليم « بورجونيا » ، ثم أدرك حوض نهر السارون - أحد نهيرات اللوار الذي يلتقي بنهر الرون عند مدينة ليون ، واحتلت القوات الإسلامية « ثيرون وماكرون وشالون » ، وهناك فترعت الحملة فرتقتين إحداهما احتلت « ديجون » والأخرى صعدت مع السارون شمالاً

حتى بلغت « صانص » على بُعد ٧٠ كيلو متراً جنوبي « باريس » ، وهذه كانت أبعد نقطة وصل إليها المسلمون شمالاً ، وهي تبعد نحو ٨٠٠ كيلو متر شمال جبال الأيرت ، وإن وصول العرب فاتحين إلى ذلك الحد ، لدليل قاطع على ما امتازوا به من جرأة وقوة وإيمان تصنع المستحيلات ، ولا يقلل من هذا الفضل أنهم لم يستطيعوا البقاء عند ذلك الحد ، فالواقع أن البقاء عنده كان مستحيلاً إذا نظرنا إلى الظروف العامة التي تمت فتوح المسلمين في « غالة » خلالها ، فإن عنبة كان يوغل في قلب أوروبا الغربية نفسها وكانت الشعوب الجرمانية متراسّة إلى بعضها بعضاً ، ثم إن الفرنجة أصحاب هذه المنطقة كانوا يعرون في فترة نهوض سياسي تولّد آل « كارل مارتل » الذين عرفوا بالكارولنجيين ليحلوا محل الميروفنجيين وكان كارل مارتل وتسميه المراجع العربية « قارله » يجمع قوى انصاره وينتظر الفرصة التي تسمح له بإثبات استحقاقه لتاج الملك من دون ملك الميروفنجيين الضعيف .

وأخذ عنبة مع رجاله طريق العودة إلى الأندلس سنة ٦٠٧ هـ / ٧٢٦ م محملين بالغنائم بعد أن اجتاحوا حوض الرون كله ، وتخلّصوا الألوار ووصلوا إلى السين . ولا نستطيع القول بأن عنبة فتح حوضي غالة أو حوض الرون ، لأنه في الواقع لم يفعل شيئاً لتثبيت أقدام المسلمين فيما وصلوا إليه من البلاد ، ولكنه على أي حال الفاتح المسلم الوحيد الذي وصل إلى هذا المدى في فترته ، وربما جاز تشبيه حملة عنبة بحملة عقبة الكبرى ، مع اختلاف الظروف طبعاً .

وكان لا بد من حملات ضخمة أكثر نظاماً ليتم فتح هذه التواحي كما أتمت حملات زهير بن قيس وحسان بن النعمان وموسى بن نصير عمل عقبة بن نافع ، ولكن ظروف العرب في المغرب والأندلس لم تكن تسمح لهم بمواصلة الفتوح بالقوة التي عهدناها فيهم ، وذلك بسبب الخلافات بين العرب أنفسهم ، ثم بينهم وبين البربر ، ثم إن حملة عنبة أثارت مخاوف أوروبا الغربية كلها ، فقد اقتحمها العرب اقتحاماً وأوغلوا في داخل بلادها ، دون أن يستطيع أحد مقاومتهم ولقد شعر القائم بأمر مملكة الفرنجة إذ ذاك وهو شارل أو كارل بأنه لا بد أن يقوم بعمل حاسم إذا عاد العرب مرة أخرى ، وبالفعل بدأ يستعد للقائه حاسم ، فاخذ يجمع القوات والسلاح والأزواد ، وصانع أمراء « بيرغندية » واتفق مع رجال « سبثمانية » ومع الدوق « أودو » ليقوموا معاً بعمل حاسم ضد المسلمين .

ومن سوء الحظ أنه وقع انشقاق في صفوف المسلمين المتقيمين في الثغر الأعلى الأندلسي أي حوض الإبرو وكان له أثر سيئ على سير الفتوح فيما بعد ، فإن الدوق أودو كان قد حالف المسلمين ، بل صاهر قائداً بربرياً من قوادهم يسمى «موقوسة» كان مركزه في الناحية الغربية من جبال البرت ، ولم يرض المسلمون عن هذا الصهر ، لأن موقوسة بدأ يأخذ جانب أودو ورجال أقطانية ، وانتهى الأمر إلى انفصاله عن المسلمين بمن معه من الرجال . وتسذهب الروايات إلى أن عبد الرحمن الخافقي الذي كان يحكم أرغون وينظم أعمال الجهاد اختلف مع موقوسة اختلافاً شديداً . وكان عبد الرحمن رجلاً عنيفاً بالغ الاستقامة من طراز عقبة بن نافع ، فاشتد مع موقوسة مراده نفوراً وانضمت إليه جماعات كثيرة من البربر.

وكان عنبسة قد استشهد في طريق عودته إذ دهمتهم قوات نصرانية كبيرة في خنادق جبال البرت ، وقد قُتل عنبسة في اللقاء في شعبان سنة ١٠٧ هـ / ديسمبر ٧٢٥ م وتولى قيادة الجند وولاية الأندلس من بعده عذرة بن عبد الله الفهري الذي حكم حتى ربيع الأول ١١٠ هـ / يونية - يولية ٧٢٨ م .

وقد قام عذرة بعمليات عسكرية قليلة في عانة ولكن يبدو أن الجند الإسلامي الذي كان مركزاً في أرغون كان يقوم بضربات سريعة وغارات عنيفة في كل جهة . ومثل هذه الغارات والضربات تؤتى غنائم وفيرة للمحاربين أنفسهم ، ولكنها تضر بالقضية الإسلامية الكبرى ، فهي من ناحية ترعب الناس من المسلمين . وتلقى في روعهم أنهم أهل غارة وسلب ونهب لا غير . ومن ناحية أخرى فهي تفقد الجنود طابع النظام وخواص الجدية والإيمان والبسالة الحقيقية ، ومن أسف أن عذرة بن عبد الله الفهري لم يستطع ضبط رجاله ، فذاع اسمه في حثوبى فرنسا كلها كرجل سفاك نهب ، وتطاع الناس هناك إلى من يخلصهم من هذه الغارات السالبة الناهية ، وذلك كله مهد الطريق أمام شارل مارتل . بينما تعاقب على ولاية الأندلس بعد عزل عبد الرحمن الخافقي وذلك خلال الأعوام ( ١٠٥ - ١١٢ هـ / ٧٢٣ - ٧٣٠ م ) سبعة ولاة ، لم يقض أحدهم فيها أكثر من شهرين مما يدل على اضطراب الأحوال .

ومن حسن الحظ أن الولاية بقيادة الفتوح صارت في صفر ١١٢ هـ / أبريل

٧٣٠ إلى عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ، فقد استطاع بحزمه وروحه العسكرية أن يضبط جنوده ويعيدهم إلى النظام من جديد ، حقاً إنه لم يستطع استعادة موقعية إلى صفوقه ، ولكنه على أي حال أوقف تيار ندهمور الفتح إلى غارات ، ولو أن عبد الرحمن الغافقي كان أقل عنفاً عما كان في الواقع ، لاستطاع أن يصل إلى نتائج أحسن ، ولكنه كان جندياً عنيفاً بالغ الحماس لا يلتفت إلى سياسة أو كياسة مما قُتل فرص النصر الكبير أمامه .

خرج عبد الرحمن الغافقي بحملته الكبيرة في أوائل ١١٤ هـ / ربيع ٧٣٢ م وكان معه ٧٠ ألف جندي تقريباً غالبيتهم من البربر ، في حين أن الروايات النصرانية تقول إنه كان يقود ٤٠٠ ألف مقاتل .

ولم يحاول عبد الرحمن الغافقي أن يكسب صداقة الدوق « أود » ، بل إنه لم يعمل على إبقائه على الحياد ، وأتى عبر جبال البرت في ١١٤ هـ / صيف ٧٣٢ م من الممرات رأساً إلى قلب بلاد أودو ، فاضطر هذا إلى طلب العون من رجال الفرنجة ، واستولى عبد الرحمن على « طولوشة » مرة أخرى ، ثم ارتد شرقاً إلى « نهر » فاجهز على سور في مدينته « آرل » ، وعقب ذلك عاد عبد الرحمن واتجه نحو « برود » عاصمة أقطانية وتصدى له الدوق « أود » فهزمه عبد الرحمن هزيمة كبرى على ضفاف نهر الدوردوني ثم دخل المسلمون بوردو واحتلوها وأسرع « أود » نحو شارل مارتل ، وتقدم عبد الرحمن فاحتل براتيه بعد صراع عنيف وشرع يستعد للسير شمالاً نحو باريس .

وعجل شارل مارتل الذي تسعيه مراجعنا « قارله » فحشد كل ما استطاع من قوة للقاء المسلمين ، واستتفر الناس استتقاراً فتضخم جيشه ، وسار جنوباً للقاء العرب شاعراً أن هذه فرصته الكبرى لكي يثبت جدارته بالسلوك من دون المبروفنجيين .

وكان الجيش الإسلامي كبيراً ولكن ليس بالضخامة التي يصفه بها المؤرخون النصارى . وينبغي قبل أن نقص تفاصيل المعركة القادمة أن نلاحظ :

أولاً : أن الجيش الإسلامي رغم شجاعته وارتفاع قواه المعنوية ، كان قد بعد جداً عن بلاد الإسلام ، وأصبح الآن على بعد ٤٠٠ كم تقريباً شمال جبال البرت ،

وجبال أنبرت تبعد ٩٠٠ كم عن قرطبة ، وهذه مسافات واسعة جداً تجعل موالاة الجيوش بالمؤن والأزواد والإمداد أمراً عسيراً ، ولو أرسل عبد الرحمن الغافقي رسالة استنجاد إلى قرطبة فإن حاملها لا يصل في أقل من شهرين ، في حين أن قارله « كان يحارب في بلاده وبين أهله وعشيرته

**ثانياً :** كانت الغالبية العظمى من المسلمين من البربر ولم تكن العلاقات بينهم وبين العرب أهل القيادة على ما ينبغي في هذه الظروف ، ولم تكن لدى عبد الرحمن الغافقي من السياسة وبعد النظر ما يمكنه من إزالة أسباب الخلاف في الجيش ليستطيع السيطرة الكاملة على قواته

**ثالثاً :** كان الوقت حريفاً وهو موسم الأمطار الثقيلة في هذه النواحي والمسلمون لا يستريحون للبرد والمطر ، وكانت تلك المناطق كلها عبايات ، والفارس العربي لم يكن يحسن الحرب في الغابات ، ثم إن خيول المسلمين العربية الصامرة تأثرت دون شك بالبرد والأمطار ، ولم تعد تستطيع الحركة بنفس الخفة التي تعمل بها في الجو الدافئ الجاف .

وأخيراً يبدو أن عبد الرحمن الغافقي كان جندياً عظيماً ، ولكن كانت نقصه القدرة على وضع خطة محكمة للقتال كما رأينا مثلاً عند حسان بن النعمان وطارق بن زياد ، بعد استمر عبد الرحمن في سيره حتى لقيه الفرنجة

وأخيراً : لدينا مسألة الغنائم الكثيرة التي كان الجيش الإسلامي يسحبها وراءه ، ويقوم من بعض الروايات أن خوف المسلمين على صياع هذه الغنائم كان من أكبر أسباب الهزيمة

وقد كان اللقاء على بعد ٢٠ كيلو متراً شمال « بواتيه » في الطريق إلى تور وجنوبي مجرى الأنوار ، في موضع قريب من طريق روماني قديم هو المسمى « بالبلاط » ، وفي هذا الموضع قرية تسمى الآن مواسيه لا بأتاني Moissias la Bataille وربما كان موقعها يحدد مكان المعركة

أما تاريخ المعركة فالرأي السائد اليوم أنها بدأت في ١٢ أو ١٣ أكتوبر ٧٣٢م / أواخر شعبان ١١٤ هـ ، واستمرت إلى ٢٠ أكتوبر أي أوائل رمضان من تلك السنة .

دارت المعركة إذن أكثر من أسبوع مما يدل على أنها كانت معركة حامية .  
والحق أن كلا من الجانبين بذل أقصى وسعه في القتال ، وصبر المسلمون صبراً  
طويلاً حتى تجمعت عليهم قوات نصرانية من كل ناحية ، فلم يقتصر الأمر على  
الفرجة بل كان هناك كثيرون من أجناد جرمانية أخرى ، وأخر مراحل المعركة  
كان هجوماً عنيفاً على مؤخرة الجيش الإسلامي ، فانتهت القتال وتزعزع نظام  
الجيش ودقت ثغرات نفذ منها الأعداء ، وفي أثناء ذلك استشهد عبد الرحمن  
الخافقي بسهم أصابه ، وكان هذا نذير الهزيمة . وقد استمر القتال مع ذلك حتى  
هبط الليل فتحاجز الفريقان . وانتهزت فلول المسلمين الفرصة فسللت من مكان  
المعركة تحت الظلام ، فلما أصبح الفرجة لم يجدوا للمسلمين أثراً ، ولكنهم وجدوا  
نخازن عظيمة فانتهبوها ولم يفكروا في تتبع المسلمين ، فسلمت البقية الباقية منهم  
وعادت إلى أرغون .

وعندما بلغ الخبر إلى عبيدة بن عبد الرحمن السلمي ، عامل أفريقية ، وإلى  
عبد الملك بن قطان الفهري من قبله على الأندلس ، فأسرع هذا إلى أرغون ، وفي  
الطريق أعاد الهدوء إلى أملاك المسلمين في جبال البرت وجنوب فرنسا ، وثبت  
سلطان المسلمين في سيثمانية وعقد معاهدات مع نفر من الرؤساء خلفوا الدوق  
أودو في حكم نواحي أقطانية وتمكن في وقت قصير من أن يتلافى الكثير من الآثار  
السلبية التي تسببت عن هزيمة اليبلاط ، ومن حسن الحظ أن « كارل » شغل عن  
المسلمين بأعداء كثيرين من أبناء جنسه في شمال مملكته ، فأنشأت الفرصة  
للمسلمين ليعيدوا تنظيم أنفسهم من جديد .

وقد تمكن عبد الملك بن قطان من إعادة تنظيم القوات الإسلامية بفضل قائد  
من قواده . تسميه المراجع النصرانية يوسف وربما كان يوسف الفهري . وقد فتح  
يوسف هذا مدن : آرل وأينيون وفالانس وليون ، وثبت حدود أملاك المسلمين  
هناك ، ثم أحصى إقليم « دوفيني » الذي يمتد شرق نهر الرون ويشمل جزءاً  
كبيراً مما يعرف اليوم بالرافير الإيطالية . واشتغل بعد ذلك بإعادة سلطان  
المسلمين على نواحي جبال البرت . ونلاحظ أن المسلمين اتخذوا سياسة جديدة  
لحكم ما بينهم من فرنسا وهي إقامة حاميات قوية في المدن وتحصين قلاعها



واتخاذ هذه القلاع مراكز للحكم والحرب . هكذا كان الحال في ليون وأبينيون التي  
يسميتها المسلمون صخرة أبينيون وآرل وغيرها .

ثم تولى بعد ذلك عقبه بن الحجاج السلولى فآتم إخضاع نواحي برغنيدية ،  
وكان عقبه مجاهداً عظيماً ، فتجددت همة المسلمين للقتال ، وأحسن كارل له  
لا مفر له من مواجهة المسلمين مرة أخرى . وتقدم بالقفل بجيش  
كبير يقوده هو وأخوه « شلدبراند » . وسار نحو المسلمين أيضاً ملك  
اللومبارديين ، فاضطر المسلمون إلى إخلاء أبينيون وتراجعوا إلى أرغون وتحصنوا  
فيها ، وهناك ثبتوا نحو ٣٠ سنة ، فلم تسقط إلا في سنة ١٤١ هـ / ٧٥٩ م وكان  
ذلك في أيام عبد الرحمن الداخل . وقد وجد عبد الرحمن أنه لن يستطيع المحافظة  
على أملاك إسلامية شمال جبال البرت ، فأخلى هذه الأراضي واقتصر على شبه  
الجزيرة الإيبيرية ، وكان ذلك خطأ منه ، لأن جبال البرت هي مفتاح إسبانيا ،  
وكانت نتيجة تخليه تماماً عما يقع شمالها أن استعاد الفرنجة فيما بعد منطقة  
قطلونيه ، فأنشأ ثرلعان فيها ولاية الشجر الإسباني « لاماركا هيسبانيكا » ،  
ومعنى ذلك أن شبه الجزيرة انتقص أيضاً من الشرق بعد أن انتقص من الغرب  
كما رأينا .

وقد بقيت للمسلمين جماعات محاربة في نواحي سبتمانية ودوفينية ،  
وانسحب معظمها إلى نواحي جبال الألب الحصينة حيث اتخذوا لأنفسهم مواقع  
يقوّمون منها بأعمال عسكرية فيما يجاورها ، وقد وصلت أعمالهم الحربية إل  
قلب سويسرا ، ولكن هذه لم تكن نتوحاً ولا أعمالاً إسلامية ، إنما هي غارات معظم  
هدفها الدفاع عن النفس والسلب . وقد تلاشت هذه الجماعات شيئاً فشيئاً ، تاركّة  
أسماءها على بعض النواحي وبعض وديان جبال الألب الجنوبية أو الشرقية ، من  
أمثال « أمرو » وهو عمرو « وإشمة » وهو هرثة « وسارازان » وهو اسم عام يراود  
به المسلمين عامة في هذه النواحي .

\*\*\*

## عصر تأسيس الدولة الأموية الأندلسية

عبد الرحمن بن معاوية الداخل ١٢٨-١٧٢ هـ / ٧٥٦-٧٨٨ م  
هشام الأول الرضى بن عبد الرحمن الداخل ١٧٢-١٨٠ هـ / ٧٨٨-٧٩٦ م  
الحكم الأول ابن هشام ( الرضى ) ١٨٠-٢٠٦ هـ / ٧٩٦-٨٢٢ م

أصبح عبد الرحمن بن معاوية الملقب بالداخل أميراً على الأندلس ، وهو لا يعرف عنه إلا القليل ، بل لم تكن علاقاته بعرب الأندلس وبربره وأهل البلاد أول الأمر متينة ، يستطيع الأممثنان إليها ، ولكنه كان رجلاً موهوباً جمع صفات كثيرة : السيادة والحزم والسياسة والكياسة وبعد الهمة وحسن التدبير رغم أن شبته كانت صغيرة إذ ذاك ، ولكنه ورث من جده هشام بن عبد الملك خصالاً أفلته للرياسة ، فقد كان هشام بن عبد الملك من خيرة رجال العصر الأموى ، وكان عصره حافلاً بالأحداث حتى يمكن أن نعتبره مدرسة تكونت فيها نغز من حيرة المتأخرين من بنى أمية ، منهم مروان بن محمد الجعدى وعبد الرحمن ابن معاوية بن هشام هذا ، فبدأ يرقب أموره بهدوء ويتلقى الثورات التى قامت عليه ، فى حزم وثبات ، ومضى قدماً فى تثبيت أركان إمارته التى وضع أول أحجارها وكان عليه بعد ذلك أن يجعل لها جذوراً ويقويها بدعائم .

ومن أول الأمر نجد عبد الرحمن يسير فى العمل سير من يعرف الدولة ونظامها وما يتبعى لها من قواعد ، فتجده يرتب الإدارة المركزية ، معتمداً على رجال من موالى بنى أمية ، اختارهم اختياراً حسناً مثل « تمام بن علفعة » و « يوسف ابن بخت » و « بدر بن مولى عبد الرحمن نفسه » وعبد الواحد بن مغيرة الرومى وعبد الحميد بن غانم وشهيد بن عيسى بن شهيد بن الوضاح الأشجعى وعبد السلام ابن عبد الله جد بنى عبد الرؤوف وعبد الله بن وانسرس المكتاسى « مولى سليمان ابن عبد الملك . وسيصبح أولئك الرجال وأبنائهم من عهد القوة والنظام الأموى والأندلسى على طول تاريخه ، فإن الأمراء كانوا يختارون قوادهم وكبار موظفيهم من بينهم لأن معرفة الإدارة وشئون الحكم تأسلت فى بيوتهم . وأهم بيوت أهل

الحكم هذه التي تميزت على غيرها ، وكثر ظهور النابهين من بين أفرادها في ميادين الإدارة والقيادة وشئون المال وتولي العملات والوصول إلى مراتب الإدارة مرة بعد مرة ، بيوت : « تمام بن علقمة وعبد الواحد بن مقيث وشهيد بن عيسى ابن شهيد وأبو الفهر حسان بن أبي عبدة » ، وستتضمن إليها وتتفرع منها في الطريق بيوت أخرى ، ولكنها بيوت موال أيضاً ومن يدرس تاريخ بني أمية الأندلسية لا بد أن يدرس تاريخ هذه البيوت الموازية لها ، وأهمها : « بنو أبي عبدة وبنو عبد الرؤف وبنو شهيد » ، وأبناء هذه البيوت لهم فضل عظيم على بني أمية الأندلسيين وما وصلوا إليه من نجاح .

كان عبد الرحمن الداخل هو الذي وضع ذلك الأساس ، لأنه كان في حاجة بالفعل إلى رجال يعتمد عليهم فهو غريب عن البلاد ، لا يعرف عن أهلها إلا القليل ، ومن حسن الحظ أن هؤلاء الموال جميعاً تصاهروا مع أهل البلاد ، فنشأت بيوتهم أندلسية في طبيعتها ، ونشأ أولادهم أندلسيين في مزاجهم وعواطفهم . وإن كانوا عرباً في روحهم وثقافتهم ، مسلمين أمعاء في ديانتهم . وسيسير بنو أمية أنفسهم في ذلك الطريق ، سيمتزجون من أهل البلاد ، وينبض في عروقهم الدم الأندلسي ، وأبناء من أيام هشام بن عبد الرحمن ، لا نتعجب عندما نعرف أن لغة الحديث في القصر والشارع وشئون الأسر والأسواق ، كانت مزاجاً من العربية والإسبانية ، بينما كانت العربية لغة الدولة والدين والأدب والعلم والرسميات . وقد صاحبت هذه الثنائية الثقافية الشعب الأندلسي على طول تاريخه .

قامت دولة عبد الرحمن ، على عون كبير من العرب اليمنيين والبربر البلديين ، وقد تصور اليمينيون البلديون أن انتصار عبد الرحمن ، معناه أن الدولة صارت دولتهم وأنهم يستطيعون الآن أن يتصرفوا كيف يشاؤون . ويستمررون على أسلوب الفوضى والاستخفاف بالناس والأموال والإغراق في العصبية القبلية ، التي وصلت بالأندلس إلى الحالة السيئة التي رأيناها خلال عصر الولاة . ولكنهم فوجئوا بأن العهد الجديد لن يعترف بقبسية أو يمنة ولا يفرق بين شاميين وبلديين أو يربز أو أهل البلاد . إنهم جميعاً أهل وطن واحد ، ولا بد لهم من الخضوع لقرطبة ، وقد أنكر اليمينيون ذلك إنكاراً شديداً واعتبروه جداً لفضائلهم ، فتسألت شوراتهم على عبد الرحمن في كل ناحية . وقد اعتمد في

حربهم على مقاتلي بني أمية ، وعلى جند الكور المجنّدة وعلى حشود البربر وأهل البلاد . وكانت خطته معاملة الثأرين قبل أن يجمعوا أمرهم ، وقد عادت هذه المجاهدة على عبد الرحمن بنافع كثير ، فقتل دون كثيرٍ مشكلةٍ على ثورات اليمنيين في الجزيرة الخضراء وإشبيلية وطليطلة وباجة

وكانت بعض هذه الثورات خطراً حقاً مثل ثورة «العلاء بن مغيث البحصبي» في باجة ، لأن هذا الرجل جمع جمعاً عظيماً من اليمنيين والفهريين وجند مصر ، ودعا لبني العباس وكتب إليهم يطلب سبجاً بالحكم ورخصوا هم بذلك ، ولكن عبد الرحمن قضى على الثأرين في حزم وقوة سنة ١٤٧ هـ / ٧٦٤ م ، وقد حاول زعيمٌ يمتنى آخر هو « سعيد البحصبي » المعروف « بالمطري » ، أن يثار لقتل ثورة العلاء بن مغيث ، واستنفر اليمنيون للثورة على عبد الرحمن في ليلة ١٠ جنوب غرب الأندلس فقتل على أيديهم في الأخرى وعلى محاولةٍ معانلةٍ في إشبيلية .

وكانت آخر ثورة خطيرة واجهها عبد الرحمن هي ثورة رجلٍ بربريٍّ يسمى « شقيّاً » أو شعبياً بن عبد الواحد ، زعم أنه من أبناء فاطمة الزهراء ، وقد قامت في منطقة وعرة هي « شنتميرة » ولم يستطع عبد الرحمن القضاء على هذا الدعي الفاطمي إلا بعد جهدٍ شديدٍ سنة ١١٠ هـ / ٧٧١ م

وقد تعرض الأندلس أيام عبد الرحمن إلى محاولةٍ قام بها شارلمان للاستيلاء على سرقسطة في النهر الأعلى . ولو وفق شارلمان إلى ذلك لما كان من المستبعد أن يستطرد إلى غيرها من عواصم الأندلس . ومن حسن الحظ أن الأندلس كان مجتمعاً تحت راية عبد الرحمن في ذلك الحين ، فتمكن من النجاة من الخطر المحيِّق به ، ومن الأسف أن الذين لفتوا نظر شارلمان إلى الأندلس ودعوه إلى غزوه وعدوه المعاونة ، كانوا عرباً يتزعمهم « سليمان بن يقطان الكلبي » المعروف بالاعرابي ، وإلى برشلونة ، « والحسين بن يحيى الأنصاري » وإلى سرقسطة ، وقد بلغ غشهم للانتقام من عبد الرحمن إلى درجة أنه هان عليهم أن يعرضوا الإسلام والعروبة في الأندلس للخطر ، في سبيل أحقاد شخصية . وقد بلغ بهم الأمر أن ذهبوا للقاء شارلمان في « بادربورن » في ولاية وستفاليا في غرب ألمانيا الاتحادية الحالية ، واتفقوا معه على أن يعاونه على الاستيلاء على سرقسطة .

وفي شوال ١٦١ هـ / ربيع ٧٧٨ م سار شارلمان نحو إسبانيا في جيش ضخم ،

فعبّر جبال البرت من الشرق أى من ناحية « نربونة » ودخلت بعض الفرق الفرنجية في معر في الجزء الغربي من الجبال يسمى « رنشفالة » أو « باب الشررى » ، وكان الاتفاق أن يعاونه المشكونس من حلفاء المسلمين في ذلك العمل . وأن يقوم « الحسين بن يحيى الأنصارى » بتسلم سرقسطة إذا وصل إليها ، ولكن بعد أن استولى شارلمان على نبلونة ، ورأى جمهور المسلمين من أهل الثغر الأعلى أن سليمان بن يقظان الأعرابي قد خدعهم ، وأن الأمر سينتهى بفرض نصراني أجنبى لبلاد إسلامية ، غروا موقفهم وتحالفوا مع البشكونس على أولئك الغرة ، ورفض الحسين بن يحيى الأنصارى أن يفتح أبواب سرقسطة ، فطال حصار شارلمان لها حتى أحس أنه لن يستطيع الاستيلاء عليها قبل نزول الشتاء ، فقرر العودة ، وغضب على سليمان بن يقظان الأعرابي ، واعتبره أسيراً هو وكل من كان بين يديه من رهائن العرب ، وانقلب راجعاً في سنة ١٦٦ هـ / ٧٧٨ م .

وكان أسر سليمان بن يقظان ومن معه إيذاناً بانقلاب جميع مسلمي الثغر الأعلى وحلفائهم من البشكونس على شارلمان ، ففروا الهجوم عليه عندما نتوسط قواته خواتم ممر رنشفالة الضيقة ويقول ابن الأثير<sup>(١)</sup> « شارلمان لما بعد من بلاد المسلمين وأطمأن ، هجم مطروح وعيشون أبناء سليمان بن يقظان الأعرابي في أصحابهما ، فاستنقذا أباهما ورجعا به إلى سرقسطة » . وهذه هي الإشارة الحربية الوحيدة لواقعة خطيرة سيكون لها صدئ بعيد في الأدب الشعبي الفرنسي ، ذلك أن مؤخرة جيش شارلمان كان يقودها فارس من إقليم بريطانيا ، يسمى « هر دولاند » ويعرف عادة « برولاند » Roland ، فانتقض عليها المسلمون والبشكونس ومزقوها وقتلوا رولاند ، رغم ما أبدى هو ومن معه من بسالة ، ثم وقع قتال عنيف انتهى بالقضاء على معظم قوات شارلمان . والتاريخ التقليدى لهذه الواقعة ، « ملحمة رولاند المشهورة » ، ومعظم حداثتها لا صلة لها بالواقع التاريخي ، لكنها ترمينا تصوّر الناس في جنوب فرنسا للمسلمين وعقيدتهم ، وهذه الملحمة تعتبر من المعالم الحاسمة في تكوين اللغة الفرنسية .

وبعد ذلك بسنتين سار عبد الرحمن إلى سرقسطة ، ففضى على بقايا التارئين

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ج ٦ - صفحة ٥ .

ومُهد أمور إقليمها ونظمه ودخل بنبلونة عاصمة البشكوش وعامدهم على الخضوع للمسلمين وأداء الجزية ، وكان ذلك سنة ١٦٣ هـ ، ١٦٤ هـ / ٧٨١ م .

### نظرة عامة على حكم عبد الرحمن الداخل وأعماله :

وقد قضى عبد الرحمن ما بقى من حكمه في هدوء نسبي ، وانصرف إلى تثبيت دعائم دولته . ومن الطريف أنه عندما استقر أمره بعث يستدعي بقايا بني أمية ، ليستعين بهم في أمره فأقبل إليه الكثيرون منهم ، فعهدهم إليهم بعسوليات كبرى ولكنه فوجيء بحسد الكثيرين منهم له ورغبتهم في القضاء عليه فيبس من ناحيتهم ، وهكذا تبين أن هذا الرجل العظيم يلاقى تكرار الجميل وانقلاب الرجال ، مما جعله بعد ذلك يقتصر على المخلصين من موالى بني أمية ومن انضم إليه من أهل البلاد ورجال الكور المجتدة وهم من العرب . وقد أنشأ عبد الرحمن إلى جانب ذلك قوة جديدة من الصقالبة ، وكان أمراء المسلمين والأوربيين في ذلك العصر يشتركون أبناء الصقالبة صفاراً من بلاد صمرانية ، ويُربون في البلاد الإسلامية تربية إسلامية عربية ، وينشأون جنداً خالصاً للإمارة ورجالها ، وقد أصبحت هذه القوة مع الزمن ، عنصراً أساسياً من عناصر القوة السياسية العسكرية للأندلس .

وقد توفي عبد الرحمن في ١٠ جمادى الآخرة ١٧٢ هـ / ٢ أكتوبر ٧٨٨ م وهو في الثامنة والخمسين من عمره ، بعد أن حكم الأندلس ٢٣ سنة ، كلها عملاً متواصلً ومصاعبً وأهوالً . فهذا الرجل الذي شاد بنفسه ملكاً ، وأثقل بلدًا ووضع أساس تاريخ شعب وحضارة أمية ، لم يسترح يوماً منذ تولى أمر الأندلس في ذي الحجة ١٢٨ هـ / ٧٥٦ م ، فقد كان البلد الذي تولى أمره ضخمًا .

وقد دخل عبد الرحمن الأندلس غربياً وحيداً تقريباً ، فتمكن بذكائه ومواهبه وشجاعته وعمله المتواصل ، من أن يقيم صرح دولة ، تعد من أعجود دول الإسلام ، أقامها على أسس إدارية وسياسية ومالية متينة أثبتت الأيام صلابتها . وهو من هذه الناحية يفوق معظم منسثي الدول في تاريخ الإسلام . ويزيد من قيمة عمله أن الناس الذين قُدِّر له أن يعتمد عليهم ويحكمهم قد درجوا على النوضى والآنانية والقسوة وقصر النظر وكان الكثيرون من زعمائهم ، لا يُبالون بعصير الإسلام

والعروبة ، في سبيل مصلحة يسيرة يحققونها ، أو ثأر يدركونه ، أو كبرياء يرضونها . فلم يكن عبد الرحمن يستطيع معاملة أولئك الناس باللين والمحبة والأخلاق ، فكان لا يبيالي في سبيل الدولة يأتي شيء . وقد وصف « دوزي » بالمكيافيلية والقسوة والخبث . ولكن دوزي ينسى أن هذه كانت أساليب كل أصحاب الأمر في الغرب الأوربي في ذلك العصر الذي كان الناس فيه يرضعون الخضوع للدولة ونظمها . ولهذا فقد اشتد في نقد عبد الرحمن والحقيقة أن هذه الخلال التي لا نرضاها في هذا الرجل ، لم يكن عنها غنى لرجل مثله في مثل ظروفه ، وكان لا بد على أي حال من القضاء على الفوضى وعواملها وإقرار النظام . وقد نجح عبد الرحمن في ذلك ولكننا لا متدوجة لنا من أن نقرر أنه كان دائماً يختار الوسيلة الأقسى والأشد ، رغبة منه في الخلاص من المشكلة بسرعة . ويعد أن تولى نجاحه ، أصبح شديد الاستبداد ، لا يقبل مناقشة أحد ، وقد غضب على بدر مولاه بعد طول خدمته إياه وأقصاه عنه في ثوبه نفي بسبب صغير لا يستحق ، وعامل رجاله بعنف وحزم بالغين .

وكان عبد الرحمن يشبه إلى حد كبير جده هشام بن عبد الملك ، ولكنه كان أحسن حظاً منه ، لأن هشام بن عبد الملك تولى أمر دولة كانت في سباق الموت ، أما عبد الرحمن فقد تولى دولة ناشئة يضم كياتها موارد متدفقة بالقوة والحياة فاقبل ينتفع بها على أحسن وجه مستطاع .

ومن هذه الناحية كان عبد الرحمن أمورياً صرفاً يشبه في كثير من خلاله مروان ابن الحكم وعبد الملك وأبيه ، وفي بعض الأحيان نلاحظ عنده مشابهة من الوليد ابن عبد الملك ( في موضوع المنشآت والعمائر ) وملازم من هشام بن عبد الملك ( في ناحية السياسة المالية وتبدير مصروفات الدولة ) أي أنه نقل إلى الأندلس خيرة صفات بني أمية المشارقة ، ووضع لنفسه ولن جاء من بعده سياسة حكيمة لدولة سليمة البناء ، تقوم على أسس سياسية وإدارية ومالية تمكّنها من مقاومة عوامل الضعف والتدهور .

وإلى جانب ذلك كان عبد الرحمن رجلاً شهماً نشيطاً ذا همم ، وعاملاً لا يقرب ، فخلال إمارته التي امتدت ثلاثاً وثلاثين سنة ميلادية ، لم تقعد له همة

ولم يركن إلى الراحة إلا في فترات قصيرة جداً سجلها المؤرخون . ومن ذلك أن « ابن عذاري » ، يكتب في بعض سنوات خلافة عبد الرحمن العبارة التقليدية التي تقول : « وفي هذه السنة لم تكن للأمير حركة » ، وكان أحسن ما فيه عقله المرتب وطريقته المنظمة في العمل ، فكان يدرس مشاكله في هدوء ويتلقى أخبار الثورات التي تقوم عليه يخنان ساكن . ثم يرسم خطته للقضاء على الخصم ، ثم إنه كان على الجملة حسن المعاملة لرجاله . مكرماً لهم حافظاً لعهودهم ، وإن أخذ عليه سرعتة إلى الغضب وميله إلى العنف مع أعدائه والبطش بهم ، ولكننا لا نقرأ في أخباره ما نعدّ أننا نقرأه في أخبار أمثاله من القدر بالوزراء ونكبة الكتاب ومصادرة أموالهم . وهذا لا يمنع من القول أنه كثيراً ما كان يلجأ إلى الحيلة والتدبير والغدر . كما فعل مع الصميل بن حاتم . إذ أنه أمر بخنقه في سجنه ، ولكن الغدر والفسوة كانت من أسس الحكم في العصور الوسطى ، وكانت السياسة تفرض على أصحابها أخلاقاً وأفعالاً لا ترضى عنها ، وهذا يخفف من مسؤولية عبد الرحمن عما يُتهم به من أعمال الفسوة والعنف والغدر في كتب التاريخ .

وعندما توفي عبد الرحمن مخلفاً العرش لابنه هشام ، ترك دولة ثابتة الأركان ، فلم يكن على ابنه هشام إلا أن يسير في خطوات أبيه

وقبل أن ننقل إلى هشام ، لا بد أن نشير إلى عناية عبد الرحمن بالإنشاء والتعمير ، ففي أيامه بدأ عمران قرطبة ، وهو الذي أنشأ الجزء الأول من مسجدها الجامع قبالة قصر الإمارة ، وبنا بذلك تاريخ أكبر أثر معماري في تاريخ الغرب الإسلامي كُتِبَ .

وعنى عبد الرحمن كذلك بقصر الإمارة ، وكان يقوم على مساحة فسجية واسعة قبالة المسجد ، وقد رأى عبد الرحمن أن تستعمل هذه المساحة كلها لتكون قصوراً للأمير وأهله وإدارة دولته فأنشأ قصرأ خاصاً لنفسه وعدداً من القصور الصغيرة إلى جواره لنفسائه وأهل بيته وأحاط هذه القصور كلها بالصدائق الجميلة وأدار عليها سوراً .

وكانت تلك المساحة تمتد حتى تقرب من ضفة نهر الوادي الكبير ، فعمد عبد الرحمن إلى إنشاء قصور الإدارة ناحية النهر ، وفتح باباً في السور في الشارع



بين النهر والسور ، ويسمى هذا الباب « بباب السدة » ، لأنه كان يواجه سدة جعلوها في مجرى النهر لكي يرتفع مستوى الماء ليحرك ناعورة أو ساقية كبيرة اتبعت قرب الشاطئ لرفع الماء من النهر وإيصاله إلى داخل المدينة ، وقد سمي الحى الصغير الذى أحاط بتلك الناعورة « بطنية الناعورة » .

وباب السدة هذا كان مفتوحاً للجمهور ، إذ أنه كان يفضى إلى مكاتب الدولة التى كانت تزداد عدداً وموظفين مع الزمن . وكلما مضى عدد من السنوات أنشئت دواوين أخرى حتى أصبحت الجهة القبلىة من قصور الإمارة مركزاً إدارياً للدولة فى قرطبة ، وإلى جانب باب السدة جلس من نسميهم بالكتاب العموميين الذين يكتبون للناس الشكاوى والرقاع التى يقدمون بها إلى مكاتب الدولة .

وكان أولئك الكتاب من صغار طلب العلم الذين يرتزقون من وراء هذا العمل ، وكانوا يقيمون فى ضاحية جنوبى قرطبة تسمى ضاحية أو « رضى شقنذة » . وكان هذا الرضى مسكن العمال من كل صنف ، وكان بينه وبين مدينة قرطبة قنطرة حجرية تعرف بقنطرة الوادى وأصلها من بناء الرومان ، ولكن العرب جذبوا مرة بعد مرة ، وكانت من نزعات الأندلسيين المشهورة لأن تلك القنطرة القائمة على النهر كانت واسعة قائمة على أرجل أى أعمدة فى ماء النهر ، وكانت عامرة بالحركة لأنها كانت تؤدى من رضى شقنذة إلى « المحجة العظمى » وهى الشارع الرئيسى الذى يقطع قرطبة من جنوبها إلى شمالها بادئاً من قنطرة الوادى ومُنتهِياً إلى الباب الشمالى الأقصى الذى عُرف بباب « عبد الجبار » ، وكان من أشهر أبواب سور قرطبة .

وإلى الشمال من قرطبة وعلى بعد نحو أربعة كيلو مترات منها أنشا عبد الرحمن لنفسه قصراً ريفياً على مثال البوادى أى قصور البادية ، التى كان خلفاء بنى أمية فى المشرق ينشئونها فى البادية ليقضوا فيها أوقات سمرهم بعيداً عن زحمة المدن وأعين الناس .

وكان هذا القصر الذى بناه عبد الرحمن يقوم على تل مرتفع يسمى « تل الرصافة » ولذلك كان القصر يسمى بقصر الرصافة ، وهو يطل من الجنوب على الحقول التى تفصل بينه وبين قرطبة ، ومن الشمال كان يطل على « فحوص » أى

أرض فضاء واسعة سُميت « بفحص السراق » . وفي ذلك الفحص أو الميدان الواسع اتخذ عبد الرحمن المنازل لجندة وقواده ، وكان يحرص على تربيتهم وتدريبهم تدريباً منظماً مستمراً ، وفي نهاية شتاء كل سنة كان ينادى بالنفير فتأتى إلى قرطبة حشود العرب من أهل الكور المحنّدة ومن ينضم إليهم من « المخطوعة » أى الراغبين في الجهاد في سبيل الله دون أجر ، مكتفين بنصيبتهم من الغنائم وما يكتب لهم من ثواب الجهاد . وإلى هذه القوات كانت تضاف قوات الصقلية الذين كان عبد الرحمن يشتريهم صفاراً ويربيهم تربيةً عسكرية دينية إسلامية ليكونوا حنّداً للإمارة وخداماً لها في شتى شؤون القصر والحكم وكانوا يسمون بتسمية عامة هي « الصقلية » ومعناها « السّلاف » أى من الأصل السّلافي ، وهو أصل الروس ، ولكنهم في الحقيقة كانوا يتكونون من كل اجناس أوروبا ، وكان هناك تجارٌ مخصوصون بهذا العمل ، فكانوا يشترون أولئك الغلمان من الدول القريبة التي كانت تأمرهم وتعرضهم للبيع في أسواقٍ معروفةٍ لأولئك التجار ، وقد استمر عبد الرحمن يشتري من أولئك الصقلية حتى صار له منهم جيشٌ عدته أربعون ألفاً ، كان من بينهم خزّنة الخاص وخبرة حنّده . وكان العاملون في القصر من أولئك الصقلية يُسمون بالعتيان ويقسمون قسمين « القحول » و « الخصيان » ، فأما القحول فكانوا يُستخدمون للحرب وأعمال الدولة وأما الخصيان فكانوا يخدمون داخل القصور ، وكان تجار اسلمعين يشترونهم من تجار اليهود الذين تخصصوا في إجراء عمليات الخصى لأولئك الشبان الأسرى المساكين قبل بيعهم لمن يريد .



## هشامُ الأولُ بنُ عبيدِ الرَّحْمَنِ المعروفُ بالرُّضِيِّ

وَحُفَّتْ عِبدُ الرَّحْمَنِ ابْنَهُ هِشَاماً ، وَلَمْ يَكُنْ أَكْبَرَ أَوْلَادِهِ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ مُحِبِّباً إِلَى أَهْلِ الدَّوْلَةِ وَالْفُقَهَاءِ وَرِجَالِ الْقَصْرِ لِدَمَائِهِ كَانَتْ فِي خَلْقِهِ ، وَلِهَذَا تَخَطَّى إِخْوَاهُ سُلَيْمَانَ ، وَكَانَ جَنْدِيّاً لَا يَهْتَمُّ إِلَّا بِالْجَيْشِ وَأَهْلِهِ .

بَدَأَ هِشَامُ حُكْمَهُ فِي جُمَادَى الْآخِرَةِ ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م وَأُمَّهُ أُمُ وَلِدِ جُلَيْقِيَّةٍ وَكَانَ يُبْدِي لِبَنَاتِهِ وَوَرَعاً ، وَلَكِنَّهُ كَانَ فِي الْحَقِيقَةِ سِيَاسِيّاً يَجْتَذِبُ النَّاسَ بِمُظْهَرِ النِّقَى ، وَلَمْ يَفْعَلْ شَيْئاً ذَا بَالٍ أَثْنَاءَ حُكْمِهِ الْقَصِيرِ ، وَلَكِنْ النَّاسُ ارْتَحَوْا لَهُ ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا قَدْ تَعَبُوا مِنْ عُنْفِ أَبِيهِ وَبَسْرَعَتِهِ فِي الْبَطْشِ وَاسْتِمْرَارِهِ فِي الْحَرَكَةِ وَالْعَمَلِ وَنَسْتَطِيعُ أَنْ نَعْتَبِرَ إِمَارَةَ هِشَامٍ إِكْمَالاً لِإِمَارَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ .

وَلَمْ يَعْكَرْ ضَفْوُ إِمَارَةِ هِشَامٍ إِلَّا ثَوْرَاتٌ قَامَ بِهَا بَعْضُ الْيَمِينِينَ ، وَخَاصَّةً فِي إِقْلِيمِي طُولُونِيَّةٍ وَسِرْقُسْطَةِ ، وَمَحَاوِلَاتٌ قَامَ بِهَا نِصَارَى الشِّمَالِ لِلاتِّسَاعِ جَنُوباً ، وَلَكِنْ قَوَّاهُ هِشَامٌ عَرَفُوا كَيْفَ يُوَقِّفُونَ ذَلِكَ التَّيَّارَ .

### دخول مذهب مالك الأندلس :

وَأَهَمُّ مَا حَدَثَ فِي عَصْرِ هِشَامٍ هُوَ دُخُولُ مَذْهَبِ مَالِكٍ إِلَى الْأَنْدَلُسِ ، وَكَانَ الْأَنْدَلُسِيُّونَ قَبْلَ ذَلِكَ عَلَى مَذْهَبِ « الْأَوْزَاعِي » إِمَامِ أَهْلِ الشَّامِ ، وَيُمَارِزُ فَقْهَهُ بِالْفَائِحَةِ الْعَمَلِيَّةِ ، فَهُوَ يَرَى أَنَّ كُلَّ مَا هُوَ نَافِعٌ لِلْمُسْلِمِينَ وَيَتَّفَقُ مَعَ صَالِحِ الْجُمْهُورِ فَهُوَ مِنَ الْإِسْلَامِ مَا دَامَ لَا يَتَعَارَضُ مَعَ أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ ، وَهُوَ مَذْهَبٌ أَخَذَتْ مِنْهُ الْمَذَاهِبُ الْكُبْرَى بِأَطْرَافٍ ، وَلَكِنْ مَالِكاً يَعْتَمِدُهُ وَيَجْعَلُهُ قَاعِدَةً وَمِنْ بَسْوَءِ حِطِّ « الْأَوْزَاعِي وَاللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ وَطَاوُوسٍ » وَأَمْثَالِهِمْ مِنْ أَصْحَابِ الْمَذَاهِبِ الْفَقْهِيَّةِ الْأُولَى الَّتِي دَثُرَتْ ، أَنَّهُمْ لَمْ يَرْزُقُوا تِلَامِيذَ يُدَوِّنُونَ مَذَاهِبَهُمْ وَيُنْشُرُونَهَا فِي الْأَقْصَى . أَمَّا مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ فَقَدْ كَانَ أَحْسَنَ حِفْظاً ، فَقَدْ رَزَقَ تِلَامِيذَ نَبِيَاءَ أَمْثَالِ « عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْقَاسِمِ وَأَشْهَبُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ » وَمِنْ إِلَيْهِمْ مِنْ مَنْشَأَى الْمَدْرَسَةِ الْمَالِكِيَّةِ الْمِصْرِيَّةِ ، ثُمَّ « أَسَدُ بْنُ الْفَرَاتِ وَعَبْدُ السَّلَامِ بْنُ سَعِيدٍ الْعَرُوفُ بِسُجُونٍ » الَّذِينَ أَدْخَلُوا مَذْهَبَ مَالِكٍ إِلَى الْمَغْرِبِ ، وَغَمَلُوا عَلَى نَشْرِهِ مَعَ طَائِفَةٍ مِنْ أَجْلَاءِ الْفُقَهَاءِ .

وفي الأندلس أيضاً كان مذهب مالك حسن الحظ ، فقد كان مالك معاصراً لهشام بن عبد الرحمن ، معجباً به لا يكف عن الثناء عليه . وكان ذلك يبلع هشاماً فيستريح إليه ، فلما وفد على الأندلس أوائل تلاميذ مالك الذين درسوا عليه ، من أمثال « الغاني بن قيس وزياد بن عبد الرحمن المعروف بشيطن بن عيسى بن دينار وسعيد بن أبي هند » ، رغب بهم هشام وجالسهم وأذن لهم في تدريس مذهب مالك في المسلمين وأخذ القضاة بالحكم به ، ثم اتخذ كبار المالكية قضاة وفقهاء مشاورين ، أي أهل شورى يستفتيهم الأمير فيما يجريه من أمر ، وشيئاً فشيئاً أصبح المذهب المالكي المذهب الرسمي في الأندلس .

### التقليد الشامي :

ومذهب مالك هو العنصر الحضاري الوحيد الذي قبلته الإسارة الأموية الأندلسية خارجاً عن نظم الأمويين في الشرق . وأهم هذه النظم العربية المطلقة في لغة الدواوين وأوساط الدرس ، فبينما كان العباسيون في الشرق يقبلون صوراً حضارية إيرانية وهندية ، كان الأمويون في الأندلس لا يقبلون إلا ما هو عربي . وهم لم يقطوا ذلك بقانون سنو ، وإنما كان اتحاشاً عاماً في الحياة ساروا فيه وتبعهم الناس ، فعلى الرغم من أن مسلكتهم قسام في أوروبا ، إلا أن الحياة في قصورهم سارت على قواعد مشايخ القبائل ، فكانت قصور بادية ، تذكرنا ببوادي خلفاء بني أمية الشرقيين في الشام . ومن ذلك أن عبد الرحمن الداخل أنشأ لنفسه قصر الرصافة الذي أشرنا إليه . ولم يخرج حكام بني أمية الأندلسيين حتى أيام الناصر عن الثرائد والعصائد ، واعتمدوا على رجال ذوي همة وبسالة وروح عربي ، وإن لم يكونوا من أرومة عربية خالصة ، فقد كان منهم بربر ونفر من أهل البلاد ، ولكنهم جميعاً استعربوا لساناً وفكراً وأسلوب حياة ، وصاروا يعدون أنفسهم عربياً . وقد بلغ من اهتمام هشام باللغة العربية أن جعلها لغة الكنيسة لنصارى الأندلس ، فترجموا إليها الكتاب المقدس ونصوص النصوص ، وقد كان ذلك من أكبر العوامل التي أسرعت بتعريب أهل الأندلس ، وتحويل هذا البلد إلى مركز من مراكز الحضارة العربية ، ويعرف ذلك كله ، بالتقليد الشامي ، الذي ألزمه أمراء بني أمية الأندلسيون وخلفاؤهم حتى نهاية عصر الخلافة .

وكان معظم الموالى الأندلسيين يعدون أنفسهم بين الشاميين ، لأنهم كانوا

موالى بنى أمية . وينو أمية ظلوا حتى في الأندلس يعتزون بأنهم شاميون ، ولهذا فقد كاترا يفضلون أهل الشام على غيرهم ، وكانوا يتخذون في حياتهم ونظم حكمهم ما كان سائداً في بلاد الشام ، وهذا هو الذي أعطى هذا التقليد اسم الشامي .

وقد تولى هشام بعد سبع سنوات من حكمه ، فكانت سنة عندما مات في صفر ١٨١ هـ / أبريل ٧٩٦ م لا تزيد عن أربعين سنة ، وهي سنٌ صغيرة جداً ، ولكن بنى أمية عامة كانوا قصار الأعمار ، وطوال الأعمار منهم في الشرق قليلون ، أما في الأندلس فلا نعرف منهم من تخطى الخامسة والستين ، إلا الأمير عبد الله وعبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر .

ويُثنى معظم المؤرخين على هشام بسبب رضا الفقهاء عليه وقيامهم بالدعوة له ، وتصويره في صورة الأمير التقى الورع الرحيم . ولم يكن الرجل كذلك في الحقيقة وإنما كانت فيه قسوة على أعدائه لا تجدها عند أمثاله ممن يؤسفون بأنهم حكاماً أتقياء ، فقد سمل عيني شاعر يُسمى « أبا المخشّ عاصم بن زيد » ، لأنه أثنى على أخيه ومنافسه سليمان ، وقتل ولدين من أولاد موالى بنى أمية ظلماً لريسة في نفسه . وقد اعتذر عن ذلك وبذل شيئاً من العوض . ولكن ذلك لا ينفي الجنائية . وقد أخفى الفقهاء ذلك عن العامة ، وزعموا أن هشاماً كان يخرج في الليل ويطوف في المساجد فإذا وجد فيها ناساً عاكفين على قيام الليل أعطاهم مالاً وربما كان يفعل ذلك فعلاً ، ولكن ذلك كان سياسةً منه وخُيلاً .

### ميلاد حركة المقاومة النصرانية في شمال شبه الجزيرة :

وقبل أن نستطرد إلى إمارة الحكم الأول بن هشام المعروف بالحكم الرضى ، نقول كلمةً بسيرة عن ميلاد حركة المقاومة النصرانية في شمال شبه الجزيرة .

ذكرنا كيف وصلت جيوش موسى بن نصير إلى أوفييدو Oviedo وخيجون ، وكيف اعتصمت قلوب القوط ومن انضم إليهم فيما وراء جبال كنتبرية . في الناحية المسماة باسم أشتريس .

تذهب الروايات النصرانية إلى أنه كان من بين كبار القوط الذين لجأوا إلى هذه الناحية القاصية نارس يسمى « يلاجيوس » ويسمى عادة « بيلايو » ، ويسميه

العرب « بلای » وكان من أعوان غيطشة وانتصار لذريق . فلما اعتصمت بقايا القوط في ناحية أشتريس ، أصبح بلای رئيسهم وصاحب الإمارة عليهم

وقد انتشرت هذه العلول أول الأمر في النواحي المطلة على خليج بسكاي من جليقية إلى أشتريس . ولكنها انكمشت إزاء حملات المسلمين المقاتلية في ناحية جبلية شرقى أوغييندو الحالية عند الفلد المسمى « كاتجاس » وانخذت حصناً لها موضعاً جليلاً تصل فيه الجبال الكنتيرية إلى أعلاها عند قمم أوروبا ، وفي هذه الناحية مريضع مغارة تسمى « كوفادونجا » ويسمىها العرب صخرة بلای ، وقد حاول المسلمون الاستيلاء عليها أيام الحرب مع عبد الرحمن الثقفي سنة ٩٨ هـ / ٧١٨ م ثم ارتدوا عنها استصغاراً لشأنها أو يأساً من إمكان الاستيلاء عليها ، ولم تكن ذات أهمية في ذلك الوقت على أي حال .

وفي سنة ١١٢ هـ / ٧٣٠ م أثناء إمارة « الهيثم بن عبيد الكلابي » بعث حاكم الثغر الأعلى عثمان بن أبي نسة « جيشاً إلى أشتريس للقضاء على بقية المقاومة النصرانية هناك . وقد بذل رجال هذا الجيش جهداً كبيراً ولكنهم لم ينالوا شيئاً من بلای وانصاره . وتنسب الروايات النصرانية إلى بلای انتصاراً كبيراً على المسلمين عند « كوفادونجا » . وتعتبر هذا النصر نقطة البداية لتاريخ إسبانيا النصرانية ، ولكن ليس لدينا ما يزيد ذلك .

وكانت هناك إمارة نصرانية أخرى صغيرة في الجزء الشرقي من بلاد كنتيرية أنشأها زعيم يسمى « بقروس » . ثم خلفه أمير يسمى « ألفونسو » واتخذ لقب الدوق ، ثم تزوج ألفونسو ابنة بلای وتحدثت مملكة أشتريس التي يسميها العرب مملكة الجلالة .

وكان سكان هذا الجانب الشرقي مما يقع شمالي الجبال الكنتيرية حتى بلاد البشكونس يعرفون باسم الكنتيريين ومن هؤلاء الكنتيريين وبقايا القوط ومن انضم إليهم من أهل شمال إسبانيا تكونت نواة مملكة الجلالة .

وألّفونسو هذا هو منشئ المملكة النصرانية التي ستستمر في النمو والانتعاش حتى تستولي على الأندلس من المسلمين ، وقد عاونه الحظ باشتغال المسلمين بالحرب الأهلية فيما بينهم على ما فصلناه قبل قدوم عبد الرحمن الداخل .

وحوالى منتصف القرن الثامن الميلادى كانت إمارة أشتريس تلك قد امتدت نحو الجنوب وعمرت حوض نهر الخيبر واقتربت من حوض الدويرو ، واستولى الفونسيو الأول على أشترقة منتهزاً فرصة إخلاء المسلمين إياها بسبب المجاعة التى نزلت بالأندلس نتيجة الفتنة بين العرب والبربر .

وإثناء حكم يوسف الفهري والصميل بن حاتم ، امتدت المملكة النصرانية على مهلي . وكذلك عندما شغل عبد الرحمن الداخل بحرب الشاثرين ، سقطت فى أيدي النصارى مدن هامة مثل « لكه » Lugo وبرتقال Portucallies .

وعندما استقر الوضع لعبد الرحمن ، استرجع أهم هذه المدن ، وكان ملك أشتريس إذ ذاك يسمى « فرويلا » Froila ، وهو الذى خلف الفونسيو الأول . وكان قاسياً عنيفاً سفاكاً فكرهه الناس ومالوا إلى مخالفة المسلمين ، يتزعمهم فى ذلك ملك يسمى « مورجات أو مورقات » ، يقال إن أمه عوبية . وعلى هذا استمر الأمر حتى تولى العرش الفونسيو الأول

وإلى الشمال الغربى كذلك نشأت إمارة نصرانية مستقلة فى بلاد البشكونس عُرفت باسم نيرة Navarra وقاعدتها بنبلونة وإلى غربيها قامت ثلاث إمارات صغيرة فى جبال ألبرت مى على التوالي . أرغون وشرب وريباجورثا وقام الزعيم البشكونسى « اينيجواريسا » Inigo Arista بتوطيد قواعد إمارة نيرة Navarra فى الغرب . وفيما بين مملكة الجلالة التى تعرف ايضا بمملكة أشتريس وبين بلاد المسلمين امتدت منطقة خلاة حتى حوض نهر الدويرو ، وكان النصارى يحاولون الاعتماد فيها إذا غفل المسلمون عنهم ويرتدون عنها إذا تنهوا لهم . وهكذا استمر الأمر حتى نهاية القرن الثامن الميلادى .

### إمارة الحكم الربضى ١٨٠ - ٢٠٦ هـ / ٧٩٦ - ٨٢٢ م :

تعتبر إمارة الحكم بن هشام ، أو الحكم الأول المعروف بالربضى ، نهاية عصر التناقل التى قام بها العرب للقضاء على الإمارة الوحيدة التى بسطت سلطانها على البلاد . وكان الكثير من زعماء عرب البلاد ويربها لا يسلمون بقيام هذه الدولة ، ولا تزال نفوسهم تطمح إلى العودة إلى الفوضى السابقة ، ولهذا فقد كثرت الثورات فى عصر الحكم واختلفت أنواعها ، ولكنها كانت فى الغالب ثورات

اجتماعية أو إقليمية لا فتناً عشائرية أو قبائلية يقوم بها هذا الفريق من العرب أو البربر إذ ذاك بغية خلع ملابرة الإمارة والتخلص من النظام ، وقد ثبت الحكم ثباتاً يدعو إلى الإعجاب ، وإن كانت شخصية الحكم نفسه كثيرة العيوب والمناقضات وسياسته حافلة بالأخطاء . ذلك أن الحكم قول أمر الأندلس شاباً في السادسة والعشرين من عمره ، وكان إلى جانبه عمه سليمان وعبد الله وغيرهم ، ممن كانوا يرون أنفسهم أحق بالملك منه ، ولا يعرفون من يؤيدهم من أهل البلاد وجماعات العرب ، فأقبلوا يديرون عليه وينتظرون الفرصة للإيقاع به .

وكان هو نفسه شاباً ميالاً للمتعة والراحات ، وقد حسب أن أباه وجده قد مهدا له الملك ، وما عليه إلا أن يستمتع . ونبض فيه عرق التعالي الأسوي ، ونظر إلى من سواه من الناس في غير اكتراث ، واستخف بأهل قرطبة ورجالاتهم وأهوان الكثيرين منهم ، وأهمل جانب الفقهاء الذين بلغوا مكانة كبرى في أيام أبيه هشام ، واكتفى بضدمه وحواشيه وندمائه ، وانصرف إلى اللهو والصيد والخمر ، حتى أيقظته الحوادث بقتلة هزّت كيانه وبدلت في حياته وأظهرت طبيعته الصلبة الجادة فتعرس بالخطوب ، وترك اللعب ونظر في أمر نفسه ، ولم يعد له همٌّ إلا تثبيت ملكه وحماية مملكته . وقد اقترف في سبيل ذلك جرائم كثيرة ، فكان له بعد ذلك الندم ، ففضى أواخر سنواته في عزلة وحسرة واستغفار ، وتوفى ذات ليلة دون أن يعرف بخبر وفاته إلا نغراً قليلاً من رعيته ولم يعلن خبر وفاته إلا بعد أيام .

وكان أول ما عاناه الحكم حرب عمّيه سليمان وعبد الله ، وقد شقى هو بهما ، وشقيت البلاد بهما شقاء كبيراً ، لأنهما ربطا نفسيهما بنصر من الثائرين من الثغر الأعلى ، بل سعى أحدهما وهو عبد الله إلى تاليف شارلمان على الإسلام والمسلمين ، وذهب لمقابلته في « اكس لاشابل » ، وبالفعل أرسل شارلمان جيشاً دخل الأندلس ، ولكن أبا صفوان حاكم الثغر الأعلى رده على أعقابيه سنة ١٨٠ هـ / ٧٩٧ م . وبعد ذلك يقليل استسلم عمه سليمان أبو عبد الله فقد أصيب بالفالج فاستراحت البلاد من أذاه .

ولكن محاولة عبد الله وسليمان في الثغر الأعلى كشفت لرجال شارلمان ضعف الجبهة الإسلامية من هذه الناحية ، وحفزته أهل شمال شبه الجزيرة من النصارى على القيام بحملة أكثر جدية ، وبالفعل سارت قوات فرنجية في سنة ١٩٠ هـ /



٨٠٦ م نحو الأندلس ، فعبثت الجبال وحاصرت برشلونة ، وثبت القائد العربى « سعدون الرعينى » مدافعاً عن ذلك الثغر في رباطة جأش . وانتظر أن يصله المد فلم يصله شىء ، لأن الحكم كان مشغولاً بحقبة في جنوب الأندلس . وأخيراً سقطت برشلونة في يد الفرنجة ، وأنشأ شارلمان فيها ولاية ثغرية تسمى الثغر الإسباني « لاماركا هيسبانيكا La Marca Hispanica » ، أصبحت من ذلك الحين شروكة في جنب المسلمين ، لأنها تطورت مع الزمن حتى أصبحت كونتية قطلونية التي ستتحّد مع مملكة أرسون ، وتستطيع غزو الجانب الشرقى لمملكة الإسلام في الأندلس فيما بعد .

ويذهب نَقَر من المؤرخين بهذه المناسبة ، إلى أن الدولة العباسية - الفت الدولة الفرنجية ضد إمارة الأندلس . وهناك أخبارٌ غير موثوقة في صحتها عن مراسلات بين شارلمان وهارون الرشيد في هذا المعنى ، ولدينا أخبار سفارات وهدايا متبادلة بينهما ، ولو أن مؤرخينا المشاركة لا يذكرون مرّة واحدة ، وصول سفارة فرنجية إلى بلاط الرشيد . وليس لدينا شىء يثبت ما تزعمه الروايات النصرانية ، من أن الرشيد أرسل إلى شارلمان مقاتيح بيت المقدس

ولكن مؤرخى شارلمان يذكرون ورود سفارات إسلامية إلى بلاطه ، وبعضها يذكر هدايا أرسلها الرشيد إلى شارلمان . منها خيلٌ ومنها الساعة الدقاقة المشهورة . وقد درس الموضوع دراسة جيدة د. عبد العزيز السدوي وخرج منها أن هذه السفارات لم تكن رسمية ، وإنما قامت بها جماعات من تجار المسلمين من المغاربة في الغالب ، حملوا الهدايا إلى بلاط شارلمان ، وزعموا أنها من خليفة المسلمين لكي يحصلوا على تسهيلات وامتيازات تجارية ، وهذا لا يسعح لنا بأن نقول إن الرشيد خالف ملكاً نصرانياً على أمير الأندلس المسلم . لأنه ليس لدينا عليه أدنى دليل . ثم هو يتعارض معارضة تامة مع ما نعرف من خلق الرشيد والاتجاه العام للدولة العباسية ، وهو اتجاه إسلامي لا شك فيه .

### التطور الاجتماعي في الأندلس :

ومنذ أول ولاية الحكم نلاحظ ظاهرة لا نعرفها في الكثير من بلاد الإسلام في العصور الوسطى ، وهي أن طوائف الشعب في العاصمة وكبار المدن غير راضية

عن الحالة ، وغير مقتنعة بنصيبها الذى قدره لها أهل الحكم . ففى العراق والشام ومصر مثلاً ، نجد أن الناس — ما بين مياسير وأوساط وفقراء — منصرفون عن السياسة وأهلها ، لا يفكرون فى القيام عليهم ، إلا إذا بلغ الإجحاف حداً يجاوز الاحتمال ، وفيما عدا ذلك فاهل الحكم فى سلطانهم ، وأهل المتاجر فى متاجرهم ، وأهل الزرع فى حقولهم . وهؤلاء جميعاً — تُجَّاراً ورُعاً وصناعاً — ينقسمون نصيبهم من الشقاء والحرمان ، دون أن يفكروا فى التجمع لاتخاذ إجراء عام ضد الحكومة المركزية ، وإن كانت قلوبهم مثقلة بالغضب على الحاكمين أما فى الأندلس فتجد الناس على خلاف ذلك ، فإن الأندلسيين لا يسكتون على الأذى ولا يصبرون على ما لا يرضون وقتاً طويلاً . وكانت العادة فى العصور الوسطى أن يتحمل الناس مظالم الحكام فى صبر ، على اعتبار أن الحاكم الظالم عقاب من الله لا بد من احتماله حتى يرفعه الله عن عبادته . ولهذا السبب ندر أن قام شعب على حكامه لرفع الظلم . ولكن أهل المدن فى الأندلس كانوا لا يكفرون عن الثورة على أهل الحكم إذا زاد ظلمهم . وفى كل مدينة أندلسية نجد جماعة تتحدث باسم الناس وتطالب الحاكم بالعدل وتتصداه ، وفى كل هيئة أو جماعة حرقية ، نجد رؤساء يتحدثون ويستبدون ، ومن هنا كان النصدى للحكم مستمراً ، وكان بعد أعمال الحكام وتتبعها والتشهير بهم يتردد فى كل مكان .

وعلى الرغم من ذكاء بنى أمية وإدراكهم السياسى ، نلاحظ أن فهمهم لهذه الناحية فى شعبيهم كان بطيئاً وجزئياً على العموم ، واستمروا يحاولون الحكم بأساليب الشرى وهى القهر والعنف ، قطال النزاع بينهم وبين رعاياهم ، وخسر الجانبان كثيراً ، وفى النهاية كانت خسارة الأندلس الإسلامى عظيمة .

وقد كان الشعب الأندلسى فى طريقه إلى التكون فى ذلك الحين ، وكانت العملية عسيرة تحتاج إلى وقت ، وكانت لا بد أن تلاقى صعوبات ، وتتغلب على عوائق وقد مرت الشعوب الأوربية كلها فى مثل هذه الأدوار ، ولكن مؤرخينا لم يلاحظوا هذا التطور أبداً ولم يفهموه وأساءوا الحكم عليه .

وكان الشعب مكوناً من أقلية عربية ، أو تعد نفسها عربية ، متمثلة فى البيت الحاكم ، وغذى من الأسر فى العاصمة والمدن والأرياف . وجماعات متمسبة إليها وتتمسك بأصولها العربية كثيرة وقوية ، لأنها ترى فى ذلك شارة شرف وامتياز .

وقد سبق أن ذكرنا أن أولئك العرب كانوا في الحقيقة مولدين ، فكل أمهاتهم إسبانيات من جليقية ، أو من بلاد البشكونس أو صقلييات ، وإذا تزوج أحدهم ابنة عربيٍّ من الأندلس ، وجدنا أن أم هذه العربية غير عربية ، أي أنها كانت في الحقيقة مولدة ، وهذا لا يقدح في عروبة هذه البيوت ، لأن أفرادها كانوا يحسون أنهم عرب ، ويتصرفون على أنهم عربٌ خلصاء ، ويجيدون الفصحى ويحفظون أشعارها ويفخرون بأصولهم العربية ، وهذا هو المهم ، لأن الفصيل في هذه الموضوعات هو إحساس الإنسان الذي يحدد موقفه ويعمل عليه تصرفاته ، فمادم الرجل يحس أنه عربي ويجد ذلك شرفاً ويربط نفسه بنسب عربي ، ويفخر بأجداد العرب ويحسب نفسه من أمة العرب فهو عربي . وإن كانت أمه غير عربية.

### جماعة موالي بني أمية :

ويدخل في هذه الطائفة جماعات الموالي ، فيؤلام جميعاً كانوا يحسبون أنفسهم عرباً ، ويدعون أرواماً عربيةً يقتبسونها من أصول سادتهم فهذا من لخم وذاك من جذام أي من أسد أو مضر ، وحتى الذين كانوا من أصول إسبانية منهم ، ادعوا أصولاً عربيةً مع الزمن وهذا مهم جداً ، فماداموا يفخرون بأنهم عرب ، فهم عرب ، وإن كانت أمهاتهم إسبانيات

وسواء صدقت هذه الأنساب أم لم تصدق ، فإنها كانت عاملاً أساسياً وفعالاً في حياة أولئك الموالي ، فهم جميعاً يدينون ويتصرفون على أنهم عرب ممتازون عن غيرهم ولهم حق السيادة والحكم .

وكان هؤلاء المولدون ، وهم أبناء الإيبان الذين أسلموا كذلك وأبناء الزيجات العربية الإسبانية من عامة الناس ، وكانت أعداؤهم من دخل الأندلس من عامة العرب كبيرة ، وخاصة من اليعنيين وأبناء القبائل المعدودة يعنيّة ، مثل « كلب وخولان ومخج ومدلج وختعم » هؤلاء كانوا في العادة يندرجون في غمار الناس في المدن والأرياف ، ويعملون بالزراعة والتجارة والصناعة ، ويتزوجون إسبانيات ويخرج أولادهم أندلسيين من أصول عربية ، ولكن طابع الأندلسية غلب عليهم . فهم أندلسيون وحسب . كذلك نشأ أولاد العرب بالشام شاميين وفي مصر مصريين وفي خراسان خراسانيين وهكذا

و يدخل - في هؤلاء - الموالي - القضاة الذين هاجروا إلى الأندلس ، وكانت أعدادهم قليلة ، وقضاة ليست في الشام أو اليمن ، وإنما هي شعب عربي قائم بذاته ، كما يقول ابن حزم .

### بقية تكوين شعب الأندلس :

وانضم إلى هؤلاء مع الزمن البربر الذين دخلوا الأندلس في جماعات كبيرة واستعبروا واتخذوا أنساباً عربية ليرتفع شأنهم بين الناس ، فهؤلاء أيضاً نشأ أولادهم مولدين أندلسيين .

ومن هذه الجماعات كلها نشأت جماعات الشعب الأندلسي العربي الذي نعرفه ، وكان الإسباني النصراني إذا أسلم اتخذ اسماً عربياً ويسمى « بالأسلمى » أو « المسلمى » ، ثم ينشأ أولادهم أندلسيين مستعربين ، ثم يصبحون مع الزمن أندلسيين عرباً ويندرجون في غمار كتلة الشعب الأندلسي العربي الذي كان يكون الغالبية العظمى من السكان .

وكان هناك المستعربون وهم الإسبان الذين ظلوا نصارى على دينهم ولكنهم استعربوا لساناً وأسلوب حياة . وكانوا غالبية السكان أول الأمر ثم أخذت أعدادهم تتناقص مع الزمن

هذه الأجناس كانت تتجاور وتتعايش وتتكامل . فأما العرب ومن انضم إليهم من الموالي فقد احتفظوا لأنفسهم بمكان اجتماعي رفيع واختصوا أنفسهم بمراكز الرياسة والصدارة ، فأغضبتهم الطوائف الأخرى وأنكروا عليهم ما يدعونه من امتياز ، وفي نفس الوقت كان المولدون المستعربون يتقاربون بدافع اتحاد المصالح

ولم يعمل اتحاد المولدين والمستعربين إلا رجال الدين في البداية ، فقد كان التقساوسية يؤلفون النصارى على المسلمين ، ويحضونهم على التمسك بنصرانيتهم ، في حين كان فقهاء المسلمين شديدي العصبية لدينهم ، يبذلون نشاطاً عظيماً في دعوة الناس إلى الإسلام وحثهم على التمسك بعقيدتهم

وكانت غالبية الفقهاء فقراء ، فكانوا يقيمون في قرطبة في حى شقطة جنوب نهر الوادي الكبير حيث يسكن العمال وصغار التجار والطلاب ، وكانوا لهذا

منبثين بين الناس ، وكان لهم عليهم سلطانٌ بحكم عملهم ، ومن ناحية أخرى كانوا قريبين من باب « السدة » حيث مكاتب الدولة وكان ترددهم عليها كثيراً .

وكانت هناك أقلية من الفقهاء ممن حَصَلُوا علماً غزيراً ، ووصلوا إلى مراكز الصدارة في الدولة والمجتمع ، وهؤلاء كانوا يتمسكون بأصولهم العربية صحيحة كانت أم زائفة ، وكانوا يدخلون في زمرة أهل الحكم والغنى والجاه . وكان الحكم ورجال دولته يعرفون هذه الحقائق كلها عن الشعب الذي يحكمونه ، ولكنهم كانوا يجاهلون طبيعته وقدراته ، فلم يبالوا به ولم يقدروه حق قدره ، وكان ذلك منهم خطأ جسيماً . وعندما شرع الحكم بن هشام يحكم ، أقبل على الحكم كأنه خليفة شاب من خلفاء بني أمية في أواخر أيامهم في المشرق ، فمضى يلهو ويتمتع بأطاليب العيش ، ومن حوله حاشية متكبرة متعالية ، وجندٌ خاصٌ قاسٍ عنيفٌ على الناس ، معظمه من الصقالبة وهم ممالك البيت الأندلسي الحاكم ، فلم تمض من ولاية الحكم شهوراً ، حتى بدأ أهل بيته وكبار دولته يديرون عليه ، لأنهم رأوا شاباً خليعاً ماجناً مستخفاً ، وانضم إليهم فُفَرٌ من الفقهاء . وفي ذات مرة كان الحكم عائدًا من صيدٍ له ، فتعرض له الجمهور وسبُّه وأهانته ، فلما عاد إلى القصر بدأ ينظر فيعا آل إليه أمره . ثم اكتشف مؤامرةً بُرِّها عليه أهل بيته ، فأوقع بأفرادها في قسوة سنة ١٨٩ هـ / ٨٠٥ م . ولقد ضجَّ الناس من قسوته وقسوة رجاله . وبدأ الخوف يسود بيت الحاكم والرعية . فاستكثر الحكم من الجند المرتزقة الصقالبة . وكانت في أفرادها قسوةً وشدةً ، وكانوا لا يحسنون الكلام بالعربية ، فسماهم الناس « بالخرس » ، وسخط مياسير قرطبة وكبار أهلها وفضفاثها على الحكم بسخطاً شديداً ، وثوَّرت الجحَّ وبدأ يوضح أن « الحكم » يتعرَّضُ لحنة قاسية .

### فترة طليطلة ويوم الخندق :

ولم يقتصر خوف الناس من الحكم على قرطبة ، بل امتد إلى طليطلة حيث كانت غالبية السكان مولدين ونصارى ، وكانوا متمسكين بما كان لهم من سيادة أيام كان بلدُهم عاصمة إسبانيا ، فكان لهم زعماء كثيرون يتمسكون بحقوقهم القديمة ، وبدلاً من أن ينظر الحكم في هذه القضايا في هدوء وتعقل ويسعى إلى التفاهم مع الناس ليفهم الظروف التي تؤدي بهم إلى القلق ، نجده يلجأ إلى العنف

والحيلة ، ويسزل يامل طليطة مذبحة كبيرة ، قضت على الثورة مؤقتاً ، ولكنها أساءت إلى سمعة البيت الحاكم ، وأوجدت هُزَّةً سحيقة بين الحاكم والحكومين . وتسمى هذه المذبحة باسم « يوم الحفرة » لأن المقتولين فيها وضعوا في حفرة كبيرة خلف قصر الحكم وأُغِيلَ عليهم التراب ، والجدير بالذكر أن الذي ذُهِرَ هذه المذبحة البشعة كان أندلسياً من أصل إسباني يسمى « عمروس » وكان ينوي حكم طليطة .

### هيج الربيض الأول سنة ١٩٠هـ / ٨٠٦م

### والثاني سنة ٢٠٢هـ / ٨١٧م :

وعندما بلغت قرطبة أنباء يوم الحفرة ومذبحته ، أصاب أهلها هلع شديد ، تحوّل إلى غضب شديد ، فبدأت نذر الثورة تظهر في العاصمة ، وكثر الاحتكاك بين جند الأمير وجههور الناس ، ويبدو أن الحكم لم يقطن إلى خطورة ما حدث ، فحصى في طريقه مستخفاً بالناس ، غير عابئ بمشاعرهم ، فتحدوه تحدياً ظاهراً ، وشتموه على الطريق وصفقوا عليه بالأيدى ، فقبض على طائفة من زعمائهم وصلبهم سنة ١٩٠هـ / ٨٠٦م وسككت الـ ١١ إلى حين . فلما كان الثالث عشر في رمضان ٢٠٢هـ / ٢٥ مارس ٨١٨م ، انفجرت مراحيل الغضب الشعبي في الناحية الجنوبية لقرطبة وهي شفندة على الضفة الجنوبية من النهر وكانت فيها أحياء العمال والصناع والطلاب وصغار الفقهاء ، وقد انضم كبار الفقهاء إلى الناس في هذه الثورة في صورة ظاهرة من أمثال « يحيى بن يحيى الليثي وطالوت ابن عبد الجبار وعيسى بن دينار » . وفرجى الحكم في ذلك اليوم بحموم الثائرين تتقدم إلى قصره للإطاحة بعرشه .

ويجب مؤرخونا بما أبدى الحكم من ثبات في ذلك اليوم ، ولكننا نرى أن ذلك كان جمود قلب وبلادة إحساس فيه . فهؤلاء الثائرون لم يكونوا طامعين في ملكه ، بل كانوا يطلبون العدالة . وقد تصرف الحكم معهم تصرفاً خسيساً إذ أطلق جنده على بيوتهم فأشعلوا فيها النيران ، وعرضوا أولادهم وحريمهم للموت . فارتد الناس لإنقاذ أبنائهم فحصدتهم الجند حصداً ، وانتهى اليوم بانتصار الحكم ، ولكن عواقب ذلك الانتصار كانت وخيمة جداً على مصير الأندلس ، فإن الحكم

أصدر أمره بطرد أهل الربض الجنوبي من الأندلس وكانوا ألفاً من أفضل الناس وأكثرهم شهامة ، وقد قاموا بأعمال تشهد بقوتهم في كل ناحية وصلوا إليها بعد طردهم . وقد هاجر كثير منهم إلى الشمال واستقروا في أقاليم طليطلة وشمال غرب الأندلس ، وكانوا بعد ذلك من خيرة عقاصره السكانية ، وذهب بعضهم الآخر إلى المغرب وأنشأوا « عدوة » الأتلسيين في فاس ، وتوزعت جماعات منهم في بلاد المغرب الأقصى الأخرى واتجهت كتلة منهم إلى الإسكندرية بالبحر فاحتلتها وطردت عاملها ، ولم يتخلص منهم عامل مصر إلا بمشقة هذبوا إلى كريت وانتزعوها من أيدي البيزنطيين وأنشأوا فيها دولة إسلامية سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م ظلت تحكمها حتى استعادها البيزنطيون منهم سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م

انتهت ثورة الربض بنصر الحكم ، ولكنها كانت درساً بليغاً له ولمن جاء بعده ، فقد رأى بعينيه قوة هذا الشعب الأندلسي واستعداده لإيقاب الحكام عند حدهم ، ومن هنا فسرى أن الأمراء والخلفاء سيكونون بعد ذلك أكثر مراعاة لشاعر الناس وأحرص على ولائهم .

ولم يسعد الحكم بحياته بعد أن قضى على ميج الربض ، فقد مرض وتطلعت به العلة وجلّ به الدم ، وجعل يتعشى أو أنه لم يتصرف مع أهل قرطبة على هذا النحو ، وتوفي في قصره ولكن أهل بيته أخفوا خبر موته فلم يعلن إلا في ٢٦ ذي الحجة ٢٠٦ هـ / ٢٢ ديسمبر ٨٢٢ م . بعد أن تقرر الأمر من بعده لابنه عبد الرحمن بن الحكم المعروف بالأوسط

### بداية الاستقرار :

عصر عبد الرحمن ( الثاني ) الأوسط ٢٧ ذي الحجة ٢٠٦ - ٣ ربيع الآخر ٢٣٨ هـ / ٨٢٢ - ٨٥٢ م

الأمير محمد ( الأول ) ٣٠ ربيع الآخر ٢٣٨ - ٢٨ صفر ٢٧٣ هـ / ٨٥٢ - ٨٨٦ م

المختار . صفر ٢٧٣ - منتصف صفر ٢٧٥ هـ / ٨٨٦ - ٨٨٨ م

عبد الله بن محمد ٢٧٥ - ٢٣٠ هـ / ٨٨٨ - ٩١٢ م .

عبد الرحمن ( الثالث ) : الناصر ٣٠٠ - ٣٥٠ هـ / ٩١٢ - ٩٦١ م .

**عبد الرحمن الأوسط :** كان عبد الرحمن بن الحكم مؤهلاً بطبعه لإزالة الآثار المخرّنة التي خلفتها إمارة أبيه ، فقد كان هادئ الطبع لين الجانب ، وكان الوفاً حسن العشرة يحبه الناس ويجدون متعة في الجلوس معه والحديث والتبسط معه في منادمته ، وكان محباً للحياة متقرباً إلى الناس ، كما أنه لم يقل ذكاً عن سلفيه ، فقد كان يدرك كل شيء على حقيقته ، ولكنه كثيراً ما كان يتصدّع عدم المعرفة ويُغضى عن أخطاء الآخرين ، فزاد ذلك في معرفته بالناس وقربه إلى قلوبهم فأحبوه وسعدوا به وأمنوا إليه . ولم يكن فيه غدر ولا قسوة ، ولكن كان فيه حزم وقسوة على اتخاذ القرار المناسب ، وكثيراً ما كان يدع الأمور تجري وهو يرقبها دون أن يتخذ القرار إلا بعد وقت طويل ، ويبدو أن ذلك كان راجعاً إلى ميل منه إلى الدعة وإيثار للراحة ما تيسر له ذلك . وقد تولى في الحادية والثلاثين من عمره ، وحكم ثلاثين سنة استطاع خلالها أن يحقق الكثير وتوفى عن اثنتين وستين سنة ، وأمه جارية جليقية أسماها « حلاوة » .

ولم تكن القسطنطينية الداخلية لتهمه كثيراً ، فكان ينتسطر حتى تهدأ من نفسها أو حتى يهدئها بأقل مجهود ، كما فعل مع فتنة المضريين واليمينيين التي استمرت سبع سنوات ، في كورة تيمير ، وهي التي سميت فيما بعد مرسية في شرق الأندلس ، وكانت تدمير من الكور المجنّدة ، وكان معظم جندها من جند مصر وغالبيتهم من اليمن ، ولكن المضريين فيها كانوا يحاولون السيطرة على اليمينية - ومن هنا كانت الفتنة - وكان يرسل إليهم الجيوش بين الحين والحين ، فلما تفاقم أمرهم ، أرسل إليهم قائده « يحيى بن خلف » في جيش كبير أوقع بهم قرب « لورقة » ، فأخذت فتنتهم في الخمود وانتهت سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٨ م . وكذلك كان موقفه من أهل البيرة الذين أقبلوا إلى قرطبة للشكوى من ظلم الأسقف وإلى النصراني هناك ، فقد انتظر أن يودّوا ، فلما لم يسمعوا لنصحه سلط عليهم الجند .

وكان عبد الرحمن شديد الاهتمام بحماية حدوده الشمالية ، إذ أن نشاط العدوان على أراضي المسلمين تزايد على إثر ولاية « لويس التقي » عرش الفرنجة ، وهو من كبار ملوك فرنسا ، وكانت له أطماع واسعة في إقليم قطلونية ، وقد عرف عبد الرحمن كيف يكسب صداقة البشكوتس ضد الفرنجة ، فوقفوا إلى جانبه ، واستطاع أن يرد غزوة فرنجية على ذلك الإقليم في سنة ٢٠٩ هـ / ٨٢٤ م .



كذلك نشط الفونسو الثاني ملك جليقية وأشتريس في الغارة على أراضي المسلمين، واستولى حينها على مدينة سالم قاعدة الشعر الأوسط، فرده عنها القائد «عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث»، و الزم الفونسو بدفع الجزية، بعد معركة حامية في سهل يسمى «فج جرنيق» في إقليم ألبا، وقد قتل في هذه المعركة عدد كبير من جند العدو، ونهبت ذخائره الكثيرة وعم التحريب. وكانت هذه آخر عزوة قام بها هذا القائد المظفر الذي يعد من أكبر القادة العسكريين الذين ظهوروا في الأندلس، فقد استمر في ميادين القتال مدافعا عن الأندلس فوق الثلاثين سنة، أبدى خلالها من القدرة العسكرية والإخلاص للأندلس، ما وضع تقليدا جليلا سيستلحه قواد أندلسيون كثيرون من بعده، وتولى قيادة جيوش الإمارة بعده أمير من البيت الأموي، وهو «أمية بن معاوية بن هشام». وقد استطاع أمية أن يواجه ثورات كثيرة في نواح شتى من نواحي الأندلس، من بينها حملة له على اليمينية في إقليم تدمير، وكان رئيس من رؤسائهم قد عاد إلى التمرد، ودعا لبني العباس، وأخيرا تمكن أمية بن معاوية بن هشام من الإيقاع به في وقعة حساسة بالقرب من لورقة بعد ذلك بستين.

ولكن همة عبد الرحمن تجلّت في زيادة عن حدود بلاده وموالاته الغزوات إلى البجة والقلع وأراضي البشكنس وإقليم قطلونية. وكان هو يقود بنفسه الغزوات في معظم الأحيان. وفي عام ٢٢٨ هـ / ٨٤٣ م أنزل هزيمة قاصمة بقوات إمارة نيرة، وفي نفس السنة أيضا تورق الفونسو الثاني الملقب «بالكاستو» أي البقي، ملك جليقية وأشتريس بعد ٥١ سنة من الحكم ومناجزة المسلمين، وحلفه ابنه «راميرو الأول» أو «ردمير».

### غزوات النورمان :

وفي أيام عبد الرحمن الأوسط ظهر خطر «الأردمانيين» وهي صيغة الجمع من لفظ أردماني أي نورماني، وهم أهل الشمال والمراد بهم سكان اسكتلندا وديناماركة، وكانوا يعمرون إذ ذاك في عصر بطولتهم، وكانوا يغيرون على شواطئ أوروبا الغربية بأساطيل من سفن صغار ذات أشعة سوداء، وكانت تدخل مصبات الأنهار وترسو داخل البلاد وتُغِير على المدن وتنهب ما تعثر عليه،

وتوقد النيران لتثير الخوف ، ثم تهرب بسرعة وقد اشتهروا باسم « العايكنجز Vikings » ، وبسبب استعمالهم للنار سماهم العرب بالمجوس .

وفي أيام شارلمان احتل النورمان الساحل الشمالي الغربي لفرنسا . وكان يسمى باسم « فريزيا » ، واقاموا فيه ، وأنشأوا فيها بعد دولة فيه وسمى الإقليم باسمهم « نورمانديا » أو « نورماندى » . وأنشأ هؤلاء النورمان - هم الذين فتحوا إنجلترا بقيادة ولیم الفاتح سنة ١٠٦٦ م .

بدأت سفن النورمان تجوس بحار الأندلس العربية ابتداء من سنة ٢٢٩ هـ / ٨٤٣ م وكان أول ظهورها قرب شاطئ الألبونة في ذلك العام . فكتب بأمرهم واليها « وهب الله بن حزم » إلى الأمير عبد الرحمن يقول : إن أربعا من سفنهم الكبيرة ذات الأشعة السود ظهرت في البحر ، ومع كل سفينة منها مركب صغير . فكتب الأمير إلى عمال السواحل بالتدفظ والاستعداد واليقظة . وسارت سفنهم إلى الجنوب . فأغاصت على قادش وأوغلت قواتهم داخل البلاد حتى وصلت شدونة ونهب كل ما في طريقها ، ثم عاد النورمان إلى سفنهم . وساروا بهذا الساحل حتى مصب الوادي الكبير فاستولوا على جزيرة « قبيل » في مدخله ، ثم دخلت السفن النهر وصعدت فيه حتى بلغت إشبيلية ونهبها النورمان ، وأحرقوا الكثير من ديارها . بل أحرقوا المسجد الجامع . وبلغ الأمر الأمير عبد الرحمن فنهض للأمر بما هو أهله . فأرسل القوات إلى الحدود الغربية وواجه النورمان في شجاعة وحزم وتولى حريهم من قواد الإمارة « عبد الله بن كليب وعبد الرحمن بن رستم » فأوقع المسلمون بالنورمان هزيمة كبرى عند طليطلة شمال إشبيلية سنة ٣٣٠ هـ / ٨٤٤ م

وقد أغارت سفن النورمان على الأندلس بعد ذلك مرارا . ولكنها كانت ترد على أعقابها خسائر فادحة في كل مرة . وكانت أطول غاراتهم في الأندلس ، هي غارة إشبيلية ٤٢ يوما ، ثم أغاروا على لبنة ثم على الألبونة وعادوا فيما مضى من مراكبهم .

### نشأة الأسطول :

كان من نتيجة الغزو النورمانى أن تنبه عبد الرحمن إلى أهمية الأسطول فبدأ في إنشائه إنشاء محكماً واتخذ له دور الصناعة والقواعد في الألبونة وإشبيلية

وولية والمرية ويلنسية ومالقة ، ولم تنقصر سنوات حتى كان للاندلس اسطولان قريان احدهما في المحيط الأطلسي ومركزه الاشبونة ، والثاني في البحر المتوسط وقاعدته مالقة ، ومنذ منتصف القرن التاسع الميلادي يظهر الاندلس كقوة بحرية كبرى ، وتبدأ أهمية البحرية الاندلسية كعماد لقوة إمارة قرطبة .

وكانت أولى ثمرات قيام ذلك الأسطول ، فتح الجزائر الشرقية المعروفة بالبليلار سنة ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م وضمها إلى الاندلس ، ومن ذلك الحين تصبح جزائر البليار الكبرى الثلاث « ميورقة ومنورقة ويابسة » من ولايات الإمارة الاندلسية . وقد أنشئت ولاية الجزائر الشرقية سنة ٢٣٥ هـ / ٨٤٩ م .

### بعض المتعصبين من رهبان النصارى يحاولون إثارة فتنة ديتية في الأندلس :

ظهرت في أيام عبد الرحمن كذلك فتنة تعصب نصرانية ، أشارها نعر من الرهبان . إذ كانوا يؤكدون لأتباعهم قبل ذلك أن الإسلام باطل ، وأن دولته لن تلبث حتى تزل ، ولكنهم رأوا أمر الإسلام يشتد يوماً بعد يوم ، وإمارته تزدهر ، ومجتمعه يزداد رخاءً وثباتاً ، كما رأوا الثقافة العربية تعرو قلوب الشباب من أبناء دينهم ، فلا يكاد أحد منهم يحفل باللغة اللاتينية أو آدابها بينما يتفوقون جهداً كبيراً في دراسة العربية ومطالعة آدابها . بل مرع الكثيرون منهم في كتابة العربية . وقد شكوا ذلك قس متعصب يسمى «البارو القرطبي» في رسالة مشهورة ، فلما وجد أولئك الأخبار المتعصبون أبناء دينهم لا يابيهون لأمرهم ، بل يزدادون عنهم انصرافاً ويدخل الكثيرون منهم في خدمة الإمارة القرطبية ويسلمون ويؤاخون المسلمين ويصلون إلى الرتب العالية في المجتمع والإدارة ، انفجرت مراحل حقدهم ، فلذا بهم يجاهرون بالعدوان للإسلام وإهانة مقدساته علناً أمام الناس ، وكان رجال الشرطة يقاتلونهم إلى القضاء ، فيحاول هؤلاء استبائهم دون جدوى . فيحكمون عليهم بالإعدام ، وكان هذا هو غرضهم أن يعوتوا في صورة الشهداء حتى يستثيروا عراطف الناس . وقد كثر خروجهم على هذه الصورة ابتداء من سنة ٢٢٧ هـ / ٨٤١ م ، وظهرت من بينهم أسماء رهبان أصبحوا بعد ذلك قديسين في سجل الكنيسة ، من أمثال « يولج والبارو وفلورا » وكلهم من

قرطبة، وقد استعان الأمير عبد الرحمن بالصبر على هذه الأزمة، وطلب إلى زعماء النصارى أن يعقدوا مجمعا دينيا في قرطبة لينظر في أمر هذه الحنة بالعقل والحكمة. وبالفعل انعقد مؤتمر برئاسة «ريكا فريدر» مطران إشبيلية، ومثل الأمير فيه «غومس بن أنطليان» أحد كتّابه. وقد أصدر المجمع قرارا يستتكر فيه هذه الحركة الحقةاء، وشيئا فشيئا هدأت هذه الفتنة وعاد الرئام بين النصارى والمسلمين بفضل هدوء عبد الرحمن وحسن نظرنه إلى الأمور. وقد أسلم غومس ابن أنطليان بعد ذلك وحسن إسلامه، وأقبل على الاعتكاف في المسجد الجامع في قرطبة حيث لُقّب بعمامة المسجد.

وعلى طول أيام عبد الرحمن الأوسط كان الصراع مستمرا ومتزايدا على الحدود الشمالية للإمارة فيما يلي طليطلة شمالا. ومما يدل على أن قوة الإمارات النصرانية كانت تتزايد أن أهل طليطلة كانوا إذا خرجوا عن طاعة الإمارة، استجدوا بنصارى الشمال فأنجدوهم. وكان معظم استنجاههم بملوك ليون. ولهذا كان عبد الرحمن يوالى الغزو بنفسه ويُرسل قُوَّاهُ كُلَّ مِصِيفٍ وكانت الغارات تنحى أحيانا إلى نبرة وعاصمتها بنبلونة، ومن ناحيتها تدخل إلى إقليم ألبه والقلع وأحيانا إلى بلاد مملكة ليون.

### وفاة عبد الرحمن الأوسط :

توفي عبد الرحمن الأوسط في ٣ ربيع الآخر ٢٣٨هـ / ٢٣ سبتمبر ٨٥٢م بعد حكم دام إحدى وثلاثين سنة، تعتبر من أزهى فترات التاريخ الأندلسي بسبب ما ساد قرطبة وكبار المدن ومراكز العمران من هدوء وما تمتعت به البلاد من رخاء ورفاهية، لأن عبد الرحمن ورجاله كانوا من أنكباء رجال الدول الذين يؤمنون بأن رخاء الرعية أساس لثبات الحكم واستقرار أسس العدالة والنظام.

ويجيز جانب كبير من رخاء الأندلس في أيام عبد الرحمن إلى القاضة الكبرى التي عادت على الإمارة من الاستفادة من ملكات رجال الأسر الموالية التي أشرنا إليها وهم الموالي، وقد ظهر في أيام عبد الرحمن عدد كبير من أبناء هذه البيوت أمثال القائد «عبد الكريم بن عبد الواحد بن غيث» الذي أشرنا إليه والقائد «عيسى بن شهيد» و«يوسف بن يوسف بن بخت» و«حسن بن أبي عدة».

« ومحمد بن عبد السلام بن بسيل » « وعبد الرحمن بن رستم » ، وكانوا من كبار المخلصين للإمارة ولواجبهم ، وقد رفعهم عبد الرحمن إلى مراتب الوزراء ، فكان له نحو عشرة وزراء في وقت واحد ، وقدر لهم أن يجتمعوا في بيت من بيوت قصر السدة عرف ببيت الوزارة ليتناقشوا في المهم من شؤون الدولة ويرفعوا ما يرون من أمور الدولة إلى الأمير من كبار المسائل وكان الذي يعرض على الأمير هو الحاجب أي كبير الوزراء ، وأشهر من تعرف من رؤساء الوزراء هؤلاء عبد الرحمن بن رستم .

### الوزارة في الأندلس :

ونظام الوزارة في الأندلس هذا من المبتكرات الكبرى في التنظيم السياسي الأندلسي . لأن البيت الأموي كان غنياً بالشخصيات ذات الكفاية التي قدستها باستمرار البيوت الموازية التي ذكرناها .

ومعذ أيام عبد الرحمن الداخل لم يتجه البيت الأموي إلى إيجاد وظيفة الوزير بصورتها واختصاصاتها التي نعرفها عند العباسيين في المشرق ، وإنما اعتمد الأمراء الأندلسيون على أفراد من هذه البيوت في تسيير شؤون الدولة ، ومن اختصاص واحد منهم بلقب معين أو وظيفة معينة ، حتى قيادة الجيوش تولأها الأمراء وأنابوا عنهم في أحيان كثيرة رجالاً حملوا لقب القائد ، ولكن لفترة الحملات فقط . ولكن ظهور شخصيات ممتازة حقاً من أمثال عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث وعيسى بن شهيد جعل من الضروري أن يختص أولئك الرجال بأعمال محددة وألقاب معينة ، فنجد عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث يصبح قائد الجيوش بصورة مستمرة ، ويصبح عيسى بن شهيد قائداً أيضاً ، ثم نجد لقباً آخر يضاف إلى ابن مغيث وهو الحاجب . وتربط بوظيفة الحاجب كل الاختصاصات التي كانت للوزير في المشرق ، وبالفعل تصبح الحجابة في الأندلس هي الوزارة في المشرق ، ويصبح الحاجب ثاني شخصية في الدولة بعد الأمير ولكن الحاجب في الأندلس كان رئيس وزراء فعلياً ، يرأس نحو عشرة وزراء ، ويعرض أعمالهم على الأمير ..

وقد وزعت الاختصاصات الإدارية بين رجال من أفراد هذه البيوت ، فهذا

للعامل ويسمى « الخازن » وذلك لأن من يسمى « صاحب الشرطة » ، وذلك للعنشتات ويسمى « صاحب الأشغال » ، ثم نجد لقب الوزير يعطى لهؤلاء على أنه لقب تشريف أو درجة وظيفية في أول الأمر . ثم نجده بعد ذلك مرتبطاً باختصاص معين ، فنجد الوزير عيسى بن شهيد يقود الصوائف ويسمى « بالوزير القائد » ، ويوسف بن يوسف بن بخت يتولى شئون المال ويسمى « بالوزير الخازن » ، ومحمد بن السليم يتولى الخوازيث ويسمى « بالوزير صاحب الخوازيث » وهكذا ومن أيام عبد الرحمن الأوسط نجد الوزير في الأندلس له معنى الوزير في أيامنا واختصاصاته ومسئوليته . ونجد الحاجب يصبح رئيس الوزراء ، فهو الوزير الكبير . وهو الذي يلقى الأمير كل يوم ويناقشه في شتى المسائل ، ويجتمع كل يوم مع أصحابه الوزراء في داو خاصة عرفت باسم « بيت الوزارة » ، وفي هذا البيت يجلس الوزراء عن ترتيب معين في هيئة دائرية ، لكل واحد منهم وسادة يجلس عليها ، وسادة الحاجب أعلى من بقية الوسائد . ونجد لكل واحد من الوزراء ديوانه وكتابه ( أي سكرتاريوه ) ، والمسائل تدرس وتتخذ فيها القرارات ، ثم يأخذها الحاجب إلى الأمير ويعرضها عليه ، فما يوافق عليه يدخل ديوان الأمير لتحريره الصيغة الديوانية أو القانونية الملزمة ثم يقدمها إلى الأمير . الوزير صاحب العرض لتختتم بخاتم الأمير ثم يخاتم الدولة وتصدر على النحو الذي تصدر به المراسيم اليوم وتكون سارية المفعول من يوم صدورها .

وقد تعددت وظائف الوزارة ، فنسمع مثلاً « بوزير الخيل » ، وهو الوزير المكلف بإعداد الخيل اللازمة لجيش الدولة والعناية بها وبما تحتاج إليه من سرح ولجم ومراع وما إلى ذلك . وهناك « وزير الأعتة » ، ومهمته تقديم الخيل اللازمة لكل حملة مع فرسانها ، وإعداد الفرسان بكل ما يلزمهم ، وهناك وزراء بلا تخصص معين ، وهم أشبه بوزراء الدولة ومكاتبهم في القصر ، ليكلف الأمير منهم من يشاء بما يشاء .

وهؤلاء الوزراء جميعهم لهم الحق في لقاء الأمير والحديث معه ، وهم حاشية الأمير ومنهم أيضاً تدماؤه . وكانت عناية الأمير تمتد إلى أولادهم ، فإذا مات الوزير أو تعطل عن العمل ، حل محله ابنه . وفي أحيان كثيرة لا يكون الابن ذا كفاية تؤهله للوظيفة فيعين له الأمير من يعاونه في العمل حتى يتقنه ، وذلك حرصاً من الأمراء

على أن تكون الأمور دائماً في أيدي هذه البيوت المختصة التي تشبه أسر النبلاء التي كانت تحيط بملوك الغرب .

وكان أهل هذه البيوت أولاً مفصّراً على حوائى بنى أمية وأولادهم وما تفرع عنهم ، ثم دخلت عليهم أسر قريش الأصواء ، وكسان منهم العرب والمؤلّدون والمستعربون أحياناً ، وكان الكثيرون منهم من البربر ، وجدير بالذكر أن الأندلسيين من الأصول البربرية كانوا لا يَقلّون كفايةً عن الأندلسيين من الأصول العربية أو أهل البلاد

وكان الأصواء يُقيلون الوزراء ، وعندما يقال الوزير ترفع وسادته من بيت الوزارة ، وليس من الضروري أن يحل محله وزير آخر ، وقد ينقل الوزير من وزارة إلى أخرى ، وقد يعطى لقب الوزير لموظف كبير مثل صاحب المدينة أي محافظ العاصمة فيسمى الوزير صاحب المدينة وتوضع له وسادة في بيت الوزارة والوسادة هي المقعد وقد يراد بها ما يسمى بالقوتى .

وفي بعض الأحيان لا نجد حاجباً ، فيقوم بعمله الوزير صاحب العرض ، وهذا الأخير كان يعتبر من خاصة الأمير ، أي من أهل القصر ، أي من الحاشية

### الخطط :

وكانت الوظيفة الكبيرة تسمى في الأندلس « بالخطّة » مثل خلية الوزارة أو خطّة الخيل ، أو خطّة الأعتة ، أو خطّة الكتابة وهي تعادل ديوان دار الإنشاء في المشرق ، وخطّة المظالم ويراد بها النظر في الشكاوى المقدمة ضد رجال الدولة وتطبيق الأحكام على طبقات أهل المملكة ، وخطّة القيادة ، وخطّة الاشغال وخطّة البحر

### خطّة القضاء :

ومن الخطط الكبرى في الأندلس كانت خطّة القضاء ، ويراد به « قضاء الجماعة » أو قضاء قرطبة ، وصاحبها كان يشبه وزير العدل ، فهو لا يتولى قضاء قرطبة فقط بل يختار قضاة المدن الأخرى والأقاليم ، وهو ينظر في شئون القضاة ويراقب أعمالهم وله أن يعزل منهم من يريد ويقترح تولية القضاء من يريد ، وكان قضاة العواصم الكبرى يعتبرون توايلاً له يرجعون إليه في أحكامهم ، وكان

« قاضي الجماعة » ثالث شخصية في الأندلس بعد الأمير والحاجب ، ولهذا كان الأمراء يختارون قضاة الجماعة بعناية شديدة وتدقيق يبالغ ، وكان أدنى خطأ ظاهر من القاضي يؤدي إلى عزله ، وكان لقاضي الجماعة سلطة على الأمير نفسه في مسائل العدالة ، وكان من واجباته أن يحول دون ارتكاب رجال القصر وكبار الموظفين للمخالفات ، ولهذا كان القاضي رجلاً مرهوب الجانب ، وكان الكثيرون يتحاشرون هذه الوظيفة خوفاً من ألا يستطيعوا إقامة العدل على الأقوياء أو تجرّجاً من خدمة أمراء لا يرضون عن كل تصرفاتهم

### الفقهاء المشاورون :

وكان هناك إلى جانب الأمير دائماً عدد كبير من الشيوخ ذوي العلم الواسع والخلق المتين والدين القويم يسمون بالفقهاء المشاورين ، أي الذين يستشيرهم الأمير في كبار شؤونه ، وخاصة الدينية منها ، وقد ابتدع فقهاء المالكية هذه الخطة لانهم في محاولتهم اتّباع آتشار مالك بن أنس كانوا يرفضون تولي القضاء أو الوظائف العامة مكتفين بالانصراف إلى العلم والتدريس وإفتاء الناس فيما يعرض لهم من مشاكل . وكان هذا العزوف يرفع من مقامهم في أعين الناس . ولم يكن عزوف هؤلاء الفقهاء عن تولي الوظائف تعبيراً عن عدم الرضا عن البيت الأموي لانهم في الحقيقة كانوا يؤيدونه كما رأينا ، ولكنهم كانوا يسبرون في هذا في آثار مالك الذي لم يتول وظائف ما وعاش للعلم والتعليم ، وقد أراد الأمراء أن يلبّدوا من مكانة أولئك الفقهاء الكبار في نفوس الناس فقربوهم إليهم ، واختاروا من بينهم عدداً من أوسعهم علماً وجعلوهم فقهاء مشاورين وكانوا يعتبرونهم أهل شوري لهم ، وكانت مراكزهم تعدل مراكز الوزراء .

### يحيى بن يحيى الليثي :

وأول من نسمع عنه في هذه الخطة يحيى بن يحيى الليثي ، وهو فقيه جليل درس دراسة واسعة في المشرق ، وعاد إلى الأندلس أيام الأمير هشام فاحتل مكانة جليلة في الدولة ورفض أن يتول القضاء وفي أيام الحكم الربضي نجده يشترك في ثورة أهل قرطبة على الأمير ويهرب بعد القضاء على هذه الثورة ثم يعفو عنه الأمير



ويعود إلى مكانته ، وفي أيام عبد الرحمن الأوسط ترتفع مكانة يحيى بن يحيى حتى يصبح من أكبر شخصيات الدولة ، ويصبح بالفعل وزيراً للعدل بولى القضاة ويعزلهم ، وهو الذى كان يوصى باختيار الفقهاء المشاورين إلى جواره ، فظهرت هذه الجماعة فى كامل صورتها . ولم يكن الفقهاء المشاورون هيئة تجتمع معا ، بل كان الامر يستشيرهم فرادى فقد يستدعيهم وقد يرسل القضايا إلى بيوتهم ليدرأ آراءهم فيها ، وكان يحيى بن يحيى الليثى كبير الفقهاء المشاورين فى أيام عبد الرحمن الأوسط ، وكان الامر لا يقرر شيئاً فى شئون القضاة إلا يرايه ، وقد استبد بامر القضاة حتى ثقل عليهم فلما مات قال ابن عذارى : « فى هذه السنة مات يحيى بن يحيى الليثى واستراح القضاة من همه » .

وقد تعاصر أيام عبد الرحمن الأوسط ثلاثة يعدون من اكابر الفقهاء فى تاريخ الأندلس كله هم : عبد الملك بن حبيب ويحيى بن يحيى الليثى وعيسى بن دينار . وقد قيل فيهم أن عبد الملك عالم الأندلس وعيسى بن دينار فقيهها ويحيى بن يحيى عاقلها .

وكان كبير المشاورين يسمى بشيخ القضاة أو « شيخ المسلمين » أو « رئيس البلد » وكلها تسميات تدل على كبر المكانة التى كان يتمتع بها الفقهاء المشاورون فى ذلك العصر ، ويلاحظ عليهم إلى آخر أيام عبد الرحمن الأوسط ، أنهم كانوا عقهاء ولم يكونوا أصوليين ، أى كانوا يعرضون فقه مالك فقط ولكن لا علم لهم بالحديث أو بأصول الفقه ، وإنما هم كانوا فى الأغلب فروعيين عمليين أى يعرفون من الفقه ما تمس إليه حاجة المعاملات الجارية ، وحتى فى هذا لم يكن لديهم من العلم إلا ما قاله مالك بن أنس . وسيظل مستوى العلم بالفقه فى الأندلس على هذا المستوى الرفيع حتى عصر الامر « محمد بن عبد الرحمن » عندما يعود إلى الأندلس فقيهان أصوليان من أعلم الناس بالحديث الشريف ومناهج استخراج الأحكام من الأصول وهما . « بقى بن مخلد ومحمد بن وضاح » . وهما من مدرسة الأصوليين وكبار المحدثين الذين ظهرُوا فى المشرق فى القرن الثالث الهجرى ويمثلهم هناك « يحيى بن معين وأحمد بن حنبل » ، وعلى أيدي فقههاء من مستواهم وهذا الجيل سيدخل الفقه فى الشرق والغرب على السواء فى عصر جديد من عصوره وستبدأ سلسلة أجلاء الفقهاء الملقين المعروفين بالحُفَّاظ .

## الشخصيات الحضارية - زرياب :

يعتد زرياب من الشخصيات التي نستطيع أن نسميها شخصيات حضارية ويراد بالشخصيات الحضارية أولئك الأقداد الذين يتميزون بخصال وخصائص شخصية وعلمية أو فنية يكون لها أثر في تطوير الحضارة ومستواها في عصورهم وكان عبد الرحمن الأوسط نفسه شخصية حضارية فكان أميراً قادراً مجرباً حسن الحكم على الأمور ، ثم إنه كان عالماً وشاعراً ، وذذا ذوق في كل ما يتصل بشئون الحياة من مسكن وملبس وملبس . وأول الشخصيات الحضارية التي سنتحدث عنها هنا ، هي شخصية علي بن نافع الموسيقى المعروف بزرياب .

وكان زرياب في أول أمره تلميذاً لإسحاق الموصلى موسيقى هارون الرشيد ، ويقال إنه أبدى من البراعة ما لفت إليه نظر الرشيد ، فشرع إسحاق الموصلى بالخبرة من تلميذه الشاب فهدده بالتضياء عليه ، فخرج من بغداد ووصل إلى القيروان ، وهناك اكتسب لقب زرياب ، وهو طائر أسود ، وهناك ظهر أمره كموسيقى ممتاز ، وانتشر صيته حتى بلغ الأندلس ، فاستقدمه عبد الرحمن الأوسط ، فوفد إلى قرطبة واستقبله الأمير استقبالاً حافواً ورتب له راتباً كبيراً وهذا له الوسائل ليظهر فنه

من أول الأمر أظهر على بن نافع أنه موسيقى فوق المستوى ، فأنشأ معهداً للموسيقى يتعلم فيه الشبان والشابات ، وكان يهتم بتربية الصوت وتوسيع مناه ، ويلزم التلاميذ بالقيام بتمارين وتدريبات عسيرة لكي يخرج الصوت من القفص الصدري كله ، لا من الحنجرة فحسب كما يفعل الكثيرون من المغنين والعرض من ذلك أن تستخدم إمكانات المغنى الصوتية استخداماً كاملاً ، فتتسع قدرته للتعبير الغنائى عن المعانى والأحاسيس

وقد ابتكر زرياب طريقة لكتابة الموسيقى ، ومن المؤسف أننا لم نعرف إلى الآن كيف كان زرياب يكتب موسيقاه ، ثم أدخل تعديلاً جوهرياً على العود ، وهو أداة الموسيقى الرئيسية في ذلك العصر ، فإضاف إليه وترّاً خامساً وأصابع الدفوف والمزامير وأحكم صنعها ، واخترع القرق الموسيقى التى تجمع بين العازلين والمتشدين ، وكان يلحن القطعة الموسيقية تلحيناً كاملاً يجمع به الإنشاد الجماعى

والفردى والعزف . وهو أول من أنشأ في الأندلس المسرح الصغير الذى تجلس عليه الفرقة الموسيقية ، وكان ذلك المسرح يسمى بالستارة .

وكان غناء أهل الأندلس إلى ذلك الحين غناءً عربياً بسيطاً هو الحداء ، فادخل زرياب موسيقى عالية عرفت باسم « الزريابية » ، وأصبح الحداء أو الحدو هو العناء الشعبى فى حين أن الموسيقى الزريابية أصبحت الموسيقى الكلاسيكية الراقية فى الأندلس .

وكان زرياب يعمل بنظام تام وهيئة جليلة ، فكان يخصص صدر النهار للدرس والتدريس ، وبعد الظهر للقراءة والإطلاع وفى الليل يتوجه إلى القصر . وكان سرقة الناس يرسلون إليه بجواريتهم ليعلمهن ، وقد أخرج جيلاً من المغنيات الممتازات ، اشتهر أمرهن فى العالم الإسلامى كله مثل « قلم وعلم وشفاء » . وبلغ من إعجاب عبد الرحمن الأوسط به أن أمر ذات مرة بأن يدنعوا له ٣٠.٠٠٠ دينار مكافأة له على لحن ، فرفض خزنة الأمير إعطاءه المبلغ على اعتبار أن ذلك تضییع لأموال المسلمين ، فلم يستطع الأمير إرغامهم على الدفع .

ولم يقتصر أثر زرياب على الموسيقى بل إنه كان رغم سواد لونه يتولى كبار الوظائف والمسؤوليات ، وكان فيصل الأناقة الأندلسية فى عصره ، وهو الذى علم أهل الأندلس كيف يرتدون الصوف شتاء والقطن أو الكتان صيفاً ، وعمل فى هبات الثياب فقصرها وضيق الأكمام وأعطاهم هيئة جميلة ، وعلم الأندلسيين كيف يقصون شعورهم . وهو الذى علم الأندلسيين تقصير الشعر فى الجانبين ، وإرساله وراء الأذن . وابتكر للنساء تصفيقات عرفت باسمه مثل تصفيقة الجبهة وهى إنزال الشعر على الجبين مع قصه فى موازاة الحواجب ، وتقشّر فى العصور ، فابتعد عن العطور الثقيلة كالعنبر والأدهان ومال إلى عطور الزهور .

كذلك أدخل زرياب تعديلاً على المطبخ الأندلسى ، فادخل كثيراً من الخضراوات كالبندى والكماة ، وأضاف أصنافاً كثيرة عرفت باسمه . وعلم أهل الأندلس الأكل على الموائد واستعمال الملاعق والسكاكين بدل الأصابع . وخرج بهم عن الأطعمة البدائية القديمة وهى العصائد والثرائد ، أى الألوان التى عرفها أهل المشرق .

وعلى الجملة كان زرياب شخصية حضارية ممتازة ، فقد أدخل تغييراً جوهرياً على المجتمع الأندلسى كله ، وساعد فى نقله من البداوة إلى الحضارة ومن

المفوضى الى التنظيم المتحضر ، وكان الى جانب ذلك شخصية محترمة ذا سميت ووقار ، ولم تؤثر عنه هفوة خلق أو سوء تصرف ، بل كان يتحامى الشراب ولا يتعاماه .

وفي تاريخ الموسيقى العربية يحتل ذلك « الطائر الاسود » مكاناً جليلاً ، فقد كان من القلائل الذين اخلصوا للفن الموسيقى وجددوا فيه وحافظوا على السمة المحترمة للفنان ، ولم يسمحوا لانفسهم ابداً بأن يهبطوا الى مستوى عامة المُسَلِّين والندماء ، فكان قليل التردد على القصر ، لا يحضر إلا لحفل موسيقى ، وكان لا يذهب بموسيقاه الى بيوت الأغنياء ، وإنما يذهب إلى داره من يريد أن يستمتع بفنه ، وقد جمع مالا عريضاً من تدريس الموسيقى وتخريج الشبان والشابات ، وكان الكثيرون ممن تخرجوا على يديه اعلاماً للفن لهم في المجتمع مكانة كبرى . وقد توفي على بن نافع في ربيع الأول ٢٢٨ هـ / أغسطس ٨٥٢ م قبل وفاة عبد الرحمن الأوسط بأسابيع قلائل .

ولم يكن عتي بن نافع ( زرياب ) الشخصية الطريفة الوحيدة التي ازدان بها عصر عبد الرحمن الأوسط ، فقد ظهرت في أيامه جماعة من أجل الشخصيات في تاريخ الإسلام العام ، ويعد ظهور هذه الشخصيات الفريدة ، ثمرة من ثمار غراس بنى أمية الذين بلغ حكمهم نحو قرن من الزمان عندما توفي عبد الرحمن الأوسط .

### عباس بن فرناس :

من هذه الشخصيات عباس بن فرناس ، وهو في الحقيقة من رجال عصر الحكم الرابضى ويكنى أبا القاسم ، وكان فيلسوفاً ورياضياً وشاعراً ، وهو من أهل « تاكمنا » في جنوب الاندلس من أصل بربري ، وكان ذا براعة في الكيمياء وإليه تُعزى طريقة خاصة في صناعة الزجاج من طحين الأحجار ، وقد صنع آلة تُعرف « بالمقاته » لمعرفة الوقت تعتمد على الظل ، وأكبر مخترعاته محاولته الطيران ، فقد صنع لنفسه كساء من الريش ذي جناحين كبيرين يضع فيهما ذراعيه ، وقد قصّر بذلك الرءاء من أعلى تل قرب مدينة بلنسية « منت أجود » وهو تعريب لاسم إسباني Monte Agudo وطار بضعة أمتار ثم اخطأ توازنه وسقط ، ويرجع سبب سقوطه إلى أنه لم يظن لأهمية الذيل في طيران الطائر ، وكان من آثار

سقوطه أن انكمرت إحدى فقرات ظهره السفلى فلأزم الفراش شهوراً متطاولة وسخر منه أهل عصره بشعر كثير .

وقد أطلع عباس بن فرناس عن محاولة الطيران بعد ذلك ، ولكن محاولته تعتبر صفحة جميلة في تاريخ الحضارة العربية ، فهي أول محاولة عملية لإنسان في الطيران ، وقد حكي اليونان أن رجلاً منهم يسمى « إيكاروس » حاول الطيران ولم يوفق ، ومحاولة عباس بن فرناس هي الثانية من نوعها في تاريخ البشر قبل العصور الحديثة .

وقد ظلت محاولة عباس بن فرناس للطيران عالقة بأذهان أهل بلنسية زمناً طويلاً وعاشت حتى بعد أيام المسلمين ، فتحوّلت محاولته إلى أسطورة ، بل إن شخصيته لا تزال إلى يومنا هذا رمزاً على الفن والابتكار في نواحي بلنسية وباسم القل الذي حاول الطيران منه ، يصدر أدباء بلنسية مجلة للشعر تسمى مونت أجودو Monte Agudo ولكنه لم يقلع عن الاشتغال بالكيمياء ، وهي فرع غير علمي من الكيمياء ، يرمى إلى تحويل المعادن إلى ذهب عن طريق الصهر فترات طويلة . وقد اخترع عباس شيئاً شبيهاً بقلم الحبر وأراد أن يوفر على الكتاب مثوبة حمل الأقلام والمحابر أينما ساروا .

وإلى جانب ذلك كان عباس بن فرناس موسيقياً صانع الحان مجيداً للضرب بالعود ، وقد أثارت اختراعاته وابتكاراته الريبة في قلوب الفقهاء والعامة فاتهم بالزندقة ولكن أحداً لم يأخذ عليه شيئاً ، فعاش حتى توفى في سن عالية في أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط

### يحيى بن حكيم الجياني ( الغزال ) :

ومن طوائف الشخصيات أيام الحكم وابنه عبد الرحمن ، الشاعر الفيلسوف يحيى الغزال الجياني ، وهو عربي من بكر بن وائل ، ولد في جيان وقد سمي بالغزال لجمال هيئته وأناقته ، وكان شخصية بهيمية يخلط الجد بالهزل ويأخذ الدنيا ساخرأ لا يكاد يحفل بشيء ، وكان شاعراً مبدعاً وعقلاً جريئاً ، لا يكف عن مهاجمة الفقهاء والتندر بنفاقهم وتظاهرهم بالتقشف والعزوف عن الدنيا مع غناهم وحرصهم على المال والحياة ، وقد تعقبوه في إصرار لكي يجدوا وسيلة

لاتهامه بالزندقة والقضاء عليه ، ولكنه كان أمهر منهم ، فهرب إلى المشرق وغاب عنهم زمناً . ولقى ابا بواس وأنشد شعره فأعجب به أبو نواس ، وفي هذه الرحلة قال كلاماً كثيراً كان من الممكن أن يؤديه ولكن أحداً لم يتلبس عليه بشيء ثابت ، فلما عاد إلى الأندلس لقي قبولاً من عبد الرحمن الأوسط وأصبح من سدسائه وأصحابه ، وقد أعجب عبد الرحمن ياديه وقطره وهياته فجعله سفيراً له لدى الملوك ، فأرسله في سفارة إلى الإمبراطور « تيوفيلوس » إمبراطور بيزنطة ، فذهب في رفقة صديق له يسمى « يحيى صاحب المنقلة » وكان رياضياً ، وقد كسب الغزال إعجاب أهل البلاط البيزنطي ، وأعجبت به سيدات القصر رغم أنه كان قد جاوز الستين من عمره ، وأنشد في بعضهن أشعاراً قام المترجمون بنقلها إلى اليونانية فلقبت إعجاب أهل القصر . وقد قضى هذا السفير في سفارته ثلاث سنوات عاد بعدها يحمل بالهدايا والذكريات . وحمل إلى عبد الرحمن رسالة من الإمبراطور

وقد كان نجاح الغزال في هذه السفارة حافزاً لعبد الرحمن على إرساله إلى ملك النورمان في السانمارك لكي يتباحث معه في أمر أولئك الغزاة الذين يؤرقون أمن الأندلس ، فذهب مع صاحبه يحيى بانمر أيضاً وكانت رحلة شاقة اضطوته الأمواج خلالها إلى الرُّسُو في إيرلندة ثم في إنجلترا ، وأخيراً دخل مضائق بحر البلطيق ، ووصل إلى بلاط ملك النورمان بعد أن كابذ أهوالاً أحسن تصويرها في شعره . وفي بلاط الملك أبدع الغزال أيضاً إبداع واستظرفه الملك ، وكان يجب أن يستقدمه ويستمع إليه في حديثه وفكاهاته بواسطة مترجم ، ولكن إعجاب الملكة به كان أعظم وكان اسمها « تود » ، وقال فيها شعراً كثيراً ، وطال مكوث الغزال في بلاط النورمان لأن الناس أحبه واستمسكوا به ولكنه كان لا بد أن يعود ، فعاد إلى قرطبة ليقص على الناس قصصاً طريفاً وليحدثهم بما كان بينه وبين الملكة تود . وبطبيعة الحال لم يكن أحد يأخذه مأخذ الجد الخالص ، وكان هذا من صالحه لأنهم لو أخذوه مأخذ الجد لأصابه أذى شديد على أيدي الفقهاء

وقد عمر يحيى الغزال بعد ذلك عشرين سنة أخرى نعمت وقد تجاوز الثمانين سنة ٢٥٠ هـ / ٨٦٤ م

## التحول الحضارى فى الأندلس فى عصر عبد الرحمن الأوسط :

وفى عهد عبد الرحمن بن الحكم انتقل الأندلس من بساطته الأولى إلى ترف الحضارة ، فأنشأ الناس القصور الجميلة وأنشأها بالآثاث الفاخر والرياش المستجلبية من الشرق ، ووجد الناس على الأندلس بطرائف الجواهر والآنية والرياش ، واستجلب الناس الجوارى المملكات من المشرق ، وسادت الأندلس كله موجة من الحضارة والترف ، وأخذت قرطبة طريقها لتصبح أجمل مدائن أوروبا على الإطلاق ، ومن أبرز ما أبدعته الناس إذ ذاك « المنى » ، يضم الميم وهى جمع منية ، وهو البيت الريفى الذى تحيط به حديقة ، أى ما نسميه نحن الآن بالفيلا وكان الرومان يسمونه بهذا الاسم وعندهم أخذناه . وقد انتشرت المنى شمال قرطبة وغربها ، وسكنها سرة الناس فى حى خاص يشبه الأحياء الأرسقراطية فى عصرنا هذا ، وكان بعض الأغنياء يتوسعون فى حدائق المنى حتى تصبح رياضاً ويسمى الروض « بالخور » وقد امتدت الأحواز إلى الشمال والغرب امتداداً كبيراً .

وفى هذه القصور عاش الأغنياء حياة كلها ترف وغنى وقام على خدمتهم حدم كثيرون بعضهم أوروبى وبعضهم شرقى ، وحرص أولئك الموسرون على أن تكون لكل منهم ستارته ، تغنى فيها مقنيات قادرات ، ولكن ذلك لا يبقى أن ينسينا أن هذه كانت حياة الأقلية ، أما الأكثرية فى الأندلس فكانوا يعيشون فى رخاء نسبي لأن البلد كان غنياً وكان الناس مقبلين على العمل لأن أعداد الناس كانت قليلة . وكانت الحكومة المركزية تشرف على أعمال الحكام عن طريق ديوان المظالم . وكان مخصصاً بالنظر فى شكاوى الناس من أعمال رجال الدولة وتصرفاتهم ، وكان يتولاه دائماً رجل من كبار أهل الدولة ، له السلطة الكافية لمحاسبة كبار الحكام . ومن الطريف أن يحيى الغزال كان ممن طلبهم صاحب المظالم وكانت تهتم أنه فرق فى الناس القمع المخزون فى أهرام الدولة فى الأشبونة . وكان قد عُيِّن عاماً عليها ، وكان المفروض أن هذا القمع مخصص للحنود . ولكن « الحكم » وجد أن الناس أوتى به ، إذ نزلت بهم مجاعة ، وقد غزل يحيى الغزال من وظيفته لهذا السبب وانصرف إلى حياة الشعر والنهر فى قرطبة بعد ذلك .

## زيادة مسجد قرطبة الجامع :

وقد اهتم عبد الرحمن الأوسط بامتناشات والمباني ، واهم منشأته زيادة المسجد الجامع ، فأضاف إليه سبع بلاطات<sup>(١)</sup> من ناحية الجنوب ، ونقل المحراب من موضعه إلى جدار الجزء الجديد

وقد لاحظ المعماري الذي قام بعمل الزيادة أن ارتفاع سقف الجامع لم يعد مناسباً لاتساعه ، ففكر في طريقة يرفع بها هذا السقف ، وهذه فكره إلى أن يقيم فوق الأعمدة أعمدة أخرى وأقواساً أخرى ، فكان من نتيجة ذلك تلك الأقواس المزدوجة التي نعدّ من بدائع العمارة الإسلامية . وقد زاد المعماري في جمال هذه الأقواس بأن بناها مدماك من الآجر وآخر من الحجارة فاصبح ازدياج لون العقود طابعاً يميز عمارة مسجد قرطبة على ما عتدنا من مساجد الإسلام . وقد رنعت هذه الأقواس المقامة السقف إلى ارتفاع يقرب من ثمانية عشر متراً ، مما زاد في بهاء المسجد ورحابة داخله ، وكان ذلك الجزء المسقوف من المسجد الذي يعرف « ببيت الصلاة » يكون جزءاً صغيراً من الصحن العام لأن بقية الصحن كانت مكشوفة يدور عليها السور ، وقد زُرعت فيها اشجار النارج ، فسمى ذلك الجزء من الصحن « بهو النارج » ، وقد تناقش فقهاء قرطبة وقتاً طويلاً فيما إذا كان من الجائز أن تغرس الأشجار في بهو الجامع ، وأقر الفقهاء ذلك رغم مخالفته لرأي مالك بن أنس .

## في بلاط عبد الرحمن الأوسط :

وقد قام على عمارة هذا الجزء « نصر » قتي الأمير عبد الرحمن أي مولاة المقرب إلى نفسه ، وكان نصر رجلاً كفواً ولكنه كبقية صقالبة القصور كان حامد القلب ، انائناً قليل الإحساس بالعب الحقيقي ، وكان يتآمر مع طغروب جارية الأمير عبد الرحمن المقربة إلى نفسه ، وكانت طروب جارية بشكتسية شديدة الطموح ، وكانت تخرج أن يصبح ولدها عبد الله أميراً بعد أبيه متخطية بذلك الأمير محمداً

( ١ ) البلاطة في مصطلح العمارة الإسلامية هي المسافة الواقعة بين أربعة أعمدة ، فإذا قلنا إن عبد الرحمن الأوسط زاد في المسجد سبع بلاطات ، فمعنى ذلك أنه وسع المسجد ناحية الجسوب بقدر سبعة صفوف من الأعمدة



كبير أبناء الأمير وولي عهده ، وقد بلغ بها الأمر أن دبرت قتل الأمير بالسُّم وقام نصر بإعداده ، ولكن بغضيم نية الأمير إلى الخطر فطلب إلى نصر أن يشرب الشراب المسموم فلم يسعه إلا أن يفعل وأسرع نصر والسُّم في بطنه إلى سكته وأرسل بطلب لبين الماعز ، إذ قيل له إنه يضيق أثر السُّم . فلم يوجد حتى هلك . وقد فرح فيه الكثيرون معن كان لا يكفُّ عن أذاهم ، وأرتاح منه القائد الحاجب عيسى بن شهيد وكان من المتمسكين بضرورة المحافظة على العرش للأمير محمد بن عبد الرحمن

### الشعر والموشح والزجل :

وما دنا قد تحدثنا عن يحيى بن الحكم الغزال ، قلنقف رفة قصيرة عند الفكر الأندلسي الذي بدأ يستقل عن الفكر المشرقي ، ويظهر في صورته الناطقة بشخصيته ابتداء من ذلك العصر . وأسست في نظوره في أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن ومن جاء بعده ، إلى أيام عبد الرحمن الناصر .

لم يكن هناك مظهر للفكر الأندلسي إلا في الشعر ، ولم يكن المجال قد انفسح أمام النشر القني ليظهر ، ولم تر الأندلس ناثراً أصيلاً من طراز الجاحظ أو ابن المقفع أو عبد الحميد الكاتب . وقد نشأ الشعر الأندلسي محاكياً للشعر المشرقي ، وعندما ثبتت أقدام الإسلام في الأندلس كان عصر الشعر العربي الإسلامي الخالص قد انقضى بذهاب بني أمية . ذهبت أيام جريد والغزدق والأخطل وذو الرمة ، وانعقد لواء الشعر للمحدثين أو الكلاسيكيين المحدثين من أمثال أبي نواس ويشعار بن برد . وأبو تمام وابن الرومي وابن المعتز ، هؤلاء الخمسة بالذات كان لهم أثر بعيد جداً في تكوين مدرسة مماثلة في فن الشعر الأندلسي ، فنجد عند كبار الشعراء في عصر الأمراء ، من أمثال « ابن عبد ربه ومؤمن بن سعيد ويحيى بن حكم الغزال ومحمد بن يحيى القلظاظ » صوراً شعرية مقتبسة من شعر أولئك الفحول ، وأبو تمام بالذات كان له أثر عميق جداً عند شعراء الأندلس لريانة شعره وجودة معانيه ودباجته العربية الخالصة ، ويلي أبو تمام في ذلك ابن الرومي وابن المعتز ، فاما الأول فقد فتن الأندلسيون بسهولة شعره وسلامة نظمه وجمال الصور التي يأتي بها ، وأما الثاني فأعجبته في الصنعة والبرقة والحديث الكثير عن البساتين والرياح والزهور والربيع وما إلى ذلك من مناهج الطبيعة .

وفي عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط نرى طلائع الشعر الشعبي الأندلسي وهو شعر يصاغ في عامية أهل الأندلس ، ولكنه يلتزم أوزان الشعر العربي وخاصة السهل الجارى منها كالكرم والرجز ، وقد عرف هذا الشعر بالزجل . والزجل الذي يقال في كل بلاد العروبة ولد في الأندلس في الغالب ، ونحن نسمع عنه أول ما نسمع في تلك البلاد .

وعامية أهل الأندلس خليط من العربية والبربرية والإيبيرية الرومانية ، فإن الأندلسي كان يقول : كَبْر وكاس دَلْما « ( أريد كأس ماء ) » ، « مي ألما حرين دال اليوم » ( نفسى حزينة اليوم ) ، « اشتريت من السوكو سبانية بلانكا » ( اشتريت من السوق غطاء فراش أبيض ) ، « ازداد قولانو ولد سمرولو وبنت شقويلا » ، ( ولد لفلان ولد أسمر وبنت شقراء ) وهكذا .

وهذه اللغة هي التي كان الناس جميعاً يتحدثون بها ويفهمونها في الأندلس ، وهي كذلك كانت لغة الزجل الذي سيبلغ أوج ازدهاره في عصر الطوائف على يد زجالين موهوبين أشهرهم ابن قزمان .

بعد ذلك ظهر الموشح ، والغالب أيضاً أنه ابتكار أندلسي . فكانوا يأخذون « مركز »<sup>(١)</sup> إحدى الألفاظ الشعبية باللغة الإسبانية النارجية . وينسجون على منواله أربعة أشطار أو خمسة تنتهي بذلك المركز الذي يسمى « خرجة » ، ثم أربعة أبيات أخرى عربية تنتهي بنفس الخرجة ، وهكذا .

المسحح حق

وإنابيه الشهد

أضل العشق

مهجتي ولا ينفد

وأين صدقو

من غويده تنشد

(١) المركز هو بيت الشعر الذي يكرر في الزجل والموشح بعد نهاية كل فقرة شعرية ويسمى عندما بالمذهب

وإليك نموذجاً من الموشحات التي كانت تنشد في الأندلس منظومة على  
أساس غير عربي وتكتبها بإسبانية اليوم لكي تزداد وضوحاً :

Alba qérta Kon Bel Fogore

Cuando Viene lide Fugor

Una alba que Tiene Tan hermoso fulgor

Cuando viene pide amor .

وترجمته بالعربية :

فجر ضياء بائغ الجمال

عندما يطلع يبعث الحب

فجر له ضوء ساطع جميل

عندما يأتي طالباً للوصال

وهذه الخرجة الإسبانية التي تسمى المركز أيضاً تتكرر بلغظها في نهاية كل  
مقطع عربي مكون من ستة أشعار صغيرة كهذه . وكانت العادة أن ينشد الأشعار  
الدينية منشدة مفرد ، أما الخرجات أو المراكز فكانت تفتيها الجماعة مع المنشد  
أو المنشدة .

وقد انتقل الموشح إلى بلاد الإسلام كلها وأصبح نوعاً جارياً من الشعر  
يجمع بين العربية الفصيحة والعامية الدارجة ، وكان أول ظهوره على يد « مقدم  
ابن معاني القبري » الضريد الذي نشأ في أيام عبد الرحمن الأوسط

ونعود إلى ذكر الشعر الفصيح فنقول : إن أكبر شعراء العصر الذي نتحدث  
عنه هم أبو عمر أحمد بن محمد بن محمد ربه ( ١٠ رمضان ٢٤٦ - ١٨ جمادى  
الأولى ٣٢٨ هـ / ٢٩ نوفمبر ٨٦٠ - ٢ مارس ٩٤٠ م ) صاحب كتاب « العقد  
الفريد » وهو كتاب جامع شامل في الأدب العربي الجاهلي والإسلامي ، وهو  
يصور لنا مفهوم العرب الأوائل للأدب ، وهو الأخذ من كل شيء بطرف ، أي ما  
نسميه اليوم بالثقافة العامة .

وكان ابن عبد ربه إلى جانب ثقافته الواسعة شاعراً أشبه بالرسمي للأمراء ، فهو يقول شعراً كثيراً ، ولكنه شعر مقصور معظمه على المديح والتثاني والفخر والمراثي وما إلى ذلك ، ولكن الرجل كان عاقلاً متعاوناً عرف كيف يحتفظ بمكان ممتاز في المجتمع الأندلسي ، وقد ظل طول حياته شاعر الأندلس الأول حتى توفي أوائل أيام عبد الرحمن الناصر عن سن عالية

ومن أهم ما يذكر له من الشعر أرجوزة في تاريخ أمراء الأندلس أدرجها في كتاب العقد الفريد ، وقد ترجمت إلى الإسبانية نظراً لأهميتها التاريخية .

وعلى العكس من ذلك كان معاصره « مؤمن بن سعيد » ، فقد كان رجلاً متداعياً كثير الوقوع في الناس ، دائم الدعاية ، فنال الناس من آذاه شيء كثير ، وأذوه هم الآخرون كثيراً ، ولكن حياته غير السعيدة بخير ما وشرها ، بطوها ومرها تصور لنا جوانب شتى من حياة الناس في الأندلس .

أما ثالث شعراء الأندلس الذي تحدثنا عنهم كتب الأدب الأندلسي في ذلك العصر ، فهو أبو بكر بن هذيل ، وكان شاعراً مجيداً يحسن أشعار الموشحات والوصفيات ، وقد شهد وهو صغير جنازة أم عبد ربه غآلى على نفسه أن يبيع شأوه ويوصل إلى ما أراد بحسن دأبه وكان ضريراً .

وهؤلاء الثلاثة إلى جانب يحيى بن حكم الغزال يصودرون لنا آخر ما وصل إليه الشعر في ذلك العصر ، وهم ليسوا أعظم شعراء الأندلس على أي حال ، لأن أعظم الشعراء هؤلاء سيظهرون في أيام عبد الرحمن الناصر وما بعده أي عندما يصل الأندلس إلى الاستقرار الكامل وتصل حضارته إلى أقصى ما وصلت إليه من صبح في عصر الطوائف ، وما تملأه من عصور الصراع الحاسم على مصير الأندلس .

ونلاحظ على الجملة أن الإمارة الأموية القرطبية قامت على رجال ذوي ملكات وقدرات لكل منهم ناحية اختصاصه وشخصيته الواضحة ، والدولة المركزية تعترف لكل رجل من هؤلاء بمكانته وتعطيه حقه وتسح له المجال ليفيد بملكاته وليستفيد منها ، وهذه الظاهرة سمة من سمات القوة في الدول ، لأن الدول تبني على الرجال ، أما القول بأن « الدول تبنى على المال وبالمال يصطنع الرجال »

فمذهب خاطئ يدل على ضعف ، وقد أخذ بعيدا الرجال بنو أمية الشرقيون في صدر دولتهم ثم بنو أمية الأندلسيون هؤلاء ، وأخذ بعيدا المال العباسيون ، وكان هذا من أهم أسباب ضعف دولتهم .

وناحية الضعف في سياسة الرجال التي اتبعها الأمويون الأندلسيون أن هؤلاء كانوا بطيئهم قوماً ذوي خيلاء وزهو وغرور بأنفسهم ، فأسرفوا في الاعتماد بأنفسهم ، نعا من رجل تفضيه الدولة في شيء إلا ويثور في ناحيته ويسبب المتاعب كما سنفري في نهاية عصر الاستقرار هذا

يضاف إلى ذلك أن الكثير من نواحي الأندلس كان لها شخصيتها المستقلة التي تعترف بها الدولة ، وتمتع أصحاب الأمر فيها بدرجة كبيرة أو صغيرة من الاستقلال الداخلي ، ومثال ذلك منطقة الثغر الأعلى ، وهي حوض نهر الإبرو وما يليه شمالاً إلى جبال ألبرت ( البرانس ) ، فهذه منطقة متاخمة للممالك والإمارات المسيحية في الشمال والشمال الغربي والشرقي ، وكانت تتولى أمورها امر محلية ، تتمتع بامتيازات إقطاعية سلم بها الأمراء ، ومن هذه الأسر ما يرجع إلى أصول إسبانية محلية مثل « بنو قسي » المنحدرين من « فرتونير » حكام تلك المنطقة أيام الفتح العربي ، « بنو هاشم » وهم عرب استقروا هناك ووصلوا إلى الرياسة ، وكانت لهم قواتهم العسكرية وامتيازاتهم الإقطاعية في نواحيهم . وكانت العلاقات بين هذه الأسر والبيت الأموي في تغير دائم بين الطاعة والعصيان ، ولكن رجالها كانوا على الجملة من أهل الطاعة ، وخاصة عندما قوى أمر إمارة قرطبة وثبتت أركانها في عصر عبد الرحمن الأوسط وما بعده .

كذلك منطقة طليطلة ، فقد كانت منطقة ثغرية يتمتع أهلها باستقلالها المحلي . فكانت لطليطلة مشيختها التي تدير أمورها بالاشتراك مع عمال الإمارة .

وكانت ثورات أهل طليطلة على الإمارة كثيرة ، ولكن الأمير محمداً ، انتهج - كما سنرى - سياسة جديدة في تأمين طليطلة والثغر الأوسط من عدوان نصاري الشمال وتوثيق علاقتها بقرطبة وتعزيز سلطان الإمارة فيها .

الأمير محمد بن عبد الرحمن ( ٤ ربيع الآخر ٢٣٨ هـ / ٢٤  
سبتمبر ٨٥٢ م - ٢٩ صفر ٢٧٣ هـ / أوائل أغسطس ٨٨٦ م ) :

لم يكن الأمير محمد أكبر أبناء عبد الرحمن الأوسط ، ولكنه كان أصلحهم  
للأمر برأى أبيه ورجال مملكته ، وقد رشحه عبد الرحمن لولاية العهد ، وأخذ  
رجال الدولة بالانقلاب حوله . فلما توفي عبد الرحمن صار الأمر إليه دون مشقة .

وكان قد جاوز الثلاثين بقليل يوم تولى العرش ، وكان شاباً عاقلاً جداً بعيد  
النظر هادئ الأعصاب ، حتى لملاحظ عنده جموداً عاطفياً يذكرنا بما كان عليه  
جده الأمير عبد الرحمن الناضل

تولى محمد وحاصبه الدولة « عيسى بن شهيد » فأقره على عمله ، وكان  
لعيسى فضل كبير عليه ، وكان كذلك آخر وزراء أبيه ، وقد زاد في تنظيم الوزراء  
وترتيب أعمالهم حتى أصبحوا وزراء يقاربون وزراء اليوم في اختصاص كل  
وزير بفرع من فروع الإدارة . وبعد أن تولى عيسى بن شهيد ، تولى الحجابة  
« عيسى بن الحسن بن أبي عبده » وكان وزيراً جليلاً رغم رثاءة هيئته ، ثم خلفه  
« هاشم بن عبد العزيز » وكان رجلاً أرعن طائشاً شديد الانانية ، وقد كان له أسوء  
الأثر على الدولة وعلى الأمير ، بل إن وعونه كانت سبباً في قيام كثير من الثورات  
والاضطرابات التي انتهت إلى عصر الفتنة الأولى الذي سنتحدث عنه .

ولقد واجهت الأمير محمداً لأول ولايته مشاكل محلية كثيرة في مختلف  
النواحي فشار أهل طليطلة واتجه بنو قسي أصحاب الثغر الأعلى إلى الاستقلال  
بتأحياتهم ، وتحركت جماعات شائرة في الغرب في إقليم « ماردة » . وإن من يقرأ  
حوليات الأندلس أيام الأمير محمد . ليتصور أن معظم النواحي خرجت عن الإدارة  
المركزية . ولكننا ينبغي أن نذكر أن هذه كانت الحال أيضاً في معظم ممالك أوروبا  
النصرانية ، لأن طبيعة الأرض هناك تسهل الثورة على من أرادها ، ثم إن الناس  
الذين تشابوا في هذه البيئات الطبيعية الجبلية لا يعيرون إلى الاستسلام  
للحكومات المركزية ، وخاصة رؤساء الناس في تلك النواحي وهم أمراء الإقطاع ،  
ولهذا فقد كانت الثورات والحروب الداخلية دائمة في هذه البلاد كما كانت دائمة  
في الأندلس . المهم لدينا أن الأمير محمداً كان مدركاً لهذه الحقيقة وكان مستعداً  
دائماً لحماية وحدة بلاده لا يكف عن الخروج في الحملات أو إرسال القواد  
بالجيش.

وقد لقي من أهل طليطلة عناءً شديداً لأن ما فعله معهم جده الحكم ، كان قد قضى على جانب كبير من الثقة بينهم وبين البيت الأموي . لذلك كانت الحرب سجلاً بين أهل طليطلة وجيش قرطبة ، واستطاعت قوات الإمارة أن تحرر نصراً كبيراً عند وادي « سليط » في الجزء الجنوبي من كورة طليطلة سنة ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م ووقع نصر من زعماء الثورة والمحرضين عليها في يد الأمير ، ثم انتهى الصراع بين الجانبين بنصر آخر لقوات الإمارة سنة ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م خارج طليطلة نفسها ، وعلى أثر ذلك استكان البلد وصالح الأمير .

وأقام محمد في طليطلة ينظر في أمور أهلها ، فتبين له أنه لا بد من تحصين كورة طليطلة من الشمال بإنشاء خط من الحصون والاستحكامات يمتد بضوء جبل « الشارات » حتى يصل إلى وادي « إبرو » ، فتقوم هذه الحصون بإيقاف أي تقدم للنصارى جنوباً ، ويشعر أهل طليطلة أنهم لم يعودوا بحاجة إلى مبادنة النصارى أو صالفتهم . وبالفعل أنشأ خط الحصون هذا ، وكانت أول مراكزه مجريط ( مدريد اليوم ) في شمال شرقي طليطلة ، ثم « طلمنكة » وقلعة هنارس ووادي الحجارة ومدينة سالم وقلعة أيوب ثم سرقسطة . وقد سمي هذا الخط كله بواي « إبرة أي وادي الحصون وأهم مسموه مجريط ومدينة سالم وهذه الأخيرة كانت القاعدة العسكرية للإقليم الثغري الأوسط الذي عرف بالثغر الأوسط أما الثغر الشرقي فكان يسمى بالثغر الأيمن وهو منطقة وادي إبرو وعاصمته سرقسطة . وكان هناك ثغر أدنى في الغرب ، وهو استمرار للثغرين الأعلى والأوسط . وأهم مراكزه « قورية وشتنترين » ثم « الأشبونة » وهي قاعدته في المحيط . وكانت هذه المناطق الثغرية الثلاث مناطق حدود يحكمها حكام عسكريون يبدل عمال الكور ، وكانت لها معاملة مالية خاصة ، فلم يكن أهلها يؤدون الاعشار وغيرها من الضرائب بنفس النسب التي كانت تجبى بها في بقية البلاد ، إذ كان يراعى أن أهل هذه الشواحي ينفقون أموالاً كثيرة في الدفاع عن أراضيهم . ثم إنهم كانوا في الغالب قوماً مسلمين . يعاملون من جانب الحكومة برفق شديد . وقد جرت العادة في بلاد الإسلام ، وفي الأندلس خاصة ، بأن يقد إلى هذه الأقاليم المنطوعة والغنياء والزفأاء والمرابطون ليرابطوا على حدود الإسلام حماية لدار الإسلام ، حمية لله والتمسكاً للثواب

وعاد خطر الأرمن (النورمان) يهدد شواطئ الأندلس ، وكان المسلمون قد استعدوا لهم بالأساطيل ، فلم يستطيعوا هذه المرة أن يصيبوا من المسلمين ما كانوا يصيبونه لهما مضى ، فلم يجرؤوا على اقتحام الأشبوية أو إشبيلية . فانقضوا على بلدة صغيرة هي « باجة » في البرتغال الحالية ، وهناك أوقعت بهم قوات الإمارة هزيمة كبيرة ، وبعد ذلك تحولت غزوات النورمان إلى ضربات سريعة على السواحل . وامتدت حتى وصلت الساحل الشرقي لشبه الجزيرة ، وبُست ثامناً من القدرة على القيام بعمل كبير في الأندلس الإسلامي ، فأتجهت إلى إسبانيا النصرانية وتمكنت من الدخول بسفنها في نهر الإيرو ، ووصلت إلى « بنبلونة » عاصمة نهر ( نافار ) ونهبها نهباً ذريعاً وأسرت ملكها « غرسيه » ولم يردوه إلا لقاء فدية كبيرة .

وذلك كانت آخر محاولة قام بها الأرمن ضد الأندلس . إذ تبينوا أن شواطئهم محروسة وأساطيلهم معدة ورجالهم متجهزون ، ولم يعد أحد يسمع عن خطر المجوس على الأندلس بعد ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م .

كذلك قامت حروب كثيرة بين الأندلس ومملكة « نافار وليون » وقد كانتا لخصوما من المسلمين قد اتحدتا وانضم إليهما أحياناً « موسى بن موسى بن قسي » ، صاحب الثغر الأعلى أي سرقسطة . وكان آل قسي في الأصل أسرة إسبانية نصرانية ، اعتنقت الإسلام ونحلت في طاعة المسلمين ، ولكن رجالها ظلوا يتمسكون باستقلالهم المحلي في كل منطقة الثغر الأعلى ، ويبدو أن هذا الاستقلال المحلي كان أمراً تحتّمه الضرورات الجغرافية والتاريخية . وقد قدر أمراء قرطبة هذه الظروف ، فكانوا يكتفون من أمراء الثغر الأعلى بطاعة اسمية وفي أحيان أخرى كانوا يحاولون كسر شوكتهم . وعلى أي حال فلم يكن من الممكن اتباع سياسة أخرى بحال أمراء ثغر بعيد كهذا ، يحيط به الأعداء من الشمال والشرق والغرب ، وقد كان بنو قسي التجيبون ثم بنو هاشم الطويل ، من أكبر أسباب استقرار الأحوال في الثغر الأعلى . فقد قام على رأس هذين البيتين رجال محاربون أشداء ، استطاعوا الصمود للضغط النصراني ومصانعة جيرانهم من النصارى إذا اقتضى الأمر ذلك . وقد أدى ذلك إلى خلافات كثيرة بينهم وبين أمراء قرطبة ، ولكنهم تمكنوا من حماية ثغرهم وأهله ، وتأمينه حتى أيام عبد الرحمن الناصر



عندما تغيرت العلاقات بينهم وبين إمارة قرطبة التي تحولت إلى خلافة ويرجع إلى رجال هذه البيوت الإقطاعية الفضل في تثبيت أركان الإسلام والثقافة العربية في ذلك الإقليم ، فإنه ظل بعيداً عن الثورات الكبرى على قرطبة ورجالها ، وكان من أكثر نواحي الأندلس عروبة وإسلاماً .

وقد انتصر الأمير محمد على مملكتي « شربة » وأشتريس « في كل حروبه معهما بفضل قاداته من أمثال « عيسى بن الحسن بن أبي عبد » و « عباس القرشي » ثم أبناء الأمير محمد : عبد الرحمن والحكم والمختار وكانوا قادة موهوبين . وقد تمكنت الإمارة القرطبية من القضاء على أطماع « أردونيو الأول » ملك أشتريس وليون حتى تولى سنة ٢٥٢ هـ / ٨٦٦ م وخلفه أخوه « ألفونسو الثالث » الملقب بالكبير ، وهو من أعظم ملوك إسبانيا النصرانية . وفي أيامه نقلت عاصمة المملكة إلى مدينة ليون ، وأصبح اسمها مملكة ليون ، ومن أواخر أيام الأمير محمد نجد أن مملكة ليون تصبح منافساً خطراً للإمارة القرطبية .

ولم يمنع الأمير محمد من إيقاف مملكة ليون عند حدّها إلا كثرة الثورات عليه في بلاده . ولم تكن هذه الثورات ناتجة عن ضعف الحكومة أو إهمالها لمواجهة سببها بل سببها اتساع دولة بني أمية ووعورة أرض البلاد ثم قلة العرب وسط الجموع الأخرى من المستعربين والمولدين . وكان الظاهرون من رجال كل ناحية لا يكفون عن معاداة الحكومة والاتجاه إلى الاستقلال ، وربما كان أسلم السياسات هو أن تسير إمارة قرطبة على نفس النظام الذي كانت تسير عليه ممالك أوروبا النصرانية في ذلك العصر ، وهو الاعتراف بأعراء الإقطاع في نواحيهم ، في مقابل خضوعهم الرسمي للدولة وإداء مال معين وتقديم قوات محاربة وقت الحاجة . ولكن مفهوم الدولة عند بني أمية ورجالهم لم يكن يقلل هذا الوضع ، ثم إن وجود جماعات كثيرة من العرب في الشرق والجنوب والعرب ، كان عقبة في سبيل إقرار نظام كهذا ، فقد كان للعرب في الكور المجنّدة خاصة - امتيازات كثيرة . فإذا قبلت الدولة نظام الإقطاع ، فقد كان أولئك العرب الذين سيكثرون أصحاب الإقطاعيات الأموال التي كانوا يجلبونها من الناس بحسب نظام الكور المجنّدة . ولم يكن هذا من صالحهم لأنهم كانوا يميلون للعوضي أولاً ، ثم إنهم كانوا بعيدين جداً عن إدراك فكرة الدولة وفضائل الخضوع للنظام . ومن الغريب

أن أولئك العرب الذين استقروا في نواحي « تدمير » وهي « مرسية » العربية ، وكذلك نواحي غرناطة وبعض كور الجنوب ظلوا متجمعين في مراكزهم يعيشون حياتهم العربية في مواطنهم الأولى ، يقضون أوقاتهم في مجال الغروسية وقول الشعر والحرب فيما بين بعضهم وبعض ، مما كان يخرب الأرياف ويؤذي الزراعات وكان معظمهم من المولدين والمستعربين . وقد بلغ من قصر نظر رؤسائهم أنه كان لا يفتيهم مضر الإمارة مع أنها كانت درعهم الواقى وقاعدة قواتهم . وسنرى ذلك بوضوح عندما تقوم الفتنة

وقد تعرضت الإمارة في النواحي الغربية في بلادها من « كور ماردة وبطليوس والأشبونة » وبقية ما يعرف اليوم بالبرتغال . لخطر من نوع آخر ، فهناك كانت تقيم جماعات كبيرة من المولدين الذين احتفظوا بشخصيتهم المحلية وبروابطهم بأصولهم الإسبانية . وأرض العرب هذه كانت مفازات ( أى أرض قاحلة ) وأراضى جبلية يصعب على الإمارة السيطرة عليها سيطرة تامة . وكانت الدولة تلجأ إلى العنف ، والعنف يولد العنف . ومن أمثلة ذلك تصرف الإمارة حيال طائفة من زعماء أهل الغرب الأندلسي كان مركزهم مدينة ماردة ويتجمعهم مسلم مؤلف من أصلي جليقي يسمى « عبد الرحمن بن مروان الجليقي » . وقد طالبوا الحكومة بأن تسمح لهم بشيء من الاستقلال في ناحيتهم ، وبدلاً من الموافقة نجد الأمير محمداً يخرج جيوشه إلى ماردة سنة ٢٥٤ هـ / ٨٦٨ م ، ويستولى على ذلك البلد ويأخذ كبار الثائرين معه ويسكنهم في قرطبة ليطمئن إلى ولائهم .

ولكن الوزير « هاشم بن عبد العزيز » ، أساء التصرف مع « عبد الرحمن بن مروان الجليقي » وأهانه ، فغضب من قرطبة إلى ماردة ثم إلى بطليوس ، وعيناً حاولت الإمارة إخضاعه دون جدوى ، فتحالف مع الفوشو الثالث ملك ليون ، وأرسل محمداً لحربه سنة ٢٦٢ هـ / ٨٧٦ م ابنه « المنذر » ومعه الوزير « هاشم ابن عبد العزيز » . وكان هاشم رجلاً طامشاً عاجزاً عن مواجعة عبد الرحمن بن مروان الجليقي وحليفه « سعدون السرتبافي » . وكانت النتيجة هزيمة كبيرة لجيوش الإمارة في شوال ٢٦٢ هـ / يونيو ٨٧٦ م ووقوع هاشم بن عبد العزيز في أسر السرتبافي فأسلمه لعبد الرحمن الجليقي . وقد افتداه الأمير محمد بمائة وخمسين ألف دينار ، وبعد حروب طويلة انتهى الأمر إلى الاتفاق مع عبد الرحمن الجليقي على إقراره على بطليوس ونواحيها ويكون في رجال الإمارة وحلفائها

## ثورة عمر بن حفصون :

ولكن أكبر الثورات الداخلية التي نتجت عن إصرار الحكومة المركزية على بسط سلطانها المباشر على النواحي ، ورفضها السماح بنصيب كبير من الاستقلال لأهل النواحي ، فراه في ثورة « عمر بن حفصون » في ولاية « زية » الجنوبية وهي ما يسمى الآن بمحافظة « مالقة » .

ويذهب مؤرخو إسبانيا إلى أن ثورة عمر بن حفصون تمثل نزوع الإنسان إلى التخلص من سلطان العرب . وهم يدرسونها على أنها جزء من التواريخ الإنسانية العام . وذلك خطأ من كل ناحية ، فعمر بن حفصون أندلسي مولداً ونشأة وعاش معظم حياته مسلماً ، وأسباب ثورته تتصل كلها بنظام الحكم الأموي ، ووجود جماعات كبيرة من العرب في كور « تدمير والمرية وغرناطة » ، وسوء تصرف أولئك العرب مع الزراع وأهل القرى في تلك النواحي ، ومعظمهم مولدون ومستعربون . وهو لم ينزع قط إلى الانفصال عن الأندلس إلا عندما تدهورت ثورته وأصبح يلتبس النجاة من الهلاك المحتوم بأي طريق . وهذا لا يمنع من القول أنها كانت ثورة خطيرة وأنها هزت كيان الدولة الأندلسية هزاً عنيفاً . وقد كان أمراً محزناً في أيام عمر بن حفصون . ولكنه كان مفيداً فيما بعد . لأن هذه الثورات الشعبية تكشف عن الكثير من العيوب الكامنة وتحفز أولى الأمر على تلafiها .

والسبب المباشر لقيام هذه الثورة هو تشدد عامل « زية » في جباية الأموال المتأخرة . أما السبب الحقيقي فهو أن أهل هذه النواحي الحطية لم يظفروا قط بالعناية الكافية من جانب الحكومة المركزية . فامتلات نفوسهم بأسباب العصب والشكوى وأصبحوا حطباء لئيران أية ثورة تقوم

وقد بدأ تمرد أولئك القوم في سنة ٢٦٥ هـ / ٨٧٨ م وحاول الأمير محمد أن يلعن لئيرانها بالقوة فلم يفلح . وما ظهر عمر بن حفصون ، وأخذ يترجم مطالب أولئك الناس أمام الحكومة المركزية . وهو من أصل إسباني مسيحي . إذن جده « القونس النسي » ، وجدته الرابع هو الذي اعتنق الإسلام ، فنشأ هو في « زية » رجلاً عنيفاً متعرباً ، فجمع طاقة من الأشرار ونزل في مكان منبع جبل « بيشتر » شمال شرقي جبال « رنده » ، واعتصم في ذلك الجبل وأخذ يناوي قوات الإمارة . وهذا أرسل محمد وزيره هاشم بن عبد العزيز وكان قد أدخل سبيله من الأسر ،

فاستطاع استئصال عمر بن حفصون من حصنه وضمه إلى ضباط جيش الإمارة ،  
وفعلاً ابتكر في حملات قامت بها في الشمال . ولكن ابن حفصون كان متعزداً  
بطبعه ، ثم إن هاشم بن عبد العزيز أساء إليه فترك قرطبة مرة أخرى وعاد إلى  
العصيان سنة ٢٧١ هـ / ٨٨٤ م .

وسار « المنذر بن محمد » لمقاتلته وضيق عليه ، فلما كان على وشك الاستيلاء  
على حصنه الأخير بلغه الخبر بموت أبيه الأمير محمد ، فارتد المنذر إلى قرطبة في  
٢٩ صفر ٢٧٣ هـ / أوائل أغسطس ٨٨٦ م فتلفس مخنق عمر بن حفصون بعد  
أن كاد أمره يتبدد .

ونستطرد مع تاريخ حركة عمر بن حفصون فنقول إن الأمير المنذر خلف أباه  
معجداً ، وكان قارساً نخباً وقائداً قادراً ، فسار لمحاربة ابن حفصون ، وكان هذا  
قد انتهز الفرصة ووسع سلطانه حتى شمل منطقة « زِيَّة » بأكملها ، وأخذ يتكلم  
في ضرورة الشورى على السلطة للتخلص من الضرائب والظلم . ويذهب غشاً من  
المؤرخين إلى أن عمر بن حفصون دعا إلى تحرير البلاد والتخلص من الحكم  
العربي . والحقيقة أن عمر بن حفصون كان مسلماً ، وكذلك كان كل رجاله ، وكان  
رجلاً تربى في ظلال الإسلام . فبؤثر على سوء الإدارة وطامع إلى السلطان ولكنه  
لم يقصد أبداً الارتداد بإسبانيا إلى النصرانية ، فهو في ثورته لم يحاول الاتصال  
ببنصاري الشمال ، بل كتب إلى الخليفة العباسي يطلب منه أن يولييه حكم البلاد  
التي دخلت في طاعته ، وكتب « بني رستم » أهل « تاهرت » ، وكذلك كتب إلى  
« بني الأغلب » يطلب مساعدتهم ولو أنه لقي من قرطبة بعض التسامح ، فقد كان  
من الممكن أن يعود إلى الطاعة آخر الأمر .

وقد صمم المنذر على القضاء على الثائر ، فسار إليه وجاصره في الجبل الذي  
اعتمس به حتى أرغمه على التسليم ، بعد حكم لم يدم أكثر من سنتين في صفر  
٢٧٥ هـ / يونية ٨٨٨ م وخلفه أخوه عبد الله بن محمد .

### الأمير عبد الله :

وكان الأمير عبد الله يختلف عن أخيه المنذر وأبيه محمد ، فقد كان بارعاً في  
حبك المؤامرات ، ولم يكن واسع الذكاء ولا بعيد التصور ، ولكن فضيلته الكبرى

كانت الثبات ، فإن هذا الرجل لم يكن ليفقد صوابه أو هدوءه أبداً رغماً عن تواتر الثورات عليه .

ولم يستطع الأمير عبد الله القضاء على ثورة ابن حفصون ، فاستدأه إلى كل نواحي جنوب الأندلس ، وخاف العرب على أنفسهم ، فتصدوا لحربه وتزعمهم رجال من أمثال « سوار بن حمدون القيسى المحاربي وسعيد بن جردى ومحمد ابن أضحى الهمداني » في كورة غرناطة . وكذلك ثار عرب إشبيلية ، بقيادة « كريب ابن خلدون وإبراهيم بن حجاج » ، وطال النزاع بين أفراد هذين البيتين ، ولم يبق في طاعة الأمير عبد الله إلا قرطبة وأحوازها .

ولم تنتج الإمارة القرطبية من الزوال إلا بفضل قائد عظيم هو « أبو العباس أحمد بن أبي عبدة » فإن هذا العسكري الموهوب ، استمر نحو ثلاثين سنة في ميادين الحروب منافعاً عن الجماعة ووحدة الأندلس وبفضل هذا القائد وابن أخ له هو « عبد الله محمد بن أبي عبدة » ، استطاع الأمير عبد الله إيقاع مزينة قاصعة بعمر بن حفصون في ٢ صفر ٢٧٨ هـ / ١٦ مايو ٨٩١ م . واستولى بعدها على حصن « بلى » من أحسن معاقل ابن حفصون قرب مدينة « نبرة » ، وقد كانت هذه المعركة هي الخطوة الأولى نحو القضاء على عمر بن حفصون . فقد طارده جند الإمارة وحاصروه في معقله الأكبر وهو « ببشر » ، ولكنهم لم يستطيعوا القضاء عليه لتعدد الثورات . وعندما ثوى الأمير عبد الله في أول ربيع الأول ٣٠٠ هـ / أكتوبر ٩١٢ م كانت ثورة عمر بن حفصون ومعظم الثائرين قد ومنت ، وتمهد الطريق لتسليمهم للإدارة القرطبية . والفضل في ذلك راجع لهذا الأمير عبد الله الذي استطاع رغم وجود النقص الكثير في أخلاقه ، أن يجتاز بالإمارة القرطبية المحنة وينجو بها من الأخطار .

وقد أمضى الأمير عبد الله حكمه كله في حرب متصلة مع أولئك الثائرين الذين تكاثروا في كل ناحية وازدادت جراتهم على الإمارة ، وتسمى هذه الفترة كلها « بفترة الفتنة الأولى » ، وتحتد من أواخر أيام الأمير محمد إلى أوائل أيام عبد الرحمن الناصر ، وتعددت مراحلها وأدوارها ، ففي دورها الأول كانت ثورة من بعض أهل النواحي على ما سموه ظلم الإدارة القرطبية وإجحافها في جباية

الأموال ، وليس ذلك يصحیح . ونرتبط هذه الدعوة بأسماء « عبد الرحمن بن مروان الجليفي » في الغرب ، وعمر بن حفصون « في الجنوب » .

وعندما طالبت الحرب وأحس العرب في نواحي تدمير وغرناطة وإشبيلية بضعف الإمارة . بادروا هم الآخرون إلى الثورة على الإمارة وحلّوها طاعتها . وقال شعراؤهم شعراً يملأون فيه الإمارة بأن تترك الأندلس لهم . واستطالوا على المزارعين وأهل القرى وظلموهم فجمع من بين هؤلاء ثوار انضموا إلى عمر بن حفصون ، ودارت الحرب بين ابن حفصون والعرب ، وكان النصر عليهم لأبن حفصون حتى وقع في أسرهم قاتلهم « سوار بن حمدون المصاري » . واشتدت الفتنة بين بني حجاج وبني خلدون في إشبيلية واشتعلت الأندلس كلها ناراً كما يقول ابن عذاري . وهذا هو الدور الثاني للفتنة . وقد واجهها الأمير عبد الله بشجاعة ومعه قواده ، وقد ذكرنا اثنين منهما . وبضيف إليهما هنا « محمد بن عبد القافر » الذي استشهد في حربه مع بني حجاج . ولكنه جرح فوهم واستمر الأمير على ذلك حتى استولى رجال الأمير عبد الله على حصن « بلي » . فانسحرت شوكة عمر بن حفصون ونفذ هيئته وتخلّى الناس عنه واعتصم بمعقله الحصين في بيشتر حتى توفي الأمير عبد الله سنة ٢٠٠هـ / ٩١٢ م .

ومن حسن الحظ أن الذي خلقه كان « عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله » . وكان الأمير عبد الله قد قتل ابنه محمداً لاتهامه بمؤامرة . وذلك قبل مولد عبد الرحمن بأسابيع قليلة . وقد تحول ندم الأمير على قتله ابنه إلى عطف على حفيده ، ولذا فقد أحب عبد الرحمن وأسكنه معه في القصر وأشرف على تربيته وقدمه على سائر أبنائه . ولم يكن أحد من الباقيين من أبناء عبد الله يظن أن العرش يمكن أن يصير إلى عبد الرحمن فسكنوا عنه ، وكان هو من جانيه شاباً ذكياً بعيد النظر فكان يقوم بالوساطة بين الأمراء ورجال الدولة وجده العفيف الحيل . فأحبه الناس ووسطوه في حاجاتهم فنشأ محبباً من الجميع مقرباً إلى جده فلما ثوى الجد ، أجمع أهل القصر على ميايعته . ولم يختلف عليه أحد ، لأن أحوال الإدارة كانت من السوء بحيث لم يكن فيها مطمع لأحد . وهكذا أصبح عبد الرحمن ابن محمد المعروف بالثالث أو الناصر أمير قرطبة دون صعوبة في ٢٠٠هـ / ٩١٢ م ، وبدأ في تاريخ الأندلس العصر الذهبي وهو عصر الازدهار الأكبر

## عبد الرحمن الناصر وميلاد الخلافة الأموية الأندلسية والعصر الذهبي لبنى أمية في الأندلس

بدأ عبد الرحمن الناصر حكمه في ربيع الأول سنة ٣٠٠هـ / ٩١٢ م ، وكان كما قلنا في الثانية والعشرين من عمره ، وقد اتفق الجميع على البيعة له بنفس راضية مع صغر سنه ومع وجود الكثيرين من أعمامه الذين كان من الممكن أن يتنافسوه ويسببوا له المتاعب - ولكن عبد الرحمن عرف كما ذكرنا ، كيف يكسب محبة الناس جميعاً بفضل أخلاقه الجميلة ، وما كان يقوم به من الرساسة للناس عند جده عبد الله الذي اشتهر بالعنف واليخل حتى نفر منه الناس ولم يبق قريباً منه إلا حفيده عبد الرحمن هذا ، فهو الذي يتوسط بينه وبين أهل الدولة والأمراء فيكسب بذلك محبتهم وولاءهم .

وهكذا أصبح عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الذي سيشتهر باسم عبد الرحمن الناصر أميراً للأندلس في أكتوبر ٩١٢ م . وكان الواجب المنقضى على عاتقه عسكرياً ثديلاً ، فقد رأينا ما تعرضت له الإمارة القرطبية من ثورات في كل ناحية حتى أصبح منصب الأمير منصباً لا يحسد عليه صاحبه ، ويقال إن الذي جعل أعمام عبد الرحمن ينصرفون عن مناصواته ومنافسته هو شعورهم بأن منصب الأمير كان منصباً مثقلاً بالمتاعب والأخطار والمسئوليات - وأنه لا خير فيه ولهذا فقد تركوه دون صعوبة لهذا الشاب .

ولكن هذا الشاب اثبت أن الإنسان يستطيع بالذكاء وحسن الخلق والتدبير التسليم أن يعيد بناء دولة زُغى أمرها ويصعد بها إلى الأوج معتدداً على شجاعته وجسالة ، وهنا ينبغي علينا أن لا ننسى فضل الأمير عبد الله فيما سيصل إليه حفيده ، فهو صاحب الفضل في تحطيم قوى الثأرين وخاصة عمر بن حفصون ، ولولا ثبات الأمير عبد الله وإصراره على التمسك بحقوق الإمارة ومطالبة كل

حكام النواحي بما في ذلك الثائرين بالطاعة وكذلك تدبيره أمور الدولة بالقليل من المال الذي كان يصل إليه ، لولا ذلك ما استطاع عبد الرحمن أن يعيد الوحدة إلى البلاد ويجمع قواها ويسير بها في طريق القوة والازدهار .

كذلك علينا أن نذكر فضل المخلصين من رجال البيوت الموازية الذين وقفوا إلى جانب الإمارة يشدون أزرها بالرأى السديد والتعاون المثمر والإخلاص الثابت فمكنوا لها من الثبات وسط العواصف ولا ننسى هنا فضل القائد «أبى العباس أحمد بن أبى عبده» الذى قضى أكثر من ثلاثين سنة في ميادين الكفاح مناضحاً عن الإمارة وإليه يرجع الفضل في كسب نصر يولية على «عمر بن حفصون» الذى كسر ظهره ومهد الطريق للقضاء عليه .

### الوضع العام داخل الدولة عند ولاية عبد الرحمن الناصر :

رأينا كيف نشبت ثورة عمر بن حفصون وكيف تقاوم أمرها حتى اشاعت الفوضى في جنوب الأندلس كله ، فخرجت معظم نواحيه عن طاعة قرطبة ، وكيف تمكن الأمير عبد الله بفضل ثباته من الصمود لذلك الرجل وإلحاق الهزيمة الكبيرة به عند «يلى» ، ولكن ذلك النصر كسب لا بد أن تتبعه سياسة صارمة مع عمر بن حفصون حتى لا يستعيد قوته وينشر أذاه كما كان الحال قبله .

وقد كان عمر بن حفصون قد انتهز فرصة موت الأمير عبد الله وحاول أن يعيد صلاته بأمثاله من الثائرين ، ولكن عبد الرحمن تنبه لأمره وعرف أن أول ما ينبغي عليه هو مواصلة الكفاح مع هذا الثائر وأحلافه ومن جروا في طريق الفتنة مثله

وقد بدأ عبد الرحمن بإرسال جيش إلى قلعة كركى Caracul في جبال المعدن Sierra Morena شمالي قرطبة لمواجهة ثائر آخر كان قد أراك أن يحذو حذو ابن حفصون وهو «الفتح بن زنون» وهو جد أسرة «بنى زنون» التى سيشتهر أمرها في عصر الطوائف ، وكان قد ثار بنواحي «شنتمرية Santaver» وكان يقود الجيش القائد عباس بن عبد العزيز القرشى وعند «كركى» لقي الفتح ابن زنون وانزل به هزيمة قاصمة واضطره إلى اللجوء إلى قلعة أقليمش وكذلك هزم



في تلك الحملة أحد رؤساء الثائرين وهو « محمد بن أرنبوش » فكان لهذا النصر الذي لقيته جيوش عبد الرحمن في صدر حكمه أثر بعيد في إخماد الثائرين عليه

وفي جمادى الأولى سنة ٣٠٠ هـ / يناير ٩١٢ م - سبّغ عبد الرحمن جيشاً قوياً يقوده القائد بدر بن أحمد ، فاسترجع مدينة « أستجة » التي كان عمر بن حفصون قد ضاعها إليه ، وبعد دخول بدر بن أحمد ذلك البلد هدم أسوارها حتى سواها بالأرض ، وهدم القنطرة التي كانت تؤدى إليها على نهر « شتيل » - هانقطع رجاء أهلها في الثورة .

وبعد ذلك بقليل دل عبد الرحمن على شخصيته وطريقته في العمل ، فاعد بعناية فائقة جيشاً ضخماً لكي يسير به نحو عمر بن حفصون ، وقد نل بعد ذلك الجيش شهوراً طويلة ، فلم يدع شيئاً مما يلزم للجيش إلا اهتم به وتخبر فرسانه واحداً واحداً وخرج من قرطبة في شعبان ٣٠٠ هـ / مارس ٩١٣ م ونجح الجيش وعلى رأسه عبد الرحمن نحو « أبدة » حيث انضم إليه أحد القواد المحلصين للإمارة ، واتجه الجيش إلى « مرطش » ثم قصر « مألقة » وعسكر في قلب المنطقة التي ظن ابن حفصون أنها معقله ، وهنا رغب أنصاره من أمثال « سعيد بن هذيل المولد » صاحب حصن « مونتلون » في الاستسلام للناصر فأجيب إلى ما طلب ووثق له بأمانه ، ثم لحق به ثائر آخر آمن كان يعتز به ابن حفصون وهو « عبد الله بن الشاليه » فحصل على الأمان وكذلك فعل ابن عضاف « الأزدي الثائر بخصر « فتيشه » على نهر يسمى وادي « بنى عبد الله » Guadalén . ثم فدعاه عبد الرحمن إلى الدخول في طاعته ففعل ومنحه عبد الرحمن الأمان ، ثم استولى عبد الرحمن على وادي « أش Guadix » ووقع في يده في ذلك البلد مقر من حلفاء عمر بن حفصون ممن كانوا ثائرين في ولاية غرناطة . ومن هناك وصل عبد الرحمن بجيوشه إلى ساحل البحر عند « شلوبينية » وعاد بعد ذلك إلى قرطبة ، وفي طريقه إليها استولى على بلدين ثائرين هما شنت إستين San Esteban وبنه فراطة Pena - Forata وعاد إلى عاصمته في عيد الأضحى سنة ٣٠٠ هـ - يوليو ٩١٢ م بعد أن ألقى الرعب في نفوس الثائرين واستولى - فيما يقول المؤرخون - على سبعين حصناً من حصونهم

وفي العام التالي ٣٠١ هـ / ٩١٤ م سار عبد الرحمن إلى جبال « رندة » وفيها

المعقل الرئيسي لابن حفصون في « بيشتر Bobastro » وفي طريقه استولى على عدد من الحصون المؤدية إلى ذلك الحصن ، ووصل عبد الرحمن إلى مدينة الجزيرة الخضراء وأعاد إلى الطاعة في الطريق « شنونة ومورور » ثم أتجه نحو « قمرونة » .

وكانت نية عبد الرحمن هذه المرة معقودة على كسر شوكة بني الحجاج وبني خلدون الذين كانوا قد استبدوا بأمر إشبيلية وإقليمها ، وكانوا يعاونون ابن حفصون على تماديه في الفساد . وكان عبد الرحمن يرمى إلى حرمان ابن حفصون من حلفائه حتى يستسلم من نفسه دون حرب شديدة ، وأرسل عبد الرحمن قائده « القاسم بن الوليد » نحو إشبيلية مخاف « أحمد بن مسعدة » زعيم بني الحجاج من مغية التمادي في الضلال فأبدى رغبته في الاستسلام ، وأرسل عبد الرحمن قائده « بدر بن أحمد » فنزل البلاد في جمادى الأولى سنة ٢٠١ هـ / ديسمبر ٩١٤ م . وحاول « محمد بن إبراهيم بن الحجاج » زعيم بني حجاج أن يحصل لبيته على شروط قبل أن يراجع عبد الرحمن ، ولكن هذا أفهمه أنه لا يقبل إلا الاستسلام دون شروط . وبالفعل تم ذلك ونزل زعيم بني الحجاج على عهد عبد الرحمن فوق له بما وعده به . وهكذا عاد غرب الأندلس إلى الطاعة بعد طول خروج .

وفي طريق عودة عبد الرحمن ورجاله حاصروا قلعة « قمرونة » وكان فيها شائر من أنصار عمر بن حفصون يسمى « حبيب بن عمر بن سواره » ، وترك رجاله يحاصرون تلك وعاد إلى قرطبة ولم يلبث حبيب أن استسلم وأخذ إلى قرطبة ، على الأمان .

وكان عبد الرحمن يفعل ذلك وفي ذهنه القضاء على رأس الفتنة كلها ، وهو عمر بن حفصون فأرسل جيوشه فاحتلت « حيان » التي كان أصحابها يدفعون الإتاوة لابن حفصون وكذلك أرسل قوة إلى « البيرة » فأعادتها إلى الطاعة . وكان الخفاق يضيق حول ابن حفصون شيئاً فشيئاً ، وطس في أخريات أيامه أنه إذا ارتد إلى النصرانية كسب ولاء المستعربين في الأندلس ، وكانوا كثيرين جداً ، وكانوا غير راضين عن الإمارة التي تركتهم قريسة لعدوان ابن حفصون ومن شابهه من الثائرين من العرب في إقليم « البيرة » وهي غرناطة ، ولكن هذا الارتداد أضرب بابن

حفصون ولم ينفعه في شيء ، فقد انصرف عنه الكثيرون من رجال المسلمين والنصارى ، بل إن ابناً واحداً من أبنائه وبنياً قَليلاً فعل أبيهما في التنصر ، وظل الأبنان الأخران على الإسلام . وفي هذه الظروف واليأس الذي يحيط بذلك الثائر العنيد - نزل به الموت في قلعة « ببشتر » ودفن في كنيستها في ربيع الأول سنة ٣٠٥ هـ / سبتمبر ٩١٧ م ، بعد أن قاد أخطر ثورة تعرضت لها إمارة قرطبة ودامت نحو ٣٠ سنة ، وفي أثناءها تقلّب الرجل من ناحية لأخرى حتى يقال إنه خطب لبني الأغلب أصحاب القيروان ، وحاول الاتصال « ببني رستم » أصحاب تاهرت ، فلم يوفق معهم إلى شيء .

وكان لخبر موت ابن حفصون رجّة كبرى في الأندلس كله ، فقد أيقن بقية الثائرين أنه لا مفر لهم من العودة إلى طاعة قرطبة خاصة وأن عبد الرحمن كان يتلقى من يطلبون الأمان بالإكرام ويستنزلهم في حصونهم ويقي لهم بسوعد ، فأخذ الكثيرون من الثائرين يعودون إلى الطاعة على هذه الشروط .

وبعد أن ثوَّق عمر بن حفصون خلفه ابنه « جعفر » وكان قد تنصّر منه هو وأخته « أرجنتيا » في حين أن أبناءه الثلاثة الباقين وهم « سليمان » وعبد الرحمن وحفص « ظلوا على الإسلام ، وتولى جعفر مقاومة عبد الرحمن الثالث ، فلم يمهله هذا وسار نحوه في ذي الحجة ٣٠٦ هـ / مايو ٩١٩ م ، وقد احتفل في إعداد هذه الحملة واحتشد على طريقته النسي سار عليها ، واحتل عبد الرحمن بلدة شذونة ومنها اتجه إلى جبال رندة ليحاصر جعفر بن حفصون . واستولى في الطريق على حصن متبع قرب بلدة « البلدة » وكان جعفر قد وضع هناك حامية تنبّه للخطر . وفي أواخر ذي الحجة ٣٠٦ هـ / أوائل يونيو ٩١٩ م استولى عبد الرحمن على كل الحصون الصغيرة المحيطة ببشتر ، ثم ترك حامية تشدد الحصار على الجبل وعاد إلى قرطبة ، وطلب حفص بن عمر بن حفصون هدنة وأرسل رهائن ضماً لوفائه ، وبعد قليل استسلم حفص وأخذ إلى قرطبة وحاول أخوه جعفر أن يواصل المقاومة ولكن جعفر قتل في جمادى الآخرة ٣٠٨ هـ / أكتوبر ٩٢٠ م ، وحاول أخوه سليمان قيادة الثورة ولكن أمرها كان قد ورن ، وتمكن رجال عبد الرحمن من الاستيلاء على معظم الحصون النائية في كورتى ، رندة وألبيرة « وأخيراً وفي سنة ٣٠٩ هـ / ٩٢١ م سار عبد الرحمن بنفسه واستولى على ببشتر وحول كنيستها إلى مسجد ، وبذلك انتهى أمر هذا الثائر العنيد الذي ظل هو وأنصاره يقلقون بال الإمارة سنوات طويلة كما رأينا

وقد فاتتنا أن نذكر في سياق هذا الصراع المير بين عبد الرحمن الثالث وحصوم الإمارة ، أن قائده الكبير « أبا العباس أحمد بن أبي عبده » كان قد لقي الشهادة في صراع مع الثائرين في قلعة تسمى « مونت روبيو » فيما بين المرية وغرباطة ، وهكذا انتهت حياة ذلك القائد المجيد الذي يرجع إليه الفضل في إنقاذ الإمارة الأندلسية من الانهيار بفضل ثباته وبسالته وإخلاصه لقضية وحدة الأندلس .

وقد أنفق عبد الرحمن بعد ذلك سنوات في تهدئة جنوبي الأندلس والقضاء على الثائرين فيه ، حتى عادت البلاد كلها في حوض الوادي الكبير وجنوبيه إلى طاعة الإمارة ، وقد اجتهد عبد الرحمن في إصلاح ما أفسده الثائرون . فأعاد تنظيم البلاد وأكثر من بناء المساجد ، وفي سنة ٣١٤ هـ / ٩٢٦ م أي بعد أربع عشرة سنة من الحرب المستمرة عاد السلام فأقل جيوبي بلاد الأندلس بفضل هذا الجهد المتواصل والدقة في العمل ومثانة الخلق التي دُلَّ عليها عبد الرحمن خلال ما انقضى في حكمه إلى الآن .

### عبد الرحمن والثائرون في غرب الأندلس

#### وبطليوس والثغر الأعلى الأندلسي :

وقد قضى عبد الرحمن بعد ذلك أربع سنوات أخرى في صراع مريب مع الثائرين على الإمارة في غرب الأندلس وفي إقليم طليطلة ، ذلك أن قرب الأندلس وخاصة في نواحي «ماردة وبطليوس» ، كان قد قام فيه عدد كبير من الثوار أكبرهم رجل من المستعربين يسمى « عبد الرحمن بن مروان الجليقي » وكان في أول أمره من ضباط جيش الإمارة ثم خلع طاعتها وتحصن في ماردة ، واجتمع إليه عدد من الدعار والخارجين على القانون ، وقوي أمره ومد يده وحالف ملوك قشتالة واستولى على بطليوس وأفسد الغرب الأندلسي كله ، وكان لا بد للقضاء على ذلك الثائر ومن انضم إليه من جهد يعادل ما بذله عبد الرحمن في القضاء على ثورة عسر بن حفصون وبني الحجاج وبني خلدون في إشبيلية ، بل إن عبد الرحمن بن مروان الجليقي كان أمره أصعب ، لأنه كان على صلة بأهل طليطلة ولم تكن طاعتهم خالصة للإمارة ، وكذلك كان يستعين بملوك قشتالة .

ولنضيف إلى ذلك أن الثغر الأعلى الأندلسي وهو حوض نهر الإبرو وقواعده

الكبرى مثل « سرقسطة وطليلة وشقة » ظلت في طاعة الإمارة القرطبية ، ولكن زعماء كانوا يتصرفون بحسب ما تمليه عليهم مصالحهم فهم تارة مع الإمارة وتارة عليها

وقد وجه عبد الرحمن قواه كلها أول الأمر نحو بطليوس للقضاء على ثورة عبد الرحمن بن مروان الجليقي وظل يتابع الحملات عليه ، وفي أثناء ذلك استولت قوات عبد الرحمن على معظم حصون النائرين المواليين للجليقي حتى طامع كل الغرب الأندلسي حتى « شلب وأكشونية وشنترية الغرب » لعبد الرحمن ثم اتجه بعد ذلك نحو عبد الرحمن بن مروان الجليقي وحاصره حصاراً طويلاً حتى ألقى بيد الطاعة . وما كاد عبد الرحمن يعود إلى قرطبة سنة ٢١٨ هـ / ٩٢٠ م حتى استسلمت بطليوس وكل ما كان تابعاً لعبد الرحمن بن مروان الجليقي وأهل بيته وكبار أنصاره لقرطبة ، على أمان وتوسعة وتكرمة . وهناك اندرجوا في جملة السكان وانتهى أمر ثورة الغرب ، وبقي أمر طليطة التي طال العهد بخروجها على الطاعة وتحالفها مع ملوك قشتالة واستنادها إلى تأييد « بني قُسي » النائرين في « لاردة » وبعض نواحي الثغر الأعلى ، وكان بنو قُسي أسرة بشكتسية الأصل جدّها يسمى « فرتون » فدخل في الإسلام وتركهم المسلمون على ضياعهم وإقطاعاتهم في الشمال ، وصارت رياستهم في آخر الأمر لبيت بني قُسي ، وهم أحفاد فرتون وقد تولى رياستهم في عهد عبد الرحمن زعيمان قويان ، هما « المطرف بن لب بن موسى القسوي » وابن عمه « محمد بن إسماعيل بن موسى » أما طليطة فقد تزعمها رجل من رجالها يسمى « لب بن طريشة » وكان حليفاً للملك قشتالة .

وفي سنة ٣٠٨ هـ / ٩٢٠ م شرع عبد الرحمن في معالجة أمر الشمال النائري . فقاد الحملة الكبيرة التي تسمى في النصوص باسم « غزوة مويش » واتجه أول الأمر إلى قرطبة ، فسارع « لب بن طريشة » وبذل الطاعة لعبد الرحمن ولكنها كانت طاعة على دخن ، وبعد وفاة لب بن طريشة تولى قيادة طليطة « ثعلبة بن محمد بن عبد الوارث » .

وكان ثعلبة قائداً خبيثاً واسع الجيلة ، قبدأ عبد الرحمن بجوارل إقناعه بالانحسار إلى الطاعة . فردّ ردّاً خشناً ، ولم يجد عبد الرحمن إلا اللجوء إلى القوة

فأرسل في سنة ٣١٨ هـ / ٩٣٠ م جيشاً بقره الوزير « سعيد بن منذر » حاصر طليطلة ولحق به عبد الرحمن نفسه فعسكر قرب حصن « مورة » على بعد ٣٠ كم من طليطلة . ومن هناك أُنذِرُ ثائراً من أنصار ثعلبة يسمى « مطرف بن عبد الرحمن بن حبيب » ثم استولى على قلعة حصينة كانت تحرس الطريق المؤدى إلى طليطلة . وهناك ترك حامية وعاد إلى قرطبة بعد أن استسلم له أصحاب حصن « الأمين وقنالش » وبدأ حصار طليطلة ، فاستعان أهلها بذلك ليون « راميرو الثاني » الذي تسميه مراجعنا « راميير » وحاول ذلك الملك معاونة طليطلة فلم يستطع واشتد الحصار حولها حتى عاد عبد الرحمن مرة أخرى على رأس جيش كبير في رجب ٣٢٠ هـ / يوليو ٩٣٢ م ، وعندما ضرب فساجيطة حولها أرسل إليه أهلها يطلبون المؤن إذ كانت مؤنهم قد نفدت وعرضوا التسليم ، وفي شعبان ٣٢٠ هـ / أغسطس ٩٣٢ م دخل عبد الرحمن العاصمة القوطية ، وخضعت له كل بلاد طليطلة . وبهذه المناسبة أقيم إغزاز عام احتمالاً لتلك المناسبة ، والإغزاز هو أن يفتن كل من في سن الختان من صبيان البلد على نفقة الأمير وتقام الاحتفالات بذلك شكراً لله

وهكذا نرى كيف استطاع هذا الرجل النفذ ، عبد الرحمن بن محمد الناصر بعد اثنتي عشرة سنة من الجهد والكفاح ، إعادة الوحدة إلى بلاده ولم يصل إلى ذلك عن طريق القوة وحدها بل عن طريق الأخلاق القويمة ، كذلك فإن الناس ما كانوا يستسلموا له إلا لأنهم كانوا يعلمون أنهم يستسلمون لرجل وفي ، يعرف حقوقهم ويحترم كلمته معهم ، ويعرفون أنه لا سبيل إلى الحياة معه إلا بالدخول في طاعته والاستئمان له .

بقى بعد ذلك الثغر الأعلى الأندلسي . وقد أشرنا إلى حال بني قسي في « طليطلة » ونواحيها ، ونضيف إلى ذلك أن « سرقسطة » كان قد استبد بها بيت التجيبين ، وهم أسرة التجيبين طال بها العهد في الاستبداد بذلك الثغر ، أما « وشقة » فقد استبد بها « بنو محمد الطويل » وكانوا جميعاً عصابة واحدة يتحدثون على الإمارة وإن كان الخلاف بينهم شديداً ، ثم إنهم كانوا جميعاً يستعينون بملوك النصارى المجاورين لهم إذا دعت الضرورة إلى ذلك .

فأما بنو قسي أصحاب طليطلة فكان آخر الثائرين منهم على عبد الرحمن ،

هو « محمد بن لب بن قسي » وقد قُتل ذلك الرجل في أول إمارة عبد الرحمن سنة ٣٠٣ هـ / ٩١٦ م وتولى بعده أخوه « المطرف » وكانت لهما أخت تسمى « أراك » تزوجت من ابن ألفونسو الثالث ملك « أشتريس » وهو يسمى « فرويلا الثاني » الذي سيقول العرش في أيون بعد « أردنيو - الثاني » الذي سنتحدث عنه ، وإنما ذكرنا ذلك لِنُدُلَّ على علاقات القرابة والمصاهرة بين أولئك الزعماء المسلمين ومن جاورهم من ملوك النصارى - وبعد موت محمد بن لب اضطرب أمر طليطلة زمناً طويلاً ، حتى استسلم أصحابها للأمير عبد الرحمن سنة ٣١٢ هـ / ٩٢٤ م

وكذلك دخلت « وثلة » وأصحابها من بني محمد الطويل في ولاء الأمير ، وبقي أمر سرقسطة ، ولكن قبل أن يقصد إليها عبد الرحمن ، وجد الفرصة مناسبة للقضاء على « الفتح بن زنون » « الناصر في حصن » أقليش » والذي كان يسيطر على كورة « شنتبرية » وقد توفي هذا الرجل في سنة ٣٠٣ هـ / ٩١٥ - ٩١٦ م وحاول ابنه يحيى أن يسير في طريق الثورة حتى إذا كانت سنة ٣٢١ هـ / ٩٣٣ م ، أرسل عبد الرحمن جيشاً بقيادة الوزير « عيد الحميد بن يسيل » لكي يستنزل « يحيى ابن الفتح بن زنون » فعرض التنازل وانضم إلى جيش الإمارة « صانداً » ، فوادع عبد الرحمن ، أما أخوه مطرف الذي كان قد استبد بناحية « أبدة » فلتحق بأخيه ودخل في طاعة الأمير . وقد حدث بعد ذلك أن وقع أسيراً في يد « سانشو غرسب » صاحب بنبلونة ، وعاد إلى صفوف الأمير حتى استشهد في « موقعة » الخندق » التي سنتكلم عنها ، سنة ٣٣٣ هـ / ٩٤٥ م . وكان عبد الرحمن قد أقامه حاكماً على كورة وادي الحجارة .

وفي سرقسطة حاول صاحبها « أبو يحيى محمد الملقب بالأنقر عبد الرحمن التجيبى » الخروج على طاعة الناصر ثم عاد فدخل ، وخلفه ابنه « هاشم التجيبى » فأقامه عبد الرحمن عاملاً على سرقسطة نظراً لما أسف فيه من الإخلاص والكفاية ، وقد طال حكم بيته في سرقسطة حتى عرفوا باسم بنى هاشم ، وفي سنة ٣١٨ هـ / ٩٣٠ م . توفي « أبو يحيى محمد الأنقر » وتولى أمر سرقسطة « محمد ابن هاشم » الذي التوى على الأمير وانضم إلى « راميرو الثاني » ملك ليون وسنرى ما يكون من أمره بعد ذلك .

### عبد الرحمن الثالث وعلاقته مع ملوك قشتالة وبنبلونة :

لكي نفهم علاقات عبد الرحمن الناصر مع ملوك « أشتريس » وليون ونبرة وعاصمتها بنبلونة ، ينبغي أن نعود إلى الوراء قليلاً - إلى أيام الأمراء محمد والمختار وعبد الله - فقد عاصر هؤلاء الأمراء الثلاثة ملكاً من ملوك أشتريس يسمى « ألفونسو الثالث » وكان ملكاً نشيطاً بعيد الطموح ، تمكن بفضل نشاطه المتصل واتجاهه إلى توسيع رقعة مملكته ، في أشتريس والأغوار منها إلى البسائط التي تقع جنوبي سلسلة الجبال الكتنبية ، والتي تقرم فيها بلاد كبيرة مثل « ليون وأشترة وسمورة و سلمنقة » وغيرها من البلاد والحصون الواقعة بين حوضي « المنيو والدويرو » ، وكذلك ما يقع منها على نهيرات هذا الأخير ، وأهمها نهر « توريس » وعليه تقع سلمنقة ، وقد تمكن ذلك الملك - منتهزاً فرصة الحروب الأهلية التي شغلت أمراء قرطبة وخاصة في منتصف إمارة الأمير محمد إلى أوائل أيام عبد الرحمن الناصر ، تمكن من أن يستولي على الأراضي الواقعة جنوب المنفى . ولم يكن ذلك بالأمر اليسير ، لأن ألفونسو الثالث ملك أشتريس الذي أشرنا إليه والذي كان بلقب بالفونسو الكبير Alfonso El Magno نظراً لنشاطه الكبير في توسيع نطاق مملكة أشتريس وتمكنه من نقل عاصمتها إلى ليون جنوب الجبال الكتنبية وتمكن كذلك من الامتداد فيما يعرف اليوم بشمال البرتغال ، فاستولى على « أوبورتو » التي ضمها إلى أملاكه الكونت « فيمارا نوربيرت » وهو أحد أتباع ألفونسو الثالث ، وكذلك جعل الفونسو الثالث يشجع الخارجين على الإمارات القرطبية ، من أمثال ابن مروان الجليقي ، وعندما طارده قسوات الإمارة القرطبية بقيادة « هاشم بن عبد العزيز » لجأ إلى ملك أشتريس وهكذا نجد أن الحدود الشمالية لإمارة قرطبة كانت مهددة فعلاً باخطار جسيمة قبل أن يتولى عبد الرحمن الثالث العرش ، ويكفي أن نذكر أنه في أيام الأمير محمد وابنه المختار استولى الفونسو الثالث على بلدة أنيشة Afienza لكي يقوى مركزه في مدينة ليون التي اتخذها عاصمة له ، وتحالف في ذلك مع أمراء الثغر الأعلى من المسلمين . وفي أوائل أيام عبد الرحمن الثالث وبينما كان هذا الأمير مشغولاً بجنوب الأندلس ، تمكن الفونسو الثالث من الاستيلاء على « قلورية » في البرتغال الحالية ، وحصن « ليون وأشترة وأماية وسمورة » ، وأسكن هذه البلاد أعداداً



كبيرة من المستعربين ، وهم نصارى الأندلس الذين هاجروا إلى الشمال واستقروا في بلاد النصارى ، وعقب موت الفونسو الثالث المعروف بالكبير استولى ملوك ليون على حصن « غرماس San Esteban de Gormaz » سيكون له ذكر طويل في الصراع بين الإسلام والنصرانية في الأندلس في أيام عبد الرحمن الناصر . ومعنى ذلك أنه عندما تولى عبد الرحمن الثالث وفي السنوات الأولى من حكمه ، كانت مملكة أشتريس التي أصبحت تسمى مملكة ليون ، قد امتدت جنوباً حتى وصلت إلى منتصف المسافة ما بين نهري المنيو والدويرو ، وفي بعض الأحيان جرّ قواد الفونسو الثالث على الوصول إلى ضفاف نهر الدويرو .

وقد اشتهر أمراء « بنبلونة وشرب ولبيارش » وغيرهم من أصحاب الإمارات النصرانية الصغيرة الواقعة جنوب جبال البرت ، انتهبوا الفرصة هم الآخرون وتمكنوا بمعاونة أصحاب الثغر الأعلى الأندلسي الذين ذكرناهم . من الانسباط نحو الجنوب وتهديد المعازل الإسلامية في « شطيلة وجرنده » وما إليها . وقد تولى الفونسو الثالث سنة ٢٩٨ هـ / ٩١٠ م ، أي قبل ولاية عبد الرحمن بسنتين ، وخلفه ابنه « أرديو الأول » ولم يكن من طراز أبيه ولكنه تمكن من تثبيت حدود دولته بالامتداد فيما يعرف بأراضي « قشتالة الجديدة » في أحوار « شقوبية وأبنة » وكانت في ذلك الحين بلاداً إسلامية ، وإن كانت أعداد المسلمين فيها قليلة في ذلك الحين . فإذا التفتنا إلى كونتيمة قطلونية التي كان ملوك الفريجة قد تمكنوا من إنشائها في أوائل أيام عبد الرحمن الداخل وجدا أن أجنادها تمكنوا هم الآخرون من الامتداد على حساب المسلمين في البلاد الواقعة قرب « جرنده Jeronda » وبذلك ترى أنه عندما تولى عبد الرحمن كان عليه أن يواجه موقفاً بالغ الخطورة على حدوده الشمالية من ساحل البحر المتوسط إلى ساحل المحيط الأطلسي

### راميرو الثاني ملك ليون (٩١٢ - ٩٣٢ م) :

وفي نفس السنة التي صعد فيها عبد الرحمن الداخل على العرش تولى عرش ليون ملك من أنشط ملوكها هو « راميرو الثاني » الذي يسميه العرب « ردمير » وكان هذا الرجل واسع النشاط ، كبير الطموح ، وقد بدأ في السنة الثانية من حكمه بالاستعداد للهجوم على أراضي المسلمين وبالقفل هاجم « يابره » في البرتغال

الحائبة بجيش قوامه ثلاثون ألفاً ، وتصدى له عاملها « مروان بن عبد الملك » ، ولكنه انهزم وتمكنت قوات « راميرو الثاني » من دخول البلد وأُزيل مذبحه بأطلها ، وأخذ معه عند عودته أربعة آلاف أسير من المسلمين ما بين نساء وأطفال ، وبلغ من خوف عمال البلاد في هذه الناحية أن عامل بطليوس وهو « عبد الله بن محمد » وهو ابن أخي « عبد الرحمن بن مروان الجليقي » سارع إلى تحصين بلده وبناء سورها بالحجارة ، وبعد ذلك بقليل في سنة ٩١٤ - ٩١٥ م. هاجم راميرو الثاني مدينة « ماردة » ونهب الأراضي حولها وتمكن من دخول حصن « الحنش » وقتل فيه الوف المسلمين ، وبلغ من جراته أنه أنشأ في ذلك الحصن كنيسة سميت بكنيسة القديسة مارية الليونية Santa Maria de Leon

وكل ذلك نبه عبد الرحمن الناصر إلى ضرورة مواجهة الموقف في الشمال بالحزم الذي تعرفه فيه وابتداء من سنة ٣٠٤ هـ / ٩١٦ م نجده عبد الرحمن يرسل قائده الكبير أبا العباس أحمد بن أبي عبيد بجيش قوى لكي يهاجم المواقع النصرانية في وادي نهر « الدويرو » ، واستعد له راميرو الثاني بأحسن ما لديه من فرسان ، في حين أن القائد أبا العباس أحمد بن أبي عبيد كان يقود جنوداً غير نظاميين ، لأن أحسن قوات عبد الرحمن الناصر كانت معه في الجنوب ، ولذلك عندما التقى هذا القائد الباسل بقوات الأعداء في ١٤ ربيع الأول ٣٠٥ / ٤ ديسمبر ٩١٧ م قرب بلدة « غرماج » ، التي تسمى أيضاً بقلعة المسلمين أي « قشتر موروش » انهزم ذلك القائد وقتل وتبعه النصاري لئول المسلمين حتى « أيشة » ، وهكذا كانت نهاية ذلك القائد الباسل الذي يرجع إليه الفضل في الحفاظ على الإمارة القرطبية طوال حكم الأمير عبدالله ، ومن المؤسف أن راميرو الثاني علق رأس هذا القائد على أسوار غرماج وإلى جانبها رأس خنزير برئ .

هذا أدرك عبد الرحمن الثالث أن الأمر أخطر مما تصور . وزاد في حوجه على ثغوره الشمالية أن راميرو الثاني ازداد طلبه وطمعه في بلاد المسلمين فتحالف مع الملك « سانشو غرسيه » ملك بربرة وسارت قواتهما للاستيلاء على مدينة « طلميرة » غربي « طليطلة » على نهر تاجة ، وفي نفس الوقت نجد أن صاحب بنبلونة يتجه في سنة ٣٠٥ هـ / ٩١٨ م . لمهاجمة أراضي بني قسي أصحاب طليطلة ومعاث في

أراضيها وأحرق الزروع حول ناحرة وطلبيلة وهاجم « غلتيرة » وأحرق جامعها .  
وهنا نجد عبد الرحمن ينهض في المحرم سنة ٣٠٦ هـ / ٩١٩ م . ويرسل قائده  
الحاجب « بدر بن أحمد » لملاقاة أردنيو الثاني فأنزل به هزيمة قاصمة عند  
موضع يسمى « ميثونيا أو مودونيا » ولا نعرف موضعه بالضبط . وفي العام  
التالي يسير القائد « إسحق بن محمد القرشي » وكان من أعظم قواد عبد الرحمن  
الناصر على رأس جيش كبير فاستعاد قلعة غرماج

وفي العام التالي ينهض عبد الرحمن الثالث ويعيد « الواديانا » ويتقدم إلى  
الشمال ليلاقي النصارى قرب بلدة « القليعة » عند وادي الحجارة . ويرسل بهم  
هزيمة كبيرة ثم يتقدم نحو مدينة سالم ، وكان مدفع هذه المرة أراضي مملكة  
نيرة . وبعد أن عاث في أرضها اتجه إلى منطقة « ألية » والقلاع فهادته صاحب  
مدينة « أوسه » التي يسميها المسلمون « وخشمة » واحتلها المسلمون ثم اتجه  
عبد الرحمن نحو غرماج وأنزل بالنصارى هزيمة انتقم فيها لما أصاب قائده  
أبا العباس أحمد بن أبي عبدة الذي مات قريباً ووصلت غارات المسلمين إلى بلدة  
كلونيا التي تسمى الآن Corana del Conde . وعاث المسلمون في نواحيها ،  
وبذلك يكون عبد الرحمن قد لقن ملكي ليون ونيرة درساً لن يسياه بعد ذلك .  
وبعد ذلك اتجه عبد الرحمن نحو « بنفلونة » وفي نيته أن يلقن الدرس للملكيا  
سانشو غرسية ، وانضم إليه في هذه الحملة « محمد بن عبد الله بن لب » وهو  
من آخر الكبار من بني قسي . وبأمر عبد الرحمن استولى ابن لب على قلعة  
« كركي » غير بعيد من ملتقى نهر الأبرو بنهر « أيك » واحتل عبد الرحمن بلدة  
« قلهرة » على الضفة الشمالية لنهر الأبرو واضطر سانشو غرسية إلى التحصن في  
قلعة أرنيط . Amedo . وسار سانشو غرسية لملاقاة المسلمين وانضمت إليه قوات  
أردنيو الثاني وحاول سكان الناحية أن يعترضوا جيش المسلمين ولكن  
عبد الرحمن الثالث تقدم نحو الشمال وغلب على كل خصومه ووصل إلى  
وادي بلدة « خونكيرة » وقربها أنزل بجيش ليون ونيرة هزيمة كبرى قتل فيها  
الوف النصارى ووقع بيده أسرى عدد من كبارهم من بينهم « دولثيدو » أسقف  
سلحققة « وأرمو جيو » صاحب تودة التي توجد في البرتغال الحالية . وعاد  
عبد الرحمن مطلقاً إلى قرطبة وكان نصر « خونكيرة » في ٦ ربيع الأول ٣٠٨ هـ /

٢٦ يوليو ٩٢٠ م . وهو تاريخ فاصل ، لأن ملوك النصارى رمهوا عبد الرحمن وجيوشه ، خاصة وأن القواد الذين تركهم عبد الرحمن على الحدود توغلوا في أراضي بيرة وهاجموا بنبلونة ، ولم ينصرفوا عنها إلا بعد أن طلب ملك نبرة الصلح وعرض أن يكون تابعاً لعبد الرحمن الثالث . وهذه الحملة الكبيرة التي قادها عبد الرحمن ورجاله في كل بلاد الشمال هي التي تسمى بحملة « موسى » . وقد توفي أردنيو الثاني بعد ذلك بقليل ، وتوقفت بذلك أعمال العدوان على بلاد المسلمين ، لأن الذي خلفه كان الملك « غزويلا الثاني » . وكان فيما تقول المدونات النصرانية ملكاً ضعيفاً .

ومع ذلك فقد وجد عبد الرحمن أنه لا بد من أن يواصل الحملات على الممالك النصرانية في الشمال ، وتلك كانت خطته . وهي العمل الدائم حتى يصل إلى نتيجة حاسمة فسي كل ما يقوم به ، ولهذا نجده يخرج بجيش كبير في الحرم ٣١٢ هـ / أبريل ٩٢٤ م . فيمر بكورة تدمر وهي مرسية ثم بكورة بلنسية ، وهناك يستسلم له كل من كانت نفسه تهدد بالثورة ، ويستنزلهم عبد الرحمن ويستولي على قلاعهم ويتجه إلى طليطلة ، وهناك حاول سانشو غرسية التعرض له ، ولكن عبد الرحمن يدخل قلعة كركر ويحتل بلدتي « بيرلت وفالكس » وينقدم فيستولي على « تافية . Tafalla » وقرقشونة ثم يدخل الجيش الإسلامي أراضي مملكة أرغون ويتوغل فيها ويلتقي بجيوش سانشو غرسية قرب بنبلونة ويتصر المسلمون . ثم يعقب عبد الرحمن ذلك باحتلال بنبلونة عاصمة مملكة نبرة ويبيحها لرجاله . وواصل عبد الرحمن مسيره إلى الشمال في أراضي أركون واستعاد للمسلمين بلدة كانت تابعة لطليطلة تسمى « صخرة قيس » وهدم كنيسيتها وحولها إلى مسجد وعاد عبد الرحمن إلى « قلهرة » ثم مر بحصن « فالترا » ووصل إلى طليطلة في ربيع الآخر ٣١٢ هـ / أغسطس ٩٢٤ م . وطلب منه غرسية الصلح فمنحه إياه وقبى عيولته أصلت بلدة شنتيرية حيث قدم له « يحيى بن موسى وابن عمه يحيى بن الفتح » ابني « زنون » فروض الولاء

وقد واصل عبد الرحمن ضرباته وغزواته في بلاد الشمال حتى خاضه ملك ليون « راميرو الثاني » واضطر جميع ملوك النصارى إلى طلب الصلح من عبد الرحمن وأصبحوا جميعاً من أتباعه . وقد نأكد ذلك في أيام الفونسو الرابع

ملك ليون و«سانشو غرسيه» ملك نبرة، وبعد موت «سانشو» ملك نبرة تولى العرش «خيمييث غرسيه» وكان قاصراً فتولت الوصاية عليه الملكة «طولة» التي سارعت بمهادنة عبد الرحمن الثالث، بل نجد أنها تأخذ ابنها الذي أصيب بالسحنة المفرطة وتقد على قرطبة لكي يتولى أطباء قرطبة علاجه. وعندما تخلص الفونسو الرابع عن العرش ويهرب في دير «اسهجون» خلفه ابنه «رذمير الثالث» فصالح الأوصياء عليه عبد الرحمن الثالث ودخلوا في طاعته، ثم وقعت حرب بين الطامعين في العرش استراح فيها عبد الرحمن مؤقتاً من متاعب الاضطراب التي كانت تهدد ثغوره الشمالية.

وقبل أن نختم هذه الفقرة عن علاقات عبد الرحمن مع معال ك النصارى في الشمال نضيف فقرة قصيرة عن الصراع الذي دار بين عبد الرحمن الثالث وملك نشيط من ملوك ليون هو «راميرو الثاني» الذي عز عليه أن يشهد ما أصاب البلاد النصرانية على يد خليفة قرطبة، فاستجاش ملوك الممالك النصرانية وجمع جيشاً كبيراً ليخاور بلاد المسلمين، فاستعد له عبد الرحمن الثالث استعداداً كبيراً، خاصة وأن راميرو استولى على حصن مجريط وهدد طليطلة سنة ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م. وقد جمع عبد الرحمن جيشاً ضخماً احتفل في إعداده حتى سماه بجيش القدرة وسار إلى الشمال وحاصر راميرو الثاني في بلدة «اسمه» وخاف راميرو الثاني اللقاء، فانطلق عبد الرحمن في البلاد حولها، ويقال إنهم نهبوا ديراً يسمى دير شنت بطره San Pedro de Cardena، وقتلوا فيه عدداً من الرهبان ويقع ذلك الدير شرقي مدينة «برغش» ثم تقدم عبد الرحمن واحتل سرقسمة، ثم توغل في أراضي نبرة وأرسل قائده «مطرف من منذر الشصبي» الذي دخل في طاعته، فاسترجع قلعة أيوب ولكنه قتل في المعارك حولها، واستولى عبد الرحمن على نحو ثلاثين حصناً وأرسل قائده «أحمد بن إسحق القرشي» فعاد في أراضي نبرة، وبعد ذلك وفي سنة ٣٢٧ هـ / ٩٣٩ م. تقدم عبد الرحمن بجيوشه من مدينة «سلمنقة» والتقى بجيوش ليون ونبرة عند أسوار بلدة «شنت ماتش Simancas».

وحدث في هذه المعركة أن عبد الرحمن أقام على رئاسة الجيش قائداً في مواليه من الصقالبة يسمى «جدة الحيري» فغضب القواد الأندلسيون ورجالهم

وتخلوا عن عبد الرحمن فلحقته به الهزيمة في ١١ شوال ٢٢٧ هـ / أول أغسطس ٩٢٩ م . وتراجع المسلمون فتساقط الكثير منهم في خندق كان النصارى قد حفروه ، ولذلك تسمى هذه المعركة ، بمعركة الخندق « وقد بالغ مؤرخو النصارى في تهويل أهمية ذلك النصر مع أنه لم يؤثر كثيراً في قوى عبد الرحمن ولكنه كسب منه درسا ، وهو ألا يولى على جيوشه قادة من الصقلية ، وقد كف عبد الرحمن بعد ذلك عن قيادة الحملات وكانت السن قد علت به ، إذ أنه في ذلك التاريخ كان بلغ الخمسين من العمر ، وقد استعاد رومير الثاني معظم الحصون التي كان عبد الرحمن الثالث قد استولى عليها في وادي نهر « توريس » وقد اجتهد عبد الرحمن في فك أسر من وقع بيد النصارى من قواده مثل أبي يحيى محمد بن هاشم ، صاحب سرقسطة الذي سيصبح بعد ذلك من أكبر رجال عبد الرحمن . وبعد ذلك بقليل عقد الصلح بين رامير الثاني وعبد الرحمن الثالث وسارع «فرنان كورنثالث » الذي يعتبر أول أكتاد كونتية قشتالة الناشئة ، وحالف عبد الرحمن الذي حصن ثغوره واختار أحسن قواده لتولي الأمور في الشمال ، فسكنت الأمور ومال رامير الثاني إلى عقد صلح دائم مع عبد الرحمن مع أنه كان في نفس الوقت حليفاً لاردينو الثالث ملك قشتالة ، وقد ولي عبد الرحمن على الثغر الأوسط قائده : أحمد بن يعلى . ووجهه للإغارة على بلاد ليون وفي سنة ٢٣٢ هـ / ٩٤٤ م قاد القائد « أحمد بن محمد بن إلياس » حملة على جليقية ، وعقب ذلك نجد عبد الرحمن ينقل قاعدة الثغر الأعلى إلى مدينة سالم ، بعد أن كانت في مدينة طليطلة وولى عليها قائده « غالب الناصري » الذي سيكون له دور عظيم في تاريخ الأندلس في أيام عبد الرحمن وحليفته الحكم المستنصر .

وقد حصن عبد الرحمن مدينة سالم وجعلها قاعدة متينة للأعمال العسكرية في الشمال . واستعاد غالب كل المواقع الإسلامية التي كان رامير الثاني قد استولى عليها ، وفي سنة ٢٣٧ هـ / ٩٤٩ م . تمكن « غالب الناصري » من قيادة حملة عاثت في أراضي سلمنقة ووصلت إلى بلدة « لك » عاصمة جليقية وفي صيف ٢٣٩ هـ / ٩٥٠ م . قام أحمد بن يعلى بغارة جريئة وصل فيها إلى ساحل المحيط في جليقية ، وهنا أدرك رامير الثاني أنه لا قبل له بعبد الرحمن فسار إلى مصالحته ثم توفي في يناير ٩٥٠ — ٩٥١ م . وبذلك انتهى عصر ذلك الملك الحافل بالغارات

على بلاد المسلمين ، واستراح عبد الرحمن من هذه الناحية وأصبحت مملكة ليون مثلها في ذلك مثل مملكة نبرة من توابع قرطبة . وكان عبد الرحمن الثالث في ذلك الحين قد وصل إلى أوج قوته داخل بلاده وخارجها ، وقد نقضه على بلاد المغرب وجعل من قرطبة مركز خلافة إسلامية تزيد في القوة والبهاء عن خلافة العباسيين التي كانت قد دخلت في دور الضعف والانحيار .

وكان الذي قد خلف راميرو الثاني هو أردنيو الثالث ولم يكن من طراز أبيه ، وحاول أن يثبت مركزه بالمصاهرات مع ملوك إسبانيا النصرانية الآخرين مثل غرسية سانشو الأول « وقرناندو ثالت » كونت قشتالة ، التي اشتد عودها في ذلك الحين ، وقامت فيما يسمى بقشتالة الجديدة في الحوض الأوسط لنهر دويرو . ومن سوء حظ ملك ليون ، أن اختلف عليه زملاؤه من ملوك إسبانيا النصرانية ودخل في حروب معهم . وانتهاز قواد عبد الرحمن الثالث الفرصة لكي يغفروا على بلاد مملكة ليون ، ففي سنة ٣٤٣ هـ / ٩٥٣ م . نجد قواد الناصر من أمثال أحمد ابن يعلى وغالب الناصري يقومون يوصلات يوصلون فيها في أراضي ليون حتى يصلوا إلى جليقية بل تمكنوا في ربيع الأول ٣٤٤ هـ / يوليو ٩٥٥ م . من إنزال هزيمة قاصمة بقوات أردنيو الثالث ، هلك فيها من رجاله نحو عشرة آلاف . وقد حاول أردنيو أن يعوض تلك الحسارة بالإغارة على الأشبونة واتجه صهره « فرناندو ثالت » إلى مهاجمة حصن غرماج ، إلا أنه اضطر آخر الأمر إلى طلب الهدنة من عبد الرحمن الثالث بعد هزيمة ربيع الأول ٣٤٤ هـ التي ذكرناها ، ولم يمنحه عبد الرحمن هذه الهدنة بل أرسل سفيرين من ثمنه هما « محمد بن الحسين واليهودي أبو يوسف حسداي بن إسحق بن شبروت » وكان من كبار يهود الأندلس ، فقد ولد في جنيان سنة ٩٦٥ م وتلقف ثقافة عالية في اللغة العربية وآدابها ، وإلى جانب ذلك كان طبيباً ماهراً وتمكن السفيران من إقناع أردنيو الثالث بضرورة التقاهم مع عبد الرحمن الناصر الثالث فتنازل عن عدد من الحصون وتعهد بعدم العدوان على بلاد المسلمين . وعنى هذا الأساس فقط منحه الناصر الهدنة وأسرع الكونت « قرناندو ثالت » بدوره يطلب مهادنة خليفة قرطبة وحصل على تلك الهدنة واعترف للناصر بالسيادة عليه .

ثم اتجه عبد الرحمن إلى نبرة . وكان الملك أردنيو الثالث قد توفي

عند « سمورة » وخلفه على عرش ليون سانشو الأول ، فسارع إلى طلب الصلح والوفاق مع عبد الرحمن الناصر ، بعد أن هاجم أراضيهِ القائد أحمد بن يحيى ، ولكن رجال مملكة ليون لم يكونوا راضين عن ملكهم هذا بسبب إفراطه في السمة وعدم قدرته على ركوب الخيل ، فاجتمع رأيهم على عزله وعزل بالفعل ، وخلفه أودنيو الرابع الخلقب « بالسئيُّ أو المالو » وهو ابن ألفونسو الرابع الذي ذكرنا أنه ترهب . وحاول هذا الأخير أن يثبت لقرطبة ولكي الملكة طرطة أم أودنيو الثالث أخذت ابنها السمين هذا وذهبت به إلى قرطبة تطلب علاجه على أيدي أطبائها ، وكذلك أرادت أن يعينها عبد الرحمن الناصر على عودة العرش لابنها ، ورافقها في هذه الرحلة سانشو الأول وهو حفيد طرطة ، واستقبلهم الناصر استقبالا حقيقيا وإن لم يعد بتقديم المعاونة السياسية لهم ، ولكن أملاءه في الحقيقة عالجوا ابنها . وقد عقد عبد الرحمن الناصر الحلف مع مملكة نبرة واضطر بذلك ملك ليون إلى الدخول في مفاوضات مع عبد الرحمن ، واعترف هو الآخر بسيادته وتعهد بأن لا يهاجم شعور المسلمين ، وبذلك استطاع عبد الرحمن الناصر وبفضل هذه الجهود المتصلة سنوات طويلة أن يصل إلى ما كان يصبو إليه من توحيد بلاده وإقرار سلمة الدولة في كل نواحيها وإعادة الهيبة لقرطبة وجعل من خليفته القوة الكبرى في شبه الجزيرة والحكم بين ملوكها النصاري فيما يشجر بينهم من خلافات .

### عبد الرحمن الثالث والمغرب :

عندما تولى عبد الرحمن بن محمد عرش قرطبة كانت الدولة الفاطمية في أفريقية قد قامت منذ أربع سنوات ( ٢٩٦هـ / ٩٠٩م ) وكانت للدولة الفاطمية مطامع واسعة في المغربين الأوسط والأقصى ، وخاصة بعد أن تمكن عبد الله المهدي من إزالة الدولة الرسمية التي كانت تحكم في جزء كبير من المغرب الأوسط ، وكانت دولة الإدارة في فاس قد دخلت في دور الضعف واحتياجات إلى سند ، وتطلع أمراءها إلى قرطبة ، في حين بدأ الخليفة الفاطمي من القيروان بشر الحملات الواسعة البعيدة المدى على المغربين الأوسط والأقصى ، مستعينا في ذلك بزعماء من البربر الصنهاجيين من أمثال « زيري بن مناد الصنهاجي » و « قرييه » « حويس بن مكسن » وابنه « مصالة بن حويس » وقد استطاع مصالة هذا أن



يدخل فاس ويجعلها من توابع القيروان ، وأقام عليها رجلاً من أوليائه يسمى «موسى بن أبي العافية» فقام هذا بإخراج بقية الأدارسة من فاس وبغاهم إلى حصن صغير جنوبي تطوان يسمى «حجر النسر» في قلب بلاد الريف وهنا ينتهى الدور الأول في تاريخ دولة الأدارسة ويبدأ الدور الثانى وكان لا بد لعبد الرحمن الناصر من أن يعمل شيئاً لحماية حدوده الجنوبية من عدوان الفاطميين وكان عبد الرحمن العاصروبقية خلفاء بني أمية الأندلسيين ، يرون أن العبيديين الذين أقاموا خلافة القيروان كانوا مدعين للتسبب الشريف ، غير جديرين بولاية الأمر وأن مذهبهم الشيعى الإسماعيلى خارج عن الإسلام الصحيح .

وقد أشبع عبد الرحمن الثالث سياسة ذكية في مواجهة الخطر الفاطمى ، فقد كاد يعرف أنه إذا دخل في صراع طويل مع الفاطميين في المغرب الأقصى أصعب في ذلك جبهته الشمالية أمام النصارى وكان لا بد له مع ذلك من أن يقوم بأمر يوقف الخطر الفاطمى ، فأتجه إلى أن يرسل المعاونات المالية الكبيرة والعتاد والسلاح إلى «يحيى بن إدريس بن عمر» الذى تزعم الأدارسة ومكن لهم من أن يتغلبوا على موسى بن أبي العافية ومصالة بن حبوس . وبعد صراع طويل نجد أن عبد الرحمن الثالث يكتفى بإحلال طنجة وسبتة سنة ٩٣١ م . ومن هذين الحصنين الكبيرين أستطاع أن يمد أعوانه في المغرب بما هم في حاجة اليه من العتاد والاموال ليثبتوا أمام الضغط الشيعى . ولم يفعل عبد الرحمن الناصر أكثر من ذلك في سياسته المغربية ، وربما لحا إلى معاونة الخارجيين على الفاطميين من غير الأدارسة ، من أمثال بنى خزر اليعربيين ، ولم يقع عبد الرحمن في الخطا الذى سيقع فيه ابنه الحكم المستنصر . عندما ألقى بخيرة قوايده وحملته في الصراع مع المغرب . فاضعف بذلك جبهته الشمالية ولم يخرج في نهاية الأمر بنتيجة حاسمة .

### الخلافة الأموية القرطبية :

استطردنا في الكلام عن أعمال عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله في إعادة الوحدة إلى بلاده ومواجهة الخطر النصراني في الشمال ، وراينا كيف أنه وفق في ذلك تمام التوفيق وأصبح بالفعل أكبر ملوك شبه الجزيرة . وأعاد إلى دولته وحدتها وتمكن إلى جانب ذلك من إقرار هيبة الخلافة القرطبية في المغرب الأقصى .

ونعود بعد ذلك إلى دراسة أعمال عبد الرحمن الثالث الداخلية وما قام به من إصلاحات وتغييرات جعلت خلافة قرطبة بالفعل من أقوى دول العالم في ذلك الحين.

وفي أواخر سنة ٢١٦ هـ/ أوائل ٩٢٩ م . وجد عبد الرحمن أنه أولى بأن يتخذ لقب الخليفة من عبد الله المهدي صاحب القيروان ، فأصدر بياناً أعلن فيه نفسه خليفة وتلقب بأمير المؤمنين ، واتخذ لقب الناصر لدين الله . والمقصود بذلك نصر مذهب السنة والجماعة على نصارى الشمال وعلى العبيديين الشيعة ، وقد احتفظت لنا النصوص بذلك الإعلان الذي بعث به عبد الرحمن إلى كافة نواحي الأندلس ، وقرئ على المنابر في كل بلادها وأرسلت منه نسخ إلى أفريقية والمغرب ، وبذلك يكون عبد الرحمن قد أدخل تغييراً حاسماً على طبيعة الدولة الأموية الأندلسية ، فقد أصبحت الآن خلافة إسلامية عامة مساوية لخلافة بني العباس ومتولية شئون الإسلام في الجناح الغربي لدولة الإسلام من دون الفاطميين .

وقد استتبع ذلك إدخال تغيير كبير في شكل خلافة قرطبة ونظامها ، فوضع عبد الرحمن نظاماً إدارية جديدة تعطى دولته الهيبة والمكانة التي أصبحت لها على أيامه ، فإزداد البلاط القرطبي ضخامة ووجاعة ، وكثر القواد في جيش الخليفة وتعددت مراتبهم وكثر الوزراء كذلك إزدادوا هيبة ، وإن كنا نلاحظ أن عبد الرحمن الناصر كان كثير التفتيل لوزرائه ، ففي أول كل عام تقريباً كان يجري تنقلات بين الوزراء والعمال والقواد ، وكان هدفه في ذلك ألا تطول ولاية رجل في وظيفة أو ناحية فيستبد بالسلطة ، دون الخليفة . ولكن هذه السياسة أدت في نهاية الأمر إلى إضعاف مكانة القواد والوزراء وإضعاف المركز الممتاز الذي كان يتمتع به أبناء البيوت الموالية الذين قدموا للإمارة كما رأينا أجيالاً متوالية من كبار الرجال في شتى نواحي الحكم والإدارة والحرب .

وبهذه المناسبة نقول إن عبد الرحمن الناصر كان يؤمن بالسلطان المطلق للخليفة ، ولا يرى أن يدع الرأي لكبار رجال الدولة ولا يسمح شيء من الاستقلال المحلى لولاة الأقاليم ، وكان هدفه الأخير كما قال في بعض رسائله التي كانت تذاع على المنابر . إن الأمة ينبغي أن تحول كلها إلى رعية مستأمنة أى مطبوعة تاتمر بامر الخليفة الذي لا يشاركه في أمره أحد .

وقد ناقش عبد الرحمن الناصر آراءه تلك مع سفير من سفراء إمبراطور  
التيوتون ، وقد إلى بلاطه ، يسمى « يوحنا الجورزييسى » فقد قال له  
عبد الرحمن ما معناه : « إنه معجب بالإمبراطور التيوتونى « أوتو » ولا يأخذ عليه  
إلا أنه يترك جانباً من سلطانه لوزرائه وأمرائه الإقطاع ، وذلك في رأيه لا يتفق مع  
سلامة الدولة وهيبة السلطان . وبالفعل نرى أن عبد الرحمن كان حاكماً مطلقاً  
بالمعنى الصحيح ، وخاصة بعد أن وفق إلى الانتصارات الباهرة التي حققها داخل  
بلادها وخارجها ، فقد تحول إلى سلطان عظيم ذي بلاط هخم وبجاه واسع وأبهة  
بالغة ، وبينما رأينا أن جده عبد الرحمن الأوسط كان يتبسط مع وزرائه وشعرائه  
وتدماثه ، حتى تجرى بينه وبينهم الدعابات ، نجد عبد الرحمن الناصر سيداً  
رفيعاً عالياً يجلس لوزرائه في مجالس فخمة وبخطام تام ولا يأذن لأحد من الرعية  
والأصاغر في الدخول عليه والحديث معه .

ولم يكن السبب في ذلك أن عبد الرحمن كان بطبعة طاغية ورجلاً خشن الطبع ،  
بل على العكس من ذلك كان إنساناً شديد الحساسية بالغ الحياء ، وقد رأينا أن  
أدبه الجم كان من أسباب وصوله إلى الإمارة ، ولكنه قبل أن يلى الأمر رأى من جرأة  
الوزراء والقواد والعمال ما هبط بجلال الإمارة ، وما جعل جده وسلفه « عبد الله بن  
محمد » أقرب إلى رئيس منه إلى أمير أو خليفة . وعندما تولى عبد الرحمن ظن أن من  
واجبه أن يضع حداً لهذا التبسط وأن يرفع مكانة الخلافة ، لأنه كان يرى أن ذلك  
من ضرورات السلطان القوى المستقر ، ثم إننا رأينا كيف أن رجال النواحي عندما  
تمتعوا بسلطات محلية في أقاليمهم أيام عبد الرحمن الأوسط وابنه الأمير محمد بن  
عبد الرحمن ، أدى ذلك إلى طمعهم في السلطان فأخذوا يستبدون بنواحيهم .  
وانتهى الأمر كما رأينا إلى الفتنة الكبرى التي اجتاحت الإمارة القرطبية ثلاثين سنة  
من أواخر أيام الأمير محمد إلى أوائل أيام عبد الرحمن الناصر .

لذلك نجد عبد الرحمن الناصر لا يسمح بأى وجه من وجوه الاستقلال لأهل  
النواحي ، ويصر على أن يرسل لهم الأعمال من عنده ، ولا يزال ينقل أولئك العمال  
من مكان إلى مكان . وقد أدى ذلك يالقول إلى استتباب الأمور وارتفاع هيبة  
الخلافة . ولكنه أدى إلى غضب أفراد بيوت الحكم أو البيوت الموازية التي ذكرناها  
وقد رأينا أنه عندما عهد عبد الرحمن الناصر في كبار الولايات إلى مواليه ، من أمثال

« بدر بن أحمد ونجدة الحريري وغالب الناصري » تأمر كبار القواد الأندلسيين عليه مما أدى إلى كارثة معركة الخندق أو « سيمينس » التي ذكرناها .

وقد اتعظ عبد الرحمن بما حدث له في ذلك اليوم ، فعاد مرة أخرى يسترضى رجال بيوت الحكم وجعل لهم الرياسة على مواليه ، واهتم بأن يعيد إلى رجال تلك البيوت ما كان لهم من سلطان وهيبة . ولكن سياسته الأولى كانت قد أضعفت هذه البيوت ورجالها ، وكذلك كانت سياسة عبد الرحمن حيال رؤساء أجناد العرب في نواحي مرسية وإشبيلية وفي الكور الجنوبية . قاضية على ما كان أصحاب الكور المجندة يرسلونه من جند عربي يأسل قادر على خوض غمار المعارك . وقد كان ذلك خسارة لا شك فيها ، لأن عرب الكور المجندة ، رغم ميلهم إلى الفوضى واستخفافهم بالحكومة المركزية وعدواتهم على من كان يعيش معهم من أهل البلاد ، كانوا جنوداً بوسائل مهم تلك العصبية العربية التي نعرمها . فافقد هذا الجندي العربي مكانته بل أعفى أصحاب الكور المجندة من إرسال الحشود وإداء ضريبة بدلاً منها تسمى ضريبة الحطد ، تلاحظ أن الجيش الأموي الأندلسي فقد عنصراً هاماً من عناصر قوته .

ولكننا لا بد أن نضيف إلى أن عبد الرحمن رغم ميله هذا إلى الاستبداد ، لم يكن ظالماً ولا غاشماً ، فلم يؤثر عنه أثناء خلافته الطويلة أنه قتل وزيراً أو استصفى مال إنسان ، أو عداً على حقوق الرعية أو بالغ في عقاب موظف مسيء ، بل كان في ذلك كله وجلاً كريماً سمحاً لا يثدني إلى العدوان على الأموال أو الدماء ، ولا يرضى بأن ينزل عقاباً شديداً بأحد من خصومه . ويكاد عبد الرحمن الناصر يكون الوحيد من بين كبار خلفاء الإسلام الذين تصرفوا في الخلافة تصرفاً سليماً كريماً يتفق مع أخلاقيات الإسلام ومكارم الأخلاق والأصول الأخلاقية العربية

### إنشاء مدينة الزهراء وزيادة المسجد الجامع :

وعندما بلغ سلطان عبد الرحمن الناصر ذلك المبلغ وجد أن قصوره في قرطبة لم تعد لاغثة بالمركز العظيم الذي وصل إليه ، وكان سكان قرطبة قد كثروا في أيامه وتقاطر إليها الناس حتى وصلت المباني إلى « كل الرصافة » الذي كان يقيم عليه قصر الرصافة . ثم إن أسواق البلدة ضاقت بمن فيها ، ولم يعد من الممكن لحشوش

عبد الرحمن ومواكب السفراء التي تقد على قرطبة باستمرار السير في شوارع المدينة دون مضايقة الناس .

لهذا فكر عبد الرحمن في أن ينشئ لنفسه عاصمة ملوكية إلى جانب قرطبة . يتخذ فيها القصور لنفسه وأهل بيته وحشمه وخدمه وحرسه ، فقصده مهندسوه إلى جبل « العروس » المطل على قرطبة من الناحية الجنوبية الغربية على بعد ستة كيلو مترات من العاصمة ، وقدموا إليه مشروعاً بإنشاء مدينته الملوكية على سفح الجبل ، خاصة وأن مياه الأمطار تتجمع في هضبة بأعلى ذلك الجبل وتتساقط على السفح . فلو أنشئت قنوات مهندسة بنظام خاص لإمكان إجراء الماء في أعلى الجبل إلى السفح بنظام خاص يمكن من إقامة مدينة ملوكية على طبقات أو مستويات من ذلك السفح ، وتلك هي الفكرة التي قامت عليها مدينة الزهراء التي بدأ عبد الرحمن الثالث في إنشائها . ويقال إنها منسوبة إلى واحدة من نساء عبد الرحمن تسمى « الزمراء » ، ماتت عن مال كثير ، وأوصت الخليفة الناصر بأن ينفق هذا المال في اقتناك أسرى المسلمين فلم يجد عبد الرحمن أسرى يقدمهم بهذا المال ، فقرر إنشاء تلك المدينة وأطلق عليها لقب الزهراء ، وتلك في الغالب حكاية من طرف ما يسوقه الرواة في كتب التاريخ ، ولكنها حكاية لها مغزاها ومعناها .

وقد بدأ عبد الرحمن الناصر في بناء الزهراء في أول المحرم ٣٢٥ هـ / ١٩ نوفمبر ٩٣٦م ، وعهد في الإشراف على بنائها إلى ابنه الحكم بن عبد الرحمن ، ووضعت خططها على أن تكون مدينة ملكية فائقة بنااتها على بعد خمسة كيلو مترات شمال غربي قرطبة على سطح جبل العروس . وقد بنيت على درجات ، بحيث يرقى داخل المدينة من درجة إلى درجة ، وفي كل درجة يجد قسماً من أقسام المدينة . ويدخل الإنسان إليها أسفل الجبل بمداخل كبير يسمى « باب الأقباء » جمع « قبور » ويراد به هنا القبة ، ومعنى ذلك أن هذا المدخل كانت تقوم فوقه وتحيط به قباب ، ويسير الإنسان مسافة طويلة على طريق ميلط تقوم على جوانبه الأعمدة وغرف الحرس حتى يصل إلى باب السدة ويراد به باب القصر . ويصعد درجات وإلى جانب المصعد للدرج ، مصعد آخر للمدخل بلا درج فيصل الإنسان إلى المستوى الثاني من مستويات مدينة الزهراء ، وهنا مساكن الجند والحرس وأصحاب الحرف الذين تحتاج إليهم المدينة ، وهنا أيضاً وجدنا آثار المسجد الجامع لمدينة الزهراء ، وكل هذه البيوت محاطة بالأشجار والخضرة .

فإذا انتهى الإنسان من ذلك المستوى صعد مرة أخرى حتى يصل إلى سطح منبسط وسوق لتبني عليه قصور كبار رجال القصر وموظفيه ولتقيم فيه جماعات الحرس الخاص بالخليلة ، وما يلزم لهؤلاء جميعاً من الحمامات والمساجد .

وبعد ذلك يصعد الإنسان مرة ثالثة حتى يصل إلى المستوى الأعلى لمدينة الزهراء ، ويواجهه لأول صعوده الجهو الكبير ، الذي أنشاه الناصر لاستقبال السفراء والملوك الأجانب . وهو بهو فخم يتكون من ثلاثة أقواس من طراز عصر الخلافة ، ويفضي الإنسان من المدخل إلى قاعة فسيحة مقسمة طولياً إلى ثلاثة أبناء ، قأما البهو الأوسط فينتهي في الصدر بمجلس الناصر ، وهناك يجلس الخليفة على عرشه تحيط به مقاعد أفراد الأسرة المالكة بحسب مراتبهم ، وعلى الجانبين مقاعد للوزراء وكبار رجال الدولة والضيوف ، مرتبة توتيباً محكماً ، بحيث يكون لكل رجل من رجال الدولة مقعده الذي لا يتغير ، حتى إذا نظر الناصر رتيين خلو المقاعد عرف من المتقرب ، أما الميوان الداخلين فيستعملان لموظفي القصر وكتاب الخليفة . وهذا المجلس الجميل يبدو للرائي من بعيد عندما يهل الإنسان على مدينة الزهراء ، ومن الواضح أن عبد الرحمن الناصر أراد على هذه الصورة لكي يستطيع في مجلسه فيه أن يرى السفراء والملوك وهم مقبلون من بعيد ثم صاعدون إلى القصر وقد كشف عن آثار هذه المدينة الملكية وبدأ في إعادة إقامة بعض منشأتها وخاصة بهو الاستقبال ، الباحث الأثرى الإسباني « بلاسكوت بوسكو Velasquez Bosco » وقد سميت الرحبة التي أقيم فيها البهو الرئيسي ، باسم « السطح المرد » وقد حليت مادة البناء من شتى نواحي الأندلس وأوروبا وأفريقيا . ويذكر المؤرخ ابن عذاري وهو من أهل القرن الثامن الهجري أنه كان يصرف فيها كل يوم من الصخر المنجور ٦ آلاف صخرة ، سري التبليل في الأسوس ( أي الأسس ) ، وجلب إليها الرخام من قرطاجنة أفريقية ومن تونس ، وكان الأمراء الذين جليوهم « عبد الله بن يونس وحسن القرطبي وعلى بن جعفر الإسكندراني » ، وكان الناصر يصلهم على كل رخامة بثلاثة دنانير ، وعلى كل سارية بشمانية دنانير سجلماسية . وكان فيها من السواري ٤٣١٣ سارية منها ١٠١٣ سارية من أفريقية ، وأهدى إليه امبراطور بيزنطة ١٤٠ سارية والباقى من الأندلس .

وأمام بهو الاستقبال وضع حوض للسباحة من الرخام ، حفر له في الأرض وهو مقوش ومزين بالتماثيل ، وقد جلبه وبيع الأسقف من القسطنطينية ، وكان عليه كما يقول ابن عذاري ١٢ تمثالاً من الذهب الأحمر المرصع بالدر النفيس الغالي مما صنع بهدار الصنعة بقرطبة ، وإنما أطلنا الكلام بعض الشيء على إنشاء تلك المدينة لتعطي عن رخاء الأندلس وارتقاء الفنون فيها فكرة واضحة . وكان الناصر فيما يقول المؤرخون قد قسم الجباية الى ثلاثة أثلاث : ثلث للجند وثلث للبناء وثلث للعدو . وكانت جباية الأندلس يومئذ ٥ مليون و ٤٨٠ ألف دينار من الكور والقرى ، ومن المستخلص والأسواق ٧٦٥ ألف دينار .

وفي عهد عبد الرحمن الناصر بلغ ازدهار قرطبة أقصى درجاته ، فقليل إن عبد دورها بلغ ١١٣ ألف دار ، فإذا قدرنا لكل دار عشرة سكان على الأقل ، كان المجموع مليوناً ومائة وثلاثين ألفاً . وهذا الرقم مستبعد لأن الأحوال في العصور الوسطى لم تكن تسمح بقيام مدينة بهذا الحجم ، ولكننا نستنتج منه بصورة عامة فكرة عن اتساع المدينة وازدهارها ، ومما يدل على كثرة سكانها ما يقال في أن عدد الحمامات بها بلغ ٣٠٠ حمام وهو رقم يدل على ضخامة تلك المدينة .

ولا نستطيع أن نجاري المؤرخين فيما يذكرونه من أرقام عن اتساع مساحة قرطبة في عصر الناصر وابنه الحكم المستنصر ، مثل قولهم إن عدد مساجدها بلغ ٣٠٠٠ مسجد ، وهو رقم لا يمكن تصديقه إلا إذا افترضنا أن معظم هذه المساجد كانت مساجد خاصة ، أي أن كل صاحب بيت كان ينشئ في بيته مسجداً له ولأهله ، وقد أشار إلى ذلك ابن حوقل الرحال

وبهذه المناسبة لا بد أن نشير إلى الزيادة الثالثة التي أمر بها عبد الرحمن الناصر بإضافتها إلى مسجد قرطبة الجامع ، وهي زيادة ضاعفت حجم المسجد وكانت في اتجاه النهر أي نحو الجنوب ، فازيل جدار القبلة ونقل إلى قرب ضفة النهر ، وهناك بنى سوراً يحجز المسجد عن الشارع المبلط بين النهر وسور المسجد ويسمى بالرصيف ، وكان متنزه أهل قرطبة

أما زيادة الناصر في المسجد الجامع فقد بلغ بها المسجد إلى أعلى ما وصل إليه من رقى وجمال ، وقد بنيت على نفس طراز بقية المسجد . أي أن أقواسه بها مندرجة ومداميك الأقواس من الحجر الأبيض والطوب الأحمر وأجمل ما في هذه

الزيادة هي البلاطة المؤدية إلى بلاطة المحراب ، وقد قامت على عمد وقوائم مزدوجة ترتفع فوقها قبة تقوم على عصابات من الحجر ، وعند دراسة بناء هذه القبة يتقن المعماريون أن المعمارين الذين أنشأوها، وعلى رأسهم العريف أو المهندس « أحمد بن بندر » قد وضعوا الأساس للطراز الذي شاع في أوروبا بعد ذلك وعرف بالطراز القوطي ، وأكبر خصائص الأعمدة والعقود المديبة التي تقوم عليها القباب .

ومحراب هذه الزيادة آية من آيات الفن الأندلسي ، لأنه لبس مجرد حنية في جدار المحراب ، وإنما هو غرفة من الرخام سقفها قطعة واحدة من الرخام في هيئة محارة وكان في وسط هذا المحراب الصغير كرسي يوضع عليه المصحف العثماني ومنه يقرأ القارئ قبل الصلوات الجامعة .

وقد أنشأ عبد الرحمن الناصر صومعة المسجد الجامع أي مثنته ، وهي مثنتة في غاية الضخامة والجمال ، لأنها بناء ضخيم يقع في النهاية الشمالية لصحن المسجد المكشوف ، وكانت ترتفع في الجو ثمانين متراً ، وإيها موقفان للأذان ، ويزين أعلاها شبه سقف صغير مزين متفافح أي كرات ، اثنتان منها من الذهب وأحدة من الفضة .

كذلك أقام الناصر ما يعرف بالظلَّة في صحن المسجد الجامع ، وهي سقف متحرك يقام من أعمدة الخشب والحصار ليستظل بها الناس أثناء الصلاة في الصيف ، ثم ترفع بعد الصلاة لأن صحن الجامع الفسيح كان مزيناً بأشجار النارتج ، وهي ظاهرة تنفرد بها صحنون مساجد الأندلس عن غيرها من صحنون المساجد في عالم الإسلام ، وكذلك أكثر الناصر من إنشاء المساجد وتعميرها في شتى بواحي الأندلس . ويعتبر الناصر من أكثر حكام المسلمين منشآت في مختلف نواحي بلاده ، فإليه يرجع الفضل في تجديد أو إنشاء عدد كبير من مساجد مدن الأندلس من شماليه إلى جنوبه ، ولا نزاع في أن ذلك الرجل يعتبر من كبار البائين في تاريخ الإسلام . ولم تقتصر منشأته على القصور والمساجد ، بل إليه يرجع الفضل في إنشاء دار السكة في قرطبة وتجديد قنطرة الوادي في « أودية » وتجديد قنطرة سرقسطة وقنطرة ماردة .



## تقدير عبد الرحمن الناصر :

وبعد هذا العرض الموجز لحياة ذلك الخليفة العظيم الذي يعتبر من أعظم الخلفاء المسلمين في كل العصور نقول إن ذلك الرجل تميز بخصائص وصفات توّته إلى الأوج العظيم الذي بلغه ، فقد ذكرنا تحفة عن الدماء وبعده عن المساس بأحد من رجاله أو مصادرة أمواله ، وقد كان يكتفي في ذلك الحاصل بأن يقدم إليه الحُجّاب هدايا ذات قيمة كبيرة تضم الأموال والخيل والسلاح في المناسبات ، وقد اشتهر أمر هدية عظيمة قدمها للناصر حاجبه « عيسى بن شهيد » في إحدى المناسبات ، وقد أورد تفصيل أمرها المؤرخون . ومن وصفها نتبين أنها كانت تقدر بما يقارب المليون من الدينار وكان المفروض أن هذه الهدايا تعتبر مساهمات من أولئك الرجال لمعاونة الناصر على القيام بنفقات دولته ، فقد رأينا أنه كان عظيم النفقة في الحروب والجهاد والمنشآت والعناية بالمرافق .

ولكنه لم يلجأ قط إلى الحصول على مال من أحد بالقوة أو العنف ، بل يحكى المؤرخون حكاية تدل على عظيم شعوره بمسئوليته عن أرواح وأموال رعاياه . وقد حكى الحكيماء « حيان بن خلف » مؤرخ الأندلس ونقلها ابن مازي والقزويني . وخلّصتها أن رجلاً كان يتصرف في كبار الولايات ويتولى تموين الجيش اكتسب مالاً عظيماً من خدمة الناصر ، وكان الناصر يتوقع أن يقدم ذلك الرجل إليه بعض ذلك المال ، يستعين به على أمره فلم يجد الناصر له بذلك مراراً وهو في مجلسه وهذا الرجل يسمى « محمد بن سعيد » المعروف « بابن السليم » .

وفي ذات مرة أشار الناصر مرة أخرى إلى مال ذلك الرجل فطار عقل ابن السليم ، ولم يختلجه الشك في أنه المنعني به فقام بين يديه وقال يا أمير المؤمنين ، طالما عرضت لي فسكت ، بل والله عتدي مال كثير وهو دون ذلك فيه خُطئته بالتقتر وأعددت له الدهر الغُثُور ، ولست والله أعطيك منه درهماً فما فوقه . ورايك في جميل إلا أن تستحل ، وأعوذ بالله أن تمد يدك إليه بغير حناية مني عليك ، فإن الأنفس محضرة الشح . قال فضجل الناصر وأمرق يقول الله تعالى : ﴿ إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَبِذْكَاهُمْ تَبْخُلُوا وَيُخْرِجْ أَصْغَارَكُمْ ﴾ (سورة محمد آية ٣٧) وبعد قليل بلغ الرعب بالرجل أن تهوج فذهب ، وابتدره الوصفاء بالظست

والمناويل ، فأقبل الناصر وأخذ برأسه يمسكه ويقول له : « استقرغ ما في معدتك وتأن بنفسك » ، فأنكر ابن السليم كلامه بين الخدم ، وصرف إليه رأسه ، وإذا به الناصر ، فما تمالك أن خر إلى رجليه يقبلهما ويقول « يا ابن الخلائف إلى هناك انتهيت في برى ! » وجعل يدعو له ويعظم شكره ، فقال له الناصر : ليتنى أخرج كفافاً في شأني معك الليلة . « تأثيساً بإخافة ، وإطافاً بجفرة ، ثم أمر له بكسوة و انقلب إلى أهله (١) »

وهذا المثال يكفي للدلالة على ما كان يتمتع به عبد الرحمن الناصر من سعة قلب ورفق بالناس وتقدير لمسنوئيته وعفته عن الأموال والدماء ، ولا غرابة والحالة هذه أن يصل هذا الرجل إلى هذه المكانة التي وصل إليها في تاريخ الإسلام ، فهذا رجل تولى الأمر في الثانية والعشرين من عمره ، والبلاد مشتتة ناراً ونواحيها خارجة على الحكومة المركزية ، وقد أفسد أمرها الثوار وخاصة عمر بن حفصون وأمثاله من « ابن الشالية والسمياقي وعبد الرحمن بن مروان الجليقي » وغيرهم من كبار ثوار المولدين ، بالإضافة إلى ثورات العرب على حكومة قرطبة وخاصة في ناحية المرية وكورة إشبيلية ، فما زال ذلك الرجل يعمل بجد ودأب مستعيناً في عمله بالسرعة والحزم ، وكذلك بالخلق الكريم فقد صرب للثأرين المثل في حسن الخلق واحترام الكلمة ، فما كان يستنزل ثأراً إلا وثق له بعده ، وصدق ما وعده إياه ، فأحسن الثوار بأنهم أسام حاكم من طراز فريد فاطمأنوا إليه ودخلوا في طاعته ، وبعد نحو عشر سنوات من ولاية الناصر نجده قد استطاع أن يعيد الهدوء والنظام والوحدة والأمان إلى دولته الواسعة ، وخاصة في الجنوب والشرق والغرب ، ثم تمكن من استئلاف رجال الثغر الأعلى من أمثال بني قسي وبني هاشم الطويل ، فاستأمنوا إليه هم الآخرون ودخلوا في طاعته وهكذا تمكن هذا الرجل من الاستفادة من ملكات أهل الثغر الأعلى ، وكانوا فرساناً أشداء ويكنى أن نذكر أن هاشماً الطويل بلغ من إخلاصه للناصر ، بعد أن استأمن إليه ، أنه استشهد في سبيله في موقعة الخندق .

وعندما تولى الناصر كان ملوك الممالك النصرانية قد طمعوا في ثغور الأندلس الشمالية ، فما زال يقاتلهم كما رأينا ويوالي الحملات عليهم حتى انتهت أيام

(١) ابن عذري البيان العرب : ٢ / ٢٢٦ .

أردنيو الثاني ، ودخل خلفه في حلف الناصر وأطاعوه . وقد رأينا كيف أن ملوك إسبانيا النصرانية جميعاً قد أصبحوا إما من أتباعه أو أحلافه . وبذلك استطاع ذلك الرجل أن ينتشر على شبه الجزيرة كله آمناً واستقراراً لم يعرفه من قبل

وفي أواخر سنوات حكم الناصر بلغ من ازدهار بلاده وتآلق أصواء قرطبة ، أن وفد السفراء عليه من شتى بلاد أوربا ، ومن ملوك أوربا - الذين أرسلوا السفارات إلى - الناصر الملك «أوتو» امبراطور الامبراطورية الجرمانية المقدسة ويسميه المؤرخون «هوتو» ملك الصقلية ، فقد أرسل إليه سفارة استقبلها الناصر في البهو الكبير في مدينة الزهراء ، وبعث إليه «هيو كابيه» ملك الفرنجة في فرنسا ويسميه مؤرخونا «هوقو» ملك الفرنجة وكذلك أرسل إليه «قلدو» ملك الفرنجة في أقصى شرق أوربا والمراد به Hugo de Arles وهو مركيز «بروغسا» في جنوب فرنسا ، وقد صار هذا الرجل ملكاً على إيطاليا في سنة ٩٢٦ م . ومن السفارات التي وفدت على الناصر سفارة قلدو . ويراد به «جيريدو بن أدلبرت» مركيز ترسكانيا ، وكذلك أرسل إليه سفارة كونت برشلونة وطركونة ويسمى «المعيرة بن سونير» Mugira Luljo De Sunier يل أرسل إليه صاحب روما وهو البابا سفارة تخطب وده ، وقد أشرنا إلى السفارة أو إلى البعثة التي قام بها راهب مسيحي من ألمانيا يسمى «يوحنا الكروزي» Johannes Von Golze ، وقد دونها لنا ونقل لنا نصها اسقف يسمى «يوحنا» كان في دير «سان أوتو» ، وفي تفاصيل هذه الزيارة الباقية إلى يومنا هذا ، ما يدل على ما وصل إليه الناصر من عظلة وجلال في أنظار ملوك العرب ، وقد وصفت راهبة ألمانية ، لم تزر قسوطية ، ولكن صيتها بلغها ، وصفتها بأنها درة أوربا .

ولا شك في أن طول عمر عبد الرحمن الناصر أعانته على تحقيق هذه العظامم التي قام بها ، فإن طول العمر يبلغ الأمل . فلقد عاش هذا الرجل حتى هلك أعداؤه ، وانفسح أمامه السبيل لكي ينهض بأعماله كلها في إعادة الأمن والنظام ، إلى تثبيت الحدود ، وتنظيم الإدارة ، وإنشاء المنشآت . وكل ذلك قام به عبد الرحمن الناصر في هدوء وثقة نفس ، وبلغ بذلك أقصى ما بلغه حاكم مسلم في العصور الوسطى . ولقد قدر المؤرخون المحدثون عيـد الرحمن الناصر أعظم تقدير ، فقال فيه «دوئي» المستشرق أنه أقرب إلى حكام العصر الحديث منه إلى ملوك العصور

الوسطى ، وقال ليفي بروفنسال . إن « عيد الرحمن الناصر يعتبر دون شك من اعظم ملوك أوروبا كلها في كل العصور » . وأشار إليه أرنولد توينبي المؤرخ واتخذته مثالاً للحاكم المستنير ، الذي يتخطى عصره بملكائه ومواهبه وأخلاقه وفهمه الدقيق لمسئولية الحاكم وقدرته على القيام بمسئوليياته جميعاً .

وتوفي عبد الرحمن الناصر في الثاني من رمضان ٣٥٠ هـ / ١٥ أكتوبر ٩٦١م بعد أن قام بالعمل العظيم الذي أشرنا إليه ، ووصل بالاندلس إلى أوج قوته وازدهاره ، ودفن في رياض قصر قرطبة حيث كانت تدفن أمراء البيت الأموي الاندلسي وخلفائه ، وقام من بعده ابنه الحكم بن عبد الرحمن الذي تلقب بالمستنصر .



## خلافة الحكم المستنصر

٣ رمضان ٢٥٠ - ٢ صفر ٢٦٦ هـ

١٦ أكتوبر ٩٦١ - ٣٠ سبتمبر ٩٧٦ م

### نهوض العلم في أيامه :

من حسن المطالع أن الذي خلف عبد الرحمن الناصر ، كان كبير أولاده وولى هذه الحكم الذي اتخذ لقب المستنصر بالله . وكان خير خلف لخير سلف ، ونستطيع أن نقول إن حكمه كان مكملاً لحكم أبيه . فإذا كان الناصر رجل حكم وسياسة وحروب ، فقد كان الحكم المستنصر رجل علم وحضارة ، ولم يكن الحكم مجرد حاكم يعطف على العلماء ويرعى العلوم ، بل كان هو نفسه عالماً مشاركاً في علوم عصره ، فقد كان متقناً للعلوم الإسلامية حتى سمع الحديث منه الشيوخ وأجاز لهم مروياته وأجازوه مروياتهم . وكانت أبوابه مفتحة لطلبة العلم ولا يرد منهم أحداً . وأنشأ في القصر مكتبة لا تبالغ إذا قلنا إنها أعظم مكتبة أنشأتها دولة إسلامية في العصور الوسطى ، فقد بنى لها بناء خاصاً ، وأقيم فيها رجال المكتبات من مفسرين ومسجلين ومنظمين ، وكانت قهارسها تقع في ٤٤ كراسة لا تضم إلا العناوين ، وقد قدر المؤرخون كتبها بما يقرب من نصف المليون مجلد ، وأنشئ لها مصنع خاص بالتجليد ، وعمل فيها عشرات الساعين ، وكان للحكم مراسلوه الذين يوافونه بالكتب الجديدة لأول ظهورها ، وكان يجيز على ذلك بالمال الكثير . وهناك كتب شرقية كثيرة كلن الحكم أول من قرأها ، لأنه عندما كان يسمع بأن مؤلفاً مجيداً يكتب كتاباً كان يرسل إليه مالا لتكون له النسخة الأولى ، ومن أمثلة ذلك كتاب « الأغاني » لأبي الفرج الأصفهاني ، فقد أرسل إليه الحكم ألف دينار ليرسل إليه أول نسخة من الكتاب ففعل

وقد انتقد الحكم المستنصر بسبب هذا الإسراف في الانصراف إلى العلم ، فإن ذلك صرفه عن القيام بمطالب الحكم كما ينبغي ، وهناك وجه من الحق في هذا

النقد ، فلو أن المستنصر اكتفى بتشجيع العلم دون الاشتغال به لما وجد أمثال ابن أبي عامر سبيلاً إلى السلطان .

والطريف في الأمر أن الحكم كان يقرأ الكثير من هذه الكتب ويعاقي حواشيها ويستدرك على مؤلفيها بخط يده . وقد عثرنا بالفعل على كتب عليها خط الحكم وملاحظات ، وكان العلماء بعد الحكم يعتبرون هذه الملاحظات أصولاً تُعتمد . ولم يقتصر الحكم على علوم العرب بل على بكل العلوم . وتحت إشرافه ترجم « قاسم ابن أصبغ البياني » و « حفص بن البر » كتاب التاريخ « لهرشيموش » من اللاتينية ، وترجموا له كتاب « ديوسقوريدس » في الطب من اليونانية ، وكان يرسل الناس إلى شتى البلاد يطلب إليهم أن يكتبوا دراسات عما زاروه من الاقطار ويحفظ بهذه الدراسات في مكتبته ، ومن أمثلة ذلك رحلة « إبراهيم الطرطوشي » الإسرائيلي في بلاد أوربا ورحلات محمد بن يوسف الوراق في أفريقية وقد كثرت المكتبات في الأندلس في أيام الحكم ، وأصبحت صناعة النسخ من الصناعات الزاهرة ، وقد اشتغل فيها النساء في البيوت بصفة خاصة ، واشتهرت الكنترات منهن بجودة الخط ودقة النسخ حتى طلبت منسوحاتهن بالآلاف . وكانت تسخ القرآن التي تكتبها الأندلسيات مضرب المثل في الدقة والجمال ، وتنافس الناس في اقتناء الكتب حتى أصبحت تُشترى لاستكمال مطهر الرقي والترف ، فكانت المكتبة جزءاً من مركز الرجل الاجتماعي .

ونتيجة لذلك نهضت صناعة الورق نهضة كبرى ، واشتهرت بلاد أندلسية بورقها الجيد مثل بلنسية وطرطوشة وشاطبة ، وكان الورق الشاطبي مشهوراً في العالم الإسلامي كله ، وبلغ من جودته أن بعض الوثائقيين كانوا لا يكتبون الوثائق إلا عليه ، وإن جانب جودة نوعه اشتهر برخص ثمنه ، وقد عرف عرب الأندلس صنفي الورق اللذين عرفنا في العصور الوسطى وهما الكاغذ ، وهو ورق عادي ، والرقاق وهو ما يعرف بالبارشمان ، وهو ورق متين سميك يقارب القماش في متانته مع الاحتفاظ بصلابة الورق . وقد وصلت الرقاق الشاطبية إلى كافة نواحي أوربا وطلبتها البابوية لكتابة الأناجيل ووثائق الكنيسة عليها . ثم قُدم الإيطاليون صناعتها بعد ذلك .

ولم تنفرد صناعة الورق وحدها بالتقدم ، بل تقدمت كذلك كل أدوات الكتابة من حجر وأقلام وشمع للأختام وسكاكين لقطع الأقلام وما إلى ذلك . وقد نبغ الأندلسيون في صناعة الأحبار وعرفوا المعدني والنباتي والمطبوخ وغير المطبوخ والبسيط والمركب منها ، وعرفوا أقلام الغراب ، ويسمونه الأفبوب وريش الطيور . بل صنع بعضهم أقلام حجر ، أي أقلاماً تُعَلَّأ بالحبر وتصنع بهيئة محكمة بحيث يحملها صاحبها معه ويكتب بها متى شاء . وتفننوا في صنع الحابر من الزجاج والبلور والرخام ، وكانوا يزخرفون الحابر ويكتبون عليها اسم صاحبها بالحفر مع بعض الشعر أحياناً ، واشتهروا محابر محكمة الصنع تُعمل على هيئة الخنجر في قربابه . لتوضع في حزام الثوب مع أقلامها وأنواع غيار التجفيف .

ونشأت في قرطبة وغيرها من بلاد الأندلس أسواق الرقاقين إلى جانب أسواق السواقين ، فأما السواق فهو تاجر الكتب أي المخطوطات في ذلك العصر . وكان المفروض في السواق أن يكون عالماً بالكتب وأقمارها وحطوطها بحيث يستطيع تلبية حاجات عملائه ، وفي العادة تجد السواق من أهل الأدب لكثرة مزاولته النظر في الكتب

وأما الرقاق فهو تاجر الأدوات الكتابية أو ما يسمى بالإنجليزية

Stationary

وفي بعض البلاد العربية يسمى اسكان بالفرطاسية أي التي تباع القراميس والأقلام والأحبار والكراسات .

### سياسة الحكم المستنصر :

وكل ذلك لم يشغل الحكم عن النظر السديد في أمور ملكه ، وقد حاول ملوك النصرانية أن ينتهزوا فرصة اشتغاله بالعلوم فبدأوا بالإغارة على أطراف الدولة . فتهضم الحكم بالغزو ابتداء من سنة ٣٥٢ هـ / ٩٦٢ م . وأوغل في أرض ليون . فلم تجز سنة ٣٥٢ هـ / ٩٦٤ م . حتى كانت قوات قرطبة قد أوغلت في أراضي ليون ونبرة واستولت على قلاع كثيرة من قلاعها وأرغمت هاتين المملكتين وغيرها من الإمارات النصرانية على العودة إلى التسليم بسيادة قرطبة . وابتداء من سنة ٣٥٥ هـ / ٩٦٦ م . بدأت سفارات هذه الممالك تتواعد على قرطبة . وقد وصف لنا

ابن حيان مؤرخ الأندلس استقبل هذه السفارات في الزهراء والمراسم التي كانت تتبع في هذه الاستقبالات ، وكلها تنطق بما وصلت إليه قرطبة من السيادة في شبه الجزيرة كلها ، بل أرسل يوحنا الشمشيق Tsimiskes امبراطور بيزنطة . سفارة إلى قرطبة سنة ٣٦١ هـ / ٩٧٣ م . وكذلك أرسل أوتو الثاني امبراطور ألمانيا - الذي خلف أوتو الأول - سفارة لتجديد المودة والصداقة مع قرطبة

### حروب الحكم في المغرب :

وظهر في أيام الحكم أمر قائده الكبير غالب الناصري الذي يلقب بفارس الأندلس ، وهو أول نموذج من الجند الصقلي الذي وصل إلى مراتب القيادة العليا ، التي كانت قبل ذلك وقفاً على أبناء البيوت المرانية التي ذكرناها . وكان غالب في شبابه قائداً ماهراً مرهوب الجانب لا تجرؤ إمارة نصرانية على تحدي قواته وكان مقامه الدائم في مدينة سالم ، وكانت وظيفته الرئيسية قيادة جيش الثقور . أي الجيش المرباط على الحدود الشمالية ، وكان في العادة حيشاً ضخماً مُعداً أحسن إعداد ومُدرباً أكمل تدريب ، وكانت كتلة الجيش الرئيسي تقيم في مدينة سالم قاعدة الثغر الأوسط ، وكانت هناك فرق إضافية في الحصون الكثيرة التي أنشأها الأمراء على الحدود الشمالية وأهمها مجريط ( وهي مدريد الحالية ) وقلعة هنارس أو قلعة عبد السلام Alcala de Henares . وادى الحجرة Guadalajara وسفونشة Siguenza وأنيثه Atienza والمنار Almenar وقلعة النسر Galatanazor وسوريا Soria وأوسما Osma وغرماج Gormaz وناجرة Najara وكلها في حوضي الدوير والابرو الأعلىين وقرب منابعهما . وهي تقع على غور جبال الشارات أو جبال وادى الرمل Guadarrama التي كانت تعتبر الحد الطبيعي لبلاد الأندلس ، ومن هذه الحصون عمل فواد المسلمين على سيادة كل حوض الدوير . وكانت هذه المناطق خلاً تقريباً ، ولهذا سهل على قوات مملكة ليون من ناحية وثرة من ناحية أخرى التقدم فيها وغزو بلاد المسلمين إذا وجدوا غرة منهم .

وإلى آخر أيام الحكم المستنصر ظلت سيطرة القوات العسكرية الإسلامية قائمة على مناطق الحدود ، بفضل ما كانت القوات الإسلامية تتمتع به من قوة وحسن استعداد .



وكان الحكم حريصاً أشد الحرص على أن تكون تلك الحصون في أحسن حالات المنعة والاستعداد . وكان يشحنها دائماً بالمؤن والأسلحة . وبعض هذه الحصون مثل غرماج كان أشبه بمدينة كاملة فيها محازن الطعام وأموار الفصح وصهاريج المياه ومرابط الخيل ، ولا زال الكثير من بقايا تلك الحصون قائماً حتى اليوم .

وكان للخلافة إلى جانب ذلك الجيش جيش آخر يقيم في الزهراء يسمى جيش الحضرة ، وكانت قيادة جيش الحضرة للخليفة نفسه ، وهو ينوب عنه من يريد من قواده ، فإذا خرج الخليفة للغزو جمع قيادتي جيش الثغور وجيش الحضرة .

وإذا جاء وقت التغیر أعلن الخليفة عزمه للخروج وأمر بالاستعداد فبدأ عملية واسعة النطاق تسمى « البروز » فتوافد قوات الكور المحنطة وتنزل سهول واسع شمال قرطبة وقصر الرصافة يسمى « فحص السراق » ، ثم يخرجون سرادق الأمير ويجعلونه وسط الفحص ويضرب فرق الجنود خيامها وتقتل قوات المتطوعة ، وكانت في العادة الوف من الناس الذين يخرجون للجهاد حسنة له تعالى . وتستمر مدة البروز شهراً ثم يخرج الخليفة بحنـه الصقلي وحرسه وفرق الكور المحنطة والمتطوعة ويمتقل من حصن إلى حصن حتى يصل إلى الحدود فينضم له جيش الثغور . وهنا تبدأ « الصائفة » أي العملية العسكرية الصيفية ومدتها شهران من الغزو في أرض العدو .

ولكن الموضوع الذي شغل الحكم أكثر من غيره كان أمر الفاطميين في المغرب ، وقد يالـع الحكم في الاهتمام بذلك ، إما لأنه رأى في محاربة الفاطميين جهاداً أو لأن نصحاءه صوروا له الخطر الفاطمي على صورة أكبر مما ينبغي . والحقيقة أن شعور الحكم المستنصر الديني وتضلعه في الفقه الشنـي وخماسة لمذهب مالك ، كل هذا جعله ينظر إلى الفاطميين ودعوتهم الإسماعيلية . على أنهم زنادقة يحل حربهم ويتعين على إمام الجماعة أمر محاربتهم أينما كانوا . فكان لهذا ميلا إلى مدافعهم عن المغرب الأقصى خشية أن ينتقل مذهبهم إلى الأندلس . ورأى بعض وزرائه في ذلك فرصة للكسب دون حساب ، فزينا له أمر محاربة الخطر الفاطمي في المغرب خاصة . وقد نهض الإدارة من جديد على يد الحسن بن كنون ودخلت دولتهم في دورها الثاني . لأن مقية منهم كانت قد اعتصمت في قلعة حجر

النصر» جنوبى تطوان ، وتولى أمرهم - أيام الحكم - القاسمُ بن محمد بن القاسم ابن إدريس المعروف بالحسن بن كثرن ، وكان أميراً صغيراً يعتز بتأييد جماعات من الصنهاجيين معظمهم من قبائل غمارة . وكان الحسن بن كثرن يعرف ضعف مركزه وعجزه عن مواجهة هذا ليرضى الحكم المستنصر ، إذ كان يريد الإخلاص لبيته ولا شيء غير ذلك . وقد طال الأمر بالحكم وهو يرسل القوات وينفق الأموال ، حتى لقد استدعى قائده الأعشى غالب بن عبد الرحمن الناصرى الملقب بقمارس الأندلس من الثغور الشمالية وأرسله إلى المغرب ، وأنفق الحكم في ذلك مالا جسيماً ولم يؤد الأمر بعد ذلك إلى نتيجة تذكر ، وقد أسف الحكم في أحريات أيامه على ما أنفق من مال وما ضحى به من رجال في هذا المقصد ، مما أدى إلى ضعف ثوروه الشمالية ، وكانت أولى بعثاته وأحق بالمراقبة الدائمة .

وهنا يختلف الحكم عن أبيه الناصر لدين الله في سياسته الأفريقية ، فقد كان الناصر لدين الله يحرف دائماً الحد الذى يقف عنده في كل ميدان فقيماً يتصل بالمغرب ، اكتفى بالاستيلاء على سبتة وطنجة وعليلة واعتبرها أجزاء من بلاده وجعلها قواعد تحمى سواحله الجنوبية ، وعن طريق هذه القواعد كسب تأييد الكثير من القبائل الزناتية التى كانت تتلوى الحكم الفاطمى ، وقد كان الناصر يرسل الهدايا الفاخرة إلى رؤساء القبائل ، ويستقبل من يقد منهم على الأندلس استقبالا فخماً ، ويفتح أبواب العمل في جيشه للمرتزقة من أهل المغرب الذين كانوا يعدون عليه في جماعات كبيرة . وكان هذا كافياً ليضمن له السيادة على ساحل المغرب ، أما الحكم المستنصر فقد أراد فتح المغرب الأقصى الشمالى وأنفق في ذلك جهداً ضخماً ولم يحن من وراء ذلك إلا إضعاف ثوروه الشمالية .

وقد قضى الحكم سنواته الأخيرة في العناية بالعلوم والآداب ، فنظم التدريس في المسجد الجاسع حتى أصبح هذا وكأنه جامعة حقيقية تدرس فيها صروب العلوم ، واحتلت حلقات الدرس أكثر من نصف المسجد ، وأخرج الحكم الأموال للشيوخ والأساتذة حتى يتفرغوا للتدريس والتأليف ، وخصص أموالاً جزيلة للطلاب فأعطيت المكافآت والمعاونات للمحتاجين منهم . وعمر الحكم في إدارة المكتبة الأميرية إلى أخيه عبد العزيز ، وكلف أخاه المنذر بالإشراف على شؤون جامعة قرطبة ، ووقع نقرأ من العلماء إلى مرئىب تشبه الأستاذية اليوم ، من أمثال

« أبى بكر بن معاوية القرشى » أستاذ الحديث « وأبى بكر بن القوطية » أستاذ الأدب والنحو . « وأبى بكر الزبيدى » أستاذ اللغة « ومحمد بن أحمد بن مفرج » أستاذ علوم القرآن . وقد أسبغ الحكم رعايته على غير المسلمين من العلماء مثل « ريثيموندو » الألبيرى أستاذ النصرانى المسمى « يربيع بن زيد » . وكان متمكناً من الآداب العربية واللاتينية . وكان يقوم بوظيفة المترجم الرسمى أو كبير المترجمين للحكم

وفي أوائل سنة ٣٦٥ هـ / ٩٧٦ م . شعر الحكم بالشيخوخة تدب في أوصاله ، ومع أن سنة كانت في الرابعة والستين إلا أن عياله الضعف تزايدت عليه ، فدعا الناس إلى بيعه أبته هشام وكان لا يزال طفلاً ، وقد تمت هذه البيعة رغم مخالفتها للشرع . ولكن الحكم كان شديد القلق بزيادة عظيم الرغبة في أن يستمر الملك في نسبه ، وقد انتقده الناس بسبب ذلك وحمل عليه « ابن حيان » المؤرخ ، لأن البيعة تمت يسمى صريح البشكنسية أم هشام وروجة الحكم الأثرية على نفسه . وكانت جارية بشكنسية رائعة الجمال شديدة الذكاء والضموع ، وكانت تخشى أن يصير العرش بعد الحكم إلى أحد إخوته لأن ابنها كان طفلاً ، ولهذا فقد اتصلت سراً بنفر من كبار رجال الدولة مثل جعفر المصطفى الحاجب ومساعد . « محمد بن أبى عامر » لئى تضمن تأييدهما لها إذا مات الحكم . وكان محمد بن أبى عامر إذ ذاك شاباً متطلعاً شديد الذكاء ، وقد وصل في أواخر أيام الحكم أن أصبح صاحب السكة والموازيث . أى المشرف على دار سك العملة وعلى الأوقاف . وتهيأت له بذلك أموال كثيرة تمكن بها من ضمان العرش لهشام الصغير .

وتوفي الحكم المستنصر في ٢ صفر ٣٦٦ هـ / ٣٠ سبتمبر ٩٧٦ م . وبموته اختفى آخر العظماء من بنى أمية الأندلسيين . وقد كان الحكم إلى جانب علمه وخبرته بشئون الدولة ، رجلاً كريماً طيب القلب لا يكاد يغضب على الرجل حتى يسارع بالعفو عنه ، وكان خبيراً جداً بكثير الصدقات دائم البر بالفقراء ، فكان لا يترك مناسبة إلا فرق الأموال الجلييلة ، وقد نعم الناس في عصره بأمان وأطمئنان لم يعرفوهما فيما بعد .

ومن أعظم أعمال الحكم توسيعه المسجد الجامع ، وقد بدأ به في أيام أبيه الناصر ولكنه تم في أيامه . وتعتبر تلك الزيادة الثانية تنويجاً لأعمال الناصر وابنه الحكم المستنصر في الناحية الحضارية .

## هشام المؤيد

صفر ٣٦٦ - ١٧ جمادى الأولى ٣٩٩ هـ

أكتوبر ٩٧٦ - ١٦ فبراير ١٠٠٩ م

عندما مات الحكم المستنصر ظهرت بادرة ثنيي بما سيتعرض له الأندلس من المتاعب والفوضى فيما بعد ، فإن الحكم أوصى بالعرش لابنه وكان عند موته غلاماً في الثمانية عشرة ، ومعنى ذلك أن السلطان سيقع في يد من يقومون بالوصاية على ذلك الطفل وقد تنبه إلى ذلك صقائبة القصر وكان عددهم يقارب الألف ، وكان لهم في القصر نفوذ عظيم ، ولكن هذا النفوذ كان متوقفاً على وجود خليفة قوي يستفيد من خدماتهم ويثبتهم في سلطانهم ، أما الوصاية فتفتح الباب للوزراء والطامعين .

### مصر الأندلس تحت رحمة الأوصياء على الخليفة القاصر :

بادر القتيان « فائق وجودر » كبير الصقائبة بكتمان خبر وفاة الحكم ، وقرراً استدعاء « المغيرة بن عبد الرحمن » وعمّ ولي العهد هشام لكي يسند إليه الخلافة . ولكن سوء الحظ أراد لهما أن يستشيرا في الأمر « جعفر بن عثمان المصحفي » صاحب الحكم أي رئيس وزرائه ، وكان أبوه في أول أمره مؤدباً للحكم ، ونشأ هو صديقاً للخليفة ثم وصل إلى السلطان عن طريق هذه الصداقة الحميمة مع الحكم ، ولكنه كان سياسياً سيئاً أنانياً عهد في الكثير من وظائف الدولة لأبنائه وأقاربه وكان كذلك غير أمين على الأموال ، فصور له خياله أنه إذا دافع عن خلافة هشام أصبح هو الوصي وأصبحت الدولة في يده .

ولهذا فبدلاً من أن يكتم الأمر تظاهر بالافتناع برأى الصقائبة ، ثم ذهب فاستدعى أنصاره وأولهم محمد بن أبي عامر صاحب الشرطة والحواريث ، وأقضى إليهم بما يؤيد الصقائبة وبعاثهم إلى تأييد هشام وانفقوا على قتل المغيرة ، وتولى قتله محمد بن أبي عامر ، فكانت تلك الجناية الشنعاء نذير شؤم على جعفر المصحفي وأصحابه وعلى الأندلس كله .

وعلى أثر ذلك بويح الصبي هشام يوم الاثنين ٢ صفر ٣٦٦ هـ / أول أكتوبر ٩٧٦ م وأقبل الناس يبابيعون ، ويقال إنه لم يعترض على هذه البيعة أحدٌ

وإن كنا نؤمن أن المصحفي وصاحبه محمد بن أبي عامر قاما بعملية تدليس وإرهاب لكى يخلص السلطان لهما . وقد سعدت بهذا التوفيق « صبيح » الملقبة بالشككنسية ، وكانت في الحقيقة شابة طموحة ناغارية وهى « أم هشام » وكانت أقرب الناس إلى قلب الحكم ، وكانت كما قلنا امرأة طموحها إلى السلطان ، تدخل في كل شيء . وكان جعفر المصحفى ومحمد بن أبي عامر يخدمانها ويمكنان لأنفسهما في السلطان بالتقرب إليها .

وكان من الواضح أن التنافس واقع بين الرجلين لا محالة ، وبدأ النزاع فعلاً ، فاستعان محمد بن أبي عامر بصبيح على غريمه ، فلم يلبث أن رقى وزيراً ، ثم أصبح حاجباً أى رئيساً للوزراء .

وما إن وصل إلى هذه الوظيفة حتى غدر بصاحبه القديم ، فأسقطه من الوزارة وألزمه داره ، ثم بدأ تحقيقاً معه فيما ضيع هو وآله من أموال وأمر به فسجن سجناً طويلاً ، ثم أمر بقتله . وهكذا دفع المصحفى ثمن جريمته في قتل أمير برىء دون أى جريرة تستحق ذلك .

### محمد بن أبي عامر يصبح السلطان الأعلى في الدولة :

وعقب ذلك انقلب ابن أبي عامر على الصقالية ، فعزل رؤسائهم ثم أخرج معظمهم من القصر ، وتواطأ مع القادة وصاحب المدينة وقائد الجند وصاحب الأعتة على القبض على ناصية السلطان ، وبالفعل لم تمر سنة حتى وصل ذلك الرجل إلى السلطان في الدولة ثم حجر على هشام الصبي ، فلم يسمح لأحد برؤياه ، وأقنع أمه بأنه يفعل ذلك محافظة على سلامة الخليفة الصغير من المتآمرين والراغبين في القضاء عليه .

والحقيقة أن الخطر العظيم على العرش كان ابن أبي عامر نفسه ، فقد نشأ هذا الرجل متأمراً خبيثاً أنانياً ، وأسرته ترجع إلى أصل يمتنى ويقال إنه من شلب في البرتغال الحالية . وكان أبوه فقيها ذا مكانة ، ودرس هو في بلده ثم في قرطبة ليصبح فقيهاً مثل أبيه ولكنه كان طموحاً إلى المناصب مؤهلاً للعمل في السياسة . وقد حكيت أساطير عن أصله وأوليائه وطريقة وصوله إلى السلطان ، ولكن الحقيقة أن خالاً له كان من كبار رجال الإدارة والقصر ، فسعى له حتى أقامه على

خطة المواريث في إشبيلية ، وبفضل خاله أيضاً - وكان صهره - نُقل إلى نفس الوظيفة في قرطبة ، ثم رُشح للنظر في أملاك الأمير هشام قبل أن يلى الحكم . وهذا كانت مهارة ابن أبي عامر الذي توصل عن طريق الولد إلى الاتصال بالأم وجعلها ترى أنه يستطيع تأييد حق ابنها في وراثة العرش ، وعن هذا الطريق تمكن أمره وافتتح أمامه باب السلطان .

المهم أن محمد بن أبي عامر سار في طريق سبي لا ينظر إلا لمصلحه ويضخى في سبيل ذلك بكل شيء ، فهو لا يكاد يصل إلى هدف مستعينا بخلعاء وانتصار حتى يتخلص عن حلفائه بل يغدر بهم دون رحمة أو ضمير . وقد لمس ميل « الحكم » الشديد إلى أن يخلفه ابنه فتقرب منه وكسب ثقته ، ثم نديه في بعض المهام العسكرية في المغرب ، وهناك بدأ ابن أبي عامر يكسب ولاه القادة والفروسان . وأغدق عليهم من أموال الدولة دور حساب ، لأن هذه الأموال كان المفروض أن تعطى لرؤساء البربر فاستخدمها ابن أبي عامر في مصالحه الشخصية

وعندما وصل ابن أبي عامر إلى هذه الدرجة من السلطان اتجه اهتمامه إلى أن يعسك بيده زمام الجيش ، وكان يتولاه القائد غالب بن عبد الرحمن الناصري صاحب الانتصارات العظيمة في المغرب وفي الثغر الشمالي فخطب ابن أبي عامر ابنة غالب وتزوجها ، وأوسع لنفسه بذلك طريقاً إلى قلب هذا القائد الكبير .

ولا شك في أن زواج ابن أبي عامر من ابنة غالب قد أوجد قللاً في نفس صبي البشكنسية ، فأصبحت ترى بوضوح أن هذا الرجل سائر في طريق يختلف عن الطريق الذي كانت تريده هي أن يسير فيه ، وبدأ صراع خفي بين ابن أبي عامر وهذه السيدة التي كانت سبب وصوله إلى السلطان . ولكن « صباحاً » لم تكن تستطيع شيئاً وحدها . خاصة وقد ذهب أمر صقالبة القصر . وكانت تستطيع أن تستعين بهم لو أنها لم تُعين محمد بن أبي عامر عليهم .

وفي هذه الأثناء كان ابن أبي عامر قد تمكن من قلب غالب ، خاصة وقد استصدر له مرسوماً يعطيه لقب ذي الموارثين ، ولم ينس ابن أبي عامر نفسه في أثناء ذلك فجعلن نفسه قائد جيش الحضرة ، في حين اقتصر غالب على قيادة جيش الثغر .

وبجيش الحضرة هذا بدأ ابن أبي عامر يقوم بفزوات في الشمال فقام بعزوة هوفقة في غروب أراضي ليون سنة ٣٦٦هـ / ٩٧٧م وتنجى له غالب جاسوساً أنه خليفة فعلاً ، وفي العام التالي قام بحملة أخرى عاد بعدها محملاً بأنغنام والسبي فازداد صيته وأحببه الجند وتحبث باسمه الناس . ولابد أن نذكر هنا أن غالباً كان قد أسس ومال إلى القعود والراحة .

### محمد بن أبي عامر يخشئ جيشاً خاصاً به من المرتزقة :

واهتم ابن أبي عامر بإنشاء جيش خاص به وكان ذلك أسوأ أعماله . فاستقدم الآلاف من البربر وأدخلهم في خدمته . ولم يلبث أن أصبح له منهم جيش صحم يخشئ باسمه . وقد نفر الأندلسيون وقدماء المحاربين من ذلك الجيش البربري الغريب عن البلاد نفوراً شديداً ، وكرههم أهل قرطبة بسبب دالته العظيمة على صاحب السلطان . ولكن ذلك كله كان لا يهم ابن أبي عامر ، بل ظن أنه يستفيد منه ، فقد كان نفور الأندلسيين من جنده البربر يحول دون اتحاد عناصر الجيش القديم ضده . ويجعل البربر يشعرون بأن مستقبلهم معتمد عليه . أما نفور الناس من البربر فكان كغليلاً بأن يجعل البربر أكثر تمسكاً به وتأييداً لسلطانه

وفي أثناء ذلك أخذ ابن أبي عامر يطارد كل الظاهرين من بني أمية الذين يخشئ منافستهم ، فاضطهد هذا البيت الجليل اضطهاداً شديداً وقتل الكثيرين من رجاله ، وهرب منهم نفر وسكن الباقون خوفاً منه

ولم يبق بعد ذلك إلا غالب الناصري وقد تنبّه هذا الرجل إلى خديعة ابن أبي عامر إياه . وبدأ صراع عنيف بين الرجلين انتهى بقتل غالب وبذلك خلا الجو لابن أبي عامر ، فأصبح بهذه الأساليب الشريرة سيد الأندلس دون منازع ، يحكمه بالإرهاب والقوة والعتف والجريمة ، مما كان له أسوأ الأثر على البلاد فيما بعد .

ومن غريب أمر هذا الرجل ودلائل مكره الشرير ، أنه كان يحرص دائماً على الوقعة بين جيشه البربري الجديد والحيش الأندلسي القديم غير مبالي بما قد يؤدي إليه ذلك من نتائج ، فإن جيش الأندلس القديم كان يقوم على تقاليد

عسكرية جلييلة ، وضعها قادة عظماء ذكرنا بعضهم مثل عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث ، وأبى العباس أحمد بن محمد بن أبي عبيد ، وكان هذا الجيش مرتباً على نحو منظم يضمن لرجال التدريب والخبرة ، وكان ضباط ذلك الجيش يعرفون بالعرفاء والمفرد عريف ، وكان العريف يدرّب تدريباً طويلاً أثناء الخدمة العسكرية ، وكان العرفاء من أبناء البيوت الكريمة ومن أبناء رجال الجيش ، فقد كانت العادة أن يخلف المحارب ابنه الأكبر ، أو أحد أبنائه في وظيفته ، فكان للجيش الأندلسي بذلك نظام وترتيب ، وكان يعتبر درع الأندلس .

وقد حرص ابن أبي عامر على أن يخط من أمر أولئك الجنود الوسائل وأن يظهر في كل مناسبة أن جنده الجديد أمهر وأقدر منهم ، فامتلات قلوب المحاربين حقداً عليه وعلى جنده المرتزق ، وهكذا أصبح العداء شديداً بين جيشي الدولة . وظهر بوضوح أنه إذا اختفى محمد بن أبي عامر من الميدان وقعت الحرب الأهلية بين الجيشين .

وقد نشأت عن ذلك كراهة عميقة بين الأندلسيين عامة وأولئك البربر الجدد ، وسنرى أن تلك الكراهة كانت من أسباب سقوط دولة بني أمية وتفرق أمر الأندلس .

### غزوات محمد بن أبي عامر دوى عظيم ونتيجة قليلة :

وكان محمد بن أبي عامر يحس أن الناس جميعاً يرون فيه الغاصب المتآمر الماكر ، الذي وصل إلى السلطان بالخداع والمكر والأساليب السيئة مثل علاقته بصبيح البشكنسية ، وكانت هذه العلاقة موضع تعليق وسخرية كثير من جانب الأندلسيين ، ولهذا فقد اتجه إلى تغطية ذلك كله بأعمال تبهر العقول وتجذب إليه قلوب الناس ، وفي تلك العصور لم يكن هناك ما يجذب القلب مثل الجهاد والغزوات ، فبدأ سلسلة طويلة من الغزوات الموفقة في كل بلاد إسبانيا النصرانية ، وقد تناسى الشعب الأندلسي فعلاً أعمال ابن أبي عامر السيئة إلى جانب هذا النشاط العسكري ، ولكنه لم يشر فيهم ذلك الحماس الذي كانت تنبئه غزوات أمراء بني أمية وخلفائهم ، أولاً لأن الذين كانوا يقومون بهذه الأعمال لم يكونوا



حتد الأندلس كما كان الحال قَبْلَ ذلك ، بل جند محمد بن أبي عامر ، ولم يكن الأندلسيون يحيونهم ، وثانياً لأن هذه الغزوات عر كثرتها لم تؤد إلى أى نتيجة حاسمة ، ولقد قام محمد بن أبي عامر بإثنتين وخمسين غزوة خلال نحو ٢٤ سنة ، ولكن حدود دولة الإسلام ظلت على ما كانت عليه ، ولو أن محمد بن أبي عامر استطاع بهذه الجهود أن يرفع حدود الإسلام في الشمال الغربي إلى شمال خط الدوير بصفة نهائية لكان ذلك أحسن بكثير من هذه الغزوات المتوالية التي أضعت بلاد النصرى ولكنها لم تغَيّر من أحوالها .

ولو أن خليفة محمد بن أبي عامر كان رجلاً قادراً مثله فربما كان يمكن أن تكون لهذه الغزوات نتيجة عظيمة ، ولكنه أصر على أن يخلفه ابنه « عبد الملك » وكان شاباً جريئاً بأسلاً ولكنه كان طائشاً جاهلاً كثير المفاصد فلم يعمر إلا سبع سنوات ثم كان الطرفان بعد ذلك .

### محمد بن أبي عامر يتخذ لقب الحاجب المنصور ويخاطب بلقب الملك :

ولقد كسب ابن أبي عامر في أواسط سنة ٣٧١هـ / ٩٨١ م . نصراً عظيماً على قوات مملكتي ليرن ونبرة وكونتية قشتالة ، وعندما عاد إلى قرطبة اتخذ لقب الحاجب المنصور وأمر بالدعاء لنفسه على المنابر ونقش اسمه على السكة واتخذ حياة الملوك وأخذ الوزراء ورجال الدولة بتقجيل يده عند المشول بين يديه ، أى أنه صار في الحقيقة ملكاً للأندلس يحكم باسم خليفة محجور عليه في قصور الزمراء وقد وضع عليه محسد بن أبي عامر الأرصاء والعيون ، بل احاط الزمراء بسرر وخندق حتى لا يدخل إليها أحد إلا بإذن .

وقد رأى محمد بن أبي عامر أن يتخذ لنفسه أيضاً مدينة ملكية فاختر مكاناً شرقي قرطبة وبنى فيه قصوراً سماها « الزاهرة أو العامرية » وجعل الوزراء ورجال الدولة ينشئون القصور حول داره ، وخمل أمر الزمراء ، وقد نفر الأندلسيون من ذلك كله نفوراً شديداً ، خاصة وأن محمد بن أبي عامر كان لا يتورع عن ارتكاب أى جريمة في سبيل الوصول إلى غاياته ، ومن ذلك أنه كان قد

استقدم « جعفر بن علي » الزعيم الزناتاني مع رجاله إلى الأندلس ليضرب غالباً الناصري ، وأعطاه لقب الوزارة والقيادة ، فلما انتصر على غالب جعل رجاله يقتالون جعفر بن علي ، على أسوأ صورة سنة ٣٧٢ هـ / ٩٨٢ م .

ومن أكبر غزوات المنصور وإدلهما على طبيعة أعماله العسكرية قيامه في صيف ٣٧٤ هـ / ٩٨٥ م . بحملة واسعة على إقليم قطلونية ودخوله برشلونة التي كانت قد سقطت في أيدي قوات الفرنجة سنة ١٨٥ هـ / ٨٠٦ م . ثم تحولت بعد ذلك إلى كورتينة قطلونية ، فافتتحها المنصور في صيف ذلك العام ودمرتها جنوده ، وبدلاً من أن يضمها إلى بلاد المسلمين ويعمرها بهم ويشحنها بالجنود نراه ينصرف عنها دون أن يترك بها حامية أو جنوداً ، فكانه لم يقصد إلا التدمير وإنزال الضربات العنيفة التي تحدث دويماً . ولكنها لا تصل إلى تحقيق هدف واضح دائم بعد ذلك .

ونظر المنصور بعد ذلك في أمر المغرب ، وكان الحسن بن كتون قد صالح الفاطميين ودخل في طاعتهم ودعا لهم في قلعة حجر التمر شمال المغرب الأقصى واعتز بتأييد « بلكين بن زيري بن مناه الصنهاجي » عدو الزناتيين وهم أنصار المنصور ، فساوغ بإرسال جيش قوى سنة ٣٧٤ هـ / ٩٨٥ م . وأروغه بميش آخر ، فحاط قلعة التمر واستنزل الحسن بن كتون على الأمان ، وطلب الرجل أن يذهب إلى قرطبة مستأمناً .

ولو أنه طلب ذلك إلى عبد الرحمن الناصر أو ابنه الحكم المستنصر لاجيب إلى الأمان . ولكن المنصور تظاهر بالموافقة ، ثم أمر بقتله وهو في الطريق إلى قرطبة في جمادى الأولى ٣٧٥ هـ . وأواخر ٩٨٥ م . وبذلك ارتكب المنصور عدواً جديداً شنيعاً وقد تطير الناس من هذا الحادث وقال أهل قرطبة إن المنصور لن ينحو من عقاب الله جزاء له على هذه الجريمة الشنيعة التي ارتكبها في حق حفيد النبي ﷺ . وقد استمر نشاط رجال المنصور في المغرب . ولكن مقتل الحسن بن كتون ونشره الباقيين من أفراد بنيهِ يعتبر النهاية الحقيقية للدور الثاني لدولة الأراغسة ، فلم نعد نسمع عنهم بعد ذلك خاصة وقد عهد المنصور في حكم المغرب الأقصى إلى « زيري ابن عطية الزناتاني » وكان خصم الصنهاجيين والفاطميين العنيد ، فلم يلبث هذا الزعيم الزناتاني أن أصبح السيد الأعلى للمغرب الأقصى . ولما كان صدوقاً للمنصور حليفاً للبيت الأموي فقد تركه المنصور على ذلك مطمئناً إلى أن الخطر

الفاطمي على الأندلس قد زال نهائياً ، وكان ذلك سنة ٣٧٩ هـ / ٩٨٩ م

وقبل ذلك بعام كان المنصور قد قام بغزوة موفقة على مملكة ليون ، واحتل العاصمة نفسها وخربها ، فهرب ملكها « برمودو الثاني » إلى « سمورة » فطاربه المنصور إليها واستولى عليها وخربها ، وعلى أثر ذلك دخل ملك ليون في طاعة المنصور وأدى إليه الجزية ، وكذلك فعل كل ملوك الشمال والشمال الغربي لإسبانيا النصرانية ، فأصبحت كلها تؤدي الإتاوات للمنصور فيما عدا الطرف الشمالي الغربي من جليقية .

وكان من أشد ما غر قلب الأندلسيين على المنصور غدره « بعبد الرحمن بن مطرف التجيبي » صاحب سرقسطة ومعتل بني ماشم التجيبيين ، وكانوا من أعرق أهل البيوت الأندلسية التي اشتهرت بالشجاعة وبعد الهمة ، وقد قتل هذا الرجل غدرًا في نهاية صفر ٣٧٩ هـ / ٩٨٩ م . وعلى أثر ذلك قتل المنصور ابنه عبد الملك إذ اتهمه بالتدبير عليه ، وكان هذا الشاب الطائش قد حاول الاستعانة بعبد الرحمن بن مطرف التجيبي « وبغرسية فرناندت » كوت قشتالة لينتقم من أنه لأنه كان يفضل عليه أخاه الأصغر عبد الملك ، وقد عاقب المنصور بعد ذلك غرسية فرناندت ، وما زال يحاربه حتى أخذه أسيرًا إلى قرطبة ، ولكنه مات متأثرًا بجراحه في الطريق وخلفه ابنه « سانشو غرسية » فأصبح من أتباع المنصور الذين يؤدون إليه الجزية .

وفي سنة ٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م . اتخذ المنصور لنفسه لقب الملك وأصدر أمره بأن يخاطب بالملك الكريم المنصور . ومن الواضح أن المنصور كان يتجه إلى أن يجعل نفسه خليفة ويقيم بيته مكان بيت بني أمية ، ولكن الظروف كلها كانت لا تعينه على إدراك هذا المطلب ، لأن الناس جميعاً في الأندلس لم يكونوا مستعدين لقبول هذا التغيير ، وعلى الرغم من القوة الكبرى التي وصل إليها هذا الرجل إلا أن الأندلسيين ما كانوا يؤثروه ، لأنه في نظرهم لم يكن ليخرج عن طامع ذكي ، استطاع الوصول إلى ما يريد بموافاة حظ لا يصدق ، وكان هو يشعر بذلك ويحامي الأندلسيين والسنتهم الطويلة . والحقيقة أن المنصور كان رجلاً في غاية الذكاء والقوة ، وكانت مواهبه للحكم عظيمة ، ولكنه كان لا يتورع عن الجريمة في

سبيل الوصول إلى ما يريد ، والمسلمون بطبيعتهم لا ينفرون من شيء قدر نفورهم من الجرائم والخداع وانعدام الضمير ، نعم إن عبد الرحمن بن معاوية ارتكب بعض الجرائم ، ولكن الذين كانوا قبله ارتكبوا أشنع منها ، فكان هو في نظر الناس مخلّصاً لهم من شر الصميل بن حاتم ويوسف الفهري ، ثم إن جرائم عبد الرحمن الداخل لم تتناول الناس كلهم ، بل طائفة معينة والخصوم السياسيين ، وفيما عدا ذلك كان رجلاً مأموناً وشرقياً ، أما المنصور فلم يكن للشرف عنده قيمة ، وكان أهل الأندلس كلهم يتحدثون عن سوء أفعاله .

وربما كان من الممكن أن يتفاوضي الناس عن جرائم المنصور لو أنه كان وريث بيت ملك وسيادة ، ولا ننسى أننا في العصور الوسطى ، أيام كان الناس يؤمنون بأن هناك بيوثاً عريقة ذات حسب ، ولها الحق في أن تصل إلى الملك ، أما بقية الناس فلا حق لهم في الوصول إلى العرش ، وقد كان من أكبر ما أعان عبد الرحمن الداخل على إقامة دولة ، أنه كان سليل بني أمية وحفيد خليفة هو هشام بن عبد الملك ، ثم إنه قرشي ، من ذلك القبيل العربي العريق الذي يمثل الصدارة في عالم الشرف والسؤدد ، أما المنصور ، محمد بن أبي عامر فكان رجلاً عادياً من سلاسل اليمنيين ، ولم يكن المسلمون في أي قطر مستعدين للتسليم بسيادة يعني أيّاً كان ، حتى لقد وضعوا حديثاً يقول : « لن تقوم الساعة حتى يقوم رجل من بني قحطان ويسوق الناس بعصاه » ، وهم يريدون بذلك أن الساعة لن تقوم حتى يصل الحكم إلى أسوأ مستوي ، وكان المنصور من معافى وهي من صفريات قبائل اليمن ، ثم إن أباه كان فقيهاً عادياً معروفاً للكثيرين من أهل قرطبة وشيوخها ، ومثل هذا الصليب لا يخرج في رأيهم بيتاً ملكياً .

### ولكن أكثر ما أضي بالمنصور ثلاثة أمور :

الأمر الأول : أنه أقام ملكه على جند مرتزقة من البربر أجنى عن البلاد ، وكان جند المنصور معتزّين بتأييده يتعالون على الناس ويشرون سخطهم ، وقد وقعت كل البيوت الأندلسية العريقة موقف تحفظ من المنصور ، حتى الدين دخلوا منهم في خدمة المنصور فعلوا ذلك خوفاً على حياتهم ، فإن غدرات هذا الرجل ما كانت لتؤمن أبداً .

## الحزب العامري :

ولكى يسد هذا الضعف لجأ المنتصور إلى اصطناع بيوت جديدة في العاصمة والأقاليم ، وكان رجاله هؤلاء يتكوّنون من زعاف أبناء الأسر الكريمة وضعاف رجالها ، ثم من الصامحين من صفار الفقهاء ، فرفعهم ابن أبي عامر إلى وظائف القضاة وأقامهم عمالاً على النواحي ، ولم يتورع أولئك الناس عن طلب المال معتمدين على وظائفهم فأصبحوا من أغنى أهل التولعى وتكوّنت حولهم حواش من أمثالهم ، ومن أمثلة هؤلاء « بنو عياد » في إشبيلية ، وبنو يعيش « في طليطلة ، أما الهاشميون من أفراد البيوت الكبيرة فمثالهم « أبو مروان عيد الملك بن شهيد » سليل أسرة بني شهيد ، فقد كان شاعراً ممتازاً وعبقريّة فكرية ، ولكنه كان رجلاً منحل الأخلاق لا يسمو إلى مراتب بقي شهيد العظماء ، وقد جعله المنتصور نديمه وشاعره وصاحبه ، وكذلك يحيى الملقب « بسماجة بن عبد الرحمن بن مطرف التجيبي » سيد الشعر الأعلى الذي قتله المنتصور ، وقد كان يحيى سماجة هذا من سخفاء الولاة ، وعلى يده تحول بيت بني هاشم التجيبيين من بيت حليل من بيوت الحكم إلى بيت طامعين في السلطان والجاه بأي طريق .

واستعان ابن أبي عامر كذلك بنفّس من زعماء البربر النازلين في بعض النواحي مثل بني « الأقطس » الذين كانوا يقيمون في بطليوس ، وبني « ذي النون » وكان موطنهم في شنتيرية في جنوب غربي طليطلة .

وكذلك اصطنع ابن أبي عامر صقالية جددا اشتراهم لحسابه لكي يصيروا من جنده وحراسه ورجاله

ومن هؤلاء جميعاً تُكوّن ما يعرف بالحزب العامري ، ومعظم رجاله من طراز محمد بن أبي عامر خُلُقاً ، أي أنهم اثنائون مساديون لا يفكرون في جماعة ولا صالح الإسلام أو العروبة ، بل هم الواحد منهم أن يصبح منصوراً صغيراً في ناحية أو في حدود سلطته .

وهؤلاء الناس الذين تزيّوا في مدرسة المنتصور هذه ، هم الذين سيقضون على وحدة الأندلس بتسكهم بالسلطان في نواحيهم وحرص الواحد منهم على أن يكون أميراً بأي ثمن ، أولئك هم المذنبين سيصرفهم التاريخ بالاسم المشؤم ملوك الطوائف

**والأمر الثاني :** هو انعدام المفهوم الأخلاقي عنده تماماً . ومثل هذا الرجل يخافه الناس ولا يحبونه ، ويحذرونه ولا يقبلون منه شيئاً ، لأنهم لا يعرفون ما يخبئه لهم ، ولهذا ، وعلى الرغم مما وصل إليه المنصور من قوة وسلطان فإن أنصاره أنفسهم كانوا يكرهونه في نفوسهم . لأنهم كانوا يخافونه على أنفسهم ، فإنه كان مستعداً لأن يطيح برأس أي واحد منهم لأقل شك في تصرفاته أو نواياه .

وكان المنصور كثير التجسس على الناس ، بل كان يهدى الناس الجوارى والعبيد لكي يصبحوا عيوناً له عليهم في بيوتهم ، وقد أفسد أخلاق الناس بالرشوة وما يجري مجراها ، وعلى مثل هذا الأساس لا يستطيع رجل أن ينشئ دولة .

**والأمر الثالث :** هو أن المنصور لم يبرزق ولداً قادراً على النهوض بالعبء من بعده ، فقد كان له من الأولاد ثلاثة - واحد قتله بنفسه ، أما الاثنان الباقيان فهما عبد الملك الذي جاء من بعده وقد أشرنا إليه ، ثم عبد الرحمن وكان شاباً سيئ الخلق «شائن العقل قاسى القلب» ، وقد دفعه سوء رايه إلى أن يستصدر من الخليفة المحجور عليه هشام عهداً بتعيينه ولياً عهده في الخلافة ، وكانت بيته أن يتخلص منه بالقتل بعد ذلك ، ولكن سخط الناس بلغ إلى حد لم يسمح لهم بالاستمرار فقامت الثورة على ذلك الشاب وقتل سنة ١٠٠٣ م . وانتهى أمر بني عامر في يوم وليلة .

وقد أبدى المنصور في أواخر أيامه نشاطاً واسعاً في الغزو ، ويبدو أنه كان يرى أن الوقت قد آن لكي يخطو خطواته الكبرى في اتخاذ لقب الخلافة ، فأراد أن يمهّد لذلك بانتصارات كبرى في ميادين الجهاد ، فقام في سنة ٣٨٧هـ / ٩٩٧م باكبر غزواته وهي المعروفة باسم غزوة « شنت ياقب » ، وشنت ياقب أو القديس يعقوب الحواري وهو بالفرنسية « سام جاك » كان من حوارى المسيح ، وقد وصل إلى إسبانيا فيما تقول الأسطورة ، واتجه إلى شمال غربي الأندلس وهناك مات ودفن وخبئ قبره ، ثم ظهر نجم ذو رايتين على مكانه ، فكشفوا عنه ونأكدوا من وجوده في المكان المسمى : كوميو ستيللا « على الفور أقيمت كنيسة كبرى عرفت باسم « سنتياجو » أي القديس يعقوب ، أصبحت من أعظم المزارات البصرانية لا في إسبانيا فحسب بل في أوروبا كلها .

أراد المنصور أن يغزو شنت ياقب فقام بحملة كبرى حشد فيها كل قواته ، بل نقل الجنود وأثقال الجيش بالبحر حتى مصب نهر « المنير » وهتاك أرسط

السفن وتقدم الرجال من بقية الجيش ، واقتحم المنصور شنت ياقم بالقوة وصرب مبانيها وهدم كنيسة العظمى ولم يترك إلا قبر يعقوب لأنه من الدواوين، وقد رفعت هذه العزوة صيت المنصور في أوروبا كلها وأصبح اسم المنصور رمزاً للرعب والخوف في كل نواحيها .

وكانت آخر غزوة قام بها المنصور في ربيع ٢٩٢ هـ / ١٠٠٢ م وكانت وجهتها برغش وأراضى كونيية قشتالة ، وقد احتلها المنصور وهزم قواتها ، ثم غاث في أراضى مملكة ليون ، ولكن دبيب المرض كان يمشى في جسده ، وشعر الرجل به وهو في الطريق إلى برغش ، وبعد الواقعة اشتد به المرض فحمل في محفة ، فلما وصلوا إلى مدينة سالم كانت قواه قد وهنت تماماً ، وتقول المراجع النصرانية إن النصارى هاجموا جيشه وهزموه في معركة قرب حصن يسمى قلعة النصور ، وعقب ذلك تقلل سرى المنصور ودفن في مدينة سالم ، وكان يحمل كفنه معه ، وكذلك كان يجمع الغبار الذي يعلق بملابسه أثناء الغزو ، فدفنوه ونروا عليه غبار الجهاد وواروه التراب في تلك القاعدة العسكرية الإسلامية العريقة ، وقد كتبوا عن قبره :

أشارُهُ نَجْدِيكَ عَنْ أَخْبَارِهِ      حَتَّى كَأَنَّكَ بِالْغِيَانِ تَرَاهِ  
تَانِهِ لَا يَأْتِي الزَّمَانُ بِمُتَلِّهِ      أَبَدًا ، وَلَا يَحْضِي الْغُورُ سِوَاهِ

#### تقدير المنصور :

ولا شك أن المنصور محمد بن أبي عامر كان من أعظم الرجال ، فقد قام بما لم يقم به أحد في تاريخ الإسلام . استولى على أزمة السلطان في دولة كبرى في أوج سلطانها ، ووجه أمورها وساس أهلها سياسة مستبد غاشم لا يسمح بأي مشاركة له في السلطان ، وقد استغل في الوصول إلى ذلك مجموعة من الظروف أدت بالاندلس إلى ما يمكن أن نسميه فراغاً في السلطان ، ومهارته في أنه عرف كيف يحتل هذا الفراغ بسرعة ويمكن لنفسه فيه . أما هذه الظروف فضعف الحكم المستنصر في آخر أيامه ورغبته الشديدة في أن يصير الملك من بعده إلى ابنه هشام ،

وكان هشام صغيراً جداً لا يزال بينه وبين سن الرشيد ثمانية أعوام على الأقل ، وخلال هذه المدة كان لا بد أن يمسك السلطان واحد من الرجال ، ولم ينظر الحكم في تعيين أوصياء ، بل ترك الأمر للمقادير ، وكان أكبر رجاله وصاحب الحجابة - والمفروض أنه كان يقوم بدور الوصي - رجلاً فاسداً أثانياً قاسى القلب بعيداً عن الخلق وهو « جعفر المصحفي » ، وقد اقتضح أمره مقتل أمير برىء ومن ناحية أخرى ترى أن أبناء عبد الرحمن الناصر وهم أعمام ولي العهد ، كان ينقصهم الذكاء وبعد النظر ، وقد فوجئ واحد منهم بقتل ، واستسلم الثاني للمقادير ثم اختفى ، وربما كان عبد الرحمن الناصر مهثولاً عن تلك الحالة ، فقد قضى على إرادات الرجال وشل نشاطهم وقضى على الكثيرين منهم بسيطرته البالغة

المهم أن المنصور وجد هذه الظروف ، واستغلها لصالحه ، ولا شك أنه كان مؤملاً للسياسة بطبيعته ، حائزاً للكثير من الصفات التي يحتاج إليها رجل السلطان ، فهو شديد الذكاء دائم اليقظة يرى الأمور في وضوح ويتبين خط العمل ويعمل في سرعة يعجز معها خصومه عن التفكير ، وقد وصل إلى ما يريد قبل أن يستجمع أحد ممن حوله أفكاره ، إذ كان يخطو من مشكلة إلى مشكلة في سرعة وثقة في النفس دون أن يدري أحد بوضوح إلى ماذا يريد . ومن الواضح أن الخطوة الحاسمة في وصوله إلى السلطان كانت السيطرة على « صبيح البشكنسية » ، وتولى الأمر باسم هشام مشتركاً في ذلك مع جعفر المصحفي ثم أسقط المصحفي وبقي هو في الميدان وحده يستصدر من الأوامر ما يشاء

وأهم ما استصدره ، هو الأمر بفصل جيش الحضرة عن الجيش العام وتعيينه قائداً له ، فقد أصبحت تحت يده قوة عسكرية لها خطرها ، وقد تصورت « صبح » أنه يعمل في خدمة ابنها ففتحت له خزانة المال ، وبالمال استكثر من الجند ، أي أنه أصبح مستبداً عسكرياً ، وهنا لم يبق أمامه عقبة ، فهذا فائد عسكري بحكم بقوة السلاح . ومثل هذا في التاريخ كثير ، ولكن عقبة المنصور كانت في كيفية الانتقال من طالب علم وفقه إلى رجل سياسة ، ومن رجل سياسة إلى قائد عسكري .

والسؤال الآن : ماذا فعل المنصور بالسلطان الذي وصل إليه ؟

إن أسامنا أمثلة كثيرة من المستبدن بالعروش وما فعلوا ، هناك مثلاً



السفن وتقدم الرجال من بقية الجيش ، واقتحم المنصور شنت ياقب بالقوة وضرب مبانيتها وهدم كنيسةها العظمى ولم يترك إلا قبر يعقوب لأنه من الجواريين ، وقد رفعت هذه الغزوة صيت المنصور في أوروبا كلها وأصبح اسم المنصور رمزاً للرعب والخوف في كل تواجدها

وكانت آخر غزوة قام بها المنصور في ربيع ٣٩٢هـ / ١٠٠٢م وكانت وجهتها برغش وأراضى كونيغ قشتالة ، وقد احتلها المنصور وهزم قواتها ، ثم عاث في أراضى مملكة ليون ، ولكن دبيب المرض كان يمشى في حسده ، وشعر الرجل به وهو في الطريق إلى برغش ، وبعد الواقعة اشتد به المرض فحمل في محفة ، فلما وصلوا إلى مدينة سالم كانت قواه قد وهنت تماماً ، وتقول المراجع النصرانية إن النصاري هاجموا حيشه وهزموه في معركة قرب حصن يسمى قلعة النصور وعقب ذلك بتقيل توفي المنصور ودفن في مدينة سالم ، وكان يحمل كفته معه ، وكذلك كان يجمع العبار الذي يعلق بملابسه أثناء العز ، قدقنوه وذرروا عليه عبار الجهاد ووارود التراب في تلك القاعدة العسكرية الإسلامية العريقة ، وقد كتبوا على قبره :

أشاره تنبئك عن أخباره      حتى كأنك بالعينان تراه  
تالله لا يأتي الزمان بمثلِه      أبداً ، ولا يحمي الثغور بسواه

#### تقدير المنصور :

ولا شك أن المنصور محمد بن أبي عامر كان من أعظم الرجال ، فقد قام بما لم يقم به أحد في تاريخ الإسلام : استولى على أزمة السلطان في دولة كبرى في أوج سلطانها ، ووجه أمورها وساس أهلها سياسة مستبد غاشم لا يسمح بأي مشاركة له في السلطان ، وقد استغل في الوصول إلى ذلك مجموعة من الظروف أدت بالاندلس إلى ما يمكن أن نسميه فراغاً في السلطان ، ومهارته في أنه عرف كيف يحتل هذا الفراغ بسرعة ويمكّن لنفسه فيه . أما هذه الظروف فضعف الحكم المستنصر في آخر أيامه ورغبته الشديدة في أن يصير الملك من بعده إلى ابنه هشام .

وكان هشام صغيراً جداً لا يزال بينه وبين سن الرشد ثمانية أعوام على الأقل ، وخلال هذه المدة كان لا بد أن يمسك السلطان واحد من الرجال ، ولم ينظر الحكم في تعيين أوصياء ، بل ترك الأمر للمقادير ، وكان أكبر رجاله وصاحب الحجابة - والمفروض أنه كان يقوم بدور الوصي - رجلاً فاسداً اتانئياً قاسى القلب بعيداً عن الخلق وهو « جعفر المصحفى » ، وقد اقتضح أمره بقتل أمير بريء ومن ناحية أخرى ترى أن أبناء عبد الرحمن الناصر وهم أعمام ولي العهد ، كان ينقصهم الذكاء وبعد النظر ، وقد فوجئ واحد منهم بقتل ، واستسلم الثانى للمقادير ثم اختفى ، وربما كان عبد الرحمن الناصر مدخولاً عن تلك الحالة ، فقد قضى على إرادات الرجال وشل نشاطهم وقضى على الكثيرين منهم بسيطرته البالغة .

المهم أن المنصور وجد هذه الظروف ، واستغلها لصالحه ، ولا شك أنه كان مؤملاً للسياسة بطبعه ، حائزاً للكثير من الصفات التى يحتاج إليها رجل السلطان ، فهو شديد الذكاء دائم اليقظة يرى الأمور فى وضوح ويثبث خط العمل ويعمل فى سرعة يعجز معها خصومه عن التفكير ، وقد وصل إلى ما يريد قبل أن يستجمع أحد ممن حولته أفكاره ، إذ كان يخطو من مشكلة إلى مشكلة فى سرعة وثقة فى النفس دون أن يدري أحد بوضوح إلى ماذا يريد . ومن الواضح أن الخطوة الحاسمة فى وصوله إلى السلطان كانت السيطرة على « صبح البشكنسية » وتولى الأمر باسم هشام مشتركاً فى ذلك مع جعفر المصحفى ثم أسقط المصحفى وبقي هو فى الميدان وحده يستصدر من الأوامر ما يشاء .

وأهم ما استصدره ، هو الأمر بفصل جيش الحضرة عن الجيش العام وتعيينه قائداً له ، فقد أصبحت تحت يده قوة عسكرية لها خطرهما ، وقد تصور « صبح » أنه يعمل فى خدمة أبيها ففتح له خزانة المال ، وبالمال استكثر من الجند ، أى أنه أصبح مستبداً عسكرياً ، وهنا لم تبق أمامه عقبة ، فهذا قائد عسكري يحكم بقوة السلاح ، ومثل هذا فى التاريخ كثير ، ولكن عبقرية المنصور كانت فى كيفية الانتقال من طالب علم وفقه إلى رجل سياسة ، ومن رجل سياسة إلى قائد عسكري .

والسؤال الآن : ماذا فعل المنصور بالسلطان الذى وصل إليه ؟

إن أماننا أمثلة كثيرة من المستبدين بالعروش وما فعلوا ، هناك مثلاً

«ريشيليو» ذلك الكاردينال الفرنسي الذي جعل نفسه وصياً على الملك الصغير لويس الثالث عشر. لقد تمتع ريشيليو بسلطان عظيم. أعظم بكثير من سلطان المنصور، ولكنه عمل دائماً لخدمة التاج ولخدمة فرنسا، وعندما توفي ريشيليو ولويس الثالث عشر وجاءت أيام لويس الرابع عشر وصلت فرنسا إلى أوج القوة والسيادة في أوروبا، وكان ذلك نتيجة لعمل ريشيليو الذي اجتهد في خدمة فرنسا وتاجها ووحد أمورها وحارب خصومها في الداخل والخارج حتى وصل بها إلى زعامة أوروبا.

ولكن المنصور لم يستطع أن يفعل شيئاً مثل ذلك. لقد حَقَر حُكَّام الخلافة وحَقَر أمراءها وحمل عليها وجرح رجاله وأبناءه عليها واتجه رأساً إلى القضاء عليها، وكانت الخلافة القرطبية هي عماد قوة الإسلام والعروبة في الأندلس، ويدونها تتعرض للفوضى والأخطار، ولكن المنصور لم ينظر إلى شيء من ذلك، واتجه إلى تخريب ذلك النظام القيم لكي يجعل نفسه سلطاناً.

وقد ملك المنصور من القوة العسكرية ما لم يملكه أحد غيره في الأندلس، كان سلطانته أقوى من سلطان عبد الرحمن الناصر، لأن الناصر رغم نزعته إلى الاستبداد كانت له حدود يعرف كيف يقف عندها، فهو لا يسرف في الحروب مع الممالك النصرانية، لعلمه بأن من المستحيل عليه القضاء عليها، ولهذا كان يكتفي بإضعافها وردعها عن الإغارة على بلاده وإخضاعها لقرطبة وإشعارها بالضعف عن طريق أداء الجزية، أما المنصور فوالى الضربات دون حساب، وهو في ضرباته لم يحاول أن يقطع جزءاً من أراضيها ويضعه نهائياً إلى أرض الخلافة. لم يحاول مثلاً القضاء على كل أثر لسلطان النصاري جنوب «دوير» وإسكان المسلمين في الأراضي التي يفتحها ليحول هذه البلاد إلى أرض إسلامية، لو أنه فعل ذلك لكان من الممكن أن يقال إنه فعل شيئاً حاسماً، ولكن جيوشه كانت تضرب وتعود بالفنائم، فيعود النصاري إلى ما كانوا عليه وهكذا حتى النهاية، فكانت في الواقع لم يفعل شيئاً. كانت هذه السياسة يمكن أن تؤدي إلى نتيجة إذا وصلها الناس بعده لمدة قرن مثلاً، فإن ذلك كان حريماً بأن يضعف القوى النصرانية إلى حد لا تستطيع معه أن تفعل شيئاً بعد ذلك، ولكن المنصور لم يفعل هذا ولم يخلفه من يواصل عمله. فكانت النتيجة أن النصاري استطاعوا خلال السنوات التي أعقبت موته تجديد قواهم واستقروا بعد ذلك على المسلمين.

ولم ينشئ المنصور في الأندلس شيئاً جديداً ، فلا هو أوجد نظاماً جديداً ولا أصلح شيئاً من عيوب النظام القائم . وأهم ما أنشأه توسيع المسجد الجامع بقدر الثلث من الناحية الشرقية ، وقد أضفى بها الجامع أعظم مساجد بلاد الإسلام من ناحية الحجم والهندسة حتى بلغت مساحته ٢٤٣٠٠ متر مربع . أى ما يزيد على ستة فدادين . وليس في الدنيا مسجد ولا كنيسة ولا أثر آخر بهذا الحجم ، باستثناء قصور فرساي . ولم يتفرد الجامع بالحجم فقط ، بل كان طرازه رائعاً حقاً وقد تحدثنا عنه فيما سبق .

لم ينشئ المنصور إذن شيئاً ، بل هدم الكثير ، حطم البيت الاموى تحطيماً لم يستطع أن يقوم على قدميه بعده . وتبع كل من يُرجى خيرٌ من أفرادهِ بالقتل والاذى والتشريد ، وفعل مثل ذلك بآبناء البيوت الموارية ، نعم لقد خدمه الكثير من رجالها ، ولكنه جعلهم أتباعاً وندماء وحواشى ، والحواشى لا تنفع أحداً ولا تقيم مفعولاً .

وقد أحاط المنصور نفسه بسياسات كلها ضرر وخطر على المجتمع . أنشأ الجيش البربرى الجديد فكان يلاء على الأندلس . إذا أصبحت القوة العسكرية للبلاد منقسمة إلى قسمين متعادين ، وفي حالة أى اضطراب في النظام لم يكن هناك مفرٌ من الحرب الأهلية . وأنشأ الحزب العامرى من رجال على غواره ، كلهم طامعون أناثيون لا يعمر قلوبهم إيمانٌ . وهؤلاء هم الذين سرشون الأندلس من بعده ويتقاسمونهُ فيما بينهم . لقد حكم المنصور سبعة وعشرين عاماً هجريةً انتهت ليلة الاثنين ٢٧ رمضان ٣٩٣هـ / ١١ أغسطس ١٠٠٧م ، ولا نستطيع القول أنها كانت خيراً على الأندلس . لقد أحدث بوطاً كبيراً بأعماله وانتصاراته ، ولكنه كان كالعليل الاجوف . صوت كبير وعمل قليل .

وقد أجمعت الروايات الإسلامية على التحدث بمأثر المنصور دون أن تخفى جرائمهُ ، ومعظمها يصوغه بالثقي ويقول إن الجهاد كان قرة عينهِ ، والحقيقة أن رجالاً من طراز المنصور كانوا لا يتورعون عن الجرائم في سبيل سلطانهم . أما خارج السلطان ويعيداً عن مناقساتهِ فلا مانع من أن يكونوا ذوي عاضقة دينية وأهتمام بشؤون العبادة والإحسان وما إلى ذلك . هكذا كان أيضاً أحمد بن طولون وأبو العباس السفاح وغيرهما من جبابرة تاريخنا ، وعلى هذا الأساس من الممكن

أن تتصور كيف كانوا يجمعون بين الإجرام والتقى ، بين الشر الخالص والخير الخالص دون أن يكون في ذلك تعارض ودون أن يحسوا بما يرتكبونه من جرائم .

### عبد الملك المظفر بن المنصور

رمضان ٣٩٢ - صفر ٣٩٩ هـ

أغسطس ١٠٠٦ - أكتوبر ١٠١٨ م

وقد خَلَفَ المنصور في سلطانه أباه عبد الملك المظفر الذي تلقب بسيف الدولة وكانت سنه ٢٨ سنة ، وقد ورث عن أبيه ملكاً واسعاً مستقراً في الظاهر . ولكنه كان في الحقيقة مهدداً بالأخطار ، لأنه رغم استصداره من الخليفة هشام مرسوماً بتفويضه في الحكم ، كان يشعر أنه كان غاصباً ، وكذلك كان كل من حوله ، وكان هناك كثيرون جداً في قرطبة ونواحي الأندلس يتربصون به - وبأل عامر جميعاً - الدوائر .

ولم يكن عبد الملك المظفر لسوء حظ أبيه مؤملاً للوقوف في وجه العقبات التي كان لا بد له من تحطيمها ، كان بنقصه العميق الإنساني والتكوين الفكري ، فعز الرغم من اجتياحه أبيه في تكوينه إلا أنه لم يكن غير جندي جاهل ، تربى وسط الجنود دون أن يكون لديه موهبة القيادة ، فكان طوال حكمه القصير نهبا بين رجاله وأقربهم صقلبي من موالى أبيه يسمى « طرفه » ووزير تولى مداور مناور يسمى « عيسى بن سعيد بن القطاع » ، وكان الشاب إلى جانب ذلك مسرفاً في الشراب ، لا يكاد يهبط الليل حتى يعقد مجلس الشراب مع رجاله ، وكلهم ثعالب يجتهدون في الفوز منه بأي شيء ، وفي ساعات الشراب كان يستمتع لوشايات الوشاة ويصدر أحكاماً عنيفة ، ففك بمولاه طرفة ثم قتل سعيد بن القطاع في مجلس شرايه عن أسوأ صورة ، وقد خافه الناس ، وشيخاً فشيئاً تحول هذا الشاب ، الذي تولى الملك في الثامنة والعشرين شباً تحيط به الأموال ويملا قلوب الناس من ناحية الاستبشار ، إلى طاغية ظلم غادر ، وقد كان أبوه يعرف كيف يلين جيناً ويشدد حيناً ويقسو ويأسو ، أما هو فلم يكن لديه من ذلك شيء ، وإنه لمن المحزن أن نرى كيف أخذ الفراغ يحيط بهذا الشاب ، إلا من عتاة الجند والمرتعين الذين كانوا لا يشيرون عليه بخير أبداً

وقد قام عبد الملك بن المنصور بغزوات كبيرة لا تحلو من مهارة ، ولكنها كانت من طراز غزوات أبيه ، أي أنها كانت ضربات قصيرة الأمد والمدي . غزا قتلونية و برشلونة سنة ٣٩٣هـ / ١٠٠٣م وأرغم أميرها « رامون بوريل الثالث » على طلب الصلح ، وفي صيف ٣٩٥هـ / ١٠٠٥م غزا أراضي ليون ، وفي صيف ٣٩٦هـ / ١٠٠٦م ، غزا مملكة نبرة واحتل بنبلونة وفي ٣٩٧هـ / ١٠٠٧م غزا كونتية قشتالة ، ثم غزاها مرة أخرى في العام التالي ، وفيه أيضاً أراد أن يخرج للغزو مرة ثالثة ، ولكنه مرض واشتدت به العلة ، وتوفي ربعا من التهاب رئوي في ١٦ صفر ٣٩٩هـ / ٢١ أكتوبر ١٠٠٨م وهو في الرابعة والثلاثين من عمره بعد أن حكم ٧ سنوات فحسب ، كانت سنوات رخاء ونصر . ولكن الناس كانوا يتوقعون كارثة ربما لأنهم كانوا يتمنون زوال العامريين . ومن الواضح أن الذي قضى على عبد الملك كان انهماكه في ملذاته ، لأن ما أصابه كان نتيجة استهتاره بصحته وتعرضه للبرد وإسرافه في السهر حتى أعيا جسده .

### عبد الرحمن بن المنصور :

تخلفه أخوه عبد الرحمن الذي تلقب بالمأمون ويقال إنه هو الذي قتله ، وكان شاباً طاشاً قاسياً مجرباً من الصفات الإيجابية المؤهلة للحكم السليم . وكان الناس قد ضاقوا ذرعاً باستبداد العامريين وكانت أم عبد الرحمن حفيدة لسانشو غريسيه ملك نبرة ، وكان أبوها سانشو أباركة ذلك الكند الأرغوني أحد الأمراء المطالبين بالعرش والذي أسره المنصور ثم أطلق سراحه وتزوج ابنته ، وكان قد انضم إلى المنصور أملاً في أن يعينه على الوصول إلى عرش نبرة ، أما أم عبد الرحمن فقد أسلمت وتسمت باسم « عبده » وكان الأندلسيون يعرفون ذلك عنه ولا يستريحون إليه ، أي : لا يستريحون لأن أمه نصرانية فلقبوه بشنجول أو سانشوبلو Sanchuelo أو سانشو الصغير نسبة لأمه بنت سانشو أباركة كما قدمنا ، وكان الناس يكرهونه ويحتقرونه ولم يحتملوا أن يروه قائماً بالأمر مكان أبيه المنصور . وزاد سخطهم عندما سمعوا أن عبد الرحمن شنجول ، يسعى لكي يستصدر مرسوماً بتعيينه ولياً لعهد الخلافة . وقد أكر الناس ذلك إنكاراً شديداً وقامت قياتهم لأن الرجل كان من الناحية الأخلاقية أبعد ما يكون عن أن يستحق الخلافة ولكن عبد الرحمن فعل ذلك وأصبح ولي عهد الخليفة . ونقيت

أما خطوة القضاء على الخليفة نفسه لكي يصبح هو صاحب الأمر ، ومن سوء الحظ أن رجالاً مثل القاضي « أبي العباس بن ذكوان » والكاتب « أبي حفص أحمد ابن برد » أيّده في ذلك .

### مقتل عبد الرحمن بن شنجول وسقوط العامريين :

وبدا الصراع بين هذا الرجل المتسلق والارستقراطية القرطبية التي طال سكوتها دون أن ترفع صوتها ، وقد أخذ احتجاجها صورة انصراف أفرادها عن التوافد على قصر الزاهرة ، لأن قادة البربر كانوا يتقدمون عليهم هناك ، فأصدر عبد الرحمن أمراً يلزمهم بلبس العمام ، وكانت لباس زعماء البربر والتغلبى عن أغلبية الرأس الأندلسية ، فبدأت الاتصالات بين كبار الأندلسيين وبقياء الأمويين ، وتحدث الناس بأن هناك مؤامرة تدار لإعادة بنى أمية إلى السلطان . وأراد عبد الرحمن أن يقوى مركزه بغزوات يقوم بها ، فأعلن أنه خارج لغزو قشتالة في يناير ١٠٠٩ م جمادى الأولى سنة ٣٩٩ هـ ولم تكن العادة أن يخرج الناس للغزو في هذا الوقت ، ونصح الناس شنجول بالأخروج ، ولكنه أصّر ، وقد وصل إلى جليقية ولكنه لم يستطع أن يعمل شيئاً نظراً لخلو الأراضي من المزروعات وشدة البرد وهرب النصاري إلى فنز الجبال فقفل راجعاً ، ولم يكد يدخل طليطلة حتى بلغه أن ثورة قامت في قرطبة وأن الناس هاجموا مدينة الزاهرة ونهبوا ذخائرها .

### ثورة قرطبة وبداية الفتنة الكبرى

١٦ جمادى الأولى ٣٩٩ هـ / ١٥ فبراير ١٠٠٩ م :

وكان ذلك حقاً من نفراً من الباقين المتمردين من بنى أمية قرروا انتهاز فرصة ابتعاد عبد الرحمن شنجول والجيش للقيام بالثورة مستعينين في ذلك « بالذلاء » أم عبد الملك المظفر ، وكان لا تشك في أن عبد الرحمن شنجول قتل أخاه - أيتها - بالسهم - فأتصلت بنفر من شنان بنى أمية الساعين في سقوط بنى عامر ، وكان زعيمهم شاباً مغامراً يسمى محمد بن هشام بن عبد الجبار وهو من أمناء عبد الرحمن الناصر . فاتفق هذا الشاب مع أنصاره على أن ينتظروا حتى يدخل عبد الرحمن شنجول أرض النصاري لكي يقوموا بضربتهم ، لأن الجيش

يحتاج إلى شهر لكي يعود من هناك . وبالفعل نفذوا المؤامرة في ١٦ جمادى الأولى ٣٩٩هـ / ١٥ فبراير ١٠٠٩م بإدئين بالهجوم على قصر قرطبة واقتحموه وقتلوا صاحب المدينة عبد الله بن أبي عامر ، ثم بايع محمد بن عبد الجبار لنفسه وبايعه أصحابه واتخذ لقب المهدي واختار قريباً له يسمى سليمان بن هشام وجعله ولي عهده وأرغم هشاماً ( الثاني ) المؤيد على التنازل فتنازل بعد أن مكث في منصب الخلافة ٢٣ سنة . كان ذلك يوم الأربعاء ١٧ جمادى الأولى ٣٩٩هـ / ١٦ فبراير ١٠٠٩م ثم تهدمت قصور الزاهرة وتلاشى أمرها في أيام

وعندما وصلت أخبار الانقلاب إلى الجيش تحنّى معظم رجائه عن عبد الرحمن بسبب احتقارهم البالغ له ، ونصحه مولاة « واضح » حاكم طليطلة أن يظل مكانه ، ولكن شنجول كان يحسب أنه إذا ما اقترب من قرطبة خرج الناس مرحبين به ، فسار نحوها ورفض زعماء البربر وخاصة « محمد بن يعلى الزناتي » زعيم زناتة أن يوافق عبد الرحمن على اقتحام قرطبة بالقوة ، لأن أولاد البربر وأشرهم فيها ، وتخلّى البربر جميعاً عنه وتركوه عاندين إلى قرطبة لحماية أسرهم . أما عبد الرحمن ، فمازال يسير حتى وجد نفسه وحيداً وقد تخلّى عنه كل الناس وانتهى أمره إلى أن قبض عليه رجال محمد بن عبد الجبار في دير على نهر « أرملاط » قرب قرطبة وقتلوه في ٣ رجب ٣٩٩هـ / ٣ مارس ١٠٠٩م وكانت تلك هي النهاية المحزنة التي انتهى إليها أمر بني عامر .

والحقيقة أن الثورة كانت على النظام العامري المستند كله ، فقد كانت النفوس قد ضاقت بذلك النظام الغاشم الذي لم يخدم إلا مصالح آل عامر ، ثم جاء عبد الرحمن شنجول بطيشه وفساده وقلة تدبّره ، فلم يلبث في المنصب أكثر من ثلاثة أشهر ثم كانت الثورة وانتهى النظام بمصرعه . كما ذكرنا .

## الفئة الكبرى :

من سوء الحظ أن محمد بن هشام بن عبد الجبار كان من أسوأ طراز عرفناه في شباب بني أمية الأندلسيين ، فقد كان طائشاً قليل التفكير سوقى النزعات ، لطول ما عاش في الأحياء الفقيرة متنكراً بين رعايا قرطبة ، ولذلك احاط نفسه



بمطافئة ممن كانوا على شاكلته ، لا يحسنون غير النهب والسرقة غافروا الناس الذي شديداً ، وبهذا يوضح أن الأمل الذي علّقه الناس على هذا الرجل لن يلبث أن يتلاشى .

لقد تولى محمد بن هشام بن عبد الجبار الأمر دون أن تكون لديه أية فكرة عن الدولة وشئونها ، واتخذ لقب المهدي

وقد أجمع الناس عليه أول الأمر مؤمّنين أنه يستطيع القبض على ناصية الأمور وتسييرها في الطريق الذي سارت عليه إلى الآن . ولكن ابن عبد الجبار لم يقدّر إلا بشيء واحد هو الانتقام من العامريين والاستئثار بما ظن أنه من حقوق الخلفاء .

ولم يكن الرجل الذي يستدعيه الموقف . فقد كان الوقت وقت انقلاب وفوضى . ومست الحاجة إلى رجل جاسم حازم يمسك بزمام الأمور ويقرّضها في نصابها ويردع العامة عما اسرقت فيه من القوضى والنهب .

وكان لابد كذلك من النظر في العودة إلى قواعد النظام التي قضى عليها المنصور بقسوته واستبداده ، ولكن محمد بن عبد الجبار لم يكن يدرك أية موهبة . كان سفاكاً قاسياً منحط النزعات ولم يهده ذكاؤه إلى شيء غير الاستبداد بالبربر وإذاهم وإهانته عقاباً لهم على تأييد بني عامر ، ثم الانتقام من العامريين .

وقد أساء ابن عبد الجبار التصرف لأنه ناصب البربر العدا ، وكان أولئك البربر قد أتى بهم ابن أبي عامر إلى هذه البلاد مرتزقين في أعداد كبيرة يتزعمهم نفر من خيرة زعماء بربر المغربين الأوسط والأقصى ، وكانوا قد كسبوا مالاً عريقاً واتخذوا الأندلس وطناً لهم . فأراد هذا الرجل أن يقضى عليهم . وكان من واجب ابن عبد الجبار أن يؤمن البربر على مراكزهم ومكانهم . فقد أتوا إلى هذه البلاد للاشتراك في الجهاد وأبلاؤا جلاءً حسناً ، وليس دنيهم أن ابن أبي عامر استقوى بهم على بني أمية

وكان ذلك خطأ جسيماً منه ، لأن أولئك البربر كانوا قوة كبيرة ولم يكونوا كما ظن يهتبرون أنفسهم رجال العاصريين ، بل إنهم بادروا عقب مقتل عبد الرحمن شنّجول بإعلان الطاعة للخليفة الجديد . ولو أنه كان على شيء من

السياسة لقبل ولاءهم ، كما فعل جده عبد الرحمن الناصر عندما تولى وأخذ يستألف الناس حتى استقر له الأمر ، وبدلاً من ذلك نجد محمد بن عبد الجبار يحاول استدلال البربر بل أمر يوماً من الأيام بشيخهم « زاوى بن زيرى الصنهاجى » لمنع من دخول القصر وأمين ، وكانت النتيجة أن تخوف منه البربر ووقفوا منه موقف العداء ، فقرر في أواخر مارس ١٠٠٩ م / رجب ٢٩٩ إخراج كل البربر الذين كانوا في خدمة المنصور من قرطبة ، فرفض هؤلاء الخروج وبدأ الصراع بين البربر والأندلسيين في عاصمة الخلافة .

وكان هذا الانشقاق في الجيش من أسوأ ما أصاب الأندلس لأن الجيش كان درع المملكة ، وهذا الانقسام كسر وحدة الجيش وحرّم الدولة من أن تكون لها قوة عسكرية تستطيع الدفاع عنها

وعقب ذلك مباشرة أعلن محمد بن عبد الجبار المهدي موت هشام المؤيد الخليفة الذى حكم تحت ظل العامرين ، وكان ذلك في ٢٧ شعبان ٣٩٩ هـ / ٢٦ أبريل ١٠٠٩ م ودفن هذا الرجل في مشهد في نفر كبير من الناس من بينهم القاضي أبى العباس بن ذكوان ، ولكن الحقيقة أن هشاماً المؤيد لم يمت ولم يُقَبَّر ولكن ابن عبد الجبار فعل ذلك ليخلو له الطريق ، وقد سخر الناس في قرطبة من ذلك العمل لأنهم كانوا يعرفون أن هشاماً لم يمت .

وخاف البربر من نوايا محمد بن عبد الجبار ، فجمعوا خارج قرطبة في « حصن السراشق » ، وقرروا اقتحام قرطبة بالقوة واختاروا لأنفسهم خليفة من أحفاد الناصر أيضاً ، يسمى سليمان بن هشام ولقبوه « بالمستعين » وبذلك أصبح في البلاد خليفتان : واحد في قرطبة والآخر على رأس البربر .

### معركة قنتيش ، نهاية الجيش الأندلسي التقليدى :

وأحسن محمد بن عبد الجبار المهدي أنه لن يستطيع الثبات أمام البربر ، فأرسل يستنجد بالتصاري وخرج ليلقى البربر وكان اللقاء يوم ١٩ ربيع الأول سنة ٤٠٠ هـ / ٥ نوفمبر سنة ١٠٠٩ م في « قنتيش » إلى الشمال الشرقى قليلاً من بلدة « القليعة » عند ملتقى وادى « أرمسلاط » بالوادي الكبير . وفي هذه المعركة

حصدت صفوف الأندلسيين حصداً ، وانتصر البربر ، وفرّ نفرٌ من الأندلسيين الصقالبة إلى شرقى الأندلس وعلى رأسهم « واضح العامري » واستقروا في دانية ، وكانت تلك هي نهاية القوات الأندلسية التقليدية الأصلية التي كان محمد بن أبي عامر قد أضعفها وشل حركتها ووقع البربر فوق رجالها فساء حالهم . تلك القوة العسكرية المجيدة التي طأ لها كسيت للإسلام في الأندلس نُصراً بعد نصر ، وبعد القضاء عليها لم يستطع أحد ممن تولوا الأمر أن ينشئ قوة عسكرية لها قیعة في الأندلس .

ودخل البربر قرطبة وعاشوا فيها فساداً وقتلوا الكثير من أهلها ومن بينهم العالم المشهور « أبو الوليد الغرضي » وفرّ من قرطبة محمد بن عبد الجبار المهدي إلى الثغور وأصبح زاوي بن زيري سيّد الموقف ، فأخرج هشاعاً المؤيد من سجنه وتبين بذلك - بوضوح - أنه لم يمت ولم يدفن . وفي ١٦ ربيع الأول سنة ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م دخل زاوي القصر وهناك بايع البربر سليمان المستعين واتخذوه خليفة

وقد أثبت سليمان المستعين في المدة القصيرة التي تولّاها أنه ليس بكفء للمنصب الذي تولاه واضطرب أمره ولم يحسن زاوي بن زيري رؤية الأمور لأن القرطبيين نفروا من البربر نفوراً شديداً ، وفي نفس الوقت كان واضح العامري قد ذهب إلى « أورخل » ولقى رامون بوريل الثالث كند برشلونة وطلب منهم عواً عسكرياً فأعطوه فرقة عاد بها ليحارب البربر وعند « عقبة البحر » وهي بلدة صغيرة إلى الشمال من قرطبة التقى جيش البربر ، وعلى رأسهم سليمان المستعين بجيش محمد بن عبد الجبار المهدي وأحلافه من التصاري وفي هذه المعركة انهزم البربر وفر سليمان المستعين وعاد زاوي بن زيري إلى قرطبة ولم يطل مقامه فيها بل أخذ أهله وفعل البربر فعله واتسحبوا إلى الجنوب .

**الفراع بين محمد بن عبد الجبار المهدي وسليمان المستعين :**  
عاد محمد بن عبد الجبار المهدي إلى قرطبة وأراد أن يقضى على البربر فسار نحوهم مستعيناً هو الآخر بقوة من التصاري ، وأعانه بها الكونت « أرمنجول »

أمير أورخل ، واستطاع أن يتصر على سليمان المستعري والبربر في منتصف شوال ٤٠٠هـ / أواخر مايو ١٠١٠ م فعزل البربر على الانصراف إلى إفريقية وجمعوا أمتعتهم وأهملهم وساروا نحو الجنوب وتتبعهم ابن عبد الجبار ومن معه من النصاري .

وكان اللقاء الثاني بينه وبينهم عند نهر وادي « أبرد » في ٦ ذي القعدة سنة ٤٠٠هـ / ٢١ يونيو ١٠١٠ م وهناك انهزم محمد بن عبد الجبار المهدي ومن معه من الأندلسيين والقطانين ، وقتل البربر منهم مقتلة عظيمة حتى هلك في المعركة ثلاثة آلاف من النصاري . وعلى أثر ذلك انسحب النصاري إلى بلادهم . وكان واضح « قد انضم إليه وعينما وقعت الهزيمة تجتمع الصفالبة الهاميريون وعلى رأسهم « واضح وخران وعنبر » وانسحبوا إلى شاطبة وشرقي الأندلس . ودخل سليمان المستعري مع البربر قرطبة بعد مقتل محمد بن عبد الجبار المهدي في ٢٣ يوليو ١٠٠١ م / ٨ ذي الحجة سنة ٤٠٠هـ وأعلنت خلافة هشام المؤيد للمرة الثالثة .

ولم تطل مدة خلافته هذه المرة لأن البربر دخلوا قرطبة وقتلوا الكثيرين من أهلها ولم يبق في سلاطة هشام المؤيد إلا قرطبة وما حولها .

هكذا بدأت الفتنة وتدهورت الأمور ، وقد اجتهد زعماء قرطبة في مصالحة البربر أملاً في عبودية الأمور إلى نصائبها ، ولكن البربر تمسكوا بدعوة سليمان المستعري فأجيبوا إلى ذلك في شوال ٤٠٣هـ / مايو ١٠١٣ م على يد القاضي « أبي العباس بن ذكوان » ودخل سليمان المستعري قرطبة وحاول أن يحكم معتمداً على البربر ولكنه فشل هذه المرة أيضاً ، خاصة وقد أقدم على قتل هشام المؤيد في ١٥ ذي القعدة ٤٠٣هـ / ١٦ مايو ١٠١٣ م وبذلك انتهت حياة ذلك الخليفة المسكين الذي لم يبنأ بخلافته يوماً واحداً .

لم يستقر الأمر لسليمان المستعري قطً خلال السنوات الثلاث التي قضاها في الخلافة . ولكن الحقيقة أن جؤاً من الفوضى والرمية ساد البلاد ، فلم يعد أحد يطمئن إلى أحد . ولم يظهر رجل ذو كفاية وخلق يستطيع ضبط الأمور ، فتوات الفتن وكانت المشكلة الرئيسية هي مشكلة ذلك الجند المرتزق الذي أتى به

المنصور وهم الصقلانية من ناحية، والبربر من ناحية أخرى، فأما الصقلانية فقد تركوا الميدان وغدروا إلى السواحل الشرقية وحاولوا الاستقرار في أمان في المرية ومرسية، يقودهم زعيم صقلبي يسمى «خيران» وحاول نفر آخر منهم الاستقرار في دانية والجزائر الشرقية، وخاصة «بنو برزال وبنو يفرن». ومع أن سليمان المستعين وافق على تثبيت المنذر بن يحيى التجيبي في ولاية سرقسطة والثغر الأعلى لكي يستعين به، إلا أن أمره لم يستتب.

ولو أن البربر أخلصوا سليمان المستعين مريماً كان قد صلح أمره ولكن الكثيرين من زعمائهم كانوا يخادعونته وخاصة «زاوي بن زيري وجبوس بن ماكسن» زعيم البربر الصنهاجيين، الذين كانوا قد وعدوا على المنصور وانضموا إلى جيوشه، ثم استقروا بعد الفتنة في غرناطة.

وقد ظهر من بين أولئك الصنهاجيين بيت يسمى بني حمود، ينتسبون إلى الإدارة ولكنهم كانوا قد اندرجوا في جملة البربر بعد نهاية الإدارة، ثم دخلوا في خدمة المنصور وأولاده، فلما انقضى أمرهم واشتعلت الفتنة تطعموا إلى الخلافة، وكان سليمان المستعين قد ولي على بني حمود منهم سيبة، وإخاه القاسم بن حمود الجزيرة الخضراء. فطمع عليّ في الخلافة وتحالف مع «خيران الصقلبي» واقتحم قرطبة وقتل سليمان المستعين، وزعم أن هشاماً المؤيد كان قد رآه عهده. وبدأ يحكم على أنه خليفة الأندلس، معتمداً على رجاله من الصنهاجيين والزناتيين، وبدأت في تاريخ الخلافة القرطبية فترة قصيرة من الفوضى هي فترة الحموديين.

ومن الطبيعي ألا يستطيع هذا الدعي شيئاً كثيراً فلم يلبث أن قتله غلماناه ٢٠ ذي القعدة ٤٠٨ هـ/ ٢٢ مارس ١٠١٨م وخلفه أخوه القاسم بتأييد الزناتيين.



## عصر الطوائف

### كيف بدأ عصر الطوائف :

خلال هذه الحوادث كلها وقف بقية أهل الأندلس ينظرون إلى ما تسفر عنه الأمور ، وكان يتولى معظم ولايات الأندلس نفر من رجال بني عامر أو من أعضاء الحزب العامري إذا استقام هذا التعبير ، وفي هذه الظروف قد اتحدت السلطة المركزية تقريباً ، اضطر أولئك الولاة إلى الانفراد بولاياتهم ريثما تنجلي الأمور في قرطبة ، ولكن الأسور لم تنجلي عن نتيجة واضحة ، وتعاقد على عرش بني أمية عدد من الأمويين الصغار لم يحكم معظمهم إلا فترات قصيرة ، وكان القرطبيون يحاولون أن يؤيدوا أولئك الخلفاء بزعامة رئيسهم أبي الحزم بن جهور ، وأخيراً ، وعندما ينس القرطبيون من العصور على شخصية أموية تستطيع النهوض بالمسؤولية اجتمع كبار قرطبة في ذي القعدة ٤٢٢ هـ / نوفمبر ١٠٣١م وتشاوروا في الأمر ثم استقر رأيهم على إلغاء الخلافة القرطبية وعزلوا آخر بني أمية وهو هشام الثالث الملقب بالمتوكل ، وقرروا إخراجهم من بلدهم في ١٢ ذي القعدة ٤٢٢ هـ / ٣٠ نوفمبر ١٠٣١م وبذلك انتهت خلافة بني أمية الأندلسية وذهب الخليفة المعتد معزولاً إلى نواحي سرقسطة حيث انتهت حياته في خمول .

هذا القرار الذي اتخذته قرطبة برئاسة أبي الحزم بن جهور لا يوصف إلا بأنه كارثة ، لأن إلغاء الخلافة كان معناه إلغاء رمز الوحدة ، لأن عمال النواحي والأطراف وجدوا أنفسهم فجأة بدون خليفة ومضطرين إلى أن يتولوا بأنفسهم شؤون ولايتهم ، وهكذا تحول كل منهم إلى أمير في ناحيته ، وتلك هي النقطة التي لا يلاحظها الكثيرون وهي أن عمال النواحي في الأندلس لم يخرجوا على الطاعة ، ولم يستبد كل منهم بناحيته ، ولكن الذي حدث هو أن القرطبيين ألفوا الخلافة ، فلم يكن للعمال مفرٌّ من أن يتحولوا إلى أمراء نواح ، وبهذا العمل الذي يخلو من كل شعور بالمسؤولية قضى أبو الحزم بن جهور وأنصاره على رمز الوحدة في البلاد وهو أمر لم يحدث قط في التاريخ ، لأن خلافة بني العباس مثلاً - رغماً عن ضعفها - ظلت قائمة رمزاً لوحدة المسلمين في المشرق ، وكان ذلك ذا

قائدة عظيمة ، لأن الأمر لم يدخل من زعماء ذوي حمية وإحلام يدخلون في طاعة الخلافة ويشدون أزرها وتنتعش الخلافة من جديد كما حدث في عهد السلاجقة .

هكذا ظهر أمراء النواحي الذين نسميهم بملوك الطوائف ، وهم لم يكونوا علوكاً ولا ملوك طوائف ، وإنما هم كانوا عمالاً على النواحي استبدوا بالأمر كل في ناحيته ، على النحو الذي وصفناه ، وهم لم يتخذوا القاباً ملكية ولا سلطانية ، وإنما اتخذوا تسميات مثل المعتضد والمعتد والمستعين ، ولم يكونوا يتزعمون طوائف من سكان الأندلس كما يظن البعض ، فلم تكن هناك طائفة عربية أندلسية يتزعمها بنو عبّاد ، أو طائفة بربرية يتزعمها رجل مثل المأمون بن زنون في طليطلة ، ولا طائفة صقلبية في شرق الأندلس يتزعمها الصقالبة العامريون ، إنما هم كانوا رؤساء النواحي استبد كل منهم بناحيته وأراد أن يظهر بمظهر الأمير أو السلطان . ولم يوفق واحد منهم في ذلك وحسرت الحروب بينهم وطمع فيهم النصاري فساخدوا يفرضون عليهم الإتاوات لأن أحداً منهم لم يكن لديه جيش يستطيع به دفع النصاري عن بلاده .

#### وينقسم عصر الطوائف تاريخياً إلى ثلاث فترات :

**الفترة الأولى** هي فترة الانتظار والترقب فيما بين سقوط العامين سنة ١٠٠٠م وإلغاء الخلافة القرطبية سنة ١٠٣١م وخلال هذه الفترة جرت الحروب التي ذكرناها بين الأندلسيين وجند العامين من البربر . و تعاقب الخلفاء واحداً في إثر واحد وتخربت قرطبة ومدينة الزهراء وكذلك مدينة الزاهرة التي بناها المنصور محمد بن أبي عامر ، ووقف عمال النواحي يرقبون الأمور وينتظرون أن يستقر الأمر عند واحد تعترف به الأندلس كلها لتسير الأمور في مجراها من جديد ، وخلال هذه الفترة القصيرة تدهورت أمور الأندلس كله وتداعت القواعد المتينة التي وضعها أمراء بنو أمية وخلفاؤهم وخاصة عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر ، وتنافس مخلق ممالك النصاري في الشمال وطمعوا في بلاد المسلمين وقد تحدثنا عن هذه الفترة .

**والفترة الثانية** وتمتد من سنة ١٠٣١ - ١٠٨٥م وهي سنة سقوط طليطلة في يد ألفونسو السادس ملك نشتالة وليون

وذلك أن أمراء الطوائف دخلوا في حروب طويلة بعضهم مع بعض ، وكل منهم يريد أن يوسع ناحيته على حساب الآخرين مستعيناً في ذلك بقوات من النصارى يدفع لهم إتاوةً جاسباً أنه يقيم بذلك ملكاً لنفسه على حساب إخوانه المسلمين ، وتلك هي فترة الطوائف حقاً التي انقسم الأندلس فيها إلى وحدات سياسية كثيرة كلها صغيرة وكلها عاجزة عن القيام بأمور نفسها ، وتدهورت الأمور في الأندلس كلها خلال هذه الفترة . وأهم أمراء الطوائف الذين ظهروا في هذه الفترة هم

بنو عباد أصحاب إشبيلية ، ومؤسس دولتهم محمد بن إسماعيل بن عباد الذي ينتسب إلى لخم ، وكان من رجال الحزب العامري ، فابن أبي عامر هو الذي ولّاه القضاء على إشبيلية ، ومنحه سلطات واسعة ، وعند قيام الفتنة كان أبو الوليد إسماعيل بن محمد بن عباد قاضياً على إشبيلية ، فقدمه أهلها للرياسة ، وعندما توفي إسماعيل قام بالامر بعده ابنه محمد بن إسماعيل بن عباد واصططعته القاسم ابن حمود وأقامه والياً على إشبيلية ، فشرعت نفسه إلى السلطان ، وكان رجلاً واسع الحيلة بعيد الفجور وإن كان مستواه الأخلاقي بعيداً عما ينبغي للقضاة . وما كادت دولة الحموديين تنتهي حتى استبد بالامر وتلقب بالعتقيد وأعلن لفترة قصيرة الولاء لهشام المؤيد ، وفي النهاية استبد بالامر ، وخلفه ابنه إسماعيل بن محمد بن عباد الذي عُذر بجحى بن علي بن حمود مولى نعمته سنة ٤٢٧ هـ . وإسماعيل هذا هو الذي انتقل بالبيت الحبادي إلى مظاهر الامراء ، فأتخذ القصور والجند ، وحاول أن يضم إلى إمارته كل ما استطاع من البلاد الصغيرة إلى جواره وخاصة إمارات البربر الصغيرة مثل قرمونة وأسكنة قرب إشبيلية . ووقعت الحرب بين أبي القاسم إسماعيل بن عباد وجيرانه وخاصة بني الأقطس أصحاب بطليوس . وقد استعلن كل من ابن الأقطس وابن عباد بالنصارى واستقر الامر في النهاية إلى شبه هدنة بينهما ، وفي سنة ٤٣٣ هـ صار الامر في إشبيلية إلى أبي عمر عباد بن إسماعيل بن عباد ، وهو الذي تلقب بالعتقيد ووسع إمارته حتى شملت معظم حوض الوادي الكبير وما يليه جنوباً ومارنه أهل قرطبة ، وقد اتخذ هذا الرجل الجند الكثير ، ولكنه لم يستطع أن يحقق وحدة الاندلس كما كان يقول ، وخاصة وقد اشتدت الحروب بينه وبين المظفر بن الأقطس صاحب بطليوس ، وقد استمرت الحروب بين بني الأقطس وبين بني



عَبَادَ وطمع ألفونسو السادس ملك قشتالة وليون في بلاد المسلمين . وهذا المعتضد بن عباد هو الذي اشتهر أمره في بلاد الأندلس فجعل لنفسه بلاطاً وأحاط نفسه بالشعراء وكان هو نفسه شاعراً ، وهو والد المعتضد بن عباد الشاعر المشهور . وستحدث عنه . وقد حاول سنة ٤٥٠ هـ أن يستولى على قرطبة ولكنه لم يستطع إلا بعد نهاية بنى جهور حوالى سنة ٤٥٨ هـ .

ثم خلفه ابنه المعتضد بن عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد الذي تلقب بالمعتضد واشتهر أمره بالشعر والشعراء . وفي أيامه بلغت دولة بنى عباد ذروتها في القوة والشهرة ، فقد تمكن المعتضد من ضم قرطبة ومالقة وموسية ، واستصفى كل إمارات البربر الصغيرة جنوبي الوادي الكبير ، وضم إلى إمارته جزءاً كبيراً من غرب الأندلس ، ولكنه لم يستطع أن يحقق أمل الوحدة لأنه كان إلى جانب استهواره بالشعر رجالاً فاسداً يفتق معظم وقتهم في الشراب محيطاً نفسه بالشعراء وأكبرهم أبو بكر بن عمار . وستحدث عن ذلك في نهاية كلامنا عن عصر الطوائف ، وقد انتهت إمارة بنى عباد على يد المرابطيين فقد عزله يوسف بن تاشفين بعد عبوره الثالث إلى الأندلس . وبغاة إلى اغتات حيث قضى بقية أيامه في قول الله عز وجل : **وَبِذَلِكَ نَمُوتُ وَبِذَلِكَ نَحْيَى** . وهذه الفترة هي أجمل شعر قاله في حياته .

### دولة بنى ذى النون في طليطلة :

بنو ذى النون أسرة بربرية الأصل قديمة في الأندلس ، وترجع أخبارها عندنا إلى أيام الإمارة ، فقد جمعت أعداد من بربر الهواريين عند بلدة تسمى شتمرية قرب طليطلة . وهناك قامت لهم عزوة وقام لهم عدد . وتحولوا إلى أندلسيين من أصل مغربي وتزاوجوا إلى الناس وأصهروا إليهم ونشأت أجيالهم أندلسية

وكان الأمراء وخاصة في عهد الأمير عبد الله ، إذا وجدوا أسرة من هذا الطراز ذات قوة وعدد . في ناحية من النواحي تتطلع إلى السلطان استجابوا لطلب رؤسائها في الإسجال لهم على بلدهم أى إعطائهم سجلاً يخول لهم حكم منطقتهم . إلى جانب العامل المردى من قبل أمير قرطبة وجباية المال والاحتفاظ ببعضه في مقابل تقديم خدمة عسكرية للإمارة في الصوائف ، أو عندما تطلب الإمارة ذلك . وكان ذلك نوعاً من الإقطاع شبيهاً بالإقطاع الغربي الذي ساد أوروبا في العصور

الوسطى مع فارقي ظاهر ، وهو أن الإقطاع الغربي كان يُعطى المُقَطَّعُ السلطان على الأرض والناس ، أي أن المُقَطَّعُ ويسمى في المصطلح الغربي بالفصل كان يصبح سيد أرض التاحية وأهلها ، أما في الإقطاع الإسلامي ، فالإقطاع إقطاع الأرض وحدها وما فيها من موارد الدخل ، مثل جسر يعبر عليه الناس أو نهر يستقون منه أو موضع يقيمون فيه سوقهم ، أما الناس فكانوا يظلون رعية الإمام في قرطبة ولا سلطان للمقطع عليهم .

وفي عهد عبد الرحمن الناصر رأينا أن بيت زنون ، وهكذا كان يسمى في الصيغة البربرية ، حاول أن يلتوي على الناصر ولكن الناصر أجبرهم على الطاعة وقص من أطراف قوتهم ، وكذلك المنصور محمد بن أبي عامر الذي أرغمهم على القتال في جيوشه وأرغمهم كذلك على دفع إتاوات مالية منتظمة لمعاونتته فيما كان يقوم به من حملات على بلاد النصارى . وقد دخل بنو زنون - الذين غرّبوا اسمهم إلى ذى النون - في جملة الحزب العامري وأصبحوا من رجال حاكم قرطبة المستنيد بأمرة

وكانت طليطلة ولاية واسعة تبدأ من قلعة أيوب ومدينة سالم في الشمال ، ولا تنتهي إلا قرب مجرى الوادئ الكبير في أحواز بلد يسمى « قبدة » ، أما من الشرق فكانت طليطلة تبدأ عند « فونكة » ولا تنتهي إلا عند أحواز ما يعرف اليوم بالبرغال . فكانت بذلك تكون نحو خمس مساحة الأندلس الإسلامية .

وعندما قامت الفتنة سنة ١٠٠٩م كان يتولى أمر شنتمرية رجل في بيت ذى النون يسمى يحيى ، فاستدعاه أهل طليطلة لكي يستقوا به على نصارى الشمال فأصبحت ولاية طليطلة من أملاك بني ذى النون ، وعندما زالت الخلافة سنة ١٠٣١م اتخذ يحيى بن ذى النون لقب المأمون ، وأخذ لنفسه ظاهر الملكية الذي اتخذه أمراء الطوائف في ذلك العصر ، ولكن لم تكن له قوة عسكرية كافية لتجاوز عن بلاده ، وكان هو يحسب أنه إذا صانع ملوك النصارى المجاورين له استطاع أن يعيش معهم في سلام . وفي الحق كان ذلك يبدو ممكناً في ذلك الحين ، لأن الممالك النصرانية المجاورة له كانت من الصغر والضعف بحيث لا يخشى خطرهما ، وخاصة بعد ما كان من ضعفها على يد عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر والمنصور محمد بن أبي عامر ، فكانت تقوم إلى غربي طليطلة إمارة

صغيرة هي كونتيسة قشتالة ، وقاعدتها برغش ، وكان يحكمها أكناد ضعاف تابعون لمثوك ليون ، وقد حدث في أول قيام الفتنة أن ملك ليون توفي وخلفه ابنواؤه فتصاربوا فيما بينهم وانتهى الأمر إلى واحد منهم يسمى سانشو فطرد أخاه ألفونسو ونفاه إلى طليطلة ، فأقام ضيفاً على المأمون ذي النون سنوات طويلة عرف فيها أحوال البلد وأدرك الحقيقة الكبيرة ، وهي أن طليطلة كلها لا تملك جسمانة فارس فاستقر رأيه على الاستيلاء عليها إذا أمكنته الفرصة من ذلك

وحدث بعد ذلك أن قُتل أخوه سانشو واستدعاه النملاء ورؤوه ملكاً ، فأصبح يسمى ملك قشتالة وليون وتلقب بلقب العونسو السادس ، فلم يكد يستقر على العرش حتى بدأ يمهّد للاستيلاء على طليطلة . وفي سنة ٤٦٧هـ / ١٠٧٥م توفي المأمون ذو النون ، وخلفه حفيده في غاية الضعف والقذرة السياسية والعسكرية يُسمى يحيى الذي تلقب بالقادر ، وفي أيامه استقلت بلنسية عن طليطلة ، وكانت من تابعيها ، ونشط ألفونسو السادس في تحقيق حلمه بالاستيلاء على طليطلة ، ففرض على المأمون ذي النون أن يحمي من حيرانه فوافق ، وبذلك أصبحت طليطلة حماية قشتالية ليونية ، وصارت تدفع الجزية للملك النصراني . وقد انتهز هذا الأخير فرصة خلاف بين أمير طليطلة الضعيف ورجال دولته ، وخاصة أسرة بني الحديدي من الوزراء ودخل البلد بقوة سنة ٤٧٨هـ / ١٠٨٦م وبذلك دخلت طليطلة كلها بكل أراضيها في مملكة ليون وقشتالة ، وعوضاً عن ذلك عين ألفونسو السادس يحيى القادر من ذي النون صاحب طليطلة بولاية بلنسية وأرسل معه جماعة من الفرسان على رأسهم فارس يسمى ألرهانش فدخل يحيى بن ذي النون بلنسية في حماية النصراني .

المهم لدينا ، وهذه هي الحقيقة التي نريد أن ننص عليها هنا ، أن مملكة ليون التي كانت إلى الآن مملكة صغيرة فقيرة ، تتكون من أراضي زراعية ، تشمل أقاليم ليون وأشتريس وجليقية ، تيس قريبا مدينة جديدة بالذكر إلا أبيب وليون وربما أشترة . أصبحت فجأة مملكة ضخمة تضاعفت مساحتها ثلاث مرات ودخل فيها من عظام المدن مثل طليطلة وشتتيرة ومدينة سالم وقلعة أيوب ودروقة ، هذا بالإضافة إلى ما كان منضمّاً إليها قبلاً من أراضي كونتيسة قشتالة ، أي أن ألفونسو السادس انتقل فجأة من ملك صغير فقير إلى أكبر ملوك الجزيرة .

البرسطى مع فاروق ظاهر ، وهو أن الإقطاع الغربى كان يُعطى المُقَطَّع السلطان على الأرض والناس ، أى أن المُقَطَّع ويسمى في المصطلح الغربى بالفنصل كان يصبح سيد أرض الناحية وأهلها ، أما في الإقطاع الإسلامى ، فالإقطاع إقطاع الأرض وحدها وما فيها من موارد الدخل ، مثل جسر يعبر عليه الناس أو نهر يستقون منه أو موضع يقيمون فيه سورتهم ، أما الناس فكانوا يظلون رعية الإمام في قرطبة ولا سلطان للمقطع عليهم .

وفي عهد عبد الرحمن الناصر رأينا أن بيت زنون ، وهكذا كان يسمى في الصيغة البربرية ، حاول أن يلتوى على الناصر ولكن الناصر أجبرهم على الطاعة وقص من أطراف قوتهم ، وكذلك المنصور محمد بن أبى عامر الذى أرغمهم على القتال في جيوشه وأرغمهم كذلك على دفع إتاوات مالية منتظمة لمعاونته فيما كان يقوم به من حملات على بلاد النصارى . وقد دخل بنو زنون - الذين غرّبوا اسمهم إلى ذى النون - في جملة الحزب العامرى وأصبحوا من رجال حاكم قرطبة المستنيد بأمره .

وكانت طليطلة ولاية واسعة تبدأ من قلعة أيوب ومدينة سالم في الشمال ، ولا تنتهى إلا قرب مجرى الوادى الكبير في أحواز بلد يسمى « قبضة » ، أما من الشرق فكانت طليطلة تبدأ عند « فونكة » ولا تنتهى إلا عند أحواز ما يعرف اليوم بالبرتغال . فكانت بذلك تكون نحو خمس مساحة الأندلس الإسلامى .

وعندما قامت الفتنة سنة ١٠٠٩م كان يتولى أمر شتمرية رجل في بيت ذى النون يسمى يحيى ، فاستدعاه أهل طليطلة لكي يستقوا به على نصارى الشمال فأصبحت ولاية طليطلة من أملاك بنى ذى النون . وعندما زالت الخلافة سنة ١٠٣١م اتخذ يحيى بن ذى النون لقب المأمون ، وأخذ لنفسه طاهر الملكية الذى اتخذهُ أمراء العلوانف في ذلك العصر ، ولكن لم تكن له قوة عسكرية كافية لتأود عن بلاده ، وكان هو يحسب أنه إذا صانع ملوك النصارى المجاورين له استطاع أن يعيش معهم في سلام . وفي الحق كان ذلك يبدو ممكناً في ذلك الحين ، لأن الممالك النصرانية المجاورة له كانت من الصعر والضعف بحيث لا يحشى خطرها ، وخاصة بعد ما كان من ضعفها على يد عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر والمنصور محمد بن أبى عامر ، فكانت تقوم إلى غربى طليطلة إمارة

صغيرة هي كونتينة قشتالة ، وقاعدتها برعش ، وكان يحكمها أكناذ ضعاف تابعون لملاوك ليون ، وقد حدث في أول قيام الفتنة أن ملك ليون توفي وخلفه ابنه أراه فتصاروا أغيما بينهم وانتهى الأمر إلى واحد منهم يسمى سانشو فطرد أخاه ألفونسو ونفاه إلى طليطلة ، فأقام ضيفاً على المأمون ذي النون سنوات طويلة عرّف فيها أحوال البلد وأدرك الحقيقة الكبيرة . وهي أن طليطلة كلها لا تملك خمسمائة فارس فاستقر رأيه على الاستيلاء عليها إذا أمكنته الفرصة من ذلك

وحدث بعد ذلك أن قتل أخوه سانشو واستدعاه النبلاء وولّوه ملكاً ، فأصبح يسمى ملك قشتالة وليون وتلقب بلقب ألفونسو السادس ، فلم يكد يستقر على العرش حتى بدأ يمهّد للاستيلاء على طليطلة ، وفي سنة ٤٦٧هـ / ١٠٧٥م ترقى المأمون ذي النون ، وخلفه جفيل له في غاية الضعف والقدرة السياسية والعسكرية يُسمّى يحيى الذي تلقّب بالقادر ، وفي أيامه استقلت بلنسية عن طليطلة ، وكانت من تابعيها ، ونشط ألفونسو السادس في تحقيق حلمه بالاستيلاء على طليطلة . فعرض على المأمون ذي النون أن يحميه من جيرانه فوافق ، وبذلك أصبحت طليطلة حماية قشتالية ليونية ، وصارت تدفع الجزية للملك النصراني . وقد انتهت هذا الأخير فرصة خلاف جح ، أمع طليطلة الضعيف ورجل دولته ، وخلمة أسرة بني الحديدي من الوزراء ونحل البلد بقوة سنة ٤٧٨هـ / ١٠٨٦م وبذلك دخلت طليطلة كلها بكل أراضيها في مملكة ليون وقشتالة ، وعرضاً عن ذلك عن ألفونسو السادس يحيى القادر بن ذي النون صاحب طليطلة بولاية بلنسية وأرسل معه جماعة من القريسان عن رأسهم فارس يسمى ألبرهانس فدخل يحيى بن ذي النون بلنسية في حماية النصراني .

ألهمّ لدينا ، وهذه هي الحقيقة التي نريد أن ننصّ عليها هنا ، أن مملكة ليون التي كانت إلى الآن مملكة صغيرة فقيرة ، تتكون من أراض زراعية ، تشمل أقاليم ليون وأشتريس وجلبقية ، ليس فيها مدينة جديرة بالذكر إلا أيبط وليون وربما أشترقة ، أصبحت فجأة مملكة ضخمة تضاعفت مساحتها ثلاث مرات ودخل فيها من عظام المدن مثل طليطلة وشتتيرة ومدينة سالم وقلعة أيوب ودروقة ، هذا بالإضافة إلى ماكان منضمّاً إليها قديماً من أراضي كونتينة قشتالة ، أي أن ألفونسو السادس استغل فجأة من ملك صغير فقير إلى أكبر ملوك الجزيرة ،

وأصبح بقواته وأراضيه وأمواله الكثيرة صاحب الكلمة العليا في شبه الجزيرة ، فهو يملك أولاً مملكة ليون ( تضم أشتريس وليون وجلبقية ) وكونتيته قشتالة ثم كل بلاد إماراة طليطلة ، وأصبح بهذا الوضع يستطيع أن يملأ إرادته على كل بلاد الأندلس فهو يجاورها جميعاً وفرسانه يخبرون عن معظم إمارات الطوائف من أمثال إشبيلية وبطليوس وسهلة بنى رزيين التي تسمى بشنتبرية الغرب وبلنسية .

وذلك هي الحقيقة الرئيسية التي تهم المعنى بدراسة تاريخ الأندلس الإسلامي فإن مصيبة عصر الطوائف ، لم تقتصر على تقسيم أراضي الأندلس إلى ولايات صغيرة مستضعفة ، بل إن هذه الأقسام المستضعفة كانت تجاور إمارات نصرانية عازلة دائماً تحت تهديد خلافة قرطبة ، وكانت حائتها في ذلك الحين شخفاً ، فما كانت ترى أراضي المسلمين إلى جوارها بدون حماية حتى أنقضت عليها ، وسعت أراضيها على حسابها وتحولت من إمارات تكافح للبقاء إلى ممالك تعمل على توسيع رقعتها وتطمع في الاستيلاء على بقية شبه الجزيرة . ولهذا فإن الفكرة الكبيرة التي يدير عليها الكثير من مؤرخي الإسبان تاريخ إسبانيا في العمود الوسطى وهي فكرة الاسترداد La Reconquista ترجع بالذات إلى ذلك العصر . أما قبل ذلك فقد كان همّ الممالك النصرانية هو العيش في سلام من غزوات المسلمين .

أما القول بأن شر ما كان في عصر الطوائف هو انقسام البلاد إلى إمارات صغيرة فذلك في ذاته ليس بخطأ كبير ، ففي بلاد الإسلام في الشرق كانت البلاد وخاصة في الشام والعراق مقسمة في كثير من الأحيان إلى دويلات صغيرة ولكن لم يكن يهددها خطر سياسي ديني كبير كهذا ، ولهذا لم يكن للانقسام في ذاته تلك الخطورة به .

ولكي نوضح الأمر نقول إن خلفاء قرطبة في أيام عبد الرحمن الناصر والمستنصر والمتصور أي خلال العصر العاشر الميلادي الذهبي كانوا يفصل قوتهم ونشاطهم هم الذين يتصرفون في عروش الممالك النصرانية ، ففي أيام عبد الرحمن الناصر تدخل هذا الظليعة لكي يعين غرسيه سانشو الأول ملكاً على بنبلونة سنة ٩٢٤م وكذلك تدخل عبد الرحمن لكي يصبح سانجو الأول الخلف بالجلف ( الكراسو ) ملكاً على ليون سنة ٩٥٦م وفي أية مناسبة أبدى فيها ملوك

النصارى أية محاولة للخروج على طاعة قرطبة ، كان الحلفاء ورجالهم ينادون بالقيام بحملات التآديب ، بل إن عبد الرحمن الناصر دخل بقواته بنبلونة ليؤدب ملكها ، ودخل المنصور بقواته مدينة ليون عاصمة مملكة ليون ووصل بغاراته إلى جليقية ودحل ، شنت ياقب ، في وسط جليقية ، وقام ابنه عبد الملك المظفر بدخول برشلونة وكان ينوي إسكانها المسلمين وبالفعل نقل إليها الآلاف منهم وذلك قبل أن تقع كارثة طليطلة بأقل من نصف قرن . وهذا وحده يعطينا فكرة عن مدى التحول الكبير الذي أصاب الأندلس في عصر الطوائف

### إشارة بلنسية :

أشرنا فيما مضى إلى أن بلنسية كانت من توابع طليطلة . وحقيقة الأمر في بلنسية التي تقع في شرق الأندلس وتعتبر إلى اليوم من أغنى أقاليمه ، صارت بعد سقوط الخلافة إلى نحر من صقالبة العاسريين ، ثم تابع الصقالبة في حكمها خفيداً للمنصور بن أبي عامر يسمى عبد العزيز بن عبد الرحمن بن المنصور سنة ٤١١ هـ / ١٠٢١ م وتلقب بالمنصور وتوفي هذا سنة ٤٥٢ هـ / ١٠٦١ م فخلفه ابنه عبد الملك الملقب بالمظفر ، الذي تزوج ابنه لبحم المأمون بن ذي النون . وانتهى الأمر بأن اتحدت الإماراتان وعهد المأمون في حكمها إلى أبي بكر محمد بن عبد العزيز الملقب بابن روبش . حتى إذا استولى الفونسو السادس على طليطلة أخرج ابن روبش هذا وصار الأمر إلى يحيى القادر بن ذي النون في حماية فرسانه من النصارى الذين كان يرأسهم الترهانس الذي ذكرناه . وهو ابن آجى فارس نصراني آخر سيكون له دور سيئ في تاريخ المسلمين في الأندلس في ذلك العصر وهو رودريجو ديبيار الملقب بالسيد القمبيطور Rodrigo de Vivar El Cid Campeador ويسميه العرب بصاحب الفحص

كان هذا الرجل وأصله قشتالي يخدم ملوك ليون . وكان يؤيد الملك سانشو أبا الفونسو الذي ذكرناه ، فلما صار الأمر إلى الفونسو الذي تلقب بالسادس وأصبح يسمى ملك قشتالة وليون ، اختلف معه السيد فففى إلى سلاط سرقسطة وعاش في وسط المسلمين وتكلم العربية واستخدمه بنو هود في أعمالهم العسكرية ومن هنا كسب لقب السيد وهو لقب عربي ثم صالحو الملك الفونسو السادس بعد

استيلائه على طليطلة ثم انفصل عنه ويكون جماعة من أهل الحزابة ، وهم المصطلح الإسلامي المقاتلون الذين يقطعون الطريق ، وتجمعت إليه أعداد منهم ووجد أن بلنسية مملكة ضعيفة في حماية الفونسو السادس ملك ليون ، وأخذ يُغير على أرضها وهي عاجزة عن الدفاع

وشيئا فشيئا اشتد كَلْبُهُ عليها وطمعه فيها وحاصرها ، وأرذذت أعداد الذعار والسرّاق في جيشه ، وكان أمر بلنسية في يد ذلك الضعيف المسمى يحيى القادر . يعاونه قاضى البلد وهو أبو جعفر أحمد بن جحاف . وأخذ السيد يحاصرها كي يستولى عليها ويجعلها إمارة خاصة به ، وأخيراً تمكن بعد حصار طويل وحشى يصفه لنا مؤرخ عربي يسمى ابن علقمة في كتاب له يسمى « البيان الواضح عن المظالم الفادحة » حتى بلغ الجهد بالناس أن أكلوا كل ما لديهم وصار السيد يحرم عليهم الخروج من البلد . وأزاد الأمر سوءاً حتى اضطر البلد إلى أن يفتح أبوابه للسيد القمبيطور سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م فحكمها سنتين ، حكم فيها بالموت حرقاً على قاضيهما أبي جعفر أحمد بن جحاف ونفر من كبار أهلها وذلك في جمادى الأولى سنة ٤٨٨هـ ، فاركتب بذلك جريمة من أشنع ما ارتكب في ذلك العصر . ول ذلك الحين كان المرابطون قد دخلوا الأندلس وتمكنوا في النهاية من استعادة بلنسية على يد القائد عبد الله محمد بن عائشة بن يوسف بن تاشفين ، فخرج إليها من جزيرة شكر ولم يستطع الدخول . فتولى الأمر من بعده القائد أبو محمد بن مزدي وهو ابن عم ليوسف بن تاشفين وعلى يده دخل المرابطون بلنسية سنة ٤٩٥هـ / ١٠٠٢م وأعادوها للإسلام بعد أن ذاق أهلها الويلات ، كما رأينا

وإنما وقفنا عند كرامة بلنسية ومصيبة طليطلة لكي نوضح الحالة السيئة التي انتهى إليها أمر المسلمين في الأندلس بعد أن تفرقت وحدتهم ، وأصبح الأندلس الإسلامي قريسة سائفة أمام ملوك النصارى ، وقد تعودنا أن نلوم ملوك النصارى على ما أخذوا من أرض المسلمين ، ونعتقد أن هذا العرض الذى تقدمه يدعّر إلى إعادة التفكير في ذلك الموضوع لأن الحياة على هذه الأرض صراع ، والدنيا كما يقول ابن جبير - لمن غلب .

### إمارة سرقسطة :

قامت إمارة سرقسطة عند انتشار عقد الخلافة فيما كان يعرف بالشرع الأعلى



الأنديسى ، وهو الحوض الأدنى لنهر الأبرو وعاصمته سرقسطة وتتبعها بلاد كثيرة في تلك الناحية الجبلية الوعرة ، وتجاور في الشمال مملكة أرغون وفي الشمال الغربى مملكة نخرة ، وفي الشرق كونثنية برشلونة . وبعد سقوط طليطلة أصبحت تجاور مملكة ليون وقشتالة من الغرب والجنوب ، ومعنى ذلك أن هذه الإمارة أصبحت محاطة بملوك النصارى ، ولا طريق لها إلى بلاد المسلمين إلا عن طريق إمارة السهلة أو شنتمرية في الشرق وطرطونة قرب مصب نهر الأبرو .

وكان يحكم هذه الإمارة الواسعة أول الأمر التجيبويون وأصلهم من القوط ثم أسلموا واستعربوا وظلوا يحكمون هذه الإمارة ، وكان لهم فيها تاريخ طويل ، ثم صارت إلى نفر من رجائهم وهم بنو هود ، وأولهم أبو أيوب سليمان بن محمد بن هود الجذامى ( ٤٢٦ - ٤٣٨ هـ / ١٠٣٦ - ١٠٤٦ م ) وكان هذا الرجل كفيّره من رجال الثغر الأعلى رجلاً محارباً عفيفاً يحيط به نفرٌ كبيرٌ من المقاتلين والفرسان ، وكان يسيطر على عواصم الثغر الأعلى الأربعة ، وعلى سرقسطة وطليطلة ووشتة ولاردة ، ولم يكن على هذه الإمارة خوف حتى سقطت طليطلة ، فازداد الخطر عليها .

ذلك أن المستعين بن هود عندما توفى كان قد قسّم أملاكه بين أبنائه الخمسة وقام الصراع بينهم ، وكان الظاهر بينهم هو أبو جعفر أحمد الملقب بالمقتدر ، وفي أيامه دبر ألفونسو السادس ، الذى كان يتولى ملك أرغون ويلقب بالمحارب حملة أراد بها أن يستولى على سرقسطة ففشل ، فمضى يحاول أن يستعين بملوك النصارى على النيل من بلاد المسلمين ، فجمع أعداداً كبيرة من النصارى من شمال إسبانيا وأوربا ولجأ إلى البايوية ، وتمكن الصليبيون الغربيون من عفاجة بلد إسلامى صغير يسمى « مويشتر » على بعد ٦٠ كم شمال شرق سرقسطة ، وكان متطرقاً على حدود إمارة بريطانيا النصرانية . وتمكن المهاجمون من التغلب عليها وكان يحكمها واحد من أولاد المستعين ، وهو حسام الدولة الملقب بالظفر . وكان تزولهم عليها في شعبان ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م حيث أنزلوا باهلها مذبة بشعة بقيادة فارس نورماندى يسمى « دى موفتروى » ، وقد بارك البابا إسكندر الثالث كل ما عمله النصارى في ذلك البلد من أفاعيل شنيعة استنكرها حتى مؤرخو أوربا . وقد بلغ عدد من بنات المسلمين فيها وبيع في الأسواق خمسة آلاف

وكانت هذه الكارثة مما أثار الغضب في قلوب أهل الأندلس ، فأحسوا بأنهم لم يعودوا يعيشون في أمان أو حماية ، وإلى مثل هذه الكارثة وكراسة بنسبة التي ذكرناها يرجع بأس جمهور الأندلس في بلادهم وبدء هجرتهم وفقدانهم الثبات والبسالة ، وفي مثل هذه العصور عندما تفقد الأمة ثقبتها في نفسها لا يثبت رجالها للقتال ويملكهم الغضب فتتوالى الهزائم .

وتم تشرّج بربرشرو إلا في جمادى الأولى ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م على يد أحمد ابن هود الذي تلقب بالمقتدر .

وقد ظل بنو هود يحكمون سرقسطة وثغرها أو ما بقى من ثغرها حتى حاول ألفونسو السادس الاستيلاء عليها ولكنه ارتد عنها سنة ٤٧٩ هـ عندما علم بنزول المرابطين الأندلس ، فتصدى لحرب أرغون أميرها أحمد المستعين واستطاع أن يرد ألفونسو المحارب قرب طليطلة عند بلدة بلترية في رجب ٥٠٣ هـ / ١١١٠ م ، وفيها استشهد أبو جعفر أحمد المستعين وخلفه ابنه أبو مروان عبد الملك الملقب بعماد الدولة .

وبعد دخول المرابطين الأندلس دخل أمراء سرقسطة في طاعتهم ، ولكنهم لم يخلصوا لهم بل أتوا الدخول في طاعة ملوك أرغون ، وفي أواخر سنة ٥٠٣ هـ تحدّ أباً مروان عبد الملك عماد الدولة يتنازل عن بلدة طليطلة لألفونسو المحارب سنة ٥٠٣ هـ ويقطعه هذا بدلاً منها أراضي في بلاد قشتالة ، وبعد وفاة عماد الدولة هذا في شعبان ٥٢٠ هـ خلفه أبناؤه وآخرهم المستعين بالله الذي دخل في طاعة الملك النصراني . وفي سنة ٥١٦ هـ / ١١١٨ م دخل ألفونسو المحارب ملك أرغون سرقسطة ، وبذلك تضاعف حجم مملكته وانتقلت من طور إلى طور كما حدث بالنسبة لقشتالة وليون ، إذ أن مملكة أرغون صنعت نفسها على حساب إمارة سرقسطة التي كانت أول الأمر مملكة صغيرة في حيال الأيراس فأصبحت الآن تمتد حتى تشعل وادي الأبرو الأدنى والأوسط وأصبحت بذلك من كبار الممالك النصرانية .

وبهذه المناسبة نقول إن أول الممالك النصرانية انتعاشاً وظهوراً نتيجة لانتشار عقد خلافة الأندلس كانت مملكة تارة ، التي كانت تسمى إلى ذلك الحين مملكة بنبلونة ، وكانت مملكة صغيرة يسميها المسلمون أرض البشكوتس ، وفي سنة

١٠٠٤م أي بعد موت المنصور بن أبي عامر بسنتين تولى أسر بنبلونة ملك هُناك يسمى سانشو الكبير ( ١٠٠٤ - ١٠٣٥ م ) وقد تمكن هذا الرجل الذي تعلم في فرنسا من أن ينظم مملكته الصغيرة ويضاهي بها مملكة الفرنجة في فرنسا ، واتصل بالبابوية وأخذ من البابا تقويصاً بمقازاة المسلمين ، وصار يفكر في الاستيلاء على أراضي منهم ، وبدأ بتوحيد بعض الإمارات النصرانية القائمة في جبال البُرت ، مبتدئاً بإمارة « ريبا جيورثا » ( ١٠١٨ - ١٠٢٥ م ) ثم أدخل في طاعته كونت « قشتالة » وفي سنة ١٠٣٠م دخل في طاعته برمودو الثالث ملك ليون وكذلك كونت برشلونة ميرنجير رامون الأول الملقب بالمنحني ( الكوربو ) .

ومعنى ذلك أن إمارة بنبلونة التي رأينا عبد الرحمن الناصر يدخلها ويقع عليها قائده حاكماً أصبحت الآن وبعد زوال خلافة قرطبة مملكة يحسب لها حساب ، ولكن سيادة نبرة أو بنبلونة لم تستمر لأن ذلك الملك عندما تولى سنة ١٠٣٥ م كان قد قسّم أملاكه بين أولاده تحت وصاية ابنه الأكبر نمرسيه بنيافرة ١٠٣٥ - ١٠٥٤ م ولكن فرناندو الأول ملك ليون تمكن من التخلص من سلطان نبرة وثار عليها بقية ملوك النصارى من أمثال فرناندو الأول ملك ليون وقشتالة وراميرو الأول ملك أرغون فتقاسما أملاكها ، وتوزعت أراضيها بين هاتين المملكتين . وقد رأينا كيف قامت على أكتاف المسلمين قوة مملكتي ليون وقشتالة في ناحية ، ومملكة أرغون من ناحية أخرى

أي أننا الآن أمام مملكتين نصرانيتين قويتين تهددان أمن أراضي المسلمين الأولى ليون وقشتالة والثانية أرغون .

### إمارة إشبيلية :

تعتبر دولة بني عباد أصحاب إشبيلية أشهر دول الطوائف وإن لم تكن اقواماً ، لأن أقوامها بالفعل دولة بني هود في الثغر الأعلى ، وأصل بني عباد عرب . وقد استقروا أول الأمر في شلب في غرب الأندلس ، وترجع شهرتهم إلى جدهم إسماعيل بن عباد الذي عينه المنصور بن أبي عامر قاضياً على إشبيلية فبدأ تاريخهم في ذلك البلد ، لأنهم عند إلغاء الخلافة وجد إسماعيل بن عباد الفرصة

سانحة للاستبداد بأمر إشبيلية ، لأن أهلها قدموه للرئاسة حتى تتجلى الفتنة . وبعد وفاته خلفه ابنه أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد ، وفي أيامه خلا الجو لبني عباد للرئاسة بزوال الخلافة نهائياً ، ثم جاء بعده ابنه أبو عمر عباد بن محمد بن إسماعيل وهو الذي تلقب بالمعتضد .

وترجع قوة بني عباد إلى ما تميز به جدهم إسماعيل بن عباد من مهارة سياسية وقسوة على جمع المال ، وذلكاته الذي جعله يسود أهل إشبيلية جميعاً ، وقد بايع أبو عمر عباد بن محمد الملقب بالمعتضد للقاسم بن حمود عندما ادعى الخلافة ، ولكن عندما طرد هذا الرجل من قرطبة وأراد اللجوء إلى إشبيلية ، أقفل المعتضد أبوابها وشكر له واجتمع مع اثنين من كبار البلد هما أبو عبد الله الزبيدي والوزير أبو محمد عبد الله بن ياريم ، ومضى الثلاثة يدبرون أمر البلد ، ابتداء من سنة ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م ثم انقرد المعتضد بالأمر .

وقد دخل أبو عمر عباد بن محمد الملقب بالمعتضد في حروب طويلة مع جيرانه لكي يحد رقعة كوربة إشبيلية ويجعلها تشغل غرب الأندلس كله وجنوبه . واقترب في هذا السبيل جنائيات أخلاقية كبيرة . وضرب لمعاصريه أسوأ المثل ، وهو المستول إلى حد كبير عن ذلك الشرع من الأخلاقيات غير الإسلامية أو غير العربية الذي ساد ذلك العصر في الأندلس وأتى إلى ضياع أمر الإسلام والعروبة في الجزيرة .

ذلك أن أبا عمر عباد بن محمد الملقب بالمعتضد ، لم يكن يقيم للأخلاقيات أي وزن ، وكان همه متصرفاً إلى جمع المال بأي طريق وتدبير المؤامرات لجيرانه والعدوان عليهم وخاصة من استضعفهم من أمثال البكرين أصحاب ولبة وشنتيش وبعض أمراء الطوائف من البربر في قرمونة وإسكدة وتاكرونة وما إليه . أما في مواجهة ملوك قشتالة فتجد أن ذلك الرجل يتهاون ويؤذي الجزية ويعرض الطاعة دون أن يتكرر أن يدعو إخوانه من ملوك الطوائف المجاورين للوقوف صفاً واحداً أمام العدو وقتله . فقد دفع الجزية لفرناندو الأول ملك ليون ثم أذاها لالفونسو السادس ملك قشتالة وليون وزهية رعية شديدة ، وخاصة بعد أن استولى هذا على طليطلة سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م . وقد اشتهر أمر هذا الرجل بأشياء بشعة مثل حذيفة الرؤوس ، وأخصها هي حجاجم أعدائه . بعد أن يقتلهم ، فيسفعها أصصاً للزهور وكان يتفاخر بذلك ، وقد تمكن من توسيع رقعة بلاده على حساب المسلمين وتوفي سنة ٤٦٦ هـ / ١٠٦٩ م .

وبمنااسبة الإتاوات أو الجزى التى كان ملوك الطوائف هؤلاء يدفعونها إلى ملوك النصارى ليسترضوهم ويأمنوا جانبهم نقول إن ملوك النصارى أولئك كانوا فى الحقيقة أضعف من ملوك الطوائف ، ويلاحظهم فى الغالب كانت أصغر ، فمملكة أرغون التى استولت فيما بعد على الثغر الأعلى من أصحابه بنى هود ، كانت مساحتها لا تزيد على ثلث إمارة الثغر الأعلى الأندلسية وكانت ثروتها أقل بكثير . فلم يكن فيها من المدن ما يضاهي مدن الثغر الأعلى مثل سرقسطة وتُطيلة ووشقة ولارمة . ومع ذلك فإننا نجد من يهود يتخادلون تخادلاً مخجلاً ويؤدون الجزية إلى حارهم الأرغونى . ولم تتحول أرغون إلى مملكة يحسب لها حساب إلا بعد أن استولت على الثغر الأعلى . فزالت مساحتها ثلاث مرات وتضاعفت ثروتها عشرات المرات ، وكذلك الأمر مع مملكة ليون التى أصبحت مملكة قشتالة وليون . لم تصبح مملكة لها قدر وقوة إلا بعد استيلائها على طليطلة

ويستوقف النظر أن ملوك الطوائف هؤلاء ، كانوا يؤدون إلى ملوك النصارى مبالغ من الذهب لا تصدق ، فقد اتفق - مثلاً - المقتدر بن هود صاحب سرقسطة والثغر الأعلى مع سانشو ديبثان - Sencho de Peniden كان عليهم بمقتضاه أن يدفع كل شهر ١٠٦٩ قطعة من الذهب . وكان يدفع فى نفس الوقت إتاوة أخرى إلى كونت أورجل غير محددة القدر ، فإذا قدرنا وزن القطعة الذهبية الإسلامية فى ذلك العصر بنحو جرامين ، فإن مجموع ما كان يدفعه صاحب سرقسطة ملك نبرة يزن عشرين كيلو جراماً من الذهب فى العام . ولا بد أن نضيف إلى ذلك ما كان يدفعه إلى الكونت أورجيل . وكان أصحاب إشبيلية يدفعون أكثر من ذلك المبلغ لملك قشتالة وليون . ولا بد أن ملوك الطوائف الآخرين كانوا يدفعون ما يقارب هذه المقادير من الذهب . ومعنى ذلك أن أمراء الطوائف كانوا يذهبون بلادهم بهياً ليدفعوا الملوك النصارى ، فكانهم لم يكتفوا بإعطائهم الأراضى ، بل قدموا لهم أيضاً الأموال اللازمة للتعجير . ما ملك سانشو الكبير (١٠٠٤ - ١٠٣٥ م) وكونت برشلونة «رامون بيرنجير» الأول (١٠٣٥ - ١٠٧٦ م) تقاضيا من أمراء المسلمين مقادير لا تصدق من الذهب . ما ملك فرناندو الأول ملك قشتالة (١٠٣٧ - ١٠٦٥ م) كان يتقاضى من طليطلة قبل أن تسقط ضعف ما كان يدفع أصحاب سرقسطة لملوك نبرة ، ومعنى ذلك أن بلاد النصارى كانت تحصل دور عماء على

ذهب كثير ، مكن لهم من إنشاء المدن وتكوين الجيوش وتسليحها وتعمير الاراضى .

وكان ملوك إسبانيا النصرانية يتقاسمون هذه الاموال مع اشراف دولتهم ورجال الدين ، وكان هؤلاء يشترون الاراضى والعقارات بهذه الاموال ، وإلى هذا ترجع الثروات الضخمة التي تجمعت في أيدي القلة الممتازة من أهل البلاد النصرانية . وكان نتيجة ذلك أيضاً غنى البلاد النصرانية وفقير بلاد الإسلام ، وقد ذكرنا فيما سبق أن عبد الرحمن الناصر كان يذخر كل عام ثلث الجباية ، وعندما تولى عن حصين سنة من الحكم ، خلف بيوت مال مفعمة ، وكذلك خلفها المنصور ابن أبي عامر ، فاتفق ذلك كله هؤلاء السقهاء أمراء الطوائف بتصرفهم الذي يندر أن نجد له شبيهاً في خوليات الإسلام

ويزيد الامر غرابية غرور أولئك الأمراء ومحاولتهم الظهور بمظهر الملك مع بعدهم عن كل شاردة من شاراته ، فبالظفر بن الأفطس صاحب بطليوس عندما حدثوه في أمر توحيد بلاد المسلمين ، قال كلمة كبيرة استعظمها أهل العصر ، وهي أنه لو جاءني أبو بكر وعمر ونارزعاني هذا الملك لفرغتهما بالسيف ، ومع ذلك فقد كان هذا الرجل يؤدى الجزية صاغراً لملك تشتتالة .

والمعتمد بن عباد الذى خَلَفَ أباه المعتمد سنة ٤٦٦ هـ - ١٠٦٩ م يعتبر نموذجاً لذلك التناقض الغريب في أخلاق أولئك الناس ، فهو يؤدى الجزية إلى الملك النصرانى ، ويستولى الملك النصرانى منه على الحصون فلا يجزى على الاعتراف . ولكنه يابى أن يناقسه صاحب بطليوس على حصن صغير يتحدث كأنه ملك عظيم ، وينفق بسخاء كأنه يملك مال قارون ويحيط بنفسه بهالة من الشعراء ، يقولون فيه من الشعر ما لم يقله أحد في هارون الرشيد . ويَزعم أنه عربى أصيلاً ، ومع ذلك فهو يقتل وزيره ابن عمار بيده ، فلا زال يضربه بالطربزين (القاس) حتى مات ، وابن عمار هذا اسمه أبو بكر . وهو من كبار شعراء عصر الطوائف ، رجل لا خلاق له ، بل لا يلمس الإنسان في تصرفه إشارة من أخلاق أو كرامة ، فهو غادر كاذب ، مانح مسرف في الخمر ، وهو لم يتردد في خيانة سيده وصاحبه المعتمد بن عباد ، لكى يصبح هو الآخر أميراً على بلده وهو مرسية ، ولم يزل يجرى في غلوائه حتى قبض عليه غبّاه وباعه بيع الرقيق للمعتمد بن عباد ، فقتله

كما ذكرنا ، ومن غريب الأمر أن ذلك الرجل أباً بكر محمد بن عمار كان يقول  
الشعر في سهولة يصعب تصوُّرها ، وإنه لو كان على شيء من الخلق لكان له  
شان غير هذا الشان .

وقد تمكَّن بنو عياد من ضم قرطبة إلى إمارة إشبيلية ، وقضوا بذلك على دولة  
بنو جهور فزال أمرهم جزاءً وفاقاً على ما اقترفوا في حق الأندلس من إلغاء الخلافة  
طمعاً في الرياسة

ويطول الأمر لو مضينا نتحدث عن بقية ملوك الطوائف فهم كثيرون ، وكلهم  
على هذه الشائكة خُلِقُوا وتصرفوا ، ففي غرناطة مثلاً انفرد بالسلطان بنو زيري  
ابن زاري ، وأنشأ ماكسن بن زيري إمارة بربرية وخلفه عليها حفيده الأمير  
أبو عبدالله الزيري وكان أميراً مستضعفاً لا شخصية له حتى عزله يوسف بن  
تاشفين وبغاه إلى المغرب ، وفي صفاء كتب مذكراته وهي من الوثائق التاريخية  
النادرة ، فهي مذكرات صريحة بسيطة تكشف لنا عن حقائق الحياة في داخل هذه  
الإمارة البربرية ، ومنها تتبين سوء الحال وإسراف الجند وهو ماكسن بن زيري  
في الشراب ، حتى كان لا يفيق كما يقول حفيده ، ومن خلال هذه المذكرات أيضاً  
نرى سلطات نساء القصر واستبدادهن بالأمور .

ونذكر إلى جانب هذه الإمارة إمارة بني صمادح أصحاب الحرية وكانوا من  
نفس طراز بنو عياد أنانية وتخاذلاً ، وبني الأفطس أصحاب بطليوس وآخرهم  
المقوقل عمر بن محمد بن الأفطس ، وكان هذا الرجل من أكثر الناس تهاقفاً على  
ملوك النصارى ، فاشتد طمعهم فيه وأخذ الفونسو السادس يدبر للاستيلاء على  
بطليوس ، كما استولى على طليطلة ، وهنا فقط فكر بنو الأفطس في أن يستعينوا  
بالمرابطين على رءسهم .

### تدخل المرابطين :

ولو أن الأمور تراكمت على هذا النحو لضاع الأندلس كله قبل نهاية القرن  
الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، فقد شرت نفوس ملوك النصارى إلى  
بلاد المسلمين ، ومضى كل منهم يقتطع من أراضيهم ما يستطيع حتى كبار  
فرسان النصارى من أمثال البرهانس والسيد القمبيطور تسلطوا على نواح من

بلاد الإسلام وسادوها وأذاقوا أهلها الويلات ، ومهما يقال في اهتمام ملوك الطوائف بالعلوم أو بالشعر ، فإن ذلك لا يغفر لهم ، وما الذي يستقيده الإسلام من عناية رجل مثل المعتمد بن عباد بالشعر ورعايته لشعراء أمجاد من أمثال ابن عمار وابن عبيدون وابن خفاجة إذا كانت النتيجة أن بلاد الإسلام والعروبة نفسها ستضيع ، ولا يبقى فيها من يقرأ هذا الشعر؟

كان عصر الألبا حزيناً تصرّف فيه أولو الأمر في الأندلس تصرفاً لا يتفق بحال على ما عُرف من عزة الأندلس أيام بنى أمية . ولقد كان تسلّط أولئك الأمراء على رعاياهم والحاجهم عليهم بالمظالم والمفارم من أسباب فقر البلاد ونزوح الناس عن المزارع ، لأن أهل القرى لم يعمدوا يجدون من يجمعهم فتركوا قراهم ونحّضوا داخل أسوار المدن ، ومعنى ذلك أنه عندما انتهى عصر ملوك الطوائف وأقبل المرابطون كان أمراء الطوائف قد أفقروا البلاد وأضعفوها ودمّروا برخائها وضيعوا معظم أراضيها . ولم يكن تدخل المرابطين مصادفة ، فقد ذكرنا أن المتوكل بن الأفطس وجد نفسه مضطراً إلى الاستعانة بالمرابطين وكان أمرهم قد استقر في المغرب الأقصى كله ، واتجه يوسف بن تاشفين إلى ضم المغرب الأوسط وهنا وصل وفد من فقهاء الأندلس مرسلاً من الأمراء يستغيث به ، وكانت نفس يوسف بن تاشفين مشرّبة إلى الجهاد ، فعبر يوسف بن تاشفين إلى الأندلس عبوره الأول في ربيع الأول ٤٧٩هـ / يوليو ١٠٨٦م وانضمت إليه قوات من إشبيلية ومن غرناطة ، أما بنو الأفطس أصحاب بطليوس - وهم الذين كانوا مهددين رأساً - فلم يرسلوا معاونة كانهم خافوا أن ينزع المرابطون منهم البلاد ، وربما كان أحسنهم نفساً الأمير عبد الله الزيري صاحب غرناطة ، فقال في مذكراته المسماة بالتبيان : «ولقينا أمير المسلمين في طريقه إلى بطليوس في جريشة ولقينا من كرمه وتحفّيه بنا ما زادنا به رغبة ، ولو استطعنا أن نمنحه لجومنا ، فضلاً عن أموالنا لغلنا » .

وكانت وجهة يوسف بن تاشفين بطليوس ، وفي مروره بإشبيلية انضم إليه المعتمد بن عباد بقواته ، ثم اصطّر المتوكل بن الأفطس إلى اللحاق بهم وتكاملت أعداد المسلمين وهدّمت يديهم على الجهاد بفضل قيادة يوسف بن تاشفين .

وعندما سمع الفونسو السادس بأنباء نزول المرابطين رفع الحصار عن



سرقسطة . وكَتَبَ ملكُ أرغون ، وهو سانشو بن راميروت وطلب نجدات من  
فرنسا وإيطاليا وسار في أعداد ضخمة وعلى مقدمته الفارس « البرهانس » .

وكان اللقاء في نحص الزلاقة قرب مدينة بطليوس ، في صباح الجمعة ١٢  
رجب ٤٧٩هـ / ٢٣ أكتوبر ١٠٨٦م وكانت طلائع المسلمين بقيادة المعتمد بن  
عباد ، وقد أبلى هذا الرجل بلاءً جميلاً في تلك المعركة كُفِّرَ به عن بعض ذنوبه ، ثم  
انقضت جموع المرابطين على قوات النصارى فأبادت معظمها . وانتهى ذلك اليوم  
نصر حاسم للمسلمين ، كانت نتيجته توقف تقدم النصارى وثبات حدود  
الإسلام على ما وجدها عليه يوسف بن تاشفين .

وقد عبر يوسف بن تاشفين مرةً ثانيةً بعد ذلك ، وكانت وجهته حصناً يسمى  
لاييط Alledo وهنا تبين تخالل أمراء الطوائف فاستقر رأيه على عزلهم وذلك هو  
الذي عث عندما عبر يوسف بن تاشفين إلى الأندلس في رجب ٤٨٢ هـ / سبتمبر  
١٠٩٠ ، فقد عزلهم يوسف بن تاشفين جميعاً ووحد بلاد الأندلس فيما عدا إمارة  
سرقسطة التي وجد يوسف بن تاشفين ألا يزعم أصحابها لأنهم محاصرون  
من النصارى من كل ناحية ، وقد خاف أنه إذا فعل شيئاً أن يسلموا بلادهم  
للتصارى لتركهم على حالهم ، وبذلك انتهى عهد الطوائف وبدأ عصر المرابطين في  
الأندلس .

### جهاد المرابطين في الأندلس :

منذ أن كسب المرابطون موقعة الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٧م إلى زوال  
دولتهم الذي يؤرخ له عادة بسنة ٥٢٩ هـ / ١١٤٤م وهي السنة التي توفي فيها  
تاشفين بن علي ثالث أمراء المرابطين عند وهران ، ظل المرابطون قائمين بالدفاع  
عن الإسلام في الجزيرة الأندلسية ، وعلى الرغم من مسئولياتهم الجسيمة في  
المغربين الأقصى والأوسط ، فإن الدفاع عن الإسلام في الأندلس كان عملهم  
الرئيسي ، ففيه أنفقوا معظم أموالهم وفيه جاهدوا واستشهد خيرة رجالهم من  
أمثال أبي عبد الله محمد بن يوسف بن تاشفين أخى أمير المسلمين يوسف بن

تاشفين الذى يعرف « بـابن عائشة » أو «ابن» تعيشت « ومعناه ابن عائشة . لأن المرابطين كما ذكرنا ، كانوا ينسبون الرجال في أحيان كثيرة إلى أمهاتهم نظراً لأنهم كانوا يعبدون الزوجات وكل زوجة تريد أن تسمى ابنها محمداً أو عبد الله ، فكانوا يميزون الابن عن أخيه بنسبته إلى أمه ، وأبو عبد الله هذا هو الذى تولى الجهاد في شرق الأندلس واشترك في معركة أقليش سنة ٥٠١ هـ ، وقد أصيب هذا الرجل في عينيه عقب وقعة عيفة مع جيوش أرغون في موضع يسمى « الرد » Congost de Martorell سنة ٥٠٨ هـ ، وأبو محمد عبد الله بن قاطمة ، وهو الذى استنفذ لمنسية من يد التصاري بعد وفاة السيد القعيطور بمعاونة قائد المرابطين مزدي ابن سلنكان في سنة ٤٩٥ هـ ، ثم غزا طليطلة وطلطيرة ، ونولى لمنسية وشرق الأندلس . واشترك كذلك في معركة أقليش ، وختم حياته عاملاً على إشبيلية حيث تولى سنة ٥١١ هـ وخلفه في الجهاد ابنه محمد بن مزدي بن سلنكان الذى تولى الجهاد في الأندلس زمناً طويلاً وفيه استشهد ، وكذلك تميم بن يوسف بن تاشفين أخو أمير المسلمين على بن يوسف ، وغيرهم كثيرون ممن دفعوا حياتهم دقاعاً في سبيل الإسلام الأندلسي .

ومن سبب المصادفات أن القرن الهجري الخامس / الحادى عشر الميلادى حفل بالكبار من ملوك إسبانيا النصرانية ، الذين كرسوا أنفسهم لحرب المسلمين مستغلين فرصة ضعف ملوك الطوائف ، وما كسبوه من المسلمين نتيجة لسوء تصرف أولئك الأمراء من أمثال ألفونسو السادس ملك أرغون وهو الذى استولى على طليطلة سنة ١٠٨٥ م ثم انتصر عليه يوسف بن تاشفين في معركة الزلاقة وقد تولى هذا الملك بعد وقعة أقليش التى سنذكرها فيما بعد بقليل ، وألفونسو الأول ملك أرغون الملقب بالمحارب ( ١١٠٤ - ١١٣٤ م ) وهو الذى تغلب على سرقسطة وانتزعها من أيدي بنى هود سنة ١١١٨ م ، وقد سبق أن ذكرنا أن المرابطين تركوا سرقسطة لبنى هود ظناً منهم أنهم يحسبون الدفاع عنها . وكذلك راهون بمرنجير الرابع كونت قطلونية وهو الذى استولى فيما بين سنتي ١١٤٨ - ١١٤٩ م على طرطوشة ولاردة ، وضمها إلى بلاده . ومع أن أولئك الملوك النصارى قد تضاعفت ثرواتهم وقواهم العسكرية واستعانوا بالبابوية وببلاد غرب أوروبا المسيحية ، إلا أن المرابطين عرفوا كيف يثبتون لهم ، ويوقفون التقدم

النصراني ، ولولاهم لضاع الأندلس قبل نهاية القرن الحادي عشر الميلادي كما ذكرنا.

وقد كسب المرابطون انتصارات كبرى في الأندلس إلى جانب معركة الزلاقة ، نذكر من بينها معركة أقليش في شوال ٥٠٦ هـ / مايو ١١٠٨ م وقد استولوا فيها على شنتيرة القريبة من طليطلة ، ثم حاصروا حصن أقليش شرقي طليطلة وأرسل إليهم الفونسو السادس جيشاً جعل فيه حيرة نواده حتى سميت المعركة بمعركة الأكساد السبعة ، وجعل في الجيش ابنه الوحيد شانجو وفي العهد ، وقد انتصر الموحدون في تلك المعركة وقتل فيها ول العهد ، ولم يلبث الفونسو السادس أن تولى متأثراً بفقد ولده في أواخر سنة ٥٠٢ هـ / يونيو ١١٠٩ م.

وفي سنة ٥٠٣ هـ تجد جيشاً مرابطاً كبيراً يغزو أراضي طليطلة للمرة الثانية ويستولي مرة أخرى على طليطلة .

وفي سنة ٥٠٩ هـ / ١١١٦ م يتمكن المرابطون من استعادة الجزائر الشرقية وهي ميورقة ومنورقة ويايسة ، وهي المعروفة بالبليار ، من رجال الجمهوريات الإيطالية وهي ببشة وجنوة الذين انضم إليهم رجال من كوستينة برشلونة ، وكان الذي تولى استرجاع هذه الجزر هو صاحب البحر أي أمير البحر المرابطي أبو عبد الله محمد بن ميمون الذي يعتز من أبطال الجهاد الإسلاميين في البحر في عصر المرابطين والموحدين . وكان استرجاع هذه الجزر ذا أثر بعيد في مستقبل الأندلس كلها ، لأنها لو بقيت في أيدي النصارى لأصبحت خطراً يهدد شرق الأندلس كله .

ولا يمنع ذلك من القول بأنه دارت على المسلمين خلال ذلك العصر بعض الهزائم الأسيفة من أمثال واقعة « كتندة » (ربيع الأول ٥١٤ هـ / يونيو ١١٢٠ م) وقد كان يقود المسلمين فيها أبو إسحق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين أخو علي ابن يوسف ، وكتندة تقع في حيز مدينة « داروقة » من أعمال سرقسطة ، وقد استشهد فيها من المسلمين الوف ، لأن الأندلسيين الذين خرجوا للجهاد مع المرابطين لم ينتظفوا في الصفوف وتسارعوا في الهجوم على العدو فاختل مصاف الجيش فكانت الهزيمة ، وقد مات فيها نفر من كبار علماء الأندلس ، نذكر منهم أبا علي الصديق المعروف بابن سكرته (٤٥٢ / ٥١٤ هـ) وكان من أكبر علماء

الأندلس وقد ألف عنه ابن الأيثار ( أبو عبد الله محمد القضاة ) كتاباً من أحسن الكتب وهو المعجم في أصحاب أبي علي الصدوق

ومن الأحداث الجديرة بالذكر في الأندلس خلال العصر المرابطي ما وقع من خيانة نفر من المعاهدين من نصاري الأندلس للمسلمين واستوعابهم للملك الفونسو الأول الملقب بالمحارب ملك أرغون ، ومعاونته على اختراق بلاد المسلمين من الشمال إلى الجنوب والعيش في نواحيها خلال سنة ٥١٩هـ / ١١٢٥م وكانت نتيجة ذلك أن طلب الفقيه أبو الوليد بن رشد الفيلسوف إلى علي بن يوسف بضرورة اتخاذ قرار بشأن أولئك المعاهدين الذين كانوا سبباً في تلك الكارثة ، فنفى علي بن يوسف الكثيرين منهم إلى بلاد المغرب ، وقد بالغ بعض مؤرخي إسبانيا في الحملة على المرابطين لهذا السبب ولكن الحقيقة أن الذين نفوا كانوا عدداً قليلاً .

ونختم هذا الكلام عن جهاد المرابطين في الأندلس بالكلام عن وقعة افراغة جنوب غربى لاردة في الثغر الأعلى الأندلسي سنة ٥٢٨هـ / ١١٣٤م ، وقد قاد المسلمين فيها أبو زكريا يحيى بن غانية وإلى بلنسية ومرسية ، والذي يعتبر من أكبر قادة المرابطين وهو جد بني غانية الذين قادوا فتنة كبيرة على الموحدين في الجزائر الشرقية وبلاد أفريقية ، وقد انتصر يحيى بن غانية في تلك المعركة على الفونسو المحارب نصراً كبيراً خلد ذكره وقفز به إلى الصفوف الأولى من صفوف قيادة المرابطين .

### نهاية المرابطين في الأندلس :

وبينما كان المرابطون ماضين في جهادهم ضد النصاري في الأندلس وعاملين على بناء المغرب الإسلامي ، قامت عليهم ثورة المصامدة يقودهم فيها محمد بن تومرت منشئ دولة الموحدين . وقد سبق أن ذكرنا في كلامنا على المرابطين فيما أوردنا في تاريخ المغرب ، أن محمد بن تومرت قاد ضد المرابطين ثورة ظالة ، وحال بينهم وبين إكمال رسالتهم ، لأن هذه الفئة المصامدة من المسلمين لم تكن تستحق هذا الانقلاب العنيف الذي قام به ابن تومرت عليهم ، فقصفت عُمر دولتهم وهي في عتقوان عملها وجهادها ، وأسوأ نتائج قيام محمد بن تومرت بهذه

الحملة على المرابطين هي أن الجهاد توقف في الأندلس . وبعد أن كان المرابطون يكسبون النصر تلو النصر ويستعيدون ما ضاع من بلاد المسلمين مثل بلنسية ، بدأت الهزائم تتوالى عليهم لأنهم اضطروا إلى سحب قواتهم من الأندلس فسقطت سرقسطة في أيدي القبونسيو المحارب ملك أرغون سنة ٥١٢هـ / ١١١٨م . ثم سقطت المرية في يد رجال جنوة وبيثة سنة ٥٤٢هـ ( وقد استعادها الموحدون بعد ذلك ) ، وفي شوال سنة ٥٤٢هـ / ١١٤٨م سقطت طرطوشة في يد رامون بيرنجر الرابع كوفت قطلونية ، وفي العام التالي سقطت لاردة بخيانة أندلسي من الذين قاموا على المرابطين ، وهو محمد بن سعد بن مردنيش وكان ذلك سنة ٥٦٧هـ / ١١٧٢م وكان يعاونه في ذلك صهره إبراهيم بن هاشمك وهذان الرجلان ، ابن مردانيش وابن هاشمك مسئولان إلى حد بعيد عما أصاب الإسلام في شرق الأندلس في أواخر العصر المرابطي وخلال العصر الموحدى . وبعد وفاة تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين ثالث أمراء المرابطين في ٢٧ رمضان ٥٣٧هـ / ١١٤٥م توالى سقوط العواصم الأندلسية في يد النصارى بسبب انشغال المرابطين بالدفاع عن أنفسهم في الأندلس .

وراد مركز المرابطين محزباً في الأندلس فقام نفر من رؤساء الفواحي ل الأندلس بالثورة عليهم منتهزين فرصة انشغال المرابطين بحرب الموحدين . ومن أكبر الثائرين عليهم الذين كان لهم أسوأ الأثر في مصير الأندلس هو النقاضى ابن « حمدين » الذى قاد ثورة على المرابطين وطاردهم في قرطبة . وابن قسى الذى فعل مثل ذلك الفعل في يبليرس . والخلاصة أن المرابطين لقوا من أهل الأندلس شر الجزاء على ما فعلوا في سبيل إنقاذ الإسلام الأندلسى . وإن الإنسان ليتعجب من أمر أولئك الأندلسيين الذين لم يحسنوا الانتقام بالفرصة التى أتحت لهم من تكريس المرابطين أنفسهم للدفاع عن الأندلس ، بل أخذوا يتنصرون بهم ويتعالمون عليهم حاسبين أنفسهم أعلى حضارة وأرقى جرساً من أولئك الأفارقة ، فكانت النتيجة أن أضاعوا أنفسهم وبلادهم ، لأن الموحدين عندما يخلقون المرابطين ويحلون محلهم في الجهاد في الأندلس لم يمسدوا مسددهم قط ، وفي أيامهم انهارت خطوط الدفاع الأندلسى فلم يبق للمسلمين في الأندلس في نهاية عصر الموحدين إلا مملكة غرناطة .

## الموحدون في الأندلس :

بعد أن تم للموحدين القضاء على المرابطين في شوال ٥٤٦ هـ بمقتل أبي إسحق إبراهيم بن تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين ، اتجهت همة عبد المؤمن بن علي أول خلفاء الموحدين إلى ضم ما بقي للمسلمين في الأندلس إلى دولته ، وقد بدأ بذلك في وقت مبكر ، لأن الكثيرين من زعماء نواحي الأندلس عندما بلغهم خبر قيام الموحدين على المرابطين قاموا على المرابطين في نواحيهم كما ذكرنا . فكان ذلك دافعا لعبد المؤمن للعبور إلى الأندلس بعد أن تم له بسط سلطانه على نواحي المغرب الأقصى ، وبعد أن استطاع توحيد المغرب كله إلى قصبة وطرابلس سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م التي تسمى في المغرب سنة الأخماس ، ففي نهاية تلك السنة عبر عبد المؤمن بن علي إلى الأندلس واستقر في إشبيلية وضم إلى ملكه ما بقي للمسلمين في شبه الجزيرة ، وكانت حدوده تمر شمال نهر الوادي الكبير وتبدأ في الغرب عند الأشبونة ، وتنتهي في الشرق عند مرسية .

وقد وضع عبد المؤمن بن علي نظاماً لا بأس به للدفاع عن الأندلس فجعل عاصمته قرطبة بعد أن كانت إشبيلية في أيام المرابطين ، وقد عاها الموحدون إلى إشبيلية بعد ذلك ، ولكن قرطبة اعتبرت المركز العسكري ، وأقام عبد المؤمن على قواعد الأندلس ولاية من رجال بيته الملقين بالسادة والفرد سيد وهذا هو اللقب الذي كان يطلق على أفراد البيت الموحدي .

وقد تمكن عبد المؤمن بن علي قبل موته من توحيد معظم ما بقي من الأندلس تحت رايته ، ولم يخرج عن طاعته إلا بنو غانية الذين تولوا أمر « دانية » أولاً ، ولم يستطع الموحدون الاتفاق معهم فعبروا إلى الجزائر الشرقية وهناك قامت ثورتهم التي سيطرول أمرها .

كذلك رفض الطاعة للموحدين محمد بن سعد بن مردانيش رئيس مرسية وصهر إبراهيم بن همشك وكانا يستعينان بالنصارى على المسلمين ولكن الموحدين تمكنوا من الانتصار على محمد بن سعد بن مردانيش في موقعة فحص الجلاب مما أدى إلى انضمام بني مردانيش إلى الموحدين أيام أبي يعقوب يوسف ثاني خلفاء الموحدين .

وفي أواخر أيام عبد المؤمن بن علي انتبهن الفونسو ايريكى Alfonso Enrique ملك البرتغال الذي تسميه مراجعنا بأين الرزق الفرصة لكي يوسع ملكه على حساب المسلمين في غرب الأندلس . وكانت إمارة البرتغال حديثة الانفصال عن قشتالة ، وكان أمراؤها يحاولون أن يوسعوا ملكهم ، وكان غرب الأندلس مجال توسعهم . ولهذا فبينما كان شرق الأندلس هو ميدان النشاط الكبير للمجاهدين الثرابطين ، كان غرب الأندلس مجال نشاط الموحدين في الأندلس . ففي سنة ٥٢٢ هـ / ١١٢٨ م حاول الفونسو ايريكى الاستيلاء على الأشبونة فلم يستطع . ولكنه استعان بنفر من الصليبيين الانجليز والالمان والهولنديين الذين كانوا ذاهبين للحرب في المشرق وأغرامهم بمعاقبته في الاستيلاء على قصر أبي دانس وشلب . وقد تمكن الموحدون من استعادة شلب . أما قصر أبي دانس وكانت من أكبر حصون الإسلام في الأندلس فلم تعد إلى الإسلام بعد ذلك ، وبعد ذلك بقليل استولى البرتغاليون على شنترين .

هنا تنبّه الموحدون إلى ضرورة القيام بعمل حاسم في الأندلس ، فاستقر رأي أبي يعقوب يوسف ثاني خلفاء الموحدين على أن يقوم بعمل حاسم غرب الأندلس ، وبالفعل حاول سنة ٥٨٠ هـ أن يستعيد شنترين شمال شرقي لشبونة ، وكاد يستولى عليها لولا أنه أصيب بمرض مفاجئ فرفع الحصار ولم يلبث أن تولى في ربيع الآخر سنة ٥٨٠ هـ / يوليو ١١٨٤ م وخلعه أكبر أبنائه أبو يوسف يعقوب الذي تلقب بالمنصور ، والذي يعتبر أكبر شخصية في تاريخ الموحدين بعد محمد ابن تومرت وعبد المؤمن بن علي .

وقد قرر هذا الخليفة الموحدي أن يقوم بحملة كبرى على الأندلس ، فمر سنة ٥٨٦ هـ واستعاد شلب ، وحاول استعادة قصر أبي دانس ثم عاد إلى إشبيلية . وفي سنة ١١٥٧ م تولى الفونسو السابع ملك قشتالة وبعد حرب أهلية على العرش تولى أمر مملكة قشتالة وليون الفونسو الثامن الذي بدأ فعقد صلحا مع الموحدين سنة ٥٨٦ هـ وعندما انتهت مدة هذا الصلح ٥٩٠ هـ / ١١٩٤ م بدأ بمهاجمة أراضي المسلمين هجر أبو يوسف يعقوب إلى الأندلس في جيش ضخم سنة ٥٩١ م وكانت وجهته الحقيقية طليطلة . ولكن الفونسو الثامن عجل بالمسير نحوه . وكان أبو يوسف يعقوب قد احتشد احتشاداً عظيماً لذلك الحملة ، فأخذ معه خير مقاتلي

الموحدين وضم إليهم أحسن مقاتل الأندلس ، وبعث في نفوس رجاله حماساً دينياً عظيماً ، وخافه الفونسو الثامن ، فاستعان بالبابوية وبملوك إسبانيا النصرانية وسار في جيش ضخم من قلعة رباح ، وعسكر عند حصن يسمى الأرك في نهاية الطريق المؤدى من طليطلة إلى قرطبة ، وبدأت المعركة الحاسمة في التاسع من شعبان ٥٩١ هـ / يوليو ١١٩٥ م وقد انجالت المعركة عن نصر حاسم للمسلمين ، حُصرت فيه صفوف الإسبان ، وتمكن المسلمون من كسر حدة الموجة النصرانية . وتعتبر هذه المعركة أختاماً للمعركة الزلازمة ، وكان لها أبعاد الأثر في تثبيت جبهة الإسلام الأندلسي لمدة قرن كامل من الزمان على الأقل .

وبعد معركة الأرك عاد المنصور إلى إشبيلية وأخذ ينظم أمور الأندلس وشرع في إكمال مسجدها الجامع الذي اشتهر بمئذنته الماقية إلى اليوم وهي المعروفة بالدوارة أو الخريزلة

وبعد هذه الهزيمة عقدت هدنة بين الموحدين والنصارى سنة ٥٩٤ هـ / ١١٩٨ م ولكن الفونسو الثامن ما كان ليستكن على تلك الهزيمة ، فآخذ يعد العدة للقاء ثان مع الموحدين ، وبدأ في ذلك سنة ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م أي قبل انتهاء أجل الهدنة ، وكان أبو يوسف يعقوب المنصور قد تولى في ربيع الأول سنة ٥٩٥ هـ وخلفه ابنه محمد الملقب بالناصر لدين الله ولم تكن له كفاءة أبيه ، وعرف ذلك الفونسو الثامن فقرر أن يستفيد من تلك الفرصة ، وجمع جيشاً ضخماً وسار قاصداً بلاد المسلمين . وعبر أبو عبد الله محمد الناصر خليفة الموحدين في ذي الحجة سنة ٥٠٧ هـ / ١٢١١ م واتجه نحو بلدة « شلبطرة » قاستولى عليها سنة ٦٠٨ هـ وكانت تقع جنوب قلعة رباح إلى الشمال الشرقي من قرطبة

وقد خاف الفونسو الثامن من أن يمتن بهزيمة ثانية ، فاستنجد بالبابوية وبملوك غرب أوروبا واستنصر أهل إسبانيا النصرانية فجمع جيشاً ضخماً سار للقاء المسلمين به . وعجل محمد الناصر فجمع جيشاً حافلاً وسار به إلى الأندلس فنزل إشبيلية ، ومن هناك اتجه إلى جيان ثم صعد شمال الوادي الكبير وعسكر في سهل كثير التلال الصغيرة التي تسمى بالعقاب ( جمع عقبة ) وأقبل النصارى فعمسكروا على هضبة عالية تعرف بهضبة الملك مشرقة على معسكر المسلمين .



وقبيل اللقاء استولى النصاري على قلعة رباح من يد قائدها الأندلسي - أبو محمد بن قاسم - وعندما وصل هذا القائد إلى معسكر محمد الناصر سارع النصاري بقتله دون تحقيق ، فثار نفوس الأندلسيين وأزعجوا الانخزال عن الجيش الإسلامي أثناء المعركة .

وحدث ذلك بالفعل ، ففي الخامس عشر من صفر ٦٠٩ هـ / ١٦ يوليو ١٢١٢ م وقع اللقاء الحاسم . وبعد قليل من الصراع انخزل الأندلسيون والعرب تاركين الجناح الشرقي من الجيش الإسلامي مكشوفاً ، هانتقض عليهم النصاري وأنزلوا بالمسلمين هزيمة قاصصة قتل فيها عشرات الألوف من المسلمين معظمهم من المجاهدين المتطوعين من أهل الأندلس ، وكذلك حصدت في المعركة زهرة مقاتل المغرب وبلغ من ثقل الخسارة أن ابن عذارى المراكشي المؤرخ يحدثنا أن الإنسان كان يجول في المغرب بعد تلك المعركة فلا يصادف شاباً قادراً على القتال .

المهم لدينا أن تلك المعركة كانت قاصصة الظهر بالنسبة لمستقبل الأندلس فقد تضعضت جبهة الوادي الكبير وسقطت مدن كبرى مثل بياسة وأبددة وأصبح النصاري يشرفون مباشرة على قرطبة وإشبيلية ومرسية وغيرها من عواصم حط الوادي الكبير ، وفي ظللال هذه الهزيمة ثوى محمد الناصر في شعبان سنة ٦١٠ هـ / ١٢١٣ م ويهدد وفاته بدأ الخلاف المؤسف يدب في صفوف البيت الموحدى وانعكس ذلك على الأندلس ، فبدأت تصفية ما بقى للمسلمين في خلال بقية العصر الموحدى ولم تبق إلا مملكة غرناطة .

وفي كلامنا عن الموحدين في القسم الخاص بالمغرب من هذا الكتاب تكلمنا على بقية تاريخ هذه الدولة في المغرب والأندلس ، ولهذا فإننا ننتقل الآن للكلام على دولة بني نصير المعروفين ببني الأحمر في غرناطة



## دولة بني نصر أو بني الأحمر في غرناطة

٦٢٦ - ٨٩٧ هـ / ١٢٣٢ - ١٤٩٢ م

بعد انصراف أبي الغلاء إدريس المأمون من الأندلس مصطحباً معه من بقي من كبار جند الموحدين في شبه الجزيرة ، بقيت الأندلس بدون حماية يحسب لها حساب ، وبرز في صفوف المسلمين نفر من الزعماء كل منهم يحاول أن يترغم ما بقي من المقاتلين في الأندلس لكي يقيم لنفسه دولة في هذا الجزء الباقي للمسلمين في الأندلس ، وكان قد اقتصر على تهر الرادى الكبير وما يقع جنوبه

، أهم أولئك الزعماء بنو مردنيش أصحاب بلنسية ، وسيف الدولة محمد بن يوسف بن هود الجذامي الملقب بالمتركل ، ومحمد بن يوسف بن أحمد بن نصر الملقب بالشيوخ .

فأما بنو مردنيش فكان يمثلهم عدد من أحفاد محمد بن سعد بن مردنيش أكبرهم أبو جميل ريان بن مدافع بن يوسف بن محمد بن سعد بن مردانيش، الذي بدأ أمره كاتباً وقائداً لأمير الموحدين ، وكان يتولى أمر بلنسية ، ثم انصرف هذا الأمير وصار الأمر إلى أبي جميل ولم يستطع أبو جميل الثبات أمام « خايمة الأول » ملك أرغون الذي استولى على بلنسية في صفر ٦٢٦ هـ / سبتمبر ١٢٢٨ م وأما مرسية التي كانت قد تحولت إلى وحدة سياسية قائمة بذاتها وسماها البصارى بملكة مرسية ، فقد تولى أمرها رجل يسمى أبا بكر هزير بن أبي مروان ابن خطاب الذي تلقب بضياء الدولة ، ولم تكن لدى هذا الرجل من القوة ما يستطيع به الدفاع عن مملكة مرسية وانتهى الأمر بسقوطها في يد فرناندو الثالث المعروف بالقدس .

وبقى في الميدان محمد بن يوسف بن نصر الجذامي بن هود الملقب بالمتركل ، فحاول أن يجمع حوله كل من وجد في جنوبي شبه الجزيرة من فرسان المسلمين ، وتمكن لفترة قصيرة من أن يصمد للضغط النصراني ، وأيده الناس في الأندلس وقد بدأ نشاطه سنة ٦٢٥ هـ ودخلت في طاعته مرسية وقرطبة وإشبيلية وغرناطة ومالقة والحرية وعدد آخر من صغار المدن والحصون ، ولو كان هذا الرجل على

شيء من الخبرة السياسية والقدرة على تدبير الأمور لثبت أمره ولاستماع أن يثبت ولو بعض الوقت للضغط النصارى ، لأن الاتفاق الذى كان قد تم بين مملكتى قشتالة وليون من ناحية ومملكة أرغون من ناحية أخرى في موضع يسمى بالمرسى كان يقضى بأن ميدان توسع أرغون في بلاد المسلمين ينبغي أن لا يتعدى مملكة بلنسية في شرق الأندلس ، وبقيّة شرق الأندلس من مرسية إلى بحر الزقاق كان ميدان توسع مملكة قشتالة وليون ، أما بلاد الغرب مما يلي قلمرية والأشبوية جنوباً ، فقد ترك للبرتغال تتوسع فيه

وهذا الاتفاق — اتفاق بالمرسى — يدل على أن ملوك النصارى في شبه الجزيرة كانوا يرون أن قوة الإسلام في الأندلس قد تلاشت ، وأن مابقى للمسلمين في شبه الجزيرة أصبح لقمة سائغة للملك النصارى يتقاسمونه فيما بينهم ، ولم يكونوا مخطئين في هذا التصور ، لأن المسلمين في الأندلس في نهاية العصر المرابطى اشترى بالفعل أنهم غير جديرين بتلك البلاد التى كان عليهم أن يدافعوا عنها لتظل بلادهم بلاد عربية وإسلام ، فاما وقد تراخوا وتدابروا على الوجه الذى رأيناه ، فقد كان من المؤكد أن البلاد ستضيع من أيديهم لأن الأرض لا يحوزها إلا الجدير بها ، والجدير بالأرض هو الذى يستطيع الدفاع عن حوزتها وحمايتها من العدوان .

نقول إن سيف الدولة بن هود تصدى لزعمامة بلاد الأندلس ، وكان في يده كما رأينا قدر صالح منها ، ولم يكن الرجل بالجبان ولا قليل الحماس ، ولكنه كان أروع طائشاً وضعيف الخلق سريعاً إلى الحركة ، وقد بايعه الناس في رجب ٦٢٥ هـ في موضع قريب من مرسية يسمى الصخور أو الصخيرات ، ولم يكذب خبر بيعته ينتشر في الأندلس حتى تقاطر الناس عليه وأصبح له جيش ضخم يستطيع به أن يحمى ما بقى للمسلمين في شبه الجزيرة ، لأن خصمه الذى كان يهود بلادهم ، كان فرناندو الثالث ملك قشتالة وليون ، ولم يكن بالملك القوى أو المؤيد تأييداً كاملاً من جانب أهل بلده ، ولكنه — كما قلنا — كان قليل التدبير ضعيف الخلق أسرع بجيشه إلى ماردة ليدفع عنها غارة البرتغاليين ، وعند موضع يسمى الحنش ، وقعت بينه وبينهم معركة تدل على شجاعته وقلة تدبيره في أن ممّا ، فقد هاجم الأعداء وأحترق صفوهم ونفذ إلى خلف الجيش دون أن يرسم إلى ذلك خطة ، ثم

كر راجعاً ليجد أن بقية جنده قد حسبوا أنه انهزم وركبوا على وجوههم ، وبذلك تحول النصر إلى هزيمة ، وأسرع ابن هود بمن معه من أنجاد المقاتلين إلى بلدة مرسية حيث جمع جيشاً كبيراً بلغت عدته ثلاثين ألف مقاتل ، وتمكن من تلك إشبيلية سنة ٦٢٩ هـ ، وولى عليها أخاه « أبا النجاة سالماً » الملقب بعماد الدولة . وفي سنة ٦٣١ هـ طاعت له قرطبة ثم غرناطة ومالقة سنة ٦٣٥ هـ ودخل في طاعته أصحاب مرسية وامتد سلطانه إلى مدينة الجزيرة الخضراء ، وولى الولاية على هذه البلاد ، ولكنه لم يستطع السيطرة على ما بيده ققام عليه ولاته ، وفي تلك الأثناء تقدم فرناندو الثالث وحاصر قرطبة يريد الاستيلاء عليها ، وكانت قرطبة قد ضعف أمرها واعتمد أهلها على حماية أنفسهم ، وكانت تنقسم قسمين الشرقية والمدينة ، وكانت المدينة محصنة تماماً ، أما الشرقية فكان في حصونها ضعف وثغرات ، وقد دام حصار قرطبة أشهراً حتى نفذت أقوات المدافعين عن البلد ، ثم تمكن نفر من فرسان قشتالة من دخول الشرقية . وفي تلك الأثناء أرسل أهل قرطبة إلى محمد بن يوسف الجذامي بن هود يستجدون به ، فأقبل في جيش عدته ثلاثون ألفاً ووقف عند أستجة وهابه فرناندو الثالث ، فلم يجرؤ على اقتحام البلد واستشير أهلها خيراً ، ولو أراد محمد بن يوسف بن هود أنجاد عاصمة الأندلس الخالدة لفعّل ، ولكن الذي حدث أنه خمل عن اللقاء ، وبعد انتظار أسابيع انسحب بقواته من المرية راعماً أن صاحبها أبا جميل زيان بن مدافع بن مردنيش قد استعج به ، وبذلك خيانة لا يغفرها له التاريخ ، لأنه عقب انسحابه مباشرة وجد القرطبيون أن لا أمل يرجى في الدفاع بعد أن هلكت قواتهم ودخل الجيش القشتالي قرطبة في ٢٢ شوال ٦٣٣ هـ / برتنو ١٢٣٦ م ومن غريب الأمر أن هذا الرجل الذي ضن بنفسه عن الموت دفاعاً عن الإسلام والعروبة وتوجه إلى شرق الأندلس لحاً إلى المرية عند عامل من عماله يسمى عبد الله الرميقي ، وكان قد استودع هذا الرجل جارية نصرانية لكي يأم بها عندما يريد ، فأخذها ابن الرميقي لنفسه ، وعندما دخل ابن هود حصره قتله الرميقي خنقاً ، وهكذا هلك ذلك الرجل على النحو الذي يستحقه جزاءً ، فغاقاً على ما تخلى من أمر الدفاع عن قرطبة عاصمة الخلافة

### قيام دولة غرناطة :

وبخلاف الأمر بعد ذلك من زعيم يتولى أمر الدفاع ، ولكن رئيساً جديداً يسمى

محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن نصر وينسب نفسه إلى سعد بن عباد  
 رئيس الأنصار ، نادى بنفسه رئيساً في قريته أرجونة على بعد ثلاثين كيلومتراً من  
 جيان ، وتوافد عليه جنود الأندلس من كل ناحية ، فانتقل إلى بلدة جيان وأعلن  
 نفسه أميراً على الأندلس واتسع ملكه ، فدخلت في طاعته بلاد الجنوب كلها ، وكان  
 بطبعه رجلاً جاداً مخلصاً حكيماً حسن التدبير ، فاجتمع حوله نفرٌ من خيرة  
 الرجال أهمهم بيت من كبار الفرسان ، وهم بيت أبي الحسن على بن أشقيلولة  
 أصحاب جيان ومالقة ، وقد عاونوه معاونة كبيرة ، وأحسن محمد بن يوسف بن  
 نصر يأنه في حاجة إلى معقل يعتصم به لأن جيان مدينة مكتشوفة ، فوقع اختياره  
 على غرناطة وتقع عند سفح جبل الثلج أو سيرانيفادا . وفي أعلى الجبل كان يقوم  
 حصن منيع عمره وسكنه باندیس بن حبرس في أول عصر الطوائف ، فأتته ابن  
 نصر إلى ذلك الحصن وترى في أخريات رمضان سنة ٦٢٥ هـ أسفل الجبل ، ثم  
 دخل الحصن واستقر به وأخذ يرمم أسواره ويوسع سلطانه ، وتقاطر عليه  
 الناس من كل ناحية ، فأصبح زعيم ما بقي للمسلمين من الأندلس ، وشيئاً فشيئاً  
 يتمكن ذلك الرجل من توسيع نطاق سلطانه ، فدخلت في طاعته بسطة ووالدى أش  
 ومالقة والمروية ثم اضطر إلى التخلي عن جيان ، وبعد سقوط قرطبة وجد هذا الرجل  
 أنه لا مفر من أن يدخل في ولاء ملك قشتالة فرناندو الثالث ، فأصبح من أتباعه  
 خلال الفترة الأولى من قيام دولته وأصبح ملزماً بأن يقدم لملك قشتالة مساعدة  
 عسكرية عندما يطلب منه ذلك ، وأن يحضر مجالس الملك في المدن التي يرى عقدها  
 فيها ، وبالفعل تجد أن محمد بن يوسف بن نصر يضطر بناء على المعاهدة التي  
 وقعها مع ملك قشتالة في سنة ١٢٤٦ م إلى إرسال معاونة عسكرية اشتركت في  
 الاستيلاء القشتاليين على إشبيلية سنة ١٢٤٨ م وقد عوض ابن الأحمر ذلك  
 بالاستيلاء على طريق الجزيرة الخضراء وجبل طارق ، ولم تحل سنة ١٢٥٥ م  
 حتى كان ملكه في مملكة غرناطة قد استقر وثبت وازداد قوة بمن توافد على بلاد  
 غرناطة من المسلمين من البلاد التي سقطت في أيدي النصارى .

وقد ازدهرت مملكة غرناطة في أيام محمد بن يوسف بن نصر ازدهاراً عظيماً  
 نظراً لما امتاز به من عقل وحكمة وحسن تدبير ، وما لقي من تأييد زعماء  
 المسلمين وخاصة بني أشقيلولة الذين أنفردوا بالسلطان في وادي أش وبعض  
 الفواحي الشمالية من بلاد مملكة غرناطة .

أما بقية بلاد المملكة من أمثال شريش وأوكش وشفونة ونيريشة ولبلة والجزيرة الخضراء وجبل طارق ، فقد كانت كلها في طاعة ذلك الرجل الذي استطاع بحكمته وبعد نظره أن تعمر تلك المملكة الصغيرة التي قامت سنة ١٢٣٢ م بعد ذلك فوق القرنين ونصف ، فلم تسقط إلا في يناير سنة ١٤٩٢ م . وقد وصفه ابن الخطيب بأنه كان ، قية من آيات الله في السذاجة والسلام والجمهورية (أي حب الناس له) ، جندياً ثغرياً شهماً أيداً ، عظيم التجرد ، رافضاً للدعة والراحة مؤثراً للتقشف والاكتفاء باليسير متبلاً بالظيل ، بعيداً عن التصنع ، مباشراً للحروب بنفسه ، يلبس الخشن ويؤثر اليداوة ، وتلك صفات جديرة بأن تصل يصاحبها إلى ما وصل إليه محمد بن نصر من النجاح في إقامة دولته .

حكم أبو عبد الله محمد بن نصر الذي تلقب بـ (الغالب بالله) في ٦٢٩ هـ - ٦٧١ هـ / ١٢٣٢ - ١٢٧٢ م . تلك فترة طويلة مكنت له من أن يؤسس ملكه ويضع له الأسس التي مكنت له من القيام والثبات وسط العواصف التي أثيرت فيها ، وجدير بالذكر أن الذي طال عمرهم من ملوك غرناطة لم يزد عددهم على ثلاثة أولهم محمد بن نصر هذا ، وابنه محمد بن محمد الملقب بالقوية ، وأبو الحجاج يوسف بن إسماعيل الذي ستحدث عنه فيما بعد .

وقد قضى محمد بن نصر أيامه في تثبيت ملكه فأضاف إليه مالقة والمرية ولورقة ، وبعد وفاة قسطنطين الأول سنة ١٢٥٢ م جدد العهد مع خليفته القونسيو العاشر ملك قشتالة وليون الملقب بالقونسيو العالم .

وبعد وفاة محمد بن نصر خلفه ابنه محمد بن محمد بن نصر المعروف بمحمد الثاني القوية (٦٧١ - ٧٠١ هـ / ١٢٧٢ - ١٣٠٢ م) وقد كان هذا الرجل قريباً من أبيه في الصفات ولكن ظروفه كانت أسوأ ، لأن القونسيو العاشر الذي تولى سنة ١٢٥٢ م كان رجلاً شديد الحماس الديني ، يريد أن يقضى على ما بقي للمسلمين في شبه الجزيرة ، وقد تمكن محمد بن نصر الغالب بالله من تأكيد عهد الولاء معه فترك له السلطان على جبال رندة وجبال البيرة أي على مملكة غرناطة بحدودها ولكن الخلاف وقع في عهد محمد الثاني بينه وبين بني أشبيلية أصحاب مالقة ووالدي أشب ، وقد اتصم عليهم بمعاونة فارس قشتالي يسمى فيليب ديزونيو دي لارا . كان بينه وبين القونسيو العاشر خلافه ، وأحس محمد الثاني أنه لم يعد

يستطيع الاعتماد على قواه وحدها ، فراسل أبا يوسف يعقوب بن عبد الحق أمير بنى مرين وطلب إليه أن يعاونه بقوة عسكرية ، فعبر أبو يوسف بنفسه إلى الأندلس لكي يشترك في الجهاد ، وبالفعل أعان محمد الفقيه على تثبيت أمره وتم الاتفاق على أن تقيم في مملكة غرناطة قوة من المقاتلين الزناتيين من بنى مرين وغيرهم يرأسهم قائد يسمى شيخ الغزاة ، ومن ذلك الحين سيصبح شيخ الغزاة من كبار الشخصيات في مملكة غرناطة ، وسيقع الخلاف بين بعض شيوخ الغزاة وبعض ملوك غرناطة ، لأن بنى مرين أصبحت لهم مصالح في شبه الجزيرة الإيبيرية ، أي أنهم دخلوا في منطقة النزاع على مصر الأندلس .

وكان محمد بن نصر بن الأحمر قد اتفق مع ألفونسو العاشر على أن يساعده فيما كان يفكر فيه من العدوان على بلاد المغرب ، وبالفعل قام الأسطول القتتال بسباحمة أصيلا على الساحل المغربي ثم احتل سبقة بمعاونة قوة من ملك غرناطة ، وقد أحفظ بذلك ملوك بنى مرين وأحسوا بأنه لا بد لهم من أن يتحرروا من ملوك غرناطة فأصبح من شروطهم للاشتراك في القتال في الأندلس أن تكون بيدهم الجزيرة الخضراء وجبل طارق ومالقة ، وكانت معقلاً لبنى أشقيلولة أعداء بنى الأحمر .

وفي أيام محمد الفقيه هذا بدأت مشكلة النزاع على مضيق جبل طارق تأخذ شكلها الحازم ، لأن كلاً من مملكة غرناطة ومملكة قشتالة وسلطنة بنى مرين ومملكة أرغون ثم الجمهوريات البحرية الإيطالية وخاصة بيشة وحنوة تنهت إلى أهمية ذلك الزقاق الذي يعد مفتاح البحر المتوسط ، والسيطرة عليه تتيح لصاحبه قوة بحرية عظمى ، فينقذ إلى المحيط الأطلسي والساحل الغربي لشبه الجزيرة الإيبيرية . وكانت الأنظار قد بدأت تثطلع إلى ما وراء مياه بحر الظلمات . وبالفعل نسمع أنه في ذلك العصر المتقدم حاول نفر من الملاحين البندقيين يسمون آل فيلندي التوغل في ذلك المحيط ، ويبدو أن سفنهم غرقت ولكن الفكرة استقرت في الأذهان على أي حال ، واشتد النزاع بين القوات التي ذكرناها على ممر بحر الزقاق

وعلى الرغم من كفاية محمد الفقيه واجتهاده في المحافظة على بلاده ، رغم صعوبة ظروفه ، إلا أنه فقد مدينة طريف التي هاجمها واستولى عليها ودافع عنها

دفاع المستعيت لمارس قشتالي يسمى الونسو بيريث دي قزمان الملقب بقزمان الطيب . وقد أضعف قوى محمد الفقيه نزاعه مع بني أشقيلولة الذين انضموا إلى ملك قشتالة على حليفهم وصهرهم وابن دينهم محمد بن محمد بن نصر بن الأحمر ، وكان لهذا الخلاف أثر سيئ على مصر مملكة غرناطة ، وسرى أن داء الخلاف هذا سيكون من أكد الأسباب في ضياع مملكة غرناطة ، فبعد بني أشقيلولة سيقوم بنو سراج بنفس الدور المحزن وسيكون لذلك أثره في ضياع المملكة .

وقبل وفاة محمد الغالب باله سنة ٦٧١ هـ / ١٢٧٢ م عاد الفونسو العاشر ملك ليون يهاجم أراضي المسلمين طمعاً في الاستيلاء على مزيد منها ، فاستجد محمد بن نصر الغالب باله بأبي يوسف عبد الحق المريني المعروف بالمصور سلطان بني مرين ، فأرسل المصور قوة من الزناتيين إلى جزيرة طريف في ذي الحجة ٦٧٣ هـ / ١٢٧٥ م أي بعد وفاة محمد الغالب باله وولاية ابنه محمد ابن محمد بن نصر الملقب بالفقيه ، وبعد قليل لحق به السلطان بنفسه في السنة التالية ، والتقت قوات المسلمين التي تكونت من قوات غرناطة والمدد الذي جاءها من المرينيين ، ووقع اللقاء بينها وبين قوات مملكة قشتالة وليون في ١٥ ربيع الاول ٦٧٤ هـ / سبتمبر ١٢٧٥ م عند استجة جنوبي قرطبة ، وكان يقود النصاري القائد « دينوتيو دي لارا » الذي تسميه النصوص العربية باسم « دنه أن ذونونه » وقد استعد المسلمون للمعركة استعداداً عظيماً وقاد مقدمة الجيش الإسلامي ولي عهد بني مرين الأمير يوسف بن أبي يوسف عبد الحق المريني ، وتحقق المسلمون حماساً عظيماً وخطبهم السلطان المريني ليزيد حماسهم ، فانتقضوا على القوات النصرانية في حماس بالغ أعاد إلى الأذهان حماسهم في موقعي الزلاقة والأرك على اختلاف في حجم القوات الإسلامية في كل من هذه المعارك ، وانتصر المسلمون انتصاراً كبيراً ومروءة قوات قشتالة شر ممزق وتقدموا يحاصرون إشبيلية على أمل استعادتها ، وأسرع الملك ألفونسو العاشر يطلب الصلح فأحيب إليه ، وهذا يدل على أن قوة الإسلام في الأندلس كانت لا تزال قادرة على الدفاع عن نفسها ، وأنه لو اتحدت للمسلمين فرص اتحاد الصوف والوعى إلى أهمية المعركة الدائرة على أرض الأندلس لاستطاعوا أن يثبثوا أقدامهم وأن يحافظوا على ما بقي لهم من أرض نيبا .



وقبل أن نستطرد مع ذكر الحوادث لا بد أن نضيف كلمة تُقدّر بها محمد بن نصر بن الأحمر الغالب بالله الذي أنشأ هذه المملكة ، واستطاع بما رزقه الله من خلال الشجاعة والذكاء وحسن التدبير وبعد النظر ، أن يؤسس هذه المملكة فيما بقي للإسلام من أرض قليلة في شبه الجزيرة ، ويضع لها من الأسس التي مكنت لها من الصمود للضغط النصراني المتزايد نحو قرنين ونصف من الزمن .

وقد رأينا ما كان في يلاء أبي عبد الله محمد بن محمد بن نصر الفقيه الذي كسب موقعة استجابة بالتعاون مع القوات المرينية ، ولم يكن الفقيه ليقبل كفاية عن أبيه . فقد تمكن خلال الفترة العلوية التي حكمها ( ٦٧١ هـ - ٧٠١ هـ / ١٢٧٣ - ١٣٠٢ م ) من أن يحافظ على مملكته ويزيد من قوتها . وإن كنا نلاحظ أنه لجأ إلى أمر سليلجأ إليه ملوك غرناطة بين الحين والحين ، وهو التحوف من بنى مرين ومحاولة الانضمام إلى ملوك قشتالة ضدهم ، مما أدى في النهاية إلى وقوع النفور بين المرينيين وبنى نصر ، وكان في النهاية وبالأعلى مصرع الإسلام في الأندلس ، ونشعر هنا إلى حقيقة تحلت أكثر من مرة خلال هذا التاريخ ، وهي أن أكثر ما أذى الإسلام في الأندلس هو خلاف المسلمين بعضهم مع بعض ، فقد كان ذلك أشد وطأة عليهم من أي خطر آخر .

وعندما توفي محمد الفقيه سنة ٧٠١ هـ / ١٣٠٢ م ترك لابنه وخليفته أبي عبد الله محمد الثالث الملقب بالمخلوع مملكة قوية زاهرة ، وإن أحاط بها الأعداء من كل جانب ، وجثمت فوق صدرها المصاعب من كل نوع .

وإن يتسع المجال لنذكر كل ملوك بنى نصر فقد كانوا كثيرين . ولكننا نكتفي بالوقوف عند اثنين منهم ، يعتبران أقدر من تولى أمر هذه المملكة بعد محمد الغالب بالله وأبنته محمد الفقيه .

فأما الأول فهو أبو الوليد إسماعيل بن الرئيس أبو سعيد هرج بن أبي الوليد إسماعيل بن محمد بن نصر مؤسس الدولة الذي حكم فيها بين سنتي ٧١٣ - ٧٢٥ هـ / ١٣١٤ - ١٣٢٥ م فقد كان هذا الرجل حازماً بعيد النظر مبركاً لحقائق الوضع في مملكته الصغيرة ، وقد تمكن بسياسته من الحفاظ على أراضي بلاده ، بل تمكن من التخلص من التبعية لقشتالة ، واستقل بنفسه معتمداً عز معاونة

قوات بنى مرين التي كانت قد حصلت على حق الإقامة بصورة مستمرة في بلاد غرناطة للاشتراك في الدفاع عنها عن طريق ما يعرف بمشيخة الغزاة التي سندحدث عنها بعد قليل

وفي أيام أبي سعيد فرج هذا حدث لقاء ثان بين قوات مملكة قشتالة وقوات الإسلام في شبه الجزيرة . وذلك أن الفونسو العاشر طامع في بلاد المسلمين من جديد وأراد أن يعيد مملكة غرناطة إلى الطاعة له . ولكنه لم يستطع لأن ابنه شانجو الرابع ثار عليه سنة ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م ، واستنجد الفونسو العاشر بالسلطان المريني على ابنه . وعبر أبو يوسف عبد الحق المنصور المريني إلى الأندلس ، والتقى مع الفونسو العاشر بأحواز الصخرة في كورة تاكورويا قرب رندة ، وهرم تاجه لديه ، بل قبّل يده رجاء معاونته ، وقد أدّى عمله هذا إلى نفور زعماء قشتالة من ملكهم هذا ، فانضموا إلى ابنه شانجو الرابع فعزلوا الفونسو العاشر سنة ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤ م فانصرف بقية أيامه إلى الدراسة والبحث والتأليف والترجمة من العربية إلى القشتالية ، مما استحق به أن يسمى بالملك الفونسو للعالم . ومن المؤرخين من يقولون إن الذي لجأ إلى السلطان المريني كان الابن وهو شانجو الرابع الذي تمكن بمعاونة المسلمين من التغلب على أبيه وخلعه والآنفراد بالعرش .

ولم يكد الأمر يستقر لشانجو الرابع حتى بدأ يفكر في غزو أراضي المسلمين . ووقع ذلك في أيام أبي الوليد إسماعيل النصري الذي نتحدث عنه . فتقدمت قوات نصرانية كبيرة نحو غرناطة بجيش ضخم يقوده دون پتر ، ودون خوان البوصيين على ملك قشتالة الصغير وهو ألفونسو الحادي عشر الذي خلف أباه شانجو الرابع واتضعت إلى قرائهما قوات كبيرة من الصليبيين ما بين هرنجة وإنجليز وكان اللقاء الحاسم قرب غرناطة وفي مرجها في ٢٠ ربيع الثاني ٧١٨ هـ / مايو ١٣١٨ م وكان شيخ الغزاة هو أبو سعيد عثمان بن أبي العلاء . وقد انتصر المسلمون في هذه المعركة نصراً يعدل انتصارهم الأول عند صخرة عباد . وهكذا أثبت المسلمون أنهم قادرون على كسب النصر إذا هم اجتمعت صفوفهم وصدقوا التية في الجهاد . وكان لهذه المعركة الثانية أثر بعيد في تثبيت

أركان مملكة غرناطة التي استطاع رجالها أن يستعيدوا بعض البلاد والحصون  
التي كانوا قد فقدوها من قبل .

وبعد هذا النصر بقليل أُفْتِيل سلطان غرناطة أبو الوليد إسماعيل سنة  
٧٢٥هـ / ١٣٢٥م ويعتبر هذا الرجل من أكفأ من تولى عرش غرناطة ، وإليه  
يرجع الفضل في إقامة الكثير من منشآت الحمراء .



## أبو الحجاج يوسف الأول ابن أبي الوليد إسماعيل

٧٢٥-٧٥٥ هـ / ١٣٢٥-١٣٥٤ م

يعتبر هذا الرجل آخر الكبار من ملوك غرناطة ، فقد بذل أقصى جهده في المحافظة على بلاده من عدوان مملكة قشتالة ، وعلى الرغم من ملكاته الكثيرة وطول حكمه الذي مكن له من أن يقدم لمملكة غرناطة خدمات جليلة إلا أن ظروف تلك المملكة ما كانت لتساعدها على الصمود إلى النهاية وحدها أمام ضغط نصراني متزايد ، وقد جاءت العلة الكبرى في اختلاف أفراد البيت النصري بعضهم على بعض واستهانة بعضهم بملوك قشتالة ، ثم إن العلاقات لم تكن طيبة دائماً بين سلاطين غرناطة ومشايخ الغزاة

### مشيخة الغزاة :

عقب انتصار المسلمين على النصارى في موقعة الصخرة ، استقر الاتفاق بين سلطان بني نصر وسلطان المرينيين على أن تقام في أراضي غرناطة قوة دائمة من المقاتلين المرينيين للأشراك في الجهاد ، وفي سبيل ذلك تنازلت مملكة غرناطة لأولئك المجاهدين المرينيين الذين سموا بالغزاة وكانت رياستهم تسمى مشيخة الغزاة ، تنازلت لهم عن الجزيرة الخضراء ومالقة وبعض مراكز أخرى لكي تكون معاير ومراكز لهم في الأندلس لكي يستطيعوا مواصلة عملهم الديني الكبير ، وكان أول شيخ للغزاة ، هو عبد الله أبو الحلاء المريني ، وعندما توفي ذلك الرجل خلفه أبو سعيد عثمان بن أبي العلاء ، وفي أيامه أصبحت مشيخة الغزاة قوة لها أهميتها في مملكة غرناطة ، وتدخل شيخ الغزاة في الأمور الداخلية للمملكة و أخذ بعض مناصب السلطان ، ومن ناحية أخرى نجد أن السلطان النصري يحاول من جهة التدبير على مشيخة الغزاة ، وربما تحالف مع القوات النصرانية عليهم ، والحقيقة أن بني مرين أصبحت لهم ، كما ذكرنا ، مصالح خاصة في الأندلس ودخلوا في التنافس على مصر مضيق جبل طارق مع مملكة غرناطة ، ومع مملكة قشتالة وليون ومملكة أرغون والجمهوريات الإيطالية ، وكان هذا الاختلاف في المصالح بين المسلمين من أشد الأخطار التي تهددت مملكة غرناطة واضعقت قواها.

## وقعة طريف :

وقد تجلّى ذلك بصورة ظاهرة في لقاء حاسم وقع بين الإسلام والنصرانية في أيام أبي الحجاج يوسف بن أبي الوليد إسماعيل الذي نتحدث عنه ، فقد كان هذا الرجل - كما قلنا - واسع المطامع جَمّ النشاط ، وكان قد تولّى أمر بني مرين السلطان أبو الحسن بن عثمان بن أبي يعقوب المريني المشهور باسم أبي الحسن ، وكانت حياته سلسلة من المغامرات والوفقات في المغرب والأندلس حتى يمكن روايتها على أنها قصة من صنع الخيال

نفى جمادى الأولى سنة ٧٤١ هـ / أكتوبر ١٣٤٠ م جمع ملك قشتالة قوات ضخمة من القشتاليين ، وانضمت إليهم قوات أخرى من الأراغونيين والبرتغاليين . وسار الجميع ووجهتهم مدينة طريف للاستيلاء عليها بصورة نهائية لقطع الطريق بين الأندلس والمغرب ، وقد اتّخذ في هذه الظروف أبو الحجاج يوسف بن نصر والسلطان أبو الحسن المريني إدراكاً منها لأهمية تلك المعركة . ولكن النصر لم يخالف المسلمين في ذلك اللقاء ودارت عليهم هزيمة جاسمة في تاريخ الأندلس ، هي هزيمة طريف في ٧ جمادى الأولى ٧٤١ هـ / ٣٠ أكتوبر ١٣٤٠ م وعقب تلك الهزيمة سقطت طريف وتمهد الطريق لسقوط جبل طارق والفصل النهائي بين الأندلس والمغرب .

وعلى أي حال فقد كانت هذه المعركة نهاية للمعاونة المرينية للأندلس ، وذلك بدوره قطع الأمل في أن تستطيع قوات غرناطة الثبات أمداً طويلاً ، وبعد المعركة بقليل اتجه العونسمو الحادي عشر ملك قشتالة لحصار جبل طارق وكان يستولى عليه لولا أن الفونسمو الحادي عشر توفي أثناء الحصار ، وقد أبدى المسلمون شهامة في تلك المناسبة ، فقد كانوا يُحاصرون القسوات القشتالية المُحصرة ، فلما بلغهم موت الملك أفرجوا للقوات النصرانية لتنسحب حاملةً تابوت الملك الميت وحيّوه تحية عسكرية

وفي سنة ٨٦٧ هـ / ١٤٦٢ م سقطت قلعة جبل طارق بيد القشتاليين وبذلك أصبحت مملكة غرناطة محاصرة تماماً بالقوات النصرانية ولا سبيل إلى معاوتها وكان ذلك في أيام أبي عبد الله محمد بن أبي الوليد إسماعيل الملقب بالغني بالله . وقد طال حكم هذا الرجل إذ استمر يحكم إلى ٧٥٥ هـ / ١٣٥٤ م وكان من أقدر

ملوك غرناطة ، وفي أيامه ظهر وعمل ابن الخطيب آحر العظماء من كتاب الأندلس ومفكره موقد دأوت على ذلك الرجل ووزيره ابن الخطيب معن طويلة ، وكثر الناشرون عليه من أهل بيته حتى اضطر إلى الهرب إلى المغرب للاستجداء بالسلطان المريني ، ثم عاد إلى الأندلس وتمكن من استعادة عرشه ، ولكن الأمور لم تصف له قط . فقد دخل في صراع مرير وخطر مع بني سراج . وكانوا من أكبر الأسر في مملكة غرناطة . وقد توفي ذلك الرجل قتيلاً على يد رجل قيل إنه محبوس في يوم عيد القطر سنة ٧٥٥ هـ / ١٩ أكتوبر ١٣٤٩ م . وإلى هذا الرجل محمد الغني بالله يعزى الجانب الأكبر من منشاءات قصور الحمراء ، فهو الذي أنشأ باب الشريعة ومدرسة غرناطة وأعتنى بحدائق جنة العريف

ومن أكبر الرجال الذين ظهرُوا في غرناطة في ذلك العصر الحاجب أبو التعيم رضوان وأصله من أسرى القشتاليين من أسرة ثييلة شريفة ، ولكن ذلك العلام شئ مسلماً مجاهداً في سبيل الإسلام ، وكان من أعظم رجال الدولة ، وقد عاصره ابن الخطيب ، وهو يثنى عليه ثناء طويلاً ، وأمثال أبي التعيم رضوان كثيرون في تاريخ مملكة غرناطة ، وقد قتل هذا الرجل في فراشه إذ اغتاله بعض أعباء السلطان .

### تدهور مملكة غرناطة :

وبعد محمد الغني بالله لم تعد غرناطة إلى سابق قوتها أبداً إذ تعاقب الملوك على العرش ووقعت بينهم الخلافات والحروب . وكان كل منهم يستعين بملوك قشتالة على إخوانه ، وفي كل معركة كان المسلمون يفقدون حصوناً وبلاداً ذات أهمية حتى انتهى أمر المملكة في النهاية إلى الإقتصار على مدينة غرناطة ومدينة وادى آش وما حولهما .

وتجلى ضعف مملكة غرناطة وقرب سقوطها في أيام أبي الحجاج يوسف الثالث المئوي سنة ٧٩٤ هـ / ١٣٩٢ م . فقد اشتد العداء بينه وبين بني سراج واتهم ملك قشتالة الفرصة فاستولى على بلدة الزهراء المجاورة لغرناطة سنة ٨٠٩ هـ / ١٤١٧ م

وبعد سقوط جبل طارق سنة ١٤٦٢ م عن يد القائد رودريجو بونسي

ديليون الملقب بدوق مدينة سالم ، لم يعد هناك أمل في أن تظل مملكة غرناطة وقتاً طويلاً ، وقد تجلّت نهايتها بوضوح سنة ٨٨٤هـ / ١٤٧٩م وهي السنة التي تم فيها الاتحاد بين الملك فرناندو الرابع ملك أرغون والملكة إيزابيلا الثانية ملكة قشتالة ، وكانا قد تزوجا قبل ذلك بعشر سنوات ، وكان معنى ذلك أن إسبانيا النصرانية كلها قد أصبحت ككتلتين تعملان على القضاء على ما بقي للمسلمين في شبه الجزيرة - الأولى مملكة قشتالة وأرغون وكانت تقوم بالنصيب الأكبر في القضاء على مملكة غرناطة ، ثم مملكة البرتغال التي اتّمت الاستيلاء على غرب الأندلس ، وبدأت قواتها تهاجم السواحل المغربية وتنتشئ عليها مراكز عسكرية لتواصل الغزو في أراضي المسلمين ، وقد تمكن البرتغاليون من الاستيلاء على سبتة ولكتهم تخلوا عنها لقشتالة وظلت في أيدي الإسبان إلى اليوم .

### نهاية مملكة غرناطة :

في أواخر سنة ٨٨٧هـ تولى عرش غرناطة محمد بن أبي الحسن علي ، الذي يعرف باسم أبي عبد الله أو « بو أبديل » في التصويع النصرانية ، وكان والده أبو الحسن علي قد تزوج علي زوجته الحرة عائشة ، زوجة نصرانية سميت « ثريا » وأبو عبد الله هذا هو أبها ، وكان أبو الحسن سلطاناً ضعيفاً محاطاً بالمصاعب ، تنافست النساء في عصره على حيازة العرش لأبنائهن ، وظال النزاع بين أبي عبد الله الذي ذكرناه ، وعمه أبي عبد الله محمد بن سعد ، الملقب بالزغل أي الباسل أو الشجاع .

وبعد منافسات طويلة قرر فرناندو وإيزابيلا القضاء نهائياً على مملكة غرناطة ، فساروا لحصارها بقوات ضخمة ، وفي النهاية عقد أبو عبد الله الزغل معاهدة التسليم مع ملكي قشتالة وليون في ٢١ من المحرم سنة ٨٩٧هـ / نوفمبر ١٤٩١م أما دخول الملكين الكاثوليكين فرناندو وإيزابيلا مدينة غرناطة فكان في ٢ ربيع الأول ٨٩٧ / ٢ يناير ١٤٩٢ وهو تاريخ حاسم في تاريخ الإسلام والغرب الأوربي ، وقد احتفلت به البلاد النصرانية كلها وأمرت البابوية أن ترفع كنائس أوروبا كلها احتفالاً بتلك المناسبة ، ومع الأسف إننا لا نملك نصوصاً عربية تصف أواخر مملكة غرناطة ، لأن التواريخ المعتمدة تنتهي بوفاة ابن الخطيب ،

ولكننا وجدنا كتاباً مجهول المؤلف يسمى « نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر » يقص علينا أطرافاً من أخبار مأساة غرناطة في أيامها الأخيرة ، وكذلك عثرنا على نص كتاب « جنة الرضا في التسليم بما قدر الله تعالى وقضى » لابن عاصم ، وكانت لدينا قبل ذلك أجزاء منه ، احتفظ بها المقرئ في « نفع الطيب » و « أزهار الرياض » .

وقد نصت معاهدة التسليم على أن يحتفظ للمسلمين في غرناطة بكل حقوقهم ، وأن تظل لهم مساجدهم وأن يقيم منهم من أراد تحت العدل والإنصاف ويهاجر منهم من أراد ، ولكن النصارى ما كادوا يستولون على غرناطة حتى تسروا كل ما عاهدوا المسلمين عليه ، وكان أول ما فعلوه تحويل مسجد غرناطة إلى كنيسة ، ثم بدأت سياسة الاضطهاد لمسلمي غرناطة الذين دخلوا في جملة المذنبين أي المسلمين الذين دُجنوا في مواطنهم تحت حكم النصارى وقُبِلوا حكمهم ، وقد ثار المسلمون على تلك المعاملة مرةً بعد أخرى . ولكن الأمر انتهى بطرد بقاياهم من الأندلس سنة ١٦٠٩ م ، أيام الملك فيليب الرابع ، وبذلك انتهت قصة الإسلام في شبه الجزيرة ، وإن بقيت آثاره الحضارية ماثلة إلى اليوم .

ولا يتسع المجال لدراسة تاريخ المسلمين في شبه الجزيرة الإيبيرية بعد سقوط غرناطة ، فذلك تاريخ طويل تبذلت فيه الأحوال بالنسبة لمن بقي في شبه الجزيرة على إسلامه وخضع للنصارى ، وهؤلاء هم المُدَجَّنُونَ ومن تَنَصَّرَ منهم تَنَصَّرَ ظاهرياً أو حقيقياً ، وهؤلاء هم المورسكيون ، وكلا الفريقين عوملوا معاملة الأسرى وهبطوا بهم إلى مستوى الرقيق والأقنان وأصابهم الاضطهاد والإذلال ، وثاروا مرة بعد أخرى حتى صدر قرار إخراج بقاياهم من شبه الجزيرة سنة ١٦٠٩ م كما قلنا ، وقد استوفى أخبارهم الأستاذ محمد عبد الله عسان في كتابه المسمى « نهاية الأندلس » ، « وتاريخ العرب المنتصرين » وهو الجزء الأخير من تاريخه الحافل المطول للأندلس وتاريخ المسلمين فيه ، وقد اعتمد فيه أساساً على مراجع كثيرة بعضها إسبانية وبعضها برتغالية ، ولكن مُعَوَّلُهُ الأكبر على التاريخ الذي كتبه المؤرخ الإنجليزي « لي » عن تاريخ محاكم التفتيش في الأندلس .



## موارد مختارة

### ( ١ ) الموارد العربية لتاريخ المغرب والاندلس :

(عند البحث عن اسم يبدأ بلفظي ابن أو أبي أو أداة التعريف « ال » اترك هذه الثلاثة وابحث عن الاسم في أول الحروف بعد ذلك ، فابن أبي الخصمال يوجد تحت حرف الخاء ومكنا) .

\* ابن الأبار ، أبو عبد الله القاضي :

— المعجم في أصحاب القاضي الإسماعيلي عن الصدوق ، القاهرة ( ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣ م )

— « الحلة السراء » : تحقيق د . حسين مؤنس ، القاهرة ( ١٩٦٢ م ) .

\* ابن الأثير الجزري ( مجد الدين ) :

— « جامع الأصول في أحاديث الرسول » ، تحقيق ( عبد القادر الأرناؤوط ) . طبعة دمشق ( ١٣٨٩ - ١٣٩٢ هـ - ١٩٦٩ - ١٩٧٢ ) .

\* الإدريسي : « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » ، ( روما ١٥٩٢ م )

\* أديب مغول ( قيصر ) : « الإسلام في الشرق الأقصى » ، ترجمة ( د . نبيل صبحي ) . بيروت ( ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م ) .

\* الأزدى الحميدى ( الحافظ أبو عبد الله محمد بن أبي نصر متوج بن عبد الله )  
تجذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس ، القاهرة ( ١٩٦٦ م ) .

\* الأندلسي ( علي بن سعيد ) : « المغرب في حل المغرب » تحقيق ( د . شوقي ضيف ) ، القاهرة ( ١٩٦٤ م ) .

\* الأوسى المراكشي ( أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري )  
« النبل والتكلمة لكتابي الموصول والصلة » .

— السفر الأول ( القسم الأول والثاني ) تحقيق د . محمد بن شرفة ، بيروت .

- بقية السفر الرابع تحقيق (د. إحسان عباس)، بيروت (١٩٦٤ م).
- السفر الخامس (القسم الأول والثاني) بيروت، ١٩٦٥ م.
- السفر السادس، بيروت، (١٩٧٣ م).
- ✽ الباجي (سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب أبي الويثد): «نصر أندلسي»، ترجمة ودراسة بالإنجليزية (د. ديلوب).
- ✽ الباجي (أبو مروان عبد الملك بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم): «المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين» تحقيق «د. عبد الهادي القازي»، بيروت (١٢٨٢هـ / ١٩٦٤ م).
- ✽ بالنثيا (أنخل جنثالث): «تاريخ الفكر الأندلسي»، ترجمة عن الإسبانية (د. حسين مؤنس)، القاهرة (١٩٥٥).
- ✽ بروفتسال (ليقي): «الإسلام في المغرب والأندلس»، ترجمة د. السيد محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي - القاهرة (١٩٥٦ م).
- ✽ البكري، أبو عبيد: «وصف إفريقية والمغرب».
- ✽ البلتسي، الحافظ مجد الدين أبو الخطاب عمر بن الحسن بن علي بن محمد بن حبة الكلبي الأندلسي: «المغرب من أشعار أهل المغرب»، تحقيق (إبراهيم الإيباري و د. حامد عبد المجيد و د. أحمد أحمد بدوي) القاهرة (١٩٥٤ م).
- ✽ توينبي، أرنولد: «الإسلام والغرب والمستقبل»، ترجمة (د. نبيل صدقي)، بيروت (١٢٨٩ هـ - ١٩٦٩ م).
- ✽ الجري، محمد أبو رأس: «مؤنس الأحبة في أخبار جربة»، تحقيق (محمد المرزوقي)، تونس (١٩٦٠ م).
- ✽ ابن حزم الأندلسي، أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد: «التلخيص لوجوه التلخيص»، تحقيق (د. إحسان عباس)، القاهرة (١٣٨٠هـ / ١٩٦٠ م).
- «نقط العروس لابن حزم»، تحقيق (د. شوقي ضيف)، جامعة القاهرة (١٩٥١ م).

« طوبى الحمامة في الألفة والآلاف لابن حزم » ، تحقيق (حسن كامل الصيرفي) القاهرة (١٩٥٩م) .

• د. حسين مؤنس . « رحلة الأندلس » ، القاهرة ( ١٩٦٢م ) .

« السيد القمبيطور وعلاقته بالمسلمين » القاهرة ( ١٩٥٠م ) .

« المسلمون في حوض البحر الأبيض المتوسط إلى الصروب الصليبية » ، القاهرة (١٩٥١م) .

• ابن حيان ، أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان بن محمد : المقتبس و أخبار بلد الأندلس »

— الجزء الثاني . تحقيق (د. محمود علي مكي) ، بيروت ، (١٣٩٢هـ / ١٩٧٣م)

— قطعة من الجزء الثاني نشرها ( ليفي بروغنسفال ) ، سنة ( ١٩٥٠ م ) .

— الجزء ( السفر ) الخامس ، مخطوطة المكتبة الملكية بالرباط رقم ٨٧

— جزء مختص بخمس سنوات من خلافة الحكم المستنصر . تحقيق ( عبد الرحمن عي الحجي ) ، بيروت ( ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م ) .

• ابن الخطيب ، لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد السلطاني : « الإحاطة في أخبار غرناطة » ، تحقيق ( محمد عبد الله عثمان ) القاهرة ( ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م ) .

— نفاضة الجراب في علالة الاغتراب » ، تحقيق (د. أحمد مختار العبادي) القاهرة

— كناسة الدكان بعد انتقال السكان » ، تحقيق (د. محمد كمال شبانة) ، القاهرة

— روضة التعريف بالحب الشريف » ، تحقيق (محمد الكناني) ، بيروت

— « أعمال الأعلام » ، ثلاثة أجزاء :

الأول : لا يزال مخطوطا .

الثاني : نشره ليفي بروغنسفال تحت عنوان « تاريخ إسبانيا الإسلامية » .

الثالث : نشر بعنوان « تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط » ، تحقيق (د. أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكناني) المغرب ( ١٩٦٤م ) .

• ابن خاقان الفتح ، « قلائد العقيان من محاسن الأعيان » تونس (١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م).

• ابن خلدون : « العمر » بيروت (١٩٥٨ - ١٩٦٠م).

• ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر : « وفيات الأعيان وأنبياء أبناء الزمان » تحقيق (د. إحسان عباس) ، بيروت (١٩٦٨م).

• الدباغ ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الأسدي : « معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان » ، تحقيق إبراهيم شيوخ ، القاهرة (١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م).

• ابن الدلافي ، أبو العباس أحمد بن عمر بن أبي العزري ، « نصوص عن الأندلس » تحقيق (د. عبد العزيز الأهراسي) ، مدريد (١٩٦٥م).

• ابن أبي ديفار ، أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني : « المؤنس في أخبار إفريقية وثونس » ، تحقيق (محمد شمام) ، تونس (١٩٦٧م).

• ابن الزبيسر ، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم ، « صلة الصلة » تحقيق (ليفي يروفتسكال) ، الرباط (١٩٣٧م).

• ابن زيري ، عبد الله بن بلقين بن باديس بن جبوس : « التبيان » تحقيق (ليفي يروفتسكال) ، القاهرة (١٩٥٥م).

• سالم ، السيد عبد العزيز : « قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس » ، بيروت (١٩٧١م).

• السلفي ، أبو مروان عبد الملك بن حبيب : نص ، نشر ودراسة بالاسبانية ، د محمود علي مكي ، مدريد (١٣٧٧هـ / ١٩٥٧م).

• شبانة ، محمد كمال : « يوسف الأول ابن الأحمر سلطان غرناطة » القاهرة (١٩٦٩م).

• ابن صاعد ، أبو القاسم الأندلسي الطليطلي بن أحمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد « طبقات الأمم » ، القاهرة

« طرخان إبراهيم على : المسلمون في أوروبا في العصور الوسطى » ، القاهرة ( ١٩٦٦ م ) .

« ابن عبد البر ، أبو عمر يوسف » الاستيعاب في معرفة الأصحاب » تحقيق علي محمد البجاوي ، القاهرة ( ١٣٨٠ هـ / ١٩٦١ م )

« ابن عميرة الضبي . أحمد بن يحيى بن أحمد » بغية المثلث في تاريخ رجال أهل الأندلس » ، القاهرة ( ١٩٦٧ م ) .

« عثمان ، محمد عبد الله : » نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتتصرين » ، القاهرة ( ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م ) .

« الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال » ، القاهرة ( ١٩٨١ هـ / ١٩٦١ م ) .

« لسان الدين بن الخطيب » ، القاهرة ( ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م ) .

« ابن عياض ، القاضي عياض بن موسى » ترتيب المدارك وترتيب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك » ، تحقيق ( د أحمد بكير محمود ) ، بيروت ( ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٥ م ) .

« الغبريني . أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله » عنوان الدراية في من عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية » ، تحقيق ( عادل نويهيض ) بيروت ( ١٩٦٩ م ) .

« الخرناطي ، محمد أيوب بن غالب : » مرحلة الأندلس في أخبار الأندلس » ، تحقيق ( د. لطفي عبد البقيع ) ، القاهرة ( ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥ م ) .

« الغساني ، محمد بن عبد الوهاب : » رحلة الوزير في افتكك الأسير » المغرب ( ١٩٤١ م )

« القاسمي ، علي بن أبي زرع : » الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ، الرباط ( ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م ) .

« ابن فرحون ، برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد » النديج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب » ، القاهرة ( ١٣٣٩ هـ ) .

- « **ابن الغريزي** ، الحافظ أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدى «تاريخ علماء الأندلس» ، القاهرة ( ١٩٦٦ م ) .
- « **ابن القاضي** ، أبو العباس أحمد بن محمد المكتاسي «درة الحجال في أسماء الرجال» تحقيق (محمد الأحمدى أبو النور) ، القاهرة - تونس ( ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م ) .
- « **ابن القطان** ، أبو علي حسن بن أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الملك بن يحيى «نظم الجمان» ، تحقيق (د. محمود علي مكي) ، الرباط .
- « **القرطبي** ، زكريا : «أثر البلاد وأخبار العباد» ، بيروت ( ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م ) .
- « **ابن القوطية** ، أبو بكر محمد : «تاريخ افتتاح الأندلس» ، تحقيق (د. عبد الله أبيس الطباع) ، بيروت ( ١٩٥٧ م ) .
- « **القبرواني** ، أبو العرب محمد بن أحمد بن نعيم «طبقات علماء إفريقية وتونس» تحقيق علي الشابي وتعيم حسن الباقي ، تونس ١٩٦٨ .
- « **القبرواني الخشني** ، أبو عبد الله محمد بن حارث بن أسد : «قضاة قرطبة» ، القاهرة ( ١٩٦٦ م ) .
- « **ابن الكردبوس التوزي** ، أبو مروان عبد الملك : «الاكتفاء في أخبار الخلفاء» ، نشر تحت عنوان «تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط» ، تحقيق (د. أحمد مختار العيادي) ، مدريد ( ١٩٧١ م ) .
- « **الكتاني** ، أبو زكريا يحيى بن عمر بن يوسف بن عامر «كتاب أحكام السوق» تحقيق (د. محمود علي مكي) ، مدريد ( ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٦ م ) .
- « **كنون** ، عبد الله : «أبو البقاء الرندي» ، طبعة مدريد ( ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٨ م ) .
- « **المالكي** ، أبو بكر عبد الله : «رياض النفوس» ، تحقيق (د. حسين مؤنس) ، القاهرة ( ١٩٥٤ م ) ، الجزء الأول .
- « **المدني** ، أحمد توفيق : «المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا» ، تونس ( ١٣٦٥ هـ ) .
- « **المراكشي بن عذاري** ، أبو عبد الله محمد «البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب» .

## الأجزاء :

- الأول والثاني : تحقيق (كولان وليفي بروقنسال) ، باريس ( ١٩٤٨ م ) .
- الثالث : تحقيق (ليفي بروقنسال) ، باريس ( ١٩٢٩ م ) .
- الرابع : جمع وتعليق (د. إحسان عباس) ، بيروت ( ١٩٦٧ م ) .
- القسم الثالث : نشر ( اميرسى هويشى ميراندا ومساهمة محمد بن تاويت ومحمد إبراهيم الكتاتني) : تطوان ( ١٩٦٠ م ) .
- المرآة الخشبي ، محيي الدين عبد الواحد بن علي « المعجب في تلخيص أخبار المغرب » . تحقيق ( محمد سعيد العريان ) ، القاهرة ( ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م ) .
- المقرئ التلمساني ، شهاب الدين أحمد بن محمد « أزهار الرياض في أخبار عياص » تحقيق ( مصطفى الأسقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي ) ، القاهرة ( ١٣٣٩ - ١٣٤١ هـ / ١٩٢٩ - ١٩٤٢ م ) .
- نفع الطيب من غصن الأندلس الزطيط وذكور وزيرها لسان الدين بن الخطيب « تحقيق ( د. إحسان عباس ) ، بيروت ( ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م )
- مكى ، محمود علي : « وثائق تاريخية جديدة » ، مدريد ( ١٩٥٩ - ١٩٦٠ م )
- - مدريد العربية « ، القاهرة
- المندري ، الحافظ « مختصر صحيح مسلم » ، تحقيق ( محمد ناصر الدين الألباني ) ، طبعة التكريت ( ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٩ م ) .
- مؤلف مجهول : « أخبار مجموعة » ، مدريد ( ١٨٦٧ ) .
- نبذة العصر في أخبار ملوك بني تميم ، تحقيق ( الفريد البستاني ) ، المغرب ( ١٩٤٠ م )
- نشره ( ليفي بروقنسال وغريسي غومس ) ، مدريد ( ١٩٥٠ م ) .
- الناصري السللاوي ، الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد : « الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى » ، تحقيق ولدي المؤلف ( جعفر ومحمد ) ، الدار البيضاء ( ١٩٥٤ م )
- النباهي ، أبو الحسن علي بن عبد الله بن محمد بن محمد بن الحسن « المرتبة العليا في من يستحق القضاء والفتيا » ، نشر ( ليفي بروقنسال ) ، القاهرة ( ١٩٤٨ م )
- - وثائق عربية غرناطية ، تحقيق ( لويس سيكودي لوثينا ) ، مدريد ( ١٣٨٠ هـ / ١٩٦١ م ) .

- Amador de los Ríos y Villalto ,  
Inscripciones Arabes de Cordoba, La Mezquita Aljama, Madrid  
1879 - 1880 .  
Asín Palacios, Miguel,  
La Escatología Musulmana en La Divina Comedia, 2a ed. 1962.
- A. Bell.  
La Religion Musulmana en Berbérie, Vol. 1, 1938.  
C. H. Bouquet, Alger , 2ème édition , 1946  
M. Caudel, L'Afrique du Nord, Les Byzantins et les Berbères avant les in-  
vasions, 1900  
E. Fagnan ,  
Extraits inédits relatifs au Maghreb, Alger, 1924.
- Brett, Michael,  
Problems in the interpretation of the History of the Maghreb in the  
light of some recent publications. Journal of African History, XIII,3  
(1972)
- Croisé: Antonio José.  
Historia de España Musulmana, Madrid 1848
- b. Coni Gastambide.  
La Historia de la Bula de Cruzada, Vitoria 1958
- Dozy, Reinhardt Peter -Ann.  
Histoire des Musulmans d'Espagne. Nouvelle Edition par Levi Pro-  
vençal Leyde , 1931 .  
Recherches sur l' Histoire de la Littérature des Arabes d'Espagne  
pendant le Moyen - Age, 3ème ed. 1881.
- H. Fournel.  
Les Berbères, 2 vol . Paris 1875 -1880.
- E.C. Gautier,  
Les Siècles Obscurs de l'Histoire du Maghreb. 2ème ed. Paris 1938.
- Hady Roger Idris,  
Initiation à la Tunisie; Paris 1950.
- Huici Miranda, Ambrosio.  
-Las Grandes Batallas de la Reconquista, Madrid 1956.



- Historia Política del Imperio Almohade. 3 vols. Valencia 1936.  
 Jose Antonio Maravall.  
 El Concepto de España en la Edad Media. Madrid 1954  
 Julien, Charles- André.  
 Histoire de l'Afrique du Nord de la Conquête Arabe à 1830  
 2ème Edition par Roger Le Tourneau, Paris 1966  
 Justo Perez de Urbel.  
 Historia del Condado de Castilla. Madrid 1945  
 Lacarra, José Maria.  
 Historia de la Edad Media. Barcelona 1960  
 Levi Provençal  
 - L'Espagne Musulmane au xè Siècle. Paris 1932.  
 - Histoire de l'Espagne Musulmane : 3 volumes, 2a ed. Paris 1948  
 - Les Historiens de Choria, Paris -Larose 1922.  
 F. Lot, Ch. Pister et F. L. Ganshof,  
 Les Destinées de l'Empire d'Occident, de 395 à 888. (Histoire du  
 Moyen-Age de Glotz tome I. Paris 1940, p. 233-253  
 Luis Gonzales de Azevedo  
 Histoire de Portugal, Lisboa, 1942-1944 .  
 Mareais, George.  
 L. Architecture Musulmane d' Occident. Paris 1954  
 أبو زكريا ، كتاب السمع وأخبار الأئمة « الإباضية في المغرب » نشر قطعة منه مع  
 ترجمة فرنسية (ماسكراي ) بعنوان  
 Masqueray, Chronique d' Abou Zakaria (Livre de Beni Mzab )  
 Alger, 1878  
 Mercier, Ernest.  
 Histoire de l' Afrique Septentrionale. Paris 1981 .  
 I. I. Martinez Fernando.  
 Jaime II de Aragon - Su Vida Familiar. Barcelona 1949  
 Menéndez Pidal, Ramon  
 La España del Cid. 2 vols. Madrid 1940

Moreno, Manuel Gomez,

Arte Arabe Espanol hasta los Almohades.

- Arte Mozarabe Vnluvenes III y IV de Historia Universal del Arte Hispanico, Madrid 1951 - 1954.

Pellegrin A, Histoire de la Tunisie, Tunis 1948.

W. Piskorski,

Las Cortes de Castilla en el Periodo de tránsito de la Edad Media á la Moderna ( 1188 - 1520 ) Barcelona 1933.

F. Saavedra,

Estudio sobre la invasion de los Arabes en Espana, Madrid 1892.

C. Sanchez Albornoz,

Espana un emigma historica. Buenos Aires, 1926.

Torres Balbas, Leopoldo,

Arte Califal ( Historia de Espana dirigida por R. Menendez Pidal ) tomo V , 2a ed. 1956.

Fr. Simonet,

Historia de los Mozarabes de Espana, Madrid 1904.

M. Torres, El Estado Visigotico.

Algunos datos sobre su formacion y principios fundamentales de su organizacion en Anuario Hist. Der. Espanol III, 1926 y p. 307-457.

Wansbrough, John,

On recomposing the islamic History of North Africa.

Journal of the Royal Asiatic Society,

أما التواريخ العامة لإسبانيا فكثيرة ، أشرتنا إليها في المدخل الجيولوجرافي لتاريخ الأندلس ( ص ٢٤١ وما بعدها من ذلك الكتاب ) ومعظم هذه الكتب تحمل عنوان

Historia de Espana

Historia General de Espana

والعامة ما القه

Ambrosio de Morales, Esteban de Garibay, F Juan de Mariana,

Alejandro Herculano, Antonio Alcalá Galiano, Modesto Lafuente,

Rafael Altamira, Ramon Menendez Pidal.

Antonio Ubieto, Juan Regla, José Maria Jover,


Introduccion a La Historia de Espana, Barcelona 1963.

## الفهارس العامة

- \* فهرس الأعلام .
- \* فهرس الأماكن والمباني والتجبال .
- \* فهرس القبائل والطوائف والأل .
- \* فهرس الكتب والمجلات .
- \* الخرائط .
- \* فهرس موضوعات الكتاب .

فهرس الأعلام





أحمد بن محمد بن إلياس ٣٦٨  
 أحمد بن محمد التلمساني القزويني (ت ٦٠٤ هـ)  
 ٢٤٧  
 أحمد بن محمد الرازي (ت ٣٤٤ هـ) ١٥٠  
 ٢٤٥، ٢٤٤  
 أحمد بن محمد بن عبدويه (ت ٣٢٨ هـ) ٣٣٩  
 ٣٤٢، ٣٤١  
 أحمد بن محمد بن أبي عبدة ٣٩٤، ٣٥١  
 أحمد مختار البغدادي ٢٥٣  
 أحمد السجستاني أبو جعفر ٤٢٥  
 أحمد بن مفلح ٣٥٦  
 أحمد بن هود القنطري ٤٢٥  
 أحمد بن يحيى بن أحمد القاضي (ت ٩٩ هـ)  
 ٢٥١، ٢٥٠  
 أحمد بن يعلى ٣٩٨-٣٧٠  
 ابن الأحرار = محمد بن يوسف بن عمر  
 الأخطل = خباز، بن هوث  
 إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن الثاني (ت  
 ٢١٣ هـ) ٦٢٨  
 الإدريسي = محمد بن محمد  
 إدريس بن عبد الله بن الحسن (ت ١٧٧ هـ)  
 ١٨٣، ١٨٢، ١٧٥  
 إدريس بن يعقوبه أبي يوسف أبو العلاء القلوني (ت  
 ٦٩٩ هـ) ٢٣٧، ٢٣٤، ٢٣٠  
 ٢٦٧  
 أفراتك بنت لباب بن قيس ٣٦١  
 أفراتك بنت القنونس البغدادي ٢١٧  
 أفرجيتا = بنت عمر بن حصون (ت ٣٥٧ هـ)  
 أردشير بن بابش ١٣٥  
 أردشير الأول: ٢٥٦، ٣٦٣  
 أردشير الثاني: ٣٦١، ٣٦٤-٣٦٦، ٣٨١  
 أردشير الثالث: ٣٦٨، ٣٦٩  
 أردشير الرابع: ٣٧٠  
 أروطاس بن عطية ٢٨٣

أرميجول (كونت) : ٤١١	الفونسو التاسع ٢٢٨
أرموجير : ٣٩٥	الفونسو الثالث (الكبير) : ٢١٣، ٢١٤، ٢٥٦.
أرنولد تويس ٣٨٢	٢٥٧، ٢٤٧، ٣٤٨، ٣٩١، ٢٩٣
إسحاق (بن إبراهيم) الفوصلي (ت ٢٣٥ هـ).	الفونسو الثامن : ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٢، ٢٢٨، ٢٣٩.
٣٣٢	الفونسو الثاني : ٢٢٣
إسحاق بن علي بن تاشفين (ت : ٥٤٢ هـ) : ٢١٤	الفونسو أخاذي عشر ٤٥٢، ٤٤٩
إسحاق بن علي بن قانية : ٢٢٩	الفونسو الخامس ٢٥٦
إسحاق بن محمد بن عاتبة (ت : ٥٧٩ هـ) : ٢٢٥	الفونسو الرابع : ٣٦٦، ٣٦٧، ٢٧٠
إسحاق بن محمد القرشي : ٣٩٥	الفونسو السابع بن ويونف : ٢١٧، ٤٣٨
أسد بن القسرات (ت : ٢١٣ هـ) : ١٠١، ٨٦، ١٠٢	الفونسو السادس : ١٩٦، ١٩٩، ٢١٦، ١٩٤
٣٠٩، ١١٢، ١٠٢	٣١٨، ٢٤٣، ١١٦، ٤١٨، ٤٢٠، ٤٢٢ -
إسماعيل بن جعفر الصادق (ت : ١٤٣ هـ) : ١٣٦، ١٣٧	٤٢٥، ٤٣٠، ٤٣١، ٤٢٣
إسماعيل بن عبد الله : ٢٧٩	الفونسو العاشر : ٤٤٥ - ٤٤٧، ٤٤٩
إسماعيل (بن محمد) أبو الطاهر التصور (ت : ٣١١ هـ) : ١٤٩، ١٥٠	الفونسو القس : ٣٤٩
إسماعيل بن محمد بن عباد (أبو القاسم) : ٤١٧، ٤٢٦	الفونسو اثريكي : ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٦، ٢٤٣.
إسماعيل التصوري (أبو الوليد) (ت : ٧٧٥ هـ) : ٤٤٩، ٤٨٠	٤٣٨
إسماعيل الهزري أبو إبراهيم البج : ٢٢٠	الفونسو يريث دي قزمان : ٤٤٧
أنهب بن عبد الميزر (ت : ٢٠٤ هـ) : ٣٠٩	إلياس بن جب : ٧٩
أم الأصبع : ٢٨٨	امبروير لوتش : ١٩
أصع من وكيل (فروض) : ١٠٣	اميليو حرميه غومت : ٢٥٨
الأعرابي = سليمان بن يقطان الكلبي	الأمين العباسي : ١٣٥
الأغب بن سالم بن عقاب النيمى (ت : ١٥٠٠ هـ) : ٨١، ٩٢، ٩٥	أمة بن معاوية بن هشام : ٣٢٣
ألف بن عبد الوهاب : ١١٩	أمة بن وانغالي : ١٨٤
أكس لاشابل : ٣١٤	أونو (امبراطور) : ٣٧٣، ٣٨١
الاركون (مشرق) : ٢٥١٠	أوتو الثاني : ٢٨٦
البصرهاس : ١٩٥، ١٩٧، ٤٢٠، ٤٢٢، ٤٣٠	أودو (الدوق) : ٢٩١، ٢٩٥ - ٢٩٧
٤٢١	أوردونيو الأول : ٣٤٧
الفارمانيث = البرهاس	الأوزاعي = عبد الرحمن بن عمرو
الفريد البستاني : ١٨	الأوسط = عبد الرحمن بن الحكم
الفونسو : ٣١٢، ٣١٣	ابن أبيك الصفدي = خليل
الفونسو الأول (المحارب) : ٢١٦، ٢١٣، ١٣٣	أيت إيلان : ١٨٧
٤٣٦، ٤٣٥	إيزابيلا : ٢٣٤، ٢٤٣، ٤٥٤
	يزيد بن الحاسي : ٣٥٥
	إيكاروس : ٣٣٥
	أيوب بن حبيب اللخس : ٢٧٨، ٢٧٩
	أيجو أريستا : ٣١٣



باديس بن حويس (ت : ٤٦٥ هـ) : ٤٤٠  
باديس بن ساكنس بن زيري مصير الدولة (ت .

٤٠٦ هـ) : ١٥٤ ، ١٦٠ ، ١٦٥

باديس بن المنصور بن الناصر ١٧٣

البارو القرطبي (ت : ٢٢٥

تروس (ت : ٣١٢

بادر (مولى عبد الرحمن بن معاوية) ٢٨٨ ، ٢٨٩  
٣٠٤

بادر بن أحمد : ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٧٤

بادو شاليتا ساندرون ٢٤٥

بار بن قيس ٢٨

برمودو الثالث : ٤٦٠

برمودو الثاني : ٢٥٦ ، ٢٩٧

ابن بسم = أبو الحسن علي الشنبري

بسكوال دي جاياثوس : ١٥ ، ١٧ ، ٢٤٧

بشار بن برد (ت : ١٦٧ هـ) : ٢٣٩

بشر بن مروان : ٥٨

ابن بشكوال = خلف بن عبد الملك أبو القاسم

مطيلوس : ١٦٥ ، ١٦٦ ، ٣١٧ ، ٣٤٨ ، ٣٥٨ ،  
٣٥٩ ، ٣٦٤ ، ٣٩٩ ، ٤١٧ ، ٤٢١ ، ٤٢٩ -

٤٣٦ ، ٤٣١

بقي بن مخلد : ٣٣٩

بكر بن وائل : ٣٥٠

أبو بكر بن أبيعت (أبو يحيى) : ٢٢٠

أبو بكر بن أجد : ٢١٥

أبو بكر الزبيدي : ٣٨٩

أبو بكر بن الصحراوية : ٢٢٤

أبو بكر الصديق (ت : ١٣ هـ) : ١١٧ ، ٤٢٩

أبو بكر الصنهاجي (البيدي) : ٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦

أبو بكر بن عبادة بن ماء السماء : ٢٤٥

أبو بكر بن عمار : ٤٦٨

أبو بكر بن عمر الخدالي : ١٨٦ - ١٨٨

أبو بكر بن عمر بن وائل بن ثنوية : ١٨٤ ، ١٨٨ ،  
١٩٠

أبو بكر بن القبطونة : ٢١٥

أبو بكر بن القوطية : ٢٨٩

أبو بكر بن معاوية القرشي : ٢٨٩

أبو بكر بن عذيل : ٣٤٢

البكري : ١٨١

بلاجيرس : ٣١٦

بلاسكت بوسكو : ٢٧٦

بلاطة = بيلاتوس

بلاي : ٣١٢

بلج بن بشر القيبي : ٧٤ ، ٢٨١ ، ٢٨٢

بلكن بن زيري بن متاد أبو الفتح (ت : ٣٧٤ هـ)

١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٥٨ - ٣٩٦

بلكن بن محمد بن حماد : ١٧٢

أبو البهار بن زيري بن متاد : ١٥٩

بهرام : ١١٦

البهلون بن راشد : ٨٥ ، ٨٦

البياص = أبو محمد عبد الله

البيدي = أبو بكر الصنهاجي

بيرغر وامون الأول : ٤٢٦

بيلاتوس : ١٠١ ، ١٠٢

بيلابو : ٣١١



تاشفين بن علي : ٢٠٠ ، ٢١٣ ، ٢١٧ ، ٣٣٢

تاشفين بن وائل بن ثنوية : ١٨٤ ، ١٨٨

تاليت بن صنهاجة : ١٨٤

تاروف بن وراثش بن منصور : ١٨٤

تاريفت = محمد بن يوسف بن تاشفين

التلماسي = القرقي

تاسم بن علفمة : ٢٩١ ، ٣٠٠

أبو تمام : ٢٣٩

تاييم بن الحزم بن باديس : ١٥٤ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٥

١٧٦

تاسم بن يوسف (أثرايطي) : ١٩٩

تاسم بن يوسف بن تاشفين : ٤٣٣

تود (ملكة) : ٣٣٩

تودور موسن : ٢٥٦ ، ٢٥٧

توفيلوس : ٣٣٩



ثعلبة بن سلامة العاملي ٢٨٢

ثعلبة بن محمد بن عبد الواث ٣٥٩

ثوريتا ( الأب ) : ٣٥٧

ثيوادريال : ٢٢٧



الحافظ = عمرو بن بحر

( ابن جبير ) ٤٢٣

جر جبر : ٢٦٠ ، ٢٥٠ ، ٢٣٠

جر جهوريون = جرحير

جريدوس ايلبرت : ٢٨١

جعد بن عبد العازر : ٣٥٢

جعفر ( بن عثمان ) للصنفي : ٣٨٩ ، ٣٩١ ، ٤٠٦

جعفر بن علي بن حسمثون الزناني : ١٥٤ ، ١٥٧ ، ٣٩٦

جعفر بن عمر بن حفصون : ٣٥٧

جعفر بن فلاح : ١٥١

جعفر ( بن يحيى ) البرماني : ١٨٧ هـ ، ١٢٧

أبو جعفر المنصور : ٧٨ هـ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٨ ، ٨٥

أبو جليل = زمان بن مدافع

جندابوس : ٣٧

جوزو الصنفي : ١٤٧ ، ٣٩٠

جورج كولان : ١٩

جورج مارسه : ١٥٦

جوهر الصنفي : ١٥١

جوي : ٢٩

جياغوس : ١٨٠



أبو حاتم : ٨١ ، ٨٢

الحاكم بأمر الله = منصور بن نزار

أبو حامد القزالي = محمد بن محمد الطوسي

جاسق بن زكري من زيري : ١٦٠

جوس بن زكري من زيري : ١٦٠

جوس بن ماسكن : ٣٧٠ ، ٤١٣

حبيب بن أبي حنيفة من علة بن نافع : ٢٧٧ ، ٧٤

حبيب بن عبد الرحمن بن حبيب : ٧٩

حبيب بن عمرو بن سودة : ٣٥٦

الحجاج بن يوسف الثقفي : ٤٨ ، ٥٨ ، ٦٧ ، ٧٠

٧١

أبو الحجاج = يوسف بن قاضي

الحجر بن عبد الرحمن الثقفي : ٢٧٩ ، ٢٩٢

أبو حزم = علي بن أحمد بن حرم

أبو الحزم بن جهور : ٤١٥

الحسام بن صرار الكلسي أبو الخطار : ٢٨٣ ، ٢٨٤

حسام الدولة الملقب : ٤٢٥

حسان بن أبي حنيفة : ٣٩٦ ، ٣٠٠

حسان بن الحسنان الصابي : ٤٧ ، ٥٢ ، ٥٥ ، ٥٩

١٠٨ ، ٢٩٣ ، ٢٩٦

حسداي بن إسحاق بن شبروت : ٣٦٩

الحسين بن حرب الكندي : ٩٣ ، ٩٩

الحسين بن علي بن شيم بن المعز : ١٧٢

الحسين بن علي الزيري : ١٥١

الحسين بن علي بن أبي طالب : ١٢٥ ، ١٣٦ ، ١٤٥

الحسين بن علي بن الحسين : ١٣٦

الحسين بن علي البزازوري أبو محمد ( الزبير

القاضي ) : ١٦٧

الحسين القروطي : ٣٧٦

الحسين بن كنون ( ت : ٣٣٧ هـ ) : ١٢٩ ، ١٣٢

٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٩٦

الحسين بن يحيى الأنصاري : ٣٠٩ ، ٣٠٢

حنفي بن الحر : ٣٨٤

حنفي بن عمر بن حفصون : ٣٥٧

أبو حنفي عمر بن أبي الهيثمي ( ت : ٥٧١ هـ )

٢٠٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٣٦

الحكم بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط : ٢٩٩

٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٤ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٥

٣٣٠ ، ٣٣٤ ، ٣٤٦

الحكم بن عبد الرحمن الناصر المستنصر ( ت

٣٩٦ هـ ) : ١٦ ، ١٥١ ، ١٥٧ ، ١٥٩ ، ٢٤٣

٢٤٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٦١ ، ٢٦٥ ، ٢٦٨

٣٧١ ، ٣٧٧ ، ٣٨٢ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٨

خلف بن عبد الملك بن بشكوال (ت: ٥٧٨ هـ)

٢٦٠، ٢٥١

ابن حلكان = أحمد بن حلكان

خليل بن ليكث الصفدي (ت: ٧٦٤ هـ) ٢٥٠

خوليان ربيرا: ١٨، ٢٤٦

خيخون: ٢٧٤، ٣١١

خيران: ٤١٢، ٤١٣

خير بن حزر: ١٨٢

خبيث عرسية: ٣٦٧

## د

داس، ٢٢٨

دايماركة: ٣٢٣، ٣٣٦

داميان بنت واهب: ٤٨

داود بن محمد بن إدريس: ١٣٠

دندان: ١٣٩

دوزي = زيجات پير آبي

دولاند: ٣٠٢

دولتديدو (استب): ٣٦٥

دون بشر: ٤١٩

دون حوان: ٤٤٩

دي مورتوي: ٤٢٤

ديناو أمو الماسحر (ت: ٦٣ هـ) (٤١، ٤٣، ٤٥)

٧٨، ٧٧

ديونير دي لامرا: ٤٤٧

ديو سقوريدس: ٢٨٤

## ذ

الذلفاء (أم عبد الملك الظفر): ٤٠٧

ذو الرمة = غيلان بن عتبة

## ر

راند (مولى إدريس بن عبد الله) ١٣٦-١٢٨

رامون برنجر الأول: ٤٢٨

رامون برنجر الرابع: ٤٣٣، ٤٣٦

رامون جوزيل الثالث: ٤٠٦، ٤١١

رامون منتدث بيدال: ٢٥٧-٢٥٩

٣٩٠، ٣٩٢، ٣٩٦، ٤٠١، ٤٠٢، ٤١٦

٤١٩، ٤٢١

حلاوة (جارية جليقية) ٣٢٢

الحلواني: ١٣٩

حماد بن يوسف بن ملكوت بن زيري: ١٦٠، ١٦١

١٧١، ١٧٢، ١٧٤

حمادة المسحد = عوس بن أبطهان

حمدان لرمط: ١٤٤

ابن حمديس (القاشي): ٤٣٦

حمزة بن محمد بن إدريس: ١٣٠

الحميندي = محمد بن فتوح بن عبد الله

حنثي بن عبد الله الصنماني: ٢٧١، ٢٧٣

حنظلة بن مسلمان الكليسي: ٧٥، ٧٦، ٨٦، ٨٧

٨٨، ١٠٨، ٢٨٣

أبو حنيفة = النعمان بن ثابت

أبو حنيفة = النعمان بن محمد الشيبني

ابن الحلويس: ١٧٢

ابن حوثل النصيب: ١١٤، ١٦٣، ٣٧٧

حيان بن خلف بن صعب بن حيان أبو مروان (ت:

٤٦٩ هـ) (١٥٠، ٢٤٥، ٢٤٦، ٣٧٩، ٣٨٦

٣٨٩

## خ

خالد بن حبيب: ٧٤

خالد بن الوليد: ٥٨، ٢٧٥

خالد بن يزيد: ٤٩-٥١

خالد بن يزيد الزناني: ٧٤

خاية الأول الكبير: ٢٤٣، ٤٤١

خزوف بن هلمل بن خزر الزناني: ١٥٧

ابن الخطيب البكري (ت: ٧٧٦ هـ) (١٤٠، ١٦٠،

١٥٥، ٢١٧-٢١٩، ٢٥٣، ٢٥٤، ٤٤٥،

٤٥٤، ٤٥٣

ابن خفاسة: ٤٣١

ابن خلدون عبد الرحمن بن خلدون (ت: ٨٠٨ هـ)

١٦، ٢٥، ٣٦، ٣٩، ٥٠، ١٣٠، ١٣١

١٥٥، ١٥٦، ١٦١، ١٦٦، ١٦٧، ١٧٠

١٧٧



رامبر الأول بن الفونسو الثاني ٢٢٣، ٢٢٦

رامبرو الثالث. ٣٦٧، ٣٦٨

رامبرو الثاني (وفاة) ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٣

٣٦٦، ٣٦٨، ٣٦٩

رابنهارت بيترا دوزي (ت) ١٣٠٠ هـ. ١٧، ١٩

٢٤٧، ٢٥٢، ٣٠٤، ٣٨١

ربيع الأسقف ٣٨٩

الربيع بن سليمان ١٣١

ربيعة بن عامر بن صمصمة ١٩٧

ردويحو ديات دي ميار. ١٩٤، ١٩٩

ابن رشد (محمد بن أحمد، ت: ٥٩٥ هـ). ٨٠

٢٣٥، ٤٣٥

ابن الرمي: ٢٢١، ٤٣٨

ابن رومن = محمد بن عبد العزيز

روجر الأول البورماندي. ١٧٢، ١٧٦

روح بن حاتم (بن قبيصة، ت: ١٧٤ هـ). ٨٧

روديحو بونسي ديلبون: ٤٥٣

ابن الرومي (علي بن العباس، ت: ٢٨٣ هـ)

٣٣٩

روياجول: ٩٤٧، ٩٤٨، ٩٤٩

رونييليو الكبير ٤٠٣

ويكارمو ٢٦٧

ريكارديو (مطران): ٣٢٦



زايي بن زيري الصنهاجي. ١٦٠، ٤١٠، ٤١١

٤١٣

الزبير بن علي بن يوسف بن تاشفين ٢١٣

ابن الزبير = أحمد بن إبراهيم أبو جعفر

ابن أبي ذرع (علي بن عبيد الله، ت: ٧٤١ هـ):

٢١

زوياب (علي بن تافع، ت: ٢٣٠ هـ). ٣٣٢

٣٣٤

أبو زكريا = يحيى بن غانية

الزغاني خليفة ١٦٩

زهر بن قيس (البليوي، ت: ٧٦ هـ). ٤٦، ٤٧

١٢٦، ٢٩٣

زياد بن أبيه (ت: ٥٣ هـ). ٦٧

زياد بن عبد الرحمن (سقطون): ٣١٠

زيادة الله الأول (بن إبراهيم بن الأغلب، ت: ٢٢٣

هـ). ٩٨-١٠٥، ١٠٣-١٠٦، ١٠٨-١٠٩

١١٣

زيادة الله الثالث (بن أبي العباس أبو مصر): ت

٣٠٤ هـ). ١١١، ١٤٣

زيان بن مقلع بن يوسف أبو جميل (ت: ٦٣٧

هـ): ٤٤١، ٤٤٣

زيري بن عطية الحزري المشرقي الزناني (ت: ٣٩١

هـ). ١٥٩٠، ١٦٠، ٢٩٦

زينب بنت إسحاق التشرابية (ت: ٤٦٤ هـ):

١٨٨



سارة القوطية ٢٤٦

سافيرا ٢٧٣

سالم (مولي عبد الرحمن بن معاوية): ٢٨٨

سالم بن حود أبو النجاة عماد الدولة: ٤٤٣

سام بيور ٢٥٦

سانجو الأول ٤٢١

سانشو: ٤٩٠، ٤٧٢

سانشو اباركة ٤٠٩

سانشو الأول: ٣٧٠

سانشو بولو: ٤٠٦

سانشو الثاني ١٩٤

سانشو بن رامبروت: ٤٢٢

سانشو غرسية: ٣٩١، ٣٩٤، ٣٩٧، ٣٩٩

سانشو بن الفونسو السادس: ٢١٨

سانشو الكبير: ٢٤٣، ٢٥٦، ٤٢٦، ٤٢٨

سانشيت البيروثوت ٢٤٦

سيستان (قس): ٢٥٦

سحون = عبد السلام بن سحيد

سعد بن عبادة (ت: ١٤ هـ). ٤٤٤

سعد بن أبي وقاص (ت: ٥٥ هـ). ٢٧٥

سعدون الرضيني ٣١٥

سعدون السرباني: ٣٤٨، ٣٨٠

السيد القبطور ١٩٤، ١٩٥، ١٩٧، ٤٣٢،

٤٣٠، ٤٣٣

سيف الدولة بن هود ٤٤٢



شارل مارنل: ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٨

ابن شاذان الكشي محمد بن شاذان (ت: ٧٦٤ هـ)

٢٥٠

الشاكر لله المدوراني (محمد بن الفتح) ١٥٨

ابن الشاذلي: ٢٨٠

شاذان الرابع: ٤٤٩

شاذان = يزيد بن عبد الرحمن

شاذان: ٢٩٨، ٣٠١، ٣٠٢، ٣١٢، ٣١٥، ٣٢٣

شاذان بن عبد الواحد: ٣٠١

شاذان: ٢٩٨

الضلع = سلمان بن حمير

الضلع = أحمد بن سعيد، ت: ٦٢٨ هـ (١١٧

الضلع = أبو الحسن علي بن بهام

شهر بن حوشب (ت: ١٠٠ هـ): ١٣٩، ١٤٠

شهيد بن يحيى بن شهيد بن الوراق الأشجعي

٢٩٩، ٣٠٠

صاحب الخمار = محمد بن يزيد

صاحب القلعة = حماد (ابن عم المغز بن باديس)

صالح (بن غزف) = الم غزافي (ت: ١٧٥ هـ)

١٨٣

صالح بن علي ١٩١

صالح بن منصور الحميري (ت: ١٣٠ هـ): ٩٠

صالح بن أبي صالح بن عبد الحليم أبو علي ٢٠

٢١

صبيح (الشكبة): ٢٨٩، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٤

٤٠٢

الصفدي = خليل بن أبيك

أم صفوان (حاكم الفخر الأعلى): ٢١٤

صلاح الدين الأيوبي (يوسف بن أيوب ت: ٥٨٩

هـ: ١٧٣، ١٩٩، ١٩١، ٢٢٤، ٢٢٦، ٢٢٧

الصميلي بن حاتم (ت: ١٤٢ هـ): ٢٨٤، ٢٨٥

٢٨٧، ٢٩٠، ٣٠٥، ٣١٣، ٣٩٨

أبو سعيد الحناني ١٤٩، ١٥٠

سعيد اليحصي (المطري): ٣٠١

سعيد بن جوني: ٣٥١

سعيد بن الحفاد أبو عثمان: ١١٢، ١٤٣

سعيد بن منفر: ٣٦٠

سعيد بن هليل المولود: ٣٥٥

سعيد بن أبي هتد: ٣١٠

أبو سعيد فرج: ٤٤٩

سفيان (داع اختاره شهر بن حوشب) ١٣٩

سقوط البرغواني: ١٩١

ابن سكر = أبو علي الصدفي

سكن بن إبراهيم الكاتب: ٢٤٥

سليمة بن سعيد: ١١٥

أبو سليمة الخلال (وزير لك محمد): ١٣٩

ابن السليم = محمد بن سعيد

سليم بن منصور: ١٣٥، ١٦٦

سليمان (عليه السلام): ٢٧١

سليمان (عم الحكم بن هشام): ٣١٤

سليمان (ابن عم محمد بن إمرئ القيس الثاني): ٢٣٠

سليمان بن حمير: ١٢٧

سليمان بن عبد الرحمن الداخل: ٣٠٩، ٣١١

سليمان بن عبد الله: ١٢٥

سليمان بن عبد الملك الأموي (ت: ٩٩ هـ): ٦٣

٦٤، ١٤٦، ٢٧٥، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٨

٢٩٩

سليمان بن عمر بن حفصون: ٣٥٧

سليمان بن محمد بن هود الجذامي أبو أيوب (ت: ٤٣٨ هـ): ٤٢٤

سليمان بن هشام السعدي: ٤٠٨، ٤١٠، ٤١٣

سليمان بن يثقلان الكشي الأعرابي: ٣٠١، ٣٠٢

سماحة بن عبد الرحمن بن مطرف: ٣٩٩

السمح بن مالك الحولاني (ت: ١٠٢ هـ): ٢٨٠

٢٩٢

منصور (أشعث): ٢٧١

سوار بن حمدون القيسي الحارثي (ت: ٢٧٧ هـ)

٣٥٢، ٣٥١

## ض

الضبي - أحمد بن يحيى بن أحمد  
ضياء الدولة بن منقوش : ١٩٩

## ط

طارق بن زياد الوردجي (ت : ١٠٦ هـ) : ٤٤  
٦٦ - ٦٣ - ٦٥ - ٧٩ - ٢٦١ - ٢٦٨ - ٢٧٥

٢٩٢

طالوت بن عبد الحار . ٣٢٠

طاروس بن كيسان (ت : ٩٠٦ هـ) : ٣٠٩

طرفة الصقلي : ١١٥

طروب (خارية عبد الرحمن) : ٣٣٨

طريف بن زرقعة بن أبي مبرك : ٣٦٩ ، ٦٣

أبو طليل (محمد بن عبد الملك ، ت : ٥٩٩ هـ) : ٢٣٥

طه (أم أروبة الثالث) : ٣٦٧ - ٣٧٠

## ع

العدل - أبو عبد الله محمد

عاصم بن جميل : ٧٩

عاصم بن زياد أبو الحش : ٣١١

أبو عاصم : ٤٥٥

أبو عائشة - محمد بن يونس بن ثاقب

عباد بن محمد بن إسماعيل أبو عمر المنقش (ت : ٤٦١ هـ) : ٤٦٧ ، ٤٦٧

عباس بن عبد البر بن القريش : ٣٤٤ ، ٣٤٧

عباس بن فرياس (ت : ٦٧٤ هـ) : ٣٣٥ ، ٣٣٥

أبو العباس بن إبراهيم بن الأغلب : ٩٩ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٤٣

أبو العباس بن دكران : ٤٠٦ ، ٤١٠ ، ٤١٢

أبو العباس السعاح : ٤٠٢

أبو عباس عبد الله : ١٠٧٠

أبو العباس محمد بن الأغلب : ١٠٩

أبو العباس محمد بن أبي مقال : لأغلب : ١٠٥

أبو العباس الحظوف : ١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٤٦

عبد الأهل بن المسح العسافى أبو الخطاب (ت : ٤٧٦ هـ)

١٤٤ هـ : ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٧ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٨٣ ، ١٤٢

عبد الحافظ شامي : ٢٤٩

عبد الحلق المروسي المصور أبو يوسف : ٤٤٩ ، ٤٤٧

أبو عبد الحليم : ٢١

عبد الحميد بن قاسم : ٢٩٩

عبد الحميد الكتائب (ت : ١٣٩ هـ) : ٣٣٩

عبد الرحمن الأمير : ٣٢٥

عبد الرحمن الشامي بن الحكم (ت : ٢٣٨ هـ) : ٣٢١ ، ٣٢٨ ، ٣٢٢ ، ٣٢٥ ، ٣٢٣

٣٣٦ ، ٣٤٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٤ ، ٣٣٢

عبد الرحمن الثقفي : ٣١٢

عبد الرحمن بن حبيب الصوري (ت : ١٦٢ هـ) : ٧٦ ، ٧٩ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ١١٥ ، ١٢٤ ، ١٢٧

٣٨٨

عبد الرحمن بن رستم (ت : ١٧١ هـ) : ٧٩ ، ٧٢

٨٠ ، ٨٧ ، ١١٥ ، ١١٨ ، ٣٢٤ ، ٣٢٧

عبد الرحمن شحول : ٤٠٦ ، ٤٠٨

عبد الرحمن (بن عبد الله) بن عبد الحكم (ت : ٤٥٩ هـ) : ١٦ ، ١٧ ، ٥٠

عبد الرحمن بن عبد الله العافقي (ت : ١١٤ هـ) : ٢٨٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٧

عبد الرحمن علي الحجي : ٢٤٥

عبد الرحمن بن عمرو بن حصرون : ٣٥٧

عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي (ت : ١٥٧ هـ) : ٨٥ ، ٣٠٩

عبد الرحمن بن القاسم (ت : ١٩١ هـ) : ٣٠٩

عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله ناصر بن عبد الله

(ت : ٣٥٠ هـ) : ١٤٩ ، ١٥١ ، ١٩١ ، ١٤٢

٢٤٥ ، ٣١١ ، ٣٢١ ، ٣٣٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٢

٣٤٧ ، ٣٥١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٢

٤٠٢ ، ٤٠٦ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١٦

٤١٩ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٦ ، ٤٢٩

عبد الرحمن بن مروان الحطيفي : ٣٤٨ ، ٣٤٢

٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٢ ، ٣٦٤ ، ٣٨٠

عبد الرحمن بن مطرف النجدي : ٣٩٧

عبد الرحمن بن مسارية بن هشام الداحل (ت : ٤٧٦ هـ)

عبد الله بن عمرو بن العاص (ت ٦٥ هـ) ٣٥  
عبد الله بن هاشم ٨٦  
عبد الله بن فاطمة أبو محمد ١٣٣  
عبد الله بن فروخ الظارسي (ت ١٧٦ هـ) ٨٦  
عبد الله بن كليب ٣٢٤  
عبد الله بن عبد الواحد بن أبي حفص (ت ٦٦٦ هـ) ٢٣٠  
عبد الله بن محمد الخليلي ٣٦٤  
عبد الله بن محمد بن إدريس ١٣٠  
عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط (ت ٣٠٠ هـ) ٣٥١، ٣٥٠، ٣٢١  
عبد الله بن محمد بن غنية ٢٩٨  
عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر (ت ٤٠٣ هـ) ٢٤٧، ٢٤٥، ٢٥١، ٢٦١  
عبد الله بن المنصور (ت ١٢٢ هـ) ٣٣٩  
عبد الله بن النعمان الكنتاسي ٢٩٩  
عبد الله بن المهدي ٣٧٠، ٣٧٢  
عبد الله بن ياسين الخزرجي (ت ٢٥ هـ) ١٢٢  
١٨٣-٩٨٦، ٩٩٠، ٩٩٠، ٩٩٠، ٩٩٠، ٩٩٠  
عبد الله بن يوسف ٣٧٦  
أبو عبد الله محمد الثالث ٤٤٨  
عبد الملك بن حبيب (ت ٢٣٨ هـ) ٣٣١  
عبد الملك بن شهيد أبو مروان ٣٩٩  
عبد الملك بن عاصم الصلاة أبو مروان ٣٣٧  
عبد الملك بن لطف الفهري (ت ١٣٣ هـ) ٧٤  
٣٨٠-٢٩٧، ٢٩٨  
عبد الملك بن مروان بن الحكم (ت ٨٦ هـ) ٣٥  
٤٨-٤٧، ٤٨-٥٧، ٦٠-٦٩، ٣٠١  
عبد الملك المراكشي - محمد بن محمد بن عبد الملك  
عبد الملك الظاهر بن منصور ٤٠٦، ٤٠٥  
عبد المؤمن بن علي الكومي (ت ٥٥٨ هـ) ١٧٤  
٢٠٠، ٢٠٥، ٢٠٩، ٢١٣، ٢١٦  
٢١٨-٢٢٢، ٢٢٦، ٢٣٦، ٢٣٨  
عبد الواحد بن عمرو بن حمص البستاني (ت ٦١٨ هـ) ٣٣٠  
عبد الواحد بن علي المراكشي (ت ٦٤٧ هـ) ٢٥٤، ٢٠٦، ٢٠٥

١٦٢٢ هـ) ٢٧٨، ٢٥٣، ٢٧٨، ٣٨٥، ١٨٧  
٢٩١، ٢٩٨-٣٠٥، ٣٠٧، ٣٠٩، ٣١٠  
٣١٣، ٣٢٧، ٣٤٣، ٣٦٣، ٣٩٨  
عبد الرحمن بن المنصور المأمون ٤٠٦  
أبو عبد الرحمن بن معاوية ٢٨٨  
عبد السلام بن سعيد (تحتوي) (ت ٢٤٠ هـ) ٣١٩، ١١٣، ٣١٩  
عبد السلام بن عبد الله ٢٩٩  
عبد العزيز الموزي ٢١٥  
عبد العزيز بن عبد الرحمن المنصور العامري (ت ٤٥٢ هـ) ٤٢٣  
عبد العزيز بن عبد الرحمن الناصر ٣٨٨  
عبد العزيز بن مروان (ت ٨٥ هـ) ٥٨، ٥٧، ٦٠  
عبد العزيز بن موسى بن بصير (ت ٥٧٠ هـ) ٢٧٣، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٨، ٢٩١  
عبد الكريم بن عبد الواحد بن ميثم ٣٢٦، ٣٢٣، ٣٩٤، ٣٩٧  
أبو عبد الله اللخمي ٢٣٩  
عبد الله البرقي (الأمير) (ت ٣٥٤ هـ) ٣١١، ٣١٥، ٤١٨، ٤٣١  
عبد الله (عم الحكم بن هاشم) ٣١٤  
عبد الله (بن عبد الرحمن الأوسط) ٣٣٨  
عبد الله بن إمام الشيعي (ت ٨٦ هـ) ٧٢٠، ١١٥  
عبد الله بن مازين أبو محمد ٤٣٧  
عبد الله بن أبي الخلود ١١٣  
عبد الله بن خالد ٢٨٨  
عبد الله بن حراسان ٢١٩  
عبد الله بن الزبير (ت ٧٣ هـ) ٤٧، ٤٦، ٣٥  
عبد الله بن سعد بن أبي سرح (ت ٣٧ هـ) ٣٥، ٣٦  
عبد الله بن السائب ٣٥٥  
عبد الله بن طاهر بن عبد الكوي ٢٢٩  
عبد الله بن أبي عامر ٤٠٨  
عبد الله بن عبد المؤمن ٢٩٩  
عبد الله بن عبدويه بن الجارود ٩٠، ٨٨  
عبد الله بن عمرو بن الخطاب (ت ٧٣ هـ) ٣٥

- عبد الواحد بن معيت الرومي ٢٩٩، ٣٠٠  
عبد الواحد بن يزيد الهواري (ت: ١٢٤٠ هـ) ٧٥٠  
عبد الوارث بن حبيب ٧٩٠  
عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم (ت: ٩٠٠ هـ) ١١٩، ١١٨  
عبد (لم عبد الرحمن المنصور) ٤٠٩  
أبو عبيد البكري (عبد الله بن عبد العزيز، ت: ٤٨٧ هـ) ١٦٠٤  
عبد الله بن الحجاب (ت: ١٢٣٠ هـ) ٧٤، ٧٣٠  
١٠٩  
عبد الله بن زياد (ت: ٦٧ هـ) ٦٧٠  
عبد الله بن عثمان أبو عثمان ٢٨٨٠  
عبد الله (بن محمد) المهدق الفاطمي (ت: ٣٢٢ هـ) ١٤٨، ١٤٣، ١٣١  
عبد الله بن محمد بن أبي صعد ٣٥١  
عبيد بن عبد الرحمن السلمي (ت: ١١٤ هـ) ٢٩٧  
أبو عبيدة بن الجراح (عاصم بن عبد الله، ت: ٢٧٥ هـ) ١٨  
عثمان بن عبد المؤمن أبو سعد: ٢١٧، ٢١٨  
عثمان بن أبي سعة ٣١٢  
عثمان بن عفان (ت: ٣٥ هـ) ١١٩، ٣٧، ٣٥  
عثمان بن أبي العلاء أبو سعيد المريسي (ت: ٧٣٠ هـ) ٤٥١، ٤٤٩  
أبو عثمان سعيد بن الحجاج ١١٢  
أبو حذاري (محمد المراكشي، ت: ١٧٣ هـ) ١٤، ١٦، ١٩، ٢٠، ١٤٧، ١٥٥، ١٨٤، ١٨٥، ٢٤٩، ٣٠٥، ٣٣٠، ٣٥٢، ٣٧٦، ٣٧٧، ٤٤٠، ٣٧٩  
مفردة بن عبد الله القهري ٢٩٤  
العزير بن بالله الفاطمي (نزار بن معد، ت: ٣٨٩ هـ) ١١٤، ١١٥، ١١٧  
عزير بن أبي مروان خطاب ٤٤١  
العزير بن المنصور (ت: ٥٤٠ هـ) ١٧٣  
أبو عطاء الأزد ٣٥٥  
عقبة بن الحجاج السلوي (ت: ١٢٣٠ هـ) ٢٩٨  
عقبة بن تابع (بن عبد قيس) القهري (ت: ٦٣ هـ)
- ١٥، ٢٠، ٢١، ٣٧، ٤٨، ٧٧، ٧٨، ٢٩٤، ٢٩٣، ٢٣٥، ١٢٦، ١٠٨، ١٠٥  
عكاشة بن أيوب القزاري ٧٥  
علاء بن ميثم الجعفي (ت: ١٤٦ هـ) ٣٠١  
أبن علقمة (محمد بن الحنفية، ت: ٥٠٩ هـ) ٢٣٠  
علي بن أحمد بن حرم (ت: ٤٥٦ هـ) ٢٥١، ٣١٨  
علي بن أشقيلة أبو الحسن ٤٤٤  
علي بن يسام الشيريني (ت: ٥٥٢ هـ) ٢٤٦  
علي بن شيم بن المزم: ١٧٢  
علي بن حفص الأسكندراني ٣٧٦  
علي بن الحارث (زين العابدين، ت: ٩٤ هـ) ١٣٦  
علي بن حفصون الرافعي (ت: ٣٣٤ هـ) ١٤٨، ١٥٥  
علي بن حمود (ت: ٤٠٨ هـ) ١٤٣  
علي بن رباح ٢٧٣، ٢٧٢  
علي بن عثمان المريسي أبو الحسن (ت: ٧٥٢ هـ) ٤٥٢  
علي بن عمار بن إدريس (ت: ٧٠٠ هـ) ١٣٠، ١٣١  
علي بن عاتبة ٢٢٦، ٢٢٥  
علي بن داود زوياب  
علي بن محمد بن الأثير (ت: ٦٣٠ هـ) ١٥، ٣٠٢، ١٦  
علي بن يحيى بن تميم (الصنهاجي، ت: ٥١٥ هـ) ١٥٤  
هنا بن يوسف بن نائين (ت: ٥٣٧ هـ) ١٩٩  
١٠٠، ٢١٣، ٢١٥، ٢١٤، ٢٣٣، ٢٣٥  
أبو علي الصمعي (ابن سكرة) ١٣٥، ١٣٤  
همد بن إبراهيم بن نرهوت ١٩٢  
همد بن إدريس (ت: ٢٦٠ هـ) ١٣١  
همد بن حفص (بن عثمان) بن قبيصة (ت: ١٥٤ هـ) ٨٧  
همد بن حفصون (ت: ٣٥٠ هـ) ٣٥٣، ٣٤٩  
٣٥٥، ٣٥٨، ٣٨٠  
همد بن الخطاب (ت: ٢٣ هـ) ١١٧، ١٢٩  
همد بن عبد العزيز (ت: ١٠١ هـ) ٨١، ٦٩  
٢٧٩، ٢٨٠، ٢٩٢

عمر بن عبد الله (عمر أرتاج ، ت ١٥٤ هـ) : ٢٢٠  
عمر بن لقيصة أبو حصص الملهبي . ٨٦ ، ٨٢ ، ١٠٧  
عمر بن محمد الأنطس للثوكل ( ت : ٤٨٩ هـ ) :  
٤٣٠

عمر بن واثل بن لمونة ١٨٤

عمران بن معاذ الربيعي ٩٦

عمرو بن بحر الجاحظ ( ت : ٢٥٥ هـ ) ٣٣٩

عمرو بن الحارث ( ت : ٤٣ هـ ) ٣٥ ، ٣٤ ، ١٥

٣٨ ، ٥١ ، ٦٦ ، ٢٧٥

عمروس ٣٢٠

عنبير ٤١٢

عيسى بن مسيم الكلي ( ت : ١٠٧ هـ ) ٣٧٩

٢٩٢ ، ٢٩٣

عياض بن موسى البقمي ( ت : ٥٤٤ هـ ) ١٦

٢٤٩

عيسى بن أحمد بن محمد الرازي ( ت : ٣٧٩ هـ )

١٥٠ ، ٢٤٥

عيسى بن الحسن بن أبي هبة ٣٤٤ ، ٣٤٧

عيسى بن ميسار ( ت : ٢١٢ هـ ) ١٠ ، ٣٢٠

٣٣١

عيسى بن سعيد بن القطاع ( ت : ٣٩٧ هـ ) ٤٠٥

عيسى بن شهيد ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٣٩

٣٤٤ ، ٣٧٩

عيسى بن محمد بن إدريس ١٣٠

عيسى بن مكي ١١٢

عشور بن سليمان بن يقظان الأعرجي : ٣٠٢

٣٠٢

عشابة بن عبد الرحمن التامري : ٣٦٩ ، ٣٦٨

٣٧٤ ، ٣٨٦ ، ٣٨٨ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣

أبو غالب الأحملي ( إبراهيم بن عبد الله ، ت ٣٦٠ هـ )

١٠٣ ، ١٠٢

عوسية ( ملك ناعار ) ٣٤٩٠

عوسية سانشو الأول : ٣٦٩ ، ٤٣١

عوسية غوس ٢٤٤

عوسية بن واثلانت ٣٩٧

غزوية بن يوسف ١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٤٧

غوس بن أنطيان ٣٢٦

غيث بن غوث الأخطل ( ت ٩٠ هـ ) : ٣٣٩

غيظبة ٢٤٦ ، ٣١٢

غيلان بن عقبة ( دوالمة ، ت ١١٧ هـ ) : ٣٣٩



غائق الصقلي ٣٩٠

فاطمة بنت محمد : ١٤٥ ، ٣٠١

فاطمة بنت محمد الفهري ( أم البين ، ت ٢٦٥ هـ )

١٣١ هـ

الفتح بن زنون ( ذي النون ، ت ٢٠٣ هـ ) ٣٥٤

٣٩١

الفتح بن دوناس ( ت : ٤٥٧ هـ ) ١٨٢

فرتون ( البير ) : ٣٧٤ ، ٣٥٩

أبو الفرج الأصبهاني ( علي بن الحسين ، ت ٣٥٦ هـ )

٣٨٣ هـ

أمين المرضي = عبد الله بن محمد بن يوسف

فران كونال ٣٦٨

فرناندو ٥٤٤

فرناندو ثالث ٣٦٩

فرناندو الأول ٤٣٦ ، ٤٣٨ ، ٤٤٥

فرناندو الثالث الفديس : ٤٤١ - ٤٤٤

فرناندو الثاني ٢٢١

فرناندو الرابع ٤٤٤

فرسيسكو كودرا ٢٥٠

فرويل ٣١٣

فرويل الثاني بن الفوسو الثالث ٣٦٦ ، ٣٦١

الفضل بن روح بن حاتم ( ت ١٧٨ هـ ) : ٨٨

٩٠

فلفل بن سعيد الفراوي الزناني ١٦٥٠

فلورا ( رابع ) ٣٢٥

فلوريت ( الأب ) : ٢٥٥ ، ٢٥٧

أبو فخر الأعلى ١٠٣

أبو الفهم الخراساني ١٥٩

غلب الثاني ٢٤٣

غلب الرابع ٤٥٥

غلب ديونيو دي لارا ٤٤٥

يما والفوربرت ٣٦٢

فيس ( بوليفيوس ) : ( ١٠١٠ ، ١٠٢٠ )



القاهر = يحيى حميد المأمون بن ذي النون  
قارون ٤٢٩

قاسم بن أصبغ البجلي ( ت : ٣٤٠ هـ ) ٣٨٠

القاسم بن حمود ( ت : ٤٣١ هـ ) : ٤١٣ ، ٤١٧ ، ٤٢٧

القاسم بن محمد بن إفرس = الحسن بن كنون  
القاسم بن الوليد ٣٥٩

الثلاث بن حماد ( بن بلكون الصنهاجي ، ت : ٤٤٦ هـ ) : ١٧٢

ابن القصورنة = أبو بكر

قتيبة بن مسلم الناهلي ( ت : ٩٦ هـ ) : ٤٨ ، ٤٦ ، ٦٤

ابن قتيبة الدينوري ( أحمد بن عبد الله ، ت : ٣٧٦ هـ ) : ١٧

القداح : ١٤٥

الفرطاس - زكري بن معوية الفراءى

أبو قرة البصري المصلي الزناني : ٧٧ ، ٨٩ ، ١٣٣  
ابن قزمان ( محمد بن يحيى ، ت : ٥٥٥ هـ ) : ٣٤٠

قرمان الطبيب : ٤٤٧

ابن القطان : ٢٠٥ ، ٢٠٦

قندو ٣٨١٠

ابن القوقبة - محمد بن عمر أبو بكر

قوس الأندلس = أوطاس بن مبطنة

قيس عيلان بن مضر : ١٦٦ ، ١٧٦



كافور الإخشيدى ( بن عبد الله ، ت : ٣٥٧ هـ ) : ١٤٩ ، ١٥١

الكالادى هنافس ٢٧١

كريم بن خلدون : ٣٥١

كسيلة بن لزم : ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٩ ، ١٢٦

كلثوم بن عياض التميمي ( ت : ١٢٣ هـ ) : ٧٤

كنزة ( حارية ) : ١٧٨

كروفا دوما ٣٤١ ، ٣١٢

كروميو متيك ٤٠٠

كيتجاس دي أونيس ٢٧٥



لاخاليا خونيكاز ٢٩١

لافونش الكاتارا ١٧ ، ٢٤٦

لاماركا هيسانيكا ٢٩٨ ، ٢٢٥

لبس بن طريضة ٣٥٩

ابن لبدة أبو عمر = محمد بن يحيى

اللبغياتي = ابن عبد الله

لديريك : ٢٦٩ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٣١٢

لسان الدين = المقرئ

لوقا الودي ٢٥٥

لويس النقي : ٣٢٤

لويس الثالث عشر ٤٠٣

لويس ليدلي تشار : ١٥

الليث بن سعد ( ت : ١٧٥ هـ ) : ٩٧٠ ، ٣٠٩

لبيس برونسال ١٥ ، ٢٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٣٨٢

لي ( مؤرخ إنجليزي ) : ٤٥٥



ماركوس مفر ٢٥٢

مارية اللبوية ٣٦٤

ماسبيسا ٢٩

ماكسن بن زيري بن عطلة ٢٩ ، ١٦٠ ، ٢٣٠

مائلن س ( ت : ١٧٩ هـ ) : ٨٣ ، ٨٦ ، ١٠٦

١١٣ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣٣٠ ، ٣٣٨ ، ٣٨٧

المأمون المباسي ١٣٥ ، ١٤٤

المأمون بن ذي النون ( زوي ) : ١١٤ ، ١١٦

المونكل بن الأطلس : ١٩٦ ، ٢٣١

أبو للمحاسن - يوسف بن بقرى بدي

ابن محرز ١٠٦

محسن بن الفاتد بن حماد ( ت : ٤٤٧ هـ ) : ١٧٢

محسن بن ماكسن بن زيري : ١٦٠

محمد بن إبراهيم بن حجاج ٣٥٦

محمد بن إبراهيم الكناسي : ٢٥٣	محمد بن عبد الله الزغل : ٤٥٤
محمد الأول بن عبد الرحمن الثاني ( الأوسط )	محمد بن سعيد بن السليم : ٣٧٩ ، ٣٨٠
٣٧٩	محمد بن السليم : ٢٢٨
محمد الأنظر عبد الرحمن أبو يحيى ( ت ٣١٨ هـ ) : ٣٦١	محمد بن سليمان : ٦٥
محمد بن أبي الحسن هلي ( أبو عبد الله ) : ٤٥٤	محمد بن شريعة : ٢٥٢
محمد بن أبي حفص : ٢٢٩	محمد الطائي : ١٦
محمد بن أبي شحر : ٢٥١	محمد بن عبد الرحمن الأوسط : ٢٤٥ ، ٢٣٥
محمد بن أبي عامر ( المنصور ) : ١٥٩ ، ١٥٨ ، ١٦٩	٣٣٩ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٧٣
٢٤٢ ، ٣٨٤ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٢	محمد بن عبد السلام بن بسيل : ٢٢٧
٣٩٣ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨	محمد بن عبد العزيز أبي بكر بن رويش : ١٢٢
٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٩	محمد بن عبد الله : ٣٥٢
٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤١٩	محمد عبد الله عثمان : ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥
٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٦ ، ٤٢٩	محمد بن عبد الله بن لب : ٣٦٥
محمد بن أبي قتال الأظلي : ١٥٠	محمد بن عبد الوهاب العسائي : ١٨٠ ، ١٧٠
محمد بن أحمد بن مفرج : ٣٨٩	محمد بن عبيد الله للهدى أبو القاسم : ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٥
محمد بن إدريس الثاني : ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١	١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٦٥
محمد بن أرتيولش : ٣٥٥	محمد بن عمار أبو بكر : ٤٢٩ - ٤٣١
محمد بن إسحاق بن محمد بن غابة : ٢٦٥	محمد بن فخر بن القوطية أبو بكر : ١٨ ، ٢١٦
محمد بن إسماعيل بن عباد ( أبو القاسم ) : ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤٢٧	٢١٧
محمد بن إسماعيل بن موسى : ٣٥٩	محمد ثعالب بالله : ٤١٧
محمد بن إسماعيل أبو عبد الله المعنى بالله : ٤٥٢ ، ٤٥٣	محمد بن عافية : ٢٢٥
محمد بن أصحى النهماني : ٣٥١ ، ٤٨٠	محمد العمي بالله : ٢٥٣
محمد بن الأشعث : ٨٠ ، ٨١ ، ٨٧ ، ١٠٦ ، ١١٥	محمد بن لشوح بن عبد الله الحميدي ( ت ٤٨٨ هـ ) : ٢٥٠
محمد بن الأخت أبو العباس : ١٠٨	محمد بن فو : ٢٢٤
محمد بن أنح أبو القيعان ( ت ٢٣٨ هـ ) : ١٢٩	محمد بن القاسم الثقفي : ٤٨٠ ، ٦٤ ، ١٠١
محمد الباقر : ١٣٧	محمد القضاي ( أبو عبد الله بن الأبار ) : ٤٣٤
محمد بن ثابت التظواني : ١٩	محمد بن سيد بن قسي ( ت ٢٠٣ هـ ) : ٣٦٦
محمد بن ثابت الطنحي : ٢٥١	محمد بن محمد الإدريسي ( الجعراي ) : ١٥٠
محمد بن ثومرت ( ت ٥٣٤ هـ ) : ١٩٩ ، ١٩٢ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧	محمد بن محمد الطوسي الجعراي ( ت ٥٠٥ هـ ) : ١٩٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤
٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٩ ، ٢٢٠	محمد بن محمد بن نصر ( الثاني ) - محمد الفقيه : ٤٤٥ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨
٢٢٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨	محمد بن مزدي بن منكاي : ١٩٩ ، ٢٣٣
محمد بن الحسن : ٣٦٥	محمد الكوسى : ٢٢٤
محمد بن سعد بن مردوش : ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢١	محمد للمز بالله : ١٥٨
٢٢٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٤٤٦	



- محمد بن مقاتل العنكبى العباسى . ٨٧ ، ٩٢ ، ٩٤  
 محمد بن ميمون أبو عبد الله ٤٣٤  
 محمد بن الناصر بن أبي يوسف ٢٢٨ ، ٢٣٩ ، ٤٤٠  
 محمد بن نصر الأحمر ٢٣٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦  
 محمد بن نصر ( السنانى بالله ) ٤٤٥ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨  
 محمد بن هشام = أبو يحيى . ٣٦١ ، ٣٦٨  
 محمد بن هشام بن عبد الجبار . ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤١٠ ، ٤١٢ ، ٤١٦  
 محمد بن وساح ٢٣١  
 محمد بن يحيى القنطاط ٣٣٩  
 محمد بن علي الرضا ٤٠٨  
 محمد بن يوسف بن أحمد بن نصر ( الشيخ ) ٤٤١  
 محمد بن يوسف بن تاشقون أبو عبد الله ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥  
 محمد بن يوسف بن نصر الأحمر . ٤٤٣ ، ٤٤٤  
 محمد بن يوسف بن هود الخراساني المتوكل ٤٤١ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤  
 محمد بن يوسف الورواق ( ت ٣٩٢ هـ ) : ١٩ ، ٣٩٤  
 أبو محمد البشير ٢٠٩  
 أبو محمد الخصى ٢٢٩  
 أبو محمد بن قادس ٤٣٢ ، ٤٤٠  
 محمود صبح ٢٤٥  
 محمود علي مكي . ١٧٠ ، ١٨٠ ، ٢٤٥  
 محيي الدين عبد الحميد ٢٤٧  
 محيي الدين بن عربي . ٢٣٥  
 أبو المنصور = عاصم بن زيد  
 محمد بن كيداد أبو يزيد . ١١٩ ، ١٤٩ ، ١٥٠  
 مركاتور ( الخمراني ) ١٠٥  
 مروان بن الحكم : ٤٦ ، ٢٠٤  
 مروان بن عبد الملك : ٣٦٤  
 مروان بن محمد الجعدي ( الأموي ) ٧١ ، ٢٩٩  
 مروان بن موسى بن نصير ٦١ ، ٢٣  
 أبو مروان بن أبي الخصال ٦٦٥
- أين مزدي أبو محمد ١٢٣  
 مزدي بن سلكان ٤٣٣  
 المستعين بن هود ٤٢٤  
 المستنصر القاطم : ١٩٧  
 المستنصر بالله الأموي . ١٥٨  
 المستنصر بن حمزون ١٧١  
 المستنصر الحكيم بن عبد الرحمن  
 المستنصر يوسف بن محمد الناصر  
 سمعون وأودين ١٨٥  
 أبو مسلم الخراساني ٨٤  
 سلمة بن مخلد الأنصاري . ٤٩ ، ٤٢  
 السج . ٢٦٧  
 عصاة بن حموس الكناسي ١٣١ ، ١٤٨ ، ١٨٠ ، ٣٧٠ ، ٣٧١  
 مصطفى السقا ٢٤٩  
 أبو نصر زيادة الله الثالث ١٤٣  
 مطرف بن عبد الرحمن بن حبيب ٣٣١ ، ٣٣٢  
 مطرف بن لب بن موسى القنوي ١٦١ ، ٣٥٩  
 مطرف بن منذر النجاشي : ٣٦٧ ، ٤١٧ ، ٤٢٩  
 مطروح بن سليمان بن يظفك الأعرابي ٣٠٢  
 مظفر بن الأنطس : ٤١٧ ، ٤٢٩  
 معاذ الصيرى ١٧٠  
 معاوية بن خديج السكوني . ٣٧ ، ٣٨  
 معاوية بن أبي سفيان : ٣٤ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٥٨  
 معاوية بن هشام الشيباني ٢٤٥  
 معاوية بن هشام بن عبد الملك ٢٨٧  
 معاوية بن يزيد ( الثاني ) ٤٦  
 ابن المعتز ٣٣٩  
 المعتصم ١١٣  
 المعتصم ٤١٧ ، ٤٢٩  
 المعتد بن عباد ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢٥٩ ، ٢١٨ ، ٢٢٩ ، ٤٣٢  
 معد أبو جهم المازني الله ( ت ٣٦٥ هـ ) ١٤٩ ، ١٥١ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٦١ ، ١٦٥  
 معد ١٦٧  
 معد بن يونس بن أبي الفتح ( ت ٤٥٤ هـ ) ١٥١ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٧٠ ، ١٧٦ ، ١٧٧

١٦٨٠، ١٦٦٨، ١٦٤١، ١٦٣٥، ١٦٣٢، ١٦٢٨، ١٦١٠ -

٢٧٥، ٢٧٨، ٢٨٨، ٢٩٢، ٢٩٦، ٢٩٨ -

٢٩٥، ٢٩٩، ٣٠٠ -

٣١٣، ٣١٦، ٣١٩، ٣٢٢، ٣٢٥، ٣٢٨ -

٣٢٩، ٣٣٢، ٣٣٥، ٣٣٨ -



٣٣٩، ٣٤٢، ٣٤٥، ٣٤٨، ٣٥١، ٣٥٤ -

٣٥٦، ٣٥٩، ٣٦٢، ٣٦٥، ٣٦٨، ٣٧١ -

٣٧٤، ٣٧٧، ٣٨٠، ٣٨٣، ٣٨٦ -

٣٩١، ٣٩٤، ٣٩٧، ٤٠٠، ٤٠٣، ٤٠٦ -

٤٠٩، ٤١٢، ٤١٥، ٤١٨، ٤٢١ -

٤٢٤، ٤٢٧، ٤٣٠، ٤٣٣، ٤٣٦، ٤٣٩ -

٤٤٢، ٤٤٥، ٤٤٨، ٤٥١، ٤٥٤، ٤٥٧ -

٤٥٩، ٤٦٢، ٤٦٥، ٤٦٨، ٤٧١، ٤٧٤ -

٤٧٧، ٤٨٠، ٤٨٣، ٤٨٦ -

٤٨٩، ٤٩٢، ٤٩٥، ٤٩٨، ٥٠١، ٥٠٤ -

٥٠٦، ٥٠٩، ٥١٢، ٥١٥، ٥١٨، ٥٢١ -

٥٢٤، ٥٢٧، ٥٣٠، ٥٣٣، ٥٣٦ -

٥٤١، ٥٤٤، ٥٤٧، ٥٥٠، ٥٥٣، ٥٥٦ -

٥٥٩، ٥٦٢، ٥٦٥، ٥٦٨، ٥٧١، ٥٧٤ -

٥٧٧، ٥٨٠، ٥٨٣، ٥٨٦ -

٥٨٩، ٥٩٢، ٥٩٥، ٥٩٨، ٦٠١، ٦٠٤ -

٦٠٦، ٦٠٩، ٦١٢، ٦١٥، ٦١٨، ٦٢١ -

٦٢٤، ٦٢٧، ٦٣٠، ٦٣٣، ٦٣٦ -



٦٣٩، ٦٤٢، ٦٤٥، ٦٤٨، ٦٥١، ٦٥٤ -

٦٥٦، ٦٥٩، ٦٦٢، ٦٦٥، ٦٦٨، ٦٧١ -

٦٧٤، ٦٧٧، ٦٨٠، ٦٨٣، ٦٨٦ -

٦٨٩، ٦٩٢، ٦٩٥، ٦٩٨، ٧٠١، ٧٠٤ -

٧٠٦، ٧٠٩، ٧١٢، ٧١٥، ٧١٨، ٧٢١ -

٧٢٤، ٧٢٧، ٧٣٠، ٧٣٣، ٧٣٦، ٧٣٩ -

٧٤١، ٧٤٤، ٧٤٧، ٧٥٠، ٧٥٣، ٧٥٦ -

٧٥٩، ٧٦٢، ٧٦٥، ٧٦٨، ٧٧١، ٧٧٤ -

٧٧٧، ٧٨٠، ٧٨٣، ٧٨٦، ٧٨٩، ٧٩٢ -

٧٩٤، ٧٩٧، ٨٠٠، ٨٠٣، ٨٠٦، ٨٠٩ -

٨١٢، ٨١٥، ٨١٨، ٨٢١، ٨٢٤، ٨٢٧ -

٨٢٩، ٨٣٢، ٨٣٥، ٨٣٨، ٨٤١، ٨٤٤ -

٨٤٦، ٨٤٩، ٨٥٢، ٨٥٥، ٨٥٨، ٨٦١ -

٨٦٣، ٨٦٦، ٨٦٩، ٨٧٢، ٨٧٥، ٨٧٨ -

٨٨١، ٨٨٤، ٨٨٧، ٨٩٠، ٨٩٣، ٨٩٦ -

٨٩٩، ٩٠٢، ٩٠٥، ٩٠٨، ٩١١، ٩١٤ -

٩١٦، ٩١٩، ٩٢٢، ٩٢٥، ٩٢٨، ٩٣١ -

٩٣٣، ٩٣٦، ٩٣٩، ٩٤٢، ٩٤٥، ٩٤٨ -

٩٥١، ٩٥٤، ٩٥٧، ٩٦٠، ٩٦٣، ٩٦٦ -

٩٦٩، ٩٧٢، ٩٧٥، ٩٧٨، ٩٨١، ٩٨٤ -

٩٨٦، ٩٨٩، ٩٩٢، ٩٩٥، ٩٩٨، ١٠٠١ -

١٠٠٣، ١٠٠٦، ١٠٠٩، ١٠١٢، ١٠١٥، ١٠١٨ -

١٠٢٠، ١٠٢٣، ١٠٢٦، ١٠٢٩، ١٠٣٢، ١٠٣٥ -

١٠٣٧، ١٠٤٠، ١٠٤٣، ١٠٤٦، ١٠٤٩، ١٠٥٢ -

١٠٥٤، ١٠٥٧، ١٠٦٠، ١٠٦٣، ١٠٦٦، ١٠٦٩ -

١٠٧١، ١٠٧٤، ١٠٧٧، ١٠٨٠، ١٠٨٣، ١٠٨٦ -

١٠٨٩، ١٠٩٢، ١٠٩٥، ١٠٩٨، ١١٠١، ١١٠٤ -

١١٠٦، ١١٠٩، ١١١٢، ١١١٥، ١١١٨، ١١٢١ -

١١٢٣، ١١٢٦، ١١٢٩، ١١٣٢، ١١٣٥، ١١٣٨ -

١١٤٠، ١١٤٣، ١١٤٦، ١١٤٩، ١١٥٢، ١١٥٥ -

١١٥٧، ١١٦٠، ١١٦٣، ١١٦٦، ١١٦٩، ١١٧٢ -

١١٧٤، ١١٧٧، ١١٨٠، ١١٨٣، ١١٨٦، ١١٨٩ -

١١٩١، ١١٩٤، ١١٩٧، ١٢٠٠، ١٢٠٣، ١٢٠٦ -

١٢٠٩، ١٢١٢، ١٢١٥، ١٢١٨، ١٢٢١، ١٢٢٤ -

١٢٢٦، ١٢٢٩، ١٢٣٢، ١٢٣٥، ١٢٣٨، ١٢٤١ -

١٢٤٣، ١٢٤٦، ١٢٤٩، ١٢٥٢، ١٢٥٥، ١٢٥٨ -

١٢٥٩، ١٢٦٢، ١٢٦٥، ١٢٦٨، ١٢٧١، ١٢٧٤ -

١٢٧٦، ١٢٧٩، ١٢٨٢، ١٢٨٥، ١٢٨٨، ١٢٩١ -

١٢٩٣، ١٢٩٦، ١٢٩٩، ١٣٠٢، ١٣٠٥، ١٣٠٨ -

١٣١٠، ١٣١٣، ١٣١٦، ١٣١٩، ١٣٢٢، ١٣٢٥ -

١٣٢٧، ١٣٣٠، ١٣٣٣، ١٣٣٦، ١٣٣٩، ١٣٤٢ -

١٣٤٤، ١٣٤٧، ١٣٥٠، ١٣٥٣، ١٣٥٦، ١٣٥٩ -

١٣٦١، ١٣٦٤، ١٣٦٧، ١٣٧٠، ١٣٧٣، ١٣٧٦ -

١٣٧٨، ١٣٨١، ١٣٨٤، ١٣٨٧، ١٣٩٠، ١٣٩٣ -

١٣٩٥، ١٣٩٨، ١٤٠١، ١٤٠٤، ١٤٠٧، ١٤١٠ -

١٤١٢، ١٤١٥، ١٤١٨، ١٤٢١، ١٤٢٤، ١٤٢٧ -

١٤٢٩، ١٤٣٢، ١٤٣٥، ١٤٣٨، ١٤٤١، ١٤٤٤ -

١٤٤٦، ١٤٤٩، ١٤٥٢، ١٤٥٥، ١٤٥٨، ١٤٦١ -

١٤٦٣، ١٤٦٦، ١٤٦٩، ١٤٧٢، ١٤٧٥، ١٤٧٨ -

مقام الثاني المؤيد ١٥٩، ٣٩٤-٣٩٠، ٤١١، ٤١٠، ٤١٢، ٤١٣، ٤١٧، ٤١٨  
 هشام بن عبد الملك بن مروان (ت ١٢٥ هـ) ٥٩٠  
 ٣٩٨، ٣٠٤، ٢٩٩، ٢٨٨، ٧٥-٧١

خلال بن عامر بن صمعة: ١٦٦، ١٦٨  
 الهنتي = أبو صفص عمرايش  
 هنري فورتل: ١٥٦

هوتو (ملك الصقلية): ٣٨١  
 هوتو (ملك الفرنجة): ٣٨١  
 الهيثم بن عبيد الكلاعي: ٣١٢، ٢٨٠

هبروشوش: ٣٨٤  
 هبر كايه: ٣٨١

## و

واضح العامري: ٤١٠، ٤١٦، ٤١٧  
 واضح (مولى عبد الرحمن الناصر): ١٠٨  
 والبال بن لينة: ١٨١

وجاح بن زلو الملقب: ١٨٤، ١٨٣  
 أبو الوليد إسماعيل (النصري): ٤٤٨  
 الوليد بن عبد الملك: ٤٨، ٨٧، ٩٣، ٢٧٣، ٢٧٤

٢٧٥، ٢٧٧، ٢٨٨، ٢-٤  
 أبو الوليد بن الصرصي = عبد الله بن محمد بن يوسف  
 أم الوليد: ٢٨٨

وليد القاتح: ٣٢٤  
 وهب الله بن حزم: ٣٧٤

## ي

المازوري = الحسن بن علي أبو محمد  
 يحيى بن إسحاق بن غانية الميورقي: ٢٢٩-٢٣١  
 يحيى الأول بن محمد: ١٣٠

يحيى الثالث بن القاسم بن إدريس الثاني: ١٣١  
 يحيى الثاني: ١٣١  
 يحيى الرابع بن إدريس بن علي بن عمر بن إدريس: ١٣١، ٣٧١

يحيى الرباعي: ١٦٨  
 يحيى القادر بن ذي النون: ٤٢١، ٤٢٢، ٤٢٣

يحيى بن عبد الحميد بن منصور بن الناصر: ١٦٤  
 يحيى بن تميم بن المعز: ١٥٤  
 يحيى حفيد النعمان ذي النون: ١٩٤، ١٩٥

يحيى بن سريث: ٢٨٥  
 يحيى بن حاكم الجبال: ٣٣٥، ٣٣٦  
 ٣٤٢، ٣٣٩، ٣٣٧  
 يحيى بن خلف: ٣٧٢

يحيى بن خليفة اللخاني: ١٥٧  
 يحيى بن ذي النون (النعمان): ٤١٩  
 يحيى بن سلام: ١١٢  
 يحيى سماعة - سماعة بن عبد الرحمن  
 يحيى بن عبد الله: ١٢٥  
 يحيى بن علي بن عمود: ٤١٧  
 يحيى بن غالية أبو زكريا (ت ٥٤٣ هـ): ٢٢٤٠، ٢٢٣١، ٢٣٠

يحيى بن الفتح بن دون: ٣٦١، ٣٦٦  
 يحيى بن محمد بن إدريس: ١٢٠  
 يحيى بن معين: ٣٣١  
 يحيى بن موسى بن رنوي: ٣٦٦  
 يحيى بن الناصر أبو زكريا: ٣٢٤

يحيى بن يحيى بن همر بن إدريس الثاني: ١٤٨  
 يحيى بن يحيى الشبي: ٣٣١، ٣٣٠، ٣٢٠  
 يزيد بن إلياس النعبي أبو خالد: ١٢٨  
 يزيد بن حاتم الهلبي: ٨٢، ٨٣، ٨٧، ٩١، ١٠٨  
 يزيد بن أبي مسلم: ٧٠، ٧٣، ٢٧٩  
 يزيد بن معاوية: ٤٣، ٤٩  
 أبو يزيد = مطر مغلد بن كيداه  
 اليعقوب بن ممدار: ١٢٠، ١٤٤  
 يعقوب بن يوسف بن زيري: ١٥٩، ١٦٠  
 يعقوب المنصور أبو يوسف: ٢٢٤، ٢٢٥، ٣٢٧  
 ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٢، ٢٣٧، ٤٣٩  
 القديس يعقوب الحواري: ٤٠٠، ٤٠١  
 أبو يعقوب يوسف (الموحدي): ٢٣٦  
 يعقوب بن عبد الحق أبو يوسف: ٢٣٤، ٤١٦

يوسف بن زيري = يلكن	أبو يعقوب = يوسف بن محمد الناصر
يوسف بن عبد الرحمن النفهري ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٧ ، ٣١٤ ، ٣٩٨	اليمثوي ( الجفرائي ) ٨٩ ، ١٠٥ ، ١١٤
يوسف بن عبد الرحمن النمري أبو عمر ٢١٠ ، ١٥	يعيش / الحاج ٢١٨٠
٢١٥	يليان ٤٤ ، ٦٠
يوسف بن عبد المؤمن حسبي بن إسحاق	يوحنا الخورزبيني ٣٧٣
يوسف بن قاسم أبو الحاج ٢٢٣	يوحنا الشميش ٣٨٦٠
يوسف بن محمد الناصر أبو يعقوب ٢٢٣	يوحنا الكروزي ٣٨١٠
يوسف بن نصر أبو الحاج ٤٥٢	يوحنا ( أسقف ) ٣٨١
يوسف أبو يعقوب ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨	يوسف بن إسماعيل أبو الحاج ٤٤٦ ، ٥٥١
يوسف بن يوسف بن نعت ٣٢٦ ، ٣٢٨	٤٥٢
يوسف بن أبي يوسف عبد الحق المزي ٤١٧	يوسف بن نعت ( ت : ٥٠٠ هـ ) ٢٨٨ ، ٢٨٩
يوليوس ١٠٦	٢٩٩
يونيوج ( راسب ) ٣٢٥	يوسف بن قاشقين : ١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١
يوليان : ٢٦٨ ، ٢٦٩	١٩٢ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩
	٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢١٥ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٣٠
	٤٣١

★★★



أودغست: ١٨١، ٦١	يشتر (جبل): ٣٥٧، ٣٥٦، ٣٥٢، ٣٥١، ٣٤٩
أودية: ٣٧٨	منشنة (مدينة): ١٠٤
أوراس (جبال): ٤٩، ٤٣، ٤٩، ٥٥، ٥١، ١٣٩	بجاية: ١٠٧، ٩٠، ١٧٣، ١٧٤، ٢٠٤، ٢١٨
١٤٢	البحر المتوسط: ٦٣
لورسا: ٢٢٦، ٢٢٦، ١٩٨، ١٨٩، ٩٧، ٣٢، ٢٣٢	بحر الرقاق: ٢٦١، ٤١٢
٢٦١، ٢٦٣، ٢٦٥، ٢٧٥، ٢٩٣، ٣٠٧	البحرين: ١٦٧
٣١٠، ٣١٢، ٣٢٣، ٣٣٧، ٣٤٤، ٣٤٧	البرانس (جبال): ٧٣، ٢٦٤
٣٧٦، ٣٧٨، ٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٤، ٤٠٠	البرماه (وادي): ٢٦٩، ٢٧٠
٤٠٦، ٤٠٣، ٤١٨، ٤٢٤، ٤٣٣، ٤٥٤	بريشتر (بلد): ٢٤٤، ٤٢٥
لورخل (إماردة): ٤٢٨، ٤١٢	بريقال: ٣١٣
أوريكة: ١٨٧	البريقال: ١٩٩، ١٩٨، ٢٢٢، ٢٢٣
أوسمه (مدينة): ٣٨٦، ٣٦٥	٢٤٣، ٢٦١، ٢٦٣، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٤٦
أوليفندو - أيبط	٣١٨، ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٦٥، ٣٩١، ٤١٩
أوكرايا: ٢٦٥	٤٣٨، ٤٤٢، ٤٥٤
لجوربا (جزيرة): ٤١٧، ٤١٤، ٦٤، ٢٦١، ٢٦٣	بريدال: ٢٩١، ٢٩٥
٢٦٤	بريدو = بريدال
إيران: ٤٨، ٥٥، ٦٤	سرسلوة: ١٩٥، ٢٦٤، ٢٧١، ٢٩١، ٢٩٢
أيرلسه: ٣٣٦	٣٠١، ٣١٥، ٣٨١، ٣٩٦، ٤٠٩، ٤١١
أيوه (وادي): ٤١٢	٤٢٢، ٤٢٤، ٤٢٦، ٤٢٨، ٤٣٤
إيطاليا: ٢٣، ١٠٠، ١٠٦، ٢٦٧، ٣٨١، ٤٣٢	برغش (مدينة): ٣٦٧، ٤٠١، ٤٢٠
ألمبران بطوف (قرية): ٥٥	برغندنة (إماردة): ٢٩١، ٢٩٣، ٢٩٨
أليكا (نهر): ٣٦٥	برغواطة: ٧٣٠، ١٢٥، ١٢٧، ١٣٠، ١٣٢، ١٣٤
أليكان: ١٤٥، ١٤١	١٨٠، ١٨٣، ١٩٠، ٢١٤
ألوب (قلعة): ٣٤٥، ٣٦٧، ٤١٩، ٤٢٠	برقة: ١٤، ٢٤، ٢٦، ٢٩، ٣١، ٣٢، ٣٤، ٣٨
	٤٦، ٤٧، ٤٩، ٥٠، ٥٢، ٥٤، ٦٠
	٦٢، ١٢٣، ١٤٤، ١٤٧، ١٥٧، ١٦٥، ١٦٨
	١٦٩
باب البسة: ٣١٩، ٣١٩، ٣٧٥	برونسا (مدينة): ٣٨١
باب الخزري: ٣٠٢	بريطانيا: ٣٠٢، ٤٢٤
باب عبد الجبار: ٣٠٦	بشكاي (حليج): ٢٤٢، ٢٧٥، ٢٧٢
باب القصر: ٣٧٥	بسكوة (واحة): ٤٥
الباور (إقليم): ٢٧	بيط الأوبط: ١٩١
باجة: ٣١٩، ٣٠١، ٢٧٣	البصرة: ٥٨، ٧٩، ٨٧، ١٦٦، ١٢٩، ١٤٤
بادبورن: ٣٠١	بصرة (العرب): ١٤٨
باريس: ٢٤٥، ٢٦١، ٢٩٣، ٢٩٥	بعلبوس: ٣١٨
بأقانية (حصن): ٤٣	بمسداد: ٨٦، ٩٢، ٩٣، ١٢٣، ٢٠٣، ٢٠٤
باكستان: ٦٤	٢٨٨، ٢٥١
بالرسي: ٤٢٠	

محافظة: ٣٣٦

بشنة: ٤٣٤، ٤٣٦، ٤٤٦



ناجرة (قرية): ٢٢٩، ٢٢٧

ناجيه: ١٩٤، ١٩٨، ٢٦٤، ٣٦٥، ٤٨١، ٢٨٢

٣٦٤

نادلة: ١٣٠

نارودات (مدينة): ٣٨

نارا (مسرح): ١٢٥، ١٣٠، ١٣١، ١٨٠، ٢٩١

٢١٣

نابلالت (مجموعة واحات): ٦١، ١٢٠، ١٢١

١٥١، ١٨١، ١٨٢، ١٨٥

ناترا: ٣٣٤، ٤٧٧

ناكرونيا: ٤٤٩

ناتسا: ١٢٤، ١٢٦، ١٢٧، ١٣٠، ١٨١، ١٨٤

ناتسيفت (نهر - وادي): ٢٨، ٤٥، ١٢٤، ١٨٠

١٨٥، ١٨٧، ٢٠٧

ناغرت: ٢٧، ١٠٨، ١١٤، ١١٦، ١٢٣، ١٢٧

١٣٣، ١٤٥، ١٥٧، ١٥٩، ١٦٠، ٣٥٠

٣٥٧

ناورفا: ٢٩، ٦٥، ١١٥

ناوريرت: ٥٥

ناتس: ٣٠

ناتسبر: ٢٨٣، ٣٢٢، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٥٢

٣٦٦

ناتسول: ١٣٠، ١٣١

ناتسول: ٢٣، ٥٤، ١٢١

ناتسول: ٦٠، ١٢٩، ٣٧١، ٣٨٨

ناتسول: ٢٤٢، ٣٦٣، ٤٢٨

ناتسول: ١٣٦

ناتسول (مدينة): ٣٦٦

ناتسول: ٤١

ناتسول: ٣٧٤

ناتسول: ١٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣

٨٩، ١٢٧، ١٢٩، ١٣١، ١٣٢

١٤٥، ١٥٢، ١٨٩، ١٩١، ٢٠٦، ٢١٠

٢١٢، ٢١٣، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢

البلاط (طريق): ٢٩٦، ٢٩٧

بلاط (طريق): ٢٧٩

بلاط الشهداء (موقعة): ٢٤٢، ٢٧٢، ٢٨٠

بلاط (مدينة): ٢٧٩

بلاط (مدينة): ٢٤٢

بلاط: ٤٥٥

البلاط: ٢٥٦، ٣٥٧

بلاط: ١٠٢، ١٠٤، ١٠٦، ١٧٢

البلاط (بحر): ٣٣٦

بلاط: ١٩٥، ١٩٧، ١٩٩، ٢١٦، ٢٢٥، ٢٣٤

٢٤٢، ٢٥٩، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٢٥، ٣٣٤

٣٣٥، ٣٣٦، ٣٨٤، ٤٢٣، ٤٢٥

٤٣٣، ٤٣٦، ٤٤١، ٤٤٢

بلاط (حصن): ٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٤

البلاط (بحر): ٢٣، ٢٢٩، ٢٣٤، ٢٤٣، ٢٤٥

٤٢٤

بلاط: ٦٣

بلاط: ٢٠٢، ٣٠٣، ٣١٤، ٣٢٦، ٣٤٦

٣٦٦، ٣٦٦، ٤٠٦، ٤٢١، ٤٢٢، ٤٢٥

بلاط (مدينة): ٣١

بلاط (بحر): ١٠٠

بلاط: ٢٤، ٥٣

بلاط: ٣٥٥

بلاط: ٢٩٦، ٢٩٥

بلاط (نهر): ٢٧

بلاط (نهر): ٢٩٢

بلاط (مدينة): ٢٩٥

بلاط: ٢٤٧

بلاط (حصن قديم): ٢٧

البلاط: ١٩٣

بلاط (رياح): ٩٢

بلاط: ٤٤٠

بيت القلم: ٣١٥

بيروت (بلدة): ٣٦٦

بيروت: ١٩، ٢٤٥، ٢٤٧، ٣٥٢، ٣٥٣

بيروت (ولاية): ٢٢

البيروت (إقليم): ٢٧

التلول ٢٥٠ :  
فاس ( قرية ) : ٢٧٢  
مقر ( صحران ) : ١٨١  
تسيفت = تاسيفت  
تهودة ( مدينة ) : ٣٩٥  
توربا ( مبر ) : ٢٦٤  
تور : ٢٩٦  
تورمس ( نهر ) : ٣٦٨، ٢٦٢  
تور : ٢٢  
توسكانيا : ٣٨١  
تولوز : ٢٩٢  
تولوسا : ٢٢٧  
تونس : ٥٥، ٥٠، ٤٦، ٣١، ٢٩، ٢٥، ٢٤، ١٦، ١٥، ١٤، ١٣، ١٢، ١١، ١٠، ٩، ٨، ٧، ٦، ٥، ٤، ٣، ٢، ١، ٠  
١١٩، ١١٨، ١١٧، ١١٦، ١١٥، ١١٤، ١١٣، ١١٢، ١١١، ١١٠، ١٠٩، ١٠٨، ١٠٧، ١٠٦، ١٠٥، ١٠٤، ١٠٣، ١٠٢، ١٠١، ١٠٠، ٩٩، ٩٨، ٩٧، ٩٦، ٩٥، ٩٤، ٩٣، ٩٢، ٩١، ٩٠، ٨٩، ٨٨، ٨٧، ٨٦، ٨٥، ٨٤، ٨٣، ٨٢، ٨١، ٨٠، ٧٩، ٧٨، ٧٧، ٧٦، ٧٥، ٧٤، ٧٣، ٧٢، ٧١، ٧٠، ٦٩، ٦٨، ٦٧، ٦٦، ٦٥، ٦٤، ٦٣، ٦٢، ٦١، ٦٠، ٥٩، ٥٨، ٥٧، ٥٦، ٥٥، ٥٤، ٥٣، ٥٢، ٥١، ٥٠، ٤٩، ٤٨، ٤٧، ٤٦، ٤٥، ٤٤، ٤٣، ٤٢، ٤١، ٤٠، ٣٩، ٣٨، ٣٧، ٣٦، ٣٥، ٣٤، ٣٣، ٣٢، ٣١، ٣٠، ٢٩، ٢٨، ٢٧، ٢٦، ٢٥، ٢٤، ٢٣، ٢٢، ٢١، ٢٠، ١٩، ١٨، ١٧، ١٦، ١٥، ١٤، ١٣، ١٢، ١١، ١٠، ٩، ٨، ٧، ٦، ٥، ٤، ٣، ٢، ١، ٠  
٢٦ : الجمهورية الليبية  
جند : ١٣٩  
جندة : ٤٤٦، ٤٣٦، ٤٣٤  
جتيان : ٣٦٩  
جتياني : ٤٣٩  
جيان : ٣٣٥، ٣٨٩، ٢٨٣، ٢١٢، ٢٣٤، ٢٣١، ٢٢٢، ٢٢١، ٢٢٠، ٢١٩، ٢١٨، ٢١٧، ٢١٦، ٢١٥، ٢١٤، ٢١٣، ٢١٢، ٢١١، ٢١٠، ٢٠٩، ٢٠٨، ٢٠٧، ٢٠٦، ٢٠٥، ٢٠٤، ٢٠٣، ٢٠٢، ٢٠١، ٢٠٠، ١٩٩، ١٩٨، ١٩٧، ١٩٦، ١٩٥، ١٩٤، ١٩٣، ١٩٢، ١٩١، ١٩٠، ١٨٩، ١٨٨، ١٨٧، ١٨٦، ١٨٥، ١٨٤، ١٨٣، ١٨٢، ١٨١، ١٨٠، ١٧٩، ١٧٨، ١٧٧، ١٧٦، ١٧٥، ١٧٤، ١٧٣، ١٧٢، ١٧١، ١٧٠، ١٦٩، ١٦٨، ١٦٧، ١٦٦، ١٦٥، ١٦٤، ١٦٣، ١٦٢، ١٦١، ١٦٠، ١٥٩، ١٥٨، ١٥٧، ١٥٦، ١٥٥، ١٥٤، ١٥٣، ١٥٢، ١٥١، ١٥٠، ١٤٩، ١٤٨، ١٤٧، ١٤٦، ١٤٥، ١٤٤، ١٤٣، ١٤٢، ١٤١، ١٤٠، ١٣٩، ١٣٨، ١٣٧، ١٣٦، ١٣٥، ١٣٤، ١٣٣، ١٣٢، ١٣١، ١٣٠، ١٢٩، ١٢٨، ١٢٧، ١٢٦، ١٢٥، ١٢٤، ١٢٣، ١٢٢، ١٢١، ١٢٠، ١١٩، ١١٨، ١١٧، ١١٦، ١١٥، ١١٤، ١١٣، ١١٢، ١١١، ١١٠، ١٠٩، ١٠٨، ١٠٧، ١٠٦، ١٠٥، ١٠٤، ١٠٣، ١٠٢، ١٠١، ١٠٠، ٩٩، ٩٨، ٩٧، ٩٦، ٩٥، ٩٤، ٩٣، ٩٢، ٩١، ٩٠، ٨٩، ٨٨، ٨٧، ٨٦، ٨٥، ٨٤، ٨٣، ٨٢، ٨١، ٨٠، ٧٩، ٧٨، ٧٧، ٧٦، ٧٥، ٧٤، ٧٣، ٧٢، ٧١، ٧٠، ٦٩، ٦٨، ٦٧، ٦٦، ٦٥، ٦٤، ٦٣، ٦٢، ٦١، ٦٠، ٥٩، ٥٨، ٥٧، ٥٦، ٥٥، ٥٤، ٥٣، ٥٢، ٥١، ٥٠، ٤٩، ٤٨، ٤٧، ٤٦، ٤٥، ٤٤، ٤٣، ٤٢، ٤١، ٤٠، ٣٩، ٣٨، ٣٧، ٣٦، ٣٥، ٣٤، ٣٣، ٣٢، ٣١، ٣٠، ٢٩، ٢٨، ٢٧، ٢٦، ٢٥، ٢٤، ٢٣، ٢٢، ٢١، ٢٠، ١٩، ١٨، ١٧، ١٦، ١٥، ١٤، ١٣، ١٢، ١١، ١٠، ٩، ٨، ٧، ٦، ٥، ٤، ٣، ٢، ١، ٠  
الجيزة : ٤٤٤، ٣٥٦  
الجيزة : ١٤٨  
الحجاز : ١٦٧، ١٦٦، ١٤٤  
حجر القصر ( قلعة ) : ١٧٩، ١٤٨، ١٣١، ١٢٩  
٣٩٦، ٣٨٧، ٣٧١، ١٨٠  
حنارة : ٣٦٤  
الحسا ( إقليم بالحجاز ) : ١٤٤  
حسان ( مسجد ) : ٣٣٧  
الحسين : ٩٠  
حصرموت : ٥٢  
الحصنة ( إقليم ) : ٢٧  
حطين : ٢٢٧، ١٩٧  
الحضامات : ١٥٢، ٣٣٠  
حماة : ١٣٨



حصن : ٢٨٣

الحنش ( حصن ) : ٤٤٢، ٣٦٤

حيدران : ١٧١

حيلة : ١٣٠



الحندي ( بحيرة ) : ٢٨٠، ٢٧٠، ٢٦٩

الحنلق ( معركة ) : ٣٧١

خونكيرة ( بلدة ) : ٣٦٥

خضون : ٣١١، ٢٧٥٠

خيرونا : ٢٩١



داروق : ٤٣١٠

الدار البيضاء : ٢٥٣

دابية : ٤٣٧، ٤١٣، ٤١١، ١٩٣

دارنة : ٢٨٠، ١٨١، ١٩١، ٢١١، ٢١٦، ٢٢٠

درون ( جبال ) : ٢٥٠، ٤٤، ٢١٣

عروقة : ٢٧٠

فسيانيبروس : ٢٣٢

دكالة : ١٢٤، ١٧٩، ١٨٠

الفلان ( نهر ) : ١٥٣، ٢٤٦

دمشق : ٢٩، ٣٧، ٤١، ٤٧، ٦٣، ٧٣، ١٣٣

٢٩١، ٢٧٤، ٢٨٣، ٢٨٧

الدردوس ( نهر ) : ٢٩٥

دوقيته ( إقليم ) : ٢٩٧، ٢٩٨

الدوسو ( نهر ، وادي ) : ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٦٤

٢٨١، ٢٨٢، ٢١٣، ٢٦٢، ٣٦٤، ٣٦٩

٢٨٦، ٣٩٥، ٤٠٣

ديجون : ٢٩٢

دير الحماحم : ٢٨٧



راديس ( خليج ) : ٥٧

رياح ( قلعة ) : ٢٣٣، ٤٢٨، ٤٣٩، ٤٤٠

رياض تارا : ١٨٠

رياط سوسة : ١٠٥، ١٠٩، ١١٠

رياط الفتح : ٢٧، ٢٢٧

رياط القنبر : ١١٠

الرياط : ٢٠، ٤٥، ٢٥١

أم الربيع ( غطيرة ) : ١٠٦، ١٠٨

أم الربيع ( وادي ) : ٢٨٠، ٦٠، ٦١، ١٢٧، ١٨٠

وجوسة ( ميناء ) : ١٠٣، ١٠٤

الرصاصة ( تل ، قصر ) : ٣٨٧، ٣٧٤، ٣٠٦

رئاسة ( مدينة ) : ١٠٦، ١١٠، ١١٢

الرقراق ( وادي ) : ٢٧، ٤٥، ١٢٤

رسله ( جبال ) : ٣٤٩، ٣٥٦، ٣٥٦، ٣٥٦، ٤١٤

٤١٩

رشفالة : ٣٠٢

روسيا : ٢٦٣، ٢٦٥

روما : ١٠٩، ٢٦٧، ٢٧٤، ٢٨١

الرون ( نهر ) : ٢١٢، ٢٩١، ٢٩٣، ٢٩٧

رياح ( قبيلة ) : ١٦٧، ١٦٨، ١٧١، ٢١٩، ٢٣٠

ريوحا ( إقليم ) : ٢٥٦

رية ( كنوة ) : ٢٨٣، ٣٤٩، ٣٥٠



الزاب ( نهر ، بلاد ) : ٢٦٠، ٥٥، ٦١، ٦٢، ٧٥

٧٦، ٨١، ٨٩، ٩٢، ٩٦، ١١٤، ١١٩

١٤٢، ١٥٦، ١٥٨، ١٥٩، ١٧٧

٢٣٠

الزاهرة ( قصر ) : ٢٩٥، ١٠٧، ٤٠٨، ٤١٩

زوهون ( جبل ) : ١٩٦

زفران ( جبل ) : ٥٩٠

الزقاق ( بحر ) : ٢٦٣، ٤١٦

الزلافة : ١٩٩، ١٩٨، ٢١٦، ٢٢٧، ٢٣٢، ١٣٤

٤٣٨، ٤٤٧

الزهرام ( سلسلة ) : ٣٧٤، ٣٧٦، ٣٨١، ٣٨٦

٣٨٧، ٣٩٥، ٤١٦، ٤٥٣

رواعة ( ملاذ ) : ١٣٠

زوحنايا ( ولاية ) : ٢٢

زوبلة ( مركز حراوي ) : ٣٨٠، ٣٩٠، ٥٤، ٤٤٧

الزبونة ( مسجد ) : ١٠٦، ١٠٨

## س

سنتياجو ٤٠٠	سارازان (وادي) ٢٩٨
السند ٤٨، ٦٤	السيرون (نهر) ٢٩٢
سبحال = السفال	سالم (مدينة) ٣٢٣، ٣٦٥، ٣٦٨، ٣٨٦
السفال: ٦٦، ١٨١، ١٨٥، ١٨٨، ٢١٤	١٠١، ٤١٩، ٤٢٠، ٤٥٤
سبكياخ (إقليم) ٤١	سان أرتو (دير) ٣٨١
سبحال = السفال	سبنانية ٢٩١، ٢٩٣، ٢٩٨، ٢٩٨
سبحاخون ٢٤١	سبنة ٩٠، ٧٤، ١٢٩، ١٩١، ٢١٦
السفلة (إماره) ١٩٩، ٤٢٤	٣١٨، ٣٨٢، ٣٧١، ٣٨٨، ٤١٣، ٤٤٦
السوداي ١٦٠، ١٦١، ١٨٣، ١٨٥، ٢١١	٤٥٤
١٦٤	سبجو (نهر، وادي): ٢٧، ٧٥، ١٢٤، ١٢٦
سوريا: ٣٨٦	١٢٧، ١٢٩، ١٨٠، ١٩٠
السوس (وادي، إقليم): ٦٥، ٦٨، ٤٤، ٦١	سبلة ٢٣، ٢٤، ٢٦، ٣٩
٦٢، ١٢٤، ١٣٠، ١٣٢، ١٨١، ٢٠١	سبلماسة: ٦١، ٦٢، ١٢٠، ١٢٢، ١٣٢، ١٤٤
٢٠٦، ٢٣٥، ٢٦١	١١٥، ١٥٥، ١٨١، ١٨٣، ١٨٥، ١٩٠
سوسة ٣٧، ٣٧، ١٠، ٩٠، ٩٢، ١٠٩، ١٠٢	١٩١، ٢٣١
١٠٥، ١٠٧، ١١١، ١٤٧، ١٥٢، ١٧١	سوحما (بلد): ٦٠
سوسرا: ٢٨، ٢٩٣، ٢٩٨	سدرانة ١٢٧، ١٧٩
سيرانيقارا: ٤٤٤	سردنيا ٢٣، ٦٢
سيريناككا: ٣١، ٥٣	سمرقطة ١٩٣، ١٩٥، ١٩٧، ٢٢٤، ٢٦٤
السبق (إقليم) ٢٧	٢٧٢، ٢٨٥، ٢٨٩، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٩
سيمتن (مركبة) ٣٧٤	٣٤٥، ٣٤٩، ٣٥٩، ٣٦١، ٣٦٧، ٣٦٨
السين ٢٩٣	٣٧٨، ٣٩٧، ٤١٣، ٤١٥، ٤٢٤، ٤٢٥
سرات (جل) ٣٨٦، ٣٤٥	٤٢٨، ٤٣١، ٤٣٦
سبابة ٢٢٥، ٣٨٤، ١١٢	سرقوسة ١٠١، ١٠٢، ١٠٥
سبابة ١٥٨	المسطح للمرد: ٣٧٦
سبانون ٢٩٢	سبونة: ٣٨٦
السام ٥٢، ٥٨، ٦٤، ٧٥، ٩٥، ١٠١، ١٣٨	سفاس: ١٠٧، ١١١، ١٧١
١٤٤، ١٥١، ١٦٦، ١٦٧، ١٧٣، ٢٢٦	سبقة بني ساعدة: ٦٩
٢٤١، ٢٨٤، ٣٠٩، ٣١٦، ٣١٨	سلا: ٢٧، ١٣٠، ١٣٢، ٢١٩
٣٧٧، ٤٢١	سملقة ٣٧٠، ٣٧٣، ٣٨١، ٣٨٦، ٣٦٥، ٣٦٧
سرب (كوسنة) ٢١٢، ٢١٣، ٢٦٢	٣١٨
سربونة (مدينة) ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧٢، ٣٥٦	سلمية: ١٣٨، ١٤٣، ١٤٥
٣٥٧، ٤١٥	العلوم ٥٤
سربن (مدينة): ٢٦٩، ٢٧٠، ٤٤٥	سليط (وادي) ٣٤٥
سربنة ٢٨٥، ٢٨٩، ٣٠٦، ٣١٨، ٣٢٠	سمرة ٢٧٢، ٣٧٠، ٣٩٧



العرايش: ١٨، ٢٧، ١٣٠  
 المريس (جبل): ٣٧٥٠  
 المروق (طاق): ٢٩٠  
 المقاب (موتقة): ٢٣٣، ٢٣١  
 عقبة البقر (بلدية): ٤١١  
 عمان: ٧١، ٨١، ١١٨، ١٢٧  
 حانة: ٩٢٠  
 عين التمر: ٥٨



خالة (قرى): ١٤٢، ٢٦١، ٢٦٧، ٢٧٩  
 ٢٨٠-٢٩١، ٢٩٤  
 غانة: ٢٢٤  
 غنامس: ٣٩٠، ١١٩  
 غوماج: ٣٦٣-٣٦٥، ٣٦٩، ٣٨٦، ٣٨٧  
 غروانة: ١٩٦، ٢٢٤، ٢٥٢-٢٥٥، ٢٦٢، ٢٦٣  
 ٢٨٣، ٢٨٩، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٨٩-٢٨٩، ٣٥٥، ٣٥٦  
 ٣٥٩، ٣٥٨، ٤١٣، ٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٦  
 ٤١٠، ٤٤١، ٤٤٢-٤٥٥  
 غزة: ٦٢



لارس: ٥٢٠، ١٣٨  
 لاراز: ١٣٠  
 لاس: ٢٧، ١٢٦، ١٢٩، ١٣٢، ١٤٨، ١٥١  
 ١٥٨، ١٥٩، ١٨٠، ١٨٢، ١٩٠، ٢٠٦  
 ٢١٤، ٢٢١، ٢٧١  
 فالانس (مقبة): ٢٩٧٠  
 فالتيروا (حصن): ٣٦٦  
 فالكس (مدينة): ٣٦٦  
 الفتح (جبل): ٢١٨  
 فنيشة (حصن): ٢٥٥  
 لج حريق: ٣٢٣  
 حصن الجبلات: ٤٣٧  
 حصن الزلاوة: ٤٢٣  
 حصن السراوق: ٣٠٧، ٣٨٧، ١١٠  
 فتح: ١٢٥، ٢٢٧

القراش (نهر): ٢٨٧  
 فرساي: ٤٠٤

فرصة للكتاب: ٢٨٩٠

فرسما: ٧٣، ٢٤٢، ٢٦١، ٢٦٣، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٧٧، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٤، ٢٩٧، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٨١، ٣٨٣، ٤٠٣، ٤٢٦، ٤٣٢  
 فريزيا (ساحل فرنسي): ٣٢٤  
 فزان: ٢٦، ٣٨، ٣٩، ٤٤، ١٢٠، ١٦٩  
 القسطاط: ٢٤، ٣٥، ٣٧، ٣٨، ٤١، ٦٣، ٨٧، ١٤١

قلعرة: ٣٦٥

قلسطين: ٣٤-٣٨٣

قولا: ٢٣، ١٧١

موتقة: ٤١٩٠



قابس: ٣٢، ٤٠، ٤٠٤، ٦١، ١٧١، ٢١٩، ٢٢٩  
 قادش (مدينة): ٢٦٣، ٢٦٩، ٢٦٤  
 القامرة: ١٥١، ١٦٢، ١٧٣، ٢١٧، ٢٤٩-٢٥٢  
 ٢٥٤

القائل (معلقة): ١٣٩

قيلة: ٤١٩

قشيل: ٣٢٤

القنس: ١٩٧، ٢٢٧

قرسفة: ٢٣

قرطاج: ٥٦

قرطاجنة: ٣٢، ٣٣، ٤٨، ٤٩، ٥٣، ٥٦، ٣٧٦، ١٠٨

قرطاجنة: ٢٦٩

قرطبة: ١٦، ٧٨، ١٢٩، ١٥٨، ١٩١، ٢٢٤، ٢٢٤، ٢٤٥، ٢٥٥، ٢٦١، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٨، ٢٧٩، ٢٨١، ٢٨٣، ٢٩٠، ٢٩٥، ٢٩٦، ٣٠٠، ٣٠٥، ٣٠٧، ٣١٤، ٣١٥، ٣٢٢، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٩، ٣٣٦، ٣٣٨، ٣٤٣، ٣٤٥، ٣٤٧، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٤، ٣٥٧، ٣٥٩، ٣٦٥، ٣٦٧، ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧٢

٣٨٦، ٢٧٦ قلعة عبد السلام ، ٣٨٧ = ٣٨٠ ، ٣٧٨ ، ٣٧٧ ، ٣٧٥ ، ٣٧٤

٤٠١ ، ٣٨٦ قلعة النصور : ٣٨٦ ، ٣٨٨ ، ٣٩١ ، ٣٩٣ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦

٢٧٢ : للمة وادي ابر : ٣٩٨ ، ٤٠٣ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤١٠ ، ٤١٠

٤٢٢ ، ٣٦٢ قلعة : ٤١٠ ، ٤١٣ ، ٤١٥ ، ٤١٩ ، ٤٢٢ ، ٤٢٦

٣٦٦ ، ٣٦٥ قلعة ( بلدة ) : ٤٢٧ ، ٤٣٠ ، ٤٣٦ ، ٤٤١ ، ٤٤٣ ، ٤٤٧

٤١٠ ، ٣٦٥ القلعة ( بلدة ) : ٣٦٦ ، ٣٦٩ ، ٣٦٦

٤٦ قسوة : ٣٦٦ ، ٣٦٩ ، ٣٦٦ ، ٣٦٩ ، ٣٦٦ ، ٣٦٩

٣٦٠ : قلعة ( حصن ) : ٨٩

٤١٠ : قلعة ( حصن ) : ١٢٥

٣٨٩ ، ٣٨٣ قلعة : ٣٨٩ ، ٣٨٣ ، ٣٨٩ ، ٣٨٣ ، ٣٨٩ ، ٣٨٣

١٩٩ قلعة : ٣٨٩ ، ٣٨٣ ، ٣٨٩ ، ٣٨٣ ، ٣٨٩ ، ٣٨٣

٣٧٨ قلعة : ٣٨٩ ، ٣٨٣ ، ٣٨٩ ، ٣٨٣ ، ٣٨٩ ، ٣٨٣

٣٧٨ قلعة : ٣٨٩ ، ٣٨٣ ، ٣٨٩ ، ٣٨٣ ، ٣٨٩ ، ٣٨٣

٣٧٨ ، ٣٠٦ ، ٣٧٩ قلعة : ٣٨٩ ، ٣٨٣ ، ٣٨٩ ، ٣٨٣ ، ٣٨٩ ، ٣٨٣

٣١ قلعة : ٣٨٩ ، ٣٨٣ ، ٣٨٩ ، ٣٨٣ ، ٣٨٩ ، ٣٨٣

٣٤٥ ، ١٩٦ ، ١٩٥ قلعة : ٣٨٩ ، ٣٨٣ ، ٣٨٩ ، ٣٨٣ ، ٣٨٩ ، ٣٨٣

١٠٠ ، ٣٣ قلعة : ٣٨٩ ، ٣٨٣ ، ٣٨٩ ، ٣٨٣ ، ٣٨٩ ، ٣٨٣

١٩٩ قلعة : ٣٨٩ ، ٣٨٣ ، ٣٨٩ ، ٣٨٣ ، ٣٨٩ ، ٣٨٣

٤٨ ، ٤٧ ، ٤٥ ، ٤٢ ، ٣٩ ، ٣٣ ، ٣٢

٧٥ ، ٦٦ ، ٦٢ ، ٦٢ ، ٥٧ ، ٥٤ ، ٥٣ ، ٥١

٩٧ ، ٩٣ ، ٩١ ، ٨٩ ، ٨٧ ، ٨١ ، ٧٨ ، ٧٦

١٣٤ ، ١٢٨ ، ١١٨ ، ١١٦ ، ١٠٥ ، ١٠١

١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٢ ، ١٤٠ ، ١٣٥ ، ١٣٠ ، ١٢٥ ، ١٢٠

٢٧٢ ، ٢١٨ ، ٢٠٤ ، ١٨٤ ، ١٨٣ ، ١٧١

٣٧٢ ، ٣٧٠ ، ٣٥٧ ، ٣٣٢

٣٧٢ ، ٣٧٠ ، ٣٥٧ ، ٣٣٢



٤١

٢٦٩ ، ٢٦٩

٣١٢

١٣٩

١٣٧

١٩١

٣٦٥ ، ٣٥٤

٣٢١

١٠٦

٤٣٨ : قصر

١١١ : قصر

١٠٩ : قصر

٣١٠ ، ٣٠٩ : قصر

٣٧٠ : قصر

١٣٨ : قصر

١١١ : قصر

١١٢ ، ١١٠ : قصر

١٧٣ ، ١١٦ ، ١١٢ ، ١١٠ ، ٩٧ : قصر

١١١ : قصر

١٧٣ ، ١٠٤ ، ١٠٢ : قصر

٣٣ : قلعة

٣٢٢ ، ٣٠٩ ، ٢٩٨ ، ٢٩١ ، ٢٦٤ : قلعة

١٣٦ ، ١٣٣ ، ١٠٦ ، ٣٩٦ : قلعة

١٠٤ : قلعة

١٣٧ ، ١٣٩ ، ١١٨ ، ١٠٣ : قلعة

٣٦٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٣ ، ٢٧٤ : قلعة

١٧٣ : قلعة

١٧٣ : قلعة

كلابريا ( شبه جزيرة ) : ١٠٦١

كلونيا ( بلدة ) : ٣٦٥

الكتسبرية ( جبال ) : ٣٤٦ ، ٣٧٤ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣٦٢

كوار ( إقليم ) : ٥٤

الكوة : ٨٧٠



لاردة ( نهر ) : ٢١٢ ، ٢٧٤ ، ٣٥٩ ، ٤٢٨ ، ٤٣٣ ، ٤٣٥

للا : ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٣٠١ ، ٣٧٤ ، ٤٤٥

لشوة : ٤٣٨

لك ( مدينة عاصمة جبلية ) : ٣١٨

لنك ( وادي ، مدينة ) : ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢١٣

اللووار ( إقليم ) : ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٦

لورقة : ٢٧٠ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٤٤٥

لوكس ( وادي ) : ٢٧

ليون : ١٩٤ ، ١٩٧ ، ٢٢١ ، ٢٢٨ ، ٢٢٢ ، ٢٤٢

٢١٣ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٧٤ ، ٢٨١

٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٢٦ ، ٣٤٦ ، ٣٤٨

٣٦٠ ، ٣٦٣ ، ٣٦٥ ، ٣٧٠ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦

٣٩٣ ، ٣٩٥ ، ٣٩٧ ، ٤٠١ ، ٤٠٦ ، ٤١٦

٤١٨ ، ٤٢١ ، ٤٢٨ ، ٤٣٨ ، ٤٤٧ ، ٤٤٥

٤٤٧

لايب ( حصن ) : ٢٩٧ ، ٤٣٢



ماردة : ٢٧٢ ، ٢٤٤ ، ٣١٧ ، ٣٤٨ ، ٣٦٤ ، ٣٧٨ ، ٤٤٢

ماز ( مياه ) : ١٠٣ ، ١٠٤

ماكرون : ٢٩٢

مالقة : ١٠٠ ، ١٠٥

مالقة : ١٩١ ، ١٩٦ ، ٢٦٣ ، ٢٨٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٤٤٦ ، ٤٤٣ ، ٤٤١ ، ٤٦٨ ، ٣٥٥ ، ٣٤٩

٤٥١

مالي : ١٢١

التيحة ( سول ) : ٢٧

مجرد ( نهر ) : ٢٩٠

مجرىط = مديرة

المحجة العظيمة ( شارع ) : ٣٠٦

مديرة : ١٨ ، ٤٤٦ ، ٢٥٠ ، ٢٥٦ ، ٢٦٥ ، ٣٤٥

٣٦٧ ، ٣٨٦

للدولة الباجية : ٢٥٥

مديرة البليدة : ٢٥٦

مديرة القواسم الثالث : ٢٥٧

مدينة المائدة : ٢٧١

المدينة المنورة : ٨٥ ، ٢٧٧

مراكش : ٢٨ ، ٤٥ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٠

١٩٨ ، ٢١٣ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢١٣ ، ٢١٤

٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٤

مريبطر : ١٩٩

مرسية : ١٩٧ ، ٢٢١ ، ٢٢٥ ، ٢٢٤ ، ٢٣٥

٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧

٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٢٩ ، ٣٣٧ ، ٤٤٠ - ٤٤٣

مروكش : ٣٥٥

مروكش : مراكش

مزاب ( إقليم ) : ١٢٢

المسيلة ( بلاد ) : ٧٦ ، ١٠٦

مسينا ( بلدة ) : ١٠٤

مشالة : ١٣٠

المجارية ( بلاد ) : ٢٩٠

مصر : ١٤ ، ١٧ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٣١ ، ٣٣

٣٤ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٤١ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٥٢ ، ٥٤

٥٧ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٣

٨٠ ، ٨٢ ، ٩٢ ، ٩٥ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١٠١ ، ١١٣

١٢٨ ، ١٤١ ، ١٤٤ ، ١٤٨ ، ١٥٤

١٥٩ ، ١٦٣ ، ١٦٨ ، ١٧٦ ، ٢٠٤ ، ٢٢٦

٢٤١ ، ٢٨٣ ، ٣١٩ ، ٣١٧ ، ٣٢٧ ، ٣٣٧

مطرد الكلبي : ٢٣٢

المتن ( جبال ) : ٣٥٤

مكتاس : ٢٧ ، ١٢٦ ، ١٨٢ ، ١٩٠

١٣٧ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٧٩ ، ١٨٠

مكة : ٣٥

ملحون : ١٩٩

٣٠٢: نريونة	٢٧١ مليانة
٣٣: نقطة (بلدة):	٣٨٨، ١١٩، ٩٠، ٥٥
١١٩، ١١٥، ١٠٨، ٨٠، ٧٩، ٧٥: تقسوة:	الطليعة العربية ١٢١، ٢٧، ٢٥
٢٣٠، ١٢٢، ١٢٠، ١١٩	النار ٣٨٦
٢٠٧، ١٣٠، ١٥، ٢١، ٢٠: بغيس:	النارة: ١٩٩
١٧٢: غوطرة:	مناو (بلدة، حصن) ١٠٣، ١٠٢
١١٩، ٩٠: تكور (إمارة):	مناو أسود ٣٣٤
٦٤: نهانند	مناويق (خوض) ٢٤٢
١٦٣: التوية (بلدة):	المستير (قصر): ١١٠، ١٠٦، ٩٢، ٩١، ٣٢
٣٢١: سورمانلي	١٥٢
٢٢١، ٢٣: النيجر	المصورة (لغة): ١٧٣
٤٢٥: نيريشة (بلدة):	متورقة ٤٣٤، ٢٢٥، ٢٢٩
١٦٧: النيل (نهر):	النير (نهر) ٣٦٢، ٣١٣، ٢٦٥، ٢٦٤، ٢١٢
٢٩٢: سيمه (بلدة):	٤١٠، ٣٦٣
٥١: نيش (نهر):	منية الناعورة ٣٠٦
هـ	اللمدية (لغة) ١٧٤، ١٧١، ١٥٢، ١٥٠، ١٤٦
١٩٦: هبط خمار:	٢٢٩، ٢١٩، ٢١٨، ١٨٢
١٣٠، ١٢٩، ١٢٤: الهبط (إقليم):	موايه لاياناي (قرية): ٢٩٦
٢٧: الهجاز (النفار):	مودويا: ٣٦٥
٣٨٦، ٣٤٥: هنارس (لغة):	مورة (حصن): ٣٦٠
٦٤: الهباد:	مورر (مدينة): ٣٥٦
٢٤٧: عولدا:	مولوسة ٢٩٥، ٢٩٤
و	مولوية (نهر): ١٢٠، ٦٢، ٦٠، ٥٥، ٤٢، ٢٧
١٦١: وادي:	١٢٤، ١٨٩، ١٨١، ١٧٤، ١٥٩
٢٧٣، ٢٧٢: وادي إيرة (إيرو):	موت رويو (قلعة): ٣٥٨
٢٦٤: الوادي الأبيض:	موتلون (حصن): ٣٥٠
٣٨٦، ٣٦٥، ٣٦١، ٣٤٥، ٢٧١: وادي الحجار:	ميتونيا = مودويا
٣٨٦: وادي الرمل:	ميتش (مدينة): ١٠٤
٢٨٢: وادي صليط:	ميرورة ٣٣٤، ٣٢٥، ٢٥١، ٢٢٩
٢٩: وادي النيل:	ن
١٩٤، ٢٣٢، ٢٣٤: الوادي الكبير (خوض):	نابلي: ١٠٦
٢٦٤، ٢٦٥، ٢٧١، ٣٠٥، ٣١٨:	ناصر: ٣٨٦، ٣٦٥
٣٣٤، ٣٥٨، ٤١٧، ٤١٩، ٤٢٧، ٤٢٩:	نيرة (مدينة): ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٥٦، ٣١٣، ٢٢٣
٤٤١:	٣٢٩، ٣٤٧، ٣٥١، ٣٦٢، ٣٦٤، ٣٦٧
١٩٥، ١٩٨، ٢١٩، ٢٦٤، ٣٦٥: الوادي:	٣٦٩، ٣٧٠، ٣٨٥، ٣٩٥، ٤٠٦، ٤٢٤
	٤٢٨، ٤٢٦

وعبا : ٢٦٨ ، ٢٥٦  
 ونزال : ٢٦٣  
 الموشريس ( إقليم ) : ٢٧٠  
 وهران : ٢٦ ، ٢٦٣ ، ٥٥ ، ٢٦٣ ، ٢١٧ ، ٢٣٢  

و

  
 بابوا : ٢٦٣  
 بانسه : ٢٢١ ، ٢٢٥ ، ٢٤٤  
 تلمسن : ٧١ ، ٧٩ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ٢٨٣ ، ٢١٧ ،  
 ٢٢٢

والسة ( وادي ) : ٢٩٨  
 واركلا ( جزيرة ) : ١١٩٠ ، ١٢٠٠ ، ١٢٢  
 وجنة : ٥٥٠ ، ٢٠٦  
 وخشمة ( مدينة ) = أوسنة  
 ودان : ٣٨  
 ورجلا = واركلا  
 وستقاليا ( ولاية ) : ٣٠١  
 وشقة : ٢٤٢ ، ٣٥٩ ، ٣٦٦ ، ١٢٤ ، ١٢٨  
 ولاية : ٢٦٣ ، ٣٢٥ ، ٤٢٧  
 وليس ( مدينة ) : ١٢٦٠ - ١٢٨ - ١٣٠

★★★



## فهرس القبائل والطوائف والأل

الإسماعيلية: ١٣٧، ١٤٦، ١٥٨، ١٦٦، ١٧٩، ٣٨٧

الإغريق: ٢٤٤، ٢٤٩، ٣٢١، ٢٢٦

أقاروة: ٣٢٢، ٤٠

الأكزال: ١٧٣

الأكناد: ١٩٩

الألال: ٢٦٧

الألال: ٤٣٨

الألبانيون: ١٢٧، ١٣٦، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٨

١٧٥، ٢٦٨، ٢٨٧، ٣١٠، ٤٠٧، ٤١٥

الألبانيون الأتليسيون: ١٣٢، ١٤٩، ١٥٠، ١٦٠

١٦٤، ١٦٦، ٢٤٣

الألبانيون الفرطيرين: ١٥٨

الإغريق: ٤٣٨، ٤٤٩

الألبانيون: ١٦٤، ١١٨، ١٤٩، ١٧٨، ١٩٠

١٩٧، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٤٤، ٢٤٨، ٢٦٠

٢٦٢، ٣٠٠، ٣٠٩، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١٦

٣١٧، ٣١٨، ٣٢٢، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٣٣

٣٣٩، ٣٤٢، ٣٦٧، ٣٧٤، ٣٨٥، ٤١٠

٤١٢

أهل الشام: ٣٥٠

أوربة (قبيلة): ٤٢، ٤٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٩

١٣١، ١٣٢، ١٧٩

الأوربيون: ٣٠٣

الأيريون: ٢٦٧

إيطاليون: ٣٨٤

إيلانة (قبيلة): ٣٠

أيربية (دولة): ٢١٩، ٢٢١

ب

بادواي (البربر): ٢٨٠

البشر (البربر النبلو): ٢٨٠، ٢٩، ٢٩، ٤٢، ٤٩

٧٦

البرانس (البربر الحضر): ٢٨١، ٣٠، ٤٢، ٤٢

١

أل إدريس: ١٣٩

أل ملكون بن زيري: ١٥٠

أل زيري: ١٥٣

أل سامان: ١٣٥

أل سليم بن منصور: ١٣٥، ١٦٦

أل عامر: ٤٠٥

أل علي: ١٣٧

أله عسان: ٤٨

أله ففلي: ٤٤٦

أله نسي: ٣٤٦

أله طوار: ١٣٢

أله نهلب: ٨٢

أله حلال: ١٣٥

الإباضية: ٥٤، ٧٢، ٧٥، ٧٩، ٨٠، ٨٢، ٨٦

٨٧، ١٠٨، ١١٤، ١١٧، ١٢٠، ١٢٢

١٢٣، ١٤٢، ١٤٩، ١٥٠، ٢١٥

الأنج (قبيلة): ١٦٧

الأنج عشيرة (فرقة): ١٢٧

الإحليليون: ١٤٩، ١٥١، ١٦٣

الأفارة: ٦٥، ٧٦، ١٢٣، ١٢٩، ١٣١، ١٣٢

١٤٨، ١٥١، ١٦٤، ١٧٩، ١٨٠، ٢١٥

٢٧٠، ٣٧١، ٣٨٧، ٣٩٦، ٤١٣

إدرسية (دولة): ١٢٦، ١٣٩

أردمانيون: ١٠٥، ١٧٢، ١٧٤، ١٧٦، ٢١٨

٢١٩، ٣٢٣، ٣٣٦، ٣٤٦

الأورغونين: ٤٥٢

أويوس (مذهب): ٢٦٧

أزارقة: ٧١

الأزده (قبيلة بنية): ٧١، ٨١، ٨٢

الإسمان: ٢٢٢، ٢٤٦، ٢٥٤، ٢٥٧، ٢٧٣

٣١٧، ٣١٨، ٤٢١

أسد (قبيلة): ٣١٧

بنو سحر: ٤١٨، ٤٣٠	٤٩، ٧٥، ٧٦، ١٢٩، ١٨٠، ١٩٩، ٢٤٢
بنو حبيب: ٧٩	٢٦١، ٢٩١، ٣٤٣، ٤٧٥
بنو حجاج: ٣٥٦، ٣٥٦، ٣٥٨	البير: ٢٠، ٢٨، ٣٠، ٣٢، ٣٢، ٣٥، ٣٩، ٤٢
بنو الحسن الكلبيون: ١٥٣	٤٣، ٤٨، ٥٠، ٥٢، ٥٥، ٥٩، ٩٠
بنو عصف: ٢٣١	٦٢، ٦٣، ٦٩، ٧٢، ٧٤، ٧٦، ٧٨
بنو حماد الصنهاجيين: ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٤	٧٩، ٨١، ٨٨، ٩٠، ٩٧، ١٠٣، ١١٤
١٧٢، ١٧٦	١١٩، ١٢٠، ١٢٨، ١٣١، ١٣٤، ١٣٩
بنو حمود: ١٩٩، ٤١٣، ٤١٧	١٥٣، ١٥٥، ١٥٧، ١٦٣، ١٧٤، ١٧٧
بنو الحفدي: ١٢٠	٢٣٣، ٢٣٥، ٢٤١، ٢٦٣، ٢٦٨، ٢٧٠
بنو خازم الزياتيون: ١٤٩	٢٧٧، ٢٧٨، ٢٨١، ٢٨٣، ٢٨٥، ٢٨٩
بنو خازم المورايون: ١٤٨	٢٩٣، ٢٩٦، ٣٠١، ٣١٠، ٣١٣، ٣١٤
بنو خازم القفاريون: ٣٧١	٣١٨، ٣٢٩، ٣٧٠، ٣٩٢، ٣٩٤، ٣٩٨
بنو خازم الزياتيون: ١٤٩	٣٩٩، ٤٠٧، ٤١٣، ٤١٦، ٤١٨، ٤٢٧
بنو خليد: ٣٥٢، ٣٥٦، ٣٥٨	البرغفاليون: ١٨١، ٢٤٧، ٢٤٤، ٤٣٨، ٤٤٢
بنو ذي النون: ١٩٤، ٣٥٥، ٣٩٩، ٤١٨	٤٥٤
٤١٩، ٤٢٠	البرغواطيين: ١٢٩
بورصة بن عامر: ١٦٧	المشكوكون: ٣٠٢، ٣٠٣، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٧
بنو زلفن: ٤٦١	٣٢٢، ٣٢٣، ٤٣٥
بنو زوسم: ٥٤، ٦٥، ٧٢، ٨٧، ١١٤، ١٢٠	البصريون: ١١٨
١٢١، ١٢٣، ١٢٧، ١٣٣، ١٣٩، ١٤٥	السكريون: ١٢٧
١٦٢، ١٦٤، ٣٥٠، ٣٥٧	الشدقيون: ٤٤٩
بنو زنون = بنو ذي النون	بنو الأحمر: ٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٦
بنو زيان: ٢٣٧	بنو أشقيلولة: ٤٤٤، ٤٤٧
بنو زيسري: ٧٦، ١٣٤، ١٣٥، ١٥٣، ١٥٤	بنو الأغلب: ٦٥، ٨٩، ٩٠، ٩٣، ٩٥، ٩٨
١٥٦، ١٥٨، ١٥٩، ١٩٢، ١٩٦، ١٧١	١٠٠، ١٠٦، ١١٢، ١١٤، ١٢٣، ١٢٩
١٧٣، ١٧٦، ٢١٨، ٢٤٩	١٣٥، ١٣٩، ١٤٢، ١٥٦، ١٧٣، ٣٥٠
بنو زيري بن زاي: ٤٣٠	٣٥٧
بنو زيري بن مناد: ١٩، ٣٠	بنو الأقطس: ٣٩٩، ٤٣٠، ٤٣١
سوا ساهلة: ٦٩	بنو أمية: ٥٨، ٦٩، ٧١، ٧٥، ٧٧، ٨٢، ٢٧٤
بنو سراح: ٤٤٧، ٤٥٣	٢٧٥، ٢٧٧، ٢٨٩، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١
بنو سليم (بن منصور): ١٦٦، ١٦٨، ١٧٦	٣٠٣، ٣٠٦، ٣١٠، ٣١٦، ٣١٩، ٣٢٩
سوشيد: ٣٠٠، ٣٩٩	٣٣٤، ٣٣٩، ٣٤٣، ٣٤٧، ٣٧١، ٣٩٣
بنو صمدح: ٤٣٠	٣٩٤، ٣٩٧، ٣٩٨، ٤٠٧، ٤٠٩، ٤١٥
بنو طرلون: ٦٥	٤٣١
بنو عامر: ٤٠٠	بنو أمية الأندلسيون: ٩٠، ٢٤٧، ٣٤٢، ٣٨١
بنو عاد: ١١٦، ٣٩٩، ٤١٨، ٤٢٧، ٤٣٠	٤٠٨
بنو العباس: ٤١٥	بنو يرزال: ٤١٢

بنو عبد الرؤوف : ٢٩٩ ، ٣٠٠

بنو أبي حبله : ٣٠٠

بنو عبد الله : ١٣٤

بنو غانية : ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ - ٢٣١ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧

بنو غانية المسرفون : ٢٢٤

بنو قحطان : ٣٩٨

بنو قحس : ٢٧٤ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٨٠

بنو قنن : ١٣٢

بنو كامل : ٢١٩

بنو محمد الطويل : ٣٦٠ ، ٣٦١

بنو منار : ١٢١

بنو مراحيق : ٤٣٧ ، ٤٤١

بنو مرين : ٩ ، ٢٢١ ، ٢٣٧ ، ٤٤٦ - ٤٤٩ ، ٤٥٢

بنو مزغنا : ١٩١

بنو المهلب بن أبي صفرة : ٨١

بنو نصر : ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٨ ، ٤٥١ ، ٤٥٥

بنو هاشم : ٣٨ ، ٣٤٣ ، ٣٤٦ ، ٣٦١

بنو هاشم التميميون : ٣٩٧

بنو حلال : ١٧٠

بنو هود : ١٩٣ ، ٤٢٢ ، ٤٢٤ - ٤٢٦ ، ٤٢٨ ، ٤٣٣

بنو واديين : ١٨٢

بنو وارشما : ١٨١ ، ١٩٢

بنو الورد : ٢١٩

بنو وطاس : ٢٣٧

بنو يهيش : ٣٩٩

بنو اليسع بن مدرار : ١٢٠

بنو يفرن : ١٥٣ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ٤١٢

الورثو ( قبيلة ) : ١٢١

البرقيون : ١٦٦

بنو نظيون : ٢٤ ، ٢٩ ، ١٠٣ ، ٣٢١

البيزطية ( دولة ) : ١٠٦ - ١٦٨



نارح ( قبيلة ) : ١٨١ ، ١٩٢ ، ٢٣١

التميميون : ١٩٣ ، ٣٤٦ ، ٣٦٠ ، ٣٩٧ ، ٤٢٤

الترك : ٤١ ، ٥٥ ، ١٣٥ ، ١٦٦ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦

التيوتون : ٣٧٢



جدالة ( قبيلة ) : ١٨١ - ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٩٢

جذال : ٢٠٠ ، ٢٢١

الحدييون : ١٨٣ ، ١٨٥

حلام ( قبيلة ) : ٣١٧

جرارة ( قبيلة ) : ٤٩ ، ٥٥

حمران ( شعوب ) : ٢٩٧

جشم ( قبيلة ) : ١٦٧

الحلائفة : ٣١٢ ، ٣١٣



الحصيون : ٩

الحصيون : ١١٣

حميد ( ملكة ) : ٢٨



ختم ( قبيلة ) : ٣١٧

خراسانيون : ٩٦ ، ١١٤ ، ٣١٧

الخسارج : ٦٨٠ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٥ - ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٥

الخسارج : ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١٠٨ ، ١١٤

الخسارج : ١١٥ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٢٩ ، ١٣١

١٢٣

خولان ( قبيلة ) : ٣١٧



دياب ( قبيلة ) : ٢٣٠

ديلم ( شعوب ) : ١٢٥٠



ربيعة ( قبيلة ) : ١٦٧

رستمية ( دولة ) : ٣٧٠٠

الرومان : ٢٤ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٦ ، ١٢٦ ، ١٤١

الروم : ٢٩ ، ٢١٠ ، ٢٣٠ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٣ - ٤٨

الروم : ٥١ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ١٠٣ ، ١٠٤

الصنجاويون: ١٦٠، ٧٩، ٨٦، ١٣٤، ١٤٢، ١٤٨،  
١٥٠، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٧، ١٥٩، ١٦٠،  
١٦٥، ١٧٠، ١٧١، ١٧٩، ١٨١، ١٨٧،  
١٩٠، ١٩٦، ٢١٠، ٢١٨، ٢٢٣، ٢٣١،  
٢٤٩، ٣٧٠، ٣٨٨، ٤١٣

صنهاجة الصحراء ٣٠  
صنهاجة المغرب ٣٠  
الصنواية (٢١)

### ط

طارقة (قبيلة): ٢٣١  
الطراوق ٢٢٩، ٢٣١  
الطراونيون ١٦٣  
الطراونة (دولة): ٦٥

### ع

العامسريون: ١٩٣، ٤١٠، ٤١٢، ٤١٣،  
٤١٦، ٤٢٢  
العابيون: ٧١، ٧٨، ٨٢، ٨٤، ٨٧، ٨٩،  
٩٥، ١١٥، ١٢٣، ١٢٥، ١٢٧، ١٣٥،  
١٣٧، ١٤٤، ١٤٩، ١٥٢، ١٥٦، ١٦٣،  
٢٢٣، ٢٢٧، ٢٨٧، ٣٠٦، ٣١٠، ٣٢٢،  
٣٢٧، ٣٤٣، ٣٦٩، ٣٧٣

العبييون ٣٧١، ٣٧٢  
العنابيون ٢٢٤  
عدى (قبيلة): ١٦٧، ١٧١

العصوب: ٢٨، ٢٩، ٣٤، ٣٨، ٤٧، ٤٩،  
٥٠، ٥٢، ٥٤، ٥٦، ٦٠، ٦٥، ٦٨، ٧٣،  
٧٤، ٨٠، ٨١، ٩٠، ٩٨، ١٠٥، ١٠٦،  
١١٤، ١٢٣، ١٣٤، ١٣٩، ١٥٦، ١٦٣،  
١٧٠، ١٧١، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٣٣، ٢٤٢،  
٢٦٨، ٢٧١، ٢٧٥، ٢٧٨، ٢٨١، ٢٩١،  
٢٩٦، ٢٩٦، ٣٠٣، ٣١٣، ٣١٧، ٣٢٩،  
٣٥٣، ٣٥٣، ٣٧٨

حرب افارقة: ١٣٣  
الحرب البلديون (حرب الانصار): ٧٠، ٧١، ٧٤،  
٧٧، ٨٨، ٩٦، ١٠٨، ١١٥، ١٣٣،

### ز

الزيريون: ٤٢  
زغبة (قبيلة): ١٦٧، ٢٣٠  
زناتة (قبيلة): ٢٩، ٣١، ٧٩، ١٥٣، ١٥٧،  
١٦١، ١٦٨، ١٧١، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦،  
١٧٩، ١٨٢، ١٨٤، ١٨٦، ١٩٠، ١٩١،  
٢٠٦، ٢٢٣، ٢٣٤، ٢٣٧، ٢٥٨

زناتة: ١٤٨، ٧٥  
الزنانسون ٩٠، ٣١، ٧٦، ٨٦، ٩٠، ١٥٥، ٢٩٦،  
٤١٣، ٤٤٦، ٤٤٧

زواودة (قبيلة): ١٦٧، ٢٣٠  
زواودة (قبيلة): ١٦٧

### س

السعديون ٢١٥  
سكتانة (قبيلة): ١٤١، ١٤٢  
السكرانيون ١٤٢  
الصلاحية: ١٦٦، ٤١٦  
السلال: ٣٠٧  
السيف ٢٢٧

### ش

الشاميين: ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٩٠،  
٣١٧، ٣١٠  
شعبة: ١٢٣، ١٣٦، ١٣٧، ١٤٤، ١٤٦، ١٦٤،  
٢١١

### ص

الصغرية: ٧٢، ٧٥، ٧٩، ٨٠، ٨٦، ٨٧، ١١٥،  
١٢٠، ١٣١، ١٣٢  
الصغالية: ٩٧، ١٤٧، ١٥١، ٣٠٣، ٣٠٧، ٣١٩،  
٣٣٨، ٣٣٦، ٣٦٨، ٣٩٠، ٣٩٢، ٣٩٩،  
٤١١، ٤١٣، ٤٢٢  
الصغاليون: ١٠٢، ١٠٤  
الصغاليون: ١٧٣، ٢٢٦، ٢٢٧، ٤٢٤، ٤٣٨،  
٤٤٩





## فهرس الكتب والمجلات

- تاريخ الرازي : ٢٤٦، ١٥  
تاريخ شعراء الأندلس : ٢٤٥  
تاريخ العرب للتصديق : ٤٥٥  
تاريخ علماء الأندلس : ٢٥٠  
تاريخ مسلمي إسبانيا : ١٩  
تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط : ٢٥٣  
البيان ( مذكرات الأمير عبدالله الزيري ) : ٤٣١  
التكملة لكتاب الصلة : ٢٥١
- ج**
- جذوة القيس في ذكر ولاء الأندلس : ٢٥٠  
حنه الرضا في التسليم عما قدر الله ونفى : ٤٥٥
- ح**
- الحلة السراء : ٢٥٢
- د**
- الندخيره في محاسن أهل الجزيرة : ٢٤٦  
الذبل الأبيض : ٢٥٦  
الذبل والتكملة لكتاني الوصول والنص : ٢٥٢
- ر**
- رحلة الوزير في الفكاك الأسر : ١٨٠، ١٧  
روعي القرمطاس في تاريخ المغرب وملوك فاس : ٢١
- ز**
- أبو زيد الهلالي ( ملحمة ) : ١٦٨
- ش**
- الشعر الأندلسي : ٢٤٤  
الشفا بالتعريف يحفوق المصطفى : ٢٤٩  
شمال مالك : ٨٦

- أ**
- الإحاطة في أخبار غرناطة : ٢٥٣  
الأخبار للجسومة : ٢٤٦  
أزهار إفريقيا في أخبار حياض : ٤٥٥، ٢٤٨، ١٦  
إسبانيا المقدسة : ٢٥٧  
الاستيعاب في معرفة الأصحاب : ٢١، ١٥  
أسد الغابة : ١٥  
الأسنية : ١٠١  
أز ما يطلب : ٢٥٥  
إعلام الأعلام بأعمال الأعلام عن بيع قبل الاحتلال : ٢٥٣، ١٦  
الأغاني : ٣٨٣  
الإمامة والسياسة : ١٨٠، ١٧  
الأندلس ( مجلة ) : ١٥  
آشودة رولان ( ملحمة ) : ١٦٩
- ب**
- بداية الجهد ونهاية المقصد : ٨  
البربر ( كتاب ) : ١٥٦٠  
بحة للشمس في تاريخ رجال الأندلس : ٢٥٠  
بلاد المغرب الشرقية : ١٥٦  
البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب : ٢٤٩  
البيان المغرب في تاريخ ملوك أفريقية والمغرب : ١٦، ١٩، ١٨  
البيان الواضح عن الملم الفادج : ٤٢٢
- ت**
- تاريخ ابن خلدون : ١٦  
تاريخ إسبانيا الإسلامية : ٢٥٣  
تاريخ إسبانيا العام : ٢٥٧  
تاريخ انتصاح الأندلس : ٢٤٦، ١٨  
تاريخ بني أمية في الأندلس : ٢٤٥

النبوة : ١١٣  
مصر وتاريخ التأريخ في المغرب والأندلس ( مقال )

١٨ :

المعجب في تلخيص أخبار المغرب ٣٠٦٠  
المعجم في أصحاب أبي علي الصديقي ١٣٥٠  
مفاخر البربر ٣٠٠

المقتبس في تاريخ الأندلس ٢٤٦ ، ٢٤٥ ، ١٥  
المنهل الصافي والمنعم في بعد الوالي ٢٥٠  
الوطأ : ١٠١

مونت أجودو ( مجلة أنطلسية ) : ٣٣٥

ن

نبذة للمصر في أخبار ملوك بني نصر : ٤٥٤

نزهة المشتاق في اختراق الأناق ١٠٥

نظم إحصاء ٢٠٦٠

نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب : ١٦ ، ١٥

١٨ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٤ ، ٤٥٥

نهاية الإرب ١٥

نهاية الأندلس : ٤٥٥

و

الوفاي بالوفايات ٢٥٠

وفيات الأعيان ٢٥٠

ص

مجلدات معهد الدراسات الإسلامية : ١٨

الصلة : ٢٥١

صلة الصلة : ٢٥١

ع

العمر ( ابن خلدون ) : ١٦٧ ، ١٧٠

العقد الفريد : ٣٤٢

ف

فروع مصر والمغرب والأندلس ١٦

فوات الوفايات : ٢٥٠

ق

قصة السيد ( مليحة ) : ١٦٦

ك

الكامل في التاريخ ١٥

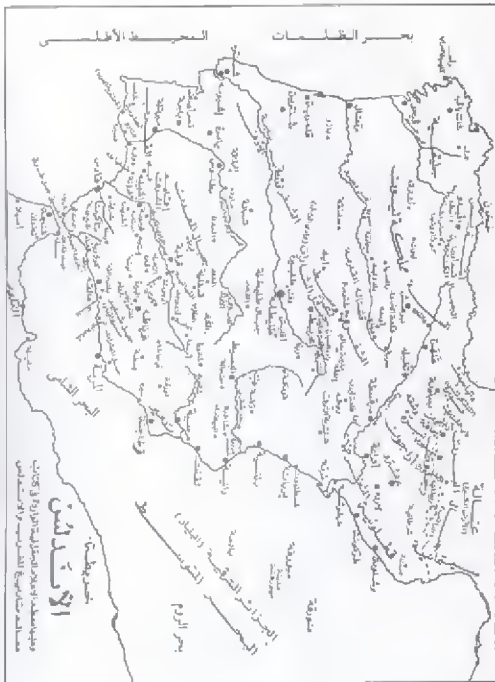
م

المين : ٢٤٦ ، ٢٤٥

★★★







خريطة رقم (٢)



خريطة رقم (٣)

# الفهرس

الصفحة

الموضوع

- ٥ تقديم للطبعة الجديدة
- ٧ مقدمة
- ١١ \* القسم الأول : المغرب من قبيل الفتح الإسلامي
- ١٣ - مدخل جيوغرافي : أهم موارد تاريخ المغرب الإسلامي
- ٢٣ - الغرب الإسلامي والمغرب الإسلامي
- ٢٤ - بلاد المغرب
- ٢٨ - سكان المغرب
- ٣١ - المغرب قبيل الفتح الإسلامي
- ٣٣ - جرجيريس أو جرجير
- ٣٤ - الفتح العربي
- ٣٤ - فتح برقة وطرابلس
- ٣٤ - موقعة سبيلة وفتح أفريقية
- ٣٧ - حملة معاوية بن حديج المكنوني
- ٣٨ - ولاية عقبة بن نافع الأولى على أفريقية
- ٣٩ - حملة عقبة بن نافع الأولى وتأسيس القيروان
- ٤١ - ولاية أبي المهاجر دينار
- ٤٢ - ولاية عقبة بن نافع الثانية على أفريقية
- ٤٦ - زهير بن قيس والقضاء على كسيلة
- ٤٧ - حملة حسان بن النعمان العسائي
- ٤٨ - الكاهنة
- ٥١ - تنظيم الإدارة الإسلامية في المغرب
- ٥٦ - إنشاء ميداء قرنس
- ٥٨ - ولاية موسى بن نصير
- ٥٩ - أعمال موسى بن نصير في أفريقية والمغرب
- ٦٥ - عصر الولاة
- ٦٩ - الفتنة المغربية الكبرى
- ٧٦ - المعاملة الأولى للعرب البليدين للسيادة على أفريقية

- ٨١ - محاولات الدولة العباسية للاحتفاظ بأفريقية ( المهالبة )
- ٨٣ - جهود يزيد بن حاتم في أفريقية
- ٨٣ - دخول المذهب المالكي إلى المغرب
- ٨٩ - نهاية عصر الولاة وبداية عصر الدول المحلية
- ٩١ - أفريقية من المهالبة إلى بني الأغلب
- ٩٥ - دولة الأغالبة في أفريقية
- ٩٦ - حكم إبراهيم بن الأغلب
- ٩٧ - إنشاء القصر القديم
- ١٠٠ - زيادة الله بن الأغلب
- ١٠٠ - فتح صقلية
- ١٠٣ - تدخل الأندلسيين بقيادة أصغر بن وكيل
- ١٠٦ - إبراهيم بن أحمد الأغلبي
- ١٠٧ - حصاره أفريقية والمغرب أيام الأغالبة
- ١١١ - الحياة الاجتماعية والفكرية في عصر الأغالبة
- ١١٤ - دولة المستعنيين في تاهرت
- ١٢٣ - الأدارسة
- ١٢٣ - الدولة الفاطمية في المغرب
- ١٤٠ - أبو عبد الله الشيعي
- ١٤٢ - الهجرة إلى تازويز وتحول الدعوة إلى حركة سياسية عسكرية
- ١٤٣ - قدوم عبيد الله المهدي
- ١٤٥ - خلافة عبيد الله المهدي
- ١٤٦ - بناء المهدي
- ١٤٩ - ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد
- ١٥١ - غزو مصر ثم الانتقال إليها
- ١٥٢ - تقدير الفترة الفاطمية في تاريخ المغرب
- ١٥٤ - دولنا بني زيري الصنهاجيين في المغرب الأوسط
- ١٥٤ - أبو الفتح يوسف بككين بن زيري
- ١٥٨ - أبو الفتح المنصور بن يوسف الصنهاجي
- ١٦٠ - نصير الدولة باديس بن أبي الفتح المنصور
- ١٦١ - المنعز بن باديس بن أبي الفتح المنصور

- ١٦٢ - انفصال دولتي بني زيري عن الفاطميين
- ١٦٦ - دخول العرب الهلالية بلاد المغرب
- ١٦٨ - تغريبة بني هلال ونشوء ملحمة أبي زيد الهلالي
- ١٧٢ - نهاية دولة بني حماد أصحاب القلعة
- ١٧٤ - دولتا بني زيري في الميزان
- ١٧٦ - الزاى فى العزوة الهلالية
- ١٧٩ - دولة المرابطين
- ١٨١ - صنهاجة الصحراء وتطلعها إلى التخلص من سيادة الزناتيين
- ١٨٣ - عبد الله بن ياسين
- ١٨٧ - استمرار مسيرة الحركة المرابطية
- ١٨٨ - انقسام القوة المرابطية إلى قسمين
- ١٨٩ - قيام دولة المرابطين فى المغرب والأندلس
- ١٩٢ - المرابطون يعبرون إلى الأندلس لنصرة الإسلام
- ٢٠٠ - نهاية دولة المرابطين فى المغرب والأندلس
- ٢٠٣ - دولة الموحدين
- ٢٠٣ - محمد بن تومرت
- ٢٠٧ - ابن تومرت ينشئ جماعة الموحدين فى تيممل
- ٢١١ - قيام الدولة الموحدية
- ٢١٤ - تقدير المرابطين
- ٢١٦ - حكم عبد المؤمن بن علي
- ٢٢٠ - خلفاء عبد المؤمن بن علي
- ٢٢٠ - أبو يعقوب يوسف
- ٢٢٣ - أبو يوسف يعقوب المنصور
- ٢٢٤ - ثورة بلى ضانية المصرفيين
- ٢٢٦ - جهاد المنصور فى الأندلس ، انتصار الأرك العظيم
- ٢٢٩ - خلافة أبي محمد عبد الله الناصر
- ٢٢٩ - ميلاد الدولة الحفصية ( نهاية بني غانية - الطوارق )
- ٢٣١ - موقعة العقاب وانهاض الجبهة الإسلامية فى الأندلس
- ٢٣٣ - الدولة الموحدية بعد هزيمة العقاب

- ٢٣٩ - انقسم الثنائي : الأندلس
- ٢٤١ - مدخل بيلوغرافي لتاريخ الأندلس
- ٢٤٤ - الرواية العربية
- ٢٥٤ - الأصول غير العربية
- ٢٦١ - الأندلس
- ٢٦٢ - اسم الأندلس
- ٢٦٧ - فتح الأندلس
- ٢٦٧ - تهديد : أحوال شبه الجزيرة الأيبيرية قبل الفتح الإسلامي
- ٢٦٨ - فتح الأندلس
- ٢٧٢ - دخول موسى بن نصير الأندلس واشترائه في الفتح
- ٢٧٧ - عصر الولاة
- ٢٧٨ - خلافات العرب فيما بينهم ونزاعهم مع البربر
- ٢٨٣ - أبو الخطاب وإنشاء الكور المجندة
- ٢٨٧ - قيام الدولة الأموية الأندلسية
- ٢٩١ - فنوح المسلمين شمالي جبال ألبرت في غالة ( فرنسا )
- ٢٩٩ - عصر تأسيس الدولة الأموية الأندلسية
- ٣٠٣ - نظرة عامة على حكم عبد الرحمن الداخل وأعماله
- ٣٠٩ - هشام الأول بن عبد الرحمن المعروف بالرحمنى
- ٣٠٩ - تحول مذهب مالك الأندلس
- ٣١٠ - التقليد الشامي
- ٣١١ - ميلاد حركة المقاومة النصرانية في شمال شبه الجزيرة
- ٣١٣ - إمارة الحكم الرشدي
- ٣١٥ - التطور الاجتماعي في الأندلس
- ٣١٧ - جماعة مولاي بني أمية
- ٣١٨ - بقة تكوين شعب الأندلس
- ٣١٩ - فتنة طليطلة ويوم الخندق
- ٣٢٠ - هيج الرشدي الأول والثاني
- ٣٢١ - بداية الاستقرار
- ٣٢٢ - غزوات النورمان
- ٣٢٤ - نشأة الأسطول

- ٣٢٥ - رهبان النصارى يحاولون إثارة فتنة دينية
- ٣٢٦ - وفاة عبد الرحمن الأوسط
- ٣٢٧ - الوزارة في الأندلس
- ٣٢٩ - الخطط : حطة القضاء
- ٣٣٠ - الفقهاء المشاورون
- ٣٣٠ - يحيى بن يحيى الليثي
- ٣٣٢ - الشخصيات الحضارية : زرياب
- ٣٣٤ - عباس بن فرناس
- ٣٣٥ - يحيى بن حكم الجبائي العراقي
- ٣٣٧ - التحول الحضاري في الأندلس في عصر عبد الرحمن الأوسط
- ٣٣٨ - زيادة مسجد قرطبة الجامع
- ٣٣٨ - في بلاط عبد الرحمن الأوسط
- ٣٣٩ - الشعر والموشح والزجل
- ٣٤٤ - الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط
- ٣٤٩ - ثورة عمر بن حفصون
- ٣٥٠ - الأمير عبد الله
- ٣٥٣ - عبد الرحمن الناصر وميلاد الخلافة الأموية الأندلسية
- ٣٥٤ - الوضع العام داخل الدولة عند ولاية عبد الرحمن الناصر
- ٣٥٨ - عبد الرحمن والثائرون في غرب الأندلس
- ٣٦٢ - عبد الرحمن الثالث وعلاقته مع ملوك قشتالة ونبيلونة
- ٣٦٣ - راميرو الثاني ملك ليون
- ٣٧٠ - عبد الرحمن الثالث والمغرب
- ٣٧١ - الخلافة الأموية القرطبية
- ٣٧٤ - إنشاء مدينة الزهراء وزيادة المسجد الجامع
- ٣٧٩ - تقدير عبد الرحمن الناصر
- ٣٨٣ - خلافة الحكم المستنصر
- ٣٨٣ - نهوض العلم في أيامه
- ٣٨٥ - سياسة الحكم المستنصر
- ٣٨٦ - حروب الحكم في المغرب



- ٣٩٠ - هشام المؤيد
- ٣٩١ - مصير الأندلس تحت رحمة الأوصياء على الخليفة القاهر
- ٣٩٦ - محمد بن أبي عامر يصبح السلطان الأعلى في الدولة
- ٣٩٣ - محمد بن أبي عامر ينشئ جيشاً خاصاً به من المرزقة
- ٣٩٤ - عزوات محمد بن أبي عامر
- ٣٩٥ - محمد بن أبي عامر ينخذ لقب الحاجب المنصور
- ٣٩٩ - الحزب العامري
- ٤٠١ - فقير المنصور
- ٤٠٥ - عبد الملك المظفر بن المنصور
- ٤٠٦ - عبد الرحمن المنصور
- ٤٠٧ - مقتل عبد الرحمن بن شحول وسقوط الغمرتين
- ٤٠٧ - ثورة قرطبة وبداية الفتنة الكبرى
- ٤٠٨ - الفتنة الكبرى
- ٤١٠ - معركة قنيس ، نهاية الجيش الأندلسي التقليدي
- ٤١١ - النزاع بين محمد بن عبد الجبار أمهدي وميثمان المستعين
- ٤١٥ - عصر الطوائف
- ٤١٥ - كيف بدأ عصر الطوائف ؟
- ٤١٨ - دولة دنى ذى النون في طليطلة
- ٤٢٢ - إمارة بلنسية
- ٤٢٣ - إمارة عرقصطة
- ٤٢٦ - إمارة إشبيلية
- ٤٣٠ - تنحل المرابطون
- ٤٣٢ - جهاد المرابطين في الأندلس
- ٤٣٥ - نهاية المرابطين في الأندلس
- ٤٣٧ - الموحدون في الأندلس
- ٤٤١ - دولة بنى نصر أو بنى الأحمر في غرناطة
- ٤٤٣ - قيام دولة غرناطة
- ٤٥١ - أبو الحجاج يوسف الأول
- ٤٥١ - مشيخة الغزاة
- ٤٥٢ - ولعة طريف

- ٤٥٣ - تدهور مملكة غرناطة
- ٤٥٤ - نهاية مملكة غرناطة
- ٤٥٧ - موارد مختارة
- ٤٥٧ (أ) الموارد العربية لتاريخ المغرب والأندلس
- ٤٦٤ (ب) مراجع غير عربية
- ٤٦٧ - الفهارس العامة
- ٤٦٩ - فهرس الإعلام
- ٤٨٦ - فهرس الأماكن والبلدان
- ٤٩٨ - فهرس القبائل والطوائف والآل
- ٥٠٤ - فهرس الكتب والمجلات
- ٥٠٧ - خريطة المغرب
- ٥٠٩ - خريطة الأندلس
- ٥١١ - خريطة صقلية
- ٥١٣ - فهرس موسوعات الكتاب



رقم الإيداع: ١١٦٥٦ / ٢٠٠٤  
I.S.B.N. 977 - 01 - 9115 - 9

طبعة خاصة  
تصدرها دار الرشاد  
ضمن مشروع مكتبة الأسرة